THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

893.718 t.p. missing.
J979

فاتحة الكتاب

للطبعة الاولى

حمداً لمن جعل اقاصيص الاولين عبرة للآخرين . أما بعد فلا ازيد اقارىء علماً بحد اتاريخ ولا بما له من المنزلة الرفيعة بين سائر العلوم ولا بما يترتب على الاقبال عليه من اصلاح الشؤون . وانما اكتفي بكونه اكثر ارتباطاً بمصالح خاصة الناس منه بمصالح عامتهم . فقادة التمدن ورجال السياسة وكبار المصلحين احوج الى معرفته من سائر افراد الامة . ولذلك رأينا ولاة الامور على اختلاف الازمان والاحوال يصرفون العناية في مطالعته وتفهم خفاياه ويبذلون النفيس في استطلاع مكنوناته وجمع شظاياه فتكاد لا ترى مؤرخاً من القدماء الا وقد أوعز اليه ولي الامر او من جرى مجراه ان يضع في التاريخ كتاباً . بل كثيراً ما رأينا من ولاة الامور انفسهم من ألف فيه كتباً غير مبال بما يقتضيه ذلك من تجشم المشاق ولا مستنكف من ان يقول الناس اذا اعتنى بما هو دون مقامه

ذلك كان شأن هذا العلم في الازمنة الخالية يوم لم يكن يتيسر لضعيف مثلي ان يطرق بابه او يخوض عبابه لقصر باعه عما يحتاج اليه في ذلك من المادة التي تمتنع الا على الملوك او المقربين منهم

أما الان فما يتباحث فيه الملوك صباحاً في مؤتمراتهم السرية باقاصي المغرب لايأتي عليه الضحى حتى يذيع بين الصانع والتاجر في اقاصي المشرق . والفضل في ذلك لاسلاك البرق وصحف الاخبار التي لم تغادر بين الخاصة والعامة حجاباً . فلا غرو والحالة هذه اذا تجرأ من كان عاجزاً مثلي على ان يضع في مثل ذلك كتاباً

ولما كانت المملكة المصرية من اقدم الممالك تمدناً واكثرها حوادث وطوارىء

ومحناً لكثرة ما تداول عليها من الدول المتباينة نزعة ولغة ووطناً كانت اجدرها بتدوين تاريخها عبرة للذين يعتبرون

وبما ان تاريخها بعد الفتح الاسلامي اكثر ارتباطاً بحالتها الحاضرة من تاريخها قبله كان اكثر فائدة واحوج الى التدوين وهذا ما ندعوه بتاريخ مصر الحديث

وقد قام من كتبة العرب وافاضلهم كثيرون اعتنوا بالكتابة عن مصر وتاريخها القديم والحديث وسيأتي ذكرهم وذكر مؤلفاتهم في الجزء الاول من هذا الكتاب عند الكلام عن مصادر تاريخ مصر الحديث . واحدث هذه المؤلفات « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة » تأليف العلامة الفاضل صاحب السعادة علي باشا مبارك ناظر عموم المعارف جعله عشرين جزءاً كبيراً وهو من التآليف التي لا يقدم على كتابتها الا اصحاب الهمم العالية والمعارف الواسعة . وقد كان عليه معتمدي واليه مرجعي في كثير من المواضيع ولا سيما فيما يتعلق بالشوارع والجوامع

ومن الغريب اني لم ارَ بين المؤرخين الذين كتبوا عن مصر من اعتنى بوضع تاريخ لها مستوف على اسلوب قريب من فهم العامة ورضى الخاصة تتعاقب فيه الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة كل ذلك بالدولة الاسلامية عموماً وسائر الدول المعاصرة . واغرب من ذلك اني لم ارَ بين مدارس القطر السعيد من اميرية وغير اميرية مدرسة تعتني بتدريس هذا التاريخ الذي هو تاريخ بلادها . ولعل السبب في ذلك عدم وجود الكتب الموضوعة على اسلوب مناسب للتدريس

وقد رأيت الناس يلهجون باحتياج البلاد الى مثل هذا التاريخ . فاخذت على نفسي مع علمي بعجزي ان ابذل الجهد في سد هذا العوز معتمداً على اصح الروايات واصدق الكتبة من ثقات المشرق والمغرب ملتزماً في كل ذلك صحة النقل وانتقاء اصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام العقلية واغفال كل ما هو مقول بغير قياس من التقاليد والخرافات

وقد عنيت اتماماً لمعدات التأليف بتفقد الآثار العربية بنفسي باذن من نظارة الاوقاف الجليلة . فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ولا سيما ما كان منها قديماً

كجامع عمرو وجامع ابن طرلون والجامع الازهر وجامع السلطان حسن وجامع السلطان برقوق وجامع قايت باي وجامع الغوري وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها وتسلقت ما صعب مسلكه منها ولا سيما اسوار القاهرة القديمة وابوابها كباب النصر وباب الفتوح وباب الشعرية وغيرها . ومن هذه الاماكن ما قد تداعت اركانه وصعب الصعود اليه الا بالمخاطرة . فكثيراً ما كنت اخاطر بحياتي لهذه الغاية . ومن الآثار العربية التي تفقدتها ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع قصر الشمع او دير النصارى في مصر القديمة ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين وغير هذه من الاماكن في القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها

اما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها ايضاً ولا سيما ما هو منها في مصر العليا مبتدئاً من اهرام الجيزة بجوار القاهرة الى ما وراء وادي حلفا آخر حدود مصر فزرت خرائب سقارة واسنا وطيبة والكرنك وبيبان الملوك وجبل السلسلة وانس الوجود وابا سنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية فاتريب فغيرها . وفي مصر العليا فضلاً عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات وبنايات بناها المماليك أو غيرهم في حال محاربتهم حكومة البلاد او دفاعهم عنها

كل هذه الاماكن تفقدتها جيداً اتماماً لمعدات التأليف . ولما توفرت لدي المواد اللازمة باشرت تأليف هذا الكتاب ودعوته « تاريخ مصر الحديث » من الفتح الاسلامي الى هذه الايام . ثم رأيت ان الفائدة لا تتم الا اذا جعلت في مقدمته ملخص تاريخ مصر القديم ربطاً للحوادث بعضها ببعض وبتزيينه بالرسوم والخارطات وايضاحات اخرى . فجاء بحمد الله كتاباً في جزئين كبيرين وهاك ملخص ما تضمنه :

١ فذلكة في تاريخ مصر القديم من أول عهدها الى الفتح الاسلامي

٢ تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامي الى هذه الايام وهو مقسوم الى دول تحتها خلافات او سلطنات أو امارات مرتبة حسب ازمان حكمها فيبدأ بدولة الخلفاء الراشدين فبني امية فالعباسيين وهكذا حتى العائلة المحمدية العلوية الحاضرة

٣ وفي الكتاب زهاء مائة رسم بينها رسوم الجناب العالي والمغفور له محمد علي

باشا والخديوي السابق و بونابرت ورعمسيس الثاني وتحوتمس الثالس وامنوفيس الثالث وغيرهم . و بين هذه الرسوم أيضا معظم النقود الاسلامية ولا سيما المضروبة في مصر منذ صدر الاسلام الى اليوم . ورسوم اخرى كحجر رشيد وآلة المصريين وخرائب المطرية وانس الوجود وادفو وغيرها

٤ وفي ذيل الكتاب جدول عام لاسماء الذين تولوا مصر من الامراء والخلفا والسلاطين والباشوات من الفتح الاسلامي الى اليوم مرتبة حسب ازمان حكمهم و بجانب ذلك عدد الصفحة التي ذكرت فيها تولياتهم من هذا الكتاب . ثم اذا كانوا امراء أو ولاة يذكر بازاء ذلك اسماء الخلفاء أو السلاطين الذين تولوا البلاد باسمهم

٥ في خاتمة الكتاب فهرس ابجدي عام لكل ما ورد في هـذا الكتاب من المواضيع المهمة كالفتوحات والمحاربات والبنايات والتقلبات واسماء الخلفاء والسلاطين والامراء والباشوات وغيرهم ممن حكموا مصر . هذا فضلاً عن فهرس خاص لكل من جزئي الكتاب

٦ قد جعلت للكتاب فضلاً عن الرسوم المتقدم ذكرها اربع خارطات وهي : اولاً خارطة مدينة القاهرة كما هي الان . ثانياً خارطة مصر السفلى . ثالثاً خارطة مصر العليا . رابعاً خارطة القطر المصري قبل الفتح الاسلامي

وقد عنيت في ضبط هذا التاريخ وربط حوادثه جهد الطاقة مغفلاً كثيراً من الروايات التي ترجح فسادها بعد النظر والتروي متحاشياً الالفاظ المستهجنة والتعبيرات المعقدة ما امكن متخذاً افضل اسلوب تفهمه العامة وترضاه الخاصة بغير اخلال ولا املال . راجياً من اصحاب النقد ان ينظروا اليه بعين الرضى اذ العصمة لله وحده سبحانه وتعالى

يقال في الامثال « من الف فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان اساء فقد استقذف » اما انا فان احسنت فان الفضل لافاضل الكتبة وثقات الرواة الذين سبقوني لاني لم آت بشيء من عند نفسي ما خلا الحوادث التي قدر لي ان اكون فيها شاهد عين وما تفقدته بنفسي من الاثار العربية والمصرية . وان اسأت فذلك دأب العاجز . ولكني ارغب الى من يعثر لي على خطأ ان ينبهني اليه فاشكر سعيه واثني عليه

لاني استحيي من الحق اذا عرفته ان لا ارجع اليه . او يعذرني فان اعقل الناس اعذرهم للناس . ولا اقول ان كل خطإٍ سهوٌ جرى به القلم بل اعترف ان ما اجهل اكثر مما اعلم . وما تمام العلم الا لمن علَّم الانسان ما لم يعلم

هذا وارجو ان تصادف خدمتي هذه لدى اخواني ابناء هذا القطر السعيد قبولاً واقبالاً واتقدم الى رجال العلم منهم ان يتحفونا من نفثات اقلامهم بما هو أوفر مادة واجزل نفعاً . لاني اعلم ان بين ظهرانيهم رجالاً لهم من العلم وسعة المعرفة ما يوهلهم لما هو افضل من ذلك كثيراً . فتتم سعادة البلاد ونكون قد قمنا ببعض الواجب علينا نحوها ونحو اميرها الخطير سمو خديوينا المعظم محمد توفيق باشا الافخم ادام الله ايامه باسمة الثغور في ظل صاحب الخلافة العظمى مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان أيَّد الله ايام دولته بالعز والاقبال وادام شوكته واقتداره ما تكرر الجديدان

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٨٨٩ فلاقت اقبالاً حسناً نشطنا على المثابرة في خدمة العلم . وما زلنا من ذلك الحين ونحن نزداد معرفة في احوال مصر ونتتبع تاريخها . فلما عزمنا على اعادة الطبع اضفنا الى الطبعة الاولى زيادات هامة في مواده ورسومه فضلاً عن زيادة التدقيق والتحري وهاك مزيات هذه الطبعة

١ انها اقرب الى الدقة والتحقيق

٢ تحتوي على تاريخ بضع وعشرين سنة لم تدركها الطبعة الاولى

٣ قد توسعنا في اكثر المواد وخصوصاً في القسم الاخير وعلى الاخص في تاريخ الاسرة الخديوية وما جرى في ايامها من الحوادث العظام . كالتقلبات السياسية التي جرت في زمن محمد علي . وما ادخله هذا الرجل العظيم من الاصلاحات العلمية والاقتصادية والسياسية والتجارية . وفعلنا مثل ذلك في ازمنة خلفائه الى اليوم . ويدخل فيه علاقات مصر مع الدول على زمن اسماعيل باشا والحوادث العرابية والسودانية في

زمن الخديوي السابق وما كان من النهضة العلمية والمالية والسياسية في زمن سمو الخديوي الحالي . ويصح ان يقال اننا كتبنا تاريخ الدولة الخديوية ثانية ونظرنا فيه من الوجهة السياسية والعلمية والاقتصادية مع التوسع والتدقيق . فاصبح الكتاب اكبر حجماً واوسع مادة

٤ زيناه بنيف ومئتين من الرسوم والخرائط وبينها رسوم مشاهير مصر وغيرها في السياسة والعلم والاصلاح وصور اهم المواقع التي جرت فيها الحوادث بمصر والشام . وآلات الحرب والحصار واشهر الآثار البنائية فضلاً عن النقود الاسلامية والآثار المصرية القديمة . ومن الخرائط خريطة مصر في زمن الفراعنة والوجه البحري اليوم ورسم القاهرة على اختلاف اعصرها وخرائط بغداد والخرطوم وام درمان وغيرها

فنرجو ان تصادف خدمتنا قبولاً والله حسبنا ونعم الوكيل

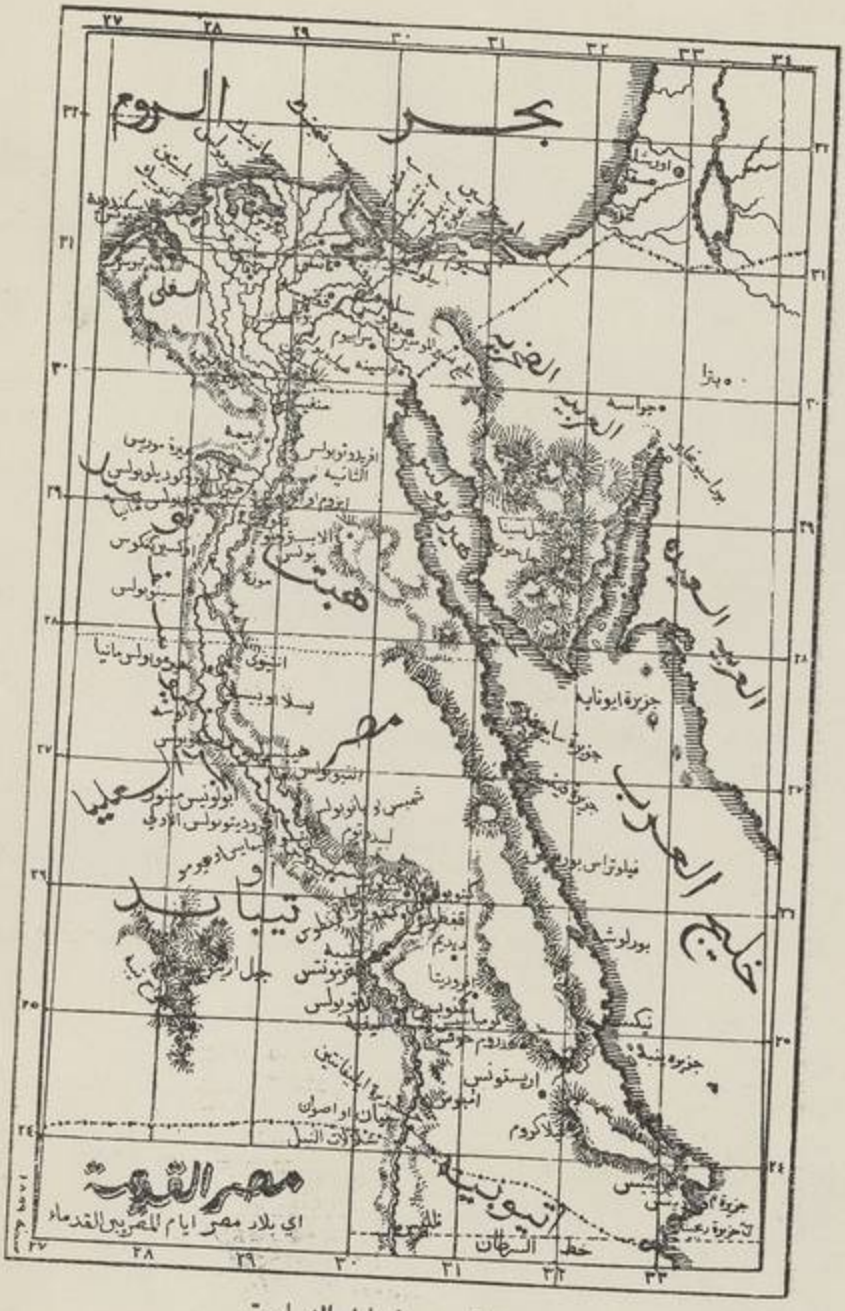

خريطة مصر في ايام الفراعنة

اقسام تاريخ مصر العام

يبدأ تاريخ مصر العام عند اقامة اول حكومة نظامية فيها وقد علم من مصادر مختلفة سيأتي ذكرها . ان اول حكومة اقيمت من هذا النوع كانت في اول القرن الستين قبل المسيح اي منذ نحو سبعة الاف سنة على وجه التقريب

اما قبل ذلك الحين فكانت قبائل مستقلة تحت سلطة فئة من الكهنة يقال لهم بلغة مصر القديمة « حورشسو » وهم آخر من حكم المصريين قبل الدولة الملكية الاولى التي اول ملوكها « مِنا » وهو اول من اقام في وادي النيل حكومة نظامية ومنه يبتدئ تاريخها

وقد قسم المؤرخون تاريخ مصر العام بالنسبة الى تمدنها الى ثلاثة ادوار كبرى وهي:

١ الدور الجاهلي . يبتدئ عند اول دخولها في سلك الممالك سنة ٥٦٢٦ ق ه او ٥٠٠٤ ق م وينتهي سنة ٢٤١ ق ه او ٣٨١ ب م . وذلك عند ما نهى الامبراطور ثيودوسيوس عن عبادة النصب والتماثيل وامر باتباع الدين المسيحي

٢ الدور المسيحي . يبتدئ عند شيوع سنة ثيودوسيوس وينتهي عند فتوح الاسلام سنة ١٨ ب ه او ٦٤٠ ب م

الدور الاسلامي . يبتدئ عند فوح الاسلام ولا يزال

اقسام الدور الجاهلي

يقسم هذا الدور الى خمس دول تسلط في اثنائها على مصر ٣٤ عائلة وهي :

١ الدولة الملكية القديمة — تبتدئ بتسلط العائلة الاولى وتنتهي بانتهاء العائلة العاشرة اي (من ٥٦٢٦ — ٣٦٨٦ ق ه) او من ٥٠٠٤ — ٣٠٦٤ ق م ومدة حكمها ١٩٤٠ سنة

٢ الدولة الملكية الوسطى — تبتدئ بالعائلة الحادية عشرة وتنتهي بانتهاء العائلة السابعة عشرة (من ٣٦٨٦ - ٢٣٢٥ ق ه) او (من ٣٣٢ — ١٧٠٣ ق م) ومدة حكمها ١٣٦١ سنة

٣ الدولة الملكية الاخيرة — تبتدئ بالعائلة الثامنة عشرة وتنتهى بانتهاء العائلة الحادية والثلاثين من ٢٣٢٥ - الى ٩٥٤ ق ه) او (من ١٧٠٣ — ٣٣٢ ق م) ومدة حكمها ١٣٧١ سنة

٤ الدولة اليونانية — تبتدئ بالعائلة الثانية والثلاثين وتنتهي بانتهاء العائلة الثالثة والثلاثين (من ٩٥٤ — ٦٥٢ ق هـ) او (من ٣٣٢ — ٣٠ ق م) ومدة حكمها ٣٠٢ سنة

٥ الدولة الرومانية ـ ويسميها العرب دولة الروم وهي العائلة الرابعة والثلاثون الرومانية (من ٦٥٢ ـ ٢٤١ ق هـ) او (من ٣٠ ق م ـ ٣٨١ ب م) ومدة حكمها ٤١١ سنة

الدور المسيحي

اما الدور المسيحي فهو عبارة عن استمرار الدولة الرومانية بعد ثيودوسيوس الى فتوح الاسلام (من ٢٤١ ق هـ ـ ١٨ ب هـ) او (من ٣٨١ ـ ٦٤٠ ب م) ومدته ٢٦٠ سنة

اقسام الدور الاسلامي

يقسم الدور الاسلامي الى اثنتي عشرة دولة وهي

١ دولة الخلفاء الراشدين (من ١٨ ـ ٤١ ب هـ) او (من ٦٤٠ ـ ٦٦١ ب م)

٢ الدولة الاموية (من ٤١ ـ ١٣٢ ب هـ) او (من ٦٦١ ـ ٢٥٠ ب م)

٣ الدولة العباسية للمرة الاولى (من ١٣٢ ـ ٢٥٧ ب هـ) او (من ٧٥٠ ـ ٨٧٠ ب م)

٤ الدولة الطولونية (من ٢٥٧ ـ ٢٩٢ ب هـ) او (من ٨٧٠ ـ ٩٠٥ ب م)

٥ الدولة العباسية في المرة الثانية (من ٢٩٢ ـ ٣٢٣ ب هـ) او (من ٩٠٥ ـ ٩٣٤ ب م)

٦ الدولة الاخشيدية من ٣٢٣ ـ ٣٥٨ ب هـ) او (من ٩٣٤ ـ ٩٦٩ ب م)

٧ الدولة الفاطمية (من ٣٥٨ ـ ٥٦٧ ب هـ) او (من ٩٦٩ ـ ١١٧١ ب م)

٨ الدولة الايوبية (من ٥٦٧ ـ ٦٤٨ ب هـ) او (من ١١٧١ ـ ١٢٥٠ ب م)

٩ دولة المماليك الاولى (من ٦٤٨ ـ ٧٨٤ ب هـ) او (من ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ ب م)

١٠ دولة المماليك الثانية (من ٧٨٤ ـ ٩٢٣ ب هـ) او (من ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ ب م)

١١ الدولة العثمانية (من ٩٢٣ ـ ١٢١٦ ب هـ) او (من ١٥١٧ ـ ١٨٠١ ب م)

١٢ الدولة المحمدية العلوية (من ١٢١٦ ـ ب هـ او ١٨٠١ ب م ولا تزال)

ويقسم تاريخ مصر العام ايضاً الى قسمين عظيمين قديم وحديث . اما القديم فمن اول تاريخها الى الفتح الاسلامي ويشتمل على الدورين الاولين الجاهلي والمسيحي . والحديث منذ الفتح الاسلامي الى هذا اليوم ولا يزال

مصادر تاريخ مصر القديم

ما زال تاريخ مصر القديم محجوباً عنا حتى اتيح لابناء القرن الماضي حل رموز الكتابة الهيرغليفية (القلم المصري القديم) على ان تاريخ العهد القديم لم يخل من بعض التلميح الى ذلك مما لم يكن من النصوص التاريخية ما يعضده وما زال ذلك شأن تاريخ مصر القديم الى القرن السابع قبل المسيح عند استيلاء اليونان على وادي النيل . ومن مصادر تاريخ مصر القديم :

١ نصوص المؤرخين القدماء

ان هيرودوتس الرحالة المؤرخ اليوناني هو اقدم من كتب عن مصر ما يصحُّ ان يسمى نصاً تاريخياً وقد جال هذا المؤرخ في وادي النيل سنة ٤٥٥ قبل الميلاد

وبعد هيرودوتس ظهر مانيتوس احد كهنة المصريين العظماء في القرن الثالث قبل المسيح وكتب تاريخاً نفيساً عن مصر لكنه فقد ولم يصلنا منه الا بعض ما ذكره يوسيفوس في آثار الاسرائيليين وما كتبه سنسلوس احد كتبة القرن الثامن . ثم جاء ديودوروس من صقلية سنة ٨ قبل المسيح . ومن هؤلاء الثقات سترابو العالم الجغرافي وبلوتارخس المؤرخ الذي ظهر في القرن الاول المسيحي . واما قائمة اسماء الملوك المانيثون فقد وجدت بين ما كتبه بعض المؤرخين المسيحيين . ويقال بالاجمال انه لم يكتب عن مصر شئ جدير ان يدعى نصاً تاريخياً الا منذ القرن الخامس قبل المسيح

٢ الآثار

واعلم ان ما كتبه اولئك المؤرخون لم يفدنا شيئاً صريحاً عما وراء القرن السابع قبل المسيح . اما الآثار ـ تلك الاطلال البالية التي نراها ميتة لا حراك بها وقد بقيت رغم

تقلبات الزمان وافعال العناصر فانها تنطق بافصح لسان وتنادي باجلى بيان عن عظمة صانعيها فتخبرنا عن تاريخهم وتوضح امامنا ايضاً عاداتهم واخلاقهم ومكانتهم من الحضارة وعلو الهمة ورفعة المنزلة . فقد نقشوا عليها من الرسوم والرموز ماجعلها كتاباً مزيناً بالرسوم والاشكال لا تحرقه النار ولا يخرقه الفار

هذه الهياكل العظيمة والمسلات الشامخة والتماثيل الهائلة هذه المدافن هذه الاهرام هذا ابو الهول بل هذه الجثث الباليـة تراها صماء وقد افعم الاحياء نطقها وقد كلفت بالحياة وعلقت آمالها بالمعاد فابتنت لانفسها البنايات الشاهقة القويمة العماد تبقى معها في عالم الخلود تقصُّ على القادمين اقاصيص الاقدمين . وجميع هذه تعدُّ من وثيق المصادر التاريخية

الكـتابة الهيروغليفية

يظهر ان ملوك الروم اثناء تسلطهم على مصر لم يكترثوا بهذه الكتابة بل اهملوها شأن اكثر المفتتحين بلغة من يتسلطون عليهم فبقيت محجوبة تغشاها دواعي الجهل الى ايام الحملة الفرنساوية في اوائل القرن الماضي اذ أتيح لاحد رجالها ان يحل بعض رموزها . وقام بعده جماعة اعتنوا بحلها فأتوا على فهمها جيـداً بحيث امكنهم قراءة ما كتب بها على البردي (البابيروس) والاحجار فخدموا التـاريخ خدمة تستحق الاعتبار وهاك كيفية توصلهم الى حلها بالايجاز

لما قدم نابوليون الاول الى مصر اكتشف احد رجاله سنة ١٧٩٩ بالقرب من ثغر رشيد حجراً اسود غير منتظم الشكل الا سطحاً منه كان مستوياً املس في اعلاه كتابة بالقلم المصري القديم (الهيروغليف) تحتها كتابة اخرى بالقلم العـامي او الديموطيقي وتحت هذه كتابة ثالثة باليونانية القديمة فأهدي هـذا الحجر الى مجمع العلوم الفرنساوي في القاهرة ولما تغلب الجنرال هتشنسون الانكليزي على جنود بونابرت وضع يده على ذلك الحجر ثم اهدي الى المتحف البريطاني في لندرا ولا يزال هناك . وقد شاهدناه في ذلك المتحف سنة ١٨٨٧ في صدر الآثار المصرية محفوظاً في صندوق غطاؤه من زجاج اما طول ذلك الحجر فثلاث اقدام وقيراطان وعرضه قدمان وخمسة قراريط

وفي سنة ١٨٠٢ رسمت جمعية العاديات صورته وفرقتها في جمهور العلماء لينظروا في قراءتها فقرأوا اولاً الكتابة اليونانية بسهولة فاذا مفادها ان كهنة منف كتبوها

للملك بطليموس ابيفانيس سنة ١٩٤ ق م يشكرونه لما اسبغه عليهم من النعم الجزيلة وانهم وضعوا منها نسخة في كل هيكل من هياكل الطبقة الاولى والثانية والثالثة بجانب تمثال ذلك الملك

ثم ان العلماء وفي مقدمتهم العالم الفرنساوي ده ساسي حاولوا قراءة الكتابة الديموطيقية وغاية ما وصلوا اليه انهم عينوا مواقع الاعلام في الكتابة المصرية المقابلة للاعلام اليونانية . ثم عين العلامة اكربلاد الاسوجي لفظ بعض الاعلام في القلم المصري العامي . اما الهيروغليف فلم يطمع احد منهم في حله الى ذلك الحين

وفي سنة ١٨١٨ شرع العالم فرنسوا شمبيليون الفرنساوي في حل هذه الكتابة بعد ان درس اللغة القبطية وجغرافية مصر القديمة وكل ما كتبه المتقدمون عن مصر والمصريين. وكان بلزوني الايطالي قد عثر في جزيرة البربة على مسلة مصرية عليها كتابة يونانية وارسل صورة الكتابة الى اوروبا . فلما رآها شمبيليون ارتأى ان الكتابة اليونانية هي ترجمة الكتابة المصرية . ثم رأى في الكتابة اليونانية اعلاماً واسماء الاعلام لا تترجم فتوسم في ذلك سبيلاً الى معرفة لفظ بعض الحروف المصرية . ووجد في الكتابة المصرية نقوشاً محاطة بخط اهليلجي وقرأ في الكتابة اليونانية اسم بطليموس مكرراً مراراً كثيرة فاستنتج من ذلك ان النقوش الهيروغليفية المتقدم ذكرها هي اسم بطليموس وزاد تأكيداً عند ما رأى ذلك الاسم وارداً في الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدي ويقابله في الكتابة الهيروغليفية هناك نقوش محاطة بخط اهليلجي كالنقوش التي على المسلة تماماً وبناء على ذلك تكون الصورة الاولى ضمن الخط الاهليلجي

ش ١ — كليوبطرا

ش ٢ — بطليموس

تقابل الحرف الاول من بطليموس اي الباء والثانية تقابل الحرف الثاني اي الطاء وهلم جرًّا . ووجد ايضاً في الكتابة اليونانية اسم كليوبطرا ويقابله في الكتابة المصرية نقوش ضمن خط اهليلجي . فقال شمبيليون بنفسه اذا كانت الاولى بطليموس فتكون

هذه كليوبيطرا واخذ بالمقابلة مستعيناً باللغة القبطية لانها بقية اللغة المصرية القديمة فرسم امامه الشكلين اللذين ظنهما اسمي بطليموس وكليوبيطرا وجعل يقابل الاحرف المماثلة في الاسمين كاللام والباء وغيرهما فاذا بها متماثلة تماماً في الشكلين بمواقعها في الاسمين وترى في الشكل الاول والثاني صورتي اسم كليوبيطرا وبطليموس في القلم الهيروغليفي

فالحرف الاول من اسم كليوبيطرا صورة ركبة . واسم الركبة في اللغة القبطية يبتدئ بحرف الكاف فهو حرف الكاف . والحرف الثاني صورة اسد . واسم الاسد يبتدئ في اللغة القبطية بحرف اللام فهو صورة حرف اللام وهو الحرف الرابع في اسم بطليموس لان الثالث بمثابة الحركة . والحرف الثالث من اسم كليوبيطرا صورة قصبة . وهو الحرف السادس والسابع في اسم بطليموس فهو بمثابة الالف او الياء . واسم القصبة في اللغة القبطية يبتدئ بالالف . والحرف الرابع صورة عقدة وهو حرف الواو . والحرف الخامس مثل الحرف الاول من اسم بطليموس فهو حرف الباء . والسادس صورة نسر . واسم النسر في القبطية يبتدئ بالالف فهو حرف الالف . والسابع صورة يد واسم اليد في القبطية يبتدئ بحرف الطاء . والثامن صورة فم . واسم الفم في القبطية يبتدئ بحرف الراء فهو حرف الراء . والتاسع تقدم ذكره والعاشر مثل الثاني في بطليموس فهو طاء او تاء . والحادي عشر لاحرف له باليونانية وقد عرف بعد ذلك انه علامة تلحق آخر الاسماء المؤنثة . وفي اسم بطليموس حرفان هما الخامس والثامن لم يردا في اسم كليوبيطرا . فالاول هو الميم والثاني هو السين . وعلى هذه الصورة تمكن شمبليون من معرفة كثير من حروف الهجاء وقراءة كثير من الكتابات المصرية القديمة في تسع سنوات كلها بحث وجد . واعلم ان الكتابة الهيروغليفية ليست واحدة فان من صورها ما هو حروف ومنها ما هو مقاطع او كلمات . ومبلغ عددها كلها

هذا من قبيل حل الالفاظ اما المعاني فعرفت بالمقابلة باللغة القبطية نحو الالف وببعض ما كان يكتبه المصريون القدماء من الرموز التي تدل على اشباهها كدلالة صورة الرجل على الرجل وما شاكل ذلك

ومن المؤلفات الحديثة التي استعنت بها في فذلكة تاريخ مصر القديم كتاب العقد الثمين لاحمد بك كمال ومصر لمري وعادات المصريين لويلكنس وغيرها

جغرافية مصر القديمة

وهي جغرافيتها في ايام الدول المصرية القديمة

تدعى مصر في اللغة المصرية القديمة وفي اللغة القبطية « خم » او « ارض خم » ومعناها الارض السوداء نسبة الى لون تربتها وهذا ما يذكرنا بحام ونسله . وكان يدعوها الشعب العبراني « مصرايم » ومعناها « المصران » ومنها اسمها في العربية اليوم . اما معنى تسمية العبرانيين لمصر فنظنه مشتقاً من قولهم « صر » في العبرانية ومعناها الشدة والضيق « ومِصَر » اسم مكان من صر اي مكان الشدة . ولعلها اشارة الى ما قاساه الشعب العبراني من الشدة والاضطهاد في هذه البلاد الى عهد موسى . اما كونها على صيغة المثنى فربما نتج عن تسميتهم اولاً احد قسمي مصر البحري والقبلي بهذا الاسم ثم جعلوه على صيغة المثنى للدلالة على القسمين معاً والله اعلم . اما اليونانيون فكانوا يسمونها « ايجبتوس » ومنها اسمها في لغات اوروبا الحديثة « ايجبت »

ويستفاد من مصادر تاريخ مصر القديم ان القطر المصري كان يقسم الى قسمين عظيمين الواحد يدعى ارض الشمال او الوجه البحري والآخر ارض الجنوب او الوجه القبلي . وكان الوجه البحري ممتدًا من منف (البدرشين وميت رهينة) الى البحر المتوسط ويدعوه اليونان « الدلتا » لمشابهته بحرف الذال Δ عندهم . اما الوجه القبلي فيمتد جنوباً من منف الى جزيرة الفنتين مقابل اصوان وهذا ما ندعوه اليوم بارض الصعيد . وكان من القاب ملوك مصر القدماء قولهم « سلطان البرين » اشارة الى تسلطه على الوجهين البحري والقبلي

وكل من هذين القسمين يقسم عندهم الى اقسام دعاها اليونان « نومس » اي مقاطعات ومجموعها في الوجهين معاً يختلف عددًا باختلاف الرواة . فقد ورد في القوائم المصرية القديمة انها ٤٤ وقال استرابو وديودورس انها ٣٦ والمعول عليه انها ٤٢ منها ٢٠ في الوجه البحري و٢٢ في القبلي ولكل منها عاصمة مختصة بها فيها مقر الحاكم ومركز العبادة . وهاك جدولاً يتضمن اسماء المقاطعات باليونانية واسماء عواصمها بالمصرية واليونانية والعربية

مقاطعات الوجه القبلي

عواصمها

اسماء المقاطعات باليونانية	بالمصريه القديمة	باليونانية	بالعربية
١ اوبيتس	ابو	امبوس	كوم امبو
٢ ابولينوبوليتس	تب	ابولينوبولس مانيا	ادفو
٣ لاتوبوليتس	نخب	لاتوبولس (ايليثيا)	اسنا « الكب »
٤ هرموثيتس	هرمونت	هرمونثس	ارمنت
٥ باثيريتس			القرنة
٦ ديوسبولتس	نوامن	ديوسبولس مانيا	الكرنك والاقصر
٧ كوبتيتس	كوبتي	كوبتوس	قفط
٨ تنتيريتس	تنتيرير	تنتيرا	دندره
٩ ديوسبوليتس	ها	ديوسبولس بارفا	هو
١٠ ثينيتس	ابدو	ثيس . ابيدوس	البربة . العرابة المدفونة
١١ بانوبوليتس	ابو	بانوبولس	اخميم
١٢ افروديتوبوليتس	تبو	افروديتوبولس	العطف
١٣ انتوبوليتس	نيانتباك	انتيوبولس	قاو الكبير
١٤ هبسيليتس	شاسحوتب	هيبسليس	شدب
١٥ ليكوبوليتس	سوت	ميكوبولس	اسيوط
١٦ انتينوبيتس		انتينووبولس	الشيخ عباده
١٧ هرموبوليتس	خمونو	هرموبولس مانيا	اشمونين
١٨ سينوبوليتس	كوسا	سينوبولس	القيس
١٩ اوكسيرينخيتس	بيماسا	اوكسيرنخيس	بهنسا
٢٠ هيراكليوبوليتس	خينتسو	هيراكليوبولس	اهناس المدينة
٢١ ارسينويتس		كروكوديتوبولس	مدينة الفيوم
٢٢ افروديتوبوليتس	تيباه	افروديتوبولس	عطفية

حجر رشيد

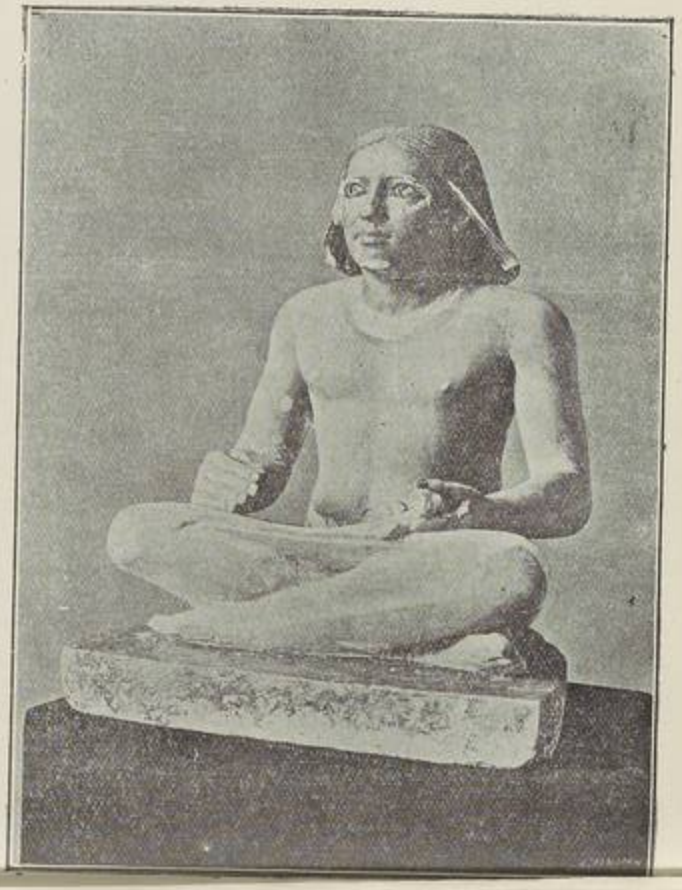

مقاطعات الوجه البحري

عواصمها

اسماء المقاطعات باليونانية	بالمصري القديم	باليونانية	بالعربية
١ ممفيتس	منوفر	ممفيس	ميت رهينة
٣ ليتوبوليتس	سوخم	ليتوبولس	
٣ ليبيا	نياتهابي	ابيس	
٤ سايتس	زوكا	كانوبوس	
٥ سايتشس	صا	سايس	صا الحجر
٦ خويتس	خسون	خويس	سخا
٧ متليتس	سونتينوفر	متليس	فوه
٨ سيثرويتس	ثوكوت	سيتروي	
٩ بوسيريتس	بيوسير	بوسيرس	بوصير
١٠ اثريبيتس	حانا حيراب	اتريبس	تل اتريب . بنها العسل
١١ كاباسيتس	كاهبيس	كاباسا	كوم شباس
١٣ سبنيتس	ثبنوتر	سبنيتوس	سمنهود
١٣ هيليوبوليتس	انو	اون . هيليوبولس	المطرية
١٤ تانيتس	زوان	تانس	صان
١٥ هرموبوليتس	بيثوت	هرموبولس بارفا	دمنهور
١٦ منديسيوس	بيبنبداد	مندس	اشمون
١٧ ديوسوليتس	بيخون ان امن	ديوسبولس	
١٨ بوباستيتس	بياست	بوباستس	تل بسطة (زقازيق)
١٩ بثينستس	بيوتو	بوتو	
٢٠ فربثيتس	كوسم	فاربيثوس	هربت

ويظهر ان هذين القسمين الكبيرين جعلا بعد ذلك ثلاثة عرفت بمصر العليا والوسطى والسفلى . فمصر العليا تدعى ايضاً باليونانية « ثيبايد » نسبة الى ثيبس (طيبة) وتمتد من آخر الحدود القبلية الى ديروط . والوسطى يدعوها اليونان « هبتانومس » اي ذات السبع المقاطعات وتمتد من ديروط الى رأس الدلتا . والسفلى تمتد من رأس الدلتا الى البحر المتوسط . وقسمت مصر السفلى في آخر عهد اليونان الى اربعة اقاليم كبيرة تحت كلٍ منها عدة مقاطعات

ودعيت مصر السفلى في ايام اركاديوس ابن ثيودوسيوس الاعظم « اركاديا » نسبة اليه . وقسمت مصر العليا ايضاً الى قسمين او اقليمين دعيا ثيبايد العليا وثيبايد السفلى تفصل بينهما اخميم او ما يجاورها . وتكاثر عدد المقاطعات في آخر ايام اليونان حتى بلغ ٥٧ مقاطعه منها ٣٤ في الدلتا فقط

ثم ان بين ملوك مصر القدماء من وسع نطاق المملكة الى ما وراء اصوان وعلى الخصوص العائلة الخامسة والعشرون لان ملوكها كانوا اثيوبيين فامتد حكمهم الى جبل برقل . اما في حكم اليونان فبلغت حدود المملكة المصرية الى موغرا كا وراء وادي حلفا

ديانة المصريين القدماء

زعم بعض قدماء المؤرخين ان المصريين القدماء كانوا من عبدة الاوثان مستدلين على ذلك بما شاهدوه من التماثيل العظيمة التي اقيمت للعبادة . ولكن ظهر بعد استطلاع اسرار لغتهم وقراءة ما كتبوه على هياكلهم وفي كتب موتاهم انهم ليسوا من الوثنية على شيء وان هذه التماثيل انما اقاموها في بادئ الرأي تمثيلاً لبعض صفات الله حقيقي غير منظور ولكن الزمان ارخى على تلك الحقيقة حجاب التقاليد والخرافات فاصبح القوم لايعرفون من معبوداتهم الا تلك الحجارة الصماء التي هي من صنع ايديهم . على ان الحقيقة لم تكن محجوبة عن حكمائهم وكهنتهم

اما آلهتهم فعديدة واسماؤها مختلفة وصورها متنوعة مرجعها جميعاً الى الهين اصل هذه التنوعات وهما « فتاح » في منف ويقصدون به الخالق العظم و « رع » في طيبة الاقصر) وهو الشمس . وهذا الالاهان هما اقدم آلهة المصريين ويرجعان الى اولهم

لانهم يعتبرون الشمس تمثالاً للاله الحقيقي الذي هو الخالق . ثم انتشرت هذه الديانة واتقنت صناعة البناء والرسم فاقاموا في كل مدينة تمثالاً لاحد هذين الالهين او لكليهما وكانوا يسمونها باسماء مختلفة . فتعددت الاشباه ثم نسي المقصود الاصلي وبقيت الظواهر ومن جملة دواعي تعدد الالهة انهم كانوا يجعلون للشمس مثلاً اسماء تختلف باختلاف مواقعها من خط مسيرها فدعوها « هرمخيس » عند شروقها واقاموا لها ابا الهول تمثالاً . و« رع » عند ما تكون في خط الهاجرة . و « توم » عند الغروب و « اوزيريس » عند الظلام اي عند ما تكون في العالم السفلي وجعلوا لكل من هذه الحالات تمثالاً مخصوصاً . وقس على ذلك ما بقي من الالهة الكثيرة التي اقاموا منها محاكم سماية وجعلوا من بينها قضاة وكتبة وجنوداً

وفي اثناء ذلك استنبطوا المثلثات الالهية فكانوا يضمون ثلاثة آلهة الى اله واحد . منها مثلث مؤلف من الآلهة اوزيريس وايزيس وهوروس وهو المعروف بمثلث منف والمتأمل في صورها يرى ان الاول اشبه برجل والثاني بامرأة والثالث بصبي

وبين آلهة المصريين تفاوت في الدرجات فعندهم ثمانية آلهة من الدرجة الاولى في منف وهي فتاح وشو وتفنووست ونوت واوزيريس وازيس وهوروس . ولهم عن هذه الآلهة وغيرها اخبار وخرافات مطولة لا حاجة الى ذكرها هنا وانما نذكر فيما يلي اسماء اهم الالهة المصرية مع ذكر ميزات كل منها بقدر الامكان بحيث يمكن لمن يشاهدها في الآثار المصرية ان يميز احدها من الاخر وتسهيلاً لفهم تلك الميزات نقسمها الى قسمين بحسب نوع رؤوسها

اولاً . ذوات الرؤوس البشرية . ثانياً . ذوات الرؤوس الحيوانية . والرؤوس البشرية اما ان تكون رؤوس ذكور او اناث . والرؤوس الحيوانية اما ان تكون رؤوس طيور او حيوانات اخرى

فالآلهة ذات الرؤوس البشرية للذكور سبعة وهي

١ « فتاح » يمتاز بكونه على شكل جثة محنطة (مومية) وفي يديه صولجان وليس على رأسه شيء يمتاز به

٢ « أمن » او « رع » على هيئة رجل منتصب وعلى رأسه قبعة مبلطحة تنتهي بريشتين غليظتين مستطيلتين بيده

ش ٣ — أمن رع

الواحدة مفتاح وبالاخرى عصا كما ترى في الشكل الثالث وقد يكون على شكل جثة محنطة جالساً على كرسي وعلى راسه القبعة المتقدم ذكرها وفي يده نمشة وعقافة وصولجان . ويدعى في هذه الحالة « امن اوزيريس » (ش ٥)

٣ « هوروس » صبي على رأسه تاج مزدوج يراد به تاجا الوجهين القبلي والبحري . يده اليسرى في فيه وفي يده اليمنى مفتاح صليبي الشكل وقد يكون هوروس برأس طير كما سيجيء

٤ « خم » جثة محنطة ويده اليمنى مرفوعة وحاملة زاوية كبيرة

٥ « اوزيريس » جثة محنطة على رأسه تاج مصر العليا بريشتي نعام واحياناً بغير ريش . وفي يده النمشة والعقافة واحياناً الصولجان ايضاً . وقد يكون على راسه هلال فية قرص الشمس كما ترى في الشكل الخامس

ش ٤ — ايزيس

٦ « سب » يمتاز ببطة واقفة على رأسه

٧ « توم » على رأسه شعر طويل مكلل بزهرة حبقوق او بريشة . وقد يكون على راسه تاجا مصر العليا والسفلى

اما الآلهة ذوات الرؤوس البشرية الانثوية فهي

١ « ايزيس » على راسها طاقية تشبه النسر فوقها تاجا مصر العليا والسفلى بيدها الواحدة مفتاح وبالاخرى صولجان كما ترى في الشكل الرابع وقد يكون على راسها قرنان بينهما قرص الشمس وفوق القرص ما يشبه تاجي مصر

٢ « ما » آلهة الصدق على راسها ريشة واحدة منتصبة وعلى عينيها غالباً غطاء يشبه العوينات

٣ « موت » (ام الجميع) على راسها طاقية بشكل النسر وفوقها تاجا مصر العليا والسفلى وقد يكون لها راس نسري

٤ « نيث » على راسها احياناً مكوك واحياناً تاجا مصر العليا والسفلى

٥ « نفثيس » على راسها الطاقية النسرية وفوقها مايشبه البرج

ش ٥ — اوزيريس

والآلهة برؤوس الطيور هي

١ « هوروس » قد تقدم ذكره بين ذوي الرؤوس البشرية وقد يكون ذا راس حيواني كراس الصقر وفوقه التاجان

٢ « خونس » (الشمس المشرقة) راسه كراس الصقر فوقه هلال فيه قرص الشمس

٣ « رع » (شمس الهاجرة) راسه كراس الصقر ايضاً عليه قرص الشمس فوقه ثعبان

٤ « توت » (اله القلم) راسه كراس اللقلق عليه احياناً هلال في وسطه ريشة

وهذه آلهة برؤوس حيوانات اخرى

١ « بشت » (حبيبة فتاح) تمتاز براس الهر واحياناً براس الاسد عليه قرص الشمس فوقه ثعبان

٢ « عتور » يمتاز براس كراس البقرة بين قرنيها دائرة البدر

٣ « كنوم » او « كنف » يمتاز براس كبش عليه اكاليل وتيجان

٤ « انوبيس » يمتاز براس كراس ابن آوى

وللمصريين القدماء آلهة كثيرة غير هذه قد امسكنا عن ذكرها حباً بالاختصار

فذلكة

في تاريخ مصر القديم

لما فكر قدماء المصريين في وضع تاريخ لامتهم تتبعوا الحوادث الى مصادرها وجمعوا ما كان لديهم من التقاليد الموروثة بالتلقين اباً عن جد واستطلعوا سير ملوكهم الاقدمين فوصلوا الى الملك «منا» فاذا هو اول من حكم ونظم. ولما لم يعثروا على ما كانت عليه مصر قبله فرضوا ثلاث عائلات وهمية زعموا انها تسلطت على مصر بالتوالي وانتهت ببداية الدولة الملكية القديمة التي اول ملوكها «منا» ودعوا العائلة الاولى عائلة المعبودات ويقال لها العائلة المقدسة. والثانية دعوها الشبيهة بالمقدسة والثالثة الكهنة «الحورشسو» ويزعمون انهم اجدادهم

ونقتصر في ما يلي على خلاصة تاريخ مصر القديم ونبدا بالملك منًّا. ونجري في بوبيه على مقتضى التقسيم المتقدم ذكره فنبدأ بالدور الجاهلي فالمسيحي ونقسم كلاً منهما لى عائلات كما ستراه

الدور الجاهلي

الدولة الملكية القديمة

العائلة الاولى الطينية

حكمت من سنة ٥٦٢٦ — ٥٣٧٣ ق هـ او من ٤٠٠٤ — ٤٧٥١ ق م وعدد ملوكها ٩

اوّل ملوكها الملك « مِنًا » او « مِينس » — وهو اول من حكم مصر بعد الكهنة « الحورشسو » نشأ في طينة (بقرب العرابة المدفونة بجوار جرجا) والظاهر انه كان من الكهنة فثار في خاطره امر الاستقلال بالملك فقاومه الكهنة فتغلب عليهم فترك وطنه واسس مدينة « منف » (البدرشين وميت رهينة) وجعلها سرير ملكه وانشأ حولها جسراً يعرف الآن بجسر قشيشة وحوّل مجرى النيل الى شرقيها وكان يجري لجهة صحراء ليبيا . فعمرت منف واخصبت فشاد فيها الهياكل والمعابد واقام تماثيل الالهة . فاذا زرت خرائب سقارة وشاهدت تمثال رعمسيس الثاني ملقىً في البركة الشرقية لميت رهينة اعلم ان بقرب ذلك التمثال كان باب الهيكل الذي بناه هذا الملك لمعبوده « فتاح » وما زالت منف مركز التمدن الى عصر اليونان . ومما يذكر عنه انه فتح ليبيا فاتسعت مملكة مصر في ايامه وكان رفيقاً برعاياه على ما اعتادوه ولم يسلب الكهنة شيئاً من حقوقهم في قبائلهم . على انه لم ينج من ايقاعهم به فزعموا انه اضرّ بالعبادة من حيث تقاعد الناس في ايامه عن الزهد واحدثوا انواع الترف فكانوا يتناولون طعامهم وهم مضطجعون على اسرّتهم

وقام بعد « منا » اخوه « تتا » فأسس القصر الملوكي في منف وكان عالماً بالطب ولا سيما التشريح فكتب فيه رسالة جددت كتابتها في عهد رعمسيس الثاني

ومن ملوك هذه العائلة « ونيفس » حصلت في ايامه مجاعة وهو الذي بنى هرم « كوكمه » بقرب الهرم المدرج في سقارة لدفن ما كانوا يعبدونه من الثيران في عصره فان صح ذلك كان هذا الهرم اول ما بني من الاهرام في مصر ولم يبق من العائلة الاولى من يستحق الذكر

العائلة الثانية الطينية

حكمت من ٥٣٧٣ — ٥٠٧١ ق هـ او من ٤٧٥١ — ٤٤٤٩ ق م وعدد ملوكها ٩

نشأت في طينة ايضاً والمظنون ان بينها وبين العائلة الاولى قرابة

من ملوكها « كايه خوس » اجاز عبادة الحيوانات فاقام الثور « أبيس » في منف والثور « منيفس » في مدينة الشمس (المطرية) . وقام بعده « بينوتريس » فجعل للنساء حق الحكم على سرير الملك اذا لم يكن للملك المتوفى اولاد ذكور . وزعم ان الملك نائب الالهة في الاحكام وادّعى ان بينه وبين الالهة نسباً وما زال الملوك بعد ذلك يدّعون مثل دعواه الى عهد اليونان

ومن ملوكها « استنس » كان عالماً وطبيباً فاتمّ الرسالة الطبية المتقدم ذكرها. واعلم ان الملك « منا » لم يقوَ في حياته على اخضاع جميع القبائل المصرية لحكمه ولا ان يجعل مصر امة واحدة . اما العائلة الثانية فلم تتهِ حتى جعلت ذلك امراً مفعولاً

العائلة الثالثة المنفية

حكمت من ٥٠٧١ — ٤٨٥٧ ق هـ او ٤٤٤٩ — ٤٢٣٥ ق م وعدد ملوكها ٩

كانت طينة قبل ظهور الملك « مِنا » مدينة العلم والحكمة ومحط رحال المنعة والسلطة . فلما بنيت منف تحول كل ذلك تدريجاً اليها وما زالت تحط شيئاً فشيئاً حتى انقرضت بانقراض العائلة الملكية الثانية

اما العائلة الثالثة فاوّل ملوكها « نخروفس » وفي اول حكمه تمردت ليبيا وشقت عصا الطاعة فسامها الرضوخ فابت فأدى به الامر الى تحكيم السيف وكانت المعركة في ليلة مقمرة يقال ان الليبيين رأوا تلك الليلة دائرة القمر تتسع على غير المعتاد فخيل لهم ان ذلك من غضب الآلهة على اعمالهم فالقوا السلاح وسلموا . وقام بعده الملك « توسرتوس » وكان عالماً بالطب فوضع فيه كتباً تداولها الناس الى القرن الاول للتاريخ المسيحي

اما من بقي من ملوك هذه العائلة فلم يصلنا من اخبارهم سوى ان المملكة زهت في ايامهم فتكاثرت مبانيها واقيمت فيها النصب الهائلة اعظمها ابو الهول التمثال المشهور بعظمه القائم الى هذا العهد قرب اهرام الجيزة ويسمى بلغتهم « خورميخي » اي شمس الافقين جعلوا جسمه جسم اسد ورأسه رأس انسان اشارة الى اجتماع القوة والتعقل

شيخ البلد

مصور مصري يلون تمثالاً حجرياً

واشباه هذا التمثال كثيرة في الآثار المصرية بين ما حجمه هائل الكبر كابي الهول الذي يبلغ طوله ٢٠ متراً تقريباً وعرضه اربعة امتار وما لا يزيد عن حب المرجان حجماً كانوا يصنعونه من العقيق حلية للعقود . ومن آثارهم ايضاً الهيكل الكائن الى جنوبي اهرام الجيزة بجوار ابي الهول ويعرف بالكنيسة وهو مبني من الحجارة الصوانية الضخمة ولهم ايضاً آثار اخرى كمدافن ومحاريب وغيرها

ومن ملوك هذه العائلة ايضاً « سنغرو » عمدت الى ذكره لما عرف به من العدل والبر وما اوتي من العزم والقدرة على الفتوح فقهر اهل جبل العور واستولى على ارضهم وبنى فيها حصوناً ومعاقل واحتفر آباراً جعل فيها رجالا يستخرجون معادنهم ونقش رسمه على حجر في وادي مغارة . ويقال انه لما عاد الى مصر ابتنى لنفسه هرماً لم يعلم مقره الى الآن

العائلة الرابعة المنفية

حكمت من ٤٨٥٧ — ٤٥٧٣ ق هـ او من ٤٢٣٥ — ٣٩٥١ ق م وعدد ملوكها ١٤

اعظم ملوك هذه العائلة واحقها بالذكر الملك « خوفو » كان بناءً ماهراً ومحارباً باسلاً فبنى اعظم اهرام الجيزة الذي تفتخر به مصر على سائر الامصار . ويقال ان الذين اشتغلوا في بنائه مائة الف رجل في ثلاثين سنة كانوا يتناوبون كل ثلاثة اشهر . وبنى له جسراً موصلاً بينه وبين ضفة النيل لنقل الحجارة . وارتفاع هذا الهرم ٤٥٠ قدماً وبعض القدم وعرضه ٧٤٦ قدماً وهو من جملة عجائب الدنيا يقصده السياح والمتفرجون الى هذا العهد

ونحت « خوفو » عدة تماثيل للآلهة ورمم بعض الهياكل وقال بعضهم انه كان عاتياً يبخس الناس حقهم ويهتضم اجورهم لانه ابتنى هرمه على نفقة الفعلة المساكين على انه لم يكن على شيء من ذلك وربما بنى المعنفون قولهم على انه كان يستخدم الاسرى مجاناً وتلك عادة كانت متبعة في ذلك العهد

ومن ملوك هذه العائلة « خفرع » وهو الذي بنى الهرم الثاني في الجيزة بجانب هرم « خوفو » وسماه « أُر » اي العظيم ارتفاعه ٤٤٧ قدماً وعرض قاعدته ٦٩٠ قدماً وبعض القدم . ولم ينج هذا من السنة القاذفين فقد كان وسلفه « خوفو » مضغة في افواه المرجفين وقد بلغت قحتهم الى ان اخرجوا جثتيهما من هرميهما وكسروا تابوتيهما ورموا بالجثتين الارض اهانة واحتقاراً . وقد وجد في المعبد بجوار الاهرام

سبعة تماثيل من الحجر الصوان مصنوعة على مثال ذلك الملك بغاية الدقة وهي الآن في المتحف المصري

ومن ملوكها « منكورع » بنى الهرم الثالث من اهرام الجيزة وسماه « حور » اي الاعلى جعل ارتفاعه ٢٠٣ اقدام وعرض قاعدته ٣٥٢ قدماً وبعض القدم . وقد كان حظ هذا الملك من الشعب غير حظ سالفيه لانهم بالغوا في مدحه كثيراً . ويقال انه ارسل ابنه ليطوف في الهياكل المصرية ويرمم ما كان منها في احتياج الى الترميم

وكان « منكورع » عالماً عاملاً في الدين والادب وقد وجدت جثته محنطة في تابوت من الصوان في هرمه المتقدم ذكره فحاولت الدولة الانكليزية نقلها وتابوتها الى متحفها فغرقت بها السفينة على مقربة من البورتغال ولم يبق الا الجثة وغطاء التابوت وهو مصنوع من خشب الجميز

ومن ملوكها ايضاً « سبسكاف » ويسميه مانيثون « سبرخرس » وهذا بنى الايوان الغربي بمعبد فتاح بمنف وهو اعظم ايوان فيه وكان محباً للعلوم فقيهاً . ويقال انه ابتدع فن الهندسة ورصد الكواكب وسن قانوناً للقرض من مقتضاه انه يجوز للانسان ان يرهن مدفن ابيه على مبلغ يستدينه وللدائن الحق في استخدام المدفن حتى يفيه الفلس الاخير

العائلة الخامسة الاصوانية

حكمت من ٤٥٧٣ — ٤٣٢٥ ق م او من ٣٩٥١ — ٣٧٠٣ ق م وعدد ملوكها ٩

منهم « سحورع » او « سفرس » بنى هرماً شمالي قرية ابي صير وله في وادي مغارة لوح لا يزال هناك محفورة عليه صورته منصوراً على اعدائه . وبعد وفاته عبده المصريون زمناً طويلاً

ومن ملوكها « نفراركارع » او « نفرخرس » اتسع نطاق العلم في ايامه وعمرت البلاد وقد بنى هرماً لا يعرف مقره

ومن ملوكها « اعنوسر » وهو اول من اضاف الى اسمه لقب عائلته « آن » فصار « عنوسرآن » غزا جزيرة جبل الطور وانتصر عليها ونقش صورته على حجر هناك وبنى هرماً في ابي صير ودفن فيه بعد موته . وكان في عصر هذا الملك رجل يدعى « تي » بنى مقبرة بديعة الاتقان وهي المقبرة المشهورة في سقارة على يسار المدفن المعروف ببربة « ايبس » يقصد المتفرجون من كل الانحاء لما فيها من الدقة وبديع الصنعة وجميل

النقوش وتعداد الرسوم . وكان هذا الرجل صهر الملك وصاحب دولته وله رسم محفوظ في المتحف المصري

ومن ملوكها « ددكارع » اكتشف المعادن في وادي مغارة وابتنى هرماً لم يعلم مكانه ولرجال دولته عدة مقابر في سقارة

ومن ملوكها « اوناس » او « انوس » بنى هرماً في سقارة الى الجنوب الغربي من الهرم المدرج ترى حوله كثيباً من الرمال والحصى قد تراكمت هناك عند ما حاولوا فتحه سنة ١٨٨١ مما تساقط من كسائه الخارجي . وكان عرض قاعدته ٢٢٠ قدماً ولا يبلغ هذا القدر الآن لما لحقه من الهدم والتساقط وذلك لانهم كانوا يعتقدون ان في هذه الاهرام كنوزاً فيحاولون فتحها هدماً . ولما هدموا هذا الهرم بعد المشقة لم يجدوا فيه الا تابوت الملك من المرمر الاسود وذراعه الايمن وساقه وقطعاً من اكفانه

العائلة السادسة الاصوانية

حكمت من ٤٣٢٥ — ٤١٢٢ ق هـ او من ٣٧٠٣ — ٣٥٠٠ ق م وعدد ملوكها ٦

من ملوك هذه العائلة « مريرع » اتخذ جزيرة اصوان سريراً لمملكته التي كانت شاملة لسائر القطر المصري . ومن ذلك الحين جعلت منف تنحط . وكان له وزير اشتهر بالدراية والحكمة فعهد اليه بنظارة الاشغال فقام باعبائها حق القيام فتضاعفت المحصولات ولهذا الوزير حجر في متحف بولاق منقوش عليه ما يفهم منه شيء من سيرته . ومن اعمال « مريرع » انه فتح طريقاً تجارية بين قفط والبحر الاحمر وخط مدينة في مصر الوسطى واصلح معبد دندره وفتح بلاد الشام واستولى عليها كل ذلك مدون نقشاً على حجر وزيره المتقدم ذكره . وخضعت له النوبة وليبيا والحبشة وطورسينا وهو اشهر ملوك هذه العائلة

ومن ملوكها « مرنرع » الاول ابن المتقدم ذكره ويسمى « سوكرمساف » وهو اول من اصطنع سفينة في مصر بهمة ودراية وزيره الذي كان وزيراً لابيه قبله

ومن ملوكها ايضاً الملكة « نيتوقريس » كذا دعاها مانيثون وقال انها كانت اجمل واكمل اهل عصرها . وكانت مع ذلك ذات حيلة ومكر فكان لها اخ اتخذته بعلاً فقتله بعض رجال دولته قبل توليتها الملك . فلما تولت اخذت تسعى في طلب الثار فاصطنعت سرداباً تحت الارض يصل بين النيل ومحل اعدته لوليمة دعت اليها نفراً من الاعيان ورجال الدولة ومن جملتهم القاتل فلما التأم الجمع واشتغلوا بالوليمة فتحت باب السرداب

من جهة النيل فسار الماء فيه الى قاعة الوليمة فاغرق جميع من كان هناك . أما هي فاسرعت من غيظها والقت نفسها في الرماد الحار فماتت

وفي ايام هذه العائلة أُتقنت الرسوم على اسلوب خاص بحيث ان من تعود معاينة الآثار المصرية يقدر على تعيين اي رسم كان من رسوم هذه العائلة

العائلات السابعة والثامنة المنفيتان والتاسعة والعاشرة الاهناسيتان

حكمت من ٤١٢٢ — ٣٦٨٦ ق هـ او من ٣٥٠٠ — ٣٠٦٤ ق م

لم يعلم ما الداعي لطموس اخبار هذه العائلات على انه قد علم ان قاعدة العائلتين الاوليين كانت منف والأُخريين اهناس وربما وجد في اهناس المدينة شيء من آثارهم الا انها على كل شيء لا تستحق الذكر

الدولة الملكية الوسطى

العائلتان الحادية عشرة والثانية عشرة الطيبيتان سريرهما طيبة

حكمتا من ٣٦٨٦ — ٣٤٧٣ ق هـ او من ٣٠٦٤ — ٢٨٥١ ق م وعدد ملوكها ٢٤

اول ملوك العائلة الحادية عشرة « انتف ع » لم يكن من ذوي العصبة الملكية انما كان من عمال ملوك اهناس المدينة في الوجه القبلي . على انه كان مهوباً لسطوته وعلو همته . بنى هرماً من الطين في الجهة المعروفة بذراع ابي النجا بمديرية قنا وجعل في وسطه ضريحاً متقناً دفنت فيه جثته في تابوت غطاؤه مطلي بالذهب استخرجه اهل تلك الناحية وذهبوا به . فلما توفي قام ابنه « منتوحتب » فجعل نفسه من مصاف الملوك وليس له من الآثار ما يذكر به

ومن هذه العائلة ايضاً « انتف الرابع » تمكن بحكمته وبطشه من الاستيلاء على الوجه القبلي رغماً عن ملوك اهناس واستقل بالحكم عليه وعلى آسيا الشمالية . وقد قال « اني استوليت على الوجه البحري » ولا مثبت لقوله . ومن مآثره انه جدد بنايات رفيعة العماد في جهة قفط استعملت انقاضها في هذه الايام لبناء قنطرة . ولما مات دفن في ذراع ابي النجا . وقد وجدوا من آثاره مسلة بالقرب من العرابة المدفونة

وتولى بعده « منتوحتب الرابع » ولقب « بخررع » وهذا بالحقيقة نزع الوجه البحري من ملوك اهناس وما زال يقاتلهم حتى استقل بالملك جميعه فكل من قبل هذا من هذه العائلة لم يكونوا ملوكاً مستقلين

وتولى بعده « سنخ كارع » ومن عظيم اعماله انه انفذ « حنو » احد رجاله فاتم الطريق الموصلة بين مصر وبلاد العرب التي شرع فيها مريرع المتقدم ذكره جعل فيها خمس محطات فيها عيون من الماء فيتم بها التواصل مع بلاد العرب والهند وشبه جزيرة العرب وما زالت هذه الطريق كذلك الى عصر اليونان فالروم

ومن خصائص ملوك هذه العائلة انهم كانوا يرسمون فوق توابيت موتاهم اشكالاً مجنحة يلونونها بالوان مختلفة زعماً منهم ان احدى معبوداتهم « ايزيس » كانت ترفُّ على اخيها « اوزيريس » ناشرة جناحيها حنوًّا ومعظم آثار هذه العائلة في ذراع ابي النجا لا يزال محجوباً

اما العائلة الثانية عشرة فابتدأت بدور جديد . فقد كانت مصر قبلها منقسمة غالباً الى حكومات متعددة في وقت واحد اما في ايامهم فانضمت جميعها تحت لواء واحد قاعدته مدينة طيبة

اول ملوك هذه العائلة «امنمحعت الاول » كان من اتباع الملك منتوحتب الثالث وبسميه مانيثون « امنمس » فلما استتب له الملك قاتل الذين كانوا يكدرون صفو راحة مصر وهم عصب من اهالي ليبيا والنوبة وآسيا تجمعوا لقتاله حول قلعة تاتوى غربي منف فحاربهم حتى انتصر عليهم وطردهم واستولى على منف . وكان عاقلاً حكيماً وشجاعاً مدرباً استخرج المعادن من بلاد النوبة واخضع عدة اقاليم من بلاد الزنوج وغيرها

وقبل وفاته ولى ابنه « اوسرتسن الاول » ويدعوه مانيثون « سيسونخوسيس » وهو صاحب المسلة المشهورة في المطرية التي طولها عشرون متراً وبعض المتر نصبها امام هيكل الشمس المدعو « اتوم » اجلالاً لذلك الهيكل ومعبوده ونصب بجانبها مسلة اخرى شاهدها عبد اللطيف البغدادي وقد فقدت ولم يبقَ لها اثر الآن . اما الاولى فلا تزال باقية منقوشاً عليها بالقلم المصري القديم ما ترجمته ملخصاً « ان الملك المنصور حياة كل موجود سلطان الوجه القبلي والبحري (خبر كارع) صاحب التاجين وسلالة الشمس (اوسرتسن) المحب لمعبودات المطرية دام بقاه قد نصب هذا الاثر في مبدأ العيد الرسمي تخليداً لذكره واحياء لهذا العيد » انظر الشكل السادس

فاذا زرت قرية المطرية الان ووقفت بجانب مسلتها ترى حولك بقعة من الارض

فيها بعض الزرع طولها ٤٥٦٠ قدماً بعرض ٣٥٦٠ محاطة بتلال متلاصقة كانها سور من تراب . يقول ماريت ان هذه البقعة ليست مساحة المدينة وانما هي مساحة الحوش الكبير الذي كان امام هيكل الشمس وجاء على ذلك بادلة تقرب من الصواب

ونصب اوسرتسن ايضاً مسلة اخرى فيما يحاذي قرية بجيج بجهة الفيوم وقد ظن بعض المؤرخين مستنتجاً من سياق حكاية كتبها احد معاصري هذا الملك انه الفرعون الذي حصلت في ايامه المجاعة على عهد يوسف بن يعقوب غير ان الجمهور على خلاف ذلك لعدم مطابقة الزمن بين ما هو في العهد القديم وهذا التاريخ . ويقال بالاجمال ان

ش ٦ — مسلة المطرية

هذا الملك يعد من اول المؤسسين لهيكل طيبة « الاقصر » وقبل وفاته امر مهندسه الخاص ان يبني له مقبرة فبناها وجعل في داخلها عدة غرف اقامها على اعمدة وجعل فيها حوضاً متصلاً بالنيل وصنع لها ابواباً ومسلات ووجهة من حجر طرا الابيض

ومن ملوك هذه العائلة « اوسرتسن الثاني » ويسميه مانيثون « سيزوستريس »

ترك آثاراً كثيرة قلما يستفاد منها شيء عن تاريخه وغاية ما علم منها ان مملكة مصر كانت في عصره محافظة على شوكتها متسعة النطاق

ومن ملوكها ايضاً « اوسرتسن الثالث » وكان رجلاً حازماً مقداماً واشتهر بهذه الصفات فارتفعت منزلته في قلوب الاهلين فعبدوه ومن اعماله انه جرد على السودان (اثيوبيا) وما وراءها لتوسيع نطاق مملكته . وشاد في وادي حلفا قلاعاً منها قلعتان تعرفان الان « بقمنة » و « سمنة » لمنع الاعداء من مصر لا تزال تشاهد في اطلالها الجداران الشامخة والبروج العالية والخنادق وكان في داخلها معابد وعدة مساكن دُمرت الان

وقد وجد الباحثون حجرين كانا منصوبين على حدود مصر الجنوبية. ذلك مافهم مما هو مكتوب عليها . وبعد وفاة هذا الملك بخمسة عشر قرناً اي في عصر العائلة الثامنة عشرة شاد « تحوتمس الثالث » معبداً في سمنة وكتب عليه ابتهالات كان يتلوها المصريون في ذلك الحين . ولهذا الملك هرم في دهشور

ومن ملوك هذه العائلة « امنمحعت الثالث » ولهذا الملك يد بيضاء في امر النيل وفيضانه في اقليم الفيوم . وذلك ان للنيل كما لا يخفى ارتفاعاً معلوماً اذا بلغه كان غيثاً وحياة لارض مصر واذا زاد عنه كان ضربة ودماراً فتسقط الجسور وتغرق البيوت . واذا نقص لا تكون مياهه كافية للري فيخشى من المجاعة . فلما علم هذا الملك بذلك هم بتدارك الامر . فراى في الصحراء الغربية من مصر بادية شاسعة الاطراف يمكن غرسها واستغلالها تعرف الان بوادي الفيوم يفصلها عن وادي النيل الاصلي برزخ قليل الارتفاع . وفي وسط تلك البادية بقعة من الارض تكاد لا تزيد ارتفاعاً عن اراضي وادي النيل تبلغ مساحتها عشرة ملايين من الامتار المربعة . وبجانبه الغربي ارض منخفضة ذات اتساع عظيم تغمرها مياه البحيرة الطبيعية المعروفة الان ببركة قارون « او القرون » طولها يزيد عن عشرة فراسخ فأمر بحفر ترعتين توصلان النيل بتلك البقعة احداهما كانت تبتدئ من النيل بجانبه الغربي وتجري بمحاذاة بحر يوسف الحالي . والاخرى كانت تجري شمالاً . وهاتان الترعتان تلتقيان وتصبان في تلك البقعة الفسيحة وجعل عند ملتقاهما قناطر بحواجز تسد وتفتح حسب اللزوم . فكانت تلك البقعة بصفة حوض عظيم تجتمع فيه مياه النيل عند فيضانه عرفت ببركة موريس

فان كانت زيادة النيل اقل من احتياج الارض انصرف اليها من مياهه ما يسد

احتياجها . واذا كانت اكثر من الحاجة صُرف ما يزيد الى ذلك الحوض فان طفح ماؤه انصرف الى بحيرة قارون بواسطة حواجز تسد وتفتح على قدر الحاجة . وكانت الحكومة في كل سنة قبل ارتفاع النيل تنتدب من يسير الى النوبة لاستكشاف مقدار زيادته في جهة سمنة وقمنة وفي تلك الجهات الان كتابات هيروغليفية تشير الى شيء من ذلك

وكان في وسط بركة موريس هرمان في كل منهما تمثال . واصل كلمة موريس « مري » ومعناها في اللغة المصرية بحيرة وليس كما زعم اليونانيون من انها دعيت بذلك نسبة الى اسم احد الفراعنة . واصل كلمة الفيوم « پايوم » ومؤداها باللغة المصرية بلد البحر

والى شرقي بحيرة موريس بناء هائل يعرف باسم « لابرانتا » واسمه بالمصرية « لابوراحونت » اي معبد فم البحر بناه هذا الملك لاجتماع مجلس الاعيان من الكهنة وفي هذا البناء رحبات الى كل من الجانبين فيها من الغرف نحو من ثلاثة آلاف غرفة ويحيط بالبناء من الخارج سور عليه نقوش

اما بركة موريس فقد جفت ولم يعد لها اثر الان . اما موقعها فقد اختلف المهندسون في حقيقته ومن راى المستر كوب وايتهوس انه واقع في واد وسيع الى جنوبي بركة قارون بعرض ٤٠ ' ٤٨ ° و ٣٠ ' ٢٩ ° شمالاً وهو المعروف الان بوادي الريان . وقد اقترح وايتهوس على الحكومة المصرية ان تتخذ هذا الوادي مذخراً لماء النيل كما كان قديماً

وامتدت حدود مملكة هذه العائلة الى بلاد النوبة وكان بينها وبين ليبيا الشمالية واسيا علاقات تجارية محورها ما بين بني سويف واهناس المدينة . وبسبب هذه العلاقات تعلم المصريون من الليبيين علم الرياضة الجسدية (الجمباز) اما صناعة البناء في ايام هذه العائلة فقد كانت من الاتقان والتفنن على غاية حتى قيل ان معظم الاعمدة الحلزونية الشكل في الاثار المصرية انما من مصنوعات هذه العائلة

العائلة الثالثة عشرة الطيبية

حكمت من ٣٤٧٣ — ٣٠٢٠ ق هـ او من ٢٨٥١ — ٢٣٩٨ ق م وعدد ملوكها ٨٧

من ملوك هذه العائلة « سبك حتب الثالث » له آثار كتابية على صخور شاخة صعبة التسلق عند ضفة النيل بقرب سمنة مفادها ان ماء النيل بلغ هذا الارتفاع في

حفار مصري يصنع تمثالاً

حفار مصري ينحت ذراعاً

السنة الثالثة من حكم الملك سبك حتب الثالث واوطأ جزء من هذه الكتابة يعلو أعلى نقطة يبلغها النيل عند ارتفاعه في هذه الايام بنحو سبعة امتار . وذلك من الادلة على ان النيل كان اكثر ارتفاعاً في الاعصر الخالية منه في هذه الايام بما يستحق الاعتبار . وهذه العائلة على كثرة عدد ملوكها قلَّ ما يعرف عنها . ويظن ماريت ان اكثر آثارها مردوم في اسيوط

العائلة الرابعة عشرة السخاوية

حكمت من ٣٠٢٠ — ٢٨٣٦ ق هـ او من ٢٣٩٨ — ٢٢١٤ ق م وعدد ملوكها ٧٥

بسقوط العائلة الثالثة عشرة سقطت طيبة بعد ان كانت سريراً للدول المصرية نحواً من سبعمائة سنة . على ان ملوك العائلتين الثانية عشرة والثالثة عشرة لم يكونوا في اهتمام لحفظ رونقها وافضليتها على سائر القطر المصري وانما صرفوا اهتمامهم في تعمير الذلتا ورفع شأنه فزهت منديس وسايس وبوباستس وعلى الخصوص تانس ولكنهم مع ذلك لم يتخذوا غير طيبة سريراً لملكهم . اما العائلة الرابعة عشرة فجعلت عاصمتها في الوجه البحري في مدينة خيس (سخا) في منتصف الذلتا . لايعلم عن ملوك هذه العائلة ما يستحق الذكر سوى ان اسماءهم وجدت مكتوبة على صحيفة من البابيروس (البردي) حفظت في متحف تورين

العائلات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة (الرعاة)

حكمت من ٢٨٣٦ — ٢٣٢٥ ق هـ او من ٢٢١٤ — ١٧٠٣ ق م

فالعائلة الخامسة عشرة مؤلفة من ملوك الرعاة الذين افتتحوا مصر واتخذوا « اوريس » سريراً لملكهم وكان معظم سلطتهم في الوجه البحري . اما القبلي فكان يحكمه بعض الملوك الوطنيين . اما منشأ ملوك الرعاة ويدعوهم اليونانيون « هيكسوس » فقد اختلف المؤرخون في حقيقته وقد عقدنا فصلاً في كتابنا تاريخ العرب قبل الاسلام بينا فيه ارجحية كون الرعاة عرباً من القبائل التي يسميها العرب « العمالقة » فليراجع هناك . ويقال انهم جاؤا مصر من جنوبي اسيا ففاجأوا المصريين في الوجه البحري وافتتحوا بلادهم وتقاطروا اليها افواجاً حتى انتشروا فيها كالجراد وجعلوا يعيثون استبداداً فاحرقوا المعابد ونهبوا ما فيها واتخذوا منف قاعدة لحكمهم

ففرّ الملوك المصريين الى الصعيد

واول من ملك من العمالقة « سلاطيس » شاد قلاعاً حصينة في اماكن مختلفة وجعل في السويس جنداً عظيماً خيفة ان يهاجمه كنعانيو الشام والعراقيون . وفي ايامه تقاطر اهل اسيا الى مصر اسراباً يطلبون ملجأ ورزقاً فبنى لهم في اواريس معسكراً عظيماً يسع نحواً من مائتين واربعين الفاً وجعل حوله خندقاً ورتب لهم ارزاقاً فصاروا له اعواناً فهابه المصريون

ش ٧ — مهاجرو اسيا

ثم تداول خلفاؤه على سرير الملك الواحد الآخر . وعددهم ٦ ومدة حكمهم جميعاً ٢٦٠ سنة وقد كانوا في اول امرهم مستبدين يسومون المصريين شر المعاملة ولا يستخدمون في مصالح حكومتهم الا الاجانب من ابناء جلدتهم . لكنهم في آخر الامر قربوا الوطنيين منهم واستخدموهم في مصالح الدولة وصرفوا اهتمامهم الى احياء البلاد وتجديد ثروتها فبنوا المعابد ودانوا بديانة اهل مصر . فخضع لهم الوجه القبلي فاصبحت مصر جميعها في ايديهم

ايديهم . ثم خلفتهم دولة الرعاة الثانية وهي العائلة السادسة عشرة وعدد ملوكها اثنان وثلاثون لم يعرف منهم الا ملك واحد يدعوه المصريون « ايابي اعاكنن » والعرب يدعونه « الريان بن الوليد » ومانيثون يدعوه « ابوفيس » وفي ايامه نزح كثيرون من اهل الشام الى مصر واستوطنوها لكنهم حافظوا على لغتهم ولم يبدلوها . وفي ايامه ايضاً وفدت السيارة الذين باعوا يوسف بن يعقوب الى قطفير وزير مصر الذي يدعى بلغة مصر القديمة « بدفير » اي هدية الشمس وقصته مشهورة . وقد وجدت في الآثار حكاية استنتج منها بعضهم ما يؤيد قصة المجاعة التي حصلت في ايام يوسف والله اعلم

واما العائلة السابعة عشرة فكانت مصر في ايامها تحت حكومتين وطنية بيد المصريين واجنبية بيد الرعاة . وبلغ عدد ملوك كل من الحكومتين نحواً من ٤٣ ملكاً قلما يعرف عنهم . وكانت قاعدة مملكة الرعاة « صان » والوطنيين « طيبة » وغاية ما يقال في هذه العائلة انها لم تنته حتى انتهى معها الرعاة وبانقضائه انقضت الدولة الملكية الوسطى

الدولة الملكية الاخيرة

حكمت من ٢٣٢٥ — ٩٥٤ ق هـ وعدد عائلاتها ١٤

العائلة الثامنة عشرة الطيبية

حكمت من ٢٣٢٥ — ٢٠٨٤ ق هـ او من ١٧٠٣ — ٤٦٢ ق م وعدد ملوكها ١٤

ولهذه العائلة شأن عظيم في تاريخ مصر القديم لان البلاد في ايامها نشطت وامتدت سطوتها الى انحاء بعيدة

اول ملوكها « احعمس » ويسميه مانيثون « اموزيس » تزوج بابنة ملك اثيوبيا وتحالف معه على طرد بقية العمالقة من مصر . وكانوا متحصنين في قلعة اوربس برًّا وبحراً فحاصرهم ثم طردهم منها . وما زال يتبعهم بجنوده حتى نهر الفرات فتخلصت مصر منهم بعد ان استبدوا فيها ستمائة سنة . وبقيت منهم بقية رضخت لاحكامه قهراً وما لبث ان عاد من هذه المحاربة حتى عصته اهل النوبة فجرد اليها وظهر عليها . اما الاثيوبيون فدخلوا في طاعته بغير حرب وامتدت سلطته الى البحر المتوسط . وفي

السنة الثانيـة والعشرين من حكمه استعمل العمالقة لقطع الحجارة من محاجر طره لتجديد معبد « فتاح » في منف ومعبد « امون » في الكرنك ولانشاء معابد اخرى وقد وجدت جثة هذا الملك في الدير البحري بجبل القرنة وهي الآن في المتحف المصري

ومن ملوكها « امنحتب الاول » ويسميه مانيثون « امنوفيس » كان ملكاً عادلاً مسالماً تزوج بابنة ملك اثيوبيا وجثتاهما في المتحف المصري

ومن ملوكها ايضاً « تحوتمس الاول » رغب في توسيع دائرة ملكه فجعل يحارب جنوباً وشمالاً فامتدت سلطته الى محاجر مدينة « انبو » في وسط النوبة ويستدل على ذلك بوجود اسمه منقوشاً على حجر هناك . وقد وجدت نقوش اخرى في جهات اصوان تشير الى شيء من ذلك . وامتدت مملكة مصر في ايامه جنوباً الى جبل « ابته » في الحبشة . وشمالاً الى اقصى اسيا المعمورة من ضمنها فلسطين وبابل وغيرهما . اما معظم ثروة بلاده فكانت من اثيوبيا التي كانت تأتي منها البضائع مشحونة في مراكب النيل الى مصر وفيها الحيوان والحب والجلد والعاج والخشب والحجارة الكريمة والمعادن كالذهب وغيره ويقال ان اسم النوبة مأخوذ من « نب » اي ذهب . ومن آثاره انه شاد معبد امون في الكرنك ومسلتين احداهما لا تزال الى الان عند باب المعبد المذكور اما الثانية فقد ذهبت بها يد الزمان

ومنهم الملكة « حعتشبو » ويسميها مانيثون « مفرس » ساست الاحكام بتدبير وحزم ورسمت صورتها على الاثار بهيئة رجل ذي لحية ملوكية مهيبة . وقد سعت هذه الملكة في نشر سطوتها ففتحت بلاد « بون » جنوبي بلاد العرب فكانت باباً للتجارة وكانت تأتي منها بالخشب والعطريات والصمغ والذهب والفضة والحجارة الكريمة وغير ذلك من لوازم بناء الهياكل . ومن آثار هذه الملكة مسلتان نصبتها في الكرنك لم تزل احداها قائمة الى هذه الغاية عليها كتابة بالقلم المصري القديم تفيد انها اقامت هاتين المسلتين تذكاراً لوالدها . وكان على قمة كل منهما اكليل هرمي الشكل مصنوع من الذهب المغتنم من الاعداء . والمسلة الواحدة قطعة واحدة مقطوعة من محاجر اصوان استغرق عملها معاً اربعة عشر شهراً وارتفاع كل منهما ثلاثون متراً

ومن ملوك هذه العائلة « تحوتمس الثالث » وهو شقيق الملكة المتقدم ذكرها . لم يمكنه الملك الا بعد وفاتها ولم يكن راضياً بحكمها الا رغم ارادته فلما تولى محا اسمها من اكثر الاماكن التي ذكرت فيها انتصاراتها وكتب اسمه مكانه لتنسب تلك الانتصارات اليه

وفي ايامه استقلت اسيا من سلطة المصريين الاَّ غزَّة وضواحيها . ثم ظهر التمرد في الشام فثار اهلها وحرضوا سكان شمالي سوريا على مثل ما فعلوا . فقاتلهم وظهر عليهم وسلبهم مدينة حلب ومدناً اخرى ثم سار الى الفرات فاخضع العراق والجزيرة وبعد انتصاره اراد اكرام جيشه فصرح لهم ان يصطادوا من حيوانات تلك البلاد ما شاؤا . وكان في جملة صيدهم مائة وعشرون فيلاً فعاد الى مصر ظافراً . ثم لم يمض يسير حتى عادت اسيا الشمالية الى الثورة فشقت عصا الطاعة وتمرد اهلها وتابعهم اهل الجزيرة . فعاد الى قتالهم وما زال حتى استظهر عليهم وعاد الى مصر ثم خرج عليه الزنج والعبيد من النيل الاعلى فحاربهم ونهب بلادهم وهدم مساكنهم وحرقها وقادهم اسرى الى مصر . (انظر ش ٨) ويقال بالاجمال ان اكثر ايام هذا الملك كانت حروباً وشدائد ولذلك لقبوه بالسلطان الاكبر . وفي المتحف المصري حجر جيء به من الكرنك عليه من الأعلى صورة الملك المذكور كأنه يقرب القرابين لبعض الالهة وهم وقوف بين يديه وتحت ذلك كتابة هيروغليفية بين نثر ونظم كتبت عن لسان امون اله طيبة يخاطب بها الملك بما يشبه المدح والتنشيط

ش ٩ — اسرى الزنوج

وكان في حوزته عند وفاته الحبشة والنوبة والسودان والشام والجزيرة والعراق العربي وكردستان وارمينيا وقبرس اما جثته فتشاهد في المتحف المصري . ومن آثار تحوتمس الثالث مسلتان اقامهما في المطرية حتى اذا كانت ايام الملكة كليوبطرا نقلتا الى الاسكندرية وجعلتا امام هيكل القيصر وعرفتا بعد ذلك بمسلتي كليوبطرا وعليهما كتابة هيروغليفية كثيرة بينها اسماء تحوتمس الثالث ورعمسيس الثاني وسيتي الثاني ولا وجود لاسم كليوبطرا عليهما . وفي سنة ١٨٧٧ ب م نقلت احداهما الى لندرا واقيمت على ضفاف التيمس ثم نقلت المسلة الاخرى الى اميركا بعد حين

ومن ملوكها الملك « امنوفيس الثاني » استلم زمام الاحكام وسلطة مصر منتشرة في اقاصي الارض فاجتهد في حفظها الا ان اشور نظراً لبعدها من مصر ثارت واستمالت اليها ما حولها من المدن فجهز اليها امنوفيس وما زال يحاربها ومن تابعها نحواً من سنتين كان يتردد اثناءهما بين العراق والجزيرة واكاد . واخيراً عاد الى مصر بحراً غانماً ظافراً . وفي جملة ما جاء به من الغنائم سبع جثث ممن قتلهم في تلك الحملة فعلق ستاً منها على سور طيبة . ولهذا الملك رسم منقوش على مقبرة في القرنة هو فيه على هيئة ملك عظيم الشأن جالس على كرسي قد نقش على قاعدته اسماء البلاد الخاضعة له

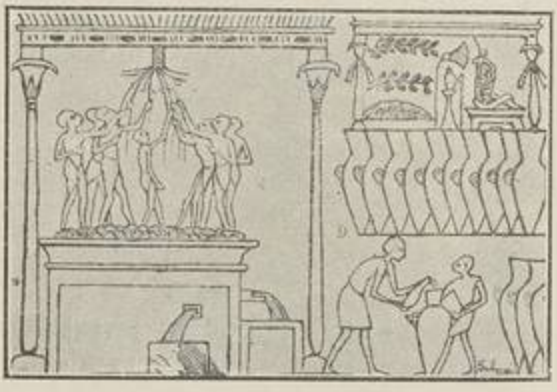

ش ٨ — معاصر العنب عند المصريين

ومن ملوكها ايضاً الملك « تحوتمس الرابع » ومن اعماله اعادة عبادة الشمس الى مصر . فكرّم ابا الهول المرموز به عنها . ومن يزر هذا التمثال العظيم في الجيزة يرَ في صدره لوحاً ارتفاعه اربع عشرة قدماً انكليزية في اعلاه الى اليمين رسم هذا الملك يقدم العبادة لابي الهول والى اليسار رسم الشمس . ويلي ذلك نقوش كتابية تفيد ان ذلك الملك لم يدخر وسعاً في تحسين مدينتي منف والمطرية واعطاء المرتبات المقررة للمعابد او لانشاء الهيا كل والتماثيل والمعبودات وكان ملكاً قوياً مهوباً

ومن ملوكها ايضاً « امنوفيس الثالث » لما تولى الاحكام كانت حدود مملكة مصر ممتدة شمالاً الى نهر الفرات وجنوباً الى جلة ولسعة شهرته في الاقطار الغربية دعاه اليونان بالممنون . وله تمثال عظيم في طيبة مشهور بهذا الاسم . وقد كثرت في ايامه القلاقل والفتن فسعى في اخمادها بعزم ونشاط وكان ذا وقار ومهابة وفي الحروب باسلا مقداماً . كل ذلك تراه مكتوباً نقشاً على تاج هيكل الاقصر لانه جدد فيه قسماً عظيماً وكان يلقب نفسه بسلطان البرين وامير العالمين (يريد عالمي اسيا وافريقيا) وكان حسن

السياسة فزادت مصر في ايامه سطوة ومملكتها اتساعاً

ومن آثاره هيكل في « نبته » جعل في الطريق الى بابه صفين من الكباش الراقدة على مثال ابي الهول وحسن معبد تحوتمس الثالث في سولين بين الشلال الثاني والثالث وشاد هيكلاً غربي الكرنك خدمة للمعبود امون . وهناك اصلاحات اخرى اجراها في هياكل ومعبودات اصوان وجزيرتها وجبل السلسلة وغيرها . وانشأ على ضفة النيل الغربية تجاه الاقصر معبداً طالما كان من اعظم الآثار القديمة اما الان فقد اصبح خراباً لاسباب لا نعلمها الا صنمين كبيرين كانا على بابه ولا يزالان قائمين رغم مصادمة الايام ويعرفان بشامة وطامة وكل منهما تمثال امنوفيس الثالث . وبقيا الى سنة ٥٩٥ قبل الهجرة ولم ينتبه اليهما حتى حصلت زلزلة اسقطت جزء احدهما الاعلى وبقيت قاعدته في مكانها فلوحظ ان هذه القاعدة اذا سقط عليها الندى ثم اشرقت عليها الشمس اخرجت صوتاً يستمر مدة فجعلوا يقولون في شأنه اقوالاً شتى اكثرها مبني على الوهم والخرافات ثم اهتم القوم باعادة الجزء الساقط الى قاعدته فأعادوه وملطوا مكان الالتحام جيداً فلم يعد يسمع له صوت فعلموا ان ذلك الصوت كان يحدث من تأثير اشعة الشمس على نقط الندى بعد تخللها جسم ذلك الحجر

ومن ملوكها ايضاً « امنوفيس الرابع » رغب في عبادة الشمس فابتنى في محل تل العمادنة على مقربة من المنيا مدينة جديدة جعلها سريراً لملكه بدلا من طيبة ونقل اليها معبود قرص الشمس وسماه (آتن) على مثال اله اليهود (ادوناي) اقامه في معبد ابتناه من اجله . وقد نقبوا اطلال تلك المدينة فوجدوا بينها بقية ذلك المعبد على دهليزين وستة اعمدة مدرجة الوضع يظهر انها كانت منصوبة في صحنه وشاهدوا على جدرانه رسم الشمس مشرقة على الملك ورجاله وهم وقوف يقربون القرابين اليها وبين اشعتها ايد ممتدة كانها تنثر الحياة على المخلوقات وحول هذه الرسوم ادعية وقصائد كان يتلوها المرتلون على نغمات الاوتار . وعلى جدران الهيكل ايضاً رسم هذا الملك ورجاله على هيئة غير مصرية . ويشاهد ايضاً في مقبرة بتل العمادنة نقوش بينها صورة الملك واقفاً على عربته الحربية وبجانبه بناته السبع يقاتلن معه . وله آثار في سوليب وهيكل ومسلة بمدينة طيبة

ومن ملوكها ايضاً الملك « حور محب » وهو من اقارب « امنوفيس الرابع » ثارت عليه الرعية عند اول حكمه فارضاهم بمحو عبادة الشمس وهدم معبدها والمدينة جميعها واعادة الديانة المصرية . ولما خمدت الثورة بنى الوجهة الرابعة من معبد الكرنك

وفي ايامه خرجت اسيا من سلطة المصريين وما زالت كذلك الى ان جاءت العائلة التاسعة عشرة

العائلة التاسعة عشرة الطيبية

حكمت من ٢٠٨٤ — ١٩٠٠ ق هـ او من ١٤٦٢ — ١٢٨٨ ق م وعدد ملوكها ٨

اول ملوكها « رعمسيس الاول » ولم يتحقق حتى الآن اذا كان مصري المولد او اسيوبه تبوا كرسي الملك شيخاً وكانت المملكة المصرية تئن لخروج معظم ايالاتها من طاعتها على اثر الحرب الدينية فجدد شبابها ونهض للجهاد فحارب الاثيوبيين والحثيين وكانوا امة عظيمة تحتها عدة طوائف قد تحالفوا معاً على قتال المصريين . ويقال ان هذا الملك هو اول من ناهض الحثيين واخترق بلادهم وجال في اصقاعهم حتى ضفاف نهر العاص

ش ١٠ — جنازة مصرية قديمة

وخلفه ابنه « سيتي الاول » فسعى سعياً حميداً لتوسيع مملكته فغزا بعضاً من بلاد اسيا الغربية . ذلك ما يستفاد مما كتب على هيكل الكرنك فغزا غزوات عديدة الى الشام والعراق وغيرها ففتح بلاداً تمتد من جنوبي الشام الى ارمينيا. وقد كانت قبلاً لا يطلب منها الا جزية تدفعها وحكامها من ابنائها . اما هذه المرة فادخل اهلها في طاعته وجعل عليهم حكاماً من امرائه واحاطهم بنقط حصينة كغزة وعسقلان جعل فيها حاميات من رجاله فامن طغيانهم الا ما جاور الفرات فانه عجز عن ابقائه في حوزته وعصته الجزيرة والعراق ولم يعد قادراً على مقاومتها فوقف عند حده ولذلك كانت فتوحاته كبيرة في الظاهر حقيرة في الباطن . ولما عاد من تلك المحاربات جعل يمكن العلاقات مع ايالاته بواسطة النقط العسكرية التي كان قد جعلها فيها فزاد الارتباط بين المصريين والامم المتحابة ولا سيما الكنعانيين فادخل المصريون معبود الكنعانيين (بعلا) في عداد معبوداتهم ومثلوه بالشمس وكان لهذا المعبود زوجة اسمها استارته (عشتروت) مثلوها بالقمر واتخذوا من اسيا ايضاً آلهة اخرى

ومن آثار هذا الملك هيكل في القرنة وآخر في رداسية وآخر في العرابة المدفونة وقد نحت اعمدة كثيرة اقامها في النوبة وحجراً جعله في اصوان . وفتح ترعة بين النيل والبحر الاحمر تبتدىء من تل بسطة وتجري شرقاً في وادي الطملات الى ان تصب في البحيرات المرة و بنى خط دفاع شرقي مصر وشاد محراباً في القرنة وفتح طريقاً للقافلة بين قرية رداسية باقليم اسنا ومعدن الذهب بجبل اتوكي حيث اصطنع عيناً صناعية ينفجر منها الماء غزيراً . واصلح الغار الذي في بني حسن للمعبودة « بشت » و يعرف الآن بغار « اتيبدس » واخيراً بنى لنفسه ضريحاً في بيبان الملوك يعجب له كل من عاينه لدقة صنعه وما فيه من المناظر الفلكية البديعة

ومن ملوك هذه العائلة « رعمسيس الثاني » المشهور باسم « سيزوستريس » ويقال له « رعمسيس الاكبر » لانه في الواقع اعظم من ملك مصر حكمة و بطشاً حكم مدة طويلة كلها فتوحات وحروب ومبان ونقوش فلا يكاد يوجد اثر من الآثار المصرية القديمة الا وعليه اسمه ورسمه . ولي الملك صغيراً فشب معتاداً على الاعمال السياسية وكان متوقد الذهن وفيه فطنة ونباهة منذ حداثته . ولما توفي والده قام باعباء الملك بنفسه فاخذ في توسيع نطاقه بالفتوحات . واول غارة شنها كانت على الشام فسار بجيشه وما بلغ نهر الكلب بقرب بيروت حتى خمدت الفتنة فعاد الى مصر تاركا اثراً منقوشاً على صخر هناك . وفي السنة الرابعة من حكمه ثار عليه سكان شمالي اسيا وهم الحثيون وكاني وكركاميش وكوش وكانوا اقواماً من الشجاعة على جانب عظيم فانضموا لمحاربته وساروا جميعاً حتى وادي الارونط بقرب حدود مصر في ذلك العهد . فبلغ رعمسيس خبرهم فجمع اليه امراءه ورجال دولته وقواده وجنوده وسار في مقدمتهم وما زالوا يخترقون سوريا حتى اتوا نهر العاص قرب مدينة قادس فاذا هي على جانب من المنعة ففرق رجاله فرقاً في نقط معينة ثم سار في حاشيته منفرداً فلقيه جواسيس الحثيين فاغروه على التقدم نحو المدينة فسار في حاشيته تاركاً جيشه في اماكنهم فلما اقترب من المدينة علم انها دسيسة اوقع فيها فالتفت واذا بمركبات الحثيين حوله لا عداد لها فلما رأى ذلك رجال حاشيته طلبوا النجاة بانفسهم و بقي رعمسيس وحده فاستنجد الهه وهاجم الحثيين بمفرده على مركبته ففرقهم وفاز بهم . وبعد يسير عاد اليه رجال حاشيته وقد كادوا يذوبون خجلاً لما كان من فرارهم اما هو فاكتفى بتوبيخهم ثم اجتمع بجيشه ثانية وهاجم العدو فهزمهم وانتهى الامر بعقد معاهدة بينه وبينهم ثم همّ بالجلاء من اسيا

ش ١١ — رعمسيس الثاني

وبينما هو في طريقه الى مصر ثار عليه الكنعانيون وانضم اليهم الحثيون ناقضين العهد وثار غيرهم معهم فاصبح جميع من قطن ما بين ضفاف الفرات وضفاف النيل يقاتلون المصريين الأ اهل اسيا الصغرى فانهم هجروا اوطانهم ولم يظهروا للقتال . وما زالت هذه الحروب متواصلة يتخللها هدنات وفترات مدة خمس عشرة سنة فاستولى رعمسيس على مدينتي ثابور وميروم وقاعة اورشليم وعسقلان . ثم سار شمالا وقاتل هناك حتى اخذ من الحثيين مدينتين وجد في احداهما الا ن تمثاله . وما زالت الحرب سجالاً حتى اضطر ملك الحثيين الى المصالحة فطلبها فقبل رعمسيس ذلك في السنة الحادية والعشرين من حكمه فعقدوا معاهدة كتبت اولا بلغة الحثيين ثم نقشت على لوح من فضة وقدمت الى رعمسيس ومفادها ان الحثيين يتعهدون انهم لن يعودوا بعد ذلك الى حمل السلاح ضد المصريين وعلى مثل ذلك يتعهد المصريون وان يكون الفريقان متحالفين الى الابد وجعلوا في وسط لوح الفضة وعلى جانبه الاعلى صورة تمثال (ست) معبود المصريين معانقاً تمثال (خيتا) معبود الحثيين . وما زالت هذه المعاهدة مرعية مدة ست واربعين سنة كانت الراحة في اثنائها مستتبة وتصاهر الملكان توطيداً للعلاقات الودية فاصبح المصريون والحثيون قلباً واحداً وبعد التوقيع

على المعاهدة يسير دعا رعمسيس الثاني ملك الحثيين لزيارته الى مصر فزاره فاكرم مثواه

ولما سكنت الحروب اخذ رعمسيس في تشييد المباني فشاد في كل مدينة معبدًا وتم معبد القرنة في الاقصر وكان قد شرع فيه ابوه . ومن آثاره ايضاً هيكل بناه في شرقي الشيخ عبد القرنة بطيبة سماه شامبليون « رامسيون » منقوش فيه تفاصيل احدى وقعاته ومنها معابد في العرابة المدفونة ومنف وتل بسطة وغيرها وأسس في الوجه البحري مدناً عديدة دعاها باسمه . وكان لهذا الملك العظيم في قلوب رعيته من المحبة الى حد الشغف وكان لهم فيه من الثقة الى حد العبادة . ولما مات دفن في مقبرة بيبان الملوك ثم نقل الى الاقصر لاسباب غير معلومة . ثم نقل الى المتحف المصري وهو هناك الى هذه الغاية

ومن ملوك هذه العائلة « منفتاح الاول » ابن رعمسيس الثاني اتبع خطوات ابيه فجعل يزيد في بنايات الدلتا وتحسينها ثم ثار عليه اهل اسيا الصغرى وطائفة الليبيين فانفذوا اليه بوارجهم في البحر المتوسط الى سواحل ليبيا مملوءة بالعدة والرجال من قبائل مختلفة وما زالوا حتى اتوا السواحل المصرية ودخلوها من غربي الدلتا كل ذلك والمصريون لا يبدون حراكاً الا اذا كان للتسليم . ولم يمض كثير حتى اصبح معظم الوجه البحري في ذمة اولئك الوافدين . فلما علم منفتاح بذلك تجند في منف وارسل فرقة من فرسانه لمقابلة العدو ثم امر بتحصين جميع المراكز الواقعة على ضفتي فرع رشيد . فتقاتل الليبيون فانفذ اليهم فرقة شتتتهم وعاد المصريون فائزين غانمين بعد ان احرقوا معسكر العدو فعاد الامن الى بلادهم . ويقال ان الاسرائيليين هاجروا مصر في ايام هذا الملك ولهم على ذلك ادلة أعرضنا عن ذكرها لضيق المقام

العائلة العشرون الطيبية (وتسمى الرعمسيسة)

حكمت من سنة ١٩١٠ — ١٧٣٢ ق م او من ١٢٨٨ — ١١١٠ ق م وعدد ملوكها ١٢

من ملوكها « رعمسيس الثالث » وهو اخر من اشتهر من ملوك مصر القدماء وفي اول حكمه ثار عليه اهل البادية فهددوا استحكامات الدلتا واهانوا العملة الذين كانوا يستخرجون المعادن من جبل الطور . وخرجت ولايات الشام من طاعته وسطا الليبيون على ارضه فاحتلوا بعضاً من الدلتا من جهة الغرب

فلما علم رعمسيس بما كان من تلك الوقاحة سار في جيش من رجاله على البدو

فهزمهم ثم على الليبيين فاقلعهم من محتلهم فعادوا على اعقابهم خاسرين . فلما علم اهل اسيا الصغرى والجزائر اليونانية بما كان جردوا جيوشهم متحالفين على محاربة رعمسيس وما زالوا حتى اتوا الدلتا فلاقتهم الجيوش المصرية عند مصاب النيل بقلوب لا تهاب الموت وفي مقدمتهم رعمسيس الثالث غير مبال بما كان حوله من الاسهم المتساقطة عليه من كل الانحاء . وما زالت الحرب سجالاً الى ان فاز المصريون فوزاً تاماً . ولهذه المعركة العظيمة رسم منقوش على جانب الحوش الاول من مباني مدينة (ابو) بطيبة . واستتبت الراحة في ديار مصر بعد ذلك نحو سنتين ثم عاد الليبيون الى الثورة ثانية وضموا اليهم بعضاً من القبائل المجاورة لبلادهم واغاروا على مصر من غربيها فقابلهم المصريون بثبات فانتهت الحرب بنصرة المصريين كل ذلك منقوش في مدينة (ابو) بطيبة ايضاً . فاضطر الليبيون بعد المعركة الثانية الى رعاية حقوق مصر عليهم فرضخوا لها صاغرين . ثم دخل في ذمة المصريين ايضاً اهل الشام وسكان سيسيليا وغيرهم من الامم المتعاهدة فاصبحت مصر دولة مهيبة واسعة النطاق واستعز رعمسيس بالملك . الا انه لم ينج من بعض المتاعب الداخلية لان اخاه ارمانيس كان يسعى فيه بدسيسة يذهب بها حياته ولم ينجح فعلم رعمسيس بذلك فاتى باخيه ومن شاركه وبعد تحققه ارتكابهم جازى كلاً منهم بما فعل فصفا له الدهر فجعل يجدد المباني فبنى في مدينة (ابو) قصراً كبيراً نقش على جدرانه ما كان من محارباته ووسع معبد الكرنك واصلح هيكل الاقصر وغيره من مباني الوجه البحري وكانت التجارة في ايامه رائجة ممتدة الاطراف

وتلا هذا الملك ملوك اخرون من هذه العائلة يعرفون برعمسيس الرابع والخامس الخ ويقال بالاجمال ان سطوة مصر اخذت بالسقوط في ايامهم الواحد بعد الاخر الى ايام رعمسيس الثالث عشر وهو اخر من ملك من هذه العائلة فاذا بمصر في ايامه منكسرة الشوكة محصورة الحدود يترصدها الاعداء يريدون النهامها فكانت غنيمة لاحد كهنتها الذي يدعى (حرحور) وهو اول من ملك من العائلة الحادية والعشرين

العائلة الحادية والعشرون الطيبية والطينية

حكمت من سنة ١٧٣٢ — ١٦٠٢ ق هـ او من ١١١٠ — ٩٨٠ ق م وعدد ملوكها ٤

اولهم الكاهن (حرحور) اختاس الحكم اختلاسا من العائلة الرعمسيسية على اسلوب دنيء منقوش على هيكل (خونسو) بطيبة ثم نفى من بقي من العائلة المذكورة الى الواحات في وسط الصحراء الكبرى

وتولى بعده ابنه الكاهن (يعنخى) وليس له ما يذكر به سوى انه تزوج بابنة ملك الشام

ثم تولى بعده ابنه الكاهن (بينوزم الاول) وفي سنة ٢٥ من حكمه قامت فتنة بين اهالي الوجه القبلي واهالي الوجه البحري بسبب نفي العائلة الرعمسيسية وانتهت باستدعاء اولئك المنفيين من الواحات الى طيبة

وفي ايامه اتى النمرود بجيشه من اشور متظاهراً بالدفاع عن العائلة الرعمسيسية وانما كان قصده الاستيلاء على البلاد المصرية فتحققت اماله واخذها عنوة وضمها الى بلاده ثم توفي النمرود ودفنته امه في العرابة المدفونة وجعلت لمدفنه المرتبات المعتادة وتولى بعده ابنه (ششنق) على مصر واشور واتخذ مدينة (تانيس) سريراً لملكه وسيأتي ذكره في الكلام على العائلة الثانية والعشرين

العائلة الثانية والعشرون البسطية

حكمت من سنة ١٦٠٢ — ١٤٣٢ ق م او من ٩٨٠ — ٨١٠ ق م

سميت بسطية لان قاعدة ملكها كانت في تل بسطة بالشرقية قرب الزقازيق وعدد ملوكها تسعة ومدة حكمهم ١٧٠ سنة

اول ملوكها الملك « ششنق الاول » ويدعى في التوراة شيشاق وهو سامي الاصل ابن النمرود كما تقدم . ولد في مصر ونشأ فيها ولما استتب له المقام في عاصمته سار الى العرابة المدفونة لزيارة قبر ابيه فوجد خدمة القبر قد نهبوا ما كان في المعبد من الامتعة الفضية فامر بقتلهم بعد ان سار الى طيبة واستشار معبودها « امن رع » بذلك . واعاد الى المعبد منهوباته ورتب للخدمة مرتباتهم . كل ذلك منقوش على حجر في العرابة المدفونة

ومن اعمال هذا الملك انه سار الى فلسطين ووضع يده على اموال المسجد الاقصى الذي بناه سليمان الحكيم وعلى اموال القصور الملوكية وفيها الدروع السليمانية الذهبية المشهورة ثم سار الى الاسرائيليين فسلموا له القلاع بغير قتال . وبعد عوده من هذه الغزوة نقش صورته على الجدار القبلي لهيكل الكرنك بالقرب من ايوان البسايطة الذي اسسه هو وبجانب صورته اسماء المدن التي افتتحها مكتوبة في ست وتسعين منزلة ورسم صور الملوك الذين اصبحوا تحت حكمه وفي جملتهم الملك رحبعام ابن سليمان مكتوف اليدين وراء ظهره وفي عنقه حبل . وبنى عمارات كثيرة في طيبة بحجارة من جبل

السلسلة من اعظمها الايوان المتقدم ذكره ولا تزال اثاره باقية الى هذا العهد قبالة هيكل رعمسيس الثالث ويعرف هذا الايوان عند علماء اللغة الهيروغليفية بايوان البسايطة وتوفي بعد ان حكم ٢١ سنة

ش ١٢ — نبات البردي الذي كانوا يصنعون منه البابيروس

وتولى بعده ابنه « اوسوركون الاول » وليس له آثار تذكر وخلف هذا ثلاثة ملوك ليس لدينا شيء من اخبارهم . ثم تولى الملك « تاكلوت الثاني » وله لوح حجري في رواق البسايطة بالكرنك منقوش عليه بالقلم الهيروغليفي شيء من سيرته وفي ايامه ضعفت شوكة مصر فعصتها اعمالها واستقلت في سلطتها . فاصبحت مصر حقيرة وقد ذهب نفوذها ولا شيء من العزة والمنعة فيها . ثم تولى بعد هذا « ششنق الثالث » « وبيمابي » « وششنق الرابع » وفي عهدهم تجزأت مصر الى أعمال متفرقة على كل منها حاكم ليبي تحت ادارتهم فاستبد اولئك الحكام وتغافل عنهم ملوكهم فزادوا فجوراً وما زالوا حتى ازالوا ساطة اولئك واخذوا الملك من ايديهم ولقبوا انفسهم بالفراعنة

وتزل الملوك الاصليون في بسطة ثم هاجروا منها خوفاً الى منف وانتهى الامر بعد موت ششنق الرابع بخروج الدولة من يدهم الى ملوك العائلة الثالثة والعشرين

العائلة الثالثة والعشرون الطينية

حكمت من سنة ١٤٣٢ — ١٣٤٣ ق هـ او من ٨١٠ — ٧٢١ ق م وعدد ملوكها ٤

قاعدة ملكهم « تانيس » المعروفة الان بصان في الوجه البحري بمديرية الشرقية وقد كانت عند اول استيلائهم على الوجه البحري مدينة بسطة وكانت طيبة في ايدي الاثيوبيين فنزعها منهم « بتوباستيس » وهو اول ملوك هذه العائلة . وفي ايام هذه العائلة انقسمت مصر الى عشرين اقليماً تحت كل منها اقسام يتولى القسم منها امير يرجع في معضلات احكامه الى مركز الاقليم وما زال الامر كذلك حتى ظهرت العائلة الرابعة والعشرون

العائلة الرابعة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٣٤٣ — ١٣٣٧ ق هـ او من ٧٢١ — ٧١٥ ق م وعدد ملوكها ٥

اولهم « تفنخت » وكان احد امراء الاقسام المتقدم ذكرهم . فقويت سطوته شيئاً فشيئاً حتى تمكن من جميع مصر قبليها وبحريها الا اقليم الشرقية فانه تركه للعائلة الملوكية السابقة ولما علم ملك اثيوبيا بما كان جرد اليه جيشاً وحاربه فقهره ونقش صورة المحاربه على حجر وجد في جبل برقل ثم نقل الى متحف بولاق . فلما دخلت مصر في سلطة ملك اثيوبيا واسمه « يعنخي » جعلها ملحقة ببلاده لكنه ابقى لرؤسائها الامتياز وجعل « تفنخت » ملكاً عليهم بالاصالة وبعد يسير مات يعنخي وخلفه آخر لم يكن اهلاً للاحكام فتحرر المصريون من سلطته فانسحب برجاله الى بلاده وفي اثناء ذلك مات تفنخت فتولى بعده ابنه « باكوريس » وكان قوي الادراك فقيهاً بارعاً فجعل مصر الوسطى والسفلى تحت حكمه الا ان الدهر لم يدم له لان الدولة الاثيوبية صارت الى « سباقون » فجاء مصر وافتتحها عنوة والقى باكوريس حياً في النار وبموته ماتت العائلة الصاوية وامست مصر ايالة اثيوبية

العائلة الخامسة والعشرون الاثيوبية

حكمت من سنة ١٣٣٧ — ١٢٨٧ ق هـ او من ٧١٥ — ٦٦٥ ق م وعدد ملوكها ٤

اولهم « سباقون » المتقدم ذكره تولى زمام مصر وجعل لنفسه القاب الفراعنة واخذ يبث النظام في البلاد ويحسن سياستها فابقى كل رئيس على اقليمه مع حفظ

نفوذه عليهم جميعاً بمراقبة امراء اثيوبيين . ثم شاد الجسور واحتفر الترع حرصاً على البلاد ان يمسها غرق او شرق ورمم كثيراً من المعابد واستبدل عقوبة القتل بالاشغال الشاقة فاكتسب ثقة المصريين واشتهر بالرافة وحسن التدبير

الا ان ذلك لم يدم له لان مملكة اشور كانت في ذلك العهد قد امتدت سطوتها على الفينيقيين والاسرائليين والفلسطينيين ورغب هؤلاء في التخلص من نير الاشوريين فاجمعوا على ان يستنصروا « سباقون » في ذلك . فانفذ هوشع ملك اسرائيل اليه هدايا فاخرة وسأله التحالف معه على « شلمنصر » ملك الاشوريين فاجابه سباقون الى طلبه طمعاً منه بالحصول على ما كان لاسلافه من ملوك مصر العظام . فبلغ خبر تلك المعاهدة مسامع شلمنصر فاحتال على هوشع حتى اسره وفاجأ قومه بالهجوم فظهر عليهم فاعترفوا له بالسيادة بعد ان قنطوا من مساعدة سباقون . ثم سار « شلمنصر » الى السامرة وحاصرها لكنه مات قبل افتتاحها وكان اخر ابناء العائلة الملوكية الاشورية فاقيم مكانه « سرجون » رئيس قواده فاقتدى به وسار على خطواته فاتمّ فتح السامرة ثم سار الى فلسطين وقتل الملك « يهو بيد » احد المتحالفين مع سباقون .

ش ١٣ — سرجون ملك اشور بيده الصولجان

فلما راى سباقون ذلك خاف على بلاده فتقدم بجنوده الى الشام لرد « سرجون » بعد ان انضم اليه « حانون » ملك غزة احد المتحالفين فالتقيا بجيوش الاشوريين في

مدينة رفح وانتشبت الحرب بين الفريقين فانهزمت الجيوش المصرية والشامية وأخذ « حانون » اسيرًا ونجا سباقون فضلّ في الصحراء الى ان وجد من اهداه الى طريق مصر . فكانت هذه المحاربة امثولة له لكي لا يطمع فيما هو عاجز عن نيله . ولم يكن ذلك كل شقائه فانه بعد هذه الهزيمة ثار عليه سكان الوجه البحري تحت رئاسة اسطيفانيتس احد اقرباء الملك « باكوريس » سعياً في اصلاح شؤون البلاد فانهزم سباقون الى الصعيد واستقل باكوريس بالوجه البحري لكنه لم ترسخ قدمه حتى انقسمت حكومته على نفسها وقام النزاع بين فئتين من طالبي السيادة وفي اثناء ذلك توفي « سباقون » وخلفه ابنه « سيخون » فاغتنم فرصة الانشقاق وحارب الوجه البحري واستولى عليه . وهذا ما لبث ان ثبتت قدمه حتى قتله « طهراق » وتولى مكانه

ش ١٤ — اسرحدون يقود طهراق ملك مصر وبعل ملك صور بحبل

اما « طهراق » هذا فكان رجلاً محارباً نزع مدينة منف من « استفانيتس » ثم جاء اسرحدون ملك اشور فاتحاً ففر طهراق (تهراكا اوترهاكه) الى النوبة واستولى ملك اشور على منف وطيبة ونهب امتعة هياكلها وقسوسها وارسلها الى بلاده لتحفظ تذكاراً

لتلك الغلبة . ثم اشتغل في اصلاح شؤون مصر واعاد رؤساء الاقاليم كما كانوا كل واحد في اقليمه وضرب عليهم الجزية وبعد ان تم له ذلك سار الى « نينوي » تاركاً بعض جنوده حامية في قلاعه خوفاً من غائلة الاثيوبيين فمر في اثناء الطريق بنهر الكلب قرب مدينة بيروت فنقش على الحجر الذي كان نصبه رعمسيس الثاني نقوشا كثيرة بين فيها فتكه بالمصريين والاثيوبيين

وفي سنة ٦٦٩ ق م اغتنم طهراق فرصة مرض اسرحدون وهاجم المصريين لاسترجاع البلاد اليه فلما علم اسرحدون بذلك وعلم بعجزه عن الدفاع تنازل عن الملك لابنه الاكبر « اشوربانبال » . فسار هذا الى مصر واخرج منها الاثيوبيين واعاد السلطة لرؤساء الاقاليم وعاد الى وطنه . فعاد طهراق الى مشروعه فتحالف مع المصريين سرًّا على ان يعضدوه فيما يريد فعلم ملك اشور بذلك فقبض على الخائنين من رؤساء الاقاليم وقادهم اليه اسرى الا ان ذلك لم يمنع طهراق مما اراد فهجم على مصر واستولى على منف وابطل عبادة الصنم « ابيس » منها . اما ملك اشور فجعل يقرب منه رؤساء الاقاليم المأسورين عنده استحلاباً لرضاهم وطلباً لمساعدتهم فخلع عليهم واكثر من اكرامهم وارسلهم الى مصر فاخذوا الوجه البحري ثم القبلي ثم ما زالت مصر يتناوبها الاشوريون والاثيوبيون حتى انتهى الامر باغضاء الاشوريين عن تملكها لما يقتضي لذلك من المشقة فدخلت في سلطة « نوان ميامون » ملك اثيوبيا بدون كبير مشقة وترى كيفية استيلائه مكتوبة بالهيروغليف نقشا على حجر وجد في اطلال مدينة « نبته » بجبل برقل وهو محفوظ في المتحف المصري

العائلة السادسة والعشرون الصاوية

حكمت من ١٢٨٧ — ١١٤٩ ق م و ٦٦٥ — ٥٢٧ ق م وعدد ملوكها ٦

اولهم « بسامتيك الاول » استولى على الوجه البحري والقبلي حتى الشلال الاول وكان اجنبياً وليس من العصبية الملوكية الا انه اقترن بابنة من العائلة الملوكية فاكتسب حق التملك بواسطتها . فتولى الملك ومصر تئن ضعفاً وقنوطاً لما قاسته من الحروب التي توالت عليها اعواماً بين الاشوريين والاثيوبيين فاخذ في احياء ربوعها واعادة رونقها اليها فبنى المعابد في منف ووجهات معبد فتاح وفتح فيها طرقات على عمد عديدة وبنى القاعة الكبيرة التي كانوا يعلفون فيها العجل « ابيس » ورمم ما

كان متهدماً من معبد الكرنك . وباشر جميع هذه الاعمال دفعة واحدة فاصبحت مصر كانها معمل عظيم للبناء والترميم ونشط على الخصوص صناعة الحفر والنقش فبلغت اوجاً رفيعاً . ثم نظر الى مناعة البلاد فرآها محاطة باعداء كثيرين اشد بأساً منها كالاشوريين والاثيوبيين فأخذ في تحصينها فبنى القلاع والحصون في مضايق طرق الشام من الشرق وفي ضواحي بركة المنزلة وفي مدينة دفنة بالقرب من « تسال » لمنع اغارة الاشوريين وحصن اصوان لدفع الاثيوبيين

على انه عمد بعد الاكتفاء بالدفاع الى الهجوم فهاجم الاثيوبيين وحاربهم فظهر عليهم ثم سار الى الشام فاستولى على فلسطين واخذ مدينة اشدود من الكنعانيين ثم عاد الى بلاده قانعاً بما اوتيه من النصر . وفي ايامه كثر تردد الاجانب الى مصر وفيهم اليونان فكان يكرم مثواهم ويقطعهم من بلاده على سواحل بحر طينة ما يبتنون فيه معاقل وبيوتا يقيمون فيها

اما اليونان فاعجبتهم مصر وطاب لهم المقام فيها فاخذوا يتعلمون علومها وصنائعها واعجبتهم الديانة المصرية فاصطنعوا آلهتهم على مثال آلهة المصريين . وادخلوا احداثهم المدارس المصرية فنبغوا وقام بينهم فلاسفة لا نزال نستفيد من تعاليمهم الى هذا العهد . ومن هؤلاء الفلاسفة سولون وفيثاغورس وافلاطون وغيرهم وقد كان المصريون قبل ذلك العهد ينظرون الى اليونان نظر الاحتقار ويجتنبون معاشرتهم وكانوا يبالغون جداً في وجوب الابتعاد عنهم . اما « بسامتيك » فكان يحبهم ويقربهم منه حتى جعل بطانته منهم والف معظم جيشه من رجالهم فاصبحت مصر في قبضة يدهم . فعظم ذلك على المصريين الى حد لم يمكنهم معه البقاء في بلادهم ولم يجدوا سبيلاً لشفاء ما في نفوسهم الا بالهجرة من مواطنهم ومغادرتها لاولئك النزلاء فاجتمع منهم نحو ٢٤٠ الفاً . وهموا بالجلاء الى اثيوبيا فتبعهم الملك واستعطفهم ان لا يفعلوا فأتوا فقال لهم ولمن تغادرون نساءكم واولادكم قالوا اينما ذهبنا نجد نساء واولاداً وما زالوا حتى دخلوا اثيوبيا فاستقبلهم ملكها واكرم مثواهم وادخلهم في جيشه فتألفت منهم جيوش عرفت بالاسماخ اي حجاب ميسرة الملك وسماهم اليونان بعد ذلك « انو بولس » . اما « بسامتيك » فعرف بعد ذلك خطأه فأخذ في اصلاحه فسعى في حشد الجيوش ولكن هيهات ان تعود مصر الى رونقها وكان هو الجاني على نفسه

ولما توفي تولى ابنه « نخاو الثاني » فاتم تنظيم الجيوش وكان ذا نفس ابية وهمة عالية فانشأ معامل بحرية لتشييد السفن الحربية على نية افتتاح سواحل البحر الاحمر

والمتوسط وجعل رؤساء تلك المعامل من اليونان . ولاح له لاتمام مشروعه ان يوصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط فحفر ترعة امتدادها اربع مراحل وعرضها يسع سفينتين اولها مدينة بسطة بقرب الزقازيق وآخرها بركة التمساح لان البحر الاحمر كان على مقربة من تلك الجهة وكان قد سبقة الى هذا المشروع (حسب قول بعضهم) ملوك العائلة العشرين ففتحوا هذه الترعة لكنها سدت بعد ذلك بالرمال . وسيأتي امامك كلام مفصل عن تاريخ الوسائل التي اتخذت لايصال البحرين عند الكلام على ترعة السويس من هذا الكتاب

ثم سار نخاو بجيش لافتتاح فلسطين وافتتح معها اكثر البلاد في طريقه اليها وكانت تحت سلطة الاشوريين ولما عاد الى مصر كافأ من كان في عساكره من اليونان

ثم ان ملك الاشوريين « نبوخذ نصر » ارسل ابنه بختنصر في جيش لاسترجاع فلسطين والشام من المصريين فسار ولم يبلغ مقصوده حتى بلغه موت ابيه فعاد الى بابل مسرعاً بعد ان استرجع الشام . وحاول « نخاو الثاني » بعد ذلك الاستيلاء على بلاد الشام ثانية فلم يستطع

ثم توفي وخلفه ابنه « بسامتيك الثاني » وهذا لم تطل ايام حياته فخلفه « وح ابرع » وهو الذي استنجد به « صدقيا » ملك اليهود على محاربة بختنصر ملك بابل في عصر ارميا النبي فسارت جيوش مصر وما لبثت حتى عادت منهزمة فاستولى الاشوريون على اليهود فالتجأت اليهود الي مصر فاقطعهم ملكها ارضاً بقرب دفنة فانتشروا في مجدل ومنف وبعضهم سكن الصعيد

وبختنصر لما استولى على الشام طمع بمصر فجاءها مهاجماً وقتل ملكها واستولى عليها واقام فيها عاملاً من امرائه وعاد الى بلاده وساق معه جميع من كان في مصر من العملاء الا ان هيرودونس المؤرخ يقول خلاف ذلك

ثم حكم مصر الملك « اموزيس » وهذا كان في خشية من غارات الفرس على بلاده ولذلك كان يحاذرهم لقوتهم على انه لم ينج من غائلتهم فسلبوه بعضاً من بلاده لكنه بالسياسة وحسن التدبير أمن من اغارتهم على كرسي ملكه فارتاحت مصر في ايامه فاقام فيها البنايات والمعابد والمسلات واتسعت التجارة ولا سيما مع اليونان فانهم كانوا من البارعين فيها فزاد عددهم في مصر حتى بلغ ٢٠٠ الف نفس فاعطاهم اموزيس ارضاً ابتنوا فيها بيوتاً لهم بالغوا في اتقان بنائها فاصبحت مدينة من اجمل مدن مصر ثم جعلوا يحصنونها . وبعد يسير سنوا لانفسهم قانوناً مخصوصاً . وكانت تجرة مصر في ايديهم فاتسعت وباتساعها

اتسعت شهرة مصر فطمع الناس فيها فاتاها الطلاب من كل الجهات بين فلاسفة وتجار واجناد . ثم راى « اموزيس » من الحكمة ان يتحالف مع اثينا لعلها تفيده ضد ملك فارس ففعل وتم التحالف

وفي اثناء ذلك مات « قورش » ملك فارس فقام ابنه « كمبيز » مكانه وكانت مطامعه لا تزال قوية في مصر فأخذ منذ توليته الملك يسعى في هذا السبيل فاستكشف انسب طريق يؤدي الى وادي النيل برًّا ولزيادة التأمين عقد معاهدات مع القبائل البدوية التي في طريقه ليمدوه بالماء الذي يحتاج اليه رجاله وبنا، على هذه المعاهدات سارت الجيوش الفارسية وما زالوا حتى نزلوا امام طينة فبلغهم ان « اموزيس » توفي وتولى مكانه « بسامتيك الثالث » وهذا جهز جيوشه وعساكره عند طينة لدفع الفرس فحصلت موقعة كبيرة وكان الفرس لشدة مكرهم قد جعلوا امام جيوشهم عدداً عظيما من القطط والبزاة وغيرها من الحيوانات المقدسة عند المصريين فذهب هؤلاء ولم يجسروا على رمي السهام مخافة ان تصيب تلك الحيوانات المقدسة فلم يكن لديهم الا الفرار ففروا الى منف . فارسل اليهم « كمبيز » رسلاً في مركب يطلب اليهم التسليم فخرج المصريون الى ذلك المركب وكسروه اربا وقتلوا من كان فيه جميعاً فاستشاط كمبيز غضباً وانتقاماً فسار بجيشه الى منف وفتحها عنوة وقبض على بسامتيك وقيده واهانه واودعه السجن ومن معه وكان بسامتيك صبوراً فاحتمل كل ذلك ولم يبد تضجراً فعجب كمبيز لصبره ثم اتفق بينما كان بسامتيك جالساً في السجن مقيداً وكمبيز بجانبه اذ مر به احد ندمائه السالفين متردياً بثوب خلق فتأفف بسامتيك وصفع بيده على جبهته متأسفاً فقال له كمبيز مالك تتأسف وتتافف الان وقد احتملت منا اهانة عظيمة ولم تبد في اثنائها اسفاً . فقال انما اتأسف على حالة هذا الرجل فانه كان في عز وقد اصبح كما ترى والرجل اذا حلت به المصائب وتجرد من ذات يده واهين شرفه يحق عليه الاسف فتأثر كمبيز من ذلك واسرع الى حل قيوده واعاد اليه شرفه الا انه رآه بعد ذلك يسعى ضده فامر بقتله فانتهت هذه العائلة وابتدات العائلة السابعة والعشرون

العائلة السابعة والعشرون

الدولة الفارسية الاولى

حكمت من سنة ١١٤٩ — ١٠٢٨ ق ه او من ٥٢٧ — ٤٠٦ ق م وعدد ملوكها ٧

اولهم « كمبيز » المتقدم ذكره فهذا كان يراعي ميل الوطنيين فابقاهم على ما كانوا يعبدون واعاد الى اعيانهم امتيازاتهم وحقوقهم وتلقى اسرارهم اللاهوتية ليكون له المام

فيها واضاف الى اسمه القاباً فرعونية وكان لفتح مصر عظيم هيبة وتأثير عند الامم المجاورة فسعوا جميعاً الى كمبيز بالهدايا والجزية وجعل كمبيز مصر حصناً يستعين به في فتح افريقيا. ثم جند لقرطاجنة فلم يفز بها فعاد وجند الى واحات سيوى فلم يرجع من رجاله مخبر

ثم طمع في اثيوبيا وكانت اذ ذاك على جانب من المنعة والثروة فارسل اليها جواسيس معهم الهدايا فساروا وقدموها الى ملك اثيوبيا وكان فطناً نبيهاً فعرف مقاصدهم لكنه اظهر استحساناً لهديتهم. ثم قال لهم وفي يده قوس كبيرة «انظروا الى هذه القوس» ورمى منها سهماً وقال «خذوا هذه القوس الى ملككم كمبيز واخبروه ان الانسب ان يأتي هو بمفرده فقط لفصل ما تحدثه به نفسه حقنا لدم العباد وهذه القوس قولوا له اني اوترتها وحدي فاذا استطاع ذلك جاز له شيء مما يكنه ضميره والا فليحمد الالهة لاغضائنا عن بلاده» فلما بلغ كمبيز ذلك اخذت به سورة الغضب فجرد جيشه وطلب اثيوبياً من اقرب الطرق فسار في صحراء كروسكو وهو لا يدري مسافتها فعطش جيشه وجاع حتى اكل بعضهم بعضاً فاضطر الى العود وفي نفسه من الغيظ ما كاد يذيبه فجاء منف وكان اهلها في احتفال سنوي لاحد معبوداتهم فظنهم فرحين لخيبته فامر بقتل كل الكهنة وشق صوف العجل «أبيس» والقاه للكلاب تاكله ثم سخر بمعبوداتهم فجعل احدها فتاح على هيئة قزم زميم الخلق ونهب جميع ما كان في المدافن القديمة وزاد فجوره حتى قتل اخته وغيرها ممن هم بريئو الساحة وهو مشهور بالقسوة والعسف. وبقي على كرسي الملك ثلاث سنوات ثم قتله شعبه

وتولى بعده «دارا» فاخذ يسعى في وسيلة يستجاب بها رضى المصريين فاتفق موت العجل ابيس في اول حكمه فجاء بنفسه الى المعبد واظهر تاسفه الشديد لذلك ووعد بمبلغ وافر لمن يأتي بعجل اخر مثله فاحبه المصريون واتسعت مملكة الفرس في ايامه كثيراً فكان تحتها ٣١ ولاية وقبل ان يبارح مصر زار معبد فتاح بمنف واراد ان يجعل تمثاله بجانب تمثال رعمسيس الثاني فمنعته الكهنة بحجة انه لم يأت بعد على ما أتاه رعمسيس الاكبر فقال لهم دارا «اني ارجو ان اساوي رعمسيس الاكبر ان طال عمري بقدر عمره» وأذعن دارا لقول الكهنة بكل احترام

ومن مآثره انه مهد سبل التجارة فاتم طريق التواصل بين البحرين كما سترى عند الكلام على ترعة السويس وفتح طريق قفط للمواصلات برًّا وطريق اسيوط الممتدة الى العرابة المدفونه ومنها الى اصوان واكثر من العساكر للمحافظة على الواحات الكبرى. وكان الفرس القاطنون في مصر مجوساً متعصبين فصرح لهم باتباع دينهم

على ان لا يستخدموا الكتابة الهيروغليفية على الاطلاق

ثم ثار اليونان في اسيا فسار بجيش كبير لاقناعهم فاغتنم المصريون فرصة غيابه وشقوا عصا الطاعة وانزلوا ولاة « دارا » وعهدوا الحكم الى رجل يدعى « خبيش » من سلالة « بسامتيك » فعلم دارا بذلك فهم اليه لكنه توفي قبل اتمام مشروعه فأقيم ابنه « شيارش » مكانه فجاء مصر واسترجعها عنوة الا انه كان فاتر الهمة فاطلق تدبير الاحكام لولاة يعيثون بها كيف شأوا وهكذا كان شأنه في سائر ولاياته فلم تمض مدة من الزمن حتى تجرد من سائر تلك الايالات وقتله من هم حوله وتولى الملك بعده الملك « ارتحشارشا » فاحب المصريون الخروج من طاعته فاستنجدوا عليه اليونان فانجدوهم فحصلت حروب طويلة انتهت بانهزام المصريين وثبوت قدم الفرس

وفي سنة ٤٢٥ ق م توفي « ارتحشارشا » وخلفه الملك « شيارش الثاني » ثم « سوغديانوس » ثم « دارا الثاني » وبه انتهت هذه العائلة وعادت مصر للمصريين

العائلة الثامنة والعشرون الصاوية

حكمت من سنة ١٠٢٨ — ١٠٢١ ق هـ او من ٤٠٦ — ٣٩٩ ق م

ليس لهذه العائلة الاملك واحد يدعى « اميرتيوس » ولاه المصريون عند تخلصهم من نير الفرس وحكم مدة سبع سنين كلها اصلاح وترميم

العائلة التاسعة والعشرون الاشمونية

حكمت من سنة ١٠٢١ — ١٠٠٠ ق هـ او من سنة ٣٩٩ — ٣٧٨ ق م وعدد ملوكها ٤

وليس في تاريخها شي مهم سوى ان الفرس كانوا يهددونها وقدموا يريدون الاستيلاء عليها ولم يظفروا

العائلة الثلاثون السمنودية

حكمت من سنة ١٠٠٠ — ٩٦٢ ق هـ او من ٣٧٨ — ٣٤٠ ق م وعدد ملوكها ٣

قضوا مدات حكمهم وهم بين دفاع وحذر من استيلاء الفرس وحصل بينهما عدة وقائع كانت قيادة الجيوش المصرية فيها بيد قواد من اليونان مجربين ولم يفز الفرس الا في الواقعة الاخيرة . وكانت حكومة مصر بيد « نكتانيبس » فانهزم الى النوبة وهو اخر من حكم مصر من المصريين الاصليين لانها خرجت من يده الى الفرس ومنهم الى اليونان ثم الرومان ثم العرب ثم الترك كما سترى

العائلة الحادية والثلاثون

الدولة الفارسية الثانية

حكمت من ٩٦٢ — ٩٥٤ ق م او من ٣٤٠ — ٣٣٣ ق م وعدد ملوكها ٣

اولهم الملك « اوخوس » الملقب « بارتحشارشا الثالث » والذي نزع مصر من يد المصريين . مات مسموماً بخباء ابنه « ارسيس » وحكم سنتين ثم مات وخلفه احد اقاربه المدعو الملك « دارا الثالث » وكان يدعى قبل توليته « كودومانوس » وكان

ش ١٥ — اسكندر المكدوني

معاصراً الاسكندر المكدوني الشهير . وفي ايامه جعلت دولة الفرس تتقهقر وبدا نجم اليونان بالاشراق فاخذ الاسكندر في فتوحاته وتوسيع مملكة ابيه ففتح الهند وفارس واستولى على مصر بعد موقعة انتهت بانهزام الفرس ودارا الثالث معهم وقتل كثير من رجاله ثم قتله احد نوابه فانتقل بعده حكم مصر الى اليونان

العائلة الثانية والثلاثون

الدولة اليونانية

حكمت من ٩٥٤ — ٩٤٥ ق هـ او من ٣٣٢ — ٣٢٣ ق م

اول ملوكها وآخرهم « اسكندر المكدوني ». تغلب هذا الفاتح العظيم على الفرس واخرجهم من مصر ودخلها عنوة فمر ببقعة من الارض على شاطىء البحر المتوسط من حدود مصر فاستحسن موقعها لانه رآها عبارة عن لسان من اليابسة داخل في البحر وعلى احد جانبيه بحيرة مريوط المشهورة فلاح له ان يبتني فيها مدينة فبناها على رسم مخصوص رسمه بنفسه وعهد اتمام العمل الى المهندس « نيوكراتس » فلما تم بناء المدينة دعاها الاسكندرية ولا تزال معروفة بهذا الاسم الى هذا العهد . وفي ٢٤ مايو (ايار) سنة ٣٢٣ قبل المسيح توفي هذا البطل الباسل في بابل وسنه ٣٣ سنة فنقلت جثته الى الاسكندرية ودفنت فيها

العائلة الثالثة والثلاثون

البطالسة

حكمت من ٩٤٥ — ٦٥٢ ق هـ او من ٣٢٣ — ٣٠ ق م

بطليموس الاول سوتر حكم ٣٢٣ — ٢٨٥ ق م

لما توفي الاسكندر جاء بطليموس الاول واسمه سوتر من بابل ووضع يده على مصر وجعل يسعى في اكتساب ثقة اهلها ثم ارسل احد قواده المدعو « بيكانور » في جيش لافتتاح سوريا فسار وحارب وفاز ولم تمض بضع سنين حتى ضم الى مصر سوريا وقبرص وفينيقية

ثم شرع في بناء المعابد في الاسكندرية واقام على جزيرة فرعون التي يصلها

بالاسكندرية برزخ صغير برجاً يبلغ علوه الف ذراع على قمته نور يستضيء به القادمون بحراً وقد هدم هذا البرج الآن ولم يبق له اثر . ومن مآثر هذا الملك مدرسة الاسكندرية الشهيرة فانه جمع اليها العلماء والفلاسفة من اليونان وسائر بلاد العلم والصناعة في ذلك العهد وكان يكرم وفادتهم ويضعهم في مكانهم من الهيئة الاجتماعية وانشأ مكتبة نفيسة طار صيتها في الآفاق

بطليموس الثاني فيلا دلفوس ٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق م

وفي السنة التاسعة والثلاثين من حكم سوتر عهد الملك لابنه البكر «فيلادلفوس» واجلسه على كرسي الملك في حياته سنة ٢٨٥ قبل المسيح ولقبه ببطليموس الثاني ثم توفي سنة ٢٨٣ قبل المسيح فاهتم بطليموس الثاني في توطيد العلاقات مع الدول

ش ١٦ ــ فلكي اسكندري يرصد الافلاك

المعاصرة ولا سيما دولة الروم (الرومانيين) ولم يكن بينهما سابق مخابرات مطلقاً وليتها لم تحصل لانها كانت آخر الامر داعياً لاستيلاء الروم على مصر . ثم عكف هذا الملك على تنشيط العلم وذويه فزاد في مكتبة ابيه فبلغت الاسكندية في ايامه مبلغاً عظيماً من العلم والثروة ولم تعد ترى مثله بعد ذلك الحين . فقد كانت محور التجارة ومحط رحال

العلماء والفلاسفة . وفي ايامه ايضاً ترجمت التوراة الترجمة السبعينية المشهورة

ومن مآثره خرائب انس الوجود عند شلال اصوان فانه هو الذي شرع في بناء الهيكل الكبير الذي تشاهد اطلاله هناك الى هذه الغاية على جزيرة فيلوي تجاه اصوان ويدعوها العامة ايضاً جزيرة البربة وهي من الآثار المشهورة وقد اشتغل في اتمام بناء الهيكل كل من جاء بعد فيلادلفوس من البطالسة

بطليموس الثالث افرجيت ٢٤٧ـ ٢٢٢ ق م

وكانت مدة حكم فيلادلفوس ٣٨ سنة ثم توفي وخلفه ابنه « افرجيت الاول » ولقب ببطليموس الثالث وكان محباً للفتوح فجرد جيوشه الى اسيا مقتدياً برعمسيس الثاني فلم يكن حظه منها باقل من حظه لانه دوخ جميع البلاد التي على الفرات فبابل فالفرس فما وراءها وضرب الجزية عليها كلها واعظم ما سرَّ به المصريين انه استرجع من الفرس جميع ماكان منقولاً الى بلادهم من تماثيل الآلهة المصرية بامر كمبيز . ثم غزا اثيوبيا حتى « ابريم »

بطليموس الرابع فيلوپاتر ٢٢٢ ـ ٢٠٥ ق م

وفي سنة ٢٢٢ قبل المسيح توفي « افرجيت الاول » بعد ان حكم ٢٥ سنة تاركاً الملك لابنه « فيلوپاتر » فتولى الاحكام حال وفاة ابيه ولقب ببطليموس الرابع الا ان المصريين اتهموه بقتل ابيه فكرهوه وكان فظاً عاتياً فزادهم كرهاً . وبعد جلوسه بيسير سار في جيش عظيم لمحاربة انطيوخس صاحب سوريا فحاربه فطلب الصلح بان يرجع له سوريا وفينيقية فقبل فيلوپاتر وبقي هناك بضعة اشهر ثم عاد الى الاسكندرية . كل ذلك واخته « ارسينوا » معه لم تفارقه يوماً واحداً . فاصبحت الاسكندرية بعد ذلك في رغد ورخاء فعكف فيلوپاتر على الملذات فنسي واجباته المقدسة نحو البلاد فكثر اللغط بين الاهلين وتكررت التظلمات وليس من يجيب

وفي ٩ اكتوبر (تشرين الاول) سنة ٢١٢ ق م او سنة ٨٣٤ قبل الهجرة وضعت ارسينوا غلاماً ولم يكن من وارثي الملك غيره فما كان من فيلوپاتر الا انه قتل ارسينوا بدسيسة بعض ذويه . وفي ٢٩ مارس (اذار) سنة ٢٠٥ قبل المسيح مات فيلوپاتر واخفى اصحابه خبره حيناً ريثما يتمكنون من سلب امواله . ثم شاع خبره فاقاموا عوضاً عنه ابنه الوحيد « ابيفان » وهو بطليموس الخامس ولم يكن له من العمر الا خمس سنوات فاقيم عليه وصيٌّ من سراة الدولة

وفيلوپاتر هو المؤسس الاول لهيكل ادفو (فيما بين الاقصر واصوان) وقد اتم بناءه

من جاء بعده من البطالسة . والهيكل المذكور من اوضح الهياكل المصرية لانه باق برمته الا ان الرمال قد غطت جزءه السفلي فترى فيه الاعمدة والرواقات والابواب مكشوفة كشفاً تاماً

فلما راى انطيوخس حالة مصر من الارتباك بعد وفاة فيلوپاتر عاد الى ما كان شارعاً فيه ففتح سوريا وفينيقية عنوة وهمَّ الى مصر فعرض له شاغل اكثر اهمية فعقد مع نواب مصر صلحاً على ان يعطي ابنته كليوبيطرا زوجة لبطليموس الخامس وان يترك له مقابل ذلك البلاد التي فتحها فقبلوا

بطليموس الخامس ابيفان ٢٠٥ — ١٨١ ق م

وفي ٢٧ مارس سنة ٢٠٥ قبل المسيح أجلس «ابيفان» على كرسي الملك وسلم زمام الاحكام فكتب الكهنة شيئاً عن ذلك نقشاً على حجارة في ثلاث لغات كانت متعارفة في ذلك العهد وهي الهيروغليفية (القلم المصري القديم) والديموطيقية واليونانية وقد وجد احد هذه الحجارة في رشيد وبواسطته توصلوا الى حل رموز القلم المصري القديم كما مرَّ بك . وفي سنة ١٩٢ زفت «كليوبيطرا» ابنة «انطيوخس» الى ابيفان بطليموس الخامس . وفي نحو السنة الثامنة عشرة من حكمه زادت التشكيات والتظلمات لسوء تدبيره وضعفه وما زال الاهلون يزيدون عليه حنقاً وحقداً حتى يئسوا من الاصلاح فاماتوه مسموماً في سنة ١٨١ قبل المسيح

بطليموس السادس فيلوماتر ١٨١ — ١٤٦ ق م

فتولى مكانه ابنه «فيلوماتر» وهو بطليموس السادس وله من العمر خمس سنوات فحكم تحت رعاية امه كليوبيطرا فاقامت له اوصياء من رجال دولته العقلاء . وفي السنة الحادية عشرة من حكمه انتشبت الحرب بين مصر وسوريا وما زالت بينهما سجالاً حتى انتهت بانهزام المصريين واسر ملكهم فيلوماتر . وسار السوريون في مصر برًّا الى منف اما الاسكندريون فلما علموا بسقوط منف واسر ملكهم اقاموا عوضاً عنه اخاه افرجيت الثاني وبعد اربع سنوات أخرج السوريون من مصر بمساعدة الروم وعادت مصر لحكم البطالسة فعاد فيلوماتر الى منصبه

بطليموس السابع افرجيت الثاني ١٤٦ — ١١٧ ق م

وفي سنة ٧٦٨ قبل الهجرة او ١٤٦ قبل المسيح توفي فيلوماتر بعد ان حكم ٣٥ سنة فاقيم على مصر «افرجيت الثاني» وهو بطليموس السابع وقد كان الحق في

الحكم لابن فيلوماتر الا انه كان صغيراً فقتله عمه وتزوج بامه فكان الوريث الوحيد ولم يكن افرجيت الثاني حسن السياسة فكان يقتل ويسجن ويستبد في احكامه بغير وجه حق فكرهته الرعية وصاروا يتوقعون له داهية وبالغوا في اضطهاده الى حد انه لم يعد يمكنه البقاء بينهم ففر من مصر ثم عاد اليها وما زال حملاً ثقيلاً على عاتق رعيته الى آخر ايام حكمه فاهتدى الى الصراط المستقيم واخذ في تنشيط العلم والصناعة حتى انه كان يمارسهما بنفسه والف نحواً من اربعة وعشرين كتاباً معظمها في علم الحيوان

بطليموس الثامن والتاسع سوتر الثاني واسكندر ١١٧ — ٨٢ ق م

وفي سنة ٧٣٩ قبل الهجرة او سنة ١١٧ قبل المسيح توفي افرجيت الثاني بعد ان حكم ٢٩ سنة فاستدعت كليوبيطرا اولادها وكان البكر في قبرص فاتى مصر فولته الملك ودعته « سوتر الثاني » و يسميه العرب « شوطار » فهو بطليموس الثامن ثم سعت في ابعاده لغرض في نفسها فاشاعت انه مضمر قتلها فثارت الرعية عليه ففر الى قبرص ثم الى سوريا فاستدعت اخاه « اسكندر » وولته الملك فكان بطليموس التاسع فخاف على نفسه ايضاً ففضل الاعتزال على اخطار الملك ففر الى قبرص وكان اخوه « سوتر الثاني » في سوريا يستعد للهجوم على مصر فلما رأت كليوبيطرا قرب مجيء الجيوش لمحاربتها اخطرت ابنها اسكندر فعاد من قبرص وبعد يسير عادت الامور الى مجاريها اما كليوبيطرا فكانت رغم كل عاطفة والدية تحاول التخلص من ابنها هذا . اما هو فعلم بما في نفسها وسبقها الى ذلك فذهب بحياتها وفر من مصر فاستدعى اهالي الاسكندرية سوتر الثاني من سوريا ليستلم زمام الاحكام فقدم فرحب به المصريون الا اهالي طيبة لكنهم ما لبثوا ان اذعنوا

وفي ايام سوتر هذا كانت مملكة الروم آخذة في الاتساع ودولتهم بالقوة والثروة ثم مات سنة ٨٢ قبل المسيح بعد ان حكم في المرة الاولى عشر سنوات وفي الثانية سبع سنوات ونصف

بطليموس العاشر اسكندر الثاني ٨٢ — ٨٠ ق م

فتولى مكانه ابنه « اسكندر الثاني » او بطليموس العاشر ولم يحدث في ايامه ما يستحق الذكر الا ان دولة الروم كانت قد استولت على سوريا وسيرينيا وليبيا واليونان فاصبحت مصر محصورة لا تستطيع حراكاً وكان اسكندر هذا ساعياً جهده في ارضاء الرعية لكنهم لم يكونوا يحبونه بل كانوا يرون فيه العسف والظلم

وما زالوا عليه حتى ابعدوه من الاسكندرية فسار الى صور فاعتراه مرض اشتد عليه حتى ذهب بحياته

بطليموس الحادي عشر اوليتس ٨٠-٥٢ ق م

ولم يبق من العائلة الملوكية من يحكم بعد اسكندر فانتخب الاسكندريون رجلاً منهم يدعى « ديونيسيوس » ولقبوه « باوليتس » لانه كان مغرماً بالفلوت (الآلة الموسيقية المعروفة) ولم يكن يهمه امر الملك على ان مصر كانت بغاية الاحتياج الى الحكمة والتدبير لما كان يهددها من المخاطر فثار الاهالي عليه في طلب الاصلاح وهو غير قادر عليه ولم يكن في وسعه اخماد الثورة لان الجيوش الذين هم حامية البلاد كانوا في جملة الثائرين فترك مصر وفر الى رومية . وكان له ابنتان الواحدة تدعى « كليوبيطرا » والاخرى « برنيس » وبعد بضعة اشهر ماتت الاولى (كليوبيطرا) فتولت الثانية مدة سنتين فعلم اوليتس بذلك فعاد الى مصر وقتل ابنته قصاصاً لها على اختلاسها الملك

آخر البطالسة كليوبيطرا ٥٢ - ٣٠ ق م

وبعد يسير توفي اوليتس فتولت ابنة له ثالثة اسمها ايضاً كليوبيطرا وكانت بالغة رشدها ولولا ذلك لتولى اخوها ديونيسيوس الثاني وقد كان لحرسه ان يتولى مكانه الا ان كليوبيطرا جاست على كرسي الملك حالاً ودعت نفسها ملكة وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وهي آخر من حكم من الدولة اليونانية في القطر المصري . وكان لهذه الملكة مطامع في السيادة وقد ملكت رغم مشقات كثيرة كانت تحول بينها وبين ماتريد فتولى اول الامر نازعها احد اخوتها ووافقه الاهلون فاخرجوها من مصر فسارت الى سوريا واستنجدت بجيوش الروم فساعدها يوليوس قيصر القائد الروماني الشهير واعاد الملك واغرق اخاها في النيل فتولت وتزوجت اخاها الآخر . ثم سارت برفقة قيصر الى رومية وبقيت عنده الى يوم مقتله سنة ٤٤ ق م ولما جاء يوليوس قيصر الاسكندرية زار قبر الاسكندر وكشف عن جثته ووضع عليها اكليلاً كما ترى في الشكل ١٧

وفي سنة ٤٢ قبل المسيح قتلت كليوبيطرا اخاها بالسم فخلا لها الجو ثم اتفق ان « انطونيوس واكتافيوس » القائدين الرومانيين كانا في حرب مع « بروتس » فامدت هذا الاخير بعمارة بحرية وكانت قبل ذلك قد ولدت ولداً دعته قيصرون نسبة الى قيصر والده فكان هو الملك على مصر رسمياً

ش ١٧ — يوليوس قيصر امام جثة الاسكندر

فلما بلغ انطونيوس وهو في طرسوس ان كليوبيطرا انجدت بروتس عدوه بالمال والرجال خلافاً للمعاهدة استدعاها الى طرسوس للمرافعة فركبت زورقاً جميلا مزخرفاً جؤجؤه من ذهب ومجاذيفه من فضة تخرج عند التجذيف بها صوتاً موسيقياً مطرباً وكانت كليوبيطرا من اجمل النساء فلبست افخر ما لديها من اللباس الثمين وجعلت حولها الجواري في احسن ما يكون من الترتيب والنظام ونشرت الارواح العطرية في ذلك الزورق . فلما بلغت طرسوس وشاهدها انطونيوس شغف بها ولم يعد يخالف لها امراً فاصدر الحكم كما شاءت وشاء الغرام فعادت الى مصر غانمة

وبعد يسير زارها انطونيوس في الاسكندرية فاكرمت مثواه فدعاها ملكة الملوك يودعى ابنها قيصرون ملك الملوك بدعوى انه ابن قيصر بحسب الشرع وكان ذلك سنة ٣٦ قبل المسيح فزادت كليوبيطرا عجباً على عجب ولم تعد تكتفي بلقب الملوك

فدعوها ايزيس الالهة الجديدة . واما انطونيوس فانساه الغرام كل واجباته ولم يعد يعلم اهو نائب القيصر ام هو ملك مصر لانه اصبح اسيراً لكليوبيطرا وكتب اسمه بجانب اسمها

ولما بلغ ذلك المشيخة الرومانية اشهرت الحرب على ملكة مصر سنة ٣٢ ق م فبعثت اوكتافيوس بجيش وجعلت نقطة المحاربة في « فارنتو » و « برندزي » فلم يقبل انطونيوس بذلك وطلب ان تكون الحرب في فرساليا ثم أعد جيشه وسار في خمسمائة مركب وسارت معه كليوبيطرا في ستين مركباً فالتقى الجيشان في اكتيوم باليونان وابت كليوبطرا الا ان تكون الحرب بحراً

ثم انها خشيت ان تعود العاقبة على جيش انطونيوس فانسحبت بمراكبها شيئاً فشيئاً وكان انطونيوس مهتماً باعداد المهمات الحربية غير مبال بالموت في جانب مرضاة سالبة له ثم التفت الى مراكبها فاذا هي بعيدة تخترق عباب البحر فاقتفى اثرها تاركاً رجاله يحاربون ولا يدرون مقره وما زال حتى ادركها وسار بها الى مصر

اما الحرب فانتهت بانكسار جيوش انطونيوس

ثم رات كليوبطرا ان محبها انطونيوس لايقوى على حمايتها فالتجأت الى الجانب الاقوى فارسلت صولجانها سرًّا الى اوكتافيوس وطلبت مساعدته فوعدها بما تريد بشرط ان تتخلص من انطونيوس فعمدت الى الحيلة فاخفت نفسها وكل امتعتها واشاعت انها ماتت فلما علم انطونيوس بذلك لم يعد يهوى الحياة بعدها . ثم بلغت خيانتها فقتل نفسه

اما اوكتافيوس فاستلم زمام الاسكندرية ونوى بكليوبطرا سوءاً فاوجست هي خيفة منه وجعلت تستجلبه بما استجلبت غيره من قبله فلم تفز وفي آخر الامر قبض عليها ففضلت الانتحار على ان يقتلها غيرها فقربت ثعباناً سماً الى صدرها فلدغها فماتت في ١٥ اغسطس (آب) سنة ٣٠ قبل المسيح وقال آخرون في كيفية موتها غير ذلك والله اعلم

وكانت مدة حكمها ٢٢ سنة وكان ذلك اليوم آخر حكم اليونان بمصر واول حكم الروم فيها وهي :

(انظر الصورة في الصفحة القابلة)

ش ١٨ — كليوبطرا والثعبان يلدغها

العائلة الرابعة والثلاثون

الدولة الرومانية

حكمت من ٦٥٢ — ٢٤١ ق هـ او من ٣٠ ق م — ٣٨١ ب م

لما ماتت كليو بيطرا على ما تقدم دخلت مصر في حوزة دولة الروم وصارت ولاية من ولاياتهم يتولاها والٍ منهم يحكم بمقتضى شرائعهم

وهذه الدولة هي آخر دول الدور الجاهلي وقد توالى على مصر في حوزة دولة الروم عدة ولاة ليس في سرد اخبارهم ما يستحق الذكر سوى ظهور الديانة المسيحية في العالم ومجيء بعض نصرائها الى مصر وما لاقوه فيها من الاضطهادات العنيفة واشهر تلك الاضطهادات اضطهاد ديوقليطيانس فانه بالغ في مطاردة المسيحيين وقتل منهم جمعاً غفيراً

بين كهنة وعامة . ومن تولية هذا الملك (في ١٣ يونيو (حزيران) سنة ٢٨٤ ب م
يبتدىء التاريخ القبطي المعروف بتاريخ الشهداء وهو المعوَّل عليه عند الطائفة القبطية
الى هذا العهد . وفي سنة ٣٠٦ ب م جعل قسطنطين امبراطور الروم سرير ملكه في
مدينة بيزانس (القسطنطينية) فانحطت سطوة مصر

وفي سنة ٢٤١ ق هـ او ٣٨١ ب م نهى الامبراطور « ثيودوسيوس » المصريين

ش ١٩ — ثيودوسيوس الاكبر

عن عبادة الاصنام وامرهم باتباع الديانة المسيحية وانفاذاً لامره هذا اسرع في هدم
الهياكل وتنزيل الانصاب وابطال التقاليد التي كان يعتبرها المصريون من ضروريات
التدين وكل ذلك بمساعدة بطريرك الاسكندرية ثيوفيلوس . وهنا ينتهي الدور الجاهلي
ويبتدىء الدور المسيحي

الدور المسيحي

من سنة ٢٤١ ق هـ — ١٨ ب هـ او من ٣٨١ — ٦٤٠ ب م

لما توفي «ثيودوسيوس» سنة ٣٩٥ ب م قام ولداه «هونوريوس» و«اركاديوس» واقتسما المملكة الرومانية بينهما فجعلاها مملكتين شرقية وغربية وجعلا عاصمة الشرقية بيزانس وعاصمة الغربية رومية وكان كلاهما حاكمين معاً في وقت واحد اما مصر فكانت تابعة للمملكة الشرقية

وكان هـذا الانقسام رمزاً عن قرب انحلال هذه الدولة لان الامبراطورين ما فتئا يتناظران والانقسامات الدينية تزيد كل يوم والحرب قائمـة سجالاً بين لاهوتيي الاسكندرية . وكان لكل من الفريقين احزاب جمة وكثيراً ما اشتد الخصام بين هذه الاحزاب في الاسكندرية فآل الى اشهار السلاح واهراق الدماء وكان الامبراطوران عبثاً يحاولان التوفيق بينهما

وكان النصارى اذ ذاك قسمين متباينين في اجناسهم وعقائدهم احدهما اهل الدولة وكلهم روم ورايهم وديانتهم باجمعهم الديانة الملكيـة وعـدتهم تزيد على ثلثمائة الف رومي

والقسم الآخر عامة اهل مصر و يقال لهم القبط وانسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منها القبطي من الحبشي من النوبي من الاسرائيلي الاصل من غيره وكلهم يعاقبـة فمنهم كتاب المملكة ومنهم التجار والباعة والاساقفة والقسوس واهل الفلاحة والزرع واهل الخدمة والمهنة وبينهم وبين الملكية اهل الدولة من العداوة ما يمنع تزاوجهم وبوجب قتل بعضهم بعضاً وعددهم عدة ملايين وهم بالحقيقة اهل مصر اعلاها واسفلها

وفي سنة ٦١٠ للميلاد تولى عرش القسطنطينية الامبراطور هرقل والمملكة لا تزال آخذة بالتقهقر وكانت طائفة القبط قد ظهرت على سواها واتضح انها ستكون المؤسسة للديانة المسيحية في مصر . على ان دولة الروم كانت ترغب في جعـل المصريين على مذهبها في الدين لتثبت لها مصر لكن اولئك لم يغفلوا عن هذا فثبتوا على مبادیهم وحفظوا لغتهم وحافظوا على شريعتهم الدينية فترجموا جميع تعاليمها اليهـا ولا

يخفى ان ذلك جمع كلمتهم وشد عرى اتحادهم فقووا وثار في خاطرهم امر الاستقلال وقد كان في وسعهم الحصول عليه لو طلبوه

ومما كان زاد الاقباط ثبوتاً ضد الروم انهم كانوا يشاهدون قرب سقوط هذه الدولة وما كان يهددها من جميع الجهات فالفرس هددوا حدودها الشرقية والمغاربة كانوا ينتظرون اول فرصة لرفع النير عنهم وهكذا غيرهما من الولايات . الا ان التقادير كانت تعد هذه البلاد لامة حديثة نشأت في شبه جزيرة العرب نعني الامة الاسلامية

ش ٢٠ — هرقل امبراطور الروم وجنوده

وكانت شبه جزيرة العرب في ذلك العهد جزءاً من مملكة الروم كسائر بلاد سوريا وفلسطين ومصر الا انهم لم يكونوا يسكنون فيها ولا يعتنون بها على انهم لم يأخذوها بالحرب وانما كان تسلطهم عليها لمجرد عظمتهم ونفوذهم ولذلك لم يكن فيها حاميات من جنودهم . وهنا ينتهي الدور المسيحي ويبتدىء الدور الاسلامي وهو تاريخ مصر الحديث

تاريخ مصر الحديث

فصل في

مصادر تاريخ مصر الحديث

لم ارَ بين المؤرخين الكثيرين الذين كتبوا في تاريخ مصر الحديث من جاء على كتابة وافية تتعاقب فيها الحوادث بتعاقب السنين مع علاقة ذلك بعموم الدولة الاسلامية وسائر الدول المعاصرة. فبين مؤرخي المشرق ولا سيما العرب من اسهب في الكلام عن بعض اقسام مصر وعني بتاريخها على انفراد. ومنهم من انفرد بتاريخ بعض دول مصر دون البعض الاخر ومنهم من اقتصر على تراجم بعض مشاهير حكام مصر او علمائها او ادبائها ومنهم من وصف بعض وقائعها وحروبها بقطع النظر عن تعاقب السنين ومنهم من نظر الى تناسق الحوادث مع نسبتها لتعاقب السنين لكنه اوجز كثيراً فلم يأت بالفائدة المطلوبة ومنهم من جاء على تاريخ مصر عرضاً في اثناء تاريخ الدولة الاسلامية عموماً. فكان قوله متفرقاً فضلاً عن كونه موجزاً

اما مؤرخو الغرب (الافرنج) ولا سيما المتأخرون فقد اتخذوا في كتاباتهم عن مصر اسلوباً اقرب الى المقصود من قبيل تناسق الحوادث وتعاقبها بتعاقب السنين مع بعض الاسهاب ولكنهم في الغالب لا يضبطون الاعلام لان حروف لغاتهم لا تساعدهم على ذلك وقد يغفلون المخاطبات البليغة التي كان يتكاتب بها الخلفاء والامراء والخطب الفصيحة التي كانوا يلقونها في مجالسهم او على جنودهم او اذا لم يغفلوها فانهم يضعونها في لغة قومهم فتخسر بلاغتها ورونقها العربي فاذا أريد ترجمتها الى العربية لا يتفق ان تأتي مثل اصلها تماماً

فرايت ان لكل من الطرفين حسنات فجمعت بينها ملتزماً صحة النقل وانتقاء اصح الروايات وتطبيق كل ذلك على الاحكام التاريخية مع مراعاة الممكنات واغفال ما هو مقول بغير قياس ومناقض لاحكام العقل بين مبالغات واختلاقات وتقاليد

فزادت المؤلفات التي اخذت عنها كتابي على بضع عشرات فضلاً عن القواميس الكبيرة وهاك جدولاً فيه اسماء اشهر المؤلفات العربية والافرنجية التي استعنت بها في تأليف هذا التاريخ :

الكتب العربية

اسم الكتاب	اسم المؤلف	اسم الكتاب	اسم المؤلف
الخطط	المقريزي	عجائب الآثار	الجبرتي
الكامل	ابن الاثير	بدائع الزهور	ابن اياس
الروضتين	شهاب الدين المقدسي	خطط مصر	علي باشا مبارك
تاريخ المسلمين	ابن العميد	التبر المسبوك	السخاوي
ديوان العبر	ابن خلدون	تاريخ الدولة العثمانية	ابراهيم الطبيب
وفيات الاعيان	ابن خلكان	مصر للمصريين	سليم خليل النقاش
فوات الوفيات	ابن شاكر	تاريخ السودان	نعوم بك شقير
اخبار الأول	الاسحاقي	هيرودوتس	ترجمة بسترس
الافادة والاعتبار	عبد اللطيف البغدادي	الامة القبطية	يعقوب نخله
النجوم الزاهرة	ابو المحاسن	الخريدة النفيسة	احمد الرهبان
مروج الذهب	المسعودي		

الكتب الافرنجية

تاريخ الحروب الصليبية	مونرو ند	فرنساوي
« مصر الحديث	مارسل	«
« الحملة الفرنساوية	اميديه ريم	«
« محمد علي	بوه	«
الانبياء الثلاثة (عرابي وغردون والمهدي)	مونرو	«
المشرق ومصر	دافاسيه دي بونته	«
نظرة في مصر	كلوت بك	«
تاريخ الدوائر الصحية المصرية	نتروتسوس بك	«
الآثار المصرية	مري	انكليزي

تاريخ مصر القديم	شارب	انكليزي
السيف والنار في السودان	سلاطين باشا	«
الحوادث المصرية الاخيرة	شارلس رويل	«
تاريخ المماليك الى وفاة محمد علي	باتون	«
المملكة العثمانية	جمعية الرسائل الدينية	«

الانسيكلوبيديا البريطانية وغيرها من القواميس الشهيرة

جغرافية مصر الحديثة

حدود مصر واقسامها

كانت المملكة المصرية قبل انسلاخ الاقطار السودانية عنها تمتد شمالاً الى البحر المتوسط وجنوباً الى قرب خط الاستواء حيث الجبال الزرق وبحيرة البرت نيانزا وشرقاً تبتدىء من العريش على ساحل البحر المتوسط وتسير جنوباً فتضم شبه جزيرة سينا وخليج العقبة حتى تلتقي بالبحر الاحمر مقابل راس بناز على ساحل البحر الاحمر الغربي ومن هناك تمتد الى مصوع فخليج عدن حتى بربرا اما في تلك الانحاء الجنوبية فسلطة الخديوي لم تكن تتجاوز الشطوط فضلاً عن ان الحبشة وقبائل اخرى هناك كانت مستقلة . وغرباً من راس الكنائس عند البحر المتوسط مخترقة صحراء ليبيا حتى دارفور ثم تنعطف شرقاً الى الجبال الزرق

اما بعد الحوادث السودانية الاخيرة فانحصرت المملكة المصرية في القطر المصري ويحدُّهُ شمالاً البحر المتوسط وجنوباً الشلال الثاني (وادي حلفا) وشرقاً قنال السويس فالبحر الاحمر وغرباً راس الكنائس وصحراء ليبيا

وينقسم القطر المصري الآن الى قسمين عظيمين هما الوجه القبلي والوجه البحري او مصر العليا ومصر السفلى تفصل بينهما القاهرة وكل من هذين القسمين يقسم الى اقاليم او مديريات في كل منها مدينة كبيرة تقيم فيها حكومة تلك المديرية وعلى كل من هذه المديريات حاكم يدعى مديراً وهاك اسماء المديريات وقواعدها وعدد سكانها حسب احصاء سنة ١٩٠٧

المديريات وقواعدها

اولاً الوجه البحري

اسم المديرية	اسم قاعدتها	عدد سكان المديرية
القليوبية	قليوب	٤٣٤ ٥٧٥
المنوفية	شبين الكوم	٩٧١,٠١٦
الغربية	طنطا	١,٤٨٤,٨١٤
البحيرة	دمنهور	٨٣٠,٠١٥
الشرقية	الزقازيق	٨٨٦,٣٤٦
الدقهلية	المنصورة	٩١٢,٤٢٨

ثانياً الوجه القبلي

الجيزة	الجيزة	٤٦٠,٠٨٠
بني سويف	بني سويف	٣٧٦,٣١٢
الفيوم	الفيوم	٤٤١ ٥٨٣
المنيا	المنيا	٦٦٣ ١٤٤
اسيوط	اسيوط	٩٠٧ ٤٣٥
جرجا	سوهاج	٧٩٧ ٩٤٠
قنا	قنا	٧٨٠ ٨٤٩
اسوان	اسوان	٢٣٤ ٦٠٢

ويشتمل القطر المصري عدا عن المديريات المذكورة على مراكز مستقلة باحكامها يسمونها محافظات وهي مع عدد سكانها

اسم المحافظة	عدد سكانها
القاهرة	٦٥٤ ٤٧٦
الاسكندرية	٣٣٢ ٢٤٦
بور سعيد	٤٩ ٨٨٤
الاسماعيلية	١١ ٤٤٨
العريش	١٨ ٦٣٧

السويس	١٨ ٣٤٧
سينا	٢٥ ٠٨٢

السودان المصري

اما السودان المصري فقد قسم بعد استقلاله عن مصر الى مديريات لكل منها مركز وهذه اسماءها مع اسماء بنادرها

المديرية	البندر	المديرية	البندر
الخرطوم	الخرطوم	سنار	سنجا
بربر	الدامر	كسلا	كسلا
دنقلة	مروى	اعالي النيل	كودوك
وادي حلفا	حلفا	بحر الغزال	واو
البحر الاحمر	بورسودان	كردفان	الابيض
النيل الابيض	الدويم	منجلا	منجلا
النيل الازرق	واد مدني		

سكان مصر

بلغ عدد سكان مصر بناء على تقويم سنة ١٨٨٢ نحو ٧٤٧ ٨٠٩ ٦ نفساً منهم ٩٠٨٨٨ من الاجانب . وبلغ حسب احصائها سنة ١٩٠٧ نحو ١١ ٣٠٠ ٠٠٠ من النفوس الوطنيون منهم ١١١٥٠٠٠٠ والاجانب ١٥٠الفاً . وهم على الاكثر يونانيون وايطاليون وانكليز وفرنساويون واتراك اما العربان المقيمون بالقطر المصري فمعدودون في الوطنيين ويبلغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ وغالبهم بدو يقطنون الخيش بالقرب من المزارع والرحالة منهم يبلغ عددهم سدس مجموعهم

ويظهر ان عدد سكان مصر في عهد المصريين القدماء لم يتجاوز هذا العدد قال هيرودوتس المؤرخ انه كان في مصر على عهد الملك اماسيس ٢٠٠٠٠ مدينة . وقال ديودوروس ان عدد السكان بلغ سبعة ملايين ويوسيفوس يقول سبعة ونصف . اما في الدولة الاسلامية فبلغ عددهم نحو ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس ثم انحط في عهد المماليك الى ثلاثة ملايين واخذ في الزيادة من عهد المغفورله محمد علي باشا ولا يزال يتزايد الى اليوم

مزروعات مصر

تقسم مزروعات القطر المصري الى المزروعات السنوية والاشجار وقد حسب عدد هذه المزروعات على وجه العموم فبلغ نحو ١٣٠٠ نوع

فمن المزروعات السنوية القمح والشعير والذرة والدخان والارز وقصب السكر والفول والعدس والحمص والترمس والبشلة والباميا واللوبيا واللبلاب والبصل والكراث والتوم والخبيزة والخس والكرمب والباذنجان والرشاد والفجل والخيار والقثاء وعبد اللاوي والعجور والشمام والبطيخ والجزر واللفت والبرسيم والحلبة والقطن والكتان والقنب والقرطم والسمسم والنيلة والحناء والفوة والافيون والخردل والكزبرة والبقدونس وغيرها

ومن الاشجار النخل والبرتقال والمندرين (يوسف افندي) والليمون والنبق والجميز والموز والمشمش والخوخ والرمان والتوت والعنب والزيتون واللوز والسنط والطرفة والخرنوب والنبق والدوم واللبخ وغيرها

ومعظم هذه الاشجار كان معروفاً لدى المصريين القدماء الا ان بعضها قد دخل الى البلاد حديثاً منها اللبخ وهو مزروع على معظم الشوارع العمومية في المدن الكبيرة للانتفاع بظله

حيوانات مصر

تقسم الى الحيوانات الداجنة والحيوانات البرية

فالداجنة منها الجمل والفرس والحمار والبغل والجاموس والبقر والضان والماعز والخنزير والكلب والهر والدجاج والديك الهندي والوز والحمام . ومن الغريب ان الجمل والجاموس والضان والدجاج لم تكن معروفة لدى المصريين القدماء

والحيوانات البرية منها الخنزير البري والضبع والغزال وبقر الوحش وكبش الجبل وابو الحسين والذئب والثعلب والقط البري والنمس والارنب والوطواط والقنفذ وحيوانات اخرى من الطيور والزحافات والاسماك لا حاجة بنا الى ذكرها

الدور الاسلامي

دولة الخلفاء الراشدين

فاروق عمر بن الخطاب

من سنة ١٣ - ٢٣ هـ او ٦٣٤ — ٦٤٤ م

مبدأ الدولة الاسلامية

وفي خلال تلك الانقسامات الدينية في مصر كانت نشأة حضرة صاحب الشريعة الاسلامية محمد الهادي بن عبد الله القرشي . ولد في مكة المشرفة نحو سنة ٥٦٩ لميلاد المسيح وهاجر الى المدينة في ١٦ يوليو (تموز) سنة ٦٢٢ ومن هذا اليوم يبتدىء التاريخ الاسلامي وهو تاريخ الهجرة النبوية المعول عليه الآن . وفي آخر السنة السادسة للهجرة كتب الى الامبراطور هرقل ملك القسطنطينية كتاباً يدعوه فيه الى الاسلام وكتب مثل ذلك الى سائر ملوك العرب والعجم وفي جملتها كتاب الى المقوقس يوحنا بن قرقت حاكم مصر من قبل ملك الروم فبعث اليه المقوقس اربع جوار منهن ماريةام ابراهيم ابنه فكان ذلك اول الصلات بين دولة العرب ومصر

ثم كانت الغزوات والفتوح المشهورة حتى السنة الحادية عشرة فتوفي صاحب الشريعة وبويع الخليفة ابوبكر الصديق فعمل على استمرار الفتوح حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٣ هـ او ٦٣٤ م

فما لبث الاسلام ان ظهر في شبه جزيرة العرب حتى انتشر بسرعة غريبة الى العراق وفارس والشام وفلسطين وغيرها جهاداً في سبيل الدين في مدة لا تتجاوز ثماني عشرة سنة

فلما راى الامبراطور هرقل ما كان من افتتاح العرب لسوريا وغيرها من بلاده عنوة اوجس خيفة على باقيها ولاسيما مصر الا انه لم يكن في حسبانه ان العرب يقدمون الى مصر مفتتحين حالاً على اثر فتوحهم الكثيرة فعقد بينه وبين الخليفة عمر بن

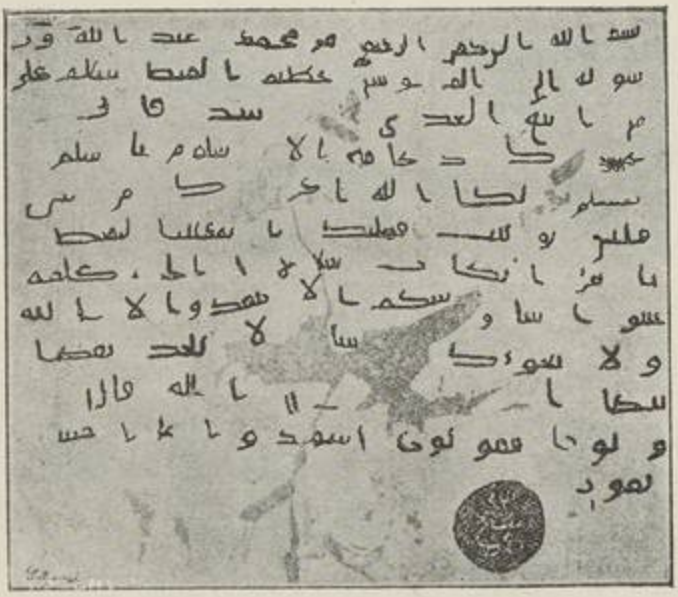

ش ٢١ — النسخة الاصلية لكتاب النبي الى المقوقس زعم بعض المستشرقين انه وجدها في الصعيد (راجع الهلال سنة ١٣ صفحة ١٠٣ و ١٦٠)

لخطاب معاهدة مآلها ان يدفع جزية سنوية معلومة لخزينة المسلمين قبالة اغضائهم عن فتح مصر . الا ان هذه الجزية لم تكن تدفع في حينها وبالقدر المعين فاعتبر الخليفة تلك المعاهدة منقوضة

فتح مصر . سنة ١٨ هـ او ٦٤٠ م

وكان عمرو بن العاص لا يفتر عن ترغيب الخليفة عمر بن الخطاب في مصر وافتتاحها لانه كان قد جاءها قبل ان اعتنق الاسلام ورأى فيها من العظمة والمجد ما جعله شديد الرغبة في افتتاحها وكان يقول له « انك ان افتتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم وهي اكثر الارض اموالاً واعجز عن القتال والحرب » وكان الامام عمر يتخوف من ذلك ولاسيما بعد ان عقد المعاهدة بينه وبين هرقل لكنه بعد ان نقضت على ما تقدم رأى ان يجيب طلبه فانفذ اليه ان يسير باربعة الاف رجل اشداء وقال له « سر اني مستخير الله في سيرك وسيأتيك كتابي قريباً ان شاء الله تعالى فان ادركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخلها او شيئاً من ارضها فانصرف وان انت دخلتها

قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » وكان ذلك بعد افتتاح بيت المقدس بأيام

فسار عمرو بن العاص ومن معه قاصداً مصر وهو يكاد لا يصدق ان أُذِنَ له بذلك . فما بلغ رفح « وهي قرية تدعى الان رفح تبعد نحو عشر ساعات عن العريش) حتى ادركه رسول من عمر ودفع اليه كتاباً فخاف ان يكون ذلك الكتاب مؤذناً بالانصراف عن مصر وهو لم يدخلها بعد فاجل فتحه حتى يدخل ارضها وكان اذ ذاك على مسافة يسيرة منها فأمر بجد السير حتى امسى المساء فسأل اين نحن فقيل له في العريش فعلم انه دخل ارض مصر فأمر بالمبيت هناك . وعند الفجر نهض القوم للصلاة وبعد اتمامها وقف عمرو وفي يده كتاب الخليفة ففضه بكل احترام وتلاه على الجمهور بصوت عال وهو « بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته . اما بعد فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع عنها واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً من ارضها فامض واعلم اني ممدك » فالتفت عمرو الى من حوله قائلاً « اين نحن ياقوم » فقالوا « في العريش » فقال « وهل هي من ارض مصر ام الشام » فاجابوا « انها من مصر » فقال « هلم بنا نعبر على خيرة الله تعالى » . وهكذا دخل عمرو بن العاص ارض مصر في اربعة الاف رجل في السنة الثامنة عشرة للهجرة وجعلوا يخترقونها جنوباً في قسمها الشرقي وعددهم يزيد كل يوم ممن كان ينضم اليهم من القبائل البدوية التي كانوا يمرون بها في طريقهم

فكان اول موضع قوتل فيه الفرما قاتلت الروم قتالاً شديداً نحواً من شهر ثم فتح الله على المسلمين وكان عبد الله بن سعد على ميمنة عمرو منذ توجه من قيسارية الى ان فرغ من حربه . ثم تقدم عمرو وهو لا يقاتل الا بالامر الخفيف حتى اتى بابيس فقاتلوه فيها نحواً من شهر حتى فتح الله عليه وكان في بابيس ارمانوسة بنت المقوقس حاكم مصر من قبل الروم فأحب عمرو ملاطفة المقوقس استجلاباً لوده فسير اليه ابنته مكرمة في جميع ما لها فسر ابوها بقدومها كثيراً

ثم سار عمرو وما زال حتى مر بجانب الجبل المقطم فاشرف على حصن بابل او بابليون القائم على ضفة النيل الشرقية مقابل الاهرام العظيمة . وكان حصناً منيعاً رفيع العماد [1] الى شرقيه جبل المقطم راسخ وعلى وجهه تجعدات تدل على قديم عهده وبين

(١) و يسميه بعض مؤرخي العرب حصن باب اليون او باب الاون وللمؤرخين فيه

الجيل والحصن بقعة من الارض لاشيء من العمارة فيها الابعض الايرة والكنائس . ثم نظر الى الغرب فاذا بالنيل منحدر امام ذلك الحصن فيزيده مناعة والى ما وراء النيل ارض قد كستها الطبيعة من جمالها حلة خضراء بين اعشاب واشجار خصبة وهي جزيرة الروضة وكانت تعرف بجزيرة مصر والماء محيط بها مدار السنة . ويقطع النيل بين الحصن وهذه الجزيرة جسرٌ من خشب وكذلك فيما بينها والجيزة يمر عليهما الناس والدواب من البر الشرقي الى الجزيرة ومن هذه الى البر الغربي . وكان هذان الجسران مؤلفين من مراكب بعضها بجذاء بعض وموثقة بسلاسل من حديد وفوق المراكب اخشاب ممتدة فوقها تراب وكان عرض الجسر الواحد ثلاث قصبات

ش ٢٢ — حصن بابل كما كان لما حاصره العرب

وتطلع عمرو الى ما وراء الجزيرة فاذا بالاهرام العظيمة راسخة كالجبال وقد اثقلت كاهل الدهر فعجز عن هدمها . ثم رمى بنظره الى جنوبي الاهرام فراى ببقايا منف العظيمة ترهب القلوب لما يتجلى فيها من العظمة والفخامة ومن جملتها اهرامها المعروفة الان باهرام سقارة

فامر عمرو ان تنصب الخيم فيما بين الحصن والمقطم لجهة الشمال قرب مصر القديمة اليوم ولم يكن هناك الا بعض المزارع والغياض وجعل يسرح نظره ويتامل بما يهدده من الاخطار في مقاومة هذا الحصن . ثم نظر الى وادي النيل فاذا هو يانع خصب يشتهيه النظر يخترقه النيل المبارك . على غربيه آثار منف والاهرام وعلى شرقيه ذلك الحصن وفيه قد حشدت جنود الروم متأهبين للدفاع ولم يكن قد راى شيئاً من ذلك فيما مر به من البلدان فعظم عليه الامر الا انه عاد الى عزمه عند ما تصور ما يلحق به من العار اذا عاد خائباً وما يقع في يده من الخيرات اذا فاز بالنصر بعد الجهاد الحسن واذا لم يفز في جهاده هنا واستشهد ففي الاخرة ماهو افضل ماباً

وكان في الحصن المقوقس وقد تقدم انه حاكم من قبل دولة الروم على مصر العليا

اقوال اظهرها انه حصن بناه الفرس عند تملكهم مصر ودعوه باسم عاصمة بابل لانها كانت في حوزتهم

والسفلى ومعظم سكانهما من القبط . وكانت عاصمة حكومته منف على الضفة الغربية واما هذا الحصن فقد اتخذه مركزاً حربياً ليمنع العرب من المرور الى عاصمته . وكان المقوقس من حزب الوطنيين ويقال انه كان بينه وبين الرسول مكاتبة وعلى كل فانه لم يكن له ان يفعل ما يشاء . فلما علم بقدوم جيوش المسلمين جهز جنداً تحت قيادة احد كبراء جيشه المدعو الاعيرج وجاءوا بما لديهم من العدة والسلاح وتحصنوا في ذلك الحصن

اما عمرو فاخذ في المهاجمة مدة فابطأ عليه الفتح فكتب الى الخليفة يستمده فامده باربعة الاف رجل عليهم اربعة من كبار القواد وهم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل ان الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة وورد معهم خطاب امير المؤمنين ونصه « اني قد انفذت اليك اربعة الاف على كل الف منهم رجل مقام الف »

فانفذ عمرو احد قواده ولعله حذافة بخمسمائة فارس الى الجهة الثانية من الحصن من وراء الجبل فساروا ليلاً وكان الروم قد خندقوا خندقاً وجعلوا له ابواباً وبذروا في اقنيتها حسك الحديد فالتقى القوم حين اصبحوا فانهزم المصريون حتى دخلوا الحصن فصارت العرب محيطة بالحصن من كل الجهات الا النيل وكان حول ذلك الحصن الخندق فلم يستطع العرب الهجوم عليه واستمر رمي السهام صباحاً ومساء ثم تشاور عمرو والزبير بشأن ذلك فاقرّا على تشديد الحصار ففرقا الرجال حول الخندق . والح عمرو على الحصن بالمنجنيق ثم خابر القوم بشأن التسليم فلم يفعلوا . وكان المقوقس يريد التسليم تخلصاً من نير الروم لما بينه وبينهم من الضغائن الدينية وان لم يتجرا على التصريح ببغيته لان رجاله لم يكونوا كلهم من حزبه ولاسيما الأعيرج . ولما رأى من اقدام العرب وصبرهم على القتال ورغبتهم فيه خاف ان يظهروا على رجاله فتكون الخسارة مزدوجة فعمد برجاله الى باب الحصن الغربي على ضفة النيل وعبر بهم على الجسر الى الجزيرة ثم تبعه الأعيرج ولم يترك في الحصن الا نفراً قليلاً من رجاله والعرب غير عالمين

ولما ابطأ الفتح قال الزبير « اني اهب الله نفسي وارجو ان يفتح الله بذلك على المسلمين » فعبر الخندق ثم وضع سلماً الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام واخبر عمراً انهم اذا سمعوا تكبيره ان يجيبوه جميعاً فما شعر الا والزبير على رأس الحصن يكبر والسيف في يده فتحامل الناس على السلم حتى كادوا يكسرونه لكثرتهم فنهاهم ثم كبر وكبر الناس معه واجابهم من كان خارجاً فظن من كان باقياً في الحصن من الروم ان العرب جميعهم هاجمون فهربوا . وعمد الزبير واصحابه الى باب الحصن ففتحوه واقتحموا

الحصن وتملكوه ثم عمدوا الى الجسر فتعقبوا القبط الى الجزيرة . واما هولاء فساروا الى منف عاصمة ولايتهم . وبعد ان عبروا النيل رفعوا الجسر عنه فتوقف العرب عن تعقبهم اذ لم يكونوا يستطيعون عبور النيل فاصبحوا محاطين بالماء من كل الجهات

المخابرة بشان الصلح

فلما رأى المقوقس ذلك انفذ الى عمرو كتاباً نصه « انكم قوم قد ولجتم في بلادنا والححتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد اظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل وانما انتم اسارى في ايدينا فابعثوا الينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله ان يأتي الامر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل ان تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا يقدر عليه . ولعلكم ان تندموا ان كان الامر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم فابعثوا الينا رجالاً من اصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء »

فلما اتى رسل المقوقس الى عمرو حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس وانما اراد بذلك عمرو ان يروا حال المسلمين

وعند ذلك رد عمرو الرسل وكتب الى المقوقس « انه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال اما ان دخلتم في الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا وان ابيتم فاعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون واما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين »

فلما جاءت رسل المقوقس اليه قال كيف رأيتم هؤلاء قالوا « رأينا قوماً الموت احبُّ الى احدهم من الحياة والتواضع احب الى احدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة انما جلوسهم على التراب واكلهم على ركبهم واميرهم كواحد منهم لا يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم احد يغسلون اطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم »

فاقسم المقوقس قائلاً « لو ان هؤلاء التقوا الجبال لازالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء احد ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لن يجيبونا بعد اليوم اذا امكنتهم الارض وقووا على الخروج من مواضعهم » وما زال على رجال حكومته حتى وافقوه على طلب الصلح فكتب الى عمرو « ابعثوا الينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى وهم الى ما عساه ان يكون فيه صلاح لنا ولكم »

الوفد الى المقوقس

فبعث عمرو عشرة نفر احدهم عبادة بن الصامت وكان رابط الجاش هائل المنظر اسود اللون طوله عشرة اشبار وجعله متكلم القوم وامره ان لا يجيبهم الى شيء دعوه الا احدى هذه الثلاث خصال قائلاً « ان امير المؤمنين قد تقدم اليَّ في ذلك وأمرني ان لا اقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث » فركبوا السفن حتى اتوا المقوقس ودخلوا عليه فتقدم عبادة في صدر اصحابه فهابه المقوقس لسواده وعظم جثته وقال « نحوا عني هذا الاسود وقدموا غيره يكلمني » فاجابوا « ان هذا افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وانما نرجع جميعاً الى قوله ورايه وقد امرنا الامير ان لا نخالف له امراً » فقال المقوقس « وكيف رضيتم ان يكون هذا مقدماً عليكم وهو اسود وانما ينبغي ان يكون دونكم » فقالوا « كلا وان كان اسود فهو افضلنا »

فقال المقوقس لعبادة « تقدم يا اسود وكلمني برفق فاني اهاب سوادك »

فتقدم وقال « قد سمعت مقالتك وان فيمن خلفت من اصحابي الف رجل اسود كلهم اشد سواداً مني وافظع منظراً وجميعهم اشد هيبة مني وانا قد وليت وادبر شبابي واني مع ذلك بحمد الله ما اهاب مائة رجل وذلك انما هو لرغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طلب الاستكثار منها الا ان الله عزَّ وجل قد احلَّ لنا ذلك وجعل ما غنمنا منه حلالاً وما يبالي احدنا ان كان له قنطار ذهب او كان لا يملك الا درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يأكلها ليسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها فان كان احدنا لا يملك الا ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب انفقه في سبيل الله واقتصر على هذا الذي في يده ويبلغه ما كان في الدنيا لان نعيم الدنيا ليس نعيماً ورخائها ليس رخاء انما النعيم والرخاء في الاخرة وبذلك امرنا الله وامرنا به نبينا وعهد الينا ان لا تكون همة احدنا من الدنيا الا ما يتسك به جوعه ويستر عورته وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه »

فلما سمع المقوقس منه هذا الكلام قال لمن حوله بلسانهم « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لاهيب . ان هذا واصحابه اخرجهم الله لخراب الارض ما اظن ملكهم الا سيغلب على الارض كلها » ثم اقبل على عبادة وقال له « ايها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة

والشدة ما يبالي احدهم بمن لقي ولا من قاتل وانا لنعلم انكم ان تطيقوهم لضعفكم وقلة
وقد اقمتم بين اظهرنا اشهراً وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن تطيب
انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولأميركم مايةدينا
ولخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم ما لا قبل
لكم به »

خطاب عبادة بن الصامت

فقال عبادة « يا هذا لاتغرنّ نفسك ولا اصحابك .. اما ما تخوفنا به من جمع الروم
وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسر
عما نحن فيه وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشد لحرصنا
عليهم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا كان امكن لنا في
رضوانه وجنته وماشيء اقرُّ لاعيننا ولا احب لنا من ذلك وانا منكم حينئذ لعلى احدى
الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنيمة الاخرة ان ظفر
بنا ولانها احب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وان الله عزّ وجل قال لنا في كتابه
من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين . وما منا رجل الا ويدعو ربه
صباحاً ومساء ان يرزقه الشهادة وان لايرده الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وولده
وليس لاحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل منا ربه اهله وولده وانما همنا ما امامنا
واما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة لو كانت الدنيا
كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه فانظر الذي تريده فبينه فليس بيننا وبينك
خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث خصال فاختر ايتها شئت ولا
تطمع نفسك في الباطل . بذلك امرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد رسول
الله من قبل الينا . اما ان اجبتم الى الاسلام الذي هو الدين القيم الذي لايقبل الله غيره
وهو دين انبيائه ورسله وملائكته امرنا الله ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل
فيه فان فعل كان له مالنا وعليه ما علينا وكان اخانا في دين الله فان قبلت ذلك انت
واصحابك فقد سعدتم في الدنيا والاخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل اذاكم ولا
التعرض لكم وان ابيتم الا الجزية فأدوا الينا الجزية عن يد وانتم صاغرون وان تعاملنا
على شيء نرضى نحن وانتم في كل عام ابداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وعرض
لكم في شيء من ارضكم ودمائكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكما
لكم به عهد علينا وان ابيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا

او نصيب ما تريد منكم . هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لانفسكم »

فاعظم المقوقس ذلك وقال « هذا ما لايكون ابدًا ما تريدون الا ان تتخذونا عبيدًا ما كانت الدنيا »

فقال عبادة « هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت »

فقال « افلا تجيبوننا الى غير هذه الثلاث الخصال »

فرفع عبادة يديه الى السماء وقال « لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم »

فالتفت اذ ذاك المقوقس الى ارباب مجلسه فقال قد فرغ القوم فما تريدون فقالوا « أيرضى احد بهذا الذل؟ اما ما ارادوا من دخولنا في دينهم فهذا لايكون ابداً ان نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لانعرفه . واما ارادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيدًا فالموت ايسر من ذلك فلو رضوا ان نضاعف لهم ما اعطيناهم مرارًا كان اهون علينا »

فقال المقوقس لعبادة « قد ابى القوم فما ترى فراجع اصحابك على ان نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون »

فقال عبادة واصحابه « لا » . فقال المقوقس لاصحابه « اطيعوني واجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن لم تجيبهم اليها طائعين لتجيبنهم الى ما هو اعظم كارهين »

فقالوا « واي خصلة نجيبهم اليها » قال « اما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم احدكم به واما قتالهم فانا اعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة »

قالوا « فنكون لهم عبيدًا ابدًا ؟ » قال « نعم تكونون عبيدًا مسلطين في بلادكم آمنين على انفسكم واموالكم وذراريكم فاطيعوني قبل ان تندموا » فرضوا بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه

فقال المقوقس لعبادة « اعلم اميرك اني لا أزال حريصاً على اجابتك الى خصلة من تلك الخصال التي ارسل الي بها فليعطني ان اجتمع به انا في نفر من اصحابي وهو في نفر من اصحابه فان استقام الامر بيننا تم ذلك جميعاً وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه »

فرجع عبادة الى عمرو واخبره بما كان فاستشار اصحابه فقالوا « لا نجيبهم الى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيئاً وغنيمة كما

صار لنا الحصن وما فيه . فقال عمرو « قد علمتم ما عهد الي امير المؤمنين في عهده فان اجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد الي فيها اجبتهم وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم » فوافقوه

عهد الامان للمصريين

فاجتمع عمرو والمقوقس واتفقا على الصلح بان يعطى الامان للمصريين وهم يدفعون الجزية وهاك نص الشروط

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى اهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذه الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليه ممن جنى نصرتهم فان أبى احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن ابى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله ما لهم وعليه ما عليهم ومن ابى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا نص الكتاب »

ولما تم الصلح على هذه الصوره كتب المقوقس الى ملك الروم كتاباً يعلمه بالامر كله فكتب اليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه مافعل ويقول في كتابه «ان ما اتاك من العرب اثناء عشر الفاً وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى فان كان القبط كرهوا القتال وأحبوا اداء الجزية الى العرب واختاروهم علينا فان عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك اكثر من مائة الف فارس معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت ان تكون انت ومن معك من الروم في حال القبط اذلاء فقاتلهم انت ومن معك من الروم حتى تموت او تظهر عليهم فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة نادضهم القتال ولا يكن لكم رأي غير ذلك » وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً الى جماعة الروم

فاقبل المقوقس على عمرو فقال له « ان الملك قد كره ما فعلت وعجزني وكتب

الي والى جماعة الروم ان لا ترضى بمصالحتك وامرهم بقتالك حتى يظفروا بك او تظفر بهم . ولما كن لاخرج مما دخلت فيه وعاهدتك عليه وانما سلطاني على نفسي ومن اطاعني وقد تم صلح القبط مما بينك و بينهم ولم يأت من قبلهم نقض وانا متمم لك على نفسي والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاقبتهم . واما الروم فانا منهم برآء وانا اطلب اليك ان تعطيني ثلاث خصال . الاولى الا تنقض بالقبط وادخلني معهم والزمني ما لزمهم وقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك عليه فهم متمون لك على ما تحب . واما الثانية فان سألك الروم بعد اليوم ان تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً فانهم اهل لذلك لاني نصحتهم فاستغشوني ونظرت اليهم فاتهموني. واما الثالثة فاني اطلب اليك ان انا مت ان تأمرهم يدفنوني بجسر الاسكندرية » فاجابه الى ما طلب على ان يضمنوا له الجسرين جميعاً ويقيموا لهم الانزال والضيافة والاسواق في طريقهم الى الاسكندرية ففعلوا وصارت القبط لهم اعواناً

وصف مصر

فانفذ عند ذلك عمرو الى الخليفة رسولا بكتاب يخبره بما تم بينه وبين المقوقس فاجابه منشطاً وسأله ان يصف له مصر فكتب اليه

« ورد الي كتاب امير المؤمنين اطال الله بقاءه و يسألني عن مصر اعلم يا امير المؤمنين ان مصر قرية غراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل اغبر ورمل اعفر يخط وسطها النيل المبارك الغدوات ميمون الروحات تجري فيه الزيادة والنقصان لمجاري الشمس والقمر . له اوان يدر حلابه ويكثر عجاجه وتعظم امواجه فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كانهن المخايل ورق الاصايل. فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كاول ما بدا في جريته وطمى في درته . فعند ذلك تخرج ملة محفورة وذمة مخفورة يحرثون بطون الارض و يبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب لقيهم ما سعوا من كدهم فناله منهم بغير جدهم . فاذا احدق الزرع وأشرق سقاه الندى وغذاه من تحت الثرى . فبينما مصر يا امير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هي عنبرة سوداء فاذا هي زمردة خضراء فاذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء الذي يصلح هذه البلاد وينيرها وبقي قاطنها فيها ان لا يقبل قول خسيسها في رئيسها . وان لا يستأدي خراج الثمرة الا في اوانها وان يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وتراعها . فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق الملك والمال »

فتح الاسكندرية . سنة ٢٠ هـ

ولما تم التعاقد بين المسلمين والقبط على ما تقدم هاجر جميع من كان بين هؤلاء من الروم الى الاسكندرية . اما عمرو فاقام في الحصن حامية وقام برجاله نحو الاسكندرية على نية الفتح وسار معه جماعة من رؤساء القبط يصلحون له الطرق ويقيمون الجسور والاسواق وكانت خيام العرب مضروبة بين النيل والجبل على ما تقدم فامر عمرو بتقويضها والاستعداد للمسير فاذا بحمامة قد باضت في اعلاه فقال « لقد تحرمت بجوارنا اقروا الفسطاط حتى يطير فراخها » فاقروا الفسطاط في موضعه واوصى به صاحب القصر

ش ٢٣ ـ فسطاط عمرو بن العاص وقد عشش اليمام في اعلاه

ولا يخفى ما كان لهذه الحادثة من التأثير الحسن في قلب من سمعها من الوطنيين فتركوها وساروا في سبيلهم قاصدين الاسكندرية متخذين ضفة فرع النيل الغربي خطة مسيرهم فلاقاهم في الطريق بعض من هاجر من منف من الروم فقاتلوهم يسيراً وكان من هؤلاء فئة تحصنت في كوم شريك وأخرى في مريوط فتغلب عليهما عمرو واحتلهما. اما القبط فكانوا اعواناً للمسلمين في كثير من احتياجاتهم حسب امر المقوقس فلما بلغ ذلك جماعة الروم في الاسكندرية اشتد غيظهم فاصروا على الحرب واخذوا

يعدون مهمات الدفاع

أما عمرو فما زال يتقدم بجيشه الى الاسكندرية وكانت هي قاعدة القطر المصري الى ذلك العهد وفيها من عظمة الروم ورهبتهم ما يرهب الابطال وحاصرها برًّا اما بحراً فكانت الطريق مفتوحة بينها وبين القسطنطينية يأتيها منها ما تحتاج اليه من المؤن والزخائر فطال الحصار رغم الوسائل التي اتخذها العرب فضجر عمرو فجمع اليه رجاله وخطب فيهم فهاجموا الاسوار وهو في مقدمتهم فخرقوها ودخل عمرو واثنان من قواده هما مسلمة بن مخلد ووردان الا انهم لم يكادوا يطأونها حتى أقفلت الاسوار وراءهم والقي القبض عليهم واحضروا امام البطريق (الحاكم) فخاطبهم قائلا « هوذا انتم اسرى في ايدينا فاخبرونا ما الذي جاء بكم الينا وما الذي حملكم على قتالنا » فاجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت « قد اتينا كم ندعوكم الى الاسلام فيكون لكم مالنا او ان تؤدوا الجزية عن يد وانتم صاغرون والا فاننا نقاتلكم الى ان ياتي لامر الله » فبهت الحاكم وداخله الريب فقال لمن في مجلسه من الروم باللغة اليونانية « يظهر ان هذا الرجل من وجوه العرب ولعله امير القوم فينبغي ان نضرب عنقه » وكان وردان عارفاً باللغة اليونانية ففهم ما قاله البطريق ولكي يطلع عمراً على ذلك لكمه مستهزئاً وناداه متنهراً « مالك ولهذا القول وانت أدنى من في الجماعة واقل فاترك غيرك يتكلم »

فاختلف ظن البطريق وقال « لو كان هذا امير القوم ما كان يفعل به هكذا » فقال مسلمة « ان اميرنا كان عازماً على الانصراف عنكم واراد ان يسير من اكابر القوم من يتفق معكم على شيء تتراضون عليه فان اطلقتمونا مضينا وعرفناه ما صنعتم بنا من الجميل ويتفق الامر بينكم وننصرف عنكم »

فتوهم البطريق ان الامر كذلك فاطلقهم فلما خرجوا قال مسلمة لعمرو « قد خلصتك لكلمة وردان » فوصلوا الى المعسكر وهم على نية تشديد الحصار الى ان يقضي الله بما يشاء

وكان الامام عمر قد استبطأ فتح الاسكندرية . فكتب الى عمرو « اما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر . انكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك الا لما احدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم فان الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً الا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت اليك اربعة نفر واعلمتك ان الرجل منهم مقام الف رجل على ما كنت اعرف الا ان يكونوا قد غيرهم ما غير غيرهم فاذا أتاك كتابي هذا فاخطب في الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم في الصبر والنية وقدم اولئك الاربعة في صدور

الناس ومر الناس جميعاً ان يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فانها ساعة تنزل الرحمة ووقت الاجابة وليعج الناس الى الله ويسألوه النصر على عدوهم » فجمع عمرو رجاله وتلا عليهم كتاب امير المؤمنين فأثر فيهم تأثيراً عظيماً وعزموا على القيام به

وفي خلال ذلك توفي هرقل ملك القسطنطينية وعقب موته انقسامات داخلية وحروب اهلية سفكت فيها الدماء بسبب ادعاء الملك من هم من غير الاسرة الملوكية وانتهى الامر بان افضى الملك لولده هرقل الثاني او قسطنطين الثالث وهذا لم يمض عليه مائة يوم من جلوسه حتى قضى مسموماً بيد مارتين امرأة ابيه ثم بمساعي بطريرك القسطنطينية عقد على الملك بعده لهرقلينة ابنة مارتين المذكورة وبعد بضعة اشهر نصب قسطان بن هرقل الثاني . فيقال اجمالاً انه كان على القسطنطينية ثلاثة ملوك في وقت واحد فازداد الانشقاق وتعاظم الخصام فضعفت همم الاسكندريين وتضاعف يأسهم فهاجر بعضهم بحراً ولبث البعض الآخر في المدينة يريدون دفاعاً لم يقووا عليه فدخلها عمرو يوم الجمعة غرة شهر محرم سنة ٢٠ للهجرة (او ٢٢ دسمبر سنة ٦٤٠ للميلاد) واقام فيها احتفالاً عظيماً تذكاراً لما أوتيه من الفتح المبين ثم كتب الى امير المؤمنين كتاباً ونصه :

« الى الخليفة عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص عليك سلام الله تعالى وبركاته أما بعد فقد فتحت مدينة لا اصف ما فيها غير اني اصبت فيها اربعة آلاف بنية باربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية واربعمائة ملعب للملوك واثني عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر »

وبعد ان استلم عمرو زمام الاحكام أخذ في استجلاب قلوب الاهلين فجعل يقرب منه سراة القوم ووجوههم ويحكم في الناس بالقسط ويجيب التماسهم في كل ما كانوا يسألونه منه حتى اجمع الكل على الميل اليه والاذعان لامره

مكتبة الاسكندرية

وذكر ابن القفطي وابو الفرج الملطي وغيرهما ان عمراً لما فتح الاسكندرية كان في جملة علمائها رجل اسمه يحيي الغراماطيقي فدخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فاكرمه عمرو وسمع من الفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه . ثم قال له يحيي يوماً « انك قد احطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا نعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن اولى به »

فقال له عمرو « ما الذي تحتاج اليه » قال « كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية » فقال له عمرو « هذا مالا يمكنني ان آمر فيه الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر بن الخطاب » . فكتب الى عمر وعرفه قول يحيي فورد عليه كتاب عمر يقول فيه « واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليها فتقدم باعدامها » فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها فاستنفدت في مدة ستة اشهر فاسمع ما جرى واعجب . اه

على ان بعض الكتبة ينزهون الامام عمر بن الخطاب عن تلك الفعلة . وكنا قد جاريناهم في الطبعة الاولى من هذا الكتاب ثم تبين لنا بالبحث ترجيح صحتها وقد فصلنا لادلة على ذلك في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الاسلامي ولا نزال عليه حتى يتبين نا ما ينقضه ونحن موالون البحث في هذا الشأن اذ لاغرض لنا غير تقرير الحقيقة

بناء الفسطاط

ثم كتب عمر الى الخليفة يستفتيه في السكنى بالاسكندرية فسأل الخليفةُ الرسولَ «هل يحول بيني وبين المسلمين ماء» قال« نعم يا امير المؤمنين اذا جرى النيل» فكتب الى عمرو« اني لا احب ان تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولاصيفاً فمتى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم اليكم قدمت » وتلك كانت قاعدة عمر في جمع المسلمين في بقعة لا يحول بينهم وبينه ماء . كذلك فعل ببناء البصرة والكوفة . فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وامر فشدت الرحال الى حصن بابل فلما بلغوا المكان احيث خيمة الامير راوها لا تزال منصوبة وفيها اليام فنزلوا فيها وجعلوا تلك الخيمة مركزاً لمعسكرهم . ثم انضمت القبائل بعضها الى بعض واخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش فاختط عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها الفسطاط باسم الخيمة فيها نحو عشرين حارة دعاها خططاً واقام اربعة من كبار رجاله ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم

حصن بابل او دير النصارى

وفي مكان حصن بابل اليوم كنائس قبطية قديمة العهد يدعون مجملها قصر الشمع او دير النصارى او دير ماري جرجس . فاذا تجاوزت جامع عمرو مسافة بضع دقائق ومصر العتيقة الى يمينك رايت الى يسارك بناء كبيرا يظهر انه مؤلف من عدة ابنية عليها ملامح الشيخوخة وكأنها محاطة بسور كبير من القرميد الاحمر عند اسفله باب

قديم مصفح بالحديد الغليظ يتصل اليه بانحدار لا يقل عن ثلاثة اذرع هو احد ابواب الحصن . وتدخل من هذا الباب في زقاق ضيق تتصل منه الى ازقة كثيرة كلها ضيق من النمط القديم تستطرق الى عدة كنائس قبطية منها كنيسة العذراء وكنيسة ابي سرجة وكنيسة ماري جرجس وكنيسة القديسة بربارة وكنيس لليهود (كان في الاصل كنيسة على اسم القديس ميخائيل) وغير ذلك وقد زرت جميع هذه الكنائس فرايت انها مع تقادم عهدها في البناء قد جدد فيها قسم عظيم وجميعها داخلة في بناء الحصن

ومما يستحق الانتباه اني شاهدت تحت كنيسة ابي سرجة مغارة ينزل اليها بعدة درجات يقولون انها كانت مقاماً للسيدة مريم العذراء عند قدومها الى مصر ويلوح لي انها كنيسة من الكنائس التي كان يصلي فيها المسيحيون في ايام الاضطهاد الشديد لانها تظهر لنا تأمل مبنية على مثال الكنائس الحاضرة ففي صحنها الى كل من الجانبين عدة اعمدة بينها نقر في جدار المغارة اشبه بالمذابح وفي المغارة جرن للعمادة

اما الحصن فاذا تأملت جدرانه الباقية من الخارج رايتها على نمط البناء الروماني وترى احدها وهو الجنوبي لا يزال عبارة عن برجين كبيرين في احدهما كنيسة العذراء المعروفة بالمعلقة سميت كذلك لارتفاعها وقد جدد بناؤها منذ بضع سنين . وبين البرجين باب مسدود وقد طمرت الاتربة جزءه السفلي ويشاهد في جدران اخرى آثار مثل هذين البرجين . وتشير هذه الابراج الى ما كان عليه هذا الحصن من المناعة (انظر ٢٢) فلا غرو اذا امتنع على العرب سبعة اشهر . اما محلة بابليون التي قد اقيم فيها هذا الحصن فلا يمكن معرفة حدودها الآن ولكن يشاهد الى جنوبي الحصن ببضع مئات من الامتار دير يقال له دير بابلون يدخل اليه من باب ضيق مصفح بالحديد وفيه الى الآن كنيسة السيدة مريم يجتمع اليها بعض المسيحيين للصلاة وبناء هذا الدير اشبه ببناء الحصون منه بالاديرة وهو قائم في منخفض بين تلين يقال لهما تل غراب ولم يبق الان غير هذا الدير حاملاً لاسم تلك المحلة

اما الفسطاط فقد خربت ولم يبق منها الا آكام من الاتربة فيما بين القاهرة ومصر العتيقة يحدها شمالاً اطراف القاهرة وجنوباً السبع السواقي ومصر القديمة وشرقاً اكام من الاتربة متصلة بالقرافة وغرباً مدافن النصارى

وجعل عمرو الفسطاط عاصمة الديار المصرية ومركز الامارة وجعل على الوجه القبلي عبد الله بن سعد بن ابي سرح وتولى بنفسه صلات مصر وخراجها فكان يجبي منها ١٢ مليوناً من الدنانير سنوياً

وكان في جملة القبائل التي شهدت فتح مصر وجاءت لاحتلالها قبيلة همذان فهذه أحبت النزول في الجيزة مع من والاها من المسلمين فاستأذنوا عمرو بن العاص فقال مهلاً ريثما استشير امير المؤمنين فكتب اليه يعلمه بما فتح الله عليهم وبما ارادت همذان فاجابه يحمد الله على ما كان من ذلك ويقول له « كيف رضيت ان تفرق اصحابك بان يحول بينك وبينهم بحر ولا تدري ما يفجأهم فاعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره فاجمعهم اليك فان ابوا عليك واعجبهم موضعهم بالجيزة واحبوا ما هنالك فابن عليهم من فيء المسلمين حصناً » فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا واعجبهم موضعهم فبنى لهم حصناً يقيهم اذا فاجأهم امر

ثم سار عبد الله بن سعد الى الوجه القبلي لتدويخ البلاد فلم يلق معارضاً ومازال حتى اتى بلاد النوبة ففتحها كلها

اصلاح البلاد وتنظيمها

وأخذ عمرو من ذلك الحين في تنظيم البلاد فقسم القطر المصري الى كور او اعمال يرأس كلاً منها حاكم قبطي تأتيه القضايا فينظر فيها ويصدر احكامه الى من هم تحت حكمه رأساً فحصل الاهلون على راحة لم يكونوا راوها منذ ازمان وساد الامن في بلادهم

فامر عمرو بترميم مقاييس النيل التي كانت قد تعطلت منها مقياس اصوان ومقياس ارمنت ومقياس منف وغيرها . وكان من عادة المصريين قبل الفتح الاسلامي انه اذا مضى ١٢ يوماً من شهر بؤونه يعمدون الى جارية بكر من ابويها فيرضونهما ويجعلون عليها من الحلي افضلها ثم يلقونها في النيل ضحية له . فابطل عمرو هذه العادة وعوّض عن الجارية بتمثال من طين . وقد ذكر بعض المؤرخين هذه الحقيقة في سياق حكاية لا بأس من ذكرها وهي انه اتفق للنيل في السنة التالية للفتح انه لم يرتفع الارتفاع اللازم للري . ولما دخل شهر بؤونة القبطي قال له اهل البلاد « ايها الامير ان لنيلنا هذا سنة لا يجري الا بها » فقال لهم وما ذلك فقالوا « اذا كان اثنتا عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر من ابويها وجعلنا عليها من الحلي والثياب افضل ما يكون ثم القيناها في النيل » فقال لهم عمر « ان هذا لا يكون في الاسلام وان الاسلام يهدم ما كان قبله » فمضى بؤونة وابيب ومسرى وهو لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء فكتب عمرو الى امير المؤمنين عما كان فاجابه « انك قد اصبت ان الاسلام يهدم ما كان قبله وقد بعثت اليك ببطاقة فالقها في داخل النيل

اذا اتاك كتابي »

فلما قدم الكتاب الى عمرو فتح البطاقة فاذا فيها « من عبد الله امير المؤمنين الى نيل مصر اما بعد فان كنت تجري بامرك فلا تجرِ واذا كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك بامره فنسأل الله الواحد القهار ان يجريك » فالقى عمرو البطاقة في النيل وقبل ان ذلك كان قبل عيد الصليب بيوم وقد همَّ اهل مصر بالخروج منها لانه لا يقوم بمصلحتهم فيها الا النيل فاصبحوا يوم الصليب وقد اجراه الله تعالى ١٦ ذراعاً فلما رأى المصريون

ش ٢٤ — ضحية النيل

ذلك تعجبوا ووقع في قلوبهم الرعب وزاد احترامهم للخليفة واوامره وابطلوا تلك العادة القبيحة واستبقوا رمزاً عنها تمثالاً من طين يصنعونه كل سنة عند فتح الخليج يسمونه العروسة فيلقونه في الخليج وما زال ذلك جارياً الى عهد غير بعيد اثراً لما كان يرتكبه المصريون القدماء من العسف كل سنة في شأن الفيضان

ثم اخذ عمرو في تنظيم القضاء وكانت امورها الى ذلك العهد منوطة بنواب مالين

او جهادين من قبل حكومة الروم يستبدُّون بالرعية كيف شاؤا وليس من ينصف فاوجد لهم عمرو المحاكم النظامية وقسمها الى مجالس دائمة وزمنية مؤلفة من اعضاء ذوي نزاهة واستقامة ومقام رفيع عند الاهلين . ولا بدَّ لنا من ذكر فضل هذا الفاتح بانه اول من اوجد هذه المحاكم بمصر تحت اسم دواوين . اما اعضاؤها فينتخبون من الاهالي والاحكام تجري بمقتضى عدل القضاة وتستأنف عند الاقتضاء لنقضها او ابرامها ولم تكن احكام القضاة المسلمين تجري الا على المسلمين باعتبار كونهم من جيش الاحتلال والقضايا التي فيها احد الخصمين قبطي كان لنواب القبط حقُّ الدخول فيها والعمل بمقتضى قوانينهم الدينية والاهلية

اما اعطيات الجيش فكانت تصرف مما يجبىء من اموال الخراج وتوزع في الديوان على الامراء والعمال والاجناد على قدر مراتبهم وبحسب مقاديرهم ويحمل ما يفضل الى بيت المال . وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال ذلك جارياً في الدول الاسلامية الى آخر الدولة الفاطمية ثم صارت منذ ايام صلاح الدين تعطى اقطاعات تفرق على السلطان وامرائه واجناده

وما فتىء عمرو يتخذ الوسائل الممكنة لاكتساب ثقة المصريين ولم يدع فرصة تفوته في اكتسابها . قيل ان البطريرك بنيامين كان من الطائفة اليعقوبية وقد اضطهده هرقل ملك الروم اضطهاداً عظيماً لمحافظته على خطته الدينية وهو لا يبالي بما كان يهدده من المخاوف والاخطار فشدَّد هرقل عليه النكير ومنعه من السلطة الدينية وهدَّده بالقتل ففرَّ يطلب ملجأ في بعض الاديرة فأقام هرقل مقامه في زمن الحصار رجلاً كان بيد المجلس آلة يديرونها كيف شاؤا . وكانت مصر حينئذ منقسمة كما تقدم الى قسمين دينيين ملكيين ويعقوبيين وكان على رئاسة الطائفة الاولى وهي الاصغر هذا البطريرك الجديد وعلى الطائفة الثانية بطريرك واساقفة اقامهم هرقل باختياره غير ان الشعب كان يعاملهم بالاحتقار ولم يكن يعتبر الرئاسة الحقيقية الا لبنيامين المختار قديماً منهم . فعند ما بادت سلطة الروم ورأى القبط من الاسلام ميلاً ورفقاً عرضوا امرهم الى عمرو ويلتمسون استرجاع بطريركهم القديم فاستدعاه عمرو وطيب خاطره واقامه في منصبه وخلع الذين كانوا مكانه فحسب القبط هذا الامر منة وفضلاً . وازدادوا ثقة وميلاً للمسلمين ولا سيما لما رأوهم يفتحون لهم الصدور ويبيحون لهم اقامة الكنائس والمعابد في وسط الفسطاط بل وفي وسط جيش الاسلام على حين انه لم يكن للاسلام معبد فكانوا يصلون ويخطبون في الخلاء

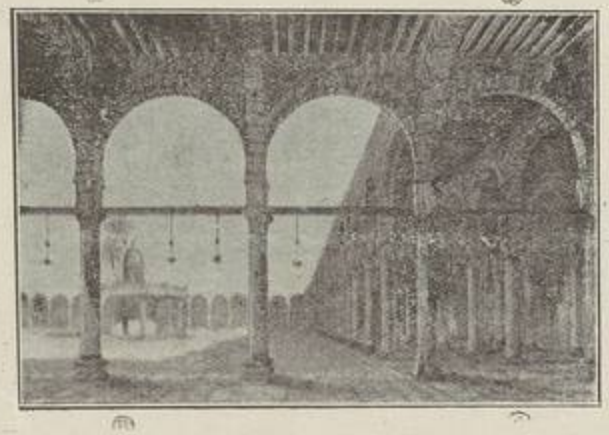

ش ٢٥ — جامع عمرو

ثم عمد عمرو الى بناء جامع على مثال جامع مكة سعة وشكلاً فبناه في الفسطاط قرب حصن بابل وكان في موضعه خان استولى عليه احد رجال عمرو عند الفتح فلما عادوا من الاسكندرية طلب اليه عمرو ان يجعل منزله هذا مسجداً فرضي وكان النيل يجري بقربه ثم انحسر عنه بعد ذلك غرباً . واتى عمرو بحجارة ذلك الجامع من بقايا منف العظيمة بينها اعمدة كبيرة من الجرانيت وقطع هائلة من الرخام اقيمت بها جدرانه وقد قيل ان القرآن كله كان منقوشاً عليها بالذهب . والجامع المذكور لايزال الى يومنا هذا في مصر القديمة يعرف باسم جامع عمرو يصلون فيه الجمعة الاخيرة من رمضان . مساحته ٣٥٠ قدماً مربعاً وقد رمم مراراً بحيث لم يبقَ من البناء الاصلي الا شيء زهيد . ومن جملة من جدد في بنائه السلطان المؤيد سنة ٨١٤ هـ وآخرهم مراد بك وهذا لم يكن يحاول ذلك الا طمعاً بمخبأة اوعز اليه انها مدفونة في بعض اجزائه كما سترى . واذا زرت هذا الجامع الآن رأيته كالخراب وقد سقطت اعمدته الرخامية التي كانت على الجانبين وفي صحنه حنفية وشجرة وفي ارض ليوانه صهريج

وفي هذا الجامع كانت تعطى قبالات الاراضي وهي ان متولي الخراج كان يجلس في زمان تثين فيه قبالة الارضين (التزامها) ويجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادي على البلاد صفقات (وكانت صفقة البيع عند العرب ان يضرب المشتري بيده على يد البائع ان رضي البيع ثم سمي عقد البيع الصفقة) وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من

الناس وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالاربع سنين لاجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك فاذا انقضى الامر خرج كل من كان تقبل ارضاً وضمنها الى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه اعمالها بنفسه واهله ومن ينتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج في ابانه على اقساط ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الاراضي ماينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بضريبة مقدرة في ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقبلين فكان اذا تأخر من مال الخراج البواقي تشدد الولاة في طلبه مرة وتسامح به مرة فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة ورا كبوا البلاد كلها وعدلوها تعديلاً جديداً فيزيدون فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد وينقصون فيما يحتاج التنقيص منها ولم يزل ذلك يعمل في جامع ابن العاص الى ان بنى احمد بن طولون جامعه

مخابرات بين ابن الخطاب وابن العاص

والمفتتحون اجدر الناس باتباع الرفق بمن اصبحوا من رعاياهم وقد ضربت عليهم المسكنة بعد ان كانوا اصحاب البلاد وبيدهم الحل والعقد والظاهر ان عمراً كان على بينة من ذلك وقد جرى عليه لانه كان يتحمل من المصريين ويمهلهم في دفع الخراج الى حد ان يوقع فيه مظنة الخليفة ويحكى ان الخليفة استبطأ الخراج من عمرو فكتب اليه :

«بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر امير المؤمنين الى عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو اما بعد فاني فكرت في امرك والذي انت عليه فاذا ارضك ارض واسعة عريضة رفيعة وقد اعطى الله اهلها عدداً وجلداً وقوة في بر وبحر وانها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم فعجبت من ذلك واعجب مما عجبت انها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدب . ولقد اكثرت في مكاتبتك في الذي على ارضك من الخراج وظننت ان ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت ان تفيق فترفع الي ذلك فاذا انت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لاتوافق الذي في نفسي . لست قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولست ادري مع ذلك ماالذي نفرك من كتابي وقبضك فلئن كنت مجرباً كافياً صحيحاً ان البراءة لنافعة وان كنت مضيعاً نطعاً ان الامر لعلى غير ما تحدث به نفسك . وقد تركت ان ابتلي ذلك منك في العام الماضي رجاء ان تفيق فترفع الي ذلك وقد علمت انه لم يمنعك من ذلك الا ان عمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفاً وعندي باذن الله دواء فيه شفاء عما اسألك فيه فلا تجزع ابا عبد الله ان يؤخذ منك الحق وتعطاه فان النهر يخرج الدر والحق ابلج ودعني وما

عنه تلجلج فانه قد برح الخفاء والسلام »

فكتب اليه عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر امير المؤمنين من عمرو بن العاص سلام الله عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو اما بعد فقد بلغني كتاب امير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج والذي ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي واعجابه من خراجها على ايديهم ونقص ذلك منها مذ كان الاسلام ولعمري للخراج يومئذ اوفر واكثر والارض اعمر لانهم كانوا على كفرهم وعتوهم ارغب في عمارة ارضهم منا مذ كان الاسلام . وذكرت ان النهر يخرج الدرهم فاحبتها حاباً قطع درها . واكثرت في كتابك وابنت وعرضت وتربت وعلمت ان ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فجئت لعمري بالمقاطعات المقدعات ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق . ولقد عملنا لرسول الله (صلعم) ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لاماناتنا حافظين لما عظم الله من حق امتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل شيناً فتعرف ذلك لنا وتصدق فيه قبلنا . معاذ الله من تلك الطعم وشر الشيم والاجتراء على كل مأثم فامض عملك فان الله قد نزهني عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه اخاً والله يا ابن الخطاب لانا حين يراد ذلك مني اشد غضباً لنفسي ولها انزاهاً واكراماً . وما عملت من عمل ارى عليه فيه متعلقاً ولكنني حفظت ما لم تحفظ ولو كنتَ من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا وسكتُّ عن اشياء كنتُ بها عالماً وكان اللسان بها مني ذلولاً ولكن الله عظم من حقك ما لا تجهل »

فكتب اليه الخليفة « من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فاني قد عجبت من كثرة كتبي اليك في ابطائك بالخراج وكتابك الي ببنيات الطرق وقد علمت اني لست ارضى منك الا بالحق البين ولم اقدمك الى مصر اجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فاذا اتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فانما هو في وعندي من قد تعلم قوم محصورون والسلام »

فكتب اليه عمرو « بسم الله الرحمن الرحيم لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو اما بعد فقد اتاني كتاب امير المؤمنين يستبطئني بالخراج ويزعم اني احيد عن الحق وانكث عن الطريق واني والله ما ارغب عن صالح ما تعلم ولكن اهل الارض استنظروني ان تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من ان نخرق بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى لهم عنه والسلام »

فكف الخليفة وقد كان محمولاً على ما أنبه به ممن كان يناظر عمراً على ولاية مصر

فتح دمياط وتانيس

فهذه المعاملة وامثالها جعلت للعرب منزلة رفيعة عند المصريين فرضخوا لهم الا الهاموك حاكم دمياط وهو من انسباء المقوقس فانه امتنع عن التسليم واستعد للحرب فانفذ اليه عمرو المقداد بن الاسود في طائفة من المسلمين فخرج اليهم الهاموك وحاربهم حتى قتل ابنه بالحرب فعاد الى دمياط وجمع اليه اصحابه فاستشارهم في امره وكان عنده حكيم قد حضر الشورى فقال له « ايها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له وما استغنى به احد الا هداه الى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك وهولاء العرب من بدء امرهم لم ترد لهم راية وقد فتحوا البلاد واذلوا العباد وما لاحد عليهم قدرة ولسنا باشد من جيوش الشام ولا أعز وامنع وان القوم قد أيدوا بالنصر والظفر والراي ان تعقد مع القوم صلحاً تنال به الامن وحقن الدماء وصيانة الحرم فما انت باكثر رجالاً من المقوقس »

فلم يعبأ الهاموك بقوله وغضب منه فقتله وكان له ابن عاقل وله دار ملاصقة للسور فخرج الى المسلمين في الليل ودلهم على عورات البلد فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها فلما برز الهاموك للحرب لم يشعر بالمسلمين الا وهم يكبرون على سور البلد فاستأمن للمقداد فتسلم المسلمون دمياط واخبروا عمراً بذلك . ثم خرج شطا بن الهاموك بعد ان اسلم الى البرلس والدميرة واشموم طناح فحشد اهل تلك النواحي وجعلهم مدداً للمسلمين وسار بهم مع المسلمين لفتح تانيس فبرز لاهلها وقاتلهم حتى قتل في المعركة في ليلة الجمعة نصف شعبان بعد ما أنكل فيهم فحمل من المعركة ودفن في مكانه المعروف به خارج دمياط يحيون فيه ليلة نصف شعبان من كل سنة . ولم يكف المسلمون عن تانيس حتى فتحوها

الفتح الاسلامي احتلال عسكري

لما فتح المسلمون البلاد لم يتولوا حكومتها كما رأيت بل نزلوا خارجها في معسكراتهم كالمحتلين يستولون على الخراج والجزية ويراقبون الاحكام . فعمرو بن العاص وجنده لما فتحوا مصر نزلوا في الفسطاط والاسكندرية وتركوا سائر قرى مصر بايدي القبط . ولم يسكن احد من المسلمين بالقرى وانما كانت رابطة تخرج الى الصعيد حتى اذا جاء اوان الربيع انتشر الاتباع في القرى لرعي الدواب ومعهم طوائف من السادات

وكان الخليفة عمر بن الخطاب مع ذلك ينهى الجند عن الزرع ويبعث الى

امراء الاجناد باعطاء الرعية اعطياتهم وارزاق عيالهم وينهاهم عن الزرع

وكان عمرو يقول لرجاله اذا رجعوا من غزوهم « انه قد حضر الربيع فمن احب منكم ان يخرج بفرسه بربعه فليفعل ولا اعلمن ما ينفع من اسمن نفسه واهزل فرسه . فاذا حمض اللبن وكثر الذباب ولوى العود فارجعوا الى قيرورتكم » وذكر المقريزي خطبة لعمرو في هذا المعنى رواها عن بحير بن ذاخر المعافري وفيها وصف عمرو بن العاص وابهته قال المعافري :

« رحت انا ووالدي الى صلاة الجمعة تهجيراً وذلك بعد حميم النصارى بأيام يسيرة فأطلنا الركوع أذ اقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس فذعرت فقلت يا أبت من هولاء فقال يا بني هولاء الشرط . فأقام المؤذنون الصلاة فقام عمرو بن العاص على المنبر فرأيت رجلاً ربعة قصير القامة وافر الهامة ادعج أباج عليه ثياب موشاة كان به العقبان تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ووعظ الناس وامرهم ونهاهم فسمعته يحض على الزكاة وصلة الارحام ويامر بالاقتصاد وينهي عن الفضول وكثرة العيال واخفاض الحال على ذلك فقال :

خطبة عمرو

« يا معشر الناس اياكم وخلالاً اربعاً فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزة اياكم وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييق المال والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال . ثم انه لا بد من فراغ يؤول اليه المرء في توديع جسمه والتدبير لشأنه وتخليته بين نفسه وبين شهواتها . ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الاقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه فيجوز من الخير عاطلاً وعن حلال الله وحرامه غافلاً . يا معشر الناس انه قد تدلت الجوزاء وذلت الشعرى وأقلعت السماء وارتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى ووضعت الحوامل ودرجت السخائل وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر فحي لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصده واربعوا خيولكم وأسمنوها وصونوها واكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً واياكم والمومسات المعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لهم فيكم صهراً وذمة فكفوا ايديكم وعفوا فروجكم وغضوا ابصاركم . ولا اعلمن ما اتى رجل قد اسمن جسمه وأهزل فرسه واعلموا اني معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن اهزل فرسه

من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . وحدثني عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير اجناد الارض فقال له ابو بكر رضى الله عنه ولمَ يارسول الله . قال لانهم وازواجهم في رباط الى يوم القيامة . فاحمدوا الله يا معشر الناس على ما اولاكم فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم فاذا يبس العود وسخن الماء وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحي الي فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن احد منكم ذو عيال الا ومعه تحفة لعياله على ما اطاق من سعته او عسرته . أقول قولي هذا واستحفظ الله عليكم » اه

خليج امير المؤمنين

ومن الاعمال العظيمة التي أجريت على يد عمرو بن العاص احتفار الخليج الموصل بين النيل والبحر الاحمر سنة ٢٣ هـ ودعاه خليج امير المؤمنين . وسبب ذلك ان الناس بالمدينة اصابهم جهد شديد في سنة الرمادة فكتب الخليفة الى عمرو بن العاص ما نصه : « من عبد الله عمر امير المؤمنين الى العاصي بن العاصي سلام . اما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي اذا شبعت انت ومن معك ان اهلك انا ومن معي فيا غوثاه ثم يا غوثاه » فكتب اليه عمرو « الى امير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص اما بعد فيالبيك ثم يالبيك قد بعثت اليك بعيرٍ اولها عندك وآخرها عندي والسلام » اراد بذلك انه ارسل له قافلة من الجمال عظيمة الجمل الاول منها في المدينة والآخر في مصر يتبع بعضها بعضاً . فلما قدمت على الخليفة وسع بها على الناس ودفع الى اهل كل بيت بعيراً بما عليه من الطعام ليأكلوا الطعام ويأندموا بلحمه ويحتذوا بجلده وينتفعوا بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما ارادوا من لحاف وغيره . فلما راى الخليفة ذلك حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم اليه هو وجماعته من اهل مصر فقدموا . فانفرد بعمرو وقال له « يا عمرو ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام وقد القى في روعي لما احببت من الرفق باهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين والعرب قد تشاءمت بي وكادت ان تغلب على رحلي وقد عرفت الذي اصابها . وليس جند من الاجناد ارجى عندي ان يغيث الله بهم اهل الحجاز من جندك فان استطعت ان تحتال لهم حيلة حتى يغيثهم الله تعالى » فقال عمر « ما شئت يا امير المؤمنين قد عرفت انه كانت تاتينا سفن فيها تجار من اهل مصر قبل الاسلام من خليج

كان مفتوحاً بين النيل المبارك وبحر القلزم فلما فتحنا مصر انقطع ذلك الخليج واستد وتركه التجار فان شئت ان نحفره فنشيء فيه سفناً يحمل فيها الطعام الى الحجاز فعلنا » فقال الخليفة نعم فافعل ولما خرج عمرو من حضرة امير المؤمنين لاقاه الذين اتوا معه من مصر فذكر لهم ما كان من حديث الخليفة فقالوا « ماذا جئت به اصلح الله الامير اتريد ان تخرج طعام ارضك وخصبها الى الحجاز وتخرب هذه فان استطعت فاستقل من ذلك » فاستصوب قولهم ثم جعل يتردد بين الامرين

فلما حان اوان عوده الى مصر ذهب لوداع امير المؤمنين فقال له « يا عمرو انظر الى ذلك الخليج ولا تنسين حفره » فاجاب عمرو « يا امير المؤمنين انه قد انسد وتدخل فيه نفقات عظيمة » فقال له « اما والذي نفسي بيده اني لاظنك حين خرجت من عندي حدثت بذلك اهل ارضك فعظموه عليك وكرهوا ذلك اعزم عليك الا ما حفرته وجعلت فيه سفناً » فقال عمرو « يا امير المؤمنين انه متى ما يجد اهل الحجاز طعام مصر وخصبها مع صحة الحجاز لا يخفوا الى الجهاد » فقال الخليفة « اني سأجعل من ذلك امراً ألا يحمل في هذا البحر الا رزق اهل المدينة واهل مكة » فافحم عمرو وعاد الى مصر وباشر لساعته حفر الخليج ومعالجته وجعل فيه السفن ودعاه « خليج امير المؤمنين » ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه بعد ذلك عمر بن عبد العزيز ثم ضيعه الولاة فأهمل وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على ترعة السويس في ايام الخديوي اسماعيل باشا

وفي خلال ذلك تجند عمرو الى الغرب ففتح برقة وصالحه اهلها على الجزية ثم سار الى طرابلس الغرب ففتحها ايضاً وكتب الى الخليفة بذلك سنة ٢٢ للهجرة

خلافة عثمان بن عفان

من سنة ٢٣ — ٣٥ هـ او من ٦٤٤ — ٦٥٥ م

وبعد فتح طرابلس الغرب بقليل قتل الامام عمر بن الخطاب قتله عبد فارسي يقال له فيروز الملقب بابي لؤلؤة كان عبداً للمغيرة بن شعبة في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ بعد ان تولى الخلافة عشر سنين وخمسة اشهر وثمانية وعشرين يوماً

ونادى قبل وفاته بعبد الرحمن بن عوف فصلى في الناس ثم قيل لو استخلفت يا امير المؤمنين فقال « دعوني اعهد الى النفر الذين توفي رسول الله (صلعم) وهو عنهم

راض » ثم دعا علياً وعثمان والزبير وسعداً فقال « انتظروا اخاكم طلحة ثلاثاً فان جاء والا فاقضوا امركم فقد قبض رسول الله وهو عنكم راض واني لا اخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكني اخافكم فيما بينكم فيختلف الناس فانهضوا الى حجرة عائشة باذنها فتشاوروا فيها ثلاثة ايام ولايأتين اليوم الرابع الا وعليكم اميرٌ منكم . ويحضر عبد الله بن عمر (ابنه) مشيراً ولاشيء له من الامر . وطلحة شريككم في الامر فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروه امركم وان مضت الايام الثلاثة قبل قدومه فامضوا امركم . انشدك الله يا علي ان وليت من امور الناس شيئاً ان تحمل بني هاشم على رقاب الناس انشدك الله يا عثمان ان وليت من امور الناس شيئاً ان تحمل بني معيط على رقاب الناس انشدك الله ياسعد ان وليت من امور الناس شيئاً ان تحمل اقاربك على الناس فتشاوروا واقضوا امركم وليصل بالناس صهيب » . وترى في الشكل السادس والعشرين اسم الجلالة واسم الرسول واسماء الصحابة المتقدم ذكرهم مع اسماء الخلفاء الراشدين مكتوبة بالحرف الكوفي في شكل جميل

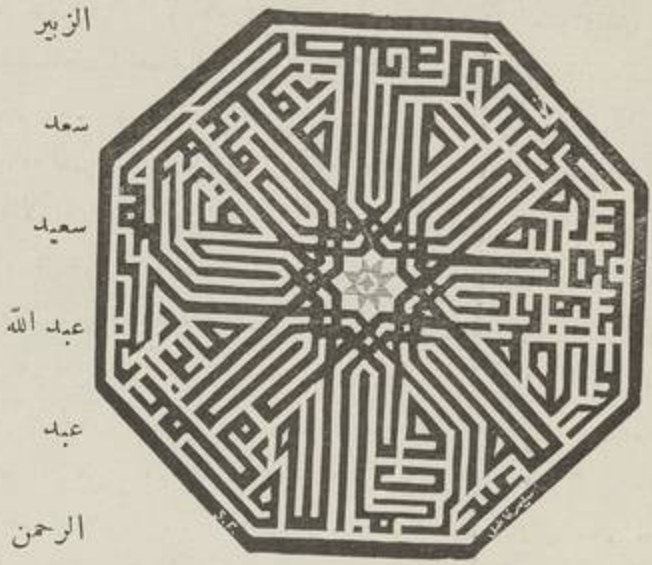

ش ٢٦ — اسماء الجلالة والرسول والصحابة بالحرف الكوفي

وبعد وفاة عمر تشاور الصحابة فيما اوصاهم به عمر فبايعوا عثمان بن عفان في ٣ محرم سنة ٢٤ هـ . وفي سنة ٢٥ عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر وولى عبد الله بن سعد بن ابي سرح اخاه من الرضاعة وكان عاملاً على الصعيد في امارة عمرو.

فلما تولى امارة مصر جبى خراجها للسنة الاولى ١٤ مليوناً من الدنانير وكان عمرو لا يجبي اكثر من ١٢ مليوناً فقال عثمان لعمرو « يا ابا عبد الله درّت اللقحة باكثر من درها الاول » فاجابه عمرو « لقد اضررتم بولدها ذلك ان لم يمت الفصيل »

وفي اثناء ذلك انفذ الروم حملة من جنودهم لاسترجاع مصر من المسلمين وسبب ذلك ان الروم في القسطنطينية عظم عليهم فتح المسلمين الاسكندرية وظنوا انهم لا يمكنهم المقام في بلادهم بعد خروج الاسكندرية من يدهم فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم الى نقض الصلح فاجابوهم لانهم رأوا الجو خالياً لهم بعد موت الامام عمر لانه كان يبعث كل سنة غازية من اهل المدينة ترابط بالاسكندرية . وكان على الولاء لا يغفلها ويكنف مرابطها ولا يأمن الروم عليها . فسارت الجيوش من القسطنطينية في المراكب تحت قيادة منويل الخصي. فلما بلغوا الاسكندرية كان عليها المقوقس فمنعهم من الدخول فنزلوا في ساحلها وانضم اليهم من كان فيها من الروم اما المقوقس ومن معه من جماعة القبط فلم ينقضوا عهدهم مع المسلمين فسأل اهل مصر الخليفة ان يقر عمرو بن العاص حتى يفرغ من قتال الروم فان له معرفة بالحرب وهيبة في العدو ففعل . فنزل عمرو الفسطاط يتأهب لمناهضة الروم . وكان حول الاسكندرية سور فخاف عمرو لئن اظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتى تكون مثل بيت الزانية تؤتى من كل مكان . فقال خارجة ابن حذافة لعمرو « ناهضهم قبل ان يكثر مددهم فلا آمن ان تنقض مصر كلها » فقال عمرو « لا ولكن ادعهم حتى يصيروا الي فانهم يصيبون من مرّوا به فيخزي الله بعضهم ببعض » فخرجوا من الاسكندرية ومعهم من نقض من اهل القرى فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها ويأكلون اطعمتها وينهبون ما مروا به فسار اليهم عمرو ولم يتعرض لهم حتى بلغوا نقيوس فلقوهم في البر والبحر فبدات الروم القبط بالنشاب فاستأخر المسلمون عنهم شيئاً وكانت الروم قد تأهبت صفوفاً خلف صفوف فبرز احد كبار الفرسان من الروم عليه سلاح مذهب فدعا الى البراز فبرز اليه رجل من زبيد يقال له حومل يكنى ابا مذحج فاقتتلا طويلاً برمحين يتطاردان ثم التقى الرومي الرمح واخذ السيف فالتقى حومل رمحه واخذ سيفه وكان يعرف بالنجدة فجعل عمرو يصيح ابا مذحج فيجيبه لبيك والناس على الجانبين وقوف في صفوفهم كان على رؤوسهم الطير فتجاولا ساعة بالسيف ثم حمل الرومي فاحتمله حومل واخترط خنجراً كان في منطقته فضربه به في نحره فسقط ميتاً فوثب اليه واخذ سلبه ثم مات حومل بعد ذلك ودفن في المقطم . فاشتد المسلمون وانهزم الروم فطلبهم المسلمون حتى الحقوهم بالاسكندرية

وقتلوا منويل الخصي وانخنوا في رجاله فاستنجدوا المسلمين فامر عمرو برفع السيف عنهم وبنى في ذلك الموضع الذي رفع فيه السيف مسجداً دعاه مسجد الرحمة اشارة الى رفع السيف هناك وهدم سور المدينة . ثم جمع ما اصاب منهم فجاءه اهل تلك القرى ممن لم يكن نقض فقالوا «قد كنا على صلحنا وقد مر علينا هؤلاء اللصوص فأخذوا متاعنا ودوابنا وهو قائم في يديك» فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه واقاموا عليه البينة فقال بعضهم لعمرو « ما حل لك ما صنعت بنا فقد كان لنا ان تقاتل عنا لاننا في ذمتك ولم ننقض فاما من نقض فابعده الله » فندم عمرو وقال يا ليتني كنت لقيتهم حين خرجوا من الاسكندرية

ولما انهزم الروم وسكنت القلوب اراد الخليفة ان يكون عمرو على جند مصر وعبد الله بن سعد على خراجها فقال عمرو « انا اذاً كقابض على البقرة بقرنيها وآخر يستدرها» فأبى عمرو وتنحى عن مصر فعاد عليها عبد الله بن سعد

وفي سنة ٢٧ هـ غزا عبد الله بن سعد افريقية فقتل ملكها جرجير وضم البلاد الى حكمه

وفي سنة ٢٨ هـ غزا قبرص مع معاوية بن ابي سفيان فصالحهم اهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وعليهم ان يؤذنوا المسلمين ان يجعلوا طريقهم الى العدو اليهم

وفي سنة ٣١ هـ نقضت بلاد النوبة فغزاها عبد الله بن سعد وحصر رجالها في دنقله حصاراً شديداً ورماهم بالمنجنيق ولم تكن النوبة تعرفه وخسف بهم كنيستهم بحجر فبهرهم ذلك فطلب ملكهم « قليدوروث » الصلح وخرج الى عبد الله وابدى ضعفاً وتواضعاً فتلقاه عبد الله ورفعه وقربه ثم قرر الصلح معه على ثلاثماية وستين راساً في كل سنة . وفي هذه السنة غزا ذا الصواري ايضاً

مقتل عثمان

وفي سنة ٣٣ هـ كثرت الاشاعة بالامصار بالطعن على عثمان وعماله وكتب بعضهم الى بعض في ذلك وتوالت الاخبار الى اهل المدينة فجاؤا الى عثمان واخبروه فلم يجدوا عنده علماً منه فقال « اشيروا علي وانتم شهود المؤمنين » قالوا «نبعث من تثق به الى الامصار يأتوك بالخبر اليقين» ففعل فجاءته الاخبار فكتب الى اهل الامصار « اني قد رفع الي اهل المدينة ان عمالي وقع منهم اضرار بالناس وقد اخذتهم ان يوافوني في كل موسم فمن كان له حق فليحضر يأخذ بحقه مني او من عمالي او تصدقوا فان الله يجزي المتصدقين »

وفي سنة ٣٥ هـ بعث الى عمال الامصار فقدموا اليه في الموسم وفيهم عبد الله بن سعد بن ابي سرح من مصر فقال الخليفة « ويحكم ماهذه الشكاية والاذاعة واني اخشى والله ان يكونوا صادقين وانما الامر كائن وبابه سيفتح ولا احب ان يكون لاحد علي حجة في فتحه وقد علم الله اني لم آل الناس خيراً فسكنوا الناس وبينوا لهم حقوقهم » ثم قدم المدينة ودعا علياً وطلحة والزبير ومعاوية حاضر فكلمهم فأظهروا له وجب اجحافه بالحقوق

وكان عبد الله بن سعد قد استخلف على مصر عند قدومه الى عثمان عقبة بن عامر وكان فيها محمد بن ابي حذيفة ممن ثاروا على عثمان فجمع اليه عصبة واخرج عقبة بن عامر من الفسطاط ودعا الى خلع عثمان واسعر البلاد وعرض على عثمان بكل شر يقدر عليه فاعتزلته شيعة عثمان ونابذوه وهم معاويه بن حديج وخارجة بن حذافة وبسر بن قرطاة ومسلمة بن مخلد في جمع كثير وبعثوا الى عثمان بامرهم وما صنعه ابن ابي حذيفة فبعث سعد بن ابي وقاص يصلح امرهم فخرج اليه جماعة فقلبوا فسطاطه وشجوه وسبوه فركب وعاد راجعاً . ولما اقبل عبد الله بن سعد من مكة منعوه ان يدخل فانصرف الى عسقلان

وازداد المسلمون تعصباً على عثمان فتكاتبوا من امصارهم في القدوم الى المدينة خفية فخرج المصريون وفيهم عبد الرحمن بن عديس البلوي في الف وخرج اهل الكوفة والبصرة وكلهم في مثل عدد اهل مصر . وخرجوا جميعاً في شوال مظهرين للحج فلما اتوا المدينة واجه المصريون علياً وهو عند احجار الزيت فعرضوا اليه امرهم فصاح بهم وطردهم وفعل مثل ذلك طلحة مع البصريين وزبير مع الكوفيين فانصرفوا الى بعد . فتفرق اهل المدينة ظناً منهم ان القوم قد رجعوا عن مرادهم فلم يشعروا الا والتكبير في نواحيها وقد احاط المصريون بعثمان ونادوا بأمان من كف يده فغدا عليهم علي فقال « ماردكم بعد ذهابكم » قالوا « اخذنا كتاباً مع بريد بقتلنا والكتاب موقع عليه من عثمان » فدخل علي على عثمان واخبره برجوع المصريين فاشرف عثمان على الجمع وخطب فيهم يريد زجرهم فنادوه من كل ناحية « اتق الله يا عثمان وتب اليه » وكان اولهم عمرو بن العاص فرفع الخليفة صوته وقال « انا اول من اتعظ واستغفر الله مما فعلت واتوب اليه فليأت اشرافكم يروني رأيهم فوالله ان ردني الحق عبداً لاسوءنّ بسنة العبد ولاذلن ذل العبد وما عن الله مذهب الا اليه فوالله لاعطينكم الرضا ولا احتجب عنكم » . ثم بكى وبكى الناس ورجع الى منزله فدخل عليه علي ومحمد بن مسلمة وسألوه عن اعتراضه على ما يقوله اهل مصر فخلف ما كتب ولا علم ثم دخل عليه

المصريون وقالوا له « جئنا لقتلك فردنا علي ومحمد وضمنا لنا النزوع عن هذا كله فرجعنا ولقينا رسولك ناقلاً كتاباً وفيه امرك لابن ابي سرح (ولم يكونوا عالمين باعمال ابن ابي حذيفة) بجلدنا والمثلة بنا وهو بيد غلامك وعليه خاتمك » فحلف عثمان لا كتب ولا امر ولا علم . فقالوا « كيف يجترأ عليك بمثل هذا فقد استحققت الخلع على التقديرين اذ لا يحل ان يولى الامور من ينتهي الى هذا الضعف فاخلع نفسك » فقال « لا أنزع ما البسني الله ولكني اتوب وارجع » قالوا « رأيناك تتوب وتعود فلا بد من قتلك » وخرجوا . وبقي محصوراً اربعين يوماً منع عنه الماء في اواخرها وفي ١٨ ذي الحجة دخل عليه اربعة فيهم محمد بن ابي بكر فقتلوه والقرآن في يده فنخضب بالدماء . وهجمت نائلة امرأته لتحميه بيدها فاصيبت بضربة قطعت اصابعها . وبقي في بيته ثلاثاً ثم جاء حكيم بن حزام وجبير بن مطعم الى علي فأذن لهما بدفنه فخرجا به ومعهما الزبير والحسن وابو جهم ابن حذيفة ومروان فدفنوه في حش كوكب بعد ان تولى الخلافة ١٢ سنة الا ١٢ يوماً

ولما علم اهل مصر بقتل عثمان ثار المتشيعون له فيها وعقدوا لمعاوية بن حديج وبايعوه على الطلب بدم عثمان فساروا الى الصعيد فبعث اليهم ابن ابي حذيفة خيلاً فهزمت ومضى ابن حديج الى برقة ثم رجع الى الاسكندرية فبعث اليه ابن ابي حذيفة جيشاً آخر فالتقى به في خربتا في اول شهر رمضان سنة ٣٦ فاقتتلوا وكانت النصرة لشيعة عثمان وانهزم الجيش واقامت شيعة عثمان في خربتا

خلافة علي بن ابي طالب

من سنة ٣٥ — ٤١ هـ او من ٦٥٥ — ٦٦١ م

اما ما كان من امر الخلافة فان طلحة والزبير والمهاجرين والانصار اجتمعوا الى علي ببايعونه فأبى وقال « اكون لكم وزيراً خيراً من ان اكون اميراً ومن اخترتم رضيته » فالحوا عليه قائلين « لا نعلم احق منك ولا نختار غيرك » فبايعوه في المسجد بالمدينة يوم الجمعة في ٢٤ ذي الحجة سنة ٣٥ واول من بايعه طلحة ثم الزبير ثم بايعه الناس وبايعته الانصار وتاخر منهم قليلون فخطب خطبته الاولى في الناس بعد حمد الله فقال « ان الله انزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض الفرائض ادوها الى الله تعالى يودكم الى الجنة . ان الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل

حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق ولا يحل دم امرء مسلم الا بما يجب. بادروا امر العامة وخاصة احدكم الموت فان الناس امامكم وان ما خلفكم الساعة تحدوكم خففوا تلحقوا فانما ينتظر الناس اخراهم . اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده انكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم اطيعوا الله فلا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون في الارض »

ثم رجع الى بيته ودخل عليه طلحة والزبير وعدد من اصحابه فقالوا « يا علي انا قد اشترطنا اقامة الحدود وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل واحلوا بانفسهم » فقال « يا اخوتاه اني لست اجهل ما تعلمون ولكن كيف اصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم اعرابكم وهم أخلاطكم يسومونكم ما شاؤا فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون » قالوا لا . فقال « فلا والله لا ارى الا رأياً ترونه ابداً الا ان يشاء الله . ان هذا الامر امر جاهلية وان لهؤلاء القوم مادة وذلك ان الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض آخذاً بها ابداً ان الناس من هذا الامر ان حرك على امور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا واشتدوا على قريش » فخرجوا من عنده وقد اضمروا له شرًا

وكان معاوية لما توجه الى ولايته في الشام اخذ قميص عثمان الملطخ بالدماء واصابع نائلة امراته وعلق القميص في المنبر وجعل يخطب في الناس ويغريهم في اذهانهم ان قاتل عثمان انما هو علي ويحثهم على معاملة القاتل بالقتل وشدد النكير على علي فالتفت حوله دعاته رغبة في الانتقام

ومما زاد اعداء الامام علي عدداً انه لم تدخل سنة ٣٦ هـ حتى عزل جميع من كانوا على الامصار في ايام عثمان وولى مكانهم من راى من المتقربين فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبدالله بن عباس على اليمن . ولما علم بقتل محمد بن ابي حذيفة ولى مكانه قيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام عوضاً من معاوية . اما سهل فخرج حتى اذا كان في تبوك لقيته خيل فقالوا من انت قال امير قالوا على اي شيء قال على الشام فقالوا « ان كان بعثك عثمان فاهلاً بك وان كان بعثك غيره فارجع » قال اما سمعتم بالذي كان قالوا بلى فرجع الى علي

قيس بن سعد على مصر

اما قيس بن سعد فكان صاحب راية الانصار مع النبي وكان من ذوي الراي والباس وكان ضخماً جسيماً صغير الراس طويلاً جداً مطاعاً جواداً كريماً يعد من دهاة العرب ولاه عليٌّ على مصر قال له «سر الى مصر فقد وليتكها واخرج الى رجلك واجمع اليك ثقاتك ومن احببت ان يصحبك حتى تأتيها ومعك جند فان ذلك ارهب لعدوك واعز لوليك واحسن الى المحسن واشدد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فان الرفق يمن»

فقال له قيس «اما قولك اخرج اليها بجند فوالله لئن لم ادخلها الا بجند آتيها به من المدينة لا ادخلها ابداً فانا ادع ذلك الجند لك تبعثهم في وجوهك» فخرج قيس حتى دخل مصر في مستهل رجب سنة ٣٧ هـ بسبعة من اصحابه فصعد المنبر وامر بكتاب الخليفة فقرئ على اهل مصر بامارته ويأمرهم بمبايعته واعانته على الحق وقال «الحمد لله الذي جاء بالحق وامات الباطل وكبت الظالمين. ايها الناس انا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم» فقام الناس وبايعوا واستقامت مصر. وبعث عليها عماله الا خربتا وفيها من قد اعظموا قتل عثمان وعليهم رجل من بني كنانة اسمه يزيد بن الحرث فبعث الى قيس يدعوه الى الطلب بدم عثمان وكان مسلمة بن مخلد قد اظهر الطلب ايضاً بدم عثمان فارسل اليه قيس «ويحك اعليَّ تثب فوالله ما احب ان لي ملك الشام الى مصر واني قتلتك» فبعث اليه مسلمة «اني كافٌّ عنك ما دمت على مصر»

وكان معاوية لا يزال ساعياً على علي فلما راى مصر قد استقام امرها خاف ان يقبل علي في العراق وقيس في مصر فيقع هو بينهما فكتب الى قيس «سلام عليك اما بعد فانكم تقمتم على عثمان ضربة بسوط او شتيمة رجل او تسيير آخر واستعمال فتى وقد علمتم ان دمه لا يحل لكم فقد ركبتم عظيماً وجئتم امراً ادًّا فتب الى الله يا قيس فانك من المجلبين على عثمان فاما صاحبك فانا استيقنا انه هو الذي اغرى الناس وحملهم حتى قتلوه وانه لم يسلم من دمه عظم قومك فان شئت يا قيس ان تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على امرنا ولك سلطان العراقين اذا ظهرت ما بقيت ولمن احببت من اهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان وسلني ما شئت فاني اعطيك واكتب اليَّ برأيك»

فلما جاءه الكتاب احب ان يرافعه ولا يبدي له امره ولا يتعجل الى حربه فكتب اليه «اما بعد فاني لم اقارف شيئاً مما ذكرته وما اطلعت لصاحبي على شيء منه وما ذكرت ان عظم عشيرتي لم يسلم فاول الناس كان فيه قياماً عشيرتي واما متابعتك

فهذا امرلي فيه نظر وفكرة وليس هو مما يسرع اليه . وانا كافٌّ عنك وليس يأتيك من قبلي ما تكرهه حتى ترى وترى ان شاء الله تعالى » فلما قرا معاوية كتابه رآه متقارباً متباعداً فكتب اليه « اما بعد فقد قرأت كتابك فلم ارك تدنو فاعدك سلماً ولا تتباعد فاعدك حرباً وليس مثلي يصانع الخادع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال واعنة الخيل والسلام »

فلما قرأ قيس الكتاب ورأى انه لا تفيد معه المرافعة والمماطلة عمد الى مكاشفته بما في نفسه فكتب اليه « اما بعد فالعجب من اغترارك بي وطمعك فيَّ واستسقاطك اياي اتسومني الخروج عن طاعة اولى الناس بالامارة واقولهم بالحق واهداهم سبيلاً واقربهم من رسول الله (صلعم) وسيلة وتأمرني بالدخول في طاعتك طاعة ابعد الناس من هذا الامر واقولهم بالزور واضلهم سبيلاً وابعدهم من رسول الله وسيلة ولد الضالين مضلين طاغوت من طواغيت ابليس . واما قولك اني ماليٌ عليك مصر خيلاً ورجلاً فوالله ان لم اشغلك بنفسك حتى تكون اهم اليك انك لذو جد والسلام »

فلما رأى معاوية كتابه قنط منه وثقل عليه مكانه ولم تنجع فيه حيله فجعل يسعى في كيده افساداً بينه وبين علي فقال لاهل الشام « لا تسبوا قيساً ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة تاتينا كتبه ونصيحته سراً الا ترون ما يقع باخوانكم الذين عنده من اهل خربتا يجري عليهم اعطياتهم وارزاقهم ويحسن اليهم » واتقانا لمكيدته افتعل كتاباً عن قيس اليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه في ذلك وقرأه على اهل الشام فبلغ ذلك علياً فاعظمه واكبره فدعى ابنيه وعبدالله بن جعفر واعلمهم بذلك

فقال ابن جعفر « يا امير المؤمنين دع ما يريبك الى ما لا يريبك لعزل قيس عن مصر » قال علي « اني والله ما اصدق بهذا عنه » فقال عبد الله اعزله فان كان هذا حقاً لا يعتزل لك . فبينما هم كذلك اذ جاءهم كتاب من قيس يخبر امير المؤمنين بحال المعتزلين وكفه عن قتالهم فقال ابن جعفر « ما اخوفني ان يكون ذلك مما لأة منه فمره بقتالهم » فكتب اليه يامره بقتالهم فلما قرأ قيس الكتاب كتب جوابه « اما بعد فقد عجبت لامرك تأمرني بقتال قوم كافين عنك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوك فاطعني يا امير المؤمنين واكفف عنهم فان الراي تركهم والسلام »

محمد بن ابي بكر على مصر

فقرأ عليٌّ الكتاب بحضور ابن جعفر فقال له « يا امير المؤمنين ابعث محمد بن ابي بكر على مصر واعزل قيساً » فبعث علي محمد بن ابي بكر الى مصر فلما وصلها قال له قيس « ما بال امير المؤمنين ماغيره ادخل احد بيني وبينه؟ » قال لا . وهذا السلطان سلطانك

فقال قيس « والله لا اقيم » وخرج من مصر مقبلاً الى المدينة وسار الى علي واخبره الخبر فعلم انه كان يقاسي اموراً عظاماً من المكايدة

اما محمد بن ابي بكر لما قدم مصر على ما تقدم جمع اليه سراة البلاد ورجال الدولة وتلا عليهم كتاب امير المؤمنين ثم قام خطيبا فقال « الحمد لله الذي هدانا واياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا واياكم كثيراً مما كان عمي عنه الجاهلون . الا ان امير المؤمنين ولاني امركم وعهد اليّ ما سمعتم وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب فان يكن ماترون من امارتي واعمالي طاعة لله فاحمد الله على ما كان من ذلك فانه هو الهادي له وان رايتم عاملاً لي عمل بغير الحق فارفعوا الي وعاتبوني فيه فاني بذلك اسعد وانتم جديرون وفقنا الله واياكم لصالح الاعمال برحمته »

وفي سنة ٣٨ هـ خرج معاوية بن حديج السكوني وطلب بدم عثمان فالتف عليه قوم كثيرون وفسدت مصر على محمد بن ابي بكر

فتح عمرو بن العاص مصر ثانية

اما معاوية فكان قد استفحل امره وكثر متشيعوه فبايعوه على الشام ولم يكن له همّ الا مصر وكان يخشى منها لقربها منه وكان يعتقد انه اذا ظهر عليها مكنته من الظهور على علي فتكون الخلافة كلها له . فاجتمع بعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وغيرهما من سراة قومه وقال لهم « اتدرون لما جمعتكم فاني جمعتكم لامر لي مهم »

فقال عمرو « دعوتنا لتسألنا عن رأينا في مصر فان كنت جمعتنا لذلك فاعزم واصبر فنعم الراي رأيت في افتتاحها فان فيه عزك وعز اصحابك وكبت عدوك وذل اهل الشقاق عليك »

فقال معاوية « اهمك يا ابن العاص ما أهمك » وكان عمرو قد صالح معاوية على قتال علي على ان له مصر طعمة ما بقي حياً . فنظر معاوية الى من حضر من اصحابه وقال لهم « لقد اصاب ابو عبد الله فما ترون »

فقالوا « ما نرى الا ما رأى عمرو » قال « فكيف اصنع فان عمراً لم يفسر كيف اصنع »

فقال عمرو « ارى ان تبعث جيشاً كثيفاً عليهم رجل حازم صابر صارم تأمنه وتثق به فيأتي مصر فانه سيأتيه من كان على مثل راينا فيظاهره على عدونا فان اجتمع جندك ومن بها على رأينا رجوت ان ينصرك الله »

قال معاوية « أرى ان نكاتب من بها من شيعتنا فمنيهم ونأمرهم بالثبات ونكاتب

من بها من عدونا فندعوهم الى صلحنا وتمنيهم شكرنا ونخوفهم حربنا فان كان ما اردنا بغير قتال فذاك الذي اردنا والا كان حربهم من بعد ذلك . انك يا ابن العاص بورك لك بالشدة والعجلة وانا بورك لي بالتؤدة »

فقال عمرو « افعل ما ترى فما ارى امرنا يصير الا الحرب »

فكتب معاوية الى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج السكوني وكانا قد خالفا علياً يشكرهما على ذلك ويحثهما على الطلب بدم عثمان ويعدهما المساواة في سلطانه فاجاب مسلمة ابن مخلد الانصاري عن نفسه وعن ابن حديج بمانصه « أما بعد فان الامر الذي بذلنا له انفسنا واتبعنا به أمر الله امرؤ نرجو به ثواب ربنا والنصر على من خالفنا وتعجيل النقمة على من سعى على امامنا . اما ما ذكرت من المواساة في سلطانك فقاتلة ان ذلك امرؤ ما له نهضنا ولا اياه اردنا فعجل الينا بخيلك ورجلك فان اعداءنا اصبحوا لنا هائبين فان يأتني مدد يفتح الله عليك والسلام » فجاءه الكتاب وهو في فلسطين فدعا اولئك النفر وقال لهم ما ترون فقالوا نرى ان تبعث جنداً فعهد الى عمرو ان يسير في ستة آلاف رجل واوصاه بالتؤدة وترك العجلة

مقتل محمد بن ابي بكر

فسار عمرو فنزل ادانى ارض مصر فاجتمعت اليه دعاة العثمانية فاقام بهم وكتب الى محمد بن ابي بكر كتاباً ونصه «اما بعد فتنح عني بدمك يا ابن ابي بكر فاني لا احب ان يصيبك مني ظفر. ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك وهم مسلموك فاخرج منها اني لك من الناصحين » وبعث معه كتاب معاوية بالمعنى ايضاً . فارسل محمد الكتابين الى علي واخبره بنزول عمرو بارض مصر وانه راى التثاقل ممن عنده ويستمده فكتب اليه علي يأمره ان يضم شيعته اليه ويعده انفاذ الجيوش اليه ويأمره بالصبر لعدوه وقتاله

فقام محمد بن ابي بكر في الناس وندبهم الى الخروج على عدوهم فانضم اليه ثلاثة آلاف فلما رأى ذلك عمرو بعث الى معاوية بن حديج يستمده فامده والتقى الجيشان فظهرت رجال عمرو وتفرقت اصحاب ابن ابي بكر . فما زال عمرو بجيشه حتى اقبل على محمد وكان قد تخلى عنه رجاله ففر من وجه عمرو يطلب ملجأ فانتهى الى خربة بناحية الطريق فاوى اليها . وسار عمرو حتى دخل الفسطاط ثم ارسل معاوية بن حديج في طلب محمد بن ابي بكر فانتهى الى جماعة على قارعة الطريق فسالهم عنه فقال احدهم « دخلت تلك الخربة فرايت فيها رجلاً جالساً » فقال ابن حديج « هو هو

فامسكوه » فدخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً واقبلوا به نحو الفسطاط فوثب اخوه عبد الرحمن بن ابي بكر الى عمرو وكان في جنده وقال « اتقتل اخي صبراً فابعث الى ابن حديج فانهه عنه » فبعث اليه يأمره ان يأتيه به فجاؤا به وقد اعياه الظمأ فقال لهم « اسقوني ماء »

فقال له معاوية بن حديج « لاسقاني الله ان سقيتك قطرة ابداً انكم منعتم عثمان شرب الماء والله لاقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والفساق »

فقال له محمد « يا ابن اليهودية النساجة ليس ذلك اليك انما ذلك الى الله يسقي اولياءه ويظمئ اعداءه انت وامثالك . اما والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم مني هذا » فقال له ابن حديج « اتدري ما اصنع بك ؟ ادخلك جوف حمار ثم احرقه عليك بالنار »

فقال محمد « ان فعلت بي ذلك فطالما فعلتم مثله باولياء الله واني لارجو ان يجعلها عليك وعلى اوليائك ومعاوية وعمرو ناراً تلظى كلما خبت زادها الله سعيراً » . فغضب منه وقتله وجعله في جيفة حمار والقاه في النار . فلما بلغ ذلك عائشة اخته جزعت عليه جزعاً شديداً وقنتت في دبر الصلاة تدعو على معاوية وعمرو واخذت عيال محمد اليها فكان القاسم ابن محمد بن ابي بكر في عيالهم ولم تعد تا كل من ذلك الوقت شواء . هكذا تم فتح مصر لمعاوية على يد عمرو بن العاص فاتحها الاول

اما الامام علي فكان قد اجهد نفسه ليجمع مدداً الى محمد فلم يأته من رجاله الا نفر قليل وبينما هو يحث الناس على ذلك جاءه الخبر بقتل محمد بن ابي بكر وفتح مصر فاشتد غيظه وخطب في الناس قائلاً :

« الا ان مصر قد افتتحتها اهل الفجور أولو الجور والظلمة الذين صدوا عن سبيل الله وبغوا الاسلام عوجاً الا وان محمد بن ابي بكر قد استشهد فعندالله نحتسبه اما والله ان كان كما علمت لممن ينتظر القضاء ويعمل للجزاء ويبغض شكل الفاجر ويحب هدى المؤمن اني والله ما الوم نفسي على تقصير واني لمقاساة الحروب لجدير خبير واني لأتقدم على الامر واعرف وجه الحزم واقوم فيكم بالرأي المصيب واستعرضكم معلماً وانا ديكم نداء المستغيث فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي امراً حتى تصير بي الامور الى عواقب المساءة فانتم القوم لا يدرك بكم الثار ولا تنقض بكم الاوتار . دعوتكم الى غياث اخوانكم من بضع وخمسين ليلة فتجرجرتم جرجرة الجمل الاشدق وتثاقلتم الى الارض تثاقل من ليست له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الاجر ثم خرج الي منكم جنيد متذائب كانما يساقون الى الموت وهم ينظرون فافٍ لكم » ثم نزل

وفي ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ قتل الامام علي بن ابي طالب وبويع ابنه الحسن مكانه وبقي هذا على كرسي الخلافة ستة اشهر فدخلت سنة ٤١ هـ وفيها تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان خليفة الشام ومصر وهذا لم يحل عن مقصده حتى بلغه فنودي به اميراً للمؤمنين وبويع لخمس بقين من ربيع الاول سنة ٤١ هـ

نقود الخلفاء الراشدين

اما النقود فقد كان العرب في الجاهلية يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية حتى ظهر الاسلام وافتتحوا البلاد واسسوا الدولة الاسلامية فعمدوا الى انشاء تمدنهم. فكان في جملة عوامله السكة. فضربوا الدراهم والدنانير اولاً مشتركة بينهم وبين الروم او الفرس. منها قطعة ضربها خالد بن الوليد في طبرية في السنة الخامسة عشرة للهجرة وهي رسم الدنانير الرومية تماماً بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى احد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية (XAAEA) وهذه الاحرف (EON) ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالماني انها مقتطعة من «ابوسليمان» كنية خالد بن الوليد

وهناك قطعة أخرى ضربت باسم معاوية. ولكنها على مثال دينار من دنانير الفرس برسمه وشكله الا اسم معاوية عليه (راجع الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي)

وذكر الدميري ضرباً من النقود يقال لها البغلية قال ان رأس البغل ضربها لعمر ابن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية «نوش خور» اي كل هنيئاً

وذكر المرجوم جودت باشا انه رأى نقوداً ضربها الامراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين اقدمها ضرب سنة ٢٨ هـ في قصبة هرتك طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفي «بسم الله ربي» ورأى نقداً مضروباً سنة ٣٨ هـ على دائرته هذه العبارة ايضاً ونقداً ضرب سنة ٦١ هـ في يزد على دائرته «عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين» بخط بهلوي. وهناك نقود نحاسية ضربت على عهد الراشدين بغاية البساطة وعلى بعضها رسوم قليلة وابها نقود الفرس كما تقدم (انظر ش ٢٧)

ش ٢٧ — نقود الخلفاء الراشدين

الدولة الاموية

من سنة ٤١ — ١٣٢ هـ او من ٦٦١ — ٧٥٠ م

خلافة معاوية بن ابي سفيان

من سنة ٤١ — ٦٠ هـ او من ٦٦١ — ٦٨١ م

هكذا كانت نهاية دولة الخلفاء الراشدين وبداية دولة خلفاء بني أمية واولهم معاوية بن ابي سفيان . وكانت الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين انتخابية وقصبتها المدينة فجعلها معاوية وراثية وجعل قصبتها دمشق فانحصرت اعقابه . وشرع في تولية العمال على الامصار وكانت مصر من اهم تلك الامصار فعهد بامرها لعمرو بن العاص لما عرف من علو همته وحسن سياسته وجعلها له طعمة بعد عطاء جندها والنفقة في مصلحتها . فعقد عمرو لشريك بن سمي لغزو البربر في شمالي افريقيا فغزاهم وصالحهم ثم انتقضوا فبعث اليهم عقبة بن نافع فغزاهم حتى هزمهم وعقد لعقبة ايضاً على غزوهوارة وعقد لشريك على غزولبدة فغزواها في سنة ٤٣ هـ ولما قفلا كان عمرو شديد الدنف يتقلب على فراش الموت فتوفي ليلة الفطر من السنة المذكورة وكان قصير القامة يخضب بالسواد وكان من افراد الدهر دهاء وحزماً وفصاحة الا انه كان يتلجلج بكلامه

ولما علم معاوية بوفاة عمرو تكدر كدراً عظيماً جداً لانه لم يعد يعلم لمن يعهد بولاية مصر بعده . وبعد التردد في الامر لم ير بداً من تولية احد اهله فارسل اليها عتبة بن ابي سفيان أخاه في ذي القعدة من سنة ٤٣ فسار اليها وبعد ان اقام اشهراً عرض له سفر الى اخيه معاوية بدمشق فاستخلف عبد الله بن قيس بن الحارث وكان في شدة وعسف فكره المصريون ولايته وامتنعوا منها فبلغ ذلك عتبة فاضطر الى الرجوع الى مصر ولما جاءها صعد منبر الخطابة فقال :

« ياأهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم وقد وليكم من اذا قال فعل فان ابيتم درأكم بيده فان ابيتم درأكم بسيفه ثم رجى في الاخير ما أدرك في الاول . ان البيعة شائعة لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل واينا عذر فلا ذمة له عند صاحبه » فناداه المصريون من جنبات المسجد « سمعاً سمعاً » فناداهم « عدلاً عدلاً » ونزل وعقد عتبة لعلقمة بن يزيد على الاسكندرية في اثنى عشر الفاً تكون لها رابطة

وتوفي عتبة في الفسطاط في ذي الحجة سنة ٤٤ هـ وكانت مدة ولايته سنة كاملة فاقام معاوية عوضاً عنه عقبة بن عامر بن عبس الجهيني وجعل له صلاتها وخراجها وكان عقبة قارئاً فقيهاً مفرضاً شاعراً له الهجرة والصحبة والسابقة الا انه لم يكن من السياسة وحسن التدبير على ما يرضي معاوية فولى مكانه مسلمة بن مخلد بن صامت الانصاري وكان من سراة المدينة وامره ان يكتم ذلك لبينما يخرج عقبة من مصر بحيلة

ففي ١٩ ربيع الاول سنة ٤٥ هـ انفذ معاوية امره الى عقبة ان يسير الى رودس بحراً فقدم مسلمة ورافق عقبة الى الاسكندرية وهو لا يعلم بامارته فلما توجه سائراً استوى مسلمة على سرير امارته فبلغ ذلك عقبة فقال « أخلعاً وغربة » وكانت مدة ولايته ثلاثة اشهر وقيل سنتين وثلاثة اشهر . واخذ مسلمة في اجراء الاحكام وجمع الصلات والخراج وانتظمت غزواته في البر والبحر فانفذ الى الغرب جيوشاً وشاد مدينة القيروان واقام حولها حصوناً ومعاقل وجعل فيها حامية . وفي سنة ٥٣ هـ في امارته نزلت الروم البرلس وقتل يومئذ وردان مولى عمرو بن العاص في جمع من المسلمين وامر مسلمة بابتناء منارات المساجد وهو اول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع . وفي سنة ٦٠ هـ سافر مسلمة بن مخلد الى الاسكندرية واستخلف على مصر عابس بن سعيد وفي هذه السنة توفي معاوية في دمشق في غرة رجب وسنه ثمان وسبعون سنة ومدة خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة اشهر وخمسة ايام

خلافة يزيد بن معاوية

من سنة ٦٠ — ٦٤ هـ او من ٦٨١ — ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة معاوية بويع ابنه يزيد فأقر مسلمة بن مخلد على مصر فكتب اليه باخذ البيعة فبايعه الجند الا عبد الله بن عمرو بن العاص فهددوه بالحريق فبايع ولم يكن يزيد اهلاً للخلافة ولولا قانون الوراثة الذي سنه ابوه ما بلغ عمره هذا المنصب لانه كان متبعاً هوى نفسه متغاضياً عن واجباته . فحرك ذلك الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير على اقامة الحجة عليه وكانا في المدينة فبعث يزيد الى حاكمها ان يقبض عليهما فمرا منه وسار الحسين الى العراق لان اكثر شيعة ابيه هناك وقد التف عليه حزب كبير من اهل الكوفة وغيرها فأرسل يزيد الى عبيد الله بن زياد عامله هناك بدفعه فبعث اليه جنداً قتلوه افظع قتلة وأتوا برأسه الى يزيد . لكنه لم يكد يبلغ مناه بقتل الحسين

حتى قام عبد الله بن الزبير في مكة فشدد عليه النكير وهو يطلب الخلافة لنفسه . وكانت مصر في اثناء ذلك ساكنة آمنة وفي ٢٥ رجب سنة ٦٢ هـ توفي اميرها مسلمة بن مخلد بعد ان تولاها خمس عشرة سنة واربعة اشهر فولى الخليفة مكانه سعيد بن يزيد الازدي من اهل فلسطين فدخل مصر في مستهل رمضان سنة ٦٢ هـ فتلقاه عمر بن مخزم الخولاني وقد شق عليه تولية من هو من غير بلاده عليه فقال « يغفر الله لامير المؤمنين اما كان فينا مئة شاب كلهم مثلك يولي علينا احدهم » ثم جعل اهل مصر يعرضون عنه ويعارضونه في احكامه ولكنه كان حازماً لم يثنه ذلك عن اقامة الحد واتباع العدل فسادت الراحة واستتب النظام الى اخر ايامه

وما زالت الاحزاب في مكة والمدينة يشددون النكير على يزيد الى ان اجمعوا على خلعه رغم كثرة دعاة الامويين واخرجوا من كان منهم في المدينة فانفذ يزيد ١٢ الفاً من رجاله عليهم مسلمة بن عقبة المري لمحاصرة المدينة وامرهم ان لا يكفوا عنها الا اذا اذعنت فاذا مضت ثلاثة ايام ولم تفعل فليحرقوها وهكذا حصل فانها اصبحت غنيمة للنار بعد الافاضة في النهب والقتل والاسر . وكان ذلك في سنة ٦٣ هـ

وفي سنة ٦٣ هـ بويع عبدالله بن الزبير على الخلافة في مكة باجماع من كان فيها من اهلها والمهاجرين اليها من المدينة والحجاز فارسل يزيد الحصين بن النمير الى مكة فحاصرها وقاتل اهلها ورماها بالمنجنيق فاحرق الكعبة . كل ذلك وابن الزبير فيها يدافع بالشيء الممكن الى ان جاءه الخبر بوفاة يزيد فقطع قول كل خطيب وكانت وفاته في حوارين من اعمال حمص في ٤ ربيع اول سنة ٦٤ هـ بعد ان تولى الخلافة ثلاث سنين وتسعة اشهر الا بضعة ايام وسنه ٣٩ سنة

خلافة معاوية بن يزيد

ثم عبدالله بن الزبير ثم مروان بن الحكم

من سنة ٦٤ — ٦٥ هـ او من ٦٨٤ — ٦٨٤ م

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابنه معاوية وسنه عشرون سنة ويدعوه بعضهم معاوية الثاني تمييزاً له من معاوية بن ابي سفيان جده وبعد ٤٥ يوماً من مبايعته توفي ولا ولد له

وفي ٩ رجب من تلك السنة هتف اهل الحجاز بمبايعة عبدالله بن الزبير بالاجماع ويقال ان معاوية بن يزيد تنازل له عن الخلافة من يوم بايعوه لما راى من كثرة احزابه وعجزه عن مناهضته فزهد في الدنيا مع صغر سنه وطلب ان يكتب على قبره «الدنيا غرور»

وكان عبدالله بن الزبير رجلاً مؤدباً فطناً جمع بين شرف النسب وعلو الهمة والاقدام حضر عدة وقائع وهو شاب ولما افتتح عمرو بن العاص مصر كان عبدالله وابوه الزبير واخوه محمد من جيشه ولما كتبت معاهدة الصلح بين عمرو والاقباط وضع هؤلاء الثلاثة اختامهم عليها شهوداً . ولما ارسل الخليفة عثمان بن عفان عبدالله بن سعد امير مصر في جيش عظيم لافتتاح سواحل الغرب كان عبدالله بن الزبير معه . ومن اخلاقه انه كان مثابراً في اعماله ثابتاً في مقاصده فلم ينفك منذ اختلاس معاوية بن ابي سفيان الخلافة من الخلفاء الراشدين وهو في سعي دائم عليه ثم على ابنه يزيد ثم على ابن ابنه معاوية الثاني حتى ظفر بمرامه ولما جاء الخبر بوفاة يزيد كان في مكة محاطاً بجيش من اليزيديين فلما علموا بالخبر عادوا على اعقابهم الى الشام فاستولى عبدالله على المدينة والحجاز واليمن وبايعه من فيها ثم شرع في ترميم الكعبة فهدمها حتى الحقها بالارض وكانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق وجعل الحجر الاسود عندها وكان الناس يطوفون من وراء الاساس وضرب عليها السور وادخل فيها الحجر

اما مصر فكان عليها سعيد الازدي كما مر وكان عبدالله بن الزبير على بينة من امر مصر واهميتها فانفذ اليها عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم واوصاه ان يدعو الناس الى مبايعته غير ان سعيداً الازدي كان لا يزال متشيعاً للامويين فلم يقبل على دعوة عبدالله من المصريين الا بعضهم ولم ترسخ قدم عبدالله بن الزبير في الخلافة الا بعد وفاة معاوية ابن يزيد اذ رأى الكوفة والبصرة والموصل والعراق وقسماً من مصر يدعو باسمه فلم يعد في خشية من شيء فصرح بمخالفته . ثم هم باخضاع مصر فعقد على امارتها لعبد الرحمن بن عتبة الذي كان ارسله اليها وكيلاً فوصلها في شعبان سنة ٦٤ هـ واخرج من كان فيها من دعاة الامويين وفيهم سعد الازدي فبايعه الناس وفي قلوب بعضهم غل

اما اهل الشام فلما علموا بوفاة معاوية بن يزيد بايعوا مروان بن الحكم من بني امية فعظم ذلك على عبد الله بن الزبير وقام لنصرته الضحاك بن قيس في جيش من رجال فساروا الى قرب دمشق فاتصل خبرهم بمروان فسار من الجابية لملاقاتهم فالتقى الجيشان في مرج راهط فحصلت بينهما وقائع كبيرة شفت عن انقلاب جيش عبدالله

وكان مروان قد انفذ ابنه عبد العزيز في جيش من اهل الشام لفتح مصر اما

ظفره بجيش ابن الزبير في مرج راهط فاشتدت عزيمته وحمل بكل جيشه على مصر . فلما علم اميرها عبد الرحمن بن عتبة بذلك اخذ في الدفاع فحفر حول الفسطاط خندقاً عميقاً لا يزال اثره باقيا في القرافة فنزل مروان قرب المطرية ومعه عمرو بن سعد فخرج عبد الرحمن اليه واقتتلا شديداً مدة يومين ولم يظفر احدهما بالاخر. وبينما كان الجيشان في شغل بين هجوم ودفاع سار عمرو بن سعد في نخبة من رجال مروان قاصداً الفسطاط فدخلها فلما علم عبد الرحمن بذلك لم ير بداً من المصالحة فتصالحا ودخل مروان مصر في ١٠ جمادي الاولى سنة ٦٥ هـ فكانت مدة امارة ابن جحدم تسعة اشهر وفي هذا اليوم توفي عبدالله بن عمرو بن العاص فاتح مصر فلم يستطع القوم الخروج بجنازته الى المدافن لشغب الجند على مروان فدفنوه في بيته قرب جامع عمرو . اما مروان فلم يكن واثقاً بالمصريين واخلاصهم وخاف ان يستغيبوه ويعقدوا لعبد الله بن الزبير فولى عليهم ابنه عبد العزيز

وفي الحال وضع مروان يده على جميع خزائن مصر وأبطل العطاوات فبايعه جميع الناس الا جماعة من قبيلة المغافر قالوا لا نخلع بيعة ابن الزبير فقطع اعناقهم وعنق ابن همام رئيس قبيلة لخم وكان من قتلة عثمان بن عفان فخافت الناس واجمعوا على مبايعته

فاقام مروان في مصر شهرين ثم عهد بمهامها الى ابنه عبد العزيز وهمّ بالرحيل فقال له ابنه « يا امير المؤمنين كيف المقام في بلدة ليس بها احد من بني ابي » قال له مروان « يا بني عمهم باحسانك يكونوا كلهم بني ابيك واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم واوقع الى كل رئيس منهم انه خاصتك دون غيره يكن لك عيناً على غيره وينقد قومه اليك وقد جعلت معك اخاك بشراً مؤنساً وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بني ان تكون اميراً باقصى الارض . اليس ذلك احسن من اغلاق بابك وخمولك في منزلك ؟» ثم اوصاه عند خروجه من مصر الى الشام قائلاً « اوصيك بتقوى الله في سر امرك وعلانيته فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون واوصيك ان لا تجعل لداعي الله عليك سبيلاً فان المؤذن يدعو الى فريضة افترضها الله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً واوصيك ان لا تعد الناس موعداً الا انفذته لهم ولو حملته على الاسنة . واوصيك ان لا تعجل في شيء من الحكم حتى تستشير فان الله لو اغنى احداً عن ذلك لاغنى نبيه محمداً (صلعم) عن ذلك بالوحي الذي يأتيه . قال الله عز وجل : وشاورهم في الامر » وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة ٥٥ هـ والحرب لا تزال سجالاً بين دعاة مروان ودعاة عبد الله بن الزبير

خلافة عبد الملك بن مروان

من سنة ٦٥ — ٨٦ هـ او من ٦٨٤ — ٧٠٥ م

وفي غرة رمضان من تلك السنة توفي مروان وله من العمر ٦٣ سنة فبويع ابنه عبد الملك فاقر اخاه عبد العزيز على مصر واخذ في متابعة مشروع ابيه فانفذ الاجناد الى جهات العراق والبصرة والجزيرة سعياً في تعميم خلافته . وفي آخر الامر ارسل اليه الحجاج بن يوسف فحاصر عبد الله بن الزبير في مكة مدة سبعة اشهر وفي نهاية سنة ٧١ هـ قتل عبدالله بن الزبير فخلا الجو لعبد الملك وكانت وفاته فصلا نهائياً لذلك الخصام بعد ان استمر عشر سنين متوالية ومملكة الاسلام تتنازعها خلافتان الواحدة في دمشق والاخرى في مكة

وفي سنة ٦٩ هـ امر عبد العزيز بن مروان ببناء قنطرة الخليج الكبير في طرف الفسطاط بالحمراء القصوى و بنى مقياساً للنيل في حلوان وهو اول مقياس بناه المسلمون في مصر ويقول بعضهم ان عمرو بن العاص بنى مقياساً قبل ذلك ولا دليل على صحة هذا القول

وفي سنة ٧٠ هـ وقع الطاعون في مصر فخرج عبد العزيز منها ونزل حلوان فاتخذها دارًا وجعل فيها الاعوان وبنى فيها الدور والمساجد وعمرها احسن عمارة وغرس نخلها وكرمها

وفي سنة ٧٧ هدم جامع الفسطاط كله وزاد فيه وفي ايام عبد الملك ضربت الدنانير المنقوشة الفضية والذهبية

وفي آخر ايام هذا الخليفة تم بناء القصر الجميل المدعو الدار المذهبة في شارع سوق الحمام

وكانت طائفة الكهنة الاقباط معفاة من الضرائب والعوائد فضرب على الشخص الواحد منهم ديناراً وعلى البطاركة ثلاثة آلاف دينار سنوية

وسنة ٨٦ هـ توفي عبد العزيز بن مروان في الفسطاط في ١٣ جمادى الاولى بعد ان حكم فيها عشرين سنة وعشرة اشهر و١٣ يوماً وكان جواداً حليماً حازماً بشوشاً فتولى بعده عبد الله بن عبد الملك بن مروان من قبل ابيه على صلاتها وسنه ٢٩ سنة وطلب اليه ابوه ان يقتفي آثار عمه عبد العزيز بالفطنة والدراية

خلافة الوليد بن عبد الملك

من ٨٦ — ٩٦ هـ او من ٧٠٥ — ٧١٤ م

وفي هذه السنة توفي عبد الملك بن مروان ويوبع ابنه الوليد بن عبد الملك الملقب بابي العباس فاقرّ اخاه عبد الله على مصر . وفي ايام الامير عبد الله جعلت الكتابة في دواوين مصر باللغة العربية وكانت لاتزال الى ذلك الحين بالقبطية يتولى امرها انتناش فعزله وولى مكانه بن يربوع الفزاري من اهل حمص . وغلت الاسعار في امارته فتشاءم الناس به وقالوا انه كان يقبل الرشوة ثم وفد على اخيه في صفر سنة ٨٨ هـ واستخلف عبد الرحمن بن عمر بن قحزم الخولاني واهل مصر في شدة عظيمة وضيق عيش مخيف

اما الوليد بن عبد الملك فقد حكم في الاسلام حكماً حقاً ووسع نطاق المملكة الاسلامية وحارب حروباً كثيرة عاد منها ظافراً . منها الحروب الهائلة مع أمراء تركستان والفرس والهند وملك القسطنطينية وقد فتح طوانه من بلاد الروم والاندلس وسمرقند كل هذه الفتوحات والغزوات وغيرها كانت على يد هذا الخليفة الباسل

وفي ١٣ ربيع اول سنة ٩٠ هـ اقيم على مصر قرة بن شريك من اهل قنسرين بدلا من عبد الله بن عبد الملك واحيا قرة بن شريك بركة الحبش وغرس فيها القصب فقيل لها اصطبل قرة واصطبل القناش

وقد تشكى القبط من جوره فهم يقولون انه كان يحتقر اعتقاداتهم ويدخل احياناً الى كنائسهم ومعه رجال من حاشيته ويوقفهم عن صلاتهم

وفي سنة ٩٣ هـ اعاد قرة بن شريك بأمر الوليد بن عبد الملك بناء جامع عمرو . وفي سنة ٩٦ هـ توفي قرة في الفسطاط فأقيم مقامه عبد الملك بن رفاعة بن خالد وكان قرة سيء التدبير خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً وبعد ثلاثة اشهر من امارته توفي الخليفة الوليد في دمشق في ١٥ جمادى الثانية بعد ان حكم ٩ سنين ونصف وسنه ٤٨ سنة وقد بنى مقياساً للنيل في جزيرة الروضة يقال ان النيل جرفه وقال آخرون ان المأمون امر بهدمه . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٣ هـ

ش ٢٨: نقود الوليد بن عبد الملك

خلافة سليمان بن عبد الملك

من سنة ٩٦ — ٩٩ هـ او من ٧١٤ — ٧١٧ م

وبعد وفاة الوليد بويع اخوه سليمان بن عبد الملك الملقب بابي ايوب فسار على خطوات اخيه في توسيع نطاق مملكته ففي اول سنة من خلافته فتح طبرستان وجورجيا وارسل اخاه مسلمة بن عبد الملك فحاصر القسطنطينية حصاراً شديداً

وعند اول خلافته اقرّ عبد الملك بن رفاعة على مصر وجعل على خراجها اسامة بن يزيد المشهور بالظلم ولقبه بعامل الخراج وقد اتفق جمهور المؤرخين من مسلمين واقباط على استبداد هذا الرجل وعسفه . ومما جعلهم يزيدون تظلماً منه انه لم يكتف باعلان الرهبان باستمرار الضريبة عليهم على حين انهم كانوا ينتظرون رفعها عنهم لكنه امر ان يلبس كل منهم في كل سنة خاتماً من حديد في اصبعه عليه اسمه يأخذه من جابي الخراج اشارة الى خلو طرفه ومن يخالف ذلك تقطع يده فاذا اصر على المخالفة يقتل فكانت العساكر تطوف الاديرة والمعابد في هذا السبيل فكم قتلوا من نفس زكية وربما كانوا يرون قتلها واجباً . وكان اسامة مع ذلك يظهر رغبة شديدة في اصلاح شؤون البلاد وزيادة محصولاتها فكان من وقت الى آخر يتفقد الارض وريها وينتبه خصوصاً لمقاييس النيل التي يعرف منها مقدار المحصولات . فعلم سنة ٩٦ هـ بسقوط مقياس حلوان فأعلم الخليفة بذلك فامر باغفاله واقامة مقياس آخر في جنوبي الجزيرة بين الفسطاط والجيزة وهو المكان المعروف بالروضة

ومن ضرائب اسامة ضريبة فادحة مقدارها عشرة دنانير تطلب من المار في النيل صاعداً او نازلاً ولا يمر الا من كان في يده جواز مؤذن له بذلك بعد اداء المبلغ المفروض ومما يحكى ان ارملة سافرت في النيل مع ابن لها بعد دفع المفرض ونيل تذكرة المرور بكل مشقة نظراً لضيق ذات يدها فحدث وهي في اثناء المسير ان ابنها هذا تطاول الى النيل مستقياً فاختطفه تمساح وابتلعه وثيابه والناس ينظرون وكانت تذكرة المرور في جيبه . ولما وصلت المكان المقصود اعترضها صاحب التذاكر وابى الا ان تبرز تذكرتها فاخبرته ما كان من امر ضياع ابنها على مشهد من الناس فاغلق اذنيه عن صراخها ولم يفرج عنها حتى باعت ما في يديها ودفعت الفلس الاخير

كل هذه الاجراآت وغيرها جعلت المصريين في قنوط فثاروا على اسامة يطلبون الانتقام وبينما هم في ذلك جاءهم النبأ بوفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك فسكن جاشهم على

امل ان ينالوا ما يريدون ممن يخلفه وكانت وفاته في ٢١ صفر سنة ٩٩هـ وهو يبني مدينة الرملة في فلسطين بعد ان حكم سنتين وثمانية اشهر وخمسة ايام وسنه ٤٥ سنة فبويع ابن عمه عمر بن عبد العزيز الملقب بابي حفص لانه لم يكن من اخوته وولده من يصلح للخلافة

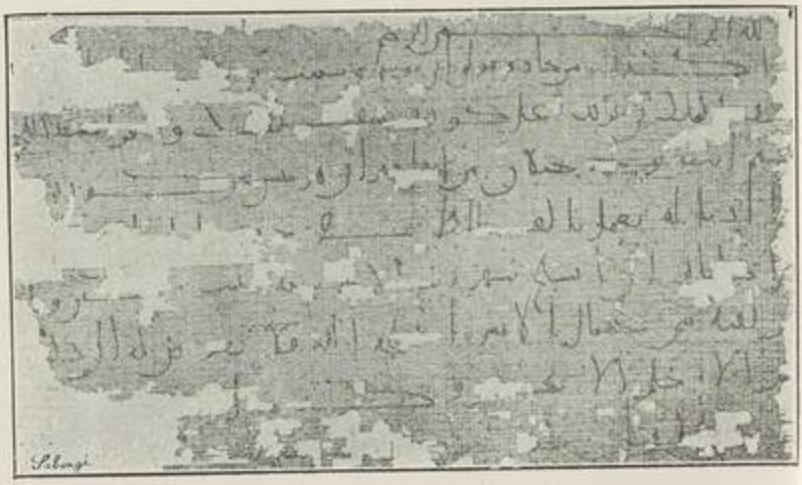

ش ٢٩ — صورة رسالة عربية على البابيروس في ايام بني امية

خلافة عمر بن عبد العزيز

من ٩٩ — ١٠١هـ او من ٧١٧ — ٧٢٠م

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز محباً للعدالة فرفع اليه المصريون شكواهم على اسامة فأمر بعزله وتولية ايوب بن شرحبيل . وكان هذا ورعاً منزهاً مستقيماً عادلاً فزاد في الاعطائيات وعطل الحانات فانسى المصريين ماكان من استبداد اسامة وغلاظته ثم بعث اليه الخليفة بالقبض على اسامة وتكبيله بالحديد وتسمير يديه ورجليه باطواق من الخشب وارساله اليه ففعل فمات اسامة في الطريق

وكان على الجيش في مصر حيان بن شريح فبلغ عمر بن عبد العزيز انه يطالب المسلمين بالجزية فعظم عليه ذلك وكتب اليه «أري يا حيان ان تضع الجزية عمن اسلم من اهل الذمة فان الله تعالى قال فان تابوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله

غفور رحيم وقال قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » فأجابه حيان « اما بعد فان الاسلام قد اخرَّ بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار تممت بها عطاء اهل الديوان فان راى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل » فكتب اليه عمر « اما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وانا عارف بضعفك وقد امرت رسولي بضربك على راسك عشرين سوطاً فضع الجزية عمن اسلم قبح الله رايك فان الله بعث محمداً (صلعم) هادياً ولم يبعثه جابياً ولعمري لعمر اشقى من ان يدخل الناس كلهم الاسلام على يده » وفي ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد ان حكم سنتين وخمسة اشهر و١٤ يوماً فرجعت الخلافة لابناء عبد الملك حسب اشتراط سليمان قبل موته فبويع يزيد بن عبد الملك

خلافة يزيد بن عبد الملك

من ١٠١ — ١٠٥ هـ او من ٧٢٠ — ٧٢٤ م

فأقر يزيد ايوب بن شرحبيل على مصر ثم انفذ اليه ان يسلم الحكم لبشر بن صفوان الكلبي وبعد يسير امره ان يتوجه الى افريقية واقام مكانه حنظلة بن صفوان وفي ايامه امر الخليفة بتكسير ما بقي من التماثيل والاصنام في مصر فكسر معظمها . وفي سنة ١٠٤ هـ عزل حنظلة وتولى الامارة محمد بن عبد الملك اخو الخليفة . وفي ٥ شعبان سنة ١٠٥ هـ توفي الخليفة يزيد بن عبد الملك في حران فبويع اخوه هشام و ير المصريون في مدة خلافة يزيد يوم نعيم

خلافة هشام بن عبد الملك

من ١٠٥ — ١٢٥ هـ او من ٧٢٤ — ٧٤٣ م

فلما بويع هشام أمر بصرف محمد بن عبد الملك عن مصر وأقام عليها الحر بن يوسف وفي امارته كان اول انتقاض القبط سنة ١٠٧ هـ ثم وفد الى الخليفة واستعفى من الامارة في سنة ١٠٨ هـ فولى مكانه حفص بن الوليد وفي سنة ١٠٩هـ استبدل حفص بعبد الملك ابن رفاعة وفي تلك السنة توفي ابن رفاعة فتولى مكانه بأمر أمير المؤمنين اخوه الوليد ابن رفاعة

وفي ولايته نقلت قبيلة قيس الى مصر ولم يكن فيها أحد منهم فانزلوا في الحوف الشرقي (الشرقية) وفي أيامه خرج وهيب اليحصبي شارداً في سنة ١١٧ هـ من أجل ان الوليد أذن للنصارى في ابتناء كنيسة يومنا بالحمراء. وفي هذه السنة توفيت السيدة سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب. وتوفي الوليد في الفسطاط وهو وال أول جمادى الآخرة سنة ١١٧هـ بعد أن حكم تسع سنين. فتولى مكانه عبد الرحمن بن خالد الفهمي وبعد سنة توفي عبد الرحمن وخلفه حنظلة بن صفوان فحكم في مصر هذه المرة ست سنوات وكان عاتياً غشوماً رغم رغبة الخليفة اليه ان يعامل الناس بالرفق والمعروف ولم يكتف بالضرائب المفروضة على الانسان ففرضها على الحيوانات وكان يختم الوصول المعطاة منه يختم عليه صورة اسد وكان يقطع يد كل من لم يكن ناقلاً هذا الرسم من المسيحيين

فكاتب المصريون الخليفة بشأن ذلك فأنفذ اليه في سنة ١٢٤ هـ يعزله عن مصر ويأمره ان يتوجه الى أفريقية ففعل فولى مكانه حفص بن الوليد الحضرمي وهذه هي المرة الثانية لامارته. وفي ٦ ربيع آخر من سنة ١٢٥هـ توفي الخليفة هشام بن عبد الملك وسنه ٥٦ سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و٧ اشهر و ١١ يوماً ومن أعماله التي تستحق الذكر انه تغلب على الروم

ش ٣٠ — نقود الخليفة هشام

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧ هـ كما ترى في الشكل الثلاثين

خلافة الوليد بن يزيد

من ١٢٥ — ١٢٦ هـ او من ٧٤٣ — ٧٤٤ م

ولما توفي هشام بويع الوليد بن يزيد الملقب بابي العباس أمر بصرف حفص عن مصر مع ما عرف به من النزاهة والاستقامة وثقة الاهالي فيه وأقام عوضاً عنه عيسى ابن أبي عطاء على الخراج فقط ولم يكن عيسى من السياسة على شيء فأثار بسوء تصرفه خواطر المصريين ثانية . والخليفة لم يكن أحسن سياسة منه لانه جمع جميع الصفات التي تحط من قدر الملوك فأثار عليه رعاياه ولاسيما أهل الشام فشقوا عصا الطاعة وطلبوا أن يبدل بيزيد بن الوليد بن عبد الملك وطلبوا من هذا اذا كان يقبل ذلك فاجاب بالايجاب وجعل لمن يأتيه برأس الوليد بن يزيد مائة الف دينار ثم قتل الوليد وسنه ٤٢ سنة ولم يحكم الا سنة واحدة وشهرين و٢٠ يوماً

خلافة يزيد بن الوليد ثم ابراهيم بن الوليد

من ١٢٦ — ١٢٧ هـ او من ٧٤٤ — ٧٤٥ م

فبويع يزيد بن الوليد الملقب بابي خالد في ١٨ جمادى الآخرة من سنة ١٢٦ هـ الا أن تلك المبايعة لم تكن كافية لتسكين خواطر الناس لان الثورة كانت قد امتدت الى أطراف العالم الاسلامي حتى هددت المملكة بالسقوط . فان اهل حمص لم يبايعوا يزيد بل قاموا يطالبون بدم الوليد . وسليمان بن هشام نجا من سجنه في عمان وجمع اليه أجناداً وسار الى دمشق يطالب بحقوق الخلافة . وأهل فلسطين ثاروا على أميرهم وقتلوه . ومروان بن محمد الحمار جرد من أرمينيا مطالباً بدم الوليد . وكان جيشه غفيراً فلما بلغ حران خافه يزيد فكاتبه وعاهده على ان يخلي له مابين النهرين وارمينيا واذربيجان حقناً لدماء العباد . وبعد ذلك بيسير توفي يزيد بالطاعون وسنه ٤٠ سنة ولم يحكم الا خمسة اشهر وعشرة ايام

وفي يوم وفاة يزيد بويع ابراهيم بن الوليد اخوه من ابيه ولم تكن تلك المبايعة مفرحة له لانه جاء الخلافة وهي في معظم الاضطراب . فلما علم مروان بن محمد بوفاة يزيد نكث المعاهدة وجرد جيشاً من ٨٠ الف مقاتل الى قنسرين يذكر المبايعة على ابراهيم فبعث ابراهيم مائة الف مقاتل تحت قيادة سليمان بن هشام لملاقاته في حمص وكان

مروان ينتحل سبباً يسوغ له الهجوم على دمشق فادعى انه جاء لانقاذ الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد من سجن دمشق . وقبل مباشرة الحرب كتب مروان الى سليمان بن هشام في حمص يسأله اذا كان يوافقه على خلع الخليفة ابراهيم وتولية أحد ابناء الخليفة السابق فأبى فحاربه مدة ففر سليمان ورجاله الى دمشق . فلما دخلها تعاقد مع الخليفة ابراهيم وجعلا ايديهما على الخزائن ثم اخرجا ابني الوليد من السجن وقطعا عنقيهما لانهما منشأ تلك المتاعب لعلهما يتخلصان من المقاومين فجاء الامر بالعكس اذ عظمت دعوى مروان فادعى ان الخليفة الذي يقتل ابناء اخيه بغير الحق لايصلح للخلافة وطلب خلعه وما زال حتى دخل دمشق في الشهر الثاني من سنة ١٢٧ هـ ووضع يده على الاحكام ودعا الى مبايعته فبايعه الجميع حتى الخليفة ابراهيم لانه اشترى حياته بهذه المبايعة وكانت مدة خلافة ابراهيم ٦٩ يوماً وعاش بعد الخلع ست سنوات

خلافة مروان بن محمد

من ١٢٧ — ١٣٢ هـ او من ٧٤٤ — ٧٥٠ م

وكان لمروان بن محمد ثلاثة القاب الأول أبو عبد الملك لقب به يوم ولادة ابنه البكر والثاني الجادي نسبة الى عمه جاد بن درهم والثالث الحمار وكان مشهوراً به اكثر مما بغيره واصل تلقيبه به انه كان ثابتاً في الحروب فلقبوه بحمار الوحش ثم اهملت الكلمة الثانية فتنوسيت وبقيت الاولى وحدها . فلما تمت له المبايعة سنة ١٢٧ هـ ابدل حفص ابن الوليد أمير مصر بحسان بن عتاهية النجيبي فشق ذلك على المصريين فوثبوا عليه وقالوا لانرضي الابحفص وركب جماعة منهم الى المسجد ودعوا الى خلع مروان وحبسوا حسان في داره وقالوا اخرج عنا فانك لاتقيم معنا ببلد فأخرجوه بعد ١٧ يوماً من توليته وأخرجوا معه عيسى بن أبي عطاء صاحب الخراج فولى مروان على مصر الحفص ابن الوليد وهي المرة الثالثة لولايته عليها . وفي سنة ١٢٨ هـ صرفه مروان وولى مكانه الحوثرة بن سهل بن عجلان والمصريون غير راضين بذلك فسار اليها في الاف باول المحرم وقد اجتمع الجند على منعه فأبى عليهم حفص فخافوا حوثرة وسألوه الامان فأمنهم ونزل في ظاهر الفسطاط . وبعد سنة ونصف (في ٢٤ رجب سنة ١٣١) عزل حوثرة وولى مكانه المغيرة بن عبيد الله الفزاري وبعد يسير توفي المغيرة وولي مكانه عبد الملك بن موسى وكان والياً على الخراج فلما تولى الامارة امر باتخاذ المنابر في الكور

ولم تكن قبله وكان ولاة الكور يخطبون على العصي الى جانب القبلة . والمغيرة آخر من تولى مصر من قبل الدولة الاموية . لانها كانت على شفا السقوط وقد انتشر الفساد في أنحاء المملكة الاسلامية فثارت حمص على مروان وكانت اول من جاهر بدعوته كما علمت فسامها الرضوخ فأبت . ومثل ذلك فعلت دمشق وكانت اول من دعا الى بيعته وبويع سليمان بن هشام على البصرة ثم تقدم بجيشه الى قنسرين فحاربه مروان وقتل من رجاله ثلاثين الفاً فانهزم سليمان الى حمص وحاصر فيها فجهز اليه مروان وحاصره هناك

وكثر منازعو مروان على الخلافة وفي مقدمتهم أبو العباس الهاشمي أول خلفاء الدولة العباسية وكان قد بايعه الفرس في اقصى الشرق (خراسان) بمساعدة أبي مسلم الخراساني وكان قد ارسله اليها داعياً وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر لكنه أظهر همة ودراية لاتتفقان الا بالرجال العظام فتملك قلوب الناس وجمع كلمتهم اليه وحارب جيوش مروان في خراسان فظفر بها فتقدم الى العراق حتى أتى الكوفة فافتتحها وخطب فيها لابي العباس . أما مروان فلم يظفر بحمص وسار الى الموصل فاضطهده اهلها فقنط من الفوز فعاد على اعقابه الى سوريا فرآها مجمعة على عصيانه فلم ير له ملجأ الا مصر لانها كانت لاتزال الى ذلك الحين على بيعته

أما أبو العباس فلما استتب له الامر في الكوفة جعل على البلاد التي صارت تحت حكمه ولاة اختارهم من ذويه ثم بايعه اهل الشام ومن والاهم . وهكذا كانت نشأة الدولة العباسية التي أقيمت على انقاض الدولة الاموية . ثم رأى أبو العباس تثبيتاً لقدمه في الخلافة ان يقتل كل من بقي من ابناء الدولة الاموية ودعاتها ولو بايعوه فامر بالقبض عليهم وهم ثمانون نفساً بين نساء ورجال واولاد فامر بذبحهم معاً بغير شفقة فلقب من ذلك الحين بالسفاح . ولم ينج من هذه المذبحة الا شاب يقال له عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام فرّ الى الاندلس (اسبانيا) وأسس فيها دولة اخرى اموية

اما مروان فجاء مصر على ان يستبقيها له فارسل عبد الله عم ابي العباس اخاه صالح بن علي يقتفي اثره وامره ان يقبض عليه باي وسيلة كانت فسار صالح في جيش عظيم ومعه ابو عون عبد الملك بن يزيد ونزل على جبل يشكر حيث جامع ابن طولون اليوم وكان قسماً من الفسطاط في اول عهدها ثم صار خراباً . فأمر ابو عون اصحابه بالبناء فيه فابتنوا وقاموا فيه معسكرهم ودعوه بالعسكر واتصل بناؤه ببناء الفسطاط وبنيت فيه بعد ذلك دار الامارة وجامع عرف بجامع العسكر ثم عرف بجامع ساحل الغلة وصار هناك مدينة ذات اسواق ودور عظيمة وصار امراء مصر ينزلون فيه من بعد ابي عون

الى ان بنى احمد بن طولون القطائع واقام فيها قصره

ثم اخذ صالح بن علي في مطاردة مروان فأدركه في قرية بوصير من الجيزة وقتله في ٢٧ جمادي الآخرة سنة ١٣٢ هـ وسنه سبعون سنة وقال آخرون ٥٩ ونقل راسه الى ابي العباس السفاح . وكانت مدة خلافة مروان خمس سنوات وشهراً واحداً وهو آخر خليفة من الدولة الاموية بالشام

الدولة العباسية للمرة الاولى

من سنة ١٣٢ — ٢٥٧ هـ او من ٧٥٠ — ٨٧٠ م

خلافة ابي العباس بن محمد

من ١٣٢ — ١٣٦ هـ او من ٧٥٠ — ٧٥٤ م

بويع الخليفة ابو العباس عبد الله بن محمد الملقب بالسفاح في ١٣ ربيع اول سنة ١٣٢ هـ وهو من سلالة العباس بن عبد المطلب واول الخلفاء العباسيين فأقال ولاة الامصار الذين كانوا قبل خلافته وابدلهم بولاة من اقاربه وذويه . فجعل على مصر عمه صالح بن علي قاتل مروان . فسار صالح حتى دخلها في محرم سنة ١٣٣ هـ وبعد يسير بعث الى الخليفة وفداً من اهل مصر بمبايعتها ثم قبض على عبد الملك بن موسى وجماعته وقتل كثيراً من دعاة بني أمية وحمل طائفة منهم الى العراق فقتلوا بقانسوة من ارض فلسطين وفي غرة شعبان سنة ١٣٣ هـ ورد اليه كتاب امير المؤمنين بامارته على فلسطين وان يستخلف على مصر من اراد فاستخلف ابا عون عبد الملك بن يزيد نائباً عنه وسار ومعه عبد الملك بن نصير وعدة من اهل مصر

وفي ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ توفي ابو العباس في الهاشمية سرير خلافته بعد ان قضى على دست الخلافة ٤ سنوات و٨ اشهر و٢٦ يوماً وسنه ٣٣ سنة ونصف وهو اول من اتخذ وزيراً لان خلفاء بني أمية لم يكونوا يستوزرون ولكنهم استكتبوا

خلافة المنصور بن محمد

من ١٣٦ — ١٥٨ هـ او من ٧٥٤ — ٧٧٥ م

وخلف ابا العباس اخوه المنصور بن محمد الملقب بابي جعفر واتخذ الهاشمية سريراً لملكه كما فعل سلفه . وفي سنة ١٤٠ هـ عهد ولاية مصر الى ابي عون الذي كان نائباً فيها وفي سنة ١٤١ هـ عزل ابا عون عن مصر وولى موسى بن كعب وكان احد نقباء العباسيين فدخل مصر في ١٥ ربيع آخر من السنة المذكورة ونزل العسكر . وفي ٥ ذي الحجة من تلك السنة عزل موسى وولى محمد بن الاشعث الخزاعي واراد توليته امر الخراج فابى فتولاه نوفل بن الفرات ثم راى بعد حين ان اهل الدواوين مالوا بكليتهم نحو صاحب الخراج فندم وآل الامر الى نفور بينه وبين نوفل . وفي ٥ رمضان سنة ١٤٣ هـ صرف محمداً وولى حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي فجاء مصر بجيش . وفي ٢٢ ذي القعدة سنة ١٤٤ هـ صرفه وولى يزيد بن حاتم المهلبي

فترى انه تقلب على مصر في مدة لا تتجاوز سبع سنوات ستة امراء الامر الدال على ما فطر عليه المنصور من التقلب فانه كان لا يثق باحد ولا يقر على امر وكان كثير الهواجس والظنون سريع الحكم ويدلك على ذلك ماكان من امره مع ابي مسلم الذي له الفضل على جميع الخلفاء العباسيين اذ لولا مساعيه ما وصلت الخلافة الى يدهم . فانه بمجرد ما قيل له ان ابا مسلم متشيع لاهل البيت امر بقتله . ولشدة هواجسه ترك الهاشمية التي كانت الى ذلك العهد (سنة ١٤٥ هـ) سريراً للخلافة العباسية وشرع في بناء مدينة دعاها مدينة السلام ثم دعيت بغداد عاصمة الخلفاء العباسيين . ثم خلع عن ولاية العهد ابن اخيه عيسى بن موسى وكان السفاح قد اوصى له بها بعده . وبايع لابنه محمد المهدي بن المنصور مكانه على ان يكون عيسى المذكور خليفة بعده

اما يزيد بن حاتم فتولى مصر في ايام المنصور نحواً من ثماني سنين عمل فيها بامانة . وفي امارته ظهرت دعوة بني الحسن بن علي بمصر وتكلم بها الناس وبايع كثير منهم لعلي ابن محمد بن عبد الله وطرق المسجد في ١٠ شوال سنة ١٤٥ هـ ثم قدمت الخطباء براس ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي في ذي الحجة فنصب في المسجد . وفي تلك السنة منع يزيد اهل مصر من الحج ولم يحج منهم احد ولا من اهل الشام لما كان في الحجاز من

الاضطرابات بامر بني حسن . وفي سنة ١٤٦ هـ ورد كتاب ابي جعفر يأمر يزيد بن حاتم بالتحول من العسكر الى الفسطاط وان يجعل الديوان في كنائس القصر من اجل ليلة المسجد

تاريخ الخلفاء الاسلامي

ش ٣١ — خريطة بغداد

وفي هذه السنة كان الفراغ من بناء مدينة بغداد فتحول اليها الخليفة ابو جعفر المنصور في صفر فلما دخلها امر ان تجتمع اليه العلماء والفلاسفة . وفي سنة ١٤٧ هـ حج يزيد واستخلف عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج صاحب شرطته وبعث جيشاً لغزو الحبشة من اجل خارجي ظهر هناك فظفر به الجيش وقدم راسه في عدة رؤوس فحملت الى بغداد . وفي سنة ١٤٨هـ ضم يزيد برقة الى عمل مصر وهو اول من فعل ذلك . وفي سنة ١٥٠ هـ خرج القبط في سخا فبعث

اليهم جيشاً فرجع منهزماً . وفي سنة ١٥٢ هـ توفي يزيد بن حاتم واقام المنصور عوضاً عنه عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج وهذا لم يحكم مصر الا ٣ سنين . وفي سنة ١٥٥هـ أُبدل باخيه محمد بن عبد الرحمن . وفي سنة ١٥٦ هـ توفي محمد المذكور فولى مكانه موسى بن علي بن رباح . ولداعي هذه التغييرات الكثيرة في امارة مصر لم يرتح اهلها فلم يكن لها فرصة للتقدم خطوة نحو الامام لاعتقاد كل حاكم انه عن قليل معزول فبدلاً من ان يسعي في زرع ما ربما لا يستغله كان يسعى فيما فيه نفعه الشخصي ولذلك كان كل واحد منهم يزيد في مقدار الضرائب المفروضة او يخترع ضرائب جديدة بحيث انه لم يبقَ شيءٌ معفى من الضرائب حتى الفعلة وبائعي البقول وقادة الجمال وكل الصناع حتى المتسولين كل هؤلاء كانوا يدفعون الضرائب فعمَّ البلاء واشتدَّ الجوع فاكل الناس الكلاب ولحم الادميين !

وفي ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ توفي ابو جعفر المنصور وهو في بير ميمون على بضعة اميال من مكة حيث توجه لقضاء فروض الحج وكان عمره ٦٣ سنة ومدة حكمه ٢٢ سنة الا ٧ ايام . وهذه صورة من النقود التي ضربت في ايام الخليفة المنصور سنة ١٤٦ هـ (انظار ش ٣٢)

ش ٣٢ — نقود المنصور

خلافة محمد المهدي

من سنة ١٥٨ - ١٦٩ هـ او من ٧٧٥ - ٧٨٥ م

خلفه محمد المهدي ابنه وهو الخليفة الثالث من بني العباس وكان كابيه متقلباً منز
وفي سنة ١٥٩ هـ صرف موسى بن علي عن مصر وولى محمد بن سليمان من اهالي سو
ثم عزله واعاد موسى بن علي . وفي سنة ١٦٠ هـ صرف هذا وولى عيسى بن ل
الجمحي . وفي سنة ١٦٠ هـ صرف عيسى وولى واضحاً مولى ابي جعفر وبعد
ابدله بمنصور بن يزيد الرعيني وهو ابن خال الخليفة المهدي . وفي سنة ١٦٣ هـ
يحيى بن داود الملقب بابي صالح من اهل خراسان وكان ابوه تركياً وهو من اشد

واعظمهم هيبة واقدمهم على الدم واكثرهم عقوبة فمنع من اغلاق الدروب ليلاً ومن اغلاق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلاب . ومنع حراس الحمامات ان يجلسوا فيها وقال « من ضاع له شيء فعليّ اداؤه » فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول « يا ابا صالح احرسها » فكانت الامور جارية على هذا النمط مدة ولايته وامر الاشراف والفقهاء واهل النوبات بلبس القلانس الطوال والدخول بها عليه يوم الاثنين والخميس بلا اردية . وكان ابو جعفر المنصور اذا ذكره قال هو رجل يخافني ولا يخاف الله . وفي سنة ١٦٤ هـ عزل ابو صالح وولي سالم بن سوادة التميمي . وفي ١٥ محرم سنة ١٦٥ عزله المهدي وولى ابراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس فابتنى داراً عظيمة بالموقف من العسكر . وخرج دحيه بن المعصب من نسل عبد العزيز بن مروان نابذاً ودعا الى نفسه بالخلافة فتراخى عنه ابراهيم ولم يحفل بامره حتى ملك عامة الصعيد فسخط المهدي على ابراهيم وعزله عزلاً قبيحاً في ٧ ذي الحجة سنة ١٦٧ هـ وولى موسى بن مصعب بن الربيع من اهل الموصل . ولما جاء هذا مصر اخذ من ابراهيم وممن كان معه ثلثمائة الف دينار ثم سيره الى بغداد . وشدد موسى في استخراج الخراج وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل وجعل يقبل الرشوة وضرب خراجاً على الحوانيت وعلى الدواب فتضايق الاهالي وكره الجند ذلك ونابذوه وثارت قيس واليمانية وكاتبوا اهل الفسطاط فاتفقوا عليه فبعث بجيش لقتال دحية بالصعيد وخرج في جند مصر كلهم لقتال اهل الحوف فلما التقوا انهزم عنه اهل مصر باجمعهم واسلموه فقتل في ٩ شوال سنة ١٦٨ هـ من غير ان يتكلم احد منهم . وكانت ولايته عشرة اشهر وكان ظالماً غاشماً . فولى المهدي مكانه اسامة بن عمر وقتياً الى ان انفذ اليها الفضل بن صالح اخا ابراهيم المتقدم ذكره اميراً فاخذ يسعى في اخماد ثورة اهل الحوف وخاف خروج دحية لان الناس كانوا قد كاتبوه ودعوه فسير الفضل عساكره اليه وكان قد اتى بها من الشام فانهزمت رجال دحية وقبض عليه وسيق الى الفسطاط فضربت عنقه في جمادى الآخرة سنة ١٦٩ هـ وكان يقول للفضل انا اولى الناس بولاية مصر لاني قمت في امر دحية وقد عجز عنه غيري ويقال انه ندم على قتل دحية وفي تلك السنة بنى الفضل الجامع بالعسكر وكان الناس يجتمعون فيه

وبقيت مصر في راحة وهدوء تامين بعد اخماد ثورة اهل الحوف وكذلك كانت سائر الامارات الاسلامية فسكن بال الخليفة المهدي من قبيل داخلية المملكة فعكف على توسيع نطاقها فغزا ملك اليونان بجند تحت قيادة ابنه الثاني هارون الرشيد فتغلب

هارون على بلدان عديدة ضمها الى مملكة ابيه ووضع على القسطنطينية جزية مقدارها سبعون الف دينار فاظهر هارون شجاعة واقداماً وقعا في عيني ابيه موقعاً عظيماً فكافأه بان جعل له حق الخلافة بعد اخيه موسى الهادي

وفي ٢٢ محرم سنة ١٦٩ هـ توفي الخليفة المهدي وله من العمر ٤٢ سنة ومدة حكمه عشر سنين وشهران ونصف

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المهدي سنة ١٦٣ هـ (انظر ش ٣٣)

ش ٣٣ — نقود الخليفة المهدي

خلافة موسى الهادي

من سنة ١٦٩ — ١٧٠ هـ او من ٧٨٥ — ٧٨٦ م

فبويع موسى الهادي وهو الخليفة الرابع من بني العباس وحالما استلم زمام الاحكام عزل الفضل بن صالح عن مصر وولى علي بن سليمان وحاول الغاء وصية ابيه القاضية بخلافة هارون من بعده على نية ان يجعل الخلافة لابنه لكنه لم يأت على ادراك منى حتى ادركه الموت في يوم الجمعة الواقع في ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ هـ وعمره ٢٤ سنة ولم يحكم الا سنة وشهراً و٢٢ يوماً

خلافة هارون الرشيد

من سنة ١٧٠ — ١٩٣ هـ او من ٧٨٦ — ٨٠٩ م

فبويع ابنه هارون الرشيد يوم وفاة اخيه وهو الخليفة الخامس من بني العباس وفي أيامه بلغت دولة العرب من العمران والمجد ما فاح ارجه في اقاصي الارض المعمورة وما تعد ترى عصراً مثل ذلك العصر وكأن شمس الدولة العربية في أيامه بلغت خط الهاجرة ثم اخذت تنحدر بعده رويداً رويداً نحو الافق . وفي يوم مبايعته ولد له غلام دعاه عبدالله وهو بكر أولاده وولي عهده ولقب بعدئذ بالمأمون

واقر هارون الرشيد علياً على مصر فاظهر هذا في ولايته حزماً وسياسة فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ومنع الملاهي والخمور لكنه عكف على هدم الكنائس المحدثة في مصر فبذل له النصارى خمسين الف دينار على أن يتخلى عن هدمها فأبى. وكان كثير الصدقة فعلق به الاهلون حتى قالوا انه اهل للخلافة فطمع فيها فسخط عليه هارون الرشيد وعزله وولى مكانه موسى بن عيسى العلوي في ١ ربيع اول سنة ١٧١ هـ وحالما استتم زمام الامارة أذن للمسيحيين بابتناء الكنائس التي هدمت بامر علي بن سليمان فابتنيت بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة. وفي ١٤ رمضان سنة ١٧٢هـ عزل بعد ان تولى الامارة سنة وخمسة اشهر وتولى مكانه مسلمة بن يحيى وفصل بين ادارة الحكومة والمالية او الخراج وجعل على الخراج عمر بن غيلان وفي ٥ شعبان سنة ١٧٣ هـ عزل مسلمة بن يحيى عن الصلاة وتولى محمد بن زهير وفي غاية ذي الحجة سنة ١٧٣ هـ عزل وتولى مكانه داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة. وفي ٧ صفر سنة ١٧٥ هـ عزل داود بن يزيد وولى مكانه موسى بن عيسى ثانية. وفي هذه السنة اوصى هارون الرشيد بالخلافة لابنه الثاني محمد الملقب بالامين وهو لم يبلغ الخامسة من العمر واخوه المأمون في السادسة. وسبب ذلك ان الامين كان ابن زبيدة ابنة عم الخليفة واما المأمون فكان ابن جارية فارسية فغضبت زبيدة لحرمان ابنها من الخلافة وكان الرشيد يحبها فاوصى بالخلافة لابنها الامين على ان يكون للمأمون حق الخلافة بعده

وفي ٢٦ صفر سنة ١٧٦ هـ عهدت امارة مصر الى ابراهيم بن صالح ثانية وكان قد تولاها في خلافة ابي جعفر كما تقدم. وفي ١٨ رمضان سنة ١٧٦هـ تولى امارة مصر عبد الله ابن المسيب بن زهير الضبي اخو محمد بن زهير ثم صرف في رجب سنة ١٧٧ فخلفه اسحاق بن سليمان من بني العباس فلما وصل مصر زاد في خراج المزارعين زيادة احجفت بهم فخرج عليه اهل الخوف فحاربهم فقتل كثير من اصحابه فكتب الى الرشيد بذلك فعقد لهرثمة بن اعين في جيش عظيم وبعث به فنزل الخوف فتلقاه اهله بالطاعة واذعنوا فقبل منهم واستخرج الخراج كله فسر الخليفة مما اتاه هرثمة من النصر فصرف اسحاق ابن سليمان وولى مكانه هرثمة في ٢ شعبان سنة ١٧٨ هـ وبعد قليل ارسل الرشيد هرثمة الى افريقية وولى على مصر عبد الملك بن صالح اخا ابراهيم بن صالح على الصلاة وارسل معه عبد الله بن زهير على الخراج. وفي ١٢ محرم سنة ١٧٩ هـ ابدل عبد الملك بن صالح بعبيد الله بن المهدي شقيق الخليفة وبعد قليل تنحى هذا عن الامارة اوسي بن عيسى وهي المرة الثالثة لامارته. وفي سنة ١٨٠ هـ عادت امارة مصر الى عبيد الله بن المهدي

ثانية . وفي ٧ رمضان سنة ١٨١ هـ سلمت امارة مصر الى اسماعيل بن صالح وكان خطيباً بليغاً فقال فيه ابن عفير «مارأيت على هذه الاعواد اخطب من اسماعيل بن صالح»

وفي ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٨٢ هـ صرف الرشيد اسماعيل بن صالح وولى اسماعيل ابن عيسى العباسي ثم صرف هذا وولى الليث بن الفضل البيوردي من اهل بيورد فقدم مصر في ٥ شوال سنة ١٨٢ هـ وخرج منها في رمضان سنة ١٨٣ الى الخليفة بالهدايا والمال واستخلف اخاه الفضل بن علي في مصر ثم عاد في آخر السنة وخرج ثانية بالمال في ٢١ رمضان سنة ١٨٥ هـ واستخلف هاشم بن عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية ابن حديج ثم عاد في ١٤ محرم سنة ١٨٦ هـ فكان كلما اغلق خراج سنة وفرغ من حسابها خرج بالمال الى امير المؤمنين هارون الرشيد مع الحساب

ثم بعث بمساح يمسحون الاراضي ومن جملتها اراضي اهل الحوف فانتقض لهم من القصبة اصابع فتظلموا الى الليث فلم يسمع منهم فتجهزوا وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم الليث في اربعة آلاف من جند مصر في شعبان سنة ١٨٦ هـ فالتقى بهم في رمضان فانهزم عنه الجند في ١٢ منه وبقي في نحو المائتين فحمل بمن معه على اهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة وكان التقاؤهم على ارض جب عميرة وبعث الليث الى الفسطاط بثمانين رأساً من رؤوس القيسية . ولما عاد الى الفسطاط عاد اهل الحوف الى منازلهم ومنعوا الخراج فسار الليث الى الخليفة هارون الرشيد في محرم سنة ١٨٧ هـ وطلب اليه الجيوش لانه لايقدر على استخراج الخراج من اهل الحوف الا بجيش يبعث به معه وكان محفوظ ابن سليم بباب الرشيد فرفع محفوظ الى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخراج وصرف الليث بن الفضل عن صلاة مصر وخراجها . وفي ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٨٧ هـ عزل واقيم مقامه احمد بن اسماعيل بن صالح . وفي ١٨ شعبان سنة ١٨٩ هـ ابدل بعبد الله بن محمد العباسي الملقب بابن زنيبة . وفي هذه السنة ابدل عبدالله المذكور بحسين بن جميل التختاخ وفي ايامه امتنع اهل الحوف من الخراج فبعث اليه الخليفة هارون الرشيد يحيى بن معاذ في امرهم . فنزل ببلبيس في شوال سنة ١٩١ هـ وصرف الحسين بن جميل عن امارة مصر في شهر ربيع الاخر سنة ١٩٣ هـ وولى مالك بن دلهم وفرغ يحيى بن معاذ من امر الحوف وقدم الفسطاط في جمادى الثانية فورد عليه كتاب الرشيد يأمره بالخروج اليه فكتب الى اهل الحوف ان اقدموا حتى اوصي بكم مالك بن دلهم وادخل بينكم وبينه في امر خراجكم . فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية وقد اعد لهم القيود فامر بالابواب فأخذت ثم دعا بالحديد

فقيدهم وتوجه بهم في منتصف رجب. وفي السنة التالية عهدت الى الحسين قيادة الجيش والخراج فضلاً عن الامارة . وفي ١٢ ربيع آخر سنة ١٩٢ هـ ابدل بمالك بن دلهم وكان على الخراج الخصيب بن عبد الحميد واليه تنسب مدينة منية خصيب

واخيراً في ٤ صفر سنة ١٩٣ هـ عادت امارة مصر الى الحسن بن جميل الى ان توفي الخليفة هارون الرشيد في ٣ جمادى الآخرة من تلك السنة في طوس وسنه ٤٧ سنة ومدة حكمه ٢٣ سنة وشهرو١٩ يوماً . ولاحاجة لتعداد خلال هذا الخليفة الذي رفع شأن الخلافة الاسلامية الى حد من العظمة لم تدركه في سائر اطوارها فقد كان حازماً عادلا تقياً باسلاً وديعاً محباً للعلم والفضل واهلهما ولدينا من الاحاديث عن كرم اخلاقه مايتحدث به العامة والخاصة فنكتفي بانه جعل الخلافة علماً هو مسماها فاذا قيل لنا ان الامر الفلاني حصل في ايام الخليفة نفهم انه حصل في خلافة هارون الرشيد

ومما يحكى عنه انه كان بينه وبين شرلمان ملك فرنسا في ذلك العهد صداقة وولاء وانه اهدى اليه اشياء كثيرة من اعمال الشرق منها الساعة الشهيرة المكتوب عليها بالحروف الكوفية . وهذه صورة النقود التي ضربت في ايام الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩١ هـ (انظر ش ٣٤)

ش ٣٤ — نقود هارون الرشيد

خلافة محمد الامين

من سنة ١٩٣ — ١٩٨ هـ او من ٨٠٩ — ٨١٣ م

وفي يوم وفاة الرشيد خلفه ابنه محمد الامين اما المأمون فكان ابوه قبل وفاته قد وهبه جميع حلله واسلحته الخصوصية وولاه خراسان بما فيها من العدة والرجال وان يكون عليها حاكماً مستقلاً عن اخيه الامين . فالامين عند استلامه زمام الخلافة انكر على اخيه وصية ابيهما ولم يسلمه شيئاً مما له الحق به ويقال ان كل ذلك كان بدسيسة الفضل بن ربيع . فتنافر الاخوان والامين اشدهما ضغينة فارسل الى الكعبة فأتى بالكتابين الذين جعلهما الرشيد هناك ببيعة الامين والمامون فاحرقهما الفضل وجعل

ولاية العهد لموسى بن الامين فلم يبق بعد ذلك باب للمصالحة بين الاخوين . وكان الامين محباً للهو ومعاقرة الخمرة . اما المامون فكان متيقظاً يتحين الفرص فدعا الى مبايعته بخراسان فالتف حوله حزب كبير يدعون الى نصرته ارؤافيه من العدل وكرم الاخلاق ثم جعل المامون يجمع قواته ويستنصر دعاته واتحد معه هرثمة بن اعين الذي كان اميراً على مصر قبل ذلك الحين فعظم الامر على الامين فولى حاتم بن هرثمة على مصر سنة ١٩٤ هـ استعطافاً لابيه هرثمة ولكن ذلك لم يجده نفعاً لان هرثمة لم يتحول عن ولاء المامون

وفي سنة ١٥٩ هـ انفذ الامين جيشاً فيه اربعون الف مقاتل الى خراسان لمقاتلة اخيه فلاقاهم طاهر بن الحسين قائد جند المأمون وارجعهم على اعقابهم فعظم المأمون في عيون المسلمين عموماً فبايعه اهل خراسان وتابعهم كثيرون . فلما رأى الامين ذلك ورأى ان تولية حاتم بن هرثمة على مصر لم تجده نفعاً عزله وولى جابر ابن الاشعث في السنة عينها . وابقى حاتم بن هرثمة في سفح جبل المقطم حيث القلعة الآن قبة عظيمة دعاها قبة الهواء بقيت الى انقراض دوله بني طولون وخراب القطائع . وبعد تولية جابر على مصر اشتد ازر الامين وطمع بالفوز على اخيه فجند جنداً آخر مؤلفاً من ٤٠ الفاً لمحاربته وجنداً آخر انفذه من جهة اخرى تحت قيادة عبد الله بن حميد بن قحطبة الذي كان ابوه اميراً على مصر في عهد ابي العباس . اما طاهر بن الحسين فسار لملاقاتهم ولم يبال بتلك الجيوش لكنه لم يلتق بهم فتقدم الى الاهواز

وكان على مصر جابر بن الاشعث كما تقدم فلما حدثت فتنة الامين والمأمون قام السري بن الحكم غضباً للمأمون ودعا الناس الى خلع الامين فاجابوه وبايعوا المأمون في ٢٢ جمادى الاخرة سنة ١٩٦ هـ . وقام في بغداد الحسين بن علي احد سراتها ودعا الناس الى خلع الامين وتولية المأمون فاجابوه وبايعوا في ١١ رجب من تلك السنة . ووثب العباس بن عيسى على الامين ووالدته زبيدة واودعهما السجن موثقين . ثم تمكن الامين ببعض الوسائط من تسلق كرسي الخلافة ثانية فبايعه من في بغداد فقط . اما خلافة المأمون فكانت على الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها . وعقد على مصر لحاتم بن هرثمة بن اعين وارسل اليها عباد بن محمد نائباً عنه موقتاً

وفي سنة ١٩٧ هـ حمل طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين على بغداد وحاصراها نحواً من سنة فضجر الاهالي وملوا من طول هذه المحاصرة وصاروا ينظرون لها

نهاية فلم يروا لها حلاً الا يخلع الامين نخلعوه المرة الثانية ففرّ وبعد قليل قبض عليه وقتل وجيء برأسه والخاتم والقضيب والبردة الى المأمون ولم يكن عمر الامين عند موته الا ٢٩ سنة و٣ اشهر وبضعة ايام ومدة حكمة اربع سنين وثمانية اشهر وثمانية عشر يوماً وكفّت بموته الحروب وحقنت الدماء

خلافة عبد الله المأمون

من ١٩٨ — ٢١٨ هـ او من ٨١٣ — ٨٣٣ م

فبويع المأمون مبايعة قطعية في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ هـ يوم قتل اخيه الامين . فاستقدم عباد بن محمد الذي كان عينه نائباً في مصر وعهد امارتها الى المطلب بن عبد الله الخزاعي . وبعد اشهر قليلة أبدل بالعباس بن موسى بن عيسى الذي تولى على مصر ثلاث مرات في ايام هارون الرشيد فتولى صلاتها وخراجها . وفي سنة ١٩٩ هـ تخلى العباس بن موسى عن امارة مصر فارسل المأمون عوضاً عنه المطلب بن عبد الله سلفه وبعد قليل أبدل أبدل بالسري بن الحكم . واخذت من ذلك الحين تنتشر في المملكة الاسلامية الا ان الايام تلد العجائب فتأتيك كل يوم بنبأ جديد

فان العلويين سلالة الامام علي بن ابي طالب لم يكفوا عن المطالبة بحقوقهم في الخلافة فدعوا الناس الى مبايعة علي بن موسى . فلما علم المأمون بذلك وكان لا يزال في خراسان استشار وزيره الفضل بن سهل في الامر فنصح له ان يوصي بالخلافة بعد وفاته لعلي المذكور لان الفضل كان شيعياً . الا ان تلك السياسة لم تفد الا زيادة الخرق اتساعاً فتضاعف التمرد ونمت الاحزاب وقد شق ذلك خصوصاً على بني العباس لانهم رأوا الخلافة قد خرجت من ايديهم الى العلويين فثاروا في بغداد سنة ٢٠٢ هـ ثورة شفت عن خلع المأمون ومبايعة ابراهيم بن المهدي . اما سطوته فلم تتجاوز سور بغداد لانه لم يكن اهلاً للاحكام فخارت قواه دون ذلك فعجز الذين اقاموه عن استبقائه اكثر من سنة وبضعة اشهر فتنازل عن الخلافة سنة ٢٠٣ هـ وفرّ هارباً فعاد المأمون الى بغداد في سنة ٢٠٤ هـ فدخلها في حلة خضراء علوية وبعد اسبوع عادت الجنود الى الملابس السوداء العباسية

وفي هذه السنة توفي الامام محمد بن ادريس الملقب بالشافعي صاحب المذهب الشافعي

وكانت وفاته في الفسطاط ولم يبلغ من العمر اكثر من ٥٤ سنة . وتوفي ايضاً السري ابن الحكم امير مصر واقيم مقامه محمد بن السري بمبايعة الجند له بقطع النظر عن اوامر الخليفة بهذا الشأن . وفي سنة ٢٠٧ هـ توفي طاهر بن الحسين رئيس قواد المأمون في مرو عاصمة خراسان وكان قد اقامه المأمون هناك حاكماً فقدم ابنه عبد الله ابن طاهر الى مصر واقام في بلبيس

ونظراً لما بين مصر ودار الخلافة من بعد المسافة اصبح الناس لا يعبأون بالاوامر التي كانت تأتيهم منها . وزد على ذلك ان الدولة اصبحت في ضعف شديد لما كان يهددها من تمرد عمالها واحتقار رعيتها لها ولا سيما المصريين فانهم كانوا لا ينفكون عن خرق حرمتها ومخالفة اوامرها حتى عقدوا لعبد الله بن السري عليهم بمبايعة الجند كما تقدم وما زالوا على ذلك نحواً من خمس سنوات . وفي سنة ٢١١ هـ تحصن عبد الله بن طاهر في بلبيس فالتفت عليه عصبة من اهلها وبايعوه فاستفحل امره فسار الى الفسطاط في ربيع الاول من تلك السنة وانزل عبد الله بن السري وجعل على الفسطاط عباد بن ابراهيم . وفي سنة ٢١٢ هـ ابدل عباد بعيسى بن يزيد الجلودي

وفي سنة ٢١٣ هـ انفذ المأمون الى عبد الله بن طاهر ان يقف عند حده وينسحب من مصر وعقد على مصر وسوريا لاخيه المعتصم واعطاه خمسمائة الف دينار وامر بمثل هذا المبلغ هبة لعبد الله بن طاهر للتعيش . ويقال انه امر بمثل ذلك ايضاً لابنه العباس . فيكون جملة ما اخرج من خزينته في يوم واحد مليوناً وخمسمائة الف دينار وهذا منتهى السخاء

واستخلف المعتصم عمير بن الوليد التميمي على الصلاة في ١٧ صفر فخرج ومعه عيسى الجلودي لقتال اهل الحوف وكانت بينهم معارك عظيمة قتل فيها عمير فاستخلف مكانه عيسى الجلودي فحارب اهل الحوف بمنية مطر ثم انهزم في رجب واقبل المعتصم الى مصر في اربعة الاف من اتراكه فقاتل اهل الحوف في شعبان ودخل الى مدينة الفسطاط في ٢٢ منه وقتل اكابر الحوف ثم خرج الى الشام في اول محرم سنة ٢١٥ هـ في اتراكه ومعه جمع من الاسارى في حر وجهد شديد . وولى على مصر عبدويه بن جبلة على الصلات فخرج اهل الحوف في شعبان فبعث اليهم وحاربهم حتى ظفر بهم ثم قدم الافشين حيدر بن كاوس الى مصر في ٣ ذي الحجة ومعه علي بن عبد العزيز الجروي لاخذ ما له فلم يدفع اليه شيئاً فقتله وصرف عبدويه . وخرج الى برقة وولى عيسى بن منصور الرافعي فوليَ من قِبل المعتصم اول سنة ٢١٦ هـ على الصلاة فانتقض

مصر السفلى عربها وقبطها في جمادى الاولى واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة فقدم الافشين من برقة في منتصف جمادى الآخرة ثم خرج هو وعيسى في شوال فاوقعا بالقوم واسرا منهم وقتلا . ثم رجع عيسى فسار الافشين الى الحوف وقتل جماعتهم وكانت حروب الى ان قدم الخليفة عبد الله المأمون في ١٠ محرم سنة ٢١٧ هـ فسخط على عيسى وحل لواءه واخذه بلباس البياض عقوبة له وقال له « لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتم الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد » ثم ولى كيدر الصفدي بالنيابة عن المعتصم

وسبب قدوم الخليفة الى مصر انه كان عائداً من محاربة الروم فرأى ان يمر بمصر لمراقبة شؤونها وكان قلقاً عليها لما بلغه من تمرد اهلها ونقض عمالها فدخلها وجعل يمر بقراياها يتفقد احوالها . ويقال انه كان يبني له في كل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر حوله وكان يقيم في القرية يوماً وليلة . وبلغ الفسطاط في يوم الجمعة ٩ محرم سنة ٢١٧ هـ وما زال يتحرى أصول الفساد ويقتلعها الى ان برح مصر في آخر صفر من تلك السنة قاصداً دمشق

ولم يفتر المأمون في اثناء تجواله بمصر عن تنظيم احوالها واصلاح داخليتها وتأييد مجالسها واحكامها وامر بترميم مقياس النيل الذي بناه اسامة في الروضة وبناء جامع فيه ومقياس آخر في بنبنودا (الصعيد) وترميم مقياس اخميم

وبعد ان برح المأمون مصر بلغه ان الدواوين في مصر سارت على خطة لا يرضاها من حيث قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها ممن كابد المشقة والتعب في اصلاحها واسعادها وتسليمها لمن يدفع الزيادة من غير كلفة ولا نصب . فلما علم بذلك انكره ومنع ارتكابه واصدر اوامره الصارمة باعفاء الكافة اجمعين والضمناء والعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ويستولون عليه ما داموا مغلقين وباقساطهم قائمين وتضمن ذلك منشور قرىء على الناس ينبههم فيه الى ما جاء في الكتاب العزيز « يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود »

وفي ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ توفي الخليفة المامون على اثر حمى حادة على نهر البذندون في سليسيا ودفن في طرسوس وعمره ٤٨ سنة وبضعة اشهر ومدة خلافته عشرون سنة وخمسة اشهر و ١٣ يوماً

أما آثار المأمون فاجل آثار الخلفاء لانها تدل على ما بلغه العلم وما بلغت اليه الصناعة من السعة والاتقان . وقد كان لشدة تعلقه بالعلم والصناعة يتعاطاها بنفسه ويأخذ بناصرها

وكان يبذل النفس والنفيس في سبيل تقدمها ولولاه لفات العرب كثير من المؤلفات التي كتبت بالفارسية او السريانية او اليونانية او الهندية او اللاتينية فهو الذي سعى في نقل اكثرها الى اللغة العربية ونشط رعيته لمطالعتها والاستفادة منها . ولا يقتصر فضله من هذا القبيل عَلَى ابناء اللغة العربية فان اهالي اوروبا عموماً مدينون له لانه حفظ لهم كتابات كثيرة يونانية ولاتينية لولا نقلها الى العربية وحفظها فيها لازالتها يد الزمان كما ازالت غيرها مما نسمع به ولا نراه . وكان كلفاً بمجالسة العلماء والحكماء لا يخلو مجلسه منهم ولم يكن يقتصر عَلَى العلماء من شعبه وملته لكنه استدعى اليه جماعة من علماء النصارى واليهود واليونان والفرس حتى المجوس والهنود وقربهم منه ولم يفرق بين احد منهم بالاكرام والسخاء . وكان اذا صرفهم انما يصرفهم متأسفاً عَلَى مفارقتهم وهم اشد اسفاً منه على ذلك لانهم كانوا يرتاحون الى مجالسته لما كانوا يتمتعون به من لطفه ودعته

وقد نبغ في ايامه علماء كثيرون من المسلمين وغيرهم بعلوم كثيرة كالفلك والهندسة والفلسفة العقلية وغيرها . منهم احمد بن كثير الملقب بالفرغاني وعبد الله بن سهل ومحمد بن موسى وماشاء الله اليهودي ويحيى بن ابي المنصور وقد اقام بواسطتهم الارصاد الكثيرة . وكان عالماً بالفلك فكان يعاونهم بالرصد احياناً في مرصد الشماسية قرب بغداد واحياناً في المرصد عَلَى جبل قيسون قرب دمشق . ومن الاطباء الذين كانوا يجالسونه سهل بن سابور وجبرائيل الذي بحث في الرمد عَلَى الخصوص ويوحنا بن البطريق الملقب بالترجمان لانه ترجم الكتب الطبية من اليونانية الى العربية[1]

في خلافة المامون وأبيه بلغت دولة العباسيين مجداً عظيماً واتسع نطاق مملكتهم فبلغت حدود الصين شرقاً فاستولوا عَلَى الهند ومنها شمالاً الى السواحل المتجمدة من البحر الشمالي الى اقصى عشائر الاتراك وساروا في بلاد اليونان الى البوسفور ومن الجنوب الى جبال الحبش العليا الوعرة المسلك الى القبائل البربرية في داخلية افريقيا ومن الغرب الى الجزائر فطرابلس الغرب ومنها شمالاً في اوروبا الى ما وراء الاندلس في ارض فرنسا . فكانت حدود تلك المملكة تلاطمها امواج الاوقيانوس الاتلانتيكي غرباً والاوقيانوس الهندي والعربي جنوباً وبكاد يمسها الاوقيانوس المتجمد شمالاً . الا انها قبل وفاة المامون اخذت بالانقسام عَلَى نفسها فانحطت شوكتها وابتدأ ذلك في غربيها فانفصلت عنها الاندلس واستقلت بنفسها من زمن المنصور وتولتها دولة اموية جديدة . وتمرد طاهر بن الحسين في خراسان (قبل وفاته) فشق عصا الطاعة واستقل بالحكم بنفسه وجعله ارثاً لنسله

(١) راجع الجزء الثالث من كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي

من بعده بالاستقلال التام عن بغداد وتعرف دولتهم هذه بالدولة الطاهرية ومثل ذلك فعلت اكثر الامارات اقتداء بمن سار امامها فطلبت كل منها استقلالها . اما مصر فقد كانت مقطعة للمعتصم وظلت تابعة لخلافة بغداد . وهي لم تبق الا لطمع المعتصم بالخلافة بعد المامون

خلافة محمد المعتصم

من ٢١٨ — ٢٢٧ هـ او من ٨٣٣ — ٨٤٢ م

فلما توفي الخليفة المامون خلفه اخوه محمد المعتصم بن هارون الرشيد الثالث في ١٨ رجب سنة ٢١٨ هـ وهو اول من اتخذ لفظ الجلالة في لقبه فلقب نفسه المعتصم بالله

وكان قد اقر امارة مصر لكيدر الذي كان نائباً عنه فيها ثم كتب اليه يامره باسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم . ففي شهر ربيع آخر سنة ٢١٩ هـ توفي كيدر وتولى مكانه المظفر بن كيدر . وفي سنة ٢٢٠ هـ توفي المظفر وتولى مكانه موسى بن ابي العباس الملقب بالشيباني و يلقبه آخرون بالشامي . وفي سنة ٢٢٤ هـ استدعي موسى من مصر فاستخلف مالكاً الذي يلقبه بعضهم بالهندي والبعض الآخر بالكندي وهو ابن كيدر المتقدم الذكر . وفي سنة ٢٣٥ هـ عزل مالك وعهدت ولاية مصر بامر الخليفة الى ابي جعفر الخشاس وهو آخر من ولي مصر بامر المعتصم

وفي سنة ٢٢٧ هـ اصيب الخليفة المعتصم بحمى في سامرا وفي ١٨ ربيع اول من تلك السنة توفي . ومن الغريب ما لهذه الخليفة من الحظ في الرقم (٨) فان بينه و بين ابي العباس اول الخلفاء العباسيين ثمانية اعقاب وولد في شعبان وهو الشهر الثامن من السنة القمرية وهو الخليفة الثامن من بني العباس وتولى الخلافة سنة ٢١٨ وسنه ٣٨ سنة وثمانية اشهر ومدة حكمه ٨ سنين و٨ اشهر و٨ ايام وتوفي في ١٨ ربيع في السنة الثامنة والاربعين من عمره وترك ثمانية اولاد ذكور وثماني اناث وحضر ثماني مواقع حربية واخيراً وجد في خزينته عند موته ثمانية ملايين من الدنانير وثمانون الف درهم وقد قيل انه بناء على هذا الاتفاق الغريب دعي « بالمثمن »

وقد كان هذا الخليفة نقطة ابتداء تقهقر دولة العرب ولعله كان السبب في ذلك التقهقر لانه كان ضعيف السياسة بعيداً من الفضائل والاداب اميأً لايعرف الكتابة لكنه كان قوي البدن يحمل ما وزنه الف رطل (ليبرا) ويمشي به خطوات وكان مع ذلك شجاعاً ومحباً على نوع خصوصي للحرب ولاقتناء الاسلحة والخيل الجياد والعساكر المنظمة وهو اول من جند الاتراك واستعان بهم في الحرب

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة المعتصم سنة ٢١٩ للهجرة او ٨٣٤ للميلاد (انظر شكل ٣٦)

ش ٣٦ — نقود المعتصم بالله

مبدأ الدولة الطولونية

ان الامة العظيمة التي يدعوها بعض المؤرخين تركية و بعضهم تترية وفيها شعوب التركمان والمغول والتتر تشغل بقعة من الارض في اسيا الشمالية تمتد من نهر جيحون الى حدود الصين ويحدها شمالاً الاوقيانوس المتجمد . ونظراً لما بينها و بين شبه جزيرة العرب من الابعاد والجبال والاودية والانهار مما لا يسهل تخطيه كانت في مأمن من غزوات العرب وفتوحهم وفي غنى عن معاهداتهم او غير ذلك مما يستدعي ارتباطها الواحدة بالاخرى الا ان الشعوب التركية اخذت من عهد الخلفاء الراشدين في غزو بلاد التتر مما يلي بلاد والعرب ايضاً كانوا يفعلون مثل ذلك مما يلي ولاياتهم وما زالوا يفتحون فيها حتى بلغ حدود تركستان وما وراءها فافضى الامر الى تزاحم هاتين الامتين فتنازعتا فقامت الحرب بينهما سجالاً مدة طويلة في اماكن مختلفة وكان الاستئسار بينهما متبادلاً فكان العرب يرسلون باسراهم من الترك الى بلاط الخلافة بمثابة الجزية لاستعمالهم في منازل الخلفاء وكبار الامراء و يدعونهم بالمماليك

والمماليك الذين كانوا في دور الخلفاء كانوا يمتازون غالباً بالقوة البدنيه والعقلية وكانوا يتقربون من اسيادهم شيئاً فشيئاً حتى استخدموهم في بلاطهم

وقد كان المماليك في بادىء امرهم في ظلمات من الجهل والهمجية وعلى ابعاد من

الفضيلة وشعائر الدين لايعرفون القراءة لكنهم بمخالطتهم الامراء ورجال الدولة اصبحوا على جانب من التهذيب والاستنارة لاعتناقهم الديانة الاسلامية ثم تدربوا شيئاً فشيئاً فى شؤون الدولة فبرعوا فى السياسة وتدبير الاحكام وادارة الاعمال فعظموا في عين الخلفاء فلما كثر تمرد ولاة الامصار صار الخلفاء يعهدون اليهم ولاية الامصار فكثر انصارهم فاقاموا لهم احزاباً من ابناء البلاد ينجدونهم عند الحاجة . ولم يكن ذلك كل ما فعله الخلفاء لكنهم كانوا يبذلون المبالغ الوافرة فى ابتياعهم ينتقون منهم الممتازين جمالاً وقوة وذكاء ليدخلوهم فى خدمتهم الخاصة . ومن ذلك مافعله الخليفة المعتصم اذ رغب فى تعزيز حاشيته فابتاع من أولئك المماليك الوفاً فوق ما كان عنده منهم وامر بتدريبهم على استعمال السلاح والحاقهم بالجيش ليختار منهم متى شاء من يصلح لبطانته فكبرت نفوسهم وجعلوا يعيثون فيمن حولهم فكثرت التشكيات في حقهم وكثر الهرج فى بغداد حتى اضطر المعتصم الى بناء مدينة سامرًا لاقامته معهم

وكان للمعتصم بالله بطانة من المماليك عليهم رئيس يقال له « طولون » من قبيلة الطغرغر احدى الاربع والعشرين قبلة التي تتألف منها تركستان وكانت عائلته مقيمة في جوار بحيرة لوب في بخارا الصغرى فأُسر في احدى المواقع الحربية وجيء به الى ابن اسد الصمامي وكان من عمال المأمون يدفع له جزية سنوية من المماليك والخيول التركية واشياء اخرى ففي سنة ٢٠٠ هـ كان طولون في جملة من ارسلهم ابن اسد من المماليك وكان متناسب الاعضاء قوي البنية فاعجب المأمون به فالحقه بحاشيته وما زال يراقبه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بامير الستر . وهذا المنصب لم يكن يناله الا من كان للخليفة ثقة خصوصية بامانته واخلاصه ليكون محافظاً على حياته الشخصية . وبعد ان صرف طولون نحواً من ٢٠ سنة في هذا المنصب في ايام المأمون والمعتصم اصبح ذا عائلة واولاد منهم احمد الذي لقب بعد ذلك بابي العباس وهو مؤسس الدولة الطولونية . ولد في بغداد وقال آخرون في سامرا سنة ٢٢٠ هـ من والدة تركية تدعى قاسمة ويدعوها بعضهم هاشمة كانت في عداد السراري . وقال آخرون انه ابن المهلبي خادم طولون وان طولون رباه صغيراً والله اعلم

خلافة الواثق بن المعتصم

من سنة ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ او من ٨٤٢ — ٨٤٧ م

وقبل ان يترعرع احمد بن طولون توفي المعتصم بالله وبويع ابنه هارون ابوجعفر فلقبوه بالواثق بالله وفي السنة الاولى من خلافته عزل القسم الاعظم من ولاة الامصار واصحاب المناصب الذين كان قد ولاهم ابوه وكان في نيته اقالة اشناس من امارة مصر لكنه لم يكد يفعل حتى توفي اشناس في الفسطاط سنة ٢٢٨ هـ فأقام مقامه علي بن يحيى الارمني وبعد نحو سنة ابدل بعيسى بن منصور للمرة الثانية . وفي سنة ٢٣١ هـ توفي الخليفة الواثق بالله في ٢٤ ذي الحجة وسنه ٣٤ سنة ومدة حكمه ٥ سنوات و٩ اشهر و١٣ يوماً

خلافة المتوكل بن المعتصم

من ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ او من ٨٤٧ — ٨٦١ م

وعند وفاة الخليفة تواطأ وزيراه احمد بن ابي داود ومحمد بن عبد الملك الملقب بالزيات مع واصف التركي رئيس الحجاب على ان يبايعوا محمد بن الواثق ويلقبوه بالمهتدي بالله الا انهم رأوا سنه لا يجيز له تعاطي الاحكام فعدلوا عنه الى جعفر بن المعتصم فبايعوه ولقبوه بالمتوكل على الله . وقد كان الواثق والمتوكل اخوين من اب واحد ووالدتين والدة الاول جارية يونانية تدعى قراطيس ووالدة الثاني جارية تركية تدعى سرجه

وفي سنة ٢٣٢ هـ عقد المتوكل على مصر لهرثمة بن نصر الجبلي وفي السنة التالية ابدله بابنه المنتصر بن المتوكل وسنة ٢٣٤ هـ تولاها حاتم بن هرثمة . وفي ايامه ثارت البجة في النوبة بعد ان كانوا عاهدوا المأمون على الصلح فانفذ المتوكل لحربهم محمد ابن عبد الله فخرج اليهم من مصر في عدة قليلة ورجال منتخبة على المراكب في النيل فاجتمع البجة في عدد عظيم قد ركبوا الابل فهاب المسلمون ذلك فبعث اليهم محمد بن عبد الله كتاباً لفه بثوب فاجتمعوا لقراءته فحمل عليهم وفي اعناق الخيل الاجراس فانزعرت جمال البجة ولم تثبت امام صلصلة الاجراس فركب المسلمون اقفيتهم واثخنوا فيهم وقتلوا كبيرهم فقام من بعده ابن اخيه وبعث يطلب الهدنة

فصالحوه على ان يطأ بساط امير المؤمنين فسار الى بغداد وقدم على المتوكل وصولح على اداء الادوات والبقط واشترط عليه ان لا يمنع المسلمين من العمل بالمعدن

وفي تلك السنة ابدل حاتم بن هرثمة بعلي بن يحيى الارمني (ثانية) وفي سنة ٢٣٥ ابدل هذا باسحق بن يحيى الجبلي وفي هذه السنة اوصى المتوكل بالخلافة بعده لابنه المنتصر وبعده لابنه الثاني المعتز بالله وبعد هذا لابنه الثالث المؤيد بالله وجعل مملكته حصصاً فولى المنتصر افريقية وكل المغرب من العريش الى آخر حدود المغرب بما فيه مصر واضاف الى ذلك قنسرين وسوريا وبين النهرين وديار بكر والموصل وكل البقاع التي يرويها دجلة ومكة والمدينة واليمن وحضرموت والبحرين والسند وسامرا والكوفة وكل توابعها . وولى المعتز خراسان وطبرستان وفارس وارمينيا واذربايجان وولى المؤيد دمشق وحمص والاردن وفلسطين . أما المنتصر فلم يقنع بما قسم له وطمع بتوليته الخلافة قبل وفاة ابيه فاخذ يسعى في خلعه

وفي سنة ٢٣٦ هـ اقيم على مصر خوط عبد الواحد بن يحيى وفي سنة ٢٣٨ هـ ابدل بعنبسة بن اسحق وفي سنة ٢٣٩ هـ أمر المتوكل ببناء حصن في مدينة الفرما وحصون اخرى في دمياط وتنيس وتولى بناءها عنبسة وانفق عليها اموالا طائلة وقاية من غزوات الروم لكنهم لم يكادوا يتحصنون حتى هجم الروم على دمياط وملكوها ومن فيها وقتلوا جمعاً كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والاطفال واهل الذمة فلما علم بذلك عنبسة ركب اليهم يوم النحر في جيشه ونفر كثير من الناس فاخبروه ان الروم قد ساروا الى تنيس وتحصنوا في اشموم فلم يتبعهم عنبسة فكتب يحيى بن الفضل الى الخليفة المتوكل على الله رسالة فيها هذه الابيات

أترضى بان يوطأ حريمك عنوة ... وان يستباح المسلمون ويحربوا
حماة اتى دمياط والروم وثب ... بتانيس راي العين منه وأقرب
مقيمون بالاشموم يبغون مثلما ... اصابوه من دمياط والحرب ترتب
فما رام من دمياط شبراً ولا درى ... من العجز مايأتي وما يتجنب
فلا تنسنا انا بدار مضيعة ... بمصر وان الدين قد كاد يذهب

وفي ٢٠ رجب سنة ٢٤٢ هـ سار المنتصر الى ابيه في سامرا واخذ يسعى بالدسائس والتواطؤ مع المفسدين على ابيه واستخلف على مصر يزيد بن عبد الله . وفي سنة ٢٤٥ هـ خرج يزيد بن عبدالله الى دمياط مرابطاً ثم رحل فبلغه نزول الروم في الفرما فرجع اليها فلم يلقهم . وفي سنة ٢٤٧ هـ بنى مقياس النيل في جزيرة الروضة وكان قد

سقط بزلزلة فاعاد بناءه فعرف من ذلك الحين بالمقياس الجديد أو الكبير وهو المقياس الباقي هناك الى هذه الغاية . وجرت على العلويين في ايام يزيد شدة . هذا ما كان من امر يزيد

اما المتوكل ففي سنة ٢٤٣ هـ انتقل الى دمشق على نية ان يتخذها مستقرًا الى حين فتبعه المنتصر وما زال ساعياً بالمفاسد توصلا الى بغيته حتى سنة ٢٤٤ هـ اذ قارب الفوز بغرضه الوخيم فثارت عصبة من الاتراك المجندين في دمشق على الخليفة بدعوى تأخر دفع مرتباتهم وكان ذلك بدسيسة المنتصر فتلافى الخليفة الشر بدفع المتأخر لهم وبرح دمشق عائداً الى سامرا . وفي سنة ٢٤٧ هـ علم الخليفة بمقاصد ابنه فأمر به اليه فوبخه على مسمع من الناس . وفي يوم الاربعاء الرابع من شوال من السنة المذكورة ذبح المتوكل على فراشه في منتصف الليل بيد احد ضباط الحرس التركي المدعو بغا الصغير بدسيسة المنتصر وكان سن المتوكل عند موته ٤١ سنة ومدة حكمه ١٤ سنة و١٠ اشهر و٣ ايام.

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ (انظر شكل ٣٧)

ش ٣٧ — نقود المتوكل على الله

خلافة المنتصر بن المتوكل

من سنة ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ او من ٨٦١ — ٨٦٢ م

فاستوى المنتصر على منصة الخلافة قبل ان تفارق اباه رجفة الموت فلما استتب له الملك حدثته نفسه ان يحرم اخويه مما اوصى به ابوه لهما على مامر بك . فحملهما سنة ٢٤٨ هـ على ان يوقعا على صك بحرمانهما من الخلافة ومما اوصى لهما به ابوهما من المدن . وساعد المنتصر على ذلك وصيف التركي وشركاؤه بقتل المتوكل مخافة ان يلقوا جزاء مافعلته ايديهم اذا وصلت الخلافة الى احد الاخوين . على ان حياة المنتصر لم تكن لقصرها تستحق كل هذه الاحتياطات لانه اصيب بعد توليته بايام بداء اعيا الاطباء وما زال حتى ذهب بحياته وهو يتقلب على مثل جمر الغضا من الالم

خلافة المستعين بن محمد

من سنة ٢٤٨ — ٢٥٢ هـ او من ٨٦٢ — ٨٦٦ م

وبعد وفاة المنتصر تشاور وصيف التركي وبغا الصغير وبغا الكبير والوزراء والاعيان فيمن يجب ان يكون الخليفه عليهم فاجمعوا على حرمان ابناء المتوكل ووقع اختيارهم على أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا لا تخرج الخلافة من ولد مولانا المعتصم فبايعوه يوم وفاة المنتصر ولقبوهُ بالمستعين بالله . ولم يكد يتم ذلك حتى قامت عصبة يريدون استخلاف المعتز بالله الا انهم كانوا نفراً يسيراً فتفرقوا ولم تكن النتيجة الا القبض على ولدي المتوكل وسجنهما

احمد بن طولون

ومن ذلك الحين اخذ نجم أحمد بن طولون بالظهور فى افق الاعمال السياسية فتوفي والده سنة ٢٣٩ هـ وهو لم يبلغ التاسعة عشرة من العمر وكان ذلك فى أيام الخليفة المتوكل فى الثماني السنوات الاولى فراى فى احمد اللياقة ليخلف اباه على امارة الستر . وكان احمد قد تعلم وتربى تربية حسنة وكان تقياً رضي الخلق كريم النفس لين العريكة مع اقدام وبسالة وعلم بالسياسة وكان مغرماً بمطالعة الحديث فاكتسب شهرة بالتقوى والعدالة فاحبه جميع الضباط الاتراك الذين كانوا فى بلاط الخليفة وفيهم احد كبرائهم برقوق فازوج احمد ابنته فجاءه منها غلام دعاه عباساً

ومن الغريب أن أحمد بن طولون شب بين الدسائس والمفاسد ولم يصبُ اليها ولم تحدثه نفسه يوماً باتباعها بل كان يمجها وينفر منها . أما آدابه ومعارفه فكانت تتسع يومياً بالاختبار والمراقبة فقد كان على كثرة شواغله لايترك فرصة تفوته في توسيع دائرة علمه فكان يسير من وقت الى آخر الى ترسوس فى اسيا الصغرى للتعلم فى مدارسها وكان لشدة كلفه بالعلم كلفاً بالعلماء . فالتمس من عبيد الله بن يحيى رئيس وزراء الخليفة اذناً بالتوجه الى ترسوس لملازمة دروسه فاذن له مع استبقاء مركزه ولقبه ومرتباته كالعادة فسار اليها ثم دعته والدته ان يأتي اليها فجاء سامرا فى خلافة المستعين بالله غير عالم بشيء مما حصل فى غيابه من قتل المتوكل وتولية المنتصر

وبينما كان عائداً من ترسوس هذه المرة وسنه ١٩ سنة هجم بعض اهل البادية على الركب الذي كان هو برفقته يريدون سلبه وفيه مايساوي مبالغ وافرة كلها محمولة الى الخليفة المستعين بالله فخافت حامية الركب وكاد اللصوص يظفرون فدفعهم أحمد بعزم شديد واعادهم على اعقابهم القهقرى . فلما بلغ الركب سامرا اخبروا الخليفة

بما كان من بسالة ابن طولون فنفحه بجائزة الف دينار وأنزله منزلة الامراء ووهبه احدى جواريه واسمها مية وهي التي ولدت له ابنه الثاني « خمارويه » سنة ٢٥٠ هـ وهي اول سني ظهور نجمه

وفي اثناء ذلك ثارت عصبة كبيرة تريد خلع المستعين وذلك ان المماليك الاتراك الذين كانوا يخدمون في بلاط الخلفاء وجندهم على ماتقدم كانوا يزدادون عدداً وقوة منذ أيام المعتصم لتقلبهم في المناصب العالية فامسوا وفي ايديهم ازمة الدولة يديرونها كيف شاؤا . وقد كانوا قبل وفاة المتوكل يقتنعون بعزل وتولية الامراء والوزراء وقتل من شاؤا ممن ليس على غرضهم لكنهم بعد ذلك لم يعد يرضيهم الا التداخل في عزل الخلفاء وتوليتهم . فكانوا اذا لم يعجبهم خليفة سعوا في استبداله فيستجدون احزابهم وينفذون مآربهم . وقد كانت تولية المستعين بالله بمساعي بعض كبراء الحرس الخاص فاستاء البعض الآخر وجعلوا يسعون في خلعه فخلعوه سنة ٢٥٢ هـ بعد ان تولى امرها ثلاث سنوات و ٨ اشهر

خلافة المعتز بن المتوكل

من سنة ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ او من ٨٦٦ — ٨٦٩ م

وبعد خلع المستعين بايعوا ابن عمه المعتز بالله وهو ابن المتوكل على الله واخو المنتصر وكان محروماً من حقوق الخلافة منذ قتل ابيه وعمره اذ ذاك ١٨ سنة وبضعة اشهر . وكان بعد ان فرَّ من سجن سامرا مع اخيه المؤيد بالله قد اعادهما ابن عمهما المستعين الى القيود . فالاحزاب التي قويت بعد ذلك وخلعت المستعين لم يكن لها دخل في قتل المتوكل فخلوا قيود المعتز وبايعوه يوم الجمعة في ١٤ محرم سنة ٢٥٢ هـ وجاؤا الى المستعين واجبروه على ان يتنازل ففعل فنقلوه الى قلعة وجعلوا عليه حراساً ثم ارسلوه الى واسط في سرب تحت قيادة احمد بن طولون فقتل في الطريق . ويقال ان الحاجب سعيداً هو الذي قتله بناء على اوامر سرية من المعتز بالله . وقال البعض ان احمد بن طولون هو الذي فعل ذلك بيده . غير ان الجمهور أجمع على تبرئته من هذه التهمة الفظيعة

والاظهر ان الاحزاب التي دعت الى خلع المستعين واجباره على الاستقالة امروا بابعاده الى واسط ولم يريدوا ان يصحبه الا من لا يرتاب احد في امانته له واخلاصه

فلم يجدوا انسب من ان طولون وكان الى ذلك العهد مكتسباً ثقة الطرفين فعهدوا اليه تلك المهمة فقام بها حق القيام . ثم ان الاحزاب في سامرا مع فوزهم بخلع المستعين وتولية المعتز اوجسوا شرًّا من بقاء الاول في قيد الحياة فاوعزوا الى الثاني ان خلافته لا ترسخ الا بقتل المستعين . فكتبت فتيحة ام المعتز الى احمد بن طولون وهو في طريقه الى واسط تحثه على قتل المستعين وتعده بولاية واسط مكافأة له فرفض ذلك احمد بنفس ابية فارسلت حاجباً يدعى سعيداً وبيده اوامر الى احمد بن طولون مؤذنة بتسليم المستعين الى سعيد وعود احمد الى سامرة فاذعن احمد الى الاوامر فسلم المستعين الى سعيد . فسار به في الصحراء تبعاً للاوامر السرية التي كانت معه وذبحه في فسطاطه وعاد برأسه الى المعتز ورمى به الارض بين اقدامه

اما احمد بن طولون فدخل الى خيمة المستعين بعد ذهاب سعيد فرأى الجثة بلا رأس فعلم الدسيسة وتكدر من هذا الفعل الوحشي الذي قضى بقتل البريء . ثم همَّ الى الجثة فغسلها وكفنها ونقلها الى سامرا حيث صلي عليها ودفنت . وقد قال احمد بن طولون عند استيلائه على مصر وسوريا ما مفاده « وُعدت بولاية واسط على ان اقتل المستعين فابيت محافظة على القسم الذي قسمته وما زلت في تقوى الله وقد كافأني من فضله بولاية مصر وسوريا ولا يفلح الظالمون »

وكانت مصر في اثناء جميع هذه الحوادث ينتابها ما ينتاب غيرها من الامارات الاسلامية . فان يزيد بن عبد الله الذي كان استخلفه المنتصر على مصر اصبح عليها اميراً عند ما صار المنتصر خليفة . وبقي يزيد قائماً باعباء مصلحته طول مدة خلافة المستعين بالله . أما المعتز بالله فبعد ما جلس على دست الخلافة عزله في ٣ ربيع اول سنة ٢٥٣ هـ وولى مزاحم بن خاقان من اعيان الاتراك الذين ساعدوه في حصوله على الخلافة . ومن اعماله انه اكثر من الايقاع بسكان النواحي وولى الشرطة ارجوز فمنع النساء من الحمامات والمقابر وسجن المؤنثين والنوائح . وفي رجب منها منع من الجهر بالبسملة في الصلاة بالجامع . ولم يزل اهل مصر على الجهر بها في الجامع منذ الاسلام الى ان منع منها ارجوز . واخذ اهل الجامع بتمام الصفوف ووكل بذلك رجلاً من العجم يقوم بالسوط من مؤخر المسجد وامر اهل الحلق بالتحوُّل عن القبلة قبل اقامة الصلاة ومنع من المساند التي يستند اليها ومن الحصر التي كانت للمجالس في الجامع وامر ان تصلى التراويح في رمضان خمس تراويح ولم يزل اهل مصر يصلونها ستاً الى رمضان سنة ٢٥٣هـ ومنع من التثويب وامر بالآذان في يوم الجمعة في مؤخر المسجد وان

تجلس بصلاة الصبح ونهى ان يشق ثوب على ميت أو يسود وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة وعاقب في ذلك وشدد فيه . وفي ٥ محرم سنة ٢٥٤ هـ توفي مزاحم فتولى ابنه احمد بن مزاحم . وفي تلك السنة استقال هذا فعين المعتز مكانه باكباك احد كبار الاتراك . وكان هولاء يتولون الامارات اسماً بلا رسم لانهم لم يكونوا يبرحون مجلس الخليفة . أما الاحكام في الامارات فكانت موكولة الى نواب يعهدون اليهم امرها . وكان عدد مثل هؤلاء النواب في مصر يكثر احياناً فقد يكون منها نائب في الفسطاط وآخر في الاسكندرية وآخر في الصعيد الخ . وكان يستبد احدهم بالاعمال العسكرية والآخر بالاعمال الادارية والآخر بالقضاء وهكذا . ونظراً لما كان لاحمد بن طولون من السمعة الحسنة انتخبه باكباك المتقدم ذكره وجعله قائداً للقوة العسكرية في الفسطاط . أما الادارة المالية او الخراج فعهد بها الى احمد بن المدبر ودعاه مفتش الخراج

ابن المدبر

وابن المدبر هذا لم يكن من التدبير على شيء بل كان عاتياً غشوماً فزاد الضرائب وشدد الوطأة خصوصاً على المسيحيين . وكان من دهاة الناس وشياطين الكتاب فابتدع في مصر بدعاً صارت مستمرة من بعده لاتنقض فاحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ماكان مباحاً لجميع الناس وقرر على الكلاء الذي ترعاه البهائم مالاً سماه المراعي وقرر على ما يطعمه الله من البحر مالاً سماه المصائد فانقسم مال مصر الى خراجي وهلالي . أما الخراجي فهو ما يؤخذ مسانهة من الاراضي التي تزرع حبوباً ونخلا وعنباً وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج وغيره من طرف الريف . وأما الهلالي فعلى نوعين سماهما بالمرافق والمعاون . وهو ما يؤخذ من الضرائب على مثل ما ابتدعه ابن المدبر كما تقدم . فكره الاهلون هذه المعاملة وجعلوا يسعون الى الكيد به وقد كان عالماً بذلك فجعل في حاشيته الخاصة نحواً من مائة غلام هندي ممتازين بالقوة والشجاعة كانوا يرافقونه الى حيث توجه

فلما قدم احمد بن طولون الى الفسطاط ليستلم زمام القوة العسكرية فيها قدم احمد ابن المدبر بحاشيته للقائه واهدى اليه هدايا قيمتها عشرة الاف دينار وقدم معه شفير الخادم غلام فتيحة ام المعتز وهو يتقلد البريد فرأى ابن طولون بين يدي ابن المدبر مائة غلام قد تقدمت الاشارة اليهم وكان لهم خلق حسن وطول اجسام وبأس شديد عليهم اقبية ومناطق ثقال عراض وبايديهم مقارع غلاظ على طرف كل مقرعة مقمعة من فضة وكانوا يقفون بين يديه في حافتي مجلسه اذا جلس . فاذا ركب ركبوا بين يديه

فيصير له بهم هيبة عظيمة في صدور الناس . فلما بعث ابن المدبر بهديته الى ابن طولون ردها عليه فقال ابن المدبر ان هذه لهمة عظيمة ومن كانت هذه همته لا يؤمن على طرف من الاطراف نخافه وكره مقامه بمصر معه وسار الى شقير الخادم صاحب البريد واتفقا على مكاتبة الخليفة بازالة ابن طولون فلم يكن غير ايام حتى بعث ابن طولون الى ابن المدبر يقول « قد كنت اعزك الله اهديت لنا هدية وقع الغنى عنها ولم يجز ان يغتنم مالك كثره الله فرددناها توفيراً عليك ونحب ان نجعل العوض منها الغلمان الذين رأيناهم بين يديك فانا اليهم احوج منك » فقال ابن المدبر لما بلغته الرسالة « هذه اخرى اعظم مما تقدم قد ظهرت من هذا الرجل اذ كان يرد الاعراض والاموال ويستهدي الرجال ويثابر عليهم » ولم يجد بدًّا من ان يبعثهم اليه فتحولت هيبة ابن المدبر الى ابن طولون فكتب ابن المدبر فيه الى الخليفة يغري به ويحرض على عزله فبلغ ذلك ابن طولون فكتم ما في نفسه ولم يبده

وفي ٢٥ رجب سنة ٢٥٥ هـ كثرت دسائس الاتراك في بغداد بمساعدة الحاجب صالح بن واصف احد قتلة المتوكل فاوعز الى المعتز وعمره اذ ذاك ٢٤ سنة ان يتنازل عن الخلافة ولم يحكم فيها الا ٤ سنوات و٦ اشهر فتنازل في ذلك اليوم فاودعوه السجن وقطعوا عنه الغذاء فمات جوعاً بعد ستة ايام فاقاموا عوضاً عنه ابن عمه المهتدي بالله بن الواثق وعمره ٣٧ سنة

خلافة المهتدي بن الواثق ثم المعتمد بن المتوكل

من ٢٥٥ — ٢٥٧ هـ او من ٨٦٩ — ٨٧٠ م

وفي ايام المهتدي بن الواثق ظهر لابن طولون عدوٌّ آخر في مصر هو ابراهيم الصوفي مأمور اقليم اسنا وكان قد وضع يده على البلاد التي حوله وقتل كل من كان يحاول مقاومته فانفذ اليه ابن طولون فرقة من جيشه فحاربها وغلبها فرجعت منقهقرة الى قرب اخميم وهناك التقتها نجدة احدث معها فتغلبت على جيوش ابن الصوفي ففر المذكور في البرية ملتجئاً الى الواحات في بطن الصحراء الكبيرة مع من بقي معه من الرجال

وكان احمد بن عيسى بن شيخ الشيباني يتقلد جندي فلسطين والاردن فلما مات وثب ابنه على الاعمال واستبد بها فبعث ابن المدبر بسبعمائة وخمسين الف دينار حملا

من مال مصر الى بغداد فقبض ابن شيخ عليها وفرقها في اصحابه وكانت الامور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ في التغلب على الشامات واشيع انه يريد مصر

وفي رجب سنة ٢٥٦ هـ ذبح المهتدي في سامرا وبويع المعتمد على الله وسنه ٢٥ سنة وهو ابن المتوكل الثالث فبايعه الجميع الا ابن شيخ فانه لم يدع له ولم يبايعه لا هو ولا اصحابه فبعث اليه بتقليد ارمينيا فوق ما معه من بلاد الشام وفسح له في الاستخلاف عليها والاقامة على عملها فدعا حينئذ للمعتمد وبايعه ثم كتب الخليفة سرًّا الى ابن طولون ان يتأهب الى حرب ابن شيخ واذ يزيد في عدته وكتب لابن المدبر ان يطلق له من المال ما يريد فعرض ابن طولون الرجال واثبت من يصلح واشترى العبيد من الروم والسودان وجهز كل ما يحتاج اليه وخرج في احتفال عظيم وجيش كبير وبعث الى ابن شيخ يدعوه الى طاعة الخليفة ورد ما اخذ من المال فاجاب بجواب قبيح فسار احمد في ٦ جمادى الآخرة مستخلفاً اخاه موسى بن طولون على مصر وبينما هو في الطريق ورد اليه كتاب الخليفة يدعوه الى العود فعاد الى الفسطاط ودخلها في شعبان واتى عوضاً عنه لمحاربة ابن شيخ اماجور التركي فلقيه اصحاب ابن شيخ وعليهم ابنه فحاربهم اماجور فانهزموا منه وقتل قائدهم واستولى اماجور على دمشق ولحق ابن شيخ بارمينيا وتقلد اماجور اعمال الشام كلها وهدأت الاحوال

القطائع

اما ابن طولون فلما عاد الى الفسطاط شرع في بناء الاستحكامات وتحصين البلاد وكان الى ذلك الحين يسكن القصر الذي كان يسكنه اسلافه من ولاة الاحكام ولم يكن هذا القصر داخل سور الفسطاط بل كان في ضاحية العسكر وكان العسكر اشبه بمدينة فيها الاسواق والشوارع والبنايات الجميلة وكان كافياً لسكنى رؤساء الجيوش وولاة الامور اما في ايام ابن طولون فضاق ذرعاً عن سعة مهماته وعبيده وتحفه فاخذ يسعى في البحث عن محل آخر يفي بالمقصود مع قربه من الفسطاط فصعد الى المقطم ونظر الى ما حوله فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الارض مساحتها نحو ميل مربع لا شيء فيها من العمارة الا بعض المدافن للنصارى واليهود فاختارها للبناء فأمر بحرث المدافن وهدمها واختط في موضعها بناء عظيماً دعاه القصر ومحلاً آخر بالقرب منه دعاه الميدان وتقدم الى اصحابه وغلمانه واتباعه ان يختطوا لانفسهم حوله فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط ثم قطعت الى قطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها فكانت لغلمان النوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ولغلمان الروم قطيعة مفردة تعرف بهم وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم

ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم وبنى القواد مواضع متفرقة فعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والازقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والافران وسميت اسواقها فقيل سوق العيارين وسوق الفاميين وهكذا البقالين والشوايين الخ ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع المذكورة مدينة كبيرة اعمر واحسن من الشام . وكان للقصر مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من اعلاه من يدخل ومن يخرج

واتسعت احوال ابن طولون وكثرت اصطبلاته وكراعه وعظم صيته فبلغ ذلك أماجور والي الشام فاخذته غائلة الحسد وخشي من مد سلطة ابن طولون اليه فاخذ يسعى في خلعه فكتب الى الخليفة المعتمد على الله مانصه «ان قوات ومهمات ابن طولون اصبحت اعظم مما كانت لابن شيخ الذي لما ثار في سوريا لم تخضعه الا بعد شق الانفس وهذا ابن طولون قد كثرت حاشيته وقويت سطوته بالرجال والمال وصار يخشى منه والامر لامير المؤمنين » . وكتب ابن المدبر مفتش الخراج ايضاً مثل ذلك وفي قلبه من احمد ما تعلم من الضغائن وتواطأ على ذلك مع كاتب سره شقير الخادم

فارسل المعتمد الى ابن طولون ان يتخلف عن مصر حالاً الى سامرا ويستخلف مكانه من يشاء فلما بلغ ابن طولون ذلك الامر همَّ الى القيام به وهو لا يدري ما وراء الاكمة فجاء من ذويه من اطلعه على معنى هذا الاستدعاء الى سامرا فلما علم بدخيلة الامر جهز احمد الواسطي كاتب سره وصديقه وارسله مكانه الى سامرا بالهدايا الفاخرة الى الوزير فاستجلب خاطره فسعى امام الخليفة فالغى الامر السابق واصدر أمراً آخر يزيد مدة ولاية ابن طولون في مصر ويصرح له بنقل عائلته جميعها اليها وقد كانت الى ذلك اليوم في سامرا . فسر ابن طولون بهذا الفوز وفرق في الناس الزكاة

وفي سنة ٢٥٧ هـ حكم على باكباك امير مصر الاصيل الذي كان قد عين ابن طولون قائداً للقوة العسكرية بقطع الراس لجناية ارتكبها وعين مكانه برقوق حمو احمد بن طولون وهذا حالما استلم الامر بالامارة عهد الى صهره بالنيابة العامة ليس فقط على الفسطاط بل على سائر القطر المصري فامر عيسى بن دينار متولي الاسكندرية ان يسلم زمامها اليه فتوجه ابن طولون الى الاسكندرية وتسلم ادارتها ثم سلمها لعيسى المذكور واقره عليها فاصبحت سياسة مصر جميعها بيد احمد بن طولون . وفي السنة التالية توفي برقوق فولي احمد مكانه والياً عاماً على القطر المصري

الدولة الطولونية

من سنة ٢٥٧ — ٢٩٢ هـ او من ٨٧٠ — ٩٠٥ م

حكم احمد بن طولون

من سنة ٢٥٧ — ٢٧١ هـ او من ٨٧٠ — ٨٨٤ م

كان احمد بن طولون قد عرف دسائس ابن المدبر وشقير الخادم وكان الوزير قد ارسل اليه جميع الكتب الواردة منها بحقه . وبعد يسير توفي شقير خوفاً وهم ابن طولون بعزل ابن المدبر لكنه عرف بعد ذلك ان اخاه على خزينة الخليفة فاغضى عنه اما ابن المدبر فكان قد مل مناظرة ابن طولون وهو لا يقوى على كيده فطلب الى اخيه ان ينقله الى وكالة خراج سوريا ففعل وقبل تركه مصر اعاد صلات المودة مع ابن طولون فازوج ابنته لخارويه بن احمد بن طولون ووهبه معها الاملاك التي كانت له في مصر ثم ارسل المعتمد يستحث ابن طولون في جمع الخراج فاجابه لست اطيق ذلك والخراج في يد غيري فاحيل الخراج اليه فاصبحت جميع اعمال مصر الادارية والعسكرية والمالية بيده فألغى الخراج الهلالي الذي وضعه ابن المدبر وقبل الغائه حسب مقداره فبلغ مائة الف دينار سنوياً فأحب ان يستشير بشأنه فتشاور مع عبد الله بن دسومة امين متولي الخراج وكان عاتياً طماعاً فقال ان امنني الامير تكلمت بما عندي فقال له قد امنك الله عز وجل فقال « ايها الامير ان الدنيا والآخرة ضرتان والحازم من لم يخلط بينهما والمفرط من خلط بينهما فيتلف اعماله ويبطل سعيه وافعال الامير ايده الله الخير وتوكله توكل الزهاد وليس مثله من ركب خطة لم يحكمها ولو كنا نثق بالنصر دائماً طول العمر لما كان شيء عندنا آثر من التضييق على انفسنا في العاجل بعمارة الآجل ولكن الانسان قصير العمر كثير المصائب مدفوع الى الآفات . وترك الانسان ما قد امكنه وصار في يده تضييع ولعل الذي حماه من نفسه يكون سعادة لمن يأتي من بعده فيعود ذلك توسعة لغيره بما حرمه هو ويجتمع للامير ايده الله بما قد عزم على اسقاطه من الهلالي في السنة بمصر دون غيرها مائة الف دينار وان فسخ ضياع الامراء والمتقبلين في هذه السنة لانها سنة ظمأ توجب الفسخ زاد مال البلد وتوفر توفراً عظيماً فيضاف الى مال الهلالي فيضبط

نه الامير ايده الله امر دنياه وهذه طريقة امور الدنيا واحكام امور الرئاسة والسياسة وكل ما عدل الامير ايده الله اليه من امر غير هذا فهو مفسد لدنياه وهذا رايي والامير ايده الله على ما عساه يراه »

فقال ابن طولون ننظر في ذلك ان شاء الله وشغل قلبه كلامه فبات تلك الليلة بعد ان قضى اكثر الليل يفكر في كلام ابن دسومة فرأى في منامه رجلاً من اخوانه الزهاد في طرسوس وهو يقول « ليس ما اشار عليك من استشرته في امر الارتفاق والفسخ برأي تحمد عاقبته فلا تقبله ومن ترك شيئاً لله عزوجل عوضه الله عنه فامض ما كنت عزمت عليه » . فلما اصبح انفذ الكتب الى سائر العمال بذلك فابطل الضرائب المتقدم ذكرها ونشرت في سائر الدواوين بامضائه . ثم دعا ابن دسومة واخبره بما كان فقال له « قد اشار عليك رجلان الواحد حي في اليقظة والآخر ميت في النوم وانت الى الحي اقرب وبضمانته اوثق » فقال له « دعنا من هذا فقد قضي الامر ولست قابلاً منك ما تقول »

وفي غد ذلك اليوم ركب احمد نحو الصعيد فلما امعن في الصحراء ساخت في الارض يد فرس احد غلمانه فسقط الغلام في الرمل فاذا بفتق فتح فتقدم احمد وامرهم ان يحفروا هنا ففعلوا فاصاب فيه من المال ما كان مقداره مليون دينار وهو الكنز الذي شاع خبره وكتب الى العراق يخبر به المعتمد ويستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البر وغيرها فأذن له فبنى منه مستشفى وحصناً وسبيلاً وجوامع وفرق قسماً منه على الفقراء

اصلاحاته

واول جامع شاده ابن طولون جامع التنور ابتناه على قمة جبل المقطم في مكان كان يدعى تنور فرعون يقال انه سمي كذلك لانه على مرتفع فكانوا يضرمون فيه النار ليلاً فظن بعض المشايخ ان في ذلك المكان كنزاً فاخذ يحتفر فيه فلم يظفر بشيء فعلم ابن طولون فاحتفر فاصاب مالاً اكثر كثيراً من ذي قبل وعند ذلك امر ببناء الجامع هناك ودعاه جامع التنور . واحتفر ابن طولون بئراً عند بركة الحبش تعرف ببئر عفصة وابتنى ساقية وقناطر خارج المغافر عرفت بقناطر ابن طولون ناظر بناءها مهندس مسيحي ماهر ولا تزال آثارها باقية

وفي سنة ٢٦٠ هـ اعاد احمد بن طولون حفر ترعة الاسكندرية وكانت قد سدت بالرمال المحمولة اليها وبنى في الاسكندرية آباراً مسقوفة بالبناء العقد واحواضاً تحت الارض لكي يأتي منها بالماء العذب النقي ما يكفي المدينة . وفي تلك السنة ركب مع رئيس خزنته ابي ايوب والقاضي بقال في جزيرة الروضة فراى المقياس محتاجاً الى اصلاح فأمر

باصلاحه اصلاحاً متقناً انفق عليه عشرة آلاف دينار . واقام ابو ايوب بعد يسير مقياساً آخر في دار الاسلحة في الجزيرة المذكورة حيث بنيت السجون ولكن لم يبق منها الى ايام المقريزي الا اثر طفيف

وفي اواخر السنة المذكورة توجه احمد بن طولون الى الاسكندرية لتفتيش الاشغال التي كان امر باجرائها واوصى بها لابنه البكر العباس ثم امر بترميم منارة الاسكندرية واقام فوقها القبة ويقال ان هذه المنارة كان ارتفاعها خمسمائة قدم

وامر ابن طولون ببناء المستشفى (المارستان) في العسكر وقد كانت الفسطاط قبله مجردة من مثل ذلك وخصص لاجل النفقات اليومية للمستشفى والبنايات الاخرى اطياناً واسعة تأخذ محصولاتها وخصص لها ايضاً دخل مبيع الرقيق وكان يأتي بنفسه لزيارة المستشفى وتفقد سير الاطباء فيه وعيادة المرضى والمجاذيب . واتفق ذات يوم ان احد المجاذيب في المستشفى هم بقتله ولولا القضاء لذهب بحياته ولم يكن شيء من ذلك ليثني عزمه عن العيادة . وبنى في العسكر حمامين وقد بلغ مقدار نفقات بناء المستشفى والحمامين والجامع عند جبل المقطم ستين الف دينار . وبقيت هذه البنايات رغم التقلبات السياسية التي كان يخشى ان تذهب بها ولايزال كثير من آثارها الى هذه الغاية

محاربانه

قلنا ان ابراهيم بن الصوفي فرّ من وجه احمد بن طولون والتجأ الى الواحات الكبرى في الصحراء فهذا تمكن بعد ذلك من التجنيد والتقدم نحو مدينة اشمونين فبلغ ذلك ابن طولون فانفذ اليه جيشاً تحت قيادة ابن ابي الغيث وهذا لم يلتق بجيش ابن الصوفي فسار لمحاربة عبدالرحمن العمري وكان معتدياً على حدود النوبة وبعد حرب شديدة سار ابن الصوفي الى اصوان فلاقاه ابن ابي الغيث مغضياً عن ابي عبد الرحمن وحاربه ففر من وجهه وسار من طريق عيذاب الى مكة حيث قبض عليه وارسل الى احمد بن طولون فالقاه في السجن مدة ثم صرفه مؤذناً له بالسكنى في المدينة وبقي فيها الى ان توفاه الله

أما أبو عبد الرحمن العمري فاستفحل امره واقام الاستحكامات في النوبة فشق ذلك على احمد ولم يستطع صبراً فانفذ اليه جيشاً آخر تحت قيادة شبه البيكي الى اصوان فلما بلغها رأى ابا عبد الرحمن مشتغلاً بمقاومة جيوش زكريا ملك النوبة والحرب بينهما قائمة فقال هذه فرصة لايصح ضياعها فهجم على حصون ابي عبد الرحمن بدون ان يستأذن من ابن طولون فلم يعبأ ابو عبد الرحمن بتكاثر الاعداء عليه فجعل يحارب فرقتين وحارب الفئتين وتغلب على شبه واعاده على اعقابه صفر اليدين الى الفسطاط

يصادف من ابن طولون الا احتقاراً وانتهاراً

وبعد ذلك بقليل قدم الفسطاط عبدان يحملان رأس ابي عبد الرحمن العمري فرمياه بين اقدام احمد بن طولون فسألهما عما اتى بهما اليه وما حملهما على قتل سيدهما فاجابا ان لاغرض لهما الا الحصول على رضا امير القطر المصري . فقال لهما احمد « ان ما ارتكبتموه تستوجبون عليه عقاب الله وعقابي » وامر بقتلهما وغسل راس ابي عبد الرحمن ودفنه بما يلزم من الاحترام . وحقيقة الامر ان العبدين لم يقتلا سيدهما بايديهما وانما قتل بمكيدة محمد بن هارون شيخ قبيلة مضر فسولت لهما النفس ان يقطعا راسه ويحملاه الى ابن طولون فينالا جائزة عظيمة وما علما ان المروءة وكرم الاخلاق تأبيان مثل ذلك

ثم ثار ابو نوعة صديق ابن الصوفي القديم فانضم اليه عصبة من الاتباع فجاهر بالعصيان ضد ابن طولون فارسل اليه حملة فغلبها فانجدها ابن طولون فغلبته وفر ابو نوعة الى الواحات واضطر اخيراً الى التسليم

وبعد سنة من هذه الحادثة ثار محمد بن فاراب الفرغني وتابعه اهالي برقة جميعهم فارسل اليهم احمد بن طولون لؤلؤاً وقال له نج المدينة من العصاة فتكون عليها والياً فحاربهم لؤلؤ وفاز عليهم فجعله ابن طولون واليا على برقة ومتعلقاتها

الموفق والمعتمد

وفي السنة نفسها اضطر ابن طولون الى محاربة شديدة كان يخشى عليه منها وهي محاربة ابي احمد طلحة الملقب بالموفق بالله احد ابناء المتوكل على الله واخو المعتمد على الله الخليفة . وذلك ان صاحب الزنج (بجوار زنجبار) ادعى انه من سلالة علي بن ابي طالب فقدم البصرة سنة ٢٥٤ هـ واستولى عليها وعلى الكوفة وغيرهما واستفحل امره فانفذ امير المؤمنين المعتمد على الله يستقدم اخاه ابا احمد الموفق بالله من مكة وكان الخليفة المهتدي بالله قد بعثه اليها منفياً فقدم سنة ٢٥٧ هـ فاوصى المعتمد بالخلافة من بعده لابنه المفوض وبعده للموفق وجعل غربي المماليك الاسلامية للمفوض وشرقيها للموفق وكتب بينهما بذلك كتاباً ارتهن فيه ايمانهما بالوفاء بما قد وقعت عليه الشروط

وكان الموفق يحسد اخاه المعتمد على الخلافة ولا يراه اهلاً لها فلما جعل المعتمد الخلافة من بعده لابنه ثم الموفق بعده شق ذلك عليه وزاد في حقده وكان المعتمد متشاغلاً بملاذ نفسه من الصيد واللعب والتفرد بجواريه فضاعت الامور وفسد تدبير الاحوال وفاز كل من كان متقلداً عملاً بما تقلده

وكان في الشروط التي كتبها المعتمد بين المفوض والموفق انه مايحدث في عمل كل

واخذ منهما من حدث تكون النفقة عليه من مال خراج قسمه . واستخلف على قسم ابن المفوض موسى بن بغا فاستكتب موسي بن بغا عبيد الله بن سليمان بن وهب . وانفرد الموفق بقسمه من ممالك الشرق وتقدم المعتمد الى كل منهما ان لاينظر في عمل الآخر وجعل كتاب الشروط بالكتبة

ولما كانت البصرة والكوفة واقعتين في حصة الموفق كان عليه محاربة الزنوج ودفعهم فتأهب في جيش كبير وسار اليهم وناهضهم فطال زمن المحاربة حتى انقطعت مواد خراج المشرق عن الموفق وتقاعد الناس عن حمل المال الذي كان يحمل في كل عام واحتجوا باشياء اخرى فدعت الضرورة الموفق الى ان كتب الى احمد بن طولون في مصر في حمل مايستعين به في حروب صاحب الزنج وكانت مصر في قسم المفوض لانها من الممالك الغربية الا ان الموفق شكا في كتابه الى ابن طولون شدة حاجته الى المال بسبب ما هو في سبيله وبعث الكتاب مع تحرير خادم المتوكل ليقبض منه المال

فما هو الا ان وصل تحرير الى ابن طولون واذا بكتاب المعتمد قد ورد عليه يأمره فيه بحمل المال اليه على رسمه مع ماجرى الرسم بحمله مع المال في كل سنة من الطراز والرقيق والخيل والشمع وغير ذلك وكتب اليه ايضاً كتاباً سرياً يقول فيه « ان الموفق انما انفذ تحريراً اليك عيناً ومستقصياً على اخبارك وانه قد كاتب بعض اصحابك فاحترس منه واحمل المال الينا وعجل نفاذه »

وكان تحرير الخادم لما قدم الى مصر انزله احمد بن طولون معه في داره بالميدان فمنعه من الركوب والخروج من الدار التي انزله بها حتى سار من مصر وتلطف في الكتب التي اجاب بها الموفق ولم يزل بتحرير حتى اخذ جميع ماكان معه من الكتب التي وردت من العراق الى مصر وبعث معه الى الموفق الف الف دينار ومائتي الف دينار وماجرى الرسم بحمله من مصر واخرج معه العدول وسار بنفسه صحبته حتى بلغ به العريش وكان قد ارسل الى اماجور متولي الشام فقدم عليه بالعريش فاسلمه خادم الموفق والمال واشهد عليه بتسليم ذلك ورجع الى مصر ونظر في الكتب التي اخذها من تحرير فاذا هي الى جماعة من قواده باسمائهم الى الموفق فقبض على اربابها وعاقبهم حتى هلكوا في عقوبته

فلما وصل جواب ابن طولون الى الموفق ومعه المال كتب اليه كتاباً ثانياً يستقل فيه المال ويقول « ان الحساب يوجب اضعاف ماحملت » وبسط لسانه بالقول والتهم ممن معه من يخرج الى مصر ويتقلدها عوضاً عن ابن طولون فلم يجد احداً عوضه كان من دعة ابن طولون وملاطفته وجوه الدولة

كتاب ابن طولون الى الموفق

فلما ورد كتاب الموفق على ابن طولون قال « واي حساب بيني وبينه او حال توجب مكاتبتي بهذا او غيره » وكتب اليه بعد البسملة « وصل كتاب الامير ايده الله تعالى وفهمته وكان اسعده الله حقيقاً بحسن التخير لمثلي وتصييره اياي عمدته التي يعتمد عليها وسيفه الذي يصول به وسنانه الذي يتقى الاعداء بحده لاني دائب في ذلك وجعلته وكدي واحتملت الكلف العظام والمؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة واستدعاء كل منعوت بغنى وكفاية بالتوسعة عليهم وتواصل الصلاة والمعاون لهم صيانة لهذه الدولة وذباً عنها وحسماً لاطماع المتشوفين لها والمنحرفين عنها . ومن كانت هذه سبيله في الموالاة ومنهجه في المناصحة فهو حري ان يعرف له حقه ويوفر من الاعظام قدره ومن كل حال جليلة حظه ومنزلته . فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل ما امر به والجفاء في المخاطبة بغير حال توجب ذلك ثم اكلف على الطاعة جعلاً والزم في المناصحة ثمناً وعهدي بمن استدعى ما استدعاه الامير من طاعته ان يستدعيه بالبذل والاعطاء والارغاب والارضاء والاكرام لا ان يكلف ويحمل من الطاعة مؤنة وثقلاً واني لا اعرف السبب الذي يوجب الوحشة ويوقعها بيني وبين الامير ايده الله تعالى ولا ثم معاملة تقتضي معاملة او تحدث منافرة لان العمل الذي انا بسبيله لغيره والمكاتبة في اموره الى من سواه ولا انا من قبله . فانه والامير جعفر المفوض ايده الله تعالى قد اقتسم الاعمال وصار لكل واحد منهما قسم قد انفرد به دون صاحبه وأخذت عليه البيعة فيه انه من نقض عهده او اخفر ذمته ولم يف لصاحبه بما اكد على نفسه فالامة بريئة منه ومن بيعته وفي حل وسعة من خلفه . والذي عاملني به الامير من محاولة صرفي مرة واسقاط رسمي اخرى ومايأتيه ويسومنيه ناقض لشرطه مفسد لعهده . وقد التمس اوليائي واكثروا الطلب في اسقاط اسمه وازالة رسمه فآثرت الابقاء وان لم يؤثره واستعملت الاناة وان لم تستعمل معي ورايت الاحتمال والكظم اشبه بذوي المعرفة والفهم فصبرت نفسي على احر من الجمر وامر من الصبر وعلى مالا يتسع به الصدر والامير ايده الله تعالى اولى من اعانني على ما اوثره من لزوم عهده واتوخاه من تأكيد عقده بحسن العشرة والانصاف وكف الاذى والمضرة وان لا يضطرني الى مايعلم الله عز وجل كرهي له ان اجعل ما أعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة والعساكر المتضاعفة التي قد ضرست رجالها من الحروب وجرت عليهم محن الخطوب مصروفاً الى نقضها . فعندنا وفي حيزنا من يرى انه احق بهذا الامر واولى من الامير . ولو امنوني على انفسهم فضلاً عن ان يعثروا مني على ميل او قيام بنصرتهم

لاشتدت شوكتهم ولصعب على السلطان معاركتهم . والامير يعلم ان بازائه منهم واحداً قد كبر عليه وفض كل جيش انهضه اليه على انه لا ناصر له الا لفيف البصرة واوباش عامتها فكيف من يجد ركناً منيعاً وناصراً مطيعاً وما مثل الامير في اصالة رايه يصرف مائة الف عنان عدة له فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك فان يكن من الامير اعتاب او رجوع الى ما هو اشبه به واولى والا رجوت من الله عز وجل كفاية امره وحسم مادة شره واجرءنا في الحياطة على اجمل عادته عندنا والسلام »

فلما وصل الكتاب الى الموفق اغاظه غيظاً شديداً فاحضر موسى بن بغا وكان عون الدولة واشد اهلها بأساً واقداماً فتقدم اليه في صرف احمد بن طولون عن مصر وتقليدها اماجور فامتثل وكتب الى اماجور كتاب التقليد وانفذه اليه فلما وصل اليه الكتاب توقف عن ارساله الى احمد بن طولون لعجزه عن مناهضته . ثم خرج موسى ابن بغا عن الحضرة مقدراً انه يدور عمل المفوض ليحمل الاموال منه ولما علم بتوقف اماجور عن مناهضة احمد بن طولون كتب اليهما يأمرهما بحمل الاموال وعزم على قصد مصر والايقاع بابن طولون واستخلاف اماجور عليها فسار الى الرقة

وبلغ ذلك ابن طولون فاقلقه ليس لانه يقصر عن مناهضة موسى بن بغا لكن لتحمله هتك الدولة وان يأتي سبيل من قاوم السلطان وحاربه وكسر جيوشه الا انه لم يجد بدًّا من المحاربة ليدفع عن نفسه ما يكره فتأمل مدينة فسطاط مصر فوجدها لا تؤخذ الا من جهة النيل فاراد لكبر همته وتدبره ان يبني حصناً على الجزيرة التي بين الفسطاط والجيزة (جزيرة الروضة) يكون معقلاً لحرمه وذخائره وخاصته ثم يشتغل بعد ذلك بحرب من يأتي من البر

وقد زاد فكره في من يقدم من النيل فأمر ببناء الحصن على الجزيرة واتخذ مائة مركب حربي سوى ما يضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابيك والزوارق وقوارب الخدمة وعمد الى سد وجه البحر الكبير وان يمنع ما يجيء اليه من مراكب طرسوس وغيرها من البحر الملح الى النيل بأن توقف هذه المراكب الحربية في وجه البحر الكبير خوفاً مما سيجيء من مراكب طرسوس كما فعل محمد بن سليمان من بعده باولاده كانه ينظر الى الغيب من ستر رقيق وجعل فيها من يذب عن هذه الجزيرة وانفذ الى الصعيد والى اسفل الارض لمنع من يحمل الغلال الى البلاد ليمنع من يأتي من البر الميرة

واقام موسى بن بغا بالرقة عشرة اشهر وقد اضطربت عليه الاتراك وطالبوه

بارزاقهم مطالبة شديدة حتى استتر منهم كاتبه عبيد الله بن سليمان لتعذر المال عليه وخوفه على نفسه منهم فخاف موسى بن بغا عند ذلك ودعته ضرورة الحال الى الرجوع فعاد الى الحضرة ولم يقم بها سوى شهرين ومات من علة في صفر سنة ٢٦٤ هـ

هذا واحمد بن طولون يجد في بناء الحصن على الجزيرة وقد الزم قوادهُ وثقاته امر الحصن وفرّقه عليهم قطعاً قام كل واحد بما لزمه من ذلك وكد نفسه فيه وكان يتعهدهم بنفسه في كل يوم وهو في غفلة عما صنعه الله له من الكفاية والغنى عما بعانيه . ومن كثرة ما بذل في العمل قدر ان كل طوبة منه وقفت عليه بدرهم صحيح . ولما تواترت الاخبار بموت موسى بن بغا كف عن العمل وتصدق بمال كثير شكراً لله على ما منَّ به عليه من صيانته عما يقبح فيه عنه الاحدوثة وما راى الناس شيئاً كان اعظم من عظيم الجد في بناء هذا الحصن ومباكرة الصناع له في الاسحار حتى فرغوا منه فانهم كانوا يخرجون اليه من منازلهم في كل بكرة من تلقاء انفسهم من غير استحثاث لكثرة ما سخا بهِ من بذل المال . فلما انقطع البناء لم يرَ احد من الصناع التي كانت فيه مع كثرتها كانما هي نار صبَّ عليها ماء فطفئت لوقتها . ووهب للصناع مالاً جزيلاً وترك لهم جميع ما كان سلفاً معهم . وبلغت نفقات هذا الحصن ثمانين الف دينار ذهباً وقال سعيد بن القاضي من ابيات بشأن ذلك

وان جئت رأس الجسر فانظر تأملاً ... الى الحصن او فاعبر اليه على الجسر
ترى اثراً لم يبقَ من يستطيعه ... من الناس في بدو البلاد ولا حضر
مآثر لا تبلى وان باد اهلها ... ومجد يؤدي وارثيه الى الفخر

اما الموفق فلما تفرق جيشه لم يعد يرى بدًّا من الاغضاء عن مقاومة احمد بن طولون اغضاءً وقتياً

بناء الجامع

وكثر اتباع ابن طولون ورجال حاشيته وجنده حتى ضاق جامع العسكر ذرعاً عن احصائهم ايام الجمعة للصلاة فرفعوا اليه ان يبتني لهم جامعاً آخر اكثر اتساعاً فاستجاب التماسهم على ان يبتنيه على جبل يشكر وكان لهذا الجبل شأن ديني عندهم وكانوا يقولون ان موسى الكليم ناجى ربه عليه مراراً وانه اقتبل في ذلك المكان بعض الشرائع المقدسة وعزم احمد ان يجعل ذلك الجامع اعظم ما بني من الجوامع الى ذلك العهد وان يقيمه على ثلثمائة عمود من الرخام . فقيل له ان مثل هذا العدد لا يتيسر الحصول عليه وانه اذا اصر على عزمه لا يترك للمسيحين ما يقوم ببناء معابدهم فتردد بين ان يتم مشروعه وان لا يحرم الطوائف الاخرى من التمتع بحقوقها الدينية في بناء المعابد

ش ٣٨ — جامع ابن طولون

وكان المهندس المسيحي الذي تقدم ذكره ويسمى ابن الكاتب الفرغاني ومن ذوي الاطلاع والمعرفة بفن الهندسة وصنعة البناء وقد اودع السجن لتهمة توجهت نحوه بغير الحق . فلما بلغه ما كان من عزم ابن طولون وتردده كتب اليه من السجن انه قادر على اتمام مشروعه وانه لايحتاج في ذلك الى اكثر من عمودين يجعلهما عمودي القبلة. فاستحضره وقد طال شعره حتى نزل على وجهه وطلب اليه ان يشرح له ذلك فرسم الجامع على الكيفية التي كانت في ذهنه فجاء كثير الشبه بجامع سامرا . فاعجب ابن طولون كثيراً وامر باطلاقه وخلع عليه وجعل تحت امره مائة الف دينار وقال له انفق وما احتجت اليه بعد ذلك اطلقناه لك . وامر ابن طولون ان يكون بناء الجامع من القرميد والجير ونهى عن ادخال اي مادة كانت مما يقبل الاشتعال قائلاً « ورغبتي من ذلك انه اذا طرأ على الفسطاط دمار بالماء ام بالنار فلايكون على جامعي بأس فيبقى ولو دمرت جميعها »

ولما اتم بناء هيكل الجامع اخذ في زخرفته فبيضه وعلق فيه القناديل الجميلة النحاسية بالسلاسل النحاسية الطوال وجعل على افاريزه آيات من القرآن الشريف لايزال معظمها ظاهراً الى هذا اليوم وفرش الحصر وحمل اليه صناديق المصاحف ونقل اليه القراء والفقهاء . ويقال انه هو الذي رسم القبلة والمنارة بنفسه وجعلها منفصلة عن رواق يحيط بالجامع ويفصل المنارة عن صحن ثان خارجي وقد هدم بعض هذه المنارة الا ان الناظر اليها لايسعه الا التعجب من عظمتها ويقال ان تجاه المنارة المذكورة الباب الذي

وجعل للجامع ٣٣ شباكاً . واقام بجوار الجامع بناء دعاه دار الامارة يستطرق الى الجامع من كوة في جداره القبلي قرب المحراب والمنبر مزين بالستائر . وفي الدار المساند الجميلة والطنافس الثمينة . فكان ابن طولون ينزل في تلك الدار اذا ذهب الى الصلاة يوم الجمعة فانها كانت تجاه القصر والميدان فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه وفي موضعها الآن سوق الجامع

ومن يزر هذا الجامع اليوم يره خراباً مهجوراً وقد استعملته الحكومة مراراً منازل للحجاج والفقراء فبنوا في قناطره فسدوها . وقد هدم بعض تلك القناطر وبعض المنارة وفي صحن الجامع الميضاة ولا يزال اثر المنبر الخشبي باقياً وفي جوار المنارة غرف يقال انها كانت مصلى احمد ابن طولون وذريته

وقد استغرق بناء هذا الجامع سنتين فانتهى في رمضان سنة ٢٦٣ هـ فاذن ابن طولون بالصلاة فيه ولكن الفقهاء لم يكونوا يدخلونه لئلاً يكون مبنياً بمال لم تكتسب بالحق والعدل فاقسم لهم انه لم ينفق عليه درهماً من الدراهم التي وجدها اتفاقاً فصدقوه واحتفل بتدشينه في يوم الجمعة التالي وصار يرد اليه الجماهير من المسلمين . وتذكاراً لذلك الاحتفال نقشوا على الواح كبيرة من الرخام الابيض بعض الآيات من القرآن الكريم . وقال المقريزي انهم كانوا يحرقون اقراص الند في اثناء الصلاة فيعبق الجامع بدخانه والمؤمنون في الصلاة . وكان القاضي بكار بن قتيبة الامام الاول وربيع بن سليمان الخطيب الاول لهذا الجامع . وفي ذلك الحين انشأ محمد بن ربيع مدرسة في احدى غرف الجامع وكان ابن طولون واولاده وجميع حاشيته لا يتركون الجامع الا بعد ان يتم محمد تدريسه . وكانت دروس هذه المدرسة محصورة في الحديث . وممن كان يحضر عليه ابناء احمد بن طولون وكانوا يواظبون على الحضور والانصراف كسائر التلاميذ كل ذلك بأمر والدهم . وفي مساء يوم التدشين عاد ابن طولون الى دار الامارة لاعادة الوضوء وتغيير الثياب فمكث مدة طويلة في الجامع يصلي لله ويشكره على ما اولاه من النعم بنجاح اعماله ووهب الجامع عشرة آلاف دينار وخصص له رواتب تدفع من ماله ما بقي حياً . وبنى ابن طولون بجوار الجامع خارج صحنه حوضاً وفسقية للوضوء ثم بنى صيدلية يحضر فيها بأمره كل يوم جمعة طبيب يعالج الفقراء مجاناً ولا سيما الذين يأتون للصلاة . وحسبت نفقات البناء فبلغت مائة وعشرين الف دينار غير الاوقاف . ويقال ان احمد بن طولون وجد ما عدا الكنزين المتقدم ذكرهما كنزاً ثالثاً من الذهب النقي ويقال ان هذا الذي جعله يضرب الدينار الاحمدي الذي اشتهر بنقاوته والمفضل على سائر

انواع الذهب القديم للتذهيب به

وفي اثناء بناء الجامع توفي اماجور الذي كان حاكماً في سوريا فخلفه ابنه علي فاغتنم احمد بن طولون تلك الفرصة ليضم سوريا الى مصر والموفق مشغول عنه بمحاربة الزنج فاظهر انه عازم على محاربة الروم جهاداً في سبيل الدين وجمع جيشاً جراراً فيه كثيرون من المتطوعين فكتب الى ابن اماجور يستنصره في تلك الحرب وان يبايعه على سوريا لان الخليفة اقطعه اياها فاطاعه

عصيان العباس

وفي غرة سنة ٢٦٥ هـ برح احمد بن طولون مصر مستخلفاً ابنه العباس وسنه اذ ذاك ٢٣ سنة وعهد بتدبير الاحكام الى وزيره احمد الواسطي . ولما احتشدت جيوش ابن طولون في فلسطين اتاه محمد حاكم الرملة خاضعاً فأقره في منصبه ولما بلغ دمشق رحب به علي بن اماجور وأمر بان يخطب باسمه فاقره في منصبه ايضاً . وهكذا فعل في حمص وعليها عيسى فاقره عليها ثم استولى على حلب وحماه وكانتا من اعمال انطاكية وحاكمها يدعى سيما الطويل فكتب اليه احمد بن طولون يطلب مبايعته فوعده ولكنه لم يف فأعاد الطلب فوعد ايضاً ولما تكرر منه الوعد والاخلاف تقدم احمد بجيشه الى اسكندرونه ثم هاجم انطاكية من جهة باب البحر فلم يقدر عليه لانه كان منيعاً فهاجمها ثانية وثالثة بلا فائدة وما زال حتى كاد يتولاه اليأس فاتاه بعض اهالي المدينة ينبئونه بباب آخر في الجهة المقابلة يدعى باب الفرس لجهة الجبال وقالوا انه سهل المأخذ فسار احمد بجيشه وهاجم المدينة من ذلك الباب وما طلع الفجر الا والمتاريس في يده . واما سيما فدافع دفاعاً حسناً حتى قتل وجيء برأسه الى احمد بن طولون فشق عليه قتله لانه كان صديقاً له . واما المدينة فذهبت فريسة الفتك والنهب حتى نودي بالطاعة فسكنت الغوغاء ووضع احمد يده على باياس واطنة وطرسوس . وبينما هو يهم بالتقدم في فتوحه الى ما وراء ذلك جاءه من مصر ان ابنه العباس الذي استخلفه عليها قد شق عصا الطاعة ومد يده الى الخزائن والاحكام واستبد فيها فلم يرد احمد الرجوع الى مصر قبل اتمام عمله في سوريا فسار الى محاربة محمد بن اتامش صاحب الرقة ثم اخيه موسى فأسره ولم يرجع الى مصر الا في نهاية سنة ٢٦٥ هـ بعد ان فتح الشام وبعض اسيا الصغرى واستخلف في الرقة غلامه لؤلؤاً

اما العباس فبعد ان نبذ طاعة والده انقياداً لذوي الاغراض شعر بخطائه وخاف سوء العقبى فجمع اليه الخزينة وفيها مليونان من الدنانير واستدان فوقها ٣٠٠ الف

دينار وفر بمن معه الى الجيزة على ضفة النيل الغربية وساق معه احمد الواسطي وزير والده مغلولاً . ولكنه خشي ان لا يكون مكانه هناك امينا فعهد بحكومته فيه الى اخيه ربيع مظهراً السفر الى الاسكندرية وسافر الى برقة

فلما وصل احمد بن طولون الى الفسطاط ونزل العسكر ورأى من امر ابنه ما راى احب استقدامه بالحسنى فكتب اليه كتباً كلها نصح واستعطاف وارسلها مع بكار بن قتيبة فعاد بلا نتيجة وكان ذلك بدسيسة من التف حوله وهم الذين اغروه على كل ما فعل وقد اصبحوا يخافون غضب ذلك الامير الخطير فأوعزوا الى العباس ان يمعن في افريقية . ففي سنة ٢٦٧ هـ جمع اليه رجال دعوته وسار في داخلية البلاد ساعياً جهده في اجتذاب مشائخ القبائل اليه فلم يفز الا مع القليل منهم فكتب الى ابراهيم بن الاغلب صاحب القيروان ان يبايعه على افريقية مدعياً ان الخليفة قلده اياها وكان سعيه مع هذا باطلاً ايضاً . ثم هاجم حصن لبدة ففتحت له ابوابها فدخلها وامعن اتباعه في النهب والقتل فاستاء الاهالي فكتبوا الى الياس بن منصور النفوسي رئيس الاباضية فوعدهم بالمساعدة

وفي اثناء ذلك سار ابراهيم صاحب القيروان بجيش الى طرابلس الغرب لقتال العباس فقاتله في الليل وكان العباس مشهوراً بالشجاعة والحماسة وكان شاعراً ينشد الاشعار الحماسية في اثناء القتال ومما انشده قوله

لله دري اذا اعدو على فرسي ... الى الهياج ونار الحرب تستعرُ
وفي يدي صارم افري الرؤوس به ... في حده الموت لا يبقي ولا يذر
ان كنت سائلة عني وعن خبري ... فها انا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون اصلي ان سألت فما ... فوق المفتخر بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كري بلبدة اذ ... بالسيف اضرب والهامات تبتدر
اذاً لعاينت مني ما تبادره ... عني الاحاديث والانباء والخبر

وفي الصباح التالي وصل الياس ومعه ١٢ الفاً من الاباضية مدداً لابراهيم فضمها الى جيشه واستأنف الحرب وخسر العباس في هذه الواقعة اكثر ضباط جيشه واشجع جنوده وجميع المؤن والمهمات العسكرية التي اتي بها من مصر. اما هو فتمكن بعد الجهد من الفرار الى برقة فبلغ ذلك اباه فانفطر له قلبه رغم عصيانه ومناواته .

وفي اواخر سنة ٢٦٧ هـ انفذ احمد جيشاً الى برقة وبعد بضعة ايام اتى بنفسه الى الاسكندرية في جند كبير قيل انه كان مؤلفاً من مائة الف رجل فاتاه احمد الواسطي وكان قد تخلص من العباس فانفذه ابن طولون بجيش الي برقة ليهاجم من فيها ،ن

العصاة فهاجمهم وقتل العدد الاعظم منهم . اما العباس فقبض عليه حياً وجاء به الى ابيه في منتصف سنة ٢٦٨هـ وبعد بضعة ايام عاد ابن طولون الى الفسطاط ومعه ابنه العباس ولما بلغ الفسطاط اعتقله في قصره

وبعد ثلاثة اشهر وصلت الجيوش ومعهم الاسرى الباقون فاحضرهم والعباس معهم فأمره ابوه ان يقطع ايدي هؤلاء المفسدين وارجلهم بيده ففعل . ثم التفت اليه وعنفه بكلام تفتت له الحجارة ثم امر بان يضرب مائة جلدة امر بذلك وقلبه يقطر دماً . ثم اعاده الى الاعتقال وامر بقتل من بقي من العصاة والقاء جثثهم في النيل

اضطرابات خارجية

وما كادت مصر تتخلص من هذه الاضطرابات الداخلية حتى داهمتها اضطرابات خارجية اشد وطأة واصعب مراساً . فان الضغائن بين احمد بن طولون والموفق كانت لا تزال كامنة الى ذلك العهد وما اصاب الاموال من السلب وما تكبده ابن طولون على أثر ذلك من النفقات في الحروب حمله على الاقتصاد في النفقة والاعتدال بالسخاء فساء ذلك بعض الذين كانوا يتقربون منه طمعاً بالمال وفيهم غلامه لؤلؤ الذي كان غارقاً بانعامه وقد ولاه بلاداً واسعة فاضمر له شراً بايعاز كاتبه محمد بن سليمان الذي لم يكن ابن طولون يحبه . فامسك لؤلؤ عن اداء الخراج الى ابن طولون على ان يؤديه الى الموفق ويبايعه على ما في يده فطار الموفق فرحاً . اما القواد الذين كانوا مع لؤلؤ فلم يكن بينهم وبين احمد بن طولون ما يوجب العداء فاعلموه بغدره فادرك العواقب الناجمة عن هذه الخيانة ولكنه اتخذ الحزم والتأني نبراساً فكتب الى لؤلؤ يدعوه الى طاعته بعبارات لطيفة فأبى

فنظر احمد في الامر نظراً بعيداً فرأى العاقبة محمودة فكتب الى المعتمد سراً يعلمه انه يخاف خيانة ربما كان فيها خطر على حياة الخليفة ويدعوه الى مصر قائلاً « ان لدينا هنا مائة الف مقاتل مستعدة للدفاع عن امير المؤمنين وقمع عدوه (يعني الموفق) واعادة السلطان اليه » وبعث مع هذا الكتاب هدية تساوي مائة الف دينار وسار في جيش جرار سنة ٢٦٩ هـ وتقدم الى دمشق ومعه ابنه العباس واستخلف على مصر ابنه الثاني خمارويه وجاهر انه قدم لامرين انقاذ الخليفة المعتمد ومعاقبة لؤلؤ فلم يظفر بلؤلؤ لانه كان قد انضم الى الموفق في محاربة الزنج

وثارت في اثناء ذلك فرقة من الجند كان قد ارسلها احمد الى سليسيا وعصت قائده خلفاً فتمكن هذا من النجاة بحياته الى دمشق فاغتنم سكان طرسوس هذه الفرصة فخلع طاعة ابن طولون فابطلوا الصلاة باسمه فحمل عليهم اقتصاصاً منهم . ثم ورد البر

كتاب من المعتمد اوقفه عن عزمه . وذلك ان الخليفة المشار اليه ادرك ان ليس في يده من الخلافة الا اسمها وان اخاه الموفق اضر بنفوذه ضرراً بليغاً . فلما جاءه كتاب ابن طولون تقبله بسرور واجابه شاكراً له وشاكياً من تصرف اخيه . والقى اليه ان يتصرف بالامر بمقتضى حكمته وان يلاقيه في الرقة . فانفذ اليها ابن طولون جيشاً لملاقاته لان المعتمد احب ان يغتنم اشتغال اخيه بالحرب مع الزنج للقدوم الى احمد فتظاهر بالخروج في حاشيته للصيد . وسافر في جمادى الاولى حتى بلغ الى اسحق بن كنداج امير الموصل وما بين النهرين وكان قد كتب اليه وزير الموفق بما كان وامره ان يحتال في القبض على الخليفة . فاستقبل اسحق الخليفة باكرام واحترام وشيعه

فلما قارب عمل ابن طولون ارتحل الاتباع والغلمان الذين مع المعتمد وقواده ولم يترك ابن كنداج اصحابه يرحلون . ثم خلا بقواده عند المعتمد وقال لهم انكم قرب عمل ابن طولون والامر امره وتصيرون من جنده وتحت يده افترضون بذلك وقد علمتم انه كواحد منكم . وجرت بينهم في ذلك مناظرة حتى تعالى النهار ولم يرحل المعتمد ومن معه فقال ابن كنداج قوموا بنا نتناظر في غير حضرة امير المؤمنين فاخذ بأيديهم الى خيمته لان مضاربهم قد سارت فلما دخلوا خيمته قبض عليهم وقيدهم واخذ سائر من مع المعتمد من القواد فقيدهم . فلما فرغ من امورهم مضى الى المعتمد فعزله في مسيره من دار ملكه وملك آبائه وفراق اخيه الموفق على الحال التي هو بها من حرب كأنه يريد قتله وقتل اهل بيته وزوال ملكهم ثم حمله والذين كانوا معه حتى ادخلهم سامرا

فعلم الموفق بذلك فسرّ لكنه خشي ان يعود اخوه مرة ثانية الى قصده الاول فارسل اليه من يراقب حركاته ووهب اسحق جميع البلاد التي كانت من اعمال ابن طولون فاصبح حكمه ممتدًّا من بغداد الى اطراف افريقية واهداه سيفين ولقبه بذي السيفين اشارة الى تسلطه على الشرق والغرب

فلما علم ابن طولون بذلك اشتد غيظه فجمع اليه من كان في دمشق من فقهاء بلاده وعلمائها واشرافها واعلمهم ان الموفق هتك حرمة الاخوة نحو اخيه وحاول الاستقلال بالدولة الاسلامية وان الخليفة امير المؤمنين قد اصبح في حالة يرثى لها يقضي نهاره بالاسف والكمد الشديدين . وما زال ينهض هممهم ويحرك عواطفهم حتى اقروا على ان يذكر الخطيب بعد صلاة الجمعة حالة الخليفة ويطلب الى الله ان يحفظه ويكبت اعداءه . وزادوا على ذلك ان الموفق عاص على الخليفة فهو محروم من حقوق الخلافة ثم زاد هو على هذا ان الموفق خلع الطاعة وبرئ من الذمة فوجب جهاده على الامة .

فاعترض بعض الحضور على ذلك ومنهم بكار وقال ان كتب الخليفة تخالف ما قررتموه لانه اوصى ان يكون الموفق وارثاً للخلافة قطعياً فاجابه ابن طولون ان الخليفة لم يكن حرًّا بما فعل . والقى بكاراً في السجن ريثما يرد من الخليفة الجواب على ذلك وانتهى الامر باقرار الجميع على ماسبق ذكره وان يحافظوا على كل كلمة فاهوا بها وان ينادوا بذلك في الجماهير بالصلاة كما تقدم

فلما بلغ الموفق ذلك اوعز الى اخيه المعتمد ان يخلع ابن طولون . وما انفك حتى اجابه الى طلبه فجاهر على المنابر بعبارة ونصها : « اللهم العنه لعناً يفلُّ حده ويتعس جدَّه واجعله مثلاً للغابرين انك لا تصلح عمل المفسدين » فصرح ابن طولون بلعن الموفق في جميع بلاده وارسل جيشاً للاستيلاء على مكة فانفذ حاكمها هارون الى الموفق الخبر فارسل اليه مدداً تحت قيادة جعفر فحاربوا المصريين في مكة فغلبوهم بعد ان قتلوا مائتي رجل منهم واسروا قائدهم فنودي بلعن ابن طولون في مسجد مكة

الا ان هذا جميعه لم يكن ليثني ابن طولون عن عزمه في اعماله الاخرى فانه سار الى سليسيا لاخماد الثورة ومقاصة المعتدين ثمرَّ في طريقه بدمشق وبنى قبة فوق مدفن الخليفة معاوية كان قد هدمها العباسيون وزينها بالقناديل واقام فيها من يتلو القرآن ثم قدم انطنه لمقاصة بزمار حاكمها لامتناعه عن مبايعته وكان بزمار قد قبض على رسل ابن طولون فشق ذلك على ابن طولون فاسرع الى قتاله بفرقة من الجند فحوَّل بزمار نهر سدنس على جيش ابن طولون وكانوا في منتصف الشتاء ففاضت مياهه وساعدها البرد القارس فاهلك معظم الجند فاضطر احمد الى رفع الحصار وتأجيل الانتقام . فانتقل لنجدة جهات اخرى كان يهددها الروم فسار بفرقة من رجاله الى باياس فانطاكية حيث كان ينتظره القضاء المبرم . وذلك انه شرب فيها مقداراً كبيراً من لبن الجاموس فاضر في صحته فانذره الطبيب الذي كان معه واسمه سعيد بن ثيوفيل فاهمل انذاره وتغافل عن الاحتماء الصارم فاشتد مرضه كثيراً فاسرع الى مصر محمولاً على الاذرع في محفة لكن الضعف لم يسمح له بالاستمرار على هذه الكيفية فنزل عند الفرما ثم حمل الى الفسطاط في النيل فبلغها في آخر السنة وهو في حالة خطرة . فنادى اليه الاطباء وهددهم بالقتل اذا لم يبذلوا الجهد في شفائه

فحدث في مصر من القلاقل ما شغل ابن طولون عن الاهتمام بصحته . وذلك ان احد العلويين واسمه احمد بن عبد الله لما بلغه حال احمد بن طولون من المرض شق عصا الطاعة فانضمت اليه فرقة من رجال الصعيد فانفذ اليها احمد فرقة

من رجاله ففرقتها وعادت برأس قائدها وعاد معها الامن واستتبت الراحة

المصالحة

اما الموفق فبعد ان حارب الزنج طويلاً فاز بهم لكنه ملَّ الحرب ومال الى السكينة وكانت شعائره العدوانية نحو ابن طولون اخذت على طول الزمن في الخمود فرغب في حقن الدماء واقامة الحدود . ولم تكن رغبة ابن طولون في المصالحة اقل من رغبة الموفق . والظاهر ان المرض اضعف منه حاسة الانتقام فمال الى صرف القلاقل . وكان الموفق اشد رغبة في صرفها فعهد الى سعيد بن مخلد وجماعة من ذويه ان يكتبوا الى ابن طولون كتابة يوهمونه انها منهم بغير علم الموفق يبينون له ان ما حصل انما كان من عواقب التسرع في الحكم وان يتفقوا معه على المصالحة ففعلوا كما امرهم. فلما اطلع ابن طولون على هذه الكتب علم انها من تدبير الموفق . على ان ذلك لم يمنع قبوله بالمصالحة فوافقه على نسيان ما مضى من سوء التفاهم ووعده باعادة الصلات الودية على ان يصرح الموفق جهاراً بتنازله عن شعائر الحقد او الانتقام . فعلم الموفق من مطالعة الكتاب ان ابن طولون كشف ضميره فاجابه انه آسف على ما فرط منه وعامل على استئصال جرائم الحقد وانه يرغب الى صديقه الجديد ان يقبل تلك المصالحة فقبل . اما المعتمد فسرَّ جدًّا لما دار بينهما وكتب بخط يده الى ابن طولون يحمد سعيه ويطلب اليه ان يبقى مسالماً لاخيه الموفق واخبره انه قد ابطل لعنه . فلم تبلغ مصر رسالته الا بعد وفاة ابن طولون لان صحته كانت تتأخر يوماً فيوماً والالم المعدي المتسبب عن افراطه من اكل لبن الجاموس يشتد عليه مصحوباً بحمى شديدة وضعف عام ثم رافق ذلك زرب ذهب بما بقي من قواه

فلما احس احمد بدنو الاجل استغاث بصلوات شعبه على اختلاف معتداتهم . فصعد المسلمون بقرآنهم والمسيحيون باناجيلهم واليهود بتوراتهم الى المقطم فاقاموا فروض الدعاء الى الله ان يشفي ملكهم . وكان في جملة من حضر الاحتفال الفقهاء وطلاب العلم وكانت جوامع المدينة غاصة بالجماهير يقراون القرآن والحسنات تفرق في الفقراء بسخاء فانتفع الناس في موته كما انتفعوا في حياته . ولما تأكد قرب الساعة صلى قائلاً « اللهم ارحم عبدك وعامله قدر نفسه لانه لم يعرف لها قدراً وانصفه برحمتك » واخذ بعد ذلك يكرر الشهادة الى ان قضى . وقبل وفاته بقليل اخرج بكراً من السجن لكنه لم يلبث بعد وفاة ابن طولون الا اياماً حتى توفي ودفن في الفسطاط

ولا يزال مقامه معروفاً . وكانت وفاة احمد بن طولون يوم الاحد العاشر من شهر ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ (الموافق ١١ مايو سنة ٨٨٤ م) ودفن عند سفح المقطم على طريق المتوجه الى القرافة الصغرى

ولما بلغ المعتمد وفاة ابن طولون حزن حزناً شديداً ورثاه بقصيدة تدل على ان المعتمد كان شاعراً اكثر من كونه حاكماً . وحكم ابن طولون ١٨ سنة كلها حروب وظفر . ومن تأمل سيرة حياته يجد فخره انما كان بكثرة المصاعب وهي التي كانت تثير فيه الهمة وتحمله على توسيع نطاق مملكته وقد خلف ثروة قدرها عشرة ملايين دينار وعدداً كبيراً من الاسلحة والامتعة و ٧ آلاف مملوك تحت السلاح و ٢٤ الف مملوك بغير سلاح وكثيراً من الخيل والبغال والجمال وحيوانات اخرى . ويقال ان غلة مصر بلغت في ايامه مائة مليون دينار سنوياً . وقال آخرون انها لم تبلغ عشر هذا القدر وهو الارجح وكان شجاعاً همهاماً حليماً شفوقاً

مناقبه

ومن امثال شفقته انه ركب في غداة باردة الى المقس في ضواحي الفسطاط فاصاب بشاطىء النيل صياداً عليه ثوب خلق لا يواريه منه شيء ومعه صبي في مثل حاله وقد القى شبكته في البحر . فلما رآه رق لحاله وقال « نسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً » فدفعها اليه ولحق ابن طولون . فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والصبي يبكي ويصيح فظن ابن طولون ان بعض سودانه قتله واخذ الدنانير منه فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن ابيه فقال له هذا الغلام (واشار الى نسيم الخادم) دفع الى ابي شيئاً فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتاً . فقال فتشه يانسيم . فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بحالها فحرض الصبي ان يأخذها فابى وقال هذه قتلت ابي وان اخذتها قتلتني . فاحضر ابن طولون قاضي المقس وشيوخه وامرهم ان يشتروا للصبي داراً بخمسمائة دينار تكون غلة وقفاً تحبس عليه وكتب اسمه في اصحاب الجرايات . وقال انا قتلت اباه لان الغنى يحتاج الى تدريج والا قتل صاحبه . هذا كان يجب ان يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتيه هذه الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينه

واحمد بن طولون اول من جلس في مصر للنظر المظالم فكان يجلس لذلك يوماً في كل اسبوع في محل يقتبل فيه التظلمات وينصف اصحابها . وكان تقياً يحترم الشعائر الدينية كثيراً فكان له في قصره حجرة جعل فيها رجالاً سماهم المكبرين يبيت منهم في كل ليلة اربعة يتناوبون الليل نوباً يكبرون ويسبحون ويحمدون ويهللون ويقرأون

القرآن تجويداً بالالحان ويتوسلون بقصائد زهدية ويؤذنون اوقات الاذان

ومن مناقبه الحميدة حبه لعمل الخير المجرد والتصدق على كل من طلب الصدقة . فكان ينفق في سبيل ذلك الفي دينار شهرياً سوى ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم . وسوى مطابخه التي اقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ويفرق للناس في القدور الفخار والقصاع على كل قدر او قصعة لكل مسكين اربعة ارغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران مما في القدر وكانت تعمل في داره وينادى من احب ان يحضر دار الامير فليحضر وتفتح الابواب ويدخل الناس الميدان وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكره ينظر الى المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسرُّه ذلك ويحمد الله على نعمته . ولقد قال له مرة ابراهيم بن قراطقان وكان متوليا تفريق الصدقات « ايد الله الاميرانا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقات فتخرج لنا الكف المخضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديد والكف فيها الخاتم »

فقال « يا هذا من مد يده اليك فاعطه فهذه هي اللطيفة المشهورة التي ذكرها الله في كتابه فقال يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف . احذر ان ترد يداً امتدت اليك »

وابن طولون اول من بنى قلعة في يافا . وترك عند وفاته ٣٠ ولداً ١٧ ذكراً و١٣ انثى ولم يكن عمره عند وفاته اكثر من خمسين سنة . واوصى ان تكون الاحكام لبنيه من بعده ليكون له من نسله دولة تخلد ذكره . الا ان هذه الدولة لم تمكث بعده الا ٢٢ سنة

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ وعليها اسمه واسم الخليفة المعتمد (انظر شكل ٣٩)

ش ٣٩ — نقود المعتمد وعليها اسم ابن طولون

خمارويه بن أحمد

من سنة ٢٧٠ — ٢٨٢ هـ او من ٨٨٤ — ٨٩٥ م

وبعد وفاة ابن طولون اقيم ابنه خمارويه حالاً في مكانه في ذي القعدة سنة ٢٧٠ هـ وسنه ٢٠ سنة ولقب بأبي الجيش فسر الناس من توليته . واما العباس فكان لايزال في السجن وقد كرهته الامة لما كان من عقوقه . وقال بعضهم ان اباه ناداه قبل وفاته وعفا عما كان منه واوصى له بامارة الشام تحت امارة اخيه خمارويه لكنه مالبث ان اقيم اخوه على الاحكام حتى ذهبت حياته بأمره . ولم يشأ خمارويه ان يجعل مركز حكومته في الفسطاط كما فعل ابوه فجعلها في القطائع التي كان قد بناها ابوه مقرًّا لرجاله

واول شيء اتاه خمارويه انه قرب قلوب الرعية اليه بنزاهته ونصرته للحق . ذلك ان كنيسة الاسكندرية كانت سنة ٢٦٨ هـ تحت رعاية البطريرك ميخائيل وكان هذا قد عزل الاسقف سكا لسوء سيرته وتعاليمه فسار هذا الاسقف الى الفسطاط مضمراً شرًّا فسعى الى احمد بن طولون فساداً وادعى ان البطريرك وافر الثروة وهو لايحتاج الى المال . وكان احمد اذ ذاك يتأهب للسير الى سوريا وفي احتياج للنفقات فاستحضر البطريرك المذكور وقال له « ان من كان في مكانك ايها البطريرك لايحتاج الى اكثر من الطعام واللباس وقد علمت انك ذو ثروة والبلاد في احتياج الى نفقات كبيرة فادفع مالديك الى بيت المال » فاجتهد البطريرك في رفع تلك التهمة عنه فذهب اجتهاده عبثاً . والقي في السجن ومعه احد شمامسته المدعو ابن المنذر سنة كاملة فاخذ يوحنا وابراهيم ابنا موسى كاتب احمد بن طولون على عاتقهما ان يطلق البطريرك بعد ان يدفع مبلغاً يجمعه من رعاياه المسيحيين . فكتب على نفسه صكاً بمبلغ ٢٠ الف دينار يدفعه على دفعتين لكنه لم يستطع الدفعة الاولى الا بعد العناء الشديد والاستقراض وبيع اوقاف الكنيسة لان ما فرضه على ابناء الكنيسة لم يكن وافياً بالمطلوب . فاصبح البطريرك في حالة اليأس وانزوى في دير القديسة مريم في قصر الشمع بجوار الفسطاط لايعلم كيف يقوم بدفع المبلغ الباقي فاكثر الضرائب على الاسقفيات الى حد لم يكن في الامكان القيام بدفعه فنسب اليه الاستبداد وهو براء منه . ولما آن وقت الدفع لم يكن قادراً عليه فقيد ثانية الى السجن وبعد يسير توفي ابن طولون . فلما تولى خمارويه رأى من العدالة ان يخلي سبيله ويبرىء ذمته مما كان باقياً عليه ففعل وكان لذلك وقع عظيم عند الاقباط

حدائق خمارويه واصطبلاته

ثم أخذ في تدبير الاحكام فلم يغير شيئاً مما كان في ايام ابيه فابقى ارباب المناصب كما كانوا فبقيت قيادة جيش الشام في يد ابي عبدالله وقيادة مابقى من الجيوش في يد سعيد الايسر. ولكي يتأكد مناعة الشام ارسل اليها مراكب حربية تطوف في مياهها . ولما اطمأن باله من قبيل ذلك عكف على الداخلية فاقبل على قصر ابيه وزاد فيه واخذ الميدان فجعله كله بستاناً وزرع فيه انواع الرياحين والشجر المطعم العجيب وانواع الورد والزعفران وكسا اجسام النخل نحاساً مذهباً وجعل بين النحاس واجسام النخل مزاريب الرصاص واجرى فيها الماء المدبر وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستاني بالقراض حتى لاتزيد ورقة على ورقة وطعموا له شجر المشمش باللوز واشباه ذلك . وبنى في البستان برجاً من خشب الساج المنقوش بالنقر الفاخر ليقوم مقام الاقفاص وسرح فيه من اصناف القماري والدباسي والنونيات وكل طائر مستحسن حسن الصوت . وجعل فيه اوكاراً تفرخ الطيور فيها وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها . وعمل في داره مجلساً في رواقه سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد على احسن نقش وجعل في حيطانه صوراً بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتي يغنينه بما عليهن من اللباس بالوانه وجعل عليهن من الحلي مثل ما اعتدن لبسه

وجعل امام هذا البيت فسقية ملأها زئبقاً . وسبب ذلك انه شكا الى طبيبه الارق فاشار عليه بالتغميز فانف من ذلك فقال تأمر بعمل بركة من زئبق فعمل بركة يقال انها ٥٠ ذراعاً طولا في ٥٠ عرضاً وملاها من الزئبق وجعل في اركان البركة سككاً من الفضة الخالصة وجعل في السكك زنانير من حرير في حلق من الفضة . وعمل فراشاً من ادم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي بحلق الفضة في سكك الفضة وينام على هذا الفراش ولايزال هذا الفراش يرج ويتحرك بحركة الزئبق مادام عليه . ولم يعرف ملك قط تقدم خمارويه في عمل هذه البركة

وبنى ايضاً بالقصر قبة تضاهي قبة الهواء سماها الدكة وكان كثيراً ما يجلس فيها ليشرف منها على جميع ما في داره من البستان وغيره ويرى الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة . وبنى ميداناً آخر اكبر من ميدان ابيه . وبنى ايضاً في داره داراً للسباع « عمل فيها بيوتاً بازاج كل بيت يسع سبعاً وبيوته وبجانب كل بيت حوض من رخام وجعل لتلك السباع سياساً يقومون بما تحتاج اليه من الطعام والشراب والتنظيف وكان من جملة

هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق قد انس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لايؤذي احداً ويقام له بوظيفته من الغذاء في كل يوم . فاذا نصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديه يلتقط مايرميه اليه من فضلاتها . فاذا نام جاء زريق ليحرسه فان كان قد نام على سرير ربض بين يدى السرير واذا كان على الارض فبجانبه لايغفل عن ذلك لحظة واحدة

واتسعت ايضاً اصطبلات خمارويه فعمل لكل صنف من الدواب اصطبلاً مفرداً وعمل للخورداراً مفردة ومثل ذلك للفهود وللفيلة والزرافات كل ذلك سوى الاصطبلات التي في الجيزة . وكان له ايضاً بمصر اصطبلات تنتج فيها الخيل لحلبة السباق وللرباط في سبيل الله برسم الغزو . وبلغت مرتبات الجيش في ايامه تسعماية الف دينار في كل سنة . وكانت حلبة السباق في ايامهم تقوم مقام الاعياد لكثرة الزينة وركوب سائر العساكر والغلمان على كثرتهم بالسلاح التام والعدة الكاملة فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون للاعياد وكان له معرض للخيل فريد

وقد تقدم ان خمارويه قتل اخاه وكان ذلك بايعاز ابي عبد الله قائد جنود الشام ثم خاف ابو عبدالله ان يعود خمارويه الى الانتقام منه اذ يندم على قتل اخيه فعمد الى المكيدة فكاتب الموفق يقول له « ان هذا الغلام خمارويه لايفهم من امور الاحكام الا انها وسيلة للتمتع بالملاهي » وكتب اليه غير ذلك مما شوق الموفق الى الاستيلاء على مصر . واخذت العداوة تنمو بينهما من ذلك الحين . وفي سنة ٢٧١ هـ حصلت واقعة عظيمة بين احمد ابن الموفق الملقب بالمعتضد بالله وخمارويه تدعى واقعة الطواحين

واقعة الطواحين

وتفصيل واقعة الطواحين ان احمد بن الموفق لولا ماكان في قلبه من البغض لخمارويه لم يستول على دمشق لان ابا عبد الله سلمه اياها بدون حرب . فلما علم خمارويه بذلك جرد جيشه قاصداً استرجاعها حتى بلغ الرملة ومعه سعيد الايسر قائد الجنود المصرية العام فبلغ ذلك المعتضد بالله فسار من دمشق نحو الرملة الى عساكر خمارويه فاتاه الخبر بوصول خمارويه الى عساكره وكثرة من معه من الجموع فهم بالعود فلم يمكنه اصحاب خمارويه الذين صاروا معه . وكان المعتضد قد اوحش ابن كنداج وابن ابي الساج ونسبها الى الجبن حيث انتظراه ليصل اليهما ففسدت نياتهما معه . ولما وصل خمارويه الى الرملة نزل على الماء الذي عليه الطواحين فملكه فنسبت الواقعة اليه . ثم وصل المعتضد وقد عبى اصحابه وكذلك ايضاً فعل

خمارويه وجعل له كميناً عليهم سعيد الايسر. فحملت ميسرة المعتضد على ميمنة خمارويه فانهزمت. فلما راى ذلك خمارويه ولم يكن راى مثله قبله ولى منهزماً في نفر من الاحداث الذين لاعلم لهم بالحرب ولم يقف دون مصر فنزل المعتضد الى خيام خمارويه وهو لا يشك في تمام النصر. فخرج الذين عليهم سعيد الايسر وانضاف اليهم من بقي من جيش خمارويه ونادوا بشعارهم وحملوا على عسكر المعتضد وهم مشغولون بالنهب ووضع المصريون السيف فيهم فظن المعتضد ان خمارويه قد عاد فركب وانهزم ولم يلو على شيء. فوصل الى دمشق ولم يفتح له اهلها بابها فمضى منهزماً حتى بلغ طرسوس وبقي العسكران يتضاربان بالسيوف وليس لواحد منهما امير. فطلب سعيد الايسر خمارويه فلم يجده فاقام اخاه ابا العشائر وتمت الهزيمة على العراقيين وقتل منهم خلق كثير وقال سعيد للعساكر « ان هذا اخو صاحبكم وهذه الاموال تتفق فيكم » ووضع العطاء فاشتغل الجند عن الشغب بالاموال. وسير البشارة الى مصر ففرح خمارويه بالظفر وخجل للهزيمة غير انه اكثر الصدقة وفعل مع الاسرى فعلة لم يسبق الى مثلها قبله. فقال لاصحابه ان هؤلاء اضيافكم فاكرموهم ثم احضرهم بعد ذلك وقال لهم من اختار منكم القيام عندنا فله الاكرام والمواساة ومن اراد الرجوع جهزناه وسيرناه. فمنهم من اقام ومنهم من سار مكرماً وعادت عساكر خمارويه الى الشام ففتحتها اجمع فاستقر ملك خمارويه له. وهذه الواقعة كانت الاخيرة بين خمارويه والموفق ثم عادت الصلات الودية بين الاثنين وضربا النقود وعليها اسماهما واسم المعتمد في وقت واحد كما ترى في الشكل الاربعين

ش ٤٠ — نقود عليها اسماء المعتمد والموفق وخمارويه

وفي سنة ٢٧٨ هـ توفي الموفق وبايع قواده بولاية العهد لابنه المعتضد بعد المفوض ابن اخيه. وفي اول سنة ٢٧٩ هـ خلع المعتمد ولاية العهد عن ابنه المفوض وجعلها للمعتضد. وفي تلك السنة توفي الخليفة المعتمد على الله بعد ان حكم ٤٣ سنة فبويع ابن اخيه المعتضد بالله فاغتنم خمارويه الفرصة لتوطيد العلائق بينه وبين الخليفة الجديد فانفذ الحسين بن عبد الله المعروف بابن القصار وفداً الى بغداد ومعه الهدايا الثمينة يعلن الخليفة ان مصر ستؤدي الخراج وقدره مائتا الف دينار. وانها ستدفع ايضاً عن السنين الماضية ٣٠٠ الف دينار. فاجابه الخليفة بتثبيته في امارته لمدة ٣٠ سنة على ما كان تحت امارته او امارة ابيه وارسل اليه ايضاً الخلعة والسيف المختصين بهذا المنصب

فدفع خمارويه الدفعة الاولى تماماً لكنه تأخر بعد ذلك رويداً رويداً على انه لم يكن يغفل عن توطيد علائق المودة بينه وبين الخليفة فأرسل اليه وفداً يعرض عليه زفاف ابنته قطر الندى لابن المعتضد فقبل الخليفة بان يكون الزفاف له . وحصل ذلك على اعجب سبيل فحملت قطر الندى الى المعتضد وذهبت معها عمتها العباسة بنت احمد بن طولون مشيعة لها الى آخر اعمال مصر من جهة الشام ونزلت هناك وضربت فساطيطها وبنيت هناك قرية فسميت باسمها وقيل لها العباسة

ولما استقر له السلام على هذه الصورة مع الخليفة جعل يوسع سلطانه فامر طغج ابن جف امير دمشق ان يتقدم بفرقة من عساكر طرسوس الى بلاد الروم . ففعل وحارب الروم واستولى على عدة مدن وعاد بالغنائم . وفي سنة ٢٨٢ هـ التي كانت زاهية بزفاف قطر الندى سودت بموت خمارويه مقتولاً في دمشق . وذلك انه نمي اليه ان بين بعض نسائه وبعض كبراء خدامه علائق حبية سرية فشق ذلك عليه فأخذ في تحقيق الامر وتأكيد الجرم على فاعله ومقاصته بما يقتضيه العدل فخشي هؤلاء من العقاب الشديد فاتفقوا مع نسائه على قتله لينجوا كلهم من شره فقتلوه على فراشه في ليلة من ليالي ذي الحجة من سنة ٢٨٢ هـ وقال آخرون في كيفية قتله غير ذلك . وبعد موته القي القبض على عشرين من الخدم الذين وقعت عليهم الشبهة بعد التحقيق تأكدت الجريمة على العشرين فحكم عليهم بالاعدام فنقلت جثة خمارويه الى مصر ودفنت بسفح المقطم بقرب جثة ابيه احمد . وكانت مدة حكمه ١٢ سنة و١٨ يوماً وكان من احسن الناس خطاً . وحال موته بويع ابنه جيش الملقب بأبي العساكر وهو صغير لم يبلغ رشده

جيش بن خمارويه

من سنة ٢٨٢ — ٢٨٣ هـ او من ٨٩٥ — ٨٩٦ م

وفي سنة ٢٨٣ هـ ابى طغج بن جف حاكم الشام مبايعة جيش على بلاده وبعد يسير ثارت الجيوش في مصر بدعوى انهم لا يقبلون موضع احمد بن طولون صبياً لم يبلغ رشده ولا يعرف شيئاً من امور الاحكام . وكان اذا ابدل رجلاً بآخر قالوا قد اختار من هو في سنه او على شاكلته . وبعد تسعة اشهر من حكمه ثار عليه الجميع وقتلوه ونهبوا قصره واحرقوا المدينة

هارون بن خمارويه

من سنة ٢٨٣ — ٢٩٢ هـ او من ٨٩٦ — ٩٠٤ م

واقام زعماء الثورة اخاه هارون مكانه . وقيل ان المعتضد ثبته على مصر لانه وعده بمال يحمله اليه مقداره مليون من الدنانير . وفي السنة المذكورة توفي لؤلؤ وهو الذي كان يسعى بين احمد بن طولون والموفق سعياً آل الى حرب بين الفريقين . وكان لؤلؤ قد ضم جيشه الى جيش الموفق في محاربة الزنج الا انه لم يأنه ذلك الضم بفائدة تذكر . ولما وصل احمد بن طولون الى الشام لم يستطع القبض على لؤلؤ نفسه فقبض على ما كان له في دمشق من الاهل وفيهن نساؤه واولاده وسراريه وباعهم في سوق الفسطاط . فلما بلغ ذلك لؤلؤاً اخذ منه الغيظ كل مأخذ فتوجه الى الموفق وطلب اليه ان يعطيه جنداً ليغزو به مصر ويمتلكها وينتقم من ابن طولون . وكان الموفق قد عقد صلحاً مع ابن طولون كما تقدم ولم يشأ ان يجيب لؤلؤاً سلباً فوعده بنيل مرغوبه وكرر الوعد مراراً وانما فعل الموفق ذلك على نية ان يستبقيه عنده لعله يحتاج الى مصالحة ابن طولون فيرسله اليه هدية . ولما توفي ابن طولون بقي لؤلؤ في خدمة الموفق ٣ سنوات واخيراً جرده من امواله وطرده من خدمته فاتى مصر حيث بيعت نساؤه واولاده وبقي فيها الى ان مات شر موتة

وفي سنة ٢٨٤ هـ اي بعد تنصيب هارون بسنة اخذ الاهلون ورجال الحكومة يقللون من الطاعة له ويحتقرون اوامره شيئاً فشيئاً حتى صاروا في استعداد كلي لنبذ الطاعة والمجاهرة بالعصيان . ورئيس هذه الثورة طغج بن جف صاحب الشام . وفي سنة ٢٨٥ هـ علم المعتضد بما كان من تقسيم بلاد هارون وكره الرعايا له فراى ان يغتنم الفرصة لاسترجاع تلك البلاد لسلطانه كما كانت في عهد اسلافه . فتقدم نحو آمد فبايعه حاكمها محمد بن احمد بن عيسى بن شيخ وكان مستقلاً بها ثم تقدم الى قنسرين وتملكها

فلما بلغ ذلك هارون اوجس خيفة ولم يعد يعلم ماذا يفعل وله من رعاياه اعداء ألداء فكاتب المعتضد انه مستعد لتسليمه البلاد التي هي قريبة من العصيان عليه وكتب ايضاً الى حكام قنسرين والعواصم جميعها ان يذعنوا لسلطة الخليفة المعتضد فقبل المعتضد تلك العطية بكل سرور فوضع يده على تلك الاماكن فبايعه اهلها

القرامطة

وفي سنة ٢٨٩ هـ زادت القلاقل التي كانت تهدد هارون بانتشار القرامطة في سوريا. ومنشأ هذه الطائفة بالبحرين سنة ٢٨١ هـ ويقال في كيفية ظهورها ان رجلاً يعرف بيحي بن المهدي قصد قطيف فنزل على رجل يعرف بعلي بن المعلي بن حمدان مولى الزياديين وكان يغالي في التشيع . فاظهر له يحي انه رسول المهدي وانه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى امره وان ظهوره قد قرب . فوجه علي بن المعلي الى الشيعة من اهل القطيف فجمعهم واقرأهم الكتاب الذي مع يحي بن المهدي اليهم من المهدي. فاجابوه انهم خارجون معه اذا ظهر امره . ووجه الى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فاجابوه وكان فيمن اجابه سعيد الجنابي وكان يبيع للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم . ثم غاب عنهم يحي بن المهدي مدة ثم رجع ومعه كتاب يزعم انه من المهدي الى شيعته ونصه «قد عرفني رسولي ابن المهدي مسارعتكم الى امري فليدفع اليه كل رجل منكم ستة دنانير وثلثين» ففعلوا ذلك ثم غاب عنهم وعاد ومعه كتاب مفاده ادفعوا الى يحي خمس اموالكم فدفعوا اليه الخمس . وكان يحي يتردد في قبائل قيس ويورد لهم كتباً ويزعم انها من المهدي وانه ظاهر فيكونون على اهبة . وصار امر هؤلاء ينتشر وعددهم يتعاظم حتى طمعوا بالغزو فبلغوا الشام واستفحل امرهم حتى حاربوا طغج صاحب دمشق وحاصروها سنة ٢٩٠ هـ فاجتمع اليها جميع قوات الشام وهاجموا القرامطة وشتتوهم بعد ان قتلوا شيخهم يحي

وفي سنة ٢٩٢ هـ كان على دست الخلافة العباسية الخليفة المكتفي بالله بن المعتضد فاحب ان ينفذ ماكان نواه سلفه في سوريا ومصر فانفذ جيشاً الى الشام تحت قيادة محمد ابن سليمان فتملكها حالاً وكانت له مباء ثم هجم على مصر فاخترقها حتى بلغ عاصمتها (الفسطاط) فاستعد هارون للمدافعة ورجاله ينقصون يوماً فيوماً لما كان يسير منهم الى صفوف الاعداء بعد كل وقعة . ولم يكن ذلك منتهى الشقاء فان معسكر هارون نفسه كان مرسحاً تتلاعب فيه الدسائس ويغلي فيه الخصام بين رجاله . واشتد القتال بينهم يوماً فركب هارون جواده واخذ في ردهم بعضهم عن بعض فاصيب بطعنة من احد المغاربة فسقط ميتاً في ١٨ صفر سنة ٢٩٢ هـ وكانت مدة حكم هارون ٩ سنوات كلها تعاسة وشقاء ويقال ان عمه شيبان هو الذي قتله

شيبان بن أحمد

من سنة ٢٩٢ — ٢٩٢ هـ او من ٩٠٤ — ٩٠٤ م

وانقضاء الدولة الطولونية

وفي يوم موته اقيم عمه شيبان مكانه الا انه لم يهنأ بالحكم لان الناس رفضوه بصوت واحد وخابروا محمد بن سليمان ان يعطيهم الامان فأمنهم ثم حرضوه على المسير الى مصر فسار حتى نزل الباسة فلقيه طغج في اناس من القواد كثيرين فساروا به الى الفسطاط واقبل اليهم عامة اصحاب شيبان

ولما راي شيبان اصرارهم على ذلك ولم يبق لديه احد ممن يعتمد عليهم وافقهم على التسليم فاستلم محمد بن سليمان زمام الامور فاعطاهم الامان فبايعوه . اما شيبان فلم يكن بأمن من سكناه في مدينة اقام فيها مغتصبها منه ففر من العسكر ليلاً فبعث محمد بن سليمان من يقبض عليه فلم يظفر به وقال آخرون انه لم يفر ولكنه قتل جزاء قتله هارون بعد عشرة ايام من قتله . وهكذا انتهت الدولة الطولونية بعد ان حكمت ٣٧ سنة وبضعة اشهر

ويوم الخميس اول ربيع اول من تلك السنة التي محمد بن سليمان النار في القطائع ونهب اصحابه الفسطاط وكسروا السجون واخرجوا من فيها وهجموا على الدور واستباحوا وهتكوا وفعلوا كل قبيح من اخراج الناس من دورهم وغير ذلك . واخرجوا ولد احمد بن طولون وهم عشرون انساناً واخرجوا قوادهم ولم يبق في مصر منهم احد يذكر . وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الايام . ثم سيق اصحاب شيبان الى محمد بن سليمان وهو راكب فذبحوا بين يديه كما تذبح الشياه . وقتل من السودان سكان القطائع خلق كثير وهكذا بادت دولة بني طولون فرثتهم الشعراء والكتباء . وقد وقفنا على قصائد لكثير من الشعراء المعاصرين للدولة المذكورة يرثونها بها ويبالغون في الاسف عليها منهم احمد بن محمد الحبيشي واحمد بن يعقوب واسماعيل ابن ابي هاشم وسعيد بن القاضي واحمد بن اسحاق الجفر ومحمد بن طسويه وغيرهم . فما قاله سعيد بن القاضي من قصيدة طويلة قد مر بعضها قوله

جرى دمعهُ ما بين سحرٍ الى نحرِ ولم يجر حتى اسلمتهُ يد الصبرِ
وهل يستطيع الصبر من كان ذا اسى يبيت على جمر ويضحى على جمرِ

تتابع احداث يضيعن صبره وغدر من الايام والدهر ذو غدر
اصاب على رغم الانوف وجدعها ذوي الدين والدنيا بقاصمة الظهر
وفقد بني طولون في كل موطن امرٌ على الاسلام فقداً من القطر
وكان ابو العباس احمد ماجداً جميل المحيا لا يبيت على وتر
كأن ليالي الدهر كانت لحسنها واشراقها في عصره ليلة القدر
يدلُّ على فضل ابن طولون همة محلقة بين السماكين والغفر
فان كنت تبغي شاهداً ذا عدالة يخبر عنه بالجليّ من الامر
فبالجبل الغربي خطة يشكر له مسجد يغني عن المنطق الهذر
وتنّور فرعون الذي فوق قلة على جبل عالٍ على شاهق وعر
بنى مسجداً فيه يروق بناؤه ويهدي به في الليل ان ضلّ من يسري
وعين معين الشرب عين زكيةٌ وعين اجاج للرواة وللطهر
بناه لو ان الجن جاءت بمثله لقيل لقد جاءت بمستفظع نكر
ولا تنسَ مارستانه واتساعه وتوسعة الارزاق للحول والشهر
وان جئت رأس الجسر فانظر تأملاً الى الحصن او فاعبر اليه على الجسر
ترى اثراً لم يبقَ من يستطيعه من الناس في بدو البلاد ولا حضر
وقام ابو الجيش ابنه بعد موته كما قام ليث الغاب في الاسل السمر
انته المنايا وهو في امن داره فاصبح مسلوباً من النهي والامر
وورّث هارون ابنه تاج ملكه وقد كان جيش قبله في محله ولكن جيشاً كان مستقصر العمر
فقام بامر الملك هارون مدة على كظظ من ضيق باع ومن حصر
وما زال حتى زال والدهر كاشحٌ عقاربه من كل ناحية تسري
فمن يبكِ شيئاً ضاع من بعد اهله لفقدهم فليبك حزناً على مصر
ليبكِ بني طولون اذ بان عصرهم فبورك من دهر وبورك من عصر

اما القرامطة فاغتنموا غياب الجيوش لمحاربة مصر وعادوا الى ما كانوا عليه في سوريا فعلم محمد بن سليمان بذلك فسافر الى بغداد مستخلفاً في مصر حاميتها وجيش الخليفة. الا ان الامور لم تكن قد سكنت تماماً فثار ابن قلندج وضم اليه عصبة سببت اضطراب الراحة فاستدركها ابن كيغلغ حاكم سوريا فترك دمشق ومعه جيش الخليفة الذي كان

تحت قيادته وجاء لاخماد ثورة مصر فاغتنم القرامطة فرصة اخرى واستولوا على دمشق وتقدموا الى طبريا فنهبوها ولكنهم لم يتجاوزوها مخافة ان تلاقيهم الجيوش التي كانت في مصر فعادوا قاصدين الكوفة وكان هناك من المواقع ما لا علاقة له بهذا التاريخ

الدولة العباسية للمرة الثانية

من سنة ٢٩٢ — ٣٢٣ هـ او من ٩٠٥ — ٩٣٤ م

خلافة المكتفي بن المعتضد

من ٢٩٢ — ٢٩٥ هـ او من ٩٠٥ — ٩٠٨ م

فعادت مصر الى سلطة الدولة العباسية في خلافة المكتفي فاقام عليها عيسى النوشري . وبعد ٣ سنوات توفي المكتفي يوم الاثنين في ١٣ ذي القعدة سنة ٢٩٥ هـ وعمره ٣١ سنة و٣ اشهر بعد ان حكم ٦ سنوات و٧ اشهر و٢٢ يوماً

خلافة المقتدر بن المعتضد

من ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ او ٩٠٨ — ٩٣٢ م

وفي يوم وفاة المكتفي بويع اخوه جعفر المقتدر بالله وعمره ١٣ سنة . فلم يحدث في الامارات تغييراً يذكر فاقر عيسى النوشري على مصر . على ان هذا اضطر بعد حين ان يتخلى عنها لمحمد بن الخليج ولم يلبث بضعة اشهر حتى اقتضت الاحوال اعادة النوشري فعاد فتولاها نحو ٣ سنوات وفي شعبان سنة ٢٩٧ هـ توفي فابدل بتكين الخزري الذي منصور وبقي الى سنة ٣٠٢ هـ فأقيل واقيم مقامه زكا الرومي ابو حسن الاعور . تولى مصر خمس سنوات ومات في ربيع الاول سنة ٣٠٧ هـ فأعيد تكين ثانية . وبعد

ايام توفي تكين تاركاً ولداً يدعى محمداً . وهذا وضع يده على حكومة مصر بدون اذن الخليفة . اما الخليفة المقتدر فقتل في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ هـ وعمره ٣٨ سنة بعد ان حكم ٢٤ سنة و ١١ شهر و ١٦ يوماً

خلافة القاهر بن المعتضد

من ٣٢٠ — ٣٢٢ هـ او من ٩٣٢ — ٩٣٤ م

فبويع اخوه القاهر بالله الابن الثالث للمعتضد بالله . فاراد هذا ان يقاصّ محمد بن تكين على جسارته فولى على مصر ابا بكر محمد بن طغج ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر وسوريا مدة من الزمن عرفت بالدولة الاخشيدية

مبدأ الدولة الاخشيدية

وكان ابو بكر محمد ابن طغج في ذلك الحين حاكماً في دمشق واصله من اولاد ملوك فرغانة . وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جاب اليه من فرغانة جماعة من اقوياء الرجال ووصفوا له جف (جد ابي بكر محمد) وغيره بالشجاعة والتقدم بالحروب فوجه المعتصم من احضرهم . فلما وصلوا اليه بالغ في اكرامهم واقطعهم قطائع في سامرّا وفي جملتها قطائع جف فاقام جف في سامرّا (او سر من رأى) وجاءته الاولاد وتوفي في بغداد في الليلة التي قتل فيها المتوكل الاربعاء في ٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ وخرج اولاده الى البلاد يتصرفون ويطلبون لهم معائش . واتصل طغج بن جف بلؤلؤ غلام ابن طولون وهو اذ ذاك مقيم بديار مضر (في ما بين النهرين) فاستخدمه على ديار مضر ثم انحاز طغج الى جملة اصحاب اسحق بن كنداج . فلم يزل معه الى ان مات احمد بن طولون وجرى الصلح بين ابنه خمارويه وبين اسحق بن كنداج . ونظر ابو الجيش خمارويه الى طغج بن جف في جملة اصحاب اسحق فاعجب به واخذه من اسحق وقدمه على جميع من معه وقلده دمشق وطبرية ولم يزل معه الى ان قتل ابو الجيش فرجع طغج الى الخليفة المكتفي بالله فخلع عليه وعرف له ذلك وكان وزير الخليفة يومئذ العباس بن الحسن فسام طغج ان يجري بالتزلف مجرى غيره

فكبرت نفس طغج عن ذلك فاغرى به المكتفي فقبض عليه وحبسه وابنه ابا بكر محمد ابن طغج المذكور فمات في السجن وبقي ولده ابو بكر معه محبوساً مدة ثم اطلق وخلع عليه . ولم يراسل العباس بن الحسن الوزير المذكور حتى اخذ بثار ابيه هو واخوه عبيد الله في الوقت الذي قتله فيه حسين بن احمد بن حمدان

وخرج ابو بكر واخوه عبيد الله في سنة ٢٩٦ هـ وهرب عبيد الله الى ابن ابي الساج . وهرب ابو بكر الى الشام واقام متغرباً بالبادية سنة ثم اتصل بابي منصور تكين الخزري فكان اكبر اركانه. ومما كبر به اسمه سريته في البعث الى الجمع الذين تجمعوا على الحجاج لقطع الطريق عليهم سنة ٣٠٦ هـ وهو حينئذ يتقلد عمان وجبل الشراة من قبل تكين المذكور وظفر بهم ونجا الحجاج وقد فرغ من امرهم بقتل من قتله واسر من اسره وشرد الباقين . وكان قد حج في هذه السنة من دار الخليفة المقتدر بالله امراة تعرف بعجوز فحدثت المقتدر بالله بما شاهدت فانفذ اليه خلعاً وزاده في رزقه . ولم يزل ابو بكر في صحبة تكين الى سنة ٣١٦ هـ ثم فارقه بسبب اقتضى ذلك وسار الى الرملة فوردت كتب المقتدر اليه بولاية الرملة فاقام بها الى سنة ٣١٨ هـ فوردت كتب المقتدر اليه بولاية دمشق وسار اليها ولم يزل بها الى ان ولاه القاهر بالله ولاية مصر في رمضان سنة ٣٢١ هـ لكنه لم يذهب الى مصر لاستلام المنصب المشار اليه ولم يلقب به الا مدة شهر فقط . ثم عين الخليفة مكانه احمد بن كيغلغ سنة ٣٢١ هـ وحصل في تلك الايام اضطرابات في الخلافة بلغ صداها القطر المصري

خلافة الراضي بن المقتدر

من سنة ٣٢٢ — ٣٢٣ هـ اومن ٩٣٤ — ٩٣٤م

وفي ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢هـ عزل القاهر بالله عن دست الخلافة بعد ان حكم سنة و٦ اشهر وستة ايام وفي اليوم الثاني بويع ابن اخيه الراضي بالله بن المقتدر وحال توليته الخلافة عزل ابن كيغلغ عن مصر وولى مكانه محمد بن طغج فقدم لاستلام الامارة فامتنع ابن كيغلغ من تسليمه وتخاصما حتى عمدا الى السلاح وبعد محاربات شديدة كان الفوز لمحمد بن طغج وفر احمد بن كيغلغ بمن معه من ذويه الى برقة ومنها الى القيروان

مبدا الدولة الفاطمية

وكانت القيروان وسواحل الغرب تحت سلطة دولة مستقلة عن العباسيين تدعي الدولة الفاطمية نسبة الى الفاطميين وهم من كتامة بالقرب من فاس في الطرف الغربي من افريقية ويدعون انهم من سلالة اسماعيل الامام السادس من سبط علي وبعبارة اخرى من سلالة فاطمة ابنة النبي ومنها لقبهم . ويلقبون ايضاً بالاسماعيليين والعبيديين والعلويين وكانوا قد اخذوا في نشر سلطتهم منذ سنة ٢٦٩ هـ في شمالي افريقيا وغربيها في احزاب من الاغالبة والادريسيين كانوا قد خلعوا طاعة الخلفاء العباسيين في بغداد وخلفاء بني امية في الاندلس

وفي سنة ٢٨٠ هـ استولى زعيم الفاطميين ابو محمد عبيد الله على القيروان . وفي سنة ٢٩٦ هـ راى من نفسه القوة فادعى الخلافة فبويع ولقب بالخليفة عبيدالله المهدي وانه آخر الائمة العلويين الذي يدعي انه منهم وانه احق من سواه بالخلافة . فاصبحت الدولة الاسلامية بذلك منقسمة الى ثلاث دول على كل منها خليفة يدعي الاحقية بالخلافة وهم بنو امية في الاندلس وبنو العباس في بغداد والفاطميون في القيروان . فلما سمع عبيد الله المهدي زعيم الفاطميين عن حالة مصر مع ما هي عليه من الثروة والخصب تاقت نفسه اليها واخذ يسعى في الاستيلاء عليها

وبعد خلافته بخمس سنوات اي في سنة ٣٠١ هـ بعث الى مصر اربعين الف مقاتل في ٣ فرق مع الرجاء الوطيد بفوزها . فعلم الخليفة المقتدر بالله بما نواه المهدي فجهز جيشاً لدفع هذه الرزيئة عن مصر فجرت بين الفريقين وقائع عديدة شفت عن فوز الجيوش المصرية . فعاد الفاطميون على اعقابهم وطاردهم المصريون حتى اخرجوهم من حدود مصر . فراى عبيد الله بعد هذا الفرار ان يؤجل افتتاح مصر لوقت آخر ولكنه راى ايضاً حصونه غير كافية فاسس مدينة دعاها المهدية نسبة اليه على ان تكون عاصمة وقتية ريثما يفتح مصر فيجعل عاصمتها عاصمته . لانه كان مصمماً على افتتاحها الا ان ذلك الافتتاح لم يتيسر لعبيد الله ولا لخلفه الاول ولا الثاني . وفي سنة ٣٢٢ هـ توفي عبيد الله المهدي وسنه ٦٣ سنة بعد ان تولى الخلافة الفاطمية ٢٦ سنة فتولى ابنه ابو القاسم محمد الملقب بالقايم بامر الله وكان اكثر تشوقاً للافتتاح من ابيه

وفي ايام القائم هذا جاء احمد بن كيغلغ مطروداً من مصر يطلب ملجأ عنده وجعل يحثه على المسير الى مصر وافتتاحها فراى القائم ان في افتتاحها عظمة وفخراً فجهز اليها علم محمد بن طغج ذلك فحصن الحدود الغربية لمصر وجعل فيها حامية قوية . لكن ذلك

لم يمنع من نزول القضاء لان الفاطميين فتحوا الاسكندرية وبعد ان مكنوا قدمهم فيها تقدموا بجيوشهم حتى دخلوا الفسطاط واحتلوا قسما كبيراً من الصعيد . ثم راى القايم بامر الله ان جنده لايقوون على افتتاح العاصمة فاجل ذلك ريثما تضعف شوكة الدولة العباسية اكثر من ضعفها اذ ذاك فيسهل عليه افتتاحها

اما الدولة العباسية فكانت في غاية الضعف لان اماراتها اخذت تستقل عنها شيئاً فشيئاً . فاستولى القرامطة على سوريا وقسم من جزيرة العرب والسامانيون على خراسان والامويون على الاندلس والفاطميون على افريقيا والحمدانيون على مابين النهرين وديار بكر وبنو بويه على بلاد فارس ولم يبق للعباسيين الا بغداد وبعض ضواحيها ومصر

الدولة الاخشيدية

من سنة ٣٢٣ — ٣٥٨ هـ او من ٩٣٤ — ٩٦٨ م

محمد الاخشيد

من سنة ٣٢٣ — ٣٣٤ هـ او من ٩٣٤ — ٩٤٦ م

فلما رأى ابو بكر محمد بن طغج امير مصر ما كان من انحلال الدولة العباسية وانقسام الدولة الاسلامية على نفسها تقدم طلب نصيبه من تلك القسمة فصرح باستقلاله في مصر سنة ٣٢٤ هـ فاضطر الخليفة الى تثبيته وملكه فوق ذلك سوريا مع انها لم تكن بيده . وفي سنة ٣٢٦ هـ لقبه بالاخشيد وكان ذلك لقب ملوك فرغانة وهو من اولادهم ومفاد هذه اللفظة عندهم ملك الملوك وكان كل من ملك فرغانة لقبوه بالاخشيد كما يلقب الفرس ملكهم بكسرى والروم قيصر والترك خاقان واليمن تبع والحبشة النجاشي الخ . ومن سلالة ابي بكر هذا جاءت الدولة الاخشيدية . وفي تلك السنة امر الاخشيد بنقل دار الصناعة من الجيزة الى ساحل النيل فنقلت

وفي سنة ٣٢٨ هـ اعطى الخليفة الراضي بالله لقب امير الامراء لمحمد بن رائق صاحب فلسطين وكان مستقلاً عنه . فلاح له ان يغزو الشام وعليها الامير بدر بن عبد الله الاخشيدي من قبل الاخشيد فحاربه فهرب بدر فنهض محمد الاخشيد لانجاده مستخلفاً

في مصر اخاه الحسن وعسكر في الفرما وكانت جيوش محمد بن رائق قد بلغت الى هناك فتوسط بعض الامراء في الامر فانصرفت النازلة بالتي هي احسن وتصالحا . فعاد محمد الاخشيد الى الفسطاط وما بلغها حتى انبيء ان محمد بن رائق برح دمشق وفي نيته ان يهاجم مصر . فاسرع الاخشيد حالاً الى ما كان عليه فعاد بجيشه الى الشام فالتقى بمقدمة جيش ابن رائق في العريش فحصلت واقعة شفت عن انهزام جيش محمد بن رائق الى دمشق . فوضع محمد الاخشيد يده على الرملة واسر خمسمائة رجل من جيش ابن رائق وفي هذه الواقعة قتل حسين اخو الاخشيد . فما كان من ابن رائق مع ما كان بينه وبين الاخشيد من العدوان الا انه انفذ اليه ابنه مزاحماً ومعه كتاب يعزي الاخشيد فيه على فقد اخيه ويعتذر مما جرى ويحلف انه ما اراد قتله وانه قد انفذ ابنه ليفديه به ان احب ذلك . فلما بلغ مزاحم محمداً الاخشيد اكرم مثواه وخلع عليه واصطلحا على ان تكون البلاد من الرملة الى حدود مصر للاخشيد وباقي الشام لمحمد بن رائق ويحمل الى الاخشيد عن الرملة ١٤٠٠٠٠ دينار كل سنة . وبعد ان اتم محمد الاخشيد هذه المعاهدة عاد بجيشه الى مصر سنة ٣٢٩ هـ

وفي ٦ ربيع اول من هذه السنة توفي الخليفة الراضي بالله وعمره ٣٢ سنة وشهور ومدة حكمه ست سنوات وعشرة اشهر وعشرة ايام فبويع اخوه ابو اسحاق ابراهيم الملقب بالمتقي لله

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد الخليفة الراضي بالله سنة ٣٢٨ هـ كما ترى في شكل ٤١

ش ٤١ — نقود الراضي بالله

وفي سنة ٣٣٠ هـ اقر المتقي لله محمد الاخشيد على مصر . ثم اتصل بمحمد الاخشيد ان محمد بن رائق قتله الحمدانيون فنهض لاسترجاع البلاد التي كان اقام بينه وبين رائق المعاهدة عليها فدخل الشام مسرعاً ولم يعد الى مصر حتى استولى على دمشق وما جاورها . وسنة ٣٣١ هـ تأكد محمد الاخشيد ثبوت قوته فأوصى بالحكم من بعده لابنه ابي القاسم محمود الملقب بانوجور

وفي سنة ٣٣٢ هـ حصل شغب في بغداد وسببه ان لقب امير الامراء الذي كان يخلع من الخليفة لكبار الاتراك اصبح في نظرهم اشرف من الخلافة فناله توزون وجعل يخلع

الخليفة في احكامه حتى اضطر الخليفة الى ترك بغداد وهاجر الى الموصل. فاستجار هناك ناصر الدولة وسيف الدولة من بني حمدان واستنصرهما فنصراه وجردا جيشاً قوياً وسارا ومعهما الخليفة الى بغداد فهاجموا توزون فغلبهم وعادوا على اعقابهم الى الموصل فخلع الخليفة على كل من الاميرين الحمدانيين خلعة الشرف وهي غاية ماكان للخلفاء ان يهبوه في ذلك العهد . ثم سار الخليفة من الموصل الى الرقة فلاقاه كتاب توزون يدعوه للعود الى بغداد . فلما رأى الخليفة ان نصراءه من بني حمدان عجزوا عن نجدته لاح له قبول ما دعاه اليه توزون وقبل ان يهم بذلك جاءه محمد الاخشيد من مصر يدعوه اليها مباء له فرفض فألح عليه الاخشيد وعاهده ان يقوم بكل مايحتاج الخليفة اليه من النفقات والارزاق بشرط ان لايعود الى بغداد ويلقي نفسه بين ايدي توزون . فتردد الخليفة بين الامرين . فلما رأى توزون المذكور تمنع الخليفة عن القدوم الى بغداد خشي ان يكون على ثقة ممن ينصره عليه فجاءه بنفسه وترامى على قدميه والح عليه ان يتوجه معه الى بغداد زاعماً انه لايعرف احداً غيره خليفة على المسلمين . فسار معه ولم يكد يبلغ تكريت العاصمة حتى خلعه في ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ هـ بعد ان حكم ٤ سنوات و١١ شهراً وولى مكانه ابا القاسم عبد الله بن المكتفي ولقب بالمستكفي بالله . وفي ٢٢ جمادى الثانية سنة ٣٣٤ هـ عزل المستكفي بعد ان حكم سنة و٤ اشهر ويومين . فبويع مكانه الفضل ابن المقتدر ولقب المطيع لله وبقي هذا على دست الخلافة ٣٠ سنة وهو آخر من كانت له السيادة على مصر من الخلفاء العباسيين

ش ٤٢ — نقود الخليفة المطيع لله

وهذه صورة النقود التي ضربت على عهد الخليفة المطيع لله سنة ٣٥٣ هـ كما ترى في شكل ٤٢

اما محمد الاخشيد فلما رأى الخليفة المتقي ميالاً الى مطاوعة توزون في المسير الى بغداد مكث في دمشق بضعة ايام ثم عاد الى مصر . فسار سيف الدولة الى حلب وكان استولى عليها يانس المونسي من قبل الاخشيد فحاربه فاستولى عليها . ثم سار متعقباً ابراهيم بن كيغلغ وكيلي قائد الجيوش المصرية وغلبه بين سرمين والمعرة واستولى على دمشق وكانت في ذلك العهد في حكم محمد الاخشيد. فارسل محمد الاخشيد في الحال كافوراً الى الشام وكان من مواليه وله فيه الثقة التامة وارسل معه جيشاً كبيراً

وكان كافور عبداً اسود خصياً مثقوب الشفة السفلى بطيناً قبيح القدمين معتل البدن

جلب الى مصر وعمره عشر سنين فما فوقها في سنة ٣١٠ هـ فباعه الذي جلبه لمحمد بن هاشم احد المتقبلين للضياع . فباعه لابن عباس الكاتب واتفق ان ابن عباس الكاتب ارسله يوماً الى الامير ابي بكر محمد بن طغج الاخشيد وهو يومئذ احد قواد تكين امير مصر فأخذ كافوراً وردَّ الهدية فترقى عنده بالخدمة حتى صار من اخص خدمه . فلم يكن باسرع من ورود الخبر من دمشق بان سيف الدولة علي بن حمدان اخذها وسار الى الرملة حتى خرج لملاقاته فالتقى الجيشان يوم الجمعة فاعتذر بنو حمدان انهم لا يحاربون في هذا اليوم المبارك فتركوا معسكرهم وساروا يطوفون في الخلاء المجاور فهجم كافور على معسكرهم وسلب مؤنهم ففر سيف الدولة الى حمص فتبعه كافور فسار الى حماه ومنها الى رستو فتبعه كافور وكان سيف الدولة في انتظاره هناك بقدم ثابتة فلما قدم جيش كافور وجد بينه وبين العدو نهر العاصي فاضطر الى عبوره بجيشه فاغتنم سيف الدولة فرصة في غاية المناسبة والعساكر المصرية سابحة في الماء وهجم عليهم فأخذ منهم خمسة آلاف اسير وجميع امتعتهم وفرَّ كافور الى حمص ومنها الى دمشق

فلما بلغ ذلك محمد الاخشيد سار من مصر بجيش كبير حتى اتى العرة . فعلم سيف الدولة بمجيء الجيوش المصرية بقيادة الاخشيد فهاله الامر ولكنه لم يشأ الفرار فعزم على ان يهاجم العدو مهاجمة اليأس . فارسل خزائنه وعبيده وحرمه الى ما بين النهرين وتقدم بجيشه لمقابلة الاخشيد فالتقيا في قنسرين فقسم محمد الاخشيد جيشه الى فرقتين جعل الرماحة الى الامام وسار هو في عشرة الاف رجل من نخبة الرجال الى الوراء . فهاجم سيف الدولة الفرقة الامامية وشتتها اما فرقة الاخشيد فكانت راسخة القدم فلم يقدر سيف الدولة على تشتيتها تماماً لكنه استولى على بعض متاعها . فافترق الجيشان ولم تدنه الغلبة لاحدهما . وسار سيف الدولة الى منبج فعبر بحيرتها قاصداً ما بين النهرين . فمرض في الرقة وكانت جيوش محمد الاخشيد هناك ويفصل الجيشين نهر الفرات وبقيا عدة ايام بدون حرب . ثم اصطلحا على ان تكون حمص وحلب وما بين النهرين لسيف الدولة ومن حدود حمص الى حدود بلاد العرب تبقى لمحمد الاخشيد . وحفروا خندقاً بين جوشنا ولبوه حدّاً فاصلاً بين المقاطعتين حيث لا يوجد لها حدود طبيعية . وتأييداً لهذا الصلح تزوج سيف الدولة ابنة محمد الاخشيد وعاد كل منهما الى بلاده . الا ان المصالحة المذكورة لم تلبث حتى نقضت وحصل بين الاخشيد وبني حمدان مواقع آلت الى استرجاع حلب للاخشيد

وفي سنة ٣٣٤ هـ توفي محمد الاخشيد في دمشق في ذي الحجة وعمره ستون سنة ومدة حكمه ١١ سنة و٣ اشهر ويومان ودفن في القدس الشريف . وكان ممتازاً بصفات حميدة اخصها البسالة والتدبير في الحرب فكان ملكاً حازماً شجاعاً كثير التيقظ في حروبه ومصالح دولته حسن التدبير مكرماً للجند شديد العضل لا يكاد يجر غيره نوسه . وكان له ثمانية آلاف مملوك يحرسه في كل ليلة الفان منهم ويوكل بجانب خيمته لخدم اذا سافر ثم لايثق حتى يمضي الى خيم الفراشين . وكان لا ينام ليلتين متواليتين في مكان واحد فلم يكن احد يعلم بمكان نومه . على ان المؤرخين لم يطلعونا على شيء صريح عن حدود مملكته باختلاف الازمان وان قالوا انها نحو المملكة الطولونية في زمانها اي انها تشمل مصر وفلسطين وسوريا الى الفرات وقسماً كبيراً من بلاد العرب . وقد شكى المسيحيون من جوره . فكان اذا جرد حملة واحتاج لاعانة اخذها منهم ولو باعوا اثاث بيوتهم اوكنائسهم في سبيل ذلك . وقال احد المؤرخين المعاصرين ان محمد الاخشيد كان يرد لهم مايأخذه في سبيل الاعانة. ومما يبرئ ساحة الاخشيد انه عثر بمخبأة في بعض الآثار القديمة اصاب فيها اشياء تساوي مبالغ وافرة فلم يكن والحالة هذه في حاجة الى سلب مال الاهلين

وهذه صورة النقود التي ضربت في عهد محمد الاخشيد سنة ٣٣٢ هـ كما ترى في الشكل ٤٣

ش ٤٣ — نقود محمد الاخشيد

انوجور بن الاخشيد

من ٣٣٤ — ٣٤٩ هـ او من ٩٤٦ — ٩٦١ م

وتولى بعد محمد الاخشيد ابنه ابو القسم محمد الملقب بانوجور . وكان صغير السن ضعيف الرأي فعهد بتدبير الاحكام الى كافور وزير ابيه . وكان كافور يعمل لابي القسم بهمة ونشاط يستوجب عليها المدح . فعزل ابا بكر محمداً جابي الخراج لتعدد التشكيات عليه واقام مقامه رجلاً من ماردين يقال له محمد كان عفيفاً مستقيماً . فعلم سيف الدولة بوفاة محمد الاخشيد وسفر ابنه الى مصر فشخص هو الى دمشق

واستولى عليها . واسرع كافور بجيش عظيم فلاقى سيف الدولة في الرملة قادماً من دمشق والتحم الفريقان فانهزم سيف الدولة الى الرقة واستولى كافور على دمشق قبل ان يستقر سيف الدولة فيها

وفي سنة ٣٤٥ هـ اغار ملك النوبة على مصر حتى اتى اصوان فارسل كافور جيشاً تحت قيادة محمد بن عبد الله الخازن عن طريق البر وانفذ عمارة بحرية في النيل وفرقة سارت في البحر الاحمر فنزلت على سواحله ومنها الى ما وراء النوبة لتسد على النوبيين السبيل . فتضايق النوبيون وفروا يطلبون النجاة تاركين حصنهم في ابريم (على ١٥٠ ميلاً وراء اصوان) في ايدي المصريين

وفي ذي القعدة سنة ٣٤٩ هـ توفي انوجور بن محمد الاخشيد بعد ان حكم ١٤ سنة وعشرة ايام وولي مكانه اخوه علي الملقب بابي الحسن

ابو الحسن علي بن الاخشيد

من ٣٤٩ — ٣٥٥ هـ او من ٩٦١ — ٩٦٦ م

وحكم ابو الحسن على مصر خمس سنين وشهرين ويومين وكان كافور مع علي كما كان مع اخيه انوجور . وفي سنة ٣٥١ هـ لم يرتفع ماء النيل الارتفاع اللازم للري . وكان في السنة التالية اقل ارتفاعاً ثم هبط بغتة والارض لم ترتو فحصل في مصر جوع شديد تعاقب القحط بعده ٩ سنوات رافقه اضطراب آل الى الانشقاق بين ابي الحسن وكافور

وفي اثناء هذه الاضطرابات الداخلية في سنة ٣٥٤ هـ قدم روم القسطنطينية تحت قيادة الامبراطور نيسوفورس فوكاس الى سوريا ودخلوها بجيش جرار فاستولوا حلب وكانت لاتزال الى ذلك الحين في حوزة بني حمدان والتقوا بسيف الدولة فحاربوه فتجند صاحب دمشق تحت رعاية الاخشيديين واسرع لمساعدة بني حمدان بعشرة آلاف رجل وعلم نيسوفورس بمجيء هذا المدد فاختار الرجوع

كافور الاخشيدي

من ٣٥٥ — ٣٥٧ هـ او من ٩٦٦ — ٩٦٨ م

وفي محرم سنة ٣٥٥ هـ توفي ابو الحسن علي فخلفه كافور وتلقب بالاخشيدي وطلب من الخليفة المطيع لله ان يثبته في مصر ففعل . وهكذا عادت سلطة العباسيين الى مصر . وكان يدعى لكافور على المنابر بمكة و الحجاز جميعه والديار المصرية وبلاد الشام من دمشق وحلب وانطاكية وطرسوس وغيرها

وبقي كافور في منصبه هذا سنتين و٤ اشهر . وكان الفاطميون قد استولوا على الفيوم والاسكندرية كما تقدم فاخذوا في مد سلطتهم رويداً رويداً الى سائر الصعيد . وتوفي كافور في ١٠ جمادى الاولى سنة ٣٥٧ هـ ودفن في القرافة الصغرى . وقبته معروفة هناك

احمد ابو الفوارس بن علي

من ٣٥٧ — ٣٥٨ هـ او من ٩٦٨ — ٩٦٩ م

خلف كافوراً احمد ابو الفوارس بن ابي الحسن علي بن محمد الاخشيد ولم يكن لابي الفوارس من العمر اكثر من احدى عشرة سنة فلم يثبته الخليفة في الحكم . اما سوريا وغيرها من البلاد الخاضعة للاخشيديين فبايعت حسيناً الاخشيدي الا انه ما لبث ان استتب له المقام حتى جاءه القرامطة واخذوا البلاد من يده ففرَّ الى مصر قاصداً اغتيالها من احمد ابي الفوارس

ولما انقسمت العائلة الاخشيدية على نفسها قرب حين انقراضها شأن الممالك والدول. فلما رأى رجال الدولة ما حصل من الانقسام بين اعضاء الاسرة الحاكمة ملوا الانتظار فساروا يستنجدون الفاطميين وكانوا قد تملكوا قسماً عظيماً من مصر فلبوا الدعوة ففرَّ حسين الى سوريا واستولى على دمشق . واما احمد ابو الفوارس فعزل من مركزه وهو آخر من تولى مصر من الدولة الاخشيدية وبعزله انتهت ايام هذه الدولة ولم يدم حكمها اكثر من ٣٤ سنة و٢٤ يوماً

الدولة الفاطمية

من سنة ٣٥٨ — ٥٦٧ هـ او من ٩٦٩ — ١١٧١ م

خلافة المعز لدين الله

من سنة ٣٥٨ — ٣٦٥ هـ او من ٩٦٩ — ٩٧٥ م

وكانت الدولة الفاطمية اذ ذاك في خلافة معد ابي تميم الملقب بالمعز لدين الله بن القائم بامر الله وقاعدتها المهدية وسلطتها منتشرة على افريقية (يراد بها شمالي افريقية من برقة الى مراكش) ومالطة وسردينيا وصقلية واكثر جزائر البحر المتوسط . وما فتئ هذا الخليفة منذ جلوسه على دست الخلافة يمد سطوته في القطر المصري وقد حاول افتتاحه غير مرة ولم يفز . حتى اذا كان الخلاف بين ابي الحسن علي وكافور تقدم . فلما تولى كافور على هذه الديار بنفسه توقف المعز قليلاً . وعند نهاية حكم كافور جرد جيشاً ارسله تحت قيادة جوهر

وجوهر هذا مملوك رومي رباه المعز لدين الله وكناه بابي الحسن وعظم محله عنده . وفي سنة ٣٤٧ هـ صار في رتبة الوزارة فصيره قائداً للجيوش وبعثه في صفر منها في جيش الى تاهرت فاوقع في عدة اقوام وافتتح مدناً وسار الى فاس فنازلها مدة ولم يأخذ منها شيئاً فرحل الى سجلماسة ومنها الى ان بلغ البحر المحيط (الاتلانتيكي) واصطاد منه سمكاً وجعله في قلة ماء وبعث به الى مولاه المعز واعلمه انه قد استولى على كل ما مر به من البلدان والامم حتى انتهى الى البحر المحيط . ثم عاد الى فاس والح عليها بالقتال حتى افتتحها عنوة . ثم عاد في اخريات هذه السنة وقد عظم شأنه وبعد صيته

ولما قوي المعز عزم على تسيير الجيوش لاخذ مصر وقد تهيأ امرها . فقدم القائد جوهر فبرز الى رمادة ومعه ما ينيف على مائة الف فارس وبين يديه اكثر من الف صندوق من المال وكان المعز يخرج اليه كل يوم ويخلو به ويتداول معه سرًّا واطلق يده في بيوت امواله فاخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه . ويحكى ان المعز خرج يوماً فقام جوهر بين يدية وقد اجتمع الجيش فالتفت المعز الى المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ولتدخلن مصر بالاردية من غير حرب ولتنزلن في خرابات ابن طولون وتبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا » وامر المعز بافراغ الذهب في هيئة الارحية وحملها مع جوهر على الجمال ظاهرة للعيان وامر اولاده واخوته الامراء وولي العهد وسائر اهل الدولة ان يمشوا في خدمة جوهر وهو راكب وكتب الى سائر عماله يأمرهم اذا قدم عليهم جوهر ان يترجلوا مشاة في خدمته . فلما قدم برقة اقتدى صاحبها ترجله ومشيه في ركابه بخمسين الف دينار ذهباً فابى جوهر الا ان يمشي في ركابه ورد المال فمشى

ولما رحل من القيروان الى مصر في ١٤ ربيع اول سنة ٣٥٨ هـ ودعه اهلها . ومما قاله محمد بن هانئ بهذا الشأن قوله :

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع ... وقد راعني يوم من الحشر اروع
غداة كأن الافق سدَّ بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم ادرِ اذ ودعت كيف اودع ... ولم ادر اذ شيعت كيف اشيع

ومنها قوله :

اذا حلَّ في ارض بناها مدائناً ... وان سار عن ارض غدت وهي بلقع
تحلُّ ببيوت العز حيث محلهُ ... وجم العطايا والرواق المرفع
رحلت الى الفسطاط اول رحلة ... بايمن فأل بالذي انت تجمع
فان يك في مصر ظماءٌ لمورد ... فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

فما زال جوهر في طريقه الى مصر برًّا حتى دخلها وسار نحو الصعيد واسرع جنوباً ليرد هجمات ملك النوبة الذي كان نازلاً نحو مصر ولم يدركه جيش جوهر حتى بلغ اصوان وقد نهبها وذبح اهلها واستعبد من بقي حياً وعاد الى بلاده . أما جوهر فكان قد تملك الصعيد كله

ولما توفي كافور ووقع الخلاف بين ابي الفوارس وحسين كان جوهر على حدود الفسطاط فاتاه الاهلون والامراء ومعهم الوزير جعفر وجماعة من الاعيان الى الجيزة

في يوم الثلاء ١٢ شعبان سنة ٣٥٨ هـ والتقوا بالقائد ونادى منادٍ فنزل الناس كلهم الا الشريف والوزير فترجلوا وساموا عليه واحداً فواحداً والوزير عن شماله والشريف عن يمينه . ولما فرغوا من السلام ابتدأو في دخول البلد من زوال الشمس وعليهم السلاح والعدد . ودخل جوهر بعد العصر وطبوله وبنوده بين يديه وعليه ثوب ديباج مثقل وتحته فرس اصفر ونزل في ماهو موضع القاهرة اليوم . ثم نزل الى الفسطاط بمن معه وخطب في جامع عمرو باسم المعز لدين الله وازال الشعار الاسود العباسي والبس الخطباء الثياب البيض فبايعه الناس . وبعد يسير اصبحت جميع البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية بدون مقاومة فكتب لمولاه المعز بما اتاه الله من الفتح

وفي يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة امر جوهر ان يزاد عقيب الخطبة « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . اللهم وصل على الائمة الطاهرين اباء المؤمنين » وفي ايامه صار يذكر بالآذان حي على خير العمل

فساد الاحكام في الدولة العباسية

وكانت الدولة العباسية لا تزال في قبضة المطيع لله وقد فسدت الامور وذهب نفوذ الخليفة واصبح النفوذ ضائعاً بين الوزراء والقواد وكلاهما لا يرجون من وراء عنايتهم وجهدهم منفعة لانفسهم غير مايكتسبونه من المال في اثناء نفوذ كلمتهم فاصبح الغرض الاول من تمشية الاحكام انما هو حشد المال . فالوزير الذي يتولى امور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام او عامين من عزل او قتل او حبس لا يهمه غير الكسب من اي طريق كان ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد عملاً بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهي قوله « ان تمشية امور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب » وانتبه الخلفاء الى مطامعهم فاصبحوا اذا عزلوا وزيراً صادروه واخذوا امواله . ثم عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية . واصبحت يتوالي الايام المصدر الرئيسي لتحصيل المال . فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم حتى انشأوا للمصادرة ديواناً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة

فلما فسدت الاحكام على هذه الصورة واستبد الوزراء والقواد اراد العمال في الولايات ان يجتزئوا من ذلك في ولاياتهم فاخذوا يستقلون فتشعبت المملكة العباسية

الى ممالك يحكمها الامراء من الفرس والاتراك والاكراد والعرب وغيرهم . ومنها ما جاءها للتغلب من الخارج ففتحها كما اصاب مصر لما فتحها الفاطميون . وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع من تاريخ التمدن الاسلامي

فلم يأل القائد جوهر جهداً في تثبيت قدم هذه الدولة في الديار المصرية وقد اخذ على عاتقه صلاتها وخراجها وكان قد هجرها النظام منذ داخل بهما الفساد وساد فيهما الخصام الناتج عن زيادة الضرائب وسوء الاحكام . فاخذ في تخفيض الضرائب وحفر الترع فارتوت الارض فزادت غلتها فشبع الزارع وربح التاجر فاستتب النظام وساد الامن وبلغ خراج مصر في السنة التي دخلها فيها جوهر ٣ ٤٠٠٠٠٠

فلما رأى جوهر مناعة الديار المصرية ووفرة عزها لم يقنع لها بالفسطاط عاصمة فشرع ببناء مدينة جديدة جعلها قاعدة القطر المصري دعاها بالقاهرة . وكان تشييد المدن سنة عمومية في ملوك الاسلام اذ ذاك فكانوا يبتنون المدن وينقلون اليها عظمتهم والغالب ان يكون سبب بنائها ان يجعلوها حصناً لهم تقيم فيه رجالهم وجندهم ثم يبني حولها الناس . فقد كانت قاعدة المملكة المصرية في عهد الفراعنة منف ثم ابدلت بطيبة ثم بغيرها فغيرها الى عهد اليونان فاستبدلت بالاسكندرية . ولما جاء المسلمون ابتنوا الفسطاط . حتى اذا كانت الدولة الطولونية استبدلت الفسطاط على نوع ما بالعسكر والقطائع الى ان جاء جوهر القائد فرغب في تخليد ذكره وذكر مولاه فعمد الى بناء عاصمة الفاطميين ليفاخر بها بغداد عاصمة العباسيين

بناء القاهرة المعزية

ففي سنة ٣٥٩ هـ شرع جوهر ببناء القاهرة فاختط بقعة من الارض حيث اناخ جماله يوم جاء لفتح الفسطاط فانه نزل الى شماليها بين الجبل والخليج وكانت هذه البقعة رملاً ولما نزل فيها جوهر لم يكن فيها الابساتين قليلة منها بستان كافور الاخشيدي شرقي الخليج وميدان الاخشيد ودير للنصارى كان يدعى دير العظام فيه بئر تعرف ببئر الجامع الاقمر وتسميها العامة بئر العظمة . وكان في تلك البقعة موضع يعرف بقصير الشوك ثم عرف بعد بناء القاهرة بقصر الشوك . فامر جوهر ببناء القاهرة في ذلك المكان وابقى فيها قصرين احدهما اكبر من الآخر عرفا بالقصر الكبير والقصر الصغير جعلها لاقامة المعز عند قدومه الى مصر . مكانهما الآن محل المحكمة الشرعية المعروف ببيت القاضي يتصل اليه من شارع النحاسين

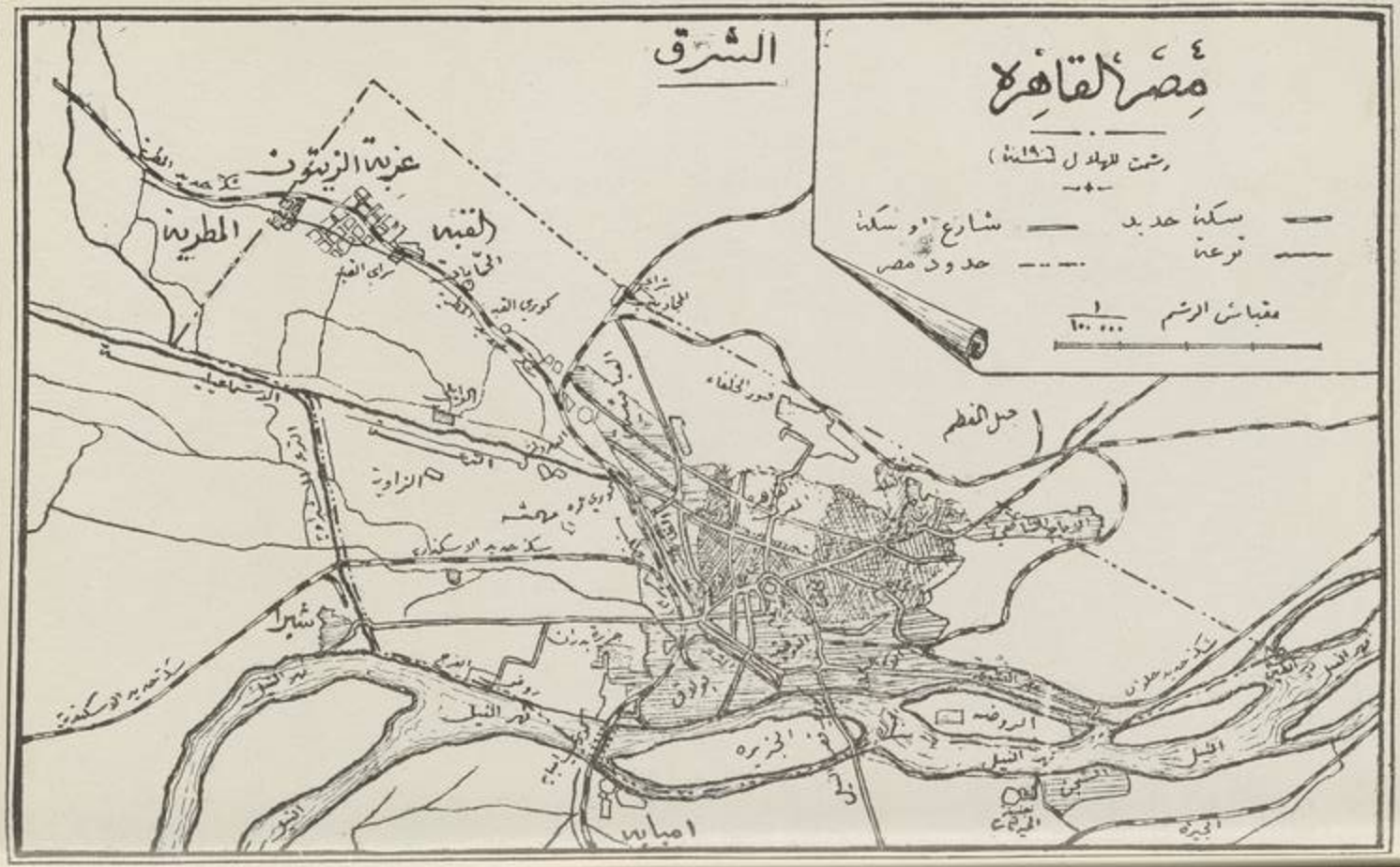
مصر القاهرة
(شبت للاحوال لسنة ١٩٠٨)
سكة حديد
شارع او سكة
ترعة
حدود مصر
مقياس الرسم
١/١٠٠٠٠
الشرق
عزبة الزيتون
المطرية
القبة
المحاريق
سراى القبة
كوبرى القبة
الدشاشة
الزاوية
مهشة
سكة حديد الاسكندرية
شبرا
الجزيرة
الروضة
النيل
امبابة
الجيزة
حلوان

ففي نحو ثلاث سنوات تم بناء القاهرة (في اواخر سنة ٣٦١ هـ) وقد بني حولها السور وفيه الابواب ولم يزل بعض اثارها باقياً الى هـذا العهد . فبعث جوهر الى مولاه المعز بذلك فترك المنصورية التي بناها ابوه وسار قادماً الى عاصمته الجديدة مستخلفاً على افريقية وزيره يوسف بن زيري فركب في عمارة بحرية الى جزيرة سردينيا ومنها الى صقلية قضى فيها بضعة اشهر يتفقد احوالها ثم سار منها الى طرابلس الغرب فالاسكندرية فالقاهرة فوصلها في شعبان سنة ٣٦٢ هـ وكان دخوله اليها باحتفال عظيم من باب زويلة يصحبه يعقوب بن يوسف بن كلس . وكان لزويلة بابان متلاصقان بجوار زاوية سام بن نوح المجاورة لسبيل العقادين بجوار الخرنفش . فدخل المعز من الباب الملاصق ولم يبق له اثر الان فتيامن الناس به وهجروا الباب الاخر حتى جرى على الالسنة ان من مرَّ به لا تقضى له حاجة

تاريخ القاهرة المعزية

كانت عاصمة الديار المصرية يومئذ مدينة الفسطاط (بين القاهرة ومصر القديمة الآن) فلما جاء جوهر بجنده سنة ٣٥٧هـ نزل شماليها في البقعة التي تقدم ذكرها وفيها اليوم الجامع الازهر وبيت القاضي وشارع النحاسين وخان الخليلي وما جاورها من المنازل والاسواق بين المقطم والخليج الذي ردموه اليوم واجروا فوقه قطر الترمواي بين جنوبي القاهرة وشماليها

وكانت تلك البقعة لما عسكر فيها جوهر رملاً يمر بهـا المسافر من الفسطاط الى المطرية . فلمـا فتح جوهر الفسطاط بنى القاهرة في تلك البقعة وسماها القاهرة المعزية نسبة الى مولاه . وكانت مربعة الشكل تقريباً يحدهـا من الشرق الجبـل ومن الغرب الخليج وطول هذا الحد ١٢٠٠ متر يسـير فيـه السور بموازاة الخليج وعلى بعد ٣٠ متراً منه نحو الشرق . ومن الشمال خط يمتد من الخليج قرب باب الشعرية الآن على موازاة سكة مرجوش الى الجبل وطوله ١١٠٠ متر . ومن الجنوب خط نحو هذا الطول يبدأ بباب الخلق عند التقاء الخليج بشارع محمد علي الآن قرب محافظة مصر ويسير شرقا الى الجبل . ومساحة هذه المدينة بين هذه الحدود ٣٤٠ فداناً او ١٤٢٨٠٠٠ متر مربع بنى فيها قصراً سماه القصر الـكبير الشرقي شغل خمس هذه المساحة وشغل ما بقي بالجامع الازهر والقصر الغربي ومساكن الجند والاسطبلات ونحوها . وقد دلانا على مكانها في الخـارطة ببقعة بيضاء . وظلت الاسواق واماكن

البيع والشراء ومساكن الاهالي في مدينة الفسطاط . اما الارض خارج المدينة حيث الآن الفجالة والظاهر والمهمشة والعباسية والازبكية والتوفيقية والاسماعيلية وبولاق فكان اكثرها بساتين ومزارع وبركاً

ولم تتسع القاهرة في اثناء مدة الفاطميين الا قليلاً فصارت مساحتها على عهد امير الجيوش في اواخر القرن الخامس للهجرة ١٦٨٠٠٠٠٠ متر. حتى اذا دالت هذه الدولة ودخلت مصر في حوزة الايوبيين وتملكها السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ اباح للناس سكنى القاهرة وبنى القلعة في سفح المقطم له ولجنده يعتصم بها من اعدائه لانه كان يخاف الشيعة الفاطمية على ملكه . فاقدم الناس على بناء المنازل جنوباً خارج القاهرة بينها وبين الفسطاط وغرباً بينها وبين النيل وامر ببناء سور كبير يحيط بها وبالقلعة وبالفسطاط جميعاً اكمله من جاء بعده فبلغ طوله نحو ٢٤٠٠٠ متر في شكل كثير الاضلاع وبلغت مساحة القاهرة ضمنه ١٩٤٨ فداناً او ٨١٦١٦٠٠ متر مربع

وتولى بعد الايوبيين السلاطين المماليك وتغير شكل القاهرة في ايامهم ثم نقصت مساحتها واستنزف عمرانها في ايام الامراء المماليك ولكنها عادت في زمن الاسرة المحمدية العلوية الى النهوض فبلغت مساحتها في اواخر ايام محمد علي باشا ٩٠٠٠٠٠٠ متر مربع وحدودها من الشرق الجبل المقطم ومن الغرب شارع باب الحديد وشارع عابدين بخط منحرف نحو باب اللوق ثم يعود الخط شرقا الى قرب عابدين ويسير جنوباً حتى يقطع الخليج قرب باب غيط العدة ومن هناك الى باب السيدة زينب . وكان يحدها من الشمال شارع الفجالة وما بعده شرقا الى باب الشعرية فباب النصر وباب الفتوح الى الجبل . ويحدها من الجنوب خط ممتد من باب السيدة زينب فباب طولون الى باب القرافة وقد دللنا على مكانها في الخارطة بخطوط متقاطعة والقاهرة المعزية في داخلها

واتسعت مساحتها في عهد الخديويين بعد محمد علي حتى صارت سنة ١٨٨٠ قبيل الحوادث العرابية ١٢١٨٠٠٠٠ متر . واسرعت في الاتساع بعد الاحتلال الانكليزي حتى صارت مساحتها الآن اكثر من ستة اضعافها قبله واكثر من خمسين ضعفها لما بناها القائد جوهر بما دخل في حدودها من الضواحي العامرة عاما بعد عام

دخول المعز قصره

وفي يوم الثلاثاء ٥ رمضان سنة ٣٦٢ هـ دخل المعز لدين الله قصره بالقاهرة وعند دخوله خرّ ساجداً ثم صلى ركعتين وصلى بصلاته كل من دخل معه واستقر في قصره باولاده وحشمه وخواص عبيده والقصر يومئذ بهجة وكله تحف ومقتنات وبعد ذلك

سبوع اذن بدخول من يريد مقابلته للتهنئة وجلس في الايوان فدخل اولاً الاشراف م اذن بعدهم للاولياء وسائر وجوه الناس وكان القائد جوهر قائماً بين يديه يقدم الناس وما بعد قوم . وبعد وصوله بيسير امر ببناء تربة في القصر الكبير دفن فيها اجداده ذين استحضرهم معه بتوابيت من بلاد المغرب . وصارت بعد ذلك مدفناً يدفن فيه لخلفاء واولادهم ونساؤهم وكانت تعرف بتربة الزعفران وكان موقعها حيث خان الخليلي لآن . فلما انشأ الامير جهاركس الخليلي خانه اخرج ماشاه من عظامهم فألقيت على المزابل

وفي سنة وصوله عهد ليعقوب بن يوسف بن كلس بخراج مصر وجميع وجوه لاموال والحسبة والاعشار وجميع مايضاف الى ذلك في سائر الاعمال . ويعقوب هذا كان يهودياً جاء مصر وتقلد بعض مصالحها في ايام كافور الاخشيدي واسلم طمعاً لدنيا فاحبه كافور ورقاه . واشترك مع يعقوب في امر الخراج عسلوج بن الحسن وكتب عز لهما سجلاً بذلك فجلسا في دار الامارة في جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الاموال وحضر الناس للمقبالات (الالتزام) وطالبا بالبقايا من الاموال على المتقبلين والمالكين والعمال واستقصيا بالطلب ونظرا في المظالم فتوفرت الاموال وزيد في الضياع وتزايد الناس وتكاثفوا وحسنت الاحوال وكثر ضرب النقود الى حد فوق التصديق

الجامع الازهر من داخله

ثم ابتنى جوهر جامعاً دعاه الجامع الازهر وهو اقدم جوامع القاهرة الا جامع بن طولون وا كثرها اتساعاً ولذلك لقب بالجامع الكبير . واقام جوهر في الجامع المذكور بامر الملك العزيز الاتي ذكره مكتبة نفيسة ومدرسة ذاع صيتها في الافاق وكان

القصد الرئيسي من بناء هذا الجامع اقامة الشعائر الدينية وتأييد مذهب الشيعة العلوية لاختلاط السياسة بالدين في الدولة الاسلامية من ذلك العهد . وكانت هذه الشيعة قد قاست الامرّين تحت سلطة العباسيين من قتل ونفي . فلما تأتى لها تغلبها على مصر جعلتها عاصمة دولتها وانشأت القاهرة معقلاً لجندها والجامع الازهر لتأييد مذهبها لان العامة لا تحكم بمثل الدين . وكان المصريون يومئذ على مذهب الامام الشافعي لان هذا الامام قضى اخريات ايامه بمصر ومات فيها وقبره معروف في ضواحي القاهرة . وكان الفاطميون يعترفون بهذا المذهب ايضاً واما العباسيون فكانوا على مذهب ابي حنيفة . فتوافق الفاطميون والمصريون في المذهب فهان على الفاتحين تأييد سلطانهم وتوسيع دائرة نفوذهم فقربوا الفقهاء والعلماء واستقدموهم من سائر اقطار العالم الاسلامي واجروا عليهم الارزاق وفرقوا فيهم الاموال . وكانت مجالسهم تعقد في الازهر على عادة الفقهاء في ذلك العهد فتزاحمت فيه الاقدام وكانوا كلما ضاق بهم وسعوه بابنية ينشئونها بجانبه ويوسعون دوره حتى اصبحت سعته الان نحو ١٢٠٠٠ متر مربع . وكانت اقل من نصف ذلك . وتضاعفت اساطينه مراراً وكان عددها يوم بني ٧٦ اسطوانة متفرقة في اجزائه . وصارت ابوابه تسعة

وكانت اعطية الخليفة للفقهاء في اول الامر على غير قياس او ميقات . فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٥ هـ امر وزيره يعقوب بن كلس ان يرتب للفقهاء ارزاقاً معينة وان يبني لهم منازل يقيمون فيها بجانب الجامع . وكانوا يأتون المسجد في بادىء الرأي لصلاة الجمعة وقراءة الفقه على مذهب الشيعة والوعظ والمباحثة فتدرجوا من القراءة الى التعليم حتى اصبح الجامع مدرسة كبرى اكثر دخلها مما وقفه لها الخلفاء والامراء ويقدر دخله السنوي اليوم بعشرين الف جنيه

علوم الازهر وبناؤه

ظل الازهر مدرسة شيعية طول خلافة الفاطميين (نحو مئتي سنة) حتى غلبهم صلاح الدين الايوبي على مصر سنة ٥٦٧ هـ وكان سني المذهب وليس له بدٌّ من مبايعة خليفة يثبته في منصبه فبايع الخليفة العباسي في بغداد وخطب له في الجامع الازهر . وكان صلاح الدين على مذهب الامام الشافعي فلم يضطر لتبديل كثير من طرق التعليم وقبل الناس سلطته على اهون سبيل . على انه لم ير مندوحة عن مراعاة مذهب الخلفاء العباسيين وهو مذهب ابي حنيفة ورأى بحكمته وسداد رايه ان يكتسب ولاء سائر المسلمين فاجاز تعليم المذاهب الاربعة كل مذهب بحضره اهله . فآل ذلك الى اتساع

شهرة هذه المدرسة وتقاطر اليها الطلاب من اربعة اقطار المسكونة . ولم يبق التعليم قاصراً فيها على الفقه وعلوم الدين واللغة ولكنه تناول شيئاً من الرياضيات والنجوم وبعض العلوم الطبيعية

وما زال ذلك شأنها في ايام السلاطين الايوبيين ومماليكهم حتى جاء السلطان سليم العثماني وفتح مصر في اوائل القرن العاشر للهجرة . ثم استبد الامراء المماليك في الحكومة واشتغل الناس عن العلم . وكان العنصر العربي قد ضعف شأنه في سائر المملكة الاسلامية الا في مصر لان مدرسة الازهر كانت اكبر وسيلة لاستبقاء اللغة العربية لتعليم العلوم الدينية واللسانية لكنها اقتصرت يومئذ على هذه العلوم واهملت سواها من الطبيعيات والرياضيات

على ان فضل الازهر في احياء اللغة العربية لم يكن قاصراً على نشرها في الديار المصرية او ما جاورها من البلاد العربية لكنه شمل سائر البلاد الاسلامية . فقد كانوا يفدون على مدرسته من بلاد الترك والمغرب والشركس واليمن وزنجبار والهند وافغانستان وغيرها . وقد رغب الناس فيه لانه كان يعلم الطلبة مجاناً يقوم بنفقاتهم من الطعام واللباس والمأوى فضلاً عن امتيازه بمهارة الاساتذة . فكان اعظم العلماء المسلمين في الاجيال الاسلامية الوسطى ينبغون من مدرسة الازهر . وكان المتخرج في هذه المدرسة مزية وفضل على المتخرجين في سائر المدارس الاسلامية وطلابه الآن يتجاوزن عشرة الاف طالب

وقد زاد في بناء الجامع الازهر وغير فيه كثير من الملوك والامراء الذين تولوا مصر بعد المعز . وعلى الخصوص الملك الظاهر بيبرس وقايت باي والغوري من سلاطين المماليك . والسيد محمد باشا من ولاة الدولة العثمانية واسماعيل بك وعبد الرحمن كخيا من امراء المماليك . وعبد الرحمن كخيا المذكور جدد فيه اشياء كثيرة وجعل فيه مدفناً له دفن فيه . واخيراً سعيد باشا بن محمد علي باشا سنة ١٢٧٢ هـ . ولذلك يكاد لا يوجد فيه شيء من الجدران والاعمدة التي وضعها جوهر القائد

نسب الفاطميين

فلما رسخت قدم الفاطميين بمصر اصبحت المملكة الاسلامية في الشرق يتنازعها خليفتان المعز لدين الله الفاطمي في مصر والمطيع لله العباسي في بغداد وكل منهما يجتهد في اثبات الخلافة العامة له وحرمان الاخر منها . ودعوى المعز بالاسبقية مبنية على انتسابه لفاطمة بنت النبي . وقد اختلف النسابون في حقيقة دعواه على انه قلما كان

يعتمد على شرف الحسب والنسب . ومما يحكى عنه انه لما كان قادماً الى القاهرة وخرج الناس للقائه اجتمع به اناس من الاشراف وفيهم عبد الله بن طباطبا المشهور فتقدم الى الخليفة المعز وقال له « الى من ينتسب مولانا » . فقال له « سنعقد مجلسا نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا »

ولما استقر المعز في القصر جمع الناس في مجلس عام وجلس بهم وقال « هل بقي من رؤسائكم احد » قالوا « لم يبق معتبر » فسل نصف سيفه وقال « هذا نسبي » ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال « هذا حسبي » فقالوا جميعاً سمعنا واطعنا

ولم يسكن المعز لدين الله قصره طويلاً فتوفي بعد ثلاث سنوات من حكمه بمصر (الجمعة في ١١ ربيع آخر سنة ٣٦٥ هـ) وسنه ٤٥ سنة ومدة حكمه جميعها ٢٤ سنة معظمها في المغرب . وكان عاقلاً حازماً اديباً حسن النظر محباً للنجامة شاعراً وينسب اليه من الشعر قوله :

لله ما صنعت بنا تلك المحاجر بالمعاجر
امضى واقضى في النفوس من الخناجر في الحناجر
ولقد تعبت بينكم تعب المهاجر في الهواجر

وينسب اليه ايضاً :

اطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد في وجنتيك اظلاّ
وكأن الجمال خاف على الور د جفافاً فمد بالشعر ظلاّ

وترى في الشكل الرابع والاربعين صورة نقود المعز مضروبة بعد دخوله القاهرة بسنة واحدة

ش ٤٤ — نقود المعز لدين الله

خلافة العزيز بن المعز

من ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ او من ٩٧٥ — ٩٩٦ م

فلما توفي المعز بويع ابنه نزار بن معد ابو منصور الملقب بالعزيز بالله ويدعوه بعضهم العزيز بدين الله ومولده المهدية في افريقية واتسعت المملكة في ايامه حتى اتصلت بمكة . ولم يكن سن العزيز عند مبايعته الا ٢١ سنة فترك ازمة الجند لجوهر . وفوض ليعقوب بن كلس النظر في سائر الامور وجعله وزيراً له في رمضان سنة ٣٦٨ هـ . وفي محرم سنة ٣٧٣ هـ امر العزيز ان تكون جميع المكاتبات الرسمية باسم يعقوب وان تمضي الاوامر باسمه واهداه كثيراً من الغلمان والاموال . فرتب يعقوب الدواوين فجعل ديواناً للجيش وآخر للاموال وآخر للخراج وآخر للسجلات والانشاء وآخر للمستغلات وجعل في كل منها كتاباً ورؤساء كتاب . وكان يجلس في مجلسه الادباء والشعراء والفقهاء وارباب الصنائع وخصص لكل منهم الارزاق والف كتباً في الفقه والقرآءات وكان يجلس في كل جمعة يقرأ مصنفاته على الناس بنفسه . وكان له مجلس في داره للنظر في رقاع المرافعين والمتظلمين ويوقع بيده في الرقاع ويخاطب الخصوم بنفسه . وتوفي الوزير يعقوب في ٥ ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ وهو اول وزراء الدولة الفاطمية بمصر

وتزوج العزيز بالله امرأة مسيحية من الطائفة الملكية وكان يحبها كثيراً فاكتسبت نفوذاً عليه فكان يراعي ابناء طائفتها ويرفق بهم اكراماً لها حتى اتخذ طبيبه الخاص منهم واسمه منصور بن مقشر وكان يحترمه فاعتل الطبيب يوماً عن الركوب فلما تماثل كتب اليه الخليفة العزيز بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم . على طبيبنا سلمه الله سلام الله الطيب وتم النعمة عليه . وصلت الينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه نحن من الصحة في جسمنا . اقالك الله العثرة واعادك الى افضل ما عودك من صحة الجسم وطيبة النفس وخفض العيش بحوله وقوته »

هفتكين الشرابي

وقدم الى الشام في ايام العزيز هفتكين الشرابي من بغداد لغزو دمشق . وهفتكين هذا يقال له الفتكين ابو منصور التركي الشرابي غلام معز الدولة احمد بن بويه رقي الخدم حتى غلب في بغداد على عز الدولة مختار بن معز الدولة وكان فيه شجاعة وثبات

في الحرب . فلما سارت الاتراك من بغداد لحرب الديلم جرى بينهم قتال عظيم اشتهر فيه هفتكين . الا ان اصحابه انهزموا عنه وصار في طائفة قليلة فسار بمن معه من الاتراك وهم نحو الاربعمائة الى ان قرب من حوشبة احدى قرى الشام وقد وقع في قلوب العربان منه مهابة . وما زال ينتقل من محل الى آخر ويجمع اليه الاحزاب ومنهم القرامطة حتى غزا القسم الاعظم من سوريا الى دمشق ونزل على السواحل

فعلم بذلك العزيز بالله فارسل اليه جيشاً تحت قيادة جوهر فبلغ هفتكين ذلك وهو في عكا . اما القرامطة فكانوا في الرملة ولما بلغهم قدوم جوهر وجيوش العزيز فروا عنها فنزلها جوهر وسار من القرامطة الى الاحساء التي هي بلادهم جماعة وتأخر عدة . اما هفتكين فسار من عكا الى طبرية وقد علم بمسير القرامطة وتأخر بعضهم فاجتمع في طبرية واستعد للقاء جوهر وجمع الاقوات من بلاد حوران والثنية وادخلها الى دمشق . ثم سار اليها وتحصن فيها فعلم جوهر بذلك فسار الى دمشق . ونزل على ظاهرها في ٢٢ ذي القعدة وبنى على معسكره سوراً وحفر خندقاً عظيماً وجعل له ابواباً

فتجمع هفتكين برجاله لقتال جوهر وطال الاخذ والرد الى ١١ ربيع اول سنة ٣٦٦ هـ . وعند ذلك اختل امر هفتكين وهم بالفرار . ثم انه استظهر ووردت الاخبار بقدوم احمد القرمطي الى دمشق فطلب جوهر الصلح على ان يرحل عن دمشق من غير ان يتبعه احد ـ وذلك انه رأى امواله قد قلت وهلك كثير ممن كان في عسكره حتى صار اكثر جنده رجالة واعوزهم العلف وخشي فوق ذلك قدوم القرامطة . فاجابه هفتكين وقد عظم فرحه فرحل جوهر في ٣ جمادى الاولى وجدّ في المسير الى ان بلغ طبرية وكان قد قرب القرامطة فتعقبوه اليها فسار منها الى الرملة فبعث القرامطة بسرية كان لها مع جوهر وقعة قتل فيها جماعة من العرب . ثم طال الكفاح ١٧ شهراً ففر جوهر الى عسقلان فغنم هفتكين شيئاً كثيراً . ثم سار فحاصر عسقلان فبلغ ذلك العزيز فاستعد للمسير ليمد جوهراً

اما جوهر فلما طال حصاره راسل هفتكين يطلب اليه تقرير الصلح على مال يحمله اليه وان يخرج من تحت سيفه فعلق هفتكين سيفه على باب عسقلان وخرج جوهر ومن معه من تحته وسار الى القاهرة فوجدوا العزيز قد برز يريد المسير . فساروا معه وما زالوا حتى نزلوا الرملة وكان هفتكين في طبرية فسار للقاء العزيز ومعه عدة من رجاله فالتقى الجيشان . فلم يكن غير ساعة حتى انهزم جيش هفتكين وفاز العزيز فطلبوا

هفتكين فاذا هو قد فر على فرس بمفرده فقبض عليه احد العرب وجاء به الى العزيز وعمامته في عنقه فامر به فطيف به على العسكر على جمل فاخذ العسكر يلطمونه ويهزون لحيته

ثم سار العزيز بهفتكين والاسرى الى القاهرة فاستخدمه ومن معه واحسن اليه غاية الاحسان وانزله في دار وواصله بالعطاء والخلع حتى قال لقد احتشمت من ركوبي مع مولانا العزيز بالله وتطوفي اليه بما غمرني من فضله واحسانه فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدرة « ياعم والله اني احب ان ارى النعم عند الناس ظاهرة وارى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وان يكون ذلك كله من عندي » وما زال هفتكين يرتقي في ظل العزيز الى ان توفي سنة ٣٧٢ هـ فظن العزيز ان يعقوب بن كلس سمه (وكان لا يزال حياً) لانه كان يلاحظ بينهما منافسة فى التقرب من الخليفة فاعتقله مدة ثم اطلقه

مناقب العزيز بالله

وفي ١٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ توفي العزيز بالله في بلبيس على اثر مرض طويل بالقولنج والحصاة وعمره ٤٢ سنه وبضعة اشهر ومدة خلافته ٢١ سنة وخمسة اشهر ونصف فنقل الى القاهرة ودفن في تربة القصر مع آبائه . وكان العزيز كريماً شجاعاً حسن العفو عند المقدرة وكان اسمر اللون اصهب الشعر اشهل العين عريض المنكبين حسن الخلق قريباً من الناس لا يؤثر سفك الدماء محباً للصيد ولا سيما صيد السباع . وكان اديباً فاضلاً

ويحكى ان احد الشعراء نظم قصيدة هجا بها وزيره وكاتب سره فرفعا الشكوى اليه وطلبا عقاب الشاعر. فاطلع على القصيدة فراى فيها مجواً به ايضاً فقال لهما « بما اني شاركتكما باحتمال هذه الاهانة فشاركاني بالعفو عن هذا الشاعر »

والعزيز اول من اتخذ وزيراً اثبت اسمه على الطرز وقرن اسمه باسمه واول من لبس الخفين واول من اتخذ منهم الاتراك واستخدمهم وجعل منهم القواد واول من رمى منهم بالنشاب واول من ركب منهم بالذؤابة الطويلة وضرب بالصوالجة ولعب بالرمح . واول من اقام طعاماً في جامع القاهرة لمن يحضر في رجب وشعبان ورمضان. واول من اتخذ الحمير لركوبه اياها

وكان للعزيز رغبة في اقتناء الكتب مجاراة لمناظريهم من العباسيين فجمع

منها جانباً كبيراً خصص لها قاعات في قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الاموال في الاستكثار من المؤلفات المهمة في التاريخ والادب والفقه ولو اجتمع من الكتاب الواحد عشر نسخ او مائة نسخة او اكثر — ذكروا انه كان فيها من كتاب العين للخليل نيف وثلاثون نسخة بخط الخليل نفسه وعشرون نسخة من تاريخ الطبري واشتروا النسخة بمئة دينار . ومئة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد وكان عدد النسخ المكررة يزداد بتوالي الاعوام حتى بلغ عدد ها من تاريخ الطبري عند استيلاء صلاح الدين الايوبي على مصر ١٢٠٠ نسخة وكان فيها ٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة محلاة بالذهب . فلا عجب اذا قالوا انها كانت تحوي ١٦٠٠٠٠٠ كتاب في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء منها ١٨٠٠٠ كتاب في العلوم القديمة فيها ٦٥٠٠ جزء من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة غير ادوات الهندسة والفلك

على اننا نرى في تقدير تلك الكتب مبالغة . وقد قدرها آخرون بنحو ٢٠٠٠٠٠ كتاب وغيرهم ١٢٠٠٠٠ ونظن في تقديرهم التباساً من حيث المراد بخزانة الكتب او خزائن الكتب . لان العزيز بعد انانشأ خزانته بقصره اقتدى به جماعة من اهله فانشأوا مثلها في قصورهم . فالظاهر ان المراد بالتقدير القليل عدد الكتب في خزانة العزيز خاصة وبالكثير عدد ما في خزائن القصور كلها . وبهذا الاعتبار لا يقلُّ عدد الكتب في خزائن القصور عن ١٠٠٠٠٠٠ مجلد او كتاب

وكان للعزيز عناية كبيرة في خزانته يتعهدها بنفسه حيناً بعد حين وقد رتب لها قيماً يتولى شؤونها ويجالسه ويقرأ له الكتب ويناديه . وممن تولى ذلك ابو الحسن الشابشتي الكاتب المتوفى سنة ٣٩٠ هـ

ومن آثاره انه اسس جامع الحاكم فلما جاء الخليفة الحاكم اتمه

خلافة الحاكم بامر الله بن العزيز

من سنة ٣٨٦ — ٤١١ هـ او من ٩٩٦ — ١٠٢١ م

ولما توفي العزيز خلفه ابنه المنصور ابو علي فبويع ولقب بالحاكم بامر الله ولكننا نرى انه لم يحكم الا خلافاً لامر الله . وكان عمره عند مبايعته احدى عشرة سنة فكان الوصي عليه الوزير ارجوان فاستأثر بالنفوذ حتى تجاوز الحد

وكانت مدة حكمه نحو ٢٥ سنة ثارت في اوائلها عصبة ادعى زعيمها انه من سلالة الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وجرى بسبب ذلك خصام وحروب كان النصر فيها متبادلاً وفي المرة الاخيرة قبض على زعيم العصاة والقي في السجن وهرب اتباعه . ثم اراد الحاكم ان يبرهن على اختلال شعور هذا الرجل فاركبه جملاً واركب وراءه قرداً وطوّفه في المدينة والقرد لا ينفك عن قرع ذلك الرجل على رأسه الى ان مات شر موتة

وفي سنة ٣٩١ هـ امر الحاكم الناس بان يوقدوا القناديل على الحوانيت وابواب الدور والمحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ولازم الركوب في الليل . وكان ينزل في كل ليلة الى موضع موضع والى شارع شارع والى زقاق زقاق وصار الناس من الزينة والوقود الكثيرة يوصلون ليلهم بنهارهم فيقضون طول الليل في البيع والشراء . وكان اذا مشى في موكبه امر حاشيته ان لا تمشي بقربه وزجرهم وقال ابعدوا ولا تمنعوا احداً مني فكانت تقترب الناس منه وتحدق به وتكثر من الدعاء له

اطوار الحاكم

وبعد يسير اصيب الحاكم بتغيير في عقله لم يفارقه حتى فارقته الحياة . وظهر في اثناء ذلك متمذهب يدعى ضرار وتبعه جماعة عرفوا بالضرارية . ثم توفي الزعيم وخلفه احد تلاميذ المدعو حمزة بن احمد الملقب بالهادي . وسنّ هؤلاء شرائع كثيرة وعلموا تعاليم مختلفة منها تعظيم يوم الجمعة والاحتفال بالاعياد والتعويض عن الحج لمكة بزيارة مقام طالب في اليمن . ومن شرائعهم انهم اباحوا الزيجة بين الاخ واخته واب وبناته والام وابنائها . وجاؤا بامور كثيرة تخالف او تناقض ما جاء في القرآن

فارتاح الحاكم لهذه الديانة الجديدة وافتتن بها فتبعها ونسي ديانة ابيه وجده . وكان يصعد كل صباح منفرداً الى الجبل المقطم حيث ادعى انه يناجي الله كما كان

يفعل موسى . وبعد ان كان اشد نصير للديانة الاسلامية نادى جهاراً بمقاومتها وادعى بالسوء على الصحابة . وسعى في ابطال الديانة الاسلامية واقامة ديانة جديدة فخبطت مساعيه فاحتقرته الرعية ولم تعد تعبأ بمدعياته فعاد الى نصرة الاسلام فاضطهد النصارى واليهود

وكان السبب الرئيسي في ذلك الاضطهاد تقدم النصارى في ايامه حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع احوالهم وكثرة اموالهم فزايدت مكايدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن ابراهيم النصرانيين فغضب الحاكم بامر الله — وكان اذا غضب لا يملك نفسه فيبلغ غضبه الى حد الجنون . فامر بقتل هذين الرجلين وشدد على النصارى فامرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في اوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين والتظاهر بما كانت عادتهم فيه وقبض على ما في الكنائس وادخله الديوان ومنع النصارى من شراء العبيد وهدم كنائسهم واجبرهم على الاسلام وغير ذلك من التشديد والعنف بما لم يقاس النصارى مثله من قبل ولعله اعظم ما اصابهم من الاضطهاد في ابان التمدن الاسلامي . ولاجناح على التمدن به لان مرتكبه اتاه عن حمق او جنون

وقد سوغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ فاخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان لهم في القسطنطينية فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على اهل مذهبهم في بلاده . وكان في جملة ما هدمه من الكنائس كنيسة القيامة بالقدس . فلما تولى الخليفة الظاهر لاعزاز الذين بعد الحاكم عقدت الهدنة بينه وبين ملك الروم سنة ٤١٨ هـ واتفقا على اعادة بناء جامع القسطنطينية وان يعاد بناء كنيسة القيامة وان يؤذن لمن اظهر الاسلام في ايام الحاكم ان يعود الى النصرانية اذا شاء فرجع اليها كثيرون

وربما كان السبب الذي حمل الحاكم على ذلك التضييق طفيفاً فعظمه تعصبه وحمقه فامر بالهدم والقتل . على انه كثيراً ما كلف رعاياه من المسلمين وغيرهم اموراً مضحكة تشبه الجنون الصريح كاصداره المنشورات بمنعهم من اكل الملوخيا أو من البقلة المسماة بالجرجير اومنعهم من عمل الفقاع ومنع النساء من التبرج اوالمسير في الطرق والامر بسب السلف ولعنهم ونقش ذلك على المساجد وابواب الحوانيت وعلى المقابر ونحو ذلك من الاوامر التي تدلُّ على اختلال في عقله . على اننا قلما نراه اتى امراً الا لسبب وان كان ضعيفاً — فالسبب في منعه الناس من اكل الملوخيا مثلاً ان معاوية بن ابي سفيان عدو

الشيعة كان يحبها والدول الفاطمية شيعية . ومنعهم من اكل بقلة الجرجير لانها منسوبة الى عائشة ام المؤمنين ومنعهم من اكل المتوكلية لانها تنسب الى المتوكل وهو من اعداء الشيعة . ومنع الناس من شرب الفقاع لان علي بن ابي طالب يكرهة . وقس على ذلك سائر ضروب الحماقة والغرابة . ومن هذا القبيل اضطهاد النصارى وتخريب كنائسهم . على انه عاد لسبب طفيف او بلاسبب وامر ببناء تلك الكنائس وخير النصارى في الرجوع الى دينهم فارتد كثيرون منهم — وقد تقدم ان ذلك كان في ايام ابنه الظاهر . ومن اعماله الغريبة انه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم واخربها والزم الناس باغلاق الاسواق نهاراً وفتحها ليلاً فظل الناس على ذلك دهراً طويلاً . فمن كانت هذه اعماله لايستغرب منه اضطهادَ ولا يعدُّ اضطهاده عاراً على الدولة او الامة

فكان هذا الحاكم حملاً ثقيلاً على عاتق المصريين والسوريين ولم يستطع احد مقاومته فكان كل منهم يكظم غيظه وهو يسمع باذنه رنة السهم في قلبه

ولكن الامور تجري على سنن محدودة ولا بد لكل منها من نهاية فعلمت اخت الحاكم وقائد جيشه ان الحاكم ينوي قتلهما فعمدا الى اغتياله قبل ان يغتالهما فاخذا الاحتياطات الممكنة . وفي سنة ٤١١ هـ قتلاه على جبل المقطم وبعد موته صار النفوذ الى اخته ونادت بابنه علي ابي الحسن الملقب بالظاهر لاعزاز دين الله وريثاً له فاستلم زمام الاحكام فبايعوه وبقيت الاحكام في يده ١٧ سنة

جامع الحاكم

ومن آثار الحاكم بامر الله الجامع المعروف بجامع الحاكم وقد تقدم ان العزيز وضع اساسه على يد وزيره يعقوب بن كلس فاتم الحاكم بناءه وانفق في سبيل ذلك اربعين الف دينار ودعاه جامع باب الفتوح لمجاورته له وجعل فيه المفروشات الثمينة والاواني الفضية والذهبية . وكان هذا الجامع عند بنائه خارج سور القاهرة . ثم لما جاء امير الجيوش وجدد الاسوار كما سيأتي وابتنى باب الفتوح حيث هو اليوم اصبح الجامع داخل السور . ثم تهدم بعضه بزلزلة حصلت في ١٣ ذي الحجة سنة ٧٠٢ هـ فانتدب الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير لترميمه وجعل فيه دروساً اربعة لتعليم الفقه على مذاهب الائمة الاربعة ودرساً لاقراء الحديث وجعل فيه مكتبة نفيسة وصهاريج للماء واماكن اخرى . ثم جدد هذا الجامع وبلط جميعه في ايام الملك الناصر حسن بن محمد ابن قلاون سنة ٧٦٠ هـ على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماس . ويقال ان الشيخ المشار اليه وجد في الجامع حجراً مكتوباً عليه هذه الابيات لغزاً في الحجر المكرم

ان الذي اسررت مكنون اسمه وكتمته كيما أفوز بوصله
مال له جذر تساوى في الهجا طرفاه يضرب بعضه في مثله
فيصير ذاك المال الا انه في النصف منه تصاب احرف كله
واذا نطقت بربعه متكلماً من بعد اوله نطقت بكله
لا نقط فيه اذا تكامل عده فيصير منقوطاً بجملة شكله

دار الحكمة

ومن اثار الحاكم في خدمة العلم انهُ انشأ مكتبة سماها دار العلم او دار الحكمة وهي غير خزانه العزيز او خزائن القصور كما توهم الاكثرون . انشأها الحاكم بامر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ بجوار القصر الغربي بالقاهرة وحمل اليها الكتب من خزائن القصور ووقف لها اماكن ينفق عليها من ريعها . ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستور على ابوابها وممراتها واقاموا عليها القوام والمشرفين . والغرض من دار الحكمة مثل الغرض من بيت الحكمة الذي انشأه العباسيون اي لخدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف . وهي طريقة القدماء في تعليم الناس اذ يتعذر على غير الاغنياء اقتناء الكتب الكثيرة نظراً لغلائها فمن احب تعليم رعيته انشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح ابوابها للناس كما فعل البطالسة في مكتبة الاسكندرية والعباسيون في بيت الحكمة ببغداد

وقد عد بعضهم دار الحكمة مدرسة لان الحاكم اقام بها القراء والمنجمين واصحاب النحو واللغة والاطباء واجرى لهم الارزاق واباح الدخول اليها الى سائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقراوا اوينسخوا ما شاؤا . وجعل فيها ما يحتاجون اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر . وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة الى ما بين يديه ويأمرهم بالمناظرة كما كان يفعل المأمون ويخلع عليهم الخلع . وقد اباح المناظرة بين المترددين الى دار الحكمة فكانوا يعقدون المجتمعات هناك وتقوم المناظرات وقد يفضي الجدال الى الخصام . واتخذ بعض اصحاب البدع تلك الاجتماعات وسيلة لبث ارائه فاضطر الافضل بن امير الجيوش في اوائل القرن السادس للهجرة الى ابطالها دفعاً للاسباب . فلما توفي الافضل امر الخليفة الآمر باحكام الله وزيره المأمون بن البطائحي فاعادها سنة ٥١٧ هـ ولكنه اشترط فيها المسير على الاوضاع الشرعية وان يكون متوليها رجلاً ديناً وان يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . ولا نظن عدد كتبها يقل عن ١٠٠٠٠٠ كتاب . ولما افضت الدولة الى صلاح الدين الايوبي هدم دار الحكمة وبناها مدرسة للشافعية

وهذه صورة النقود الذهبية التي ضربت في ايام الحاكم بامر الله (انظر شكل ٤٥)

ش ٤٥ : نقود الحاكم بامر الله

خلافة الظاهر بن الحاكم

من سنة ٤١١ — ٤٢٧هـ او من ١٠٢١ — ١٠٣٦ م

وفي ايام الظاهر (سنة ٤٢٢ هـ) توفي الخليفة القادر بالله العباسي الذي كان قد اقيم سنة ٣٨١هـ خلفاً للطائع واقيم مقامه في بغداد القائم بامر الله . وكان سن الظاهر لما تولى الخلافة ١٦ سنة فخرج الى صلاة العيد وعلى راسه المظلة وحوله العساكر وصلى بالناس في المصلى وعاد فكتب بخلافته الى الاعمال وشرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقاع واكل الملوخية وجميع الاسماك فاقبل الناس على اللهو

المجاعة

وكان الظاهر ضعيف الرأي منصرفاً الى اللهو فافضى النفوذ الى بضعة من رجال دولته وقرروا ان لايدخل على الظاهر غيرهم . فاصبحوا يتصرفون بامور الدولة ويمنعون اهل النصح من الوصول الى الخليفة . واخذوا في الاستئثار بالاموال فضاقت ابواب الرزق ومنع الناس من ذبح الابقار لقلتها وعزت الاقوات بمصر وقلت البهائم كلها حتى بيع الراس البقر بخمسين ديناراً وكثر الخوف في ظواهر البلد وكثر اضطراب الناس وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجارة فاختلف بعضهم على بعض وكثر ضجيج العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا وتحاسد زعماء الدولة فقبض على العميد محسن وضرب عنقه . واشتد الغلاء وفشت الامراض وكثر الموت في الناس وفقد الحيوان فلم يقدر على دجاجة ولا فروج . وعز الماء فعم البلاء من كل جهة وعرض الناس امتعتهم للبيع فلم يوجد من يشتريها وخرج الحاج فقطع عليهم الطريق بعد رحيلهم من بركه الجب واخذت اموالهم وقتل منهم كثير وعاد من بقي فلم يحج احد من اهل مصر . وتفاقم الامر من شدة الغلاء فصاح الناس بالظاهر « الجوع الجوع يا امير المؤمنين لم يصنع بنا هذا ابوك ولاجدك فالله الله في امرنا » وطرقت عساكر ابن جراح الفرما ففرّ اهلها الى القاهرة واصبح الناس بمصر على اقبح حال من الامراض والموتان وشدة الغلاء وعدم الاقوات وكثر الخوف من الذعار التي تكبس حتى انه لما

عمل سماط عيد النحر بالقصر كبس العبيد على السماط وهم يصيحون الجوع ونهبوا سائر ما كان عليه . ونهبت الارياف وكثر طمع العبيد ونهبهم وجرت امور من العامة قبيحة واحتاج الظاهر الى القرض فحمل بعض اهل الدولة اليه مالاً وامتنع اخرون واجتمع نحو الالف عبد لتنهب البلد من الجوع فنودي بان من تعرض له احد من العبيد فليقتله . وندب جماعة لحفظ البلد واستعد الناس فكانت نهبات بالساحل ووقائع مع العبيد احتاج الناس فيها الى ان خندقوا عليهم خنادق وعملوا الدروب على الازقة والشوارع وخرج معضاد في عسكر فطردهم وقبض على جماعة منهم ضرب اعناقهم . واخذ العبيد في طلب وجوه الدولة فحرسوا انفسهم وامتنعوا في دورهم وانقضت السنة والناس في انواع من البلاء

وفي سنة ٤٢٧ هـ توفي الظاهر لاعزاز دين الله في ليلة الاحد منتصف شعبان بعد ان تضعضعت الدولة فبويع ابنه معد ابي تميم خليفة مكانه ولقب بالمستنصر بالله

وهذه صورة نقود الظاهر لاعزاز دين الله ضربت في القاهرة سنة ٤٢٥ انظر ش ٤٦

ش ٤٦ — نقود الظاهر لاعزاز دين الله

خلافة المستنصر بن الظاهر

من سنة ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ او من ١٠٣٦ — ١٠٩٤ م

ولم يكن سن المستنصر عند مبايعته اكثر من سبع سنوات وأمه جارية سوداء ابتاعها الظاهر من تاجر يهودي اسمه ابو سعيد سهل بن هارون التستري . فلما رأت انها في هذا المنصب اتت بسيدها الاصلي وولته الاستشارة . وكانت مدة خلافة المستنصر اطول من مدة كل خليفة فاطمي واكثر حوادث من الجميع

ففي سنة ٤٢٩ هـ عقد المستنصر هدنة مع امبراطور الروم وكان لا ينفك عن مهاجمة التخوم الاسلامية حتى اخضع حلب وتبعها سائر الشام فساد الامن بعد الهدنة الى ان كانت سنة ٤٣٤ هـ بويلاتها فثارت داخلية مصر بفتنة جديدة لظهور رجل اسمه سكين كان يشبه الحاكم بامر الله فادعى انه الحاكم وقد رجع بعد موته . فاتبعه جمع ممن يعتقد رجعة الحاكم فاغتنموا خلو دار الخليفة بمصر من الجند وقصدوها مع سكين نصف النهار

فدخلوا الدهليز فوثب من هناك من الجند فقال لهم اصحابه انه الحاكم فارتاعوا لذلك ثم ارتابوا به فقبضوا على سكين ووقع الصوت واقتتلوا فتراجع الجند الى القصر والحرب قائمة فقتل من اصحابه جماعة وأسر الباقون وسلبوا احياء ورماهم الجند بالنشاب حتى ماتوا

ثم سعت ام الخليفة فساداً في الاحكام فغيرت في الوزارة ونقلت زمام الامور من يد احمد بن علي ليد حسن بن العنبري ومنه الى صدقة العلاجي وهذا قتل سلفه سنة ٤٤٠ هـ فحكم عليه بالقتل فابدل بحسين الجرجراي وفي شوال سنة ٤٤١ هـ قبض عليه ونفي الى سوريا واقيم مقامه ابو الفضل بن مسعود والقاضي اليازوري وقد حاز هذا الاخير على رضا المستنصر فقربه منه بحيث انه كان يعطيه الالقاب الخاصة بالخليفة ويضرب النقود باسمهما

وفي اثناء ذلك اضطربت الخارجية بسبب معز الدولة وكان قد ولاه الخليفة على حلب سنة ٤٣٦ هـ فحاول الاستقلال بها فانفذ اليه الخليفة جيشاً بقيادة ناصر الدولة ابن ابي الهيجاء فكسره . فاسترجعه وارسل عوضاً عنه الاميرين طرفاً ورفيقاً وتحتهما جيوش مصرية فلم ينالا اكثر مما نال . ولحسن الطالع اعتاض معز الدولة عن الهجوم على مصر بعد ما رأى من انتصاره على جيشها بعقد الصلح . فانفذ ابنه وزوجته ليعقدا صلحاً مع المستنصر وكانت زوجته بديعة الجمال فاخذت بمجامع قلب المستنصر فوافقها في التنازل عن حلب لزوجها

المعز بن باديس

وما انتهت هذه المعضلة في الشرق حتى نشأت معضلة اخرى في الغرب وذلك ان المعز بن باديس تمرد في افريقية لمكاتبات عدوانية حصلت بينه وبين الوزير اليازوري فابطل الخطبة للمستنصر واستعاض عنه باسم الخليفة العباسي القائم بامر الله . ووردت الخلع والتقليد من القائم بامر الله الى المعز مع كتاب قال فيه « من عبد الله ووليه ابي جعفر القائم بامر الله امير المؤمنين الى الملك الاوحد ثقة الاسلام وشرف الامام وعمدة الانام ناصر دين الله قاهر اعداء الله ومؤيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ابي تميم المعز بن باديس بن المنصور ولي امير المؤمنين بولاية جميع المغرب وما افتتحه بسيف امير المؤمنين وهو طويل » وارسل اليه سيفاً وفرساً واعلاماً على طريق القسطنطينية فوصل ذلك يوم الجمعة فدخل به الى الجامع والخطيب ابن الفاكاة على المنبر يخطب الخطبة الثانية . فدخلت الاعلام فقال « هذا لواء الحمد يجمعكم وهذا معز الدين يسمعكم

واستغفر الله لي ولكم » وقطعت الخطبة للعلويين من ذلك الوقت واحرقت الاعلام . وكان المستنصر مشتغلاً في اثناء ذلك بالاضطرابات الداخلية بين قبيلتين من العرب بني زاجٍ وبني رياح فرأى الوزير ان يستدرك الخطب الداخلي قبل الخطب الخارجي وان يستخدم العدو الواحد لابادة الآخر فاصلح بين القبيلتين وحرضهما على المعز بن باديس على ان يجعل لهما في مقابل ذلك برقة وطرابلس الغرب

فاستعد ابن باديس لملاقاة اعدائه بجيش مؤلف من ٣٠ الف فارس ولم يكن الاعراب اكثر من ٣ آلاف مقاتل . فلما التقوا بجيش المعز هابوه فطلبوا الفرار فناداهم قائدهم مونس ان يجالدوا في القتال فاجابوه « اين نطعن هؤلاء المكسوين بالخوذ والدروع » فقال « في عيونهم » ومن ذلك الحين لقب مونس بابي العيون . وعادت رجاله وقد ثارت فيهم الحمية العربية ومازالوا حتى انتصروا على المعز في تلك الوقعة . ثم بقيت الحرب سجالاً بين الفريقين ست سنوات وكانت الغلبة طوراً لهؤلاء وطوراً لهؤلاء

أما المستنصر فعمد الى تزيين القاهرة وبناء البنايات الجميلة فيها فاعاد تذهيب جامع عمرو سنة ٤٤١ هـ وبنى فيه منبراً من الخشب الثمين قائماً على عمد من خشب الصندل واقام فيه منارة جديدة وخصص لهذه الترميمات مالاً من خزينته الخاصة

وفي سنة ٤٤٢ هـ توفي في مصر اميرتان من اغنى امراء مصر وهما راشدة وعبدة وكلاهما ابنتا الخليفة المعز لدين الله فتركت الاولى ثروة مقدارها مليونان وسبعمائة الف دينار والثانية مثل ذلك . وكان الخلفاء الفاطميون ينتظرون موتهما ولم يروه فكانت ثروتهن غنيمة بارة للخليفة المستنصر

الفتنة بين الخلافتين

وفي سنة ٤٤٤ هـ وصل القاهرة نبأان مختلفان . الاول ان الخليفة العباسي في بغداد اصدر منشوراً الى العالم الاسلامي يقدح فيه بانتساب الخلفاء الفاطميين الى علي ابن ابي طالب . والثاني ان امير اليمن علي بن محمد الصاحلي امر ان يخطب باسم المستنصر في الصلاة وارسل اليه هدايا . فسرّ الخليفة المستنصر لهذين الخبرين اللذين يوازن احدهما الآخر ولم يبد حراكاً لاشتغاله بقحط عظيم نتج عن تقصير النيل تلك السنة فاشتد الجوع . وكان قد احتكر الحنطة وكان يخزن منها كل سنة بمائة الف دينار يحفظها في خزائنه ليبيعها عند الحاجة بالاثمان الغالية فاذا كانت سنة رخاء كان الوزير اليازوري يستبدل تلك الحنطة بقيمتها من الخشب او الحديد او ما شاكل . فني سنة ٤٤٦ هـ لم يف النيل ولم يكن في خزائن الحنطة ما يكفي لغير الخليفة واهله وحاشيته

قوتاً ضرورياً فغلا العيش فبلغ ثمن الكيس الصغير من القمح ثمانية دنانير واخذ الجوع يتزايد وتبعه الطاعون وامتد الاثنان الى سوريا حتى بلغا بغداد وتبع هاتين الضربتين ضربة ثالثة نعني الحرب . وسببها ان الخليفة المستنصر لما اشتد الجوع في بلاده ارسل الى القسطنطينية يستنجد امبراطورها بالخنطة فرضي الامبراطور ان يرسل له اربعمائة الف اردب ولكنه مات قبل ارسالها . فلما تولت الامبراطورة وليـة العهد اوقفت الارسال على ان يعقد لها المستنصر معاهدة (هجومية ودفاعية) فلم يرضَ فلم ترسـل الخنطة فاستشاط غضباً وامر بالجهاد فانفذ ناصر الدولة لفتح اللاذقية وانطاكية فقبض عليه وتفرق جيشه . فتعاظم غيظ المستنصر واشتد انتقامه فامر بالحجز على كل ما في كنيسة القيامة في القدس الشريف من الاموال والادوات الثمينة فاضطربت العلاقات الودية بين الروم ومصر

وزاد المصريين رعباً مذنب طويل ظهر في سماء مصر في ١٢ جمادى الثانية سنة ٤٥٥ هـ ولم يغب الى ١٥ رجب منها . غير ان الوزير لم يأل جهداً في تدبير الامور بحكمة ورزانة فخفف المصائب واستجلب القوت الى البلاد رويداً رويداً . على ان سلطة المستنصر كانت تزداد في الخارج يوماً فيوماً حتى ان البساسيري قائد جنـد الخليفة العباسي القائم بامر الله لما كبر شأنه خلع خليفته وبايع للمستنصر الفاطمي ورفع العلم الابيض على منابر بغداد سنة ٤٥٠ هـ واقتدى به اهل واسط والكوفة وسائر المدن الشرقية الكبرى

فامتدت سلطة المستنصر الدينية الى خراسان وفارس . فرأى السلطان طغرلبك هناك ان تسلط العلويين يضر بغرضه فسار بجيشه الى بغداد واعاد القائم بامر الله الى منصبه ونصب العلم العباسي واعاد الخطبة للخليفة القائم في ٢٦ ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ

وكان المستنصر قد ارسل الى البساسيري مدداً من الرجال وخمسمائة الف دينار ومؤناً وذخائر وثياباً وخيلاً ولكن لما علم باعادة بيعة الخليفة العباسي خاف ولم يعد يمده واكتفى باتخاذ الاحتياط لمنع تقـدمه ولولا ذلك لانتشرت سلطة الدولة الفاطمية الى اقصى ما بلغت اليه الدولة العباسية في عزها

حروب واضطرابات

وجرت في خلال ذلك في سوريا حروب آلت الى ضعف سطوة المستنصر . وذلك ان حلب كانت الى ذلك الحين لمعز الدولة والعرب من بني كلاب يهاجمونهـا فافلقوا راحتـه وطمعوا به فلم يرَ طريقة للتخلص منهم الا الالتجاء الى المستنصر

فكتب اليه انه لم يعد قادراً على البقاء في حلب على هذه الحال . وطلب اليه ان يرد هذه المدينة الى العباسيين وان يوليه بدلاً منها مدينة لا يكون للعربان يد اليها . فاعطاه مدن بيروت وعكا وجبيل وجعل على حلب مكين الدولة احد قواده فحصنها في شهر ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ . ثم سافر معز الدولة الى مصر وعقد فيها معاهدة مع المستنصر على المدن التي اعطيت له . وكان مكين الدولة لطيف المعاملة حليماً فسعد الشعب ايامه فرخصت الاسعار واستتبت الراحة الا ان بني كلاب لم ينفكوا عن مناواته بقيادة الامير محمود الكلابي ابن اخي اميرهم الاول وكان قد عنف عمه على تسليم ارضهم للخليفة فجاء مدينة حلب وغزاها وقتل حاميتها ودخلها فسلمت له في ٢ جمادى الثانية سنة ٤٥٢ هـ

اما مكين فكان محاصراً في قلعتها ولم يسلم فارسل الى مصر يستنجد المستنصر فأنجده بناصر الدولة أبي محمد الحسين بن الحسن بن حمدان الامير بدمشق واوعز اليه ان يسير بمن عنده من العساكر الى حلب يمنعها من محمود . فسار الى حلب فلما سمع محمود بقربه منه خرج من حلب ودخلها عسكر ناصر الدولة فنهبوها . ثم ان الحرب وقعت بين محمود وناصر الدولة بظاهر حلب واشتد القتال بينهم فانهزم ناصر الدولة وعاد مقهوراً الى مصر وملك محمود حلب وقتل عمه معز الدولة واستقام امره بها وهذه الوقعة تعرف بوقعة الفنيدق

فلما وصل ناصر الدولة الى مصر راى الخليفة ان يكافئه على فشله فولاه دمشق . وفي سنة ٤٥٥ هـ ابدله ببدر الجمالي وهو ارمني المولد كان مملوكاً لجمال الدولة ومنه لقبه وتقلب في مناصب عديدة اظهر بها مايدل على ثباته وحزمه . ولم تمض على سوريا مدة تحت ولايته حتى ساد فيها الامن لان الخليفة اذن للامير محمود ان يتولى حلب ولقبه بامير الامراء وعضد الدولة وسيف الخلافة

اما مصر فكانت اقل طمانينة من غيرها لان الوزير اليازوري كان يضطهد المسيحيين اضطهاداً شديداً ويسومهم اشد العذاب وكان يثير ضدهم الاحزاب في المديريات والقى القبض على البطريرك كريستودول وبعض الاساقفة وساقهم الى القاهرة . اما الخليفة فلم يكن راضياً بذلك فامر باخلاء سبيلهم بكل احترام فشق ذلك على الوزير فامر باقفال جميع الكنائس المسيحية في مصر من يعقوبية وملكية فثار مسيحو القطر فتدارك الخليفة الامر بالقبض على الوزير ونفيه الى تنيس ثم قتله

فتشاءم المسيحيون من تلك الحوادث ورافقها ظهور الشفق الشمالي وكسوف الشمس فكان منظر السماء مهيباً استمر ٤ ساعات اشتد فيها الظلام حتى شوهدت النجوم واوت الطيور الى اعشاشها رهبة . وولى الخليفة مكان اليازوري ابا الفرج البابلي

وبعد شهرين ابدله بعبدالله بن يحيي ثم بغيره حتى تقلب على وزارة مصر ٣٥ وزيراً في ١٢ سنة ولم تكن تزيدها هذه التقلبات الا تعقيداً . كل ذلك والتشكيات ترد الى الخليفة فترى من رجال الدولة والرعايا فتحير في امره ولم يكن يعلم مصدر هذه القلاقل فجمع رجالاً من جميع الطبقات وكلمهم ملياً واستطلعهم حقيقة الامر فلم يظهر له شيء مما كان يسمعه . ثم ازداد نفوذ السوقة على رجال الدولة فكانوا اذا اجمعوا على امر انفذوه ولو كان مناقضاً لاوامر الخليفة . فازداد الخليفة اضطراباً والاخبار ترد عليه متناقضة فلا يعلم ايها يتبع . ورجال القضاء بدلاً من ان ينظروا في التقارير كانوا يقضون اوقاتهم وقواتهم في المدافعة عما كان يتقدم في حقهم من التشكيات . فاشتد خوف الناس في الاقاليم حتى هاجروا منازلهم فازدادت الفوضى وكثر اللغط

وكان المستنصر يحتال في امر الحج فيذهب في زمرة من الحجاج على الجمال مظهراً الحج فاذا بلغ بهم محطة بركة عميرة حيث اعتادوا المبيت في ذهابهم الى الحج واياهم منه ثم دعيت بركة الحج ينزل بهم هناك فتدار عليهم الخمور بدل الماء ثم يعودون الى القاهرة

تاريخ الجند في الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة ادوار تشبه الادوار التي مرت بها الدولة العباسية فقد كان نفوذ الكلمة في الدولة العباسية باوائلها مشتركاً بين العرب والفرس ثم صار الى الفرس ثم الى الاتراك . والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر فكان النفوذ في اولها مشتركاً بين هذين العنصرين ثم صار الى البربر ثم الى الاتراك

والبربر قوم اشداء مساكنهم في شمالي افريقيا وقد نصروا الشيعة العلوية في المغرب كما نصرها الفرس في المشرق . وهم قبائل شتى مثل قبائل العرب الرحل وقد قاسى المسلمون في اخضاعهم عذاباً شديداً لانهم ارتدوا عن الاسلام اثنتي عشرة مرة ونبوا فيها كلها على المسلمين . ولم يثبت اسلامهم الا في ايام موسى بن نصير في اواخر القرن الاول . ولما نقم الناس على بني امية لتعصبهم على غير العرب كان البربر في جملة الذين خرجوا عليهم وتطاولوا للفتك بهم . وقد سرهم ذهاب دولة الامويين ولكن ساءهم انتقالها الى الاندلس على مقربة منهم لانهم كانوا يكرهونهم للعصبية فنصروا العلويين عليهم . — الا من اصطنعهم الاندلسيون بالمال — وللبربر فضل كبير في نشر الاسلام باواسط افريقية مثل فضل الاتراك في نشره باواسط آسيا الى الهند والصين .

لان البربر لما ثبت الاسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في افريقيا الغربية فنشروا الاسلام هناك

فلما قامت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من انصارها ولا سيما قبائل كتامة وصنهاجة وهوارة فاخذوا يساعد الفاطميين منذ قيامهم على ايام عبيد الله المهدي اول خلفائهم في اواخر القرن الثالث للهجرة . فلما تأيدت دولته سنة ٢٩٧ هـ اتخذ بطانته منهم وجعلهم من اهل الدولة وظلوا كذلك في خلافة ابنه القائم بامر الله (سنة ٣٢٢هـ) ثم المنصور بنصر الله (سنة ٣٣٣ هـ) ثم المعز لدين الله (سنة ٣٤١ هـ) وساعدوهم في تملك المغرب كله واخراجه من البيعة العباسية . وفي ايام المعز لدين الله فتح الفاطميون مصر وبنوا القاهرة ونقلوا دولتهم اليها

فلما افضت الخلافة الى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥ هـ اراد التشبه بالعباسيين فاصطنع الاتراك والديلم واستكثر منهم وقدمهم وجعلهم خاصته كانه خاف على حياته من البربر . فقامت المنافسة بين البربر والاتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلفه الحاكم بامر الله سنة ٣٨٦ هـ وكان يعتقد فضل البربر فقدمهم وقربهم فاشترطوا ان يتولى امورهم ابن عمار الكتامي (من البربر) فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم فاستبد في امور الدولة وقدم البربر واعطاهم وولاهم وحط من قدر الغلمان الاتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز . فاجتمعوا الى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلبيا وقد تاقت نفسه الى الولاية فاغراهم بابن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاها برجوان فقدم الاتراك والديلم واستخدمهم في القصر . ثم بدا للحاكم ان يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيراً من رجال دولة ابيه وجده فتضعضع البربر وقوي الاتراك

ولما مات الحاكم وخلفه ابنه الظاهر لاعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ اكثر من اللهو والقصف ومال الى الاتراك والمشارقة فانحط جانب البربر وما زال قدرهم يتناقص حتى كاد يتلاشى . فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧ هـ بعد الظاهر وكانت امه امة سوداء استكثرت في جنود ابنها من العبيد ابناء جلدتها حتى بلغوا الف عبد اسود . وكان هو يستكثر من الاتراك فاصبح الجند طائفتين كبيرتين تتنافسان وتتسابقان الى الاستئثار بالنفوذ . فآل التنافس الى حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة الى استنصار الشام فاتاه امير الجيوش بدر الجمالي من سوريا المتقدم ذكره كما سيجيء فقتل اهل الدولة واقام بمصر جنداً من الارمن وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد ان كانوا وجوهها واكابر اهلها

الفتنة بين العبيد والاتراك

ففي سنة ٤٥٤ هـ بينما كان الخليفة ومعه الحجاج في المكان المتقدم ذكره افرط احد الاتراك بالشرب حتى سكر فجرد سيفه على احد العساكر العبيد من حرس الخليفة فهجم رفاقه على التركي وقتلوه فاغتاظ الاتراك وتجمهروا بكثرة واتوا الى المستنصر وقالوا « اذا كان قتل هذا برضاك فالسمع والطاعة والا فلا نرضى به » فاجاب الخليفة انه حصل بغير رضاه فانقض الاتراك على السودانيين وكانوا كثاراً . فتخاصم الفريقان طويلاً وبعد واقعة هائلة انتهى الامر بعقد صلح على ان يكون القاتل تحت امر الاتراك ثم عادوا الى القاهرة . على ان الضغينة كانت تتزايد يوماً فيوماً . ولم ينفكوا عن الخصام . وكان السودانيون يطيعون الوزير فيأوون الى ثكناتهم . اما الاتراك فما فتئوا يضمون اليهم جماعات من العرب يتفقون معهم على المشاركة في السراء والضراء . واخيراً اقاموا عليهم ناصر الدولة الذي فشل في حملته على الشام وكان قد عزل من منصبه في دمشق واضمر للخليفة ووزرائه شراً واقام في القاهرة يترقب الفرصة للانتقام . فقبل تلك القيادة آلة لتنفيذ مآربه . ثم علم السودانيون انهم يعجزون عن مناواة الاتراك فهاجروا الى الصعيد فانضم اليهم كثيرون من اهله فاشتد ازرهم وكثر عددهم حتى بلغ خمسين الف مقاتل فنزلوا الى القاهرة والاسكندرية وهاجموا الاتراك في كوم شريك على الشاطيء الغربي لفرع رشيد من النيل (وقد اشتهر هذا البلد بعدئذ في الحملة الفرنساوية حيث غلبت المماليك) . وكان الاتراك عشرة الاف وقد كمنوا لاعدائهم حتى اذا جاءت الساعة هجموا على السودانيين وهم على الشاطيء فالقوا بعضهم في الماء وذبحوا البعض الاخر وفر الباقون وقدر بعض المؤرخين جملة من قتل وغرق منهم بثلاثين الفاً

وكانت والدة الخليفة قد تظاهرت جهاراً بنصرة السودانيين مواطنيها فشق عليها انكسارهم فغضبت على الاتراك وحقدت عليهم لانهم قتلوا احد اصدقائها المخلصين فانفذت الى السودانيين مدداً ساعدهم على الدفاع فجرت وقائع شديدة في اماكن مختلفة في جوار القاهرة وفي مصر العليا والسفلى . والتشكيات ترد الى الخليفة في امور مختلفة وجوابه الوحيد عليها قوله « ان ما حصل انما حصل بدون علمي فما انا مطالب به »

وبعد طول الخصام ضعف الفريقان فضعفت فيهم ساحة الانتقام فعادوا الى السكينة والقلوب لا تزال على غل . وعدد الاتراك يزداد كل يوم وقد صارت اليهم اعمال الحكومة فاقلقوا الخليفة بطلب زيادة مرتباتهم . وكانت قد نفدت ثروته ولم يعد قادراً

على اشباع مطامعهم وقد اصبح عبداً لاولئك العبيد الذين ربوا في كنفه ولم يجتمعوا الا لحمـاية شخصه . وكانت والدة المستنصر تزيد في الطين بلة فتأتيـه كل يوم ببناء جديد تطلب اليه اموراً ما انزل الله بها من سلطان وتصرُّ عليها فضاق المستنصر ذرعاً حتى اضطر سنة ٤٥٧ هـ الى الفرار على قدميه الى جامع عمرو يظهر الرغبة عن الملك الى العبادة فلما علم ارباب دولته بمكانه حملوه على العدول عن قصده فعاد قانطاً من الحيل

وفي سنة ٤٥٩ هـ قويت شوكة الاتراك وزاد طمعهم في المستنصر وأصروا على طلب الزيادة في مرتباتهم وضاقت احوال العبيد واشتدت ضرورتهم وكثرت حاجتهم وقل مال الخليفة واستضعف جانبه فبعثت ام المستنصر الى قواد العبيد تغريهم بالاتراك فاجتمعوا بالجيزة وخرج اليهم الاتراك بقيادة ناصر الدولة فاقتتلا مراراً ظهر في آخرها الاتراك على العبيد وهزموهم الى بلاد الصعيد فعاد ناصر الدولة الى القاهرة وقد عظم امره وكبرت نفسه واستخف بالخليفة

اما السودانيون فاجتمعوا بعد هذا الانهزام وتكاثروا حتى صاروا نحواً من ١٥ الف مقاتل فاستولوا على الصعيد وارادوا النزول الى القاهرة ونزل بعضهم الاسكندرية والبعض الآخر في الفسطاط . فهاج الذين في الفسطاط بدسيسة والدة المستنصر فاستشاط ناصر الدولة غضباً وعزم على قطع دابر السودانيين من القطر المصري او ان ينفصل الامر اما له واما عليه. فجمع رجاله وحارب السودانيين في الفسطاط فظهر عليهم وانحى في قتلهم واسرهم

ثم صار الى الصعيد فحاربهم وشتتهم ثم تحول الى مصر السفلى فاخرجهم منها ومن الاسكندرية واقام فيها من يثق به . ثم عاد الى القاهرة فنظفها من آثارهم وقتل من وصلت اليه اخباره ودخلت سنه ٤٦٠ هـ والمستنصر يحاول اعادة نفوذه عبثاً فاستشار ذوي شوراه فلم يجده احدهم نفعاً لانهم هم انفسهم لم يكونوا يرون فيه الاياقة لهذا المنصب وكانت الصعيد لاتزال في حوزة السودانيين ومصر السفلى لاتخضع الا لناصر الدولة ولا سيما بعد استيلائه على الاسكندرية . وكانت الفسطاط والقاهرة ايضاً تحت سيطرته واما اوامر المستنصر فكانت لاتكاد تجري على حاشيته . وقد استفحل الاتراك واستهانوا بالخليفة واستخفوا بقدره وصار مقررهم في كل شهر اربعمائة الف دينار بعد ما كان ٢٨ الفاً

حال المستنصر

تلك حال المستنصر في مصر اما في الخارج فلم تكن اصلح لان بدر الجمالي المتقدم ذكره اغتنم الفرصة واستقل بالشام والصالحي امير اليمن كان قد بايع الفاطميين فقتله احد قواده ودخلت مكة واليمن في حوزة الخلفاء العباسيين والفتن قائمة على الحدود بين امراء الاقسام ومن يعتدي عليهم فيخرجونهم من اماكنهم ويحتلونها فيلجأ أولئك الامراء الى القاهرة . وفي ختام الاضطرابات جاهر الروم بالحرب وزاد الطين بلة ان المستنصر لسوء تصرفه افسد العلائق بينه وبين الامير محمود صاحب حلب وقد تقدم انه حصل على رضاه حتى لقبه باشرف الالقاب . فلما طلب الروم الحرب كتب اليه المستنصر يستنجده بالنقود لحرب الروم واخراج الاتراك من بلاده فاجابه محمود «اما النقود فلا وجود لها عندي لاني اقترضت المال لاسترجاع حلب لسلطاني واصحاب المال يطالبونني . اما الروم فقد عقدت معهم صلحاً فاقرضوني مالاً لسد حاجتي واخذوا ابني رهناً عليها فلا ارى معاداتهم . اما الاتراك فانهم اقوى مني فاذا اردت طردهم طردوني» فاستشاط المستنصر غضباً لهذا الجواب وكتب الى بدر الجمالي صاحب الشام يعهد اليه الاقتصاص من امير حلب العاصي فلم يصدق بدر الجمالي ان جاءه هذا الامر فجند الى حلب

وخرج ناصر الدولة في اثناء ذلك من القاهرة لمحاربة السودانيين في الصعيد فلاقى منهم مقاومة لم يلاق مثلها فحاربهم مراراً وقد غلبوه في كل مرة فكتب الى الخليفة يشتكي امر السودانيين وياتي التبعة على والدته بانها تهيجهم وتمدهم بالعدة والمال سرًّا على يده . فاجاب الخليفة انه لا يعلم شيئاً عن امه وانما يتكلم عن نفسه ويقسم انه لم يدخل في هذا الامر اولاً ولا آخراً . فاشتد ناصر الدولة ورجاله وضموا اليهم مدداً وعادوا فهاجموا مهاجمة اليأس ففازوا بهم وانتخوا فيهم فمن نجا من القتل لم ير سبيلاً للنجاة الا في الفرار فتبعثروا وتلاشت قوتهم من ذلك الحين

فاصبح ناصر الدولة حملاً ثقيلاً على عاتق الخليفة واتم ذلك النصر اسباب ضعفه فقد وقد ذهبت هيبته ونفوذه من عيون رجاله الاتراك فلم يعودوا يكترثون بارامره ولا بشخصه واصبح صعلوكهم يقول عليه بكل سوء وتجمهروا يطلبون زيادة مرتباتهم فازعج الخليفة لذلك . ولم يكن يأمن على حياته ولا يرتاح في اكله ولا شربه ولا نومه حتى ولا في صلاته واصاب الوزراء نحو ذلك فتنازلوا عن الوزارة

منهوبات قصر الخليفة وخزانة الكتب

وكانت مطاليب الاتراك تحكماً منهم لانهم نالوا الزيادة اللازمة فبلغت مرتباتهم الشهرية اربعمائة الف دينار كما تقدم . فضلا عن قلة المال فبعثوا يطالبونه فاعتذر بعجزه فلم يعذروه وقالوا « بع ذخائرك » فاخرج كل ما كان في القصر من الذخائر الثمينة التي اشتغل الفاطميون بجمعها منذ تأسيس دولتهم . وصاروا يقومون ما يخرج اليهم باقل الاثمان ويأخذون ذلك مما لهم واقتسموها بينهم كما تراءى لهم لافرق في كونه حقاً او تعدياً . وكان الخليفة ووزير ماليته ينظرون الى المزاد قائماً على امتعتهما بلا قياس ولا يبديان حراكاً . وقد بالغ المؤرخون في تقدير تلك الامتعة الثمينة وقد ذكرها المقريزي وهي : قبة العشاري وقاربه وكسوة رحله وهو مما استعمله الوزير احمد بن علي الجرجراي في سنة ست وثلاثين واربعمائة وكان فيه مائة الف وسبعة وستون الفاً وسبعمائة درهم فضة نقرة وان المطلق لصناع الصاغة عن اجرة ذلك وفي ثمن ذهب لطلائه خاصة الفان وسبعمائة دينار وعمل ابو سهل التستري لوالدة المستنصر عشارياً يعرف بالفضي وحلى رواقه بفضة تقديرها مائة الف وثلاثون الف درهم ولزم ذلك اجرة الصناعة ولطلاء بعضه الفان واربعمائة دينار واستعمل كسوة برسمه بمال جليل وانفق على العشاريات التي برسم النزهة البحرية التي عدتها ستة وثلاثون عشارياً بالتقدير بجميع آلاتها وكساها وحلاها من مناطق ورؤس منجوقات واهلة وصفريات وغير ذلك اربعمائة الف دينار

ولما نهبوا القصر على ما تقدم كفوا عن مطالبته بزيادة المعاش بعد ان علموا انه لا يملك شيئاً لكنهم دخلوا مدفن اجداده واخرجوا منها كل ماوجدوه بها من التحف ثم عمدوا الى خزانة الكتب فاخرجوا منها آلافاً من الكتب في جملتها ٢٤٠٠ ختمة قرآن في ربعاته بخطوط منسوبه محلاة بذهب . وذكر بعض الذين شاهدوا النهب سنة ٤٦١ هـ قال « فرايت فيها خمسة وعشرين حملاً موقرة كتباً محمولة الى دار الوزير ابي الفرج محمد بن جعفر المغربي فسألت عنها فعرفت ان الوزير اخذها من خزائن القصر هو والخطير ابن الموفق في الدين بايجاب وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجبليين وان حصة الوزير ابي الفرج منها قومت عليه من جاري مماليكه وغلمانه بخمسة آلاف دينار . وذكر لي من له خبرة بالكتب انها تبلغ اكثر من مائة الف دينار ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير ابي الفرج وابن ابي كدينة وغيرهما هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة مع ما صار الى عماد الدولة ابي الفضل

ابن المحترق بالاسكندرية ثم انتقل بعد مقتله الى المغرب. وسوى ما ظفرت به لواتة محمولاً مع ما صار اليه بالابتياع والغصب في بحر النيل الى الاسكندرية في سنة احدى وستين واربعمائة وما بعدها من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الامصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة التي اخذ جلودها عبيدهم واماؤهم برسم عمل ما يلبسونه في ارجلهم واحرق ورقها تأولاً منهم انها خرجت من قصر السلطان وان فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم سوى ما غرق وتلف وحمل الى سائر الاقطار وبقي منها مالم يحرق وسفت عليه الرياح فصار تلالاً عرفت بتلال الكتب

وفي سنة ٤٦١ هـ لم يكتف ناصر الدولة بما حط من نفوذ الخليفة السياسي فعمد الى ان يحط من نفوذه الديني ويقيم من يخلفه ولم يكن ذلك ممكناً ان لم يأت بحجة تجنح المستنصر فلبث يترقب الفرص فاتفق وهو خارج من بيت الوزير ان رجلاً طعنه بخنجر فهم به ناصر الدولة وخنقه حالاً لان جرحه لم يكن بليغاً . ورأى تلك فرصة لايحسن ضياعها فادعى ان الخليفة المستنصر اغرى هذا الرجل على قتله وان مثل هذا الخليفة الغارق في الملاهي والمسكرات لا يستحق الخلافة . وكان ناصر الدولة قد اتفق مع الشريف ابي طاهر — وكان بدر الجمالي قد طرده فاتى الى القاهرة وجمع اليه عصابة يشد بها ازره وكان معروفاً بالتقوى والتدين . فوعده ناصر الدولة ان يوليه الخلافة بعد المستنصر بشرط ان يقتل بدر الجمالي صاحب الشام قبلاً وكان هذا مستقلاً هناك وناصر الدولة يخاف قدومه الى مصر . فانضم الى الشريف ابي طاهر اميران من عرب سوريا فاخذ من ناصر الدولة اربعين الف دينار للنفقات وسافر الثلاثة الى الشام والتف حولهم عدد وافر من الاحزاب . وكان بدر الجمالي ساهراً على حكومته فلم يلبث المؤامرون ان قابلوا حصون بدر الجمالي حتى قبض عليهم واخذت امتعتهم وقتل الشريف ابو طاهر سلخاً

ناصر الدولة

أما ناصر الدولة فلم ينفك ساعياً في مراده . واصبحت القوة العسكرية شطرين الواحد على غرض ناصر الدولة وهم الاتراك والآخر على غرض الخليفة . فلم ير الخليفة بدًّا من خطة الدفاع باظهار القوة . فكتب الى ناصر الدولة ينذره وينصح اليه بما نصه « تقربت منا وطلبت حمايتنا فحميناك وبذلنا لك العطاء فكافأتنا بالعقوق وما زادك حلمنا الا قحة فافسدت بين جيوشنا وتواطأت مع ذويك على مناوأتنا فالآن اخرج من بلدنا ونحن نضمن لك الامان ونؤذن لك بان تحمل معك ماشئت الى حيث شئت

وان لم تذعن اوقعنا بك عقاباً صارماً » فاجابه ناصر الدولة ساخراً فبعث المستنصر الى قواد الاتراك الذين كانوا من حزبه وبينهم دكز وهو من الد اعداء ناصر الدولة (مع انه حموه) وجاء معهم قواد المغاربة وامراء كتامة وطلب اليهم مبايعته ثانية فبايعوه

فرأى ناصر الدولة عدد رجاله قليلاً فبرح القاهرة الى الجيزة ونهبوا داره ودور حواشيه وقتلوا كثيرين منهم . ثم ركب المستنصر جواده ولبس درعه واحاطت به الاعلام فمر من تحتها جميع من في القاهرة من الاتراك وفيهم عدد عظيم من رجال ناصر الدولة . وسار الموكب حتى اتى بين القاهرة والفسطاط فنودي بانتصار للخليفة المستنصر. أما ناصر الدولة فلما رأى ما كان من قلة رجاله ونفاد ماله فرّ الى الاسكندرية وتحصن فيها وبعث الى اهله ان يقدموا ثم عمل على بث اغراضه في مصر السفلى بمساعدة بعض القبائل الاعراب فحمل الناس على خلع المستنصر ومبايعة القائم بامر الله العباسي

المجاعة والغلاء

أما الفسطاط والقاهرة فلم تكونا في معزل عن تلك القلاقل لان الجوع تمكن منهما لتقصير النيل مدة خمس سنوات متواليات . وامتد الجوع الى سنة ٤٦٤ هـ وكان معظمه سنة ٤٦٢ هـ . ومنذ سنة ٤٥٧ هـ لم يكن وفاء النيل كافياً للري . ثم توالت القلاقل التي اقتضت الاسراف بالحبوب ورافق كل ذلك اشتغال الحكومة بسياستها الداخلية عن الزراعة . فكل هذه الاسباب جعلت الحنطة نادرة جدًّا فبلغ ثمن الاردب الواحد مائة دينار والقطة ٣ دنانير والكاب ٥ دنانير ان وجدت . ورافق هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين فلم يبقَ من يزرع . وشمل الخوف من في العسكر ووافق ذلك ثورة العبيد فانقطعت الطرقات برًّا وبحراً الا بالخفارة الكثيرة . واما استفحل امر الجوع جاء المستنصر الى والي القاهرة واندره مقسماً برأسه انه اذا كان لا يتخذ طريقة لتخفيف هذه النازلة قطع عنقه . وكان الوالي عالماً بمخابئ كثيرة من الحنطة ولكنه لم يكن يعلم مقرَّها فاخرج بعض المسجونين المحكوم عليهم بالاعدام والبسهم ملابس الاغنياء واوقفهم في رحبة عمومية وامر بقطع رؤوسهم بدعوى انه لم يرَ سبيلاً لتخفيف وطأة الجوع الا بقتل الاغنياء . وقال انه لن ينفك عن القتل حتى يشبع الناس فخاف الاغنياء الذين كانوا قد اخفوا الحنطة وفتحوا مخازنهم وفرقوا الزاد على العباد

وكان ناصر الدولة قد حصر حبوب مصر السفلى ومنع شحنها الى القاهرة وجهاتها وجاء القاهرة وحاصرها بعد ان احرق كل ما مرَّ به من القرى والمدن فاضطر الخليفة

بعد طول المقاومة ان يفتح ابواب المدينة لناصر الدولة واتباعه . ولما دخل ناصر الدولة القاهرة زاد قحة وطمعاً فعاد الى مطامعه وادعى ان له على الخليفة مرتبات متأخرة وبالغ في احتقاره

ويحكى ان ناصر الدولة بعث مرة الى الخليفة فرآه الرسول في قصره جالساً على حصير بال ليس عنده من الفرش غيره وقد اصبح لا حاشية عنده الا ثلاثة خدم نصف عراة فطالب الرسول دفع المتأخر فالتفت اليه الخليفة قائلاً « أما يكفي ناصر الدولة ان أجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير؟ فليأخذ اذن هذا الحصير وهؤلاء العبيد وهذه الاثواب التي لاتكاد تستر عورتي ولينصرف عني » فبكى الرسول ورجع الى ناصر الدولة واخبره فتأثر من هذا القول واحمرّ خجلاً وتنازل عن طلبه وخصص للمستنصر مرتباً يومياً ينفقه على حاجات بيته

وفي سنة ٤٦٥ هـ تصالح ناصر الدولة مع حميه دكز ولكن هذا لم يزل في ريب من مقاصد صهره فعمد الى الايقاع به فاصطحب بعض خاصته وجاؤا الى دار ناصر الدولة التي تعرف بمنازل الغز وهي على النيل . فدخلوا من غير استئذان الى صحن داره فخرج اليهم ناصر الدولة في رداء لانه كان آمناً منهم . فلما دنا منهم ضربوه بالسيوف فسبهم وهرب منهم يريد الحرم فلحقوه وضربوه حتى قتلوه واخذوا راسه . ومضى رجل منهم يعرف بكوكب الدولة الى فخر العرب اخي ناصر الدولة وكان فخر العرب كثير الاحسان اليه فقال للحاجب « استأذن لي على فخر العرب وقل صنيعتك فلان بالباب » فاستأذن له فأذن له وقال لعله قد دهمه امر . فلما دخل عليه اسرع نحوه كانه يريد السلام عليه وضربه بالسيف على كتفه فسقط الى الارض فقطع رأسه واخذ سيفه . وكان ذا قيمة وافرة واخذ جارية له اردفها خلفه وتوجه الى القاهرة . وقتل اخوهما تاج المعالي وانقطع ذكر الحمدانية بمصر

بدر الجمالي امير الجيوش

على ان ذلك لم يكن ليسكن بال المستنصر اذ قد تخلص من شر ووقع في آخر لان دكز لم يكن اقل معاكسة له من صهره فالتجأ المستنصر الى بدر الجمالي حاكم سوريا المتقدم ذكره فكتب اليه سرّاً ان يأتي بجيشه الى مصر ليوليه عليها فقبل بدر مشترطاً ان يستبدل جنود مصر بمن يختارهم من اهل الشام

سافر بدر الجمالي من سوريا في عصبة من رجال قد اختبر شجاعتهم وامانتهم طويلاً وسار الى عكا ومنها بحراً الى مصر . وكانت الريح جيدة على غير المعتاد في مثل

ذلك الفصل لانه برح عكا في اول دسمبر (كانون الاول) وبلغ مصر ولم يشعر احد به ونزل بين تنيس ودمياط . فاستقبله سليمان كبير اهل البحيرة وتوجهوا نحو القاهرة فنزلوا في قليوب وبعثوا الى الخليفة ان يقبض على دكز قبل دخولهم فقبض عليه واعتقله في خزانة البنود . فدخل بدر الجمالي القاهرة يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الاولى سنة ٤٦٧ هـ . ولم يكن للامراء علم باستدعائه فما منهم الا من اضافه . فلما انقضت نوبهم في ضيافته استدعاهم الى وليمة اعدها لهم في منزله وبيّت مع اصحابه « ان القوم اذا اجنهم الليل فانهم لا بد يحتاجون الى الخلاء فمن قام منهم الى الخلاء يقتل هناك » ووكل بكل واحد واحداً من اصحابه وانعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الامير من دار ومال واقطاع وغيره . فصار الامراء اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين فما طلع ضوء النهار حتى استولى اصحابه على جميع دور الامراء وصارت رؤوسهم بين يديه . فقويت شوكته وعظم امره وخلع عليه المستنصر بالطيلسان المقوّر وقلده وزارة السيف والقلم . فصارت القضاة والدعاة وسائر ارباب الدولة من تحت يده وزيد في القابه لقب « اميرالجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين » . وتتبع المفسدين فلم يبقَ منهم احد حتى قتله . وقتل من اماثل المصريين وقضاتهم ووزائهم جماعة . ثم خرج الى الوجه البحري فاسرف في قتل من هناك من لواتة واستصفى اموالهم وازاح المفسدين وافناهم بانواع القتل وصار الى البر الشرقي فقتل منهم كثيراً . ونزل الى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة مع ابنه الاوحد فحاصرها اياماً من محرم سنة ٤٧٧ هـ الى ان اخذها عنوة وقتل جماعة ممن كان بها وعمر جامع العطارين من مال المصادرات وفرغ من بنائه في ربيع الاول سنة ٤٧٩ هـ ثم سار الى الصعيد فحارب جهينة والثعالبة وافنى اكثرهم بالقتل وغنم من الاموال مالا يعرف قدره كثرة فصلح حال الاقليم بعد فساده

وكان يسعى جهده في اسعاد المصريين لينسيهم ما قاسوه طويلاً فنشط الزراعة واباح الارض للمزارعين ثلاث سنين حتى ترفهت حال الفلاحين واغتنوا . وسهل سبل التجارة فتقاطر التجار الى مصر لكثرة عدله بعد نزوحهم منها في ايام الشدة . وامر بانشاء البنايات العظيمة في القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة وشاد الجوامع في الاسكندرية والقاهرة وجزيرة الروضة قرب المقياس . وكان المقياس قد اختل فاصلحه اصلاحاً يصح ان يقال فيه انه بناه ثانية . وبنى دار الوزارة الكبرى ودعيت بالدار الافضلية وسكنها ولم يزل يسكنها بعده من يلي امرة الجيوش الى ان انتقل الامر الى بني ايوب فاستقر سكن الملك الكامل في قلعة الجبل خارج القاهرة وأسكنها

السلطان الملك الصالح ولده . ثم ارصدت دار الوزارة ان يرد من الملوك ورسل الخليفة

وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية الى الديار المصرية وغيرها وعادت مكة الى مبايعة المستنصر بعد ان قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بامر الله العباسي في بغداد. ورفعوا الغطاء الاسود عن الكعبة ووضعوا مكانه الغطاء الابيض[1] وعليه اسم المستنصر بالله ولقبه . وبقيت مصر بعد ذلك ٢٠ سنة لم يحدث فيها مايهم التاريخ ذكره — واقل الامم ذكراً في التاريخ اسعدها

اما سوريا فان الامير اتسز احد الامراء التركمانيين اغتنم غياب بدر الجمالي فتقدم اليها غازياً فاستولى على بيت المقدس وطبرية وما بعدها حتى دمشق . ثم تحول الى مصر في ٢٠ الف مقاتل وعسكر في سهل بجوار القاهرة . وكانت الجيوش المصرية مشتغلة في اخماد ما بقي من نيران الثورة في الصعيد فاضطرب اهل القاهرة ولم ير بدر الجمالي بدًّا من مصالحة اتسز التركماني على ١٥٠ الف دينار يدفعها له بعد خروجه من مصر. فقبل اتسز بتلك الشروط لكنها لم تدم اكثر من ٥٠ يوماً تمكن امير الجيوش في اثنائها من حشد جيوشه من الصعيد واجتذاب قلوب بعض كبار العربان الذين تتألف منهم معظم خيالة اتسز وبعض رجال التركمان الذين اتوا معه . فلما صارت الجيوش المصرية بقرب القاهرة كتب امير الجيوش الى قافلة كانت تهيأت الى الحج كتاباً ونصه : « ان الجهاد اعظم ثواباً عند الله من الحج فانضموا الى جيوشنا » فاطاعوه ففرق فيهم المال والسلاح . فلما تكامل عدد رجاله جمعهم وهجم على اتسز ذات صباح بغتة واحكم في رجاله السيف فانهزموا وقد قتل جانب كبير منهم فتبعهم الاعراب والمصريون الى مسافة بعيدة . ثم عادوا الى معسكرهم فوجدوا فيه نحواً من عشرة آلاف ولد بين اناث وذكور قد اسرهم التركمان من مصر . وخسر التركمان على اثر تلك المعركة جميع البلاد التي افتتحوها في سوريا فدخلت في حوزة الخليفة المستنصر . ومات اتسز في دمشق اشقى موتة

اصلاحات امير الجيوش ومناقبه

فلم يعد امام بدر الجمالي من يخالف امره ويقف في سبيل ارادته في اصلاح البلاد وكان سور القاهرة قد تهدم بعضه فشرع في ترميمه وتقويته فزاد فيه الزيادات التي بين بابي زويلة وباب زويلة الكبير وبين باب الفتوح الذي عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن.

(١) اللون الابيض يختص بالفاطميين والاسود بالعباسيين والاخضر بالامويين

وزاد عند باب النصر ايضاً جميع الرحبة التي تجاه جامع الحاكم الى باب النصر. وجعل السور من لبن واقام الابواب من حجارة. وبنى باب زويلة وعلى ابراجه ولم يعمل له باشورة كما هي عادة ابواب الحصون من ان يكون في كل باب عطف حتى لا تهجم عليه العساكر في وقت الحصار ويتعذر سوق الخيل ودخولها جملة. لكنه جعل في بابه زلاقة من حجارة صوانية عظيمة حتى اذا هجم عسكر على القاهرة لا تثبت قوائم الخيل على الصوان. فلم تزل هذه الزلاقة باقية الى ايام السلطان الملك الكامل بن العادل الايوبي فاتفق مروره من هناك فاختل فرسه وزلق به واحسبه سقط عنه فامر بنقضها فنقضت وبقي منها شيء يسير. وكان احدها في ايام المقريزي لا يزال موجوداً قرب قبو الخرنفش. وبعد بضع سنين اضطرب القطر من عصبة ثارت تحت قيادة ابن بدر الجمالي لكنها لم تكد تأتي بضرر حتى انكسرت شوكتها

وفي سنة ٤٨٣ هـ احصى امير الجيوش الاراضي المصرية ومقدار خراجها وقابله بما كان يحصله الحكام قبله فراى ان الخراج الذي كان يستخرج منها قبله لم يتجاوز مليونين وثمانماية دينار اما في ايامه فتجاوز ثلاثة ملايين ومائة الف دينار لاعتنائه الخصوصي بالزراعة وتنشيط التجارة وكانتا رائجتين في ايامه. وما زال عاملاً بنشاط الى اوائل ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ فتوفي في القاهرة وسنه ثمانون سنة بعد ان حكم في مصر عشرين سنة حكماً مطلقاً. وكان الجميع يحترمونه وفي يده ازمة الاحكام يديرها بحكمة ودراية وثبات فتكاثرت ثروة البلاد وخصبها الى حد لم تبلغه قبلاً. وكان ينشط الزراعة والتجارة والعلم والادب على السواء. وكان شديد الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة قيل انه قتل من مصر خلائق لا يحصيها الا خالقها. منها نحو عشرين الفاً من البحيرة ومثل ذلك من اهل دمياط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد واصوان والقاهرة الا انه عمر البلاد واصلحها بعد فسادها باتلاف المفسدين من اهلها. ولا يزال امير الجيوش معدوداً لدى المصريين بمنزلة عمرو بن العاص واحمد بن طولون

وكان محباً للادباء يقرب الشعراء ويطرب لسماع الشعر. ومن الشعراء الذين مدحوه علقمة بن عبد الرزاق الفليمي وقد حدث بعضهم عنه قال «قصدت بدر الجمالي بمصر فرايت اشراف الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ولم يصلوا اليه — قال — فبينا انا كذلك اذ خرج بدر يريد الصيد فخرج علقمة في اثره واقام الى ان رجع من صيده فلما قاربه وقف على نشز من الارض واومأ برقعة في يده وانشأ يقول

نحن التجار وهذه اعلاقنا * درٌّ وجود يمينك المبتاع

قلب وفتشها بسمعك انما * هي جوهر تختاره الاسماع
كسدت علينا بالشآم وكلما * قل النفاق تعطل الصناع
فاتاك يحملها اليك تجارها * ومطيها الآمال والاطماع
حتى اناخوها ببابك والرجا * من دونك السمسار والبياع
فوهبت مالم يعطه في دهره * هرم ولا كعب ولا القعقاع
وسبقت هذا الناس في طلب العلا * فالناس بعدك كلهم اتباع
يابدر اقسم لوبك اعتصم الورى * ولجوا اليك جميعهم ماضاعوا

وكان على يد بدر بازي فالقاه وانفرد عن الجيش وجعل يسترد الابيات وهو ينشدها الى ان استقر في مكانه. ثم قال لجماعة غلمانه وخاصته «من احبني فليخلع على هذا الشاعر» فخرج من عنده ومعه سبعون بغلا تحمل الخلع والتحف وامر له بعشرة آلاف درهم فخرج من عنده وفرق كثيراً من ذلك على الشعراء» ولما مات بدر قام بما كان اليه ابنه الافضل

صقلية

وبعد وفاة امير الجيوش ببضعة ايام توفي الخليفة المستنصر في ١٨ من الشهر نفسه وسنه ٦٧ سنة وخمسة اشهر قضى منها ستين سنة في منصب الخلافة ولم يكن اهلاً لادارة الاحكام لضعفه وقصر حجته وتصديقه كلما يقال له مهما كانت حقيقته. فكان لقب الخلافة له اسماً لغير مسمى . ومع طول مدة خلافته لم يحدث فيها غير تلك الضيقات العظيمة. ولم تكن مصر وحدها في ذلك العذاب فان صقلية كانت من اغنى بلاد الفاطميين ثروة وكانت قبلاً في حكم الاغالبة ونظراً لبعدها عن كرسي الخلافة لم تكن فيها فائدة . وكان الولاة الذين يرسلون اليها يحاولون الاستقلال . ففي ايام الخليفة المعز لدين الله كان على هذه الجزيرة وال يقال له احمد راى الخليفة منه ميلاً عن الطاعة فنفاه الى افريقية واقام مقامه غيره وغيره وساروا كلهم على خطة واحدة. فتعددت القلاقل وانقسم اهل الجزيرة على انفسهم فلم يعد في امكانهم دفع من يغزوهم من الافرنج وزد على ذلك ان جيرانهم الافرنج سكان الجزيرة نظراً لما كانوا يعاملون به من الاستبداد كانوا يودون الخروج من سلطة المسلمين فجعلوا يكاتبون ابناء ملتهم من الدول الاخرى . وكل هذا جرى في ايام المستنصر وانتهى بخروج تلك الجزيرة من سلطة المسلمين

وذلك ان مسلمي هذه الجزيرة كانوا حزبين متضادين يرأس احدهما ابن تمامة فتحاربا فانهزم ابن تمامة برجاله والتجأ الى مدينة كاتان وكانت في حوزة الفرنساويين

من سنة ٣٧٢ هـ فاستبشر الفرنساويون بقدومه فاكرموا وفادته وامدوه بالعدة والرجال اما الحزب الآخر فكان قد استمد المعز بن باديس فامده بفرقة من افريقية فجرت بين الحزبين واقعة احتمدت نارها على الخصوص بين الاحزاب المساعدة وهم رجال المعز بن باديس من الجهة الواحدة والجيوش الفرنساوية تحت قيادة روجر الاول من الجهة الاخرى . وانتهت بانتصار ابن تمامة ورجال روجر وانهزام من كان في الجزيرة من المسلمين فدخلها روجر وقد نفذ سهمه . فاخذ يسعى في تمكين قدمه فبايعه اهلها سنة ٤٥٣ هـ وهكذا خرجت هذه الجزيرة من سلطة الفاطميين . وما زالت صقلية في حوزة روجر حتى مات فخلفه ابنه ولقب روجر الثاني سنة ٤٩٥ هـ فتتبع خطوات ابيه في اصلاح شأن الجزيرة فتقدمت في ايامه تقدماً عظيماً لم تبلغه في سائر ازمانها فنسيت الازمان التي مضت عليها وهي غارقة في التقلبات والتحزبات وسفك الدماء . اما المسلمون الذين اختاروا المكوث في الجزيرة فظلوا متمتعين بجميع حقوقهم المدنية والسياسية والدينية

وترى في الشكل السابع والاربعين صور النقود التي ضربت على عهد ملوك صقلية الاقدمين في باليرم عاصمة ايطاليا اذ ذاك

ش ٤٧ : نقود ملوك صقلية القدماء مضروبة في باليرم

وفي الشهر الاول من سنة ٤٨٧ هـ توفي المقتدي بالله الخليفة السابع والعشرون من بني العباس . وفي الشهر الاخير توفي المستنصر ووزيره الباسل اميرالجيوش كما تقدم . وكانت وفاتهما خسارة جسيمة على العالم الاسلامي وصدمة قوية على الخلافة . وترى في الاشكال ٤٨ و ٤٩ صور النقود الذهبية التي ضربت في ايام الخليفة المستنصر بالله فالاولى ضربت

في القاهرة سنة ٤٢٨ هـ والثانية ضربت سنة ٤٦٥ هـ . ولم يغفل بدر الجمالي قبل موته عن النظر في مستقبل المملكة فأوصى بتدبيرها لولده الثاني شاهين شاه (لان الاول كان عاصياً كما تقدم) اما هذا فكان فاضلاً حكيماً وكان قبل وفاة ابيه لاينفك عن

ش ٤٨ : نقود المستنصر ضربت سنة ٤٢٨ هـ

ملازمته والاقتداء بمناقبه فتدرب على يده وكان يساعده في ارائه فرأى فيه ابوه رجلاً يليق بادارة الاحكام واستلام زمام الامور . ولما تولى شاهين شاه الوزارة لقب بالافضل وبجميع الالقاب والامتيازات التي كانت لابيه امير الجيوش

ش ٤٩: نقود المستنصر ضربت سنة ٤٦٥ ﻫ

خلافة المستعلي بن المستنصر

من سنة ٤٨٧ — ٤٩٥ ﻫ او من ١٠٩٤ — ١١٠١ م

اما المستنصر فاوصى بالخلافة لابنه الثاني احمد الملقب بابي القاسم فبادر الافضل الى القصر واجلس ابا القاسم احمد بن المستنصر في منصب الخلافة ولقبه بالمستعلي بالله وسير الى الامير نزار والامير اسماعيل ولدي المستنصر فجاءا اليه فاذا اخوهما قد جلس على سرير الخلافة فامتعضا لذلك وشق عليهما . فأمرهما الافضل بتقبيل الارض وقال لهما « قبلا الارض لمولانا المستعلي بالله وبايعاه فهو الذي نصَّ عليه الامام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده » فامتنعا من ذلك وقال كل منهما ان اباه قد اوصى له بالخلافة وقال نزار « لو قطعت يدي ما بايعت من هو اصغر مني وخط والدي عندي بأني ولي عهده وانا احضره » وخرج مسرعاً ليحضر الخط فمضى لايدري به احد وتوجه الى الاسكندرية. فلما ابطأ مجيئه بعث الافضل اليه ليحضر بالخط فلم يعلم له خبرًا فانزعج لذلك انزعاجاً عظيماً

نزار وافتكين

وكان الافضل حاقدًا على نزار لاسباب منها انه دخل يوماً من باب وهو راكب فصاح به نزار « انزل يا ارمني » . فحقدها عليه وصار كل منهما يكره الآخر. فعاملت المستنصر خاف الافضل من مبايعة نزار لانه كان رجلا كبيرا هماماً وله حاشية واعوان فعمد الى مبايعة اخيه احمد بعد ان اجتمع بالامراء وخوفهم من نزار وما زال بهم حتى وافقوه على الاعراض عنه. وكان من جملتهم محمود بن مصال

فبعث الى نزار واعلمه بما كان من اتفاق الافضل مع الامراء على اقامة اخيه احمد وادارته لهم عنه ثم كان استدعاء الافضل له ولاخيه لمبايعة اخيهما . فلما خرج نزار ليأتي بوصية ابيه له بالخلافة سار من القصر متنكرًا ومعه ابن مصال الى الاسكندرية وفيها الامير نصر الدولة افتكين احد مماليك امير الجيوش بدر الجمالي ودخلا عليه ليلاً واعلماه بما كان من الافضل وترامي اليه ووعده نزار بأن يجعله وزيراً مكان الافضل فقبل ما انهم قبول وبايع نزاراً واحضر اهل الثغر لمبايعته فبايعوه ونعته بالمصطفى لدين الله

فبلغ ذلك الافضل فأخذ يتجهز لمحاربتهم وخرج في آخر محرم سنة ٤٨٨هـ بعساكره الى الاسكندرية فبرز اليه نزار وافتكين وكانت بين الفريقين وقائع شديدة انكسر فيها الافضل ورجع بمن معه منهزماً الى القاهرة . فقوي نزار وافتكين وصار اليهما كثير من العرب . واشتد نزار وعظم واستولى على الوجه البحري واخذ الافضل يتجهز ثانية لمحاربته ودسّ الى اكابر العربان ووجوه اصحاب نزار وافتكين ووعدهم . وسار قاصداً الاسكندرية فنزل اليها وحاصرها حصاراً شديداً والح في مقاتلتها

فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد البلاء من الحصار جمع ابن مصال ماله وفرّ في البحر الى جهة بلاد الغرب فانكسرت شوكة نزار واشتد الافضل وتكاثرت جموعه فبعث نزار وافتكين اليه يطلبان الامان فامنهما ودخل الاسكندرية وقبض على نزار وافتكين وبعث بهما الى القاهرة . فأما نزار فانه قتل في القصر بان اقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما . واما افتكين فقتله الافضل بعد قدومه

فعاد السلام الى المملكة فعكف الافضل على استرجاع البلاد التي كانت قد خرجت من الدولة الفاطمية ودخلت في حوزة دولة الارتقيين

دولة الارتقيين

وكيفية نشوء هذه الدولة ان السلجوقيين خرجوا من بلاد الترقبل ذلك الحين بنصف قرن فافتتحوا بلاد فارس وكانت تابعة للدولة العباسية ثم التقوا في غربيها بقبائل من التركمان عائشين على تربية المواشي لا معرفة لهم بالحروب فاخرجوهم من ضواحي بحر قزوين وساقوهم الى حدود سوريا . فلما بلغوا ذلك المكان اضطروا لتنازع البقاء ان يقاوموا من يمنعهم من نيل رزقهم فاستخدموا قوتي الهجوم والدفاع حتى اصبحوا كغيرهم من المحاربين ولكنهم ما لبثوا ان اصبحوا كذلك حتى كانت الدولة السلجوقية قد امتدت الى حيث هم فدفعتهم امامها فتقهقروا الى غربي سوريا

وانتشروا فيها وفي فلسطين . فامير التركمانيين المتقدم ذكرهم كان يدعى ارتق بن اكسك استولى على اورشليم فاسس دولة عرفت بدولة الارتقيين . وفي سنة ٤٨٤ هـ توفي ارتق عن ولدين الغازي وسقمان فحكما معاً في بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا وكانت جميع هذه البلاد في قبضة الخلفاء الفاطميين . ففي ايام شاهين شاه الافضل كان الارتقيون على ما تقدم والسلجوقيون في بلاد فارس والقسم الشرقي من سوريا

وفي سنة ٤٩١ هـ سار امير الجيوش الافضل لانقاذ بيت المقدس من الارتقيين فطلب اليهم التسليم فابوا فضربهـا بالمنجنيق فهدم بعضها فسلمت وفرّ الارتقيون الى شرقي سوريا . فسار سقمان الى الرها واقام لنفسه حكومة فيها وضم اليها ديار بكر واستولى الغازي على العراق العربي وانشأ مملكة في ماردين

الحروب الصليبية

ثم كانت الحروب الصليبية اذ ذاك في اول نشأتها نعني ايام التعصبات الدينية العمياء التي يخجل التاريخ من ذكرها . فكم اهرقت من الدماء وكم احرمت الناس من الراحة ـ ان ذلك التعصب ساق اهل اوربا من بلادهم بالعدة والرجال لمحاربة سوريا وفلسطين ومصر ولم تكن النتيجة الا اهلاك العباد المقصود انقاذهم . فمن نجا من السيف لم ينج من الاستعباد . واننا لنمسك القلم عن الخوض في هذا الموضوع الذي يسوّد القلوب ويشوّه وجه الانسانية

فتأمل الحالة التي كانت البلاد الاسلامية فيها من الارتباك وما كان في طريقها من العقبات كيف كانت منقسمة بينها . فقام اهل اوربا جميعاً وجاهروا بمحاربتها واحتشدوا في القسطنطينية بامر الامبراطور الكسكمون الاول والسلجوقيون يزحفون في آسيا يفتحون البلد بعد الآخر حتى بلغوا الاناطول فاصبحوا يهددون المسلمين في مصر كما يهددون النصارى في القسطنطينية . وما زالوا سائرين نحو القسطنطينية حتى ادركوا شاطئ البوسفور الشرقي فلم يبق بينهم وبين القسطنطينية الا ذلك البوغاز . وكان اذا ذكر اسم الله في معسكر المسلمين وقت الصلاة يسمعه المسيحيون في كنيسة ايا صوفيا على الجانب الآخر

ثم قطعت جيوش النصارى البوسفور وعددهم عظيم . فقابلهم السلطان قليج ارسلان السلجوقي بن سليمان شاه مؤسس الدولة السلجوقية فحاربوه

وارجعوه وجيشه الى الوراء واستولوا على نيقية ثم انطاكية . فجاء المسلمين مددٌ من كتبوغا امير الموصل ودقاق امير دمشق وجناح الدولة امير حمص . ومع كل منهم فرقة من الرجال فاحاطوا بالصليبيين وضيقوا عليهم فتجمع هؤلاء ودافعوا دفاع اليأس ودفعوا قوات المسلمين وفرقوها فلم يبقَ ما يوقفهم عن التقدم . فاستولوا على المعرة بعد حرب ودخلوا حمص بدون حرب وانتشر جنودهم في جميع انحاء سوريا الغربية وفلسطين كالامواج المتلاطمة فلاقتها جيوش مصر هناك . وكانت بيت المقدس في حكم الخليفة المستعلي الفاطمي منذ استخلصها من الارتقيين فحاصرها الصليبيون اربعين يوماً ثم افتتحوها عنوة ودخلوها يوم الاربعاء في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ (يوليو «تموز» سنة ١٠٩٩) بعد مذبحة استمرت اسبوعاً فاصبحت الجثث متراكمة في الاسواق فجعلوا يجمعونها في الجامع الاقصى . وقيل انه قتل في تلك المعركة نحو من ٧٠ الف نفس واغتنم الصليبيون غنائم كبيرة وساروا لفتح مصر

ش ٥٠ — قتال بين الصليبيين والمسلمين في القرن الحادي عشر للميلاد

نقلاً عن صورة مرسومة على زجاج نافذة بكنيسة القديس دنيس

فاضطربت مصر لتلك الاخبار واصبحت تخشى ان يصيبها مثل ذلك فحشد امير الجيوش لمحاربة الصليبيين جنداً وافراً تحت قيادة سعد الدولة . فساروا وما زالوا حتى التقوا بالجيوش الصليبية عند اسوار عسقلان فحاربوها فارجعوها على اعقابها . فلما راى الصليبيون انفسهم خارج حدود مصر لم يعودوا يطمعون فيها فوجهوا مطامعهم شرقاً الى مابين النهرين . فالتقت فرقة منهم بكمشتكين اميرملاطية وسيواس فكسرها ولم يوقفهم عن مرادهم . فساروا من الجهة الواحدة نحو ديار بكر الى سروج ومن الجهة

لاخرى حتى استولوا على ارصوف وقيصرية

ومرت سنتا ٤٩٣ و ٤٩٤ هـ في مثل هذه المناوشات . وفي يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٤٩٥ هـ توفي الخليفة المستعلي بالله في القاهرة بعد ان حكم ٧ سنوات وشهرين وله ولد اسمه المنصور لم يبلغ السادسة من عمره فكان شاهين شاه وصياً عليه كما كان وصياً على ابيه قبله . وكان قد عهد اليه ان يلقبه عند مبايعته بالآمر باحكام الله ففعل

خلافة الآمر بن المستعلي

من ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ او من ١١٠١ — ١١٣٠ م

وكان الصليبيون في اثناء ذلك لا يزالون في فتوحهم بسوريا وقد فازوا لانقسام الدول الاسلامية . وكان الواجب في مثل هذه الحال ان يتحدوا يداً واحدة لمقاومة اعدائهم لكنهم جاؤا بالعكس فانقسمت الآراء وتشتتت القوات فكانت تلك فرصة لجماعة الصليبيين لم يضيعوها لان الكونت سنجيل بعد ان استولى على طرسوس وحمص وجبيل وطرابلس الشام تقدم نحو عكا سنة ٤٩٧ هـ وحاصرها برّاً وبحراً . وكانت عكا في ذلك الحين تابعة لمصر وحاكمها يدعى زاهر الدولة ويلقب بالجيوشي لانه من اتباع امير الجيوش . وطال امد الحصار حتى ملّ الصليبيون الانتظار فهاجموا المدينة ودخلوها عنوة وفتكوا بمن فيها . وفرّ زاهر الدولة الى الشام ومنها الى مصر

ووصل الى مصر في ذلك الحين ايضاً الامير خلف بن ملاعب الكلابي . وكان والياً على حمص اخرجه منها تتاش صاحب دمشق زوراً سنة ٤٨٥ هـ فاتى مصر وعرض نفسه لخدمة الخلفاء الفاطميين . وكان قد طاف انحاء المملكة الاسلامية لاستطلاع احوالها شأن المحب لمعرفة حقائق الاشياء . فوصل مصر والخليفة في احتياج الى خدمته وذلك ان ابامه في غربي سوريا كان قد تملكها السلطان رضوان فخر الدولة السلجوقي واقام عليها والياً من قبله . فكتب هذا الوالي لامير الجيوش سرّاً انه مستعدٌ لتسليم المدينة لمن يرسله خليفة مصر . فتقدم الامير خلف لهذه المهمة فقبل فسار الى ابامه وتملكها . ولم ترسخ قدمه فيها حتى نبذ الطاعة واوقف دفع الجزية فاراد الخليفة معاقبته فلم يستطع لما كانت عليه سوريا من القلاقل والفتن . فانف قاضي تلك المدينة واعيانها من البقاء على تلك الحال . فبعثوا الى والي حلب يطلبون حمايته فحماهم فسلموا له المدينة وقتلوا خلفاً وبعض اهله . لكن الدهر لم يدم لهم لانهم ذهبوا غنيمة للصليبيين في سنة ٤٩٩ هـ

واول من قتل منهم القاضي المتقدم ذكره

وفي اثناء ذلك كان الكونت سنجيل محاصراً لطرابلس الشام وقد شخص امرها الى بغداد يستمد الخليفة المقتدر العباسي والسلطان ملك شاه السلجوقي فلم يمداه بشيء فاستجار اهلها بخليفة مصر فاجارهم وبعث الافضل احد اوليائه الى طرابلس فتملكها باسم الخليفة الآمر وارسل اليها بعد ذلك عمارة بحرية تدفع الصليبيين عنها فتأخر وصولها لمعاكسة الريح لها . وفي ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٣ هـ (يوليو سنة ١١١٠ م) فتح الصليبيون طرابلس الشام عنوة وقتلوا بعض اهلها واستعبدوا البعض فسببوا بدخولهم اليها من الخسائر ما لا يمكن ان تسببه الحرب

ففي سبع سنين كلها حروب دموية استولى الصليبيون على سوريا وفلسطين وجعلوا بيت المقدس قصبة ملكهم . أما مصر فكانت في جميع هذه الحوادث على الحياد الا المدافعة عند الحاجة . وكانت تعد ذاتها سعيدة لنجاتها من هجمات اولئك الصليبيين وكل ذلك بتدبير الافضل امير الجيوش

وفي سنة ٥٠٦ هـ امر الافضل ببناء خليج سماه بحر ابي المنجا لان الذي ناظر على حفره هو ابو المنجا ابو شعيا اليهودي . وانشأ الافضل ايضاً مرصداً عظيماً كلفه مشقات جسيمة . وجعل مركز ذلك المرصد على مرتفع في جوار المقطم كان يعرف قديماً بالجرف ثم لما اقيم فيه المرصد صار يعرف بالرصد

البدوية وابن عمها

على ان الهمة التي كان يبذلها الافضل امير الجيوش في سبيل مصالح البلاد لم تكن تحرك من الخليفة الآمر باحكام الله ساكناً . وكان منغمساً بالملاهي لا يسمع بغانية جميلة الا استقدمها . وكان له شغف خصوصي بالجواري البدويات . ومن اقاصيصه انه بلغه ان في الصعيد جارية من اكمل العرب واظرف نسائهم شاعرة جميلة فيقال انه تزيا بزي بداة الاعراب وصار يجول في الاحياء حتى انتهى الى حيها وبات هناك في ضائقة وتحايل حتى عاينها فما ملك صبره أن رجع الى مقر ملكه وسرير خلافته فارسل الى اهلها يخطبها فاجابوه الى ذلك وزوجوه بها . فلما صارت الى القصور شق عليها مفارقة ما اعتادته واحبت ان تسرح طرفها في الفضاء ولا تقبض نفسها داخل اسوار المدينة فبنى لها البناء الذي اشتهر في الجزيرة بالهودج . وكان على شاطئ النيل بشكل غريب . الا ان البدوية بقيت متعلقة الخاطر بابن عمها وبيت معه يعرف بابن مياح فكتبت اليه وهي في قصر الخليفة الآمر تقول :

يا ابن مياح اليك المشتكى ... مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حيي مرءا مطلقاً ... نائلاً ما شئت منكم مدركا
فانا الان بقصر موصد ... لا ارى الا حبيساً ممسكا
كم تثنينا باغصان اللوا ... حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى ... حيثما شاء طليق سلكا

فاجابها

بنت عمي والتي غزيتها ... بالهوى حتى علا واحتنكا
بحت بالشكوى وعندي ضعفها ... لو غدا ينفع منا المشتكى
مالك الامر اليه يشتكي ... هالك وهو الذي قد هلكا
شأن داود غدا في عصرنا ... مبدياً بالتيه ما قد ملكا

فبلغت الآمر فقال « لولا انه اساء الادب في البيت الرابع لرددتها الى حيه وزوجتها به »

وفي اواخر سنة ٥١١ هـ خرج بردويل ملك الصليبيين من بيت المقدس لافتتاح مصر بجيش غفير فوصل الفرما فاستولى عليها وذبح اهلها واحرق جوامعها . وهم بمصر فداهمه مرض حمله على العود حالاً فعاد الى بيت المقدس فمات قبل ان يدرك العريش فنزعوا احشاءه ودفنوها في مكان لا يبعد كثيراً من العريش في ارض رملية واقاموا على قبره حجراً كبيراً ولا يزال ذلك المكان معروفاً الى ايامنا باسم رمال بردويل . اما جثته فحملوها الى بيت المقدس . وبموت بردويل نجت مصر من فتح عظيم . وبقي الصليبيون مع سنوات اخرى لا يستطيعون مناهضة مصر لاشتغالهم بهجمات المسلمين من شرقي سوريا . ففي سنة ٥١٨ هـ اتى الصليبيون صور واخذوها صلحاً واذنوا للمسلمين ان يخرجوا منها بكل ما يستطيعون حمله . وكانت صور اذ ذاك تابعة لمصر تخاف خليفتها من تقدم الصليبيين الى مصر نفسها وكانوا قد كفوا عن الفتوح فنبههم اليه الارتقيون وعماد الدين زنكي في شرقي سوريا والعراق

وفي اثناء ذلك نشأت طائفة الباطنيين ويدعوهم بعض المؤرخين بالحشاشين لانهم كانوا يكثرون من تدخين الحشيش وهم فئة جمع بينهم التعصب والطمع . وكان رئيسهم يترصد فرصة للغزو والنهب فلما راى الدول القوية مشغولة بالحرب في انحاء المشرق وضع يده على بعض القرى الجبلية بجوار دمشق ثم جعل يناهض الصليبيين فيحاربهم تارة ويصالحهم اخرى الى ان انتهى الامر فاقام حكومته بين ظهرانيهم وابتنى حصوناً

منيعة ارهبت الولاة المسيحيين وخلفاء الاسلام فاجبرهم على دفع الجزية وقاية من فتكه بحياتهم فانه كان متفنناً في القتل بطرق سرية على يد بعض رجاله الدهاة . وفي سنة ٥٢٤ هـ سعى امير الباطنين في قتل الآمر باحكام الله فانفذ اليه بعض دهاته فقتلوه في ٢ ذى القعدة من السنة المذكورة وهو في طريقه الى زيارة معشوقته البدوية وسنه ٣٥ سنة وحكمه ٣٠ سنة تقريباً

وترى في شكل ٥١ صورة نقود الآمر باحكام الله ضربت بالاسكندرية سنة ٥١٢ هـ (انظر شكل ٥١)

ش ٥١ : نقود الآمر باحكام الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الحافظ بن محمد

من ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ او من ١١٣٠ — ١١٤٩ م

ولم يكن للآمر اولاد ذكور فكان الحق بالخلافة لابن عمه عبد المجيد بن القاسم ابن محمد ولكن ارملة الخليفة كانت حاملاً فلقب عبد المجيد بنائب الملك ريثما تلد وترون ماذا يكون المولود فوضعت ابنة فبويع عبد المجيد ولقب بالحافظ لدين الله . فاستوزر احمد بن الافضل بن امير الجيوش فقام بالوزارة حق القيام فعظم في عيني الخليفة فكثر حساده فقتلوه . فاستوزر وزيراً اخر اختبر فيه الدراية والحكمة واسمه بهرام لكنه لم يلبث ان قتل في اواخر سنة ٥٤٣ هـ فعزم الخليفة بعد ذلك ان يتولى اعباء الوزارة بنفسه

وفي خلال ذلك لم يكن في مصر اضطراب الا من حيث مشاركتها سوريا بالحروب الصليبية على انها ما فتئت ساهرة تخشى غائلة تلك التعصبات لكنها لم تكد ترتاح من حروبها في الشرق حتى ظهر لها عدو هائل في الغرب فاصبحت الدولة الفاطمية حجر بين مطرقتين : فعدوها في الشرق الصليبيون واما في الغرب فملك صقلية روجر الثاني وقد تقدم انه تولى هذه الجزيرة بالارث وكان الفاطميون قد علموا بذهابها من ايديهم فلم يأسفوا عليها لبعدها عن مركز حكومتهم . فلم يقنع روجر بما ناله فحملته مطامعه

ان يطلب الفتح فجرد عمارة من مائتين وخمسين شراعاً وتقدم نحو افريقية سنة ٥٣٩ هـ واستولى على برصة وقتل كل من كان فيها من الرجال واستعبد النساء . وفي سنة ٥٤١ هـ وضع يده على طرابلس الغرب واستولى في سنة ٥٤٣ هـ على المهدية مهد الخلافة الفاطمية وكان قد هجرها اهلها لجوع مدقع حل بهم . ثم تقدم روجر من هناك قاصداً الاسكندرية . فوقعت مصر في حيرة وقد اصبح هذا العدو في عينيها اشد وطأة من الصليبيين لاشتغال هؤلاء عن مصر بما كان يهددهم به زنكي واتابك محمود الملقب بالملك العادل نور الدين

وفي اثناء ذلك توفي الخليفة الحافظ في جمادى الثانية سنة ٥٤٤ هـ بعلة القولنج وكان كثير الاصابة بها . فعمل له موسى الطبيب النصراني طبل القولنج وهو عبارة عن طبل مركب من سبعة معادن عليه الكواكب السبعة وكان من خاصته ان الانسان اذا ضربه خرج الريح من مخرجه وهذه الخاصية كان ينفع في القولنج . وكان سن الحافظ عند موته ثمانين سنة ومدة حكمه ١٩ سنة و٧ اشهر ولم يكن من التدبير والحكمة على شيء فكان يعهد ادارة الاحكام لوزرائه مكتفياً بالسلطة الدينية المحصورة في كل خليفة ولم يكن لديه من السلطة السياسية الا التوقيع على الاوامر في تنشيب الامراء على اماراتهم شأن الدول عند وشك انحلال ملكها الا ان تغيير الوزراء جعل فيه بعض الاهتمام في الاحكام . وترى في شكل ٥٢ صورة نقود الحافظ لدين الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٤ هـ وهي السنة التي توفي فيها

ش ٥٢ : نقود الحافظ لدين الله

خلافة الظافر بن الحافظ

من ٥٤٤ — ٥٤٩ هـ ومن ١١٤٩ — ١١٥٤ م

واستخلف الحافظ ابنه اسماعيل ابا المنصور فبويع ولقب بالظافر بأمر الله لكنه لم يكن مطابقاً لذلك الاسم . وكان عمره ١٧ سنة وهو اصغر اولاد ابيه سناً وكان كثير اللهو واللعب والتفرد بالجواري واستماع الاغاني فكان ينظر الى الدسائس الجارية في قصره الآيلة الى خراب مملكته بعين المتردد المتهامل وبمثل ذلك كان ينظر الى تهديد جنود صقلية من جهة الغرب والصليبيين من الشرق وكل منهما يقترب رويداً رويداً من قاعدة المملكة الفاطمية والظافر مشعر بقرب سقوط خلافته ولا يبدي حراكاً

وفي السنة الرابعة من خلافته وهي سنة ٥٤٨ هـ حاصر الصليبيون عسقلان وكانت من اعمال الفاطميين ونظراً لوقوعها على حدود مملكتهم كانت عرضة لهجمات الصليبيين وكان الوزراء في ايام الخلفاء السالفين يعززونها بمهمات الدفاع . وفي اوائل خلافة الظافر توفي وزيره ووقع الخلاف بين ذوي شوراه فشغلوا بذلك عن صيانة البلاد فاهملوا امر عسقلان فاغتنم الصليبيون تلك الفرصة وحاصروا المدينة وضيقوا عليها حتى سلمت . فجاء خبر سقوطها الى القاهرة مع خبر آخر اشد وطأة منه وهو ان العمارة الصقلية نزلت على سواحل مصر واحرقت مدينة تنيس في بحيرة المنزلة ونهبت الفرما لكنها لم تتقدم اكثر من ذلك فأخذت ما أمكنها حمله من الغنائم وعادت من حيث أتت

ومن سنة ٥٤٩ هـ انتهت حياة الخليفة الظافر وحكمه معاً وسبب موته انه كان منهمكاً بالشهوات الوحشية مشتغلاً عن مهام الدولة فشق ذلك على وزيره العباس فأوعز الى ابنه نصر ان يقتله وينجي البلاد من شره ويتخلص مما كان يتقول الناس في عرضها من معاشرته اياه فاستدعاه الى دار ابيه سراً ولم يعلم به احد وتلك الدار هي المدرسة الحنفية التي عرفت بالسيوفية فقتله بها واخفى قتله في منتصف محرم سنة ٥٤٩ هـ فأتى نصر الى ابيه العباس واخبره بذلك من ليلته . ولما كان الصباح اقبل العباس الى القصر على جاري عادته في الخدمة واظهر عدم الاطلاع على قضيته وطلب الاجتماع به ولم يكن اهل القصر قد علموا بقتله بعد لانه خرج من عندهم خفية وما علم احد بخروجه فدخل الخدم الى موضعه ليستأذنوا للعباس فلم يجدوه فدخلوا الى قاعة الحرم فقيل لهم انه لم يبت هنا فتطلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يقعوا له على خبر فتحققوا قتله . فأخرج العباس

اخوي الظافر وهما جبريل ويوسف وقال لهما « انتما قتلتما امامنا . وما نعرف حاله الا منكما فاصرًا على الانكار وكانا صادقين في ذلك فقتلهما حالاً لينفي التهمة عن نفسه وعن ابنه

وترى في شكل ٥٣ صورة نقود الظافر بامر الله ضربت في الاسكندرية سنة ٥٤٥ هـ

ش ٥٣: نقود الظافر بامر الله ضربت في الاسكندرية

خلافة الفائز بن الظافر

من ٥٤٩ — ٥٥٦ هـ او من ١١٥٤ — ١١٦٠ م

فاستدعى عباس الفائز بن الظافر وتقدير عمره خمس سنوات وقيل سنتان فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وامر ان يدخل الامراء فدخلوا فقال لهم « هذا ولد مولاكم وقتل عماه اباه وقد قتلتهما به كما ترون والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل » فقالوا بأجمعهم « سمعنا واطعنا » وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس وسموه الفائز وسيروه الى امه وقد اختل من تلك الصيحة فصار يصرع في كل وقت ويختلج

الملك الصالح

فاخذ عباس من ذلك الحين يدبر الامور وانفرد بالتصرف ولم يبقَ على يده يد واما اهل القصر فانهم اطلعوا على باطن الامر واخذوا في اعمال الحيلة في قتل عباس وابنه فكاتبوا بذلك الصالح طلائع بن رزيك الارمني — وهو ابوالغارات الملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين كان قد سار الى زيارة مشهد الامام على بن ابي طالب بأرض النجف من العراق في جماعة من الفقراء وكان من الشيعة الامامية فتنبأ له الامام انه سيتولى مصر بناء على رؤيا رآها في منامه فسار من ساعته الى مصر وصار يترقى في الخدم حتى ولي منية خصيب (المنيا)

فلما صار اهل القصر الى ما صاروا اليه كتبوا الى طلائع وسألوه الانتصار لهم ولمولاهم والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب وسودوا الكتاب فلما وقف الصالح عليه أطلع من حوله من الاجناد وتحدث معهم في المعنى فاجابوه الى الخروج واستمال جمعاً من العرب وساروا الى القاهرة وقد لبسوا السواد

فلما قاربوها خرج اليهم من بها من الامراء والاجناد والسودان وتركوا عباساً وحده فخرج عباس في ساعته من القاهرة وخرج معه ولده نصر ومعهما شيء من المال وجماعة يسيرة من اتباعهم وقصدوا طريق الشام على ايلة في ١٤ ربيع اول سنة ٥٤٩ هـ . أما الصالح بن رزيك فانه دخل القاهرة بدون قتال وما قدّم شيئاً على النزول بدار عباس المتقدم ذكره . واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله وسأله عن الموضع الذي دفن فيه فعرّفه به وقلع البلاطة التي كانت عليه واخرج الظافر ومن معه من المقتولين فحملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد ومشى الصالح والخلق قدام الجنازة الى موضع المدفن في تربة الفاطميين

وتكفل الصالح بالخليفة الصغير ودبر احواله . وأما عباس فان اخت الظافر كاتبت صليبي عسقلان بشأنه وشرطت لهم مالاً جزيلاً اذا امسكوه فخرجوا عليه والتقوا به فتواقعوا وقتلوا عباساً واخذوا ماله وولده وانهزم بعض اصحابه الى الشام وفيهم ابن منقذ فسلموا . وسير الصليبيون نصر بن عباس الى القاهرة تحت الحوطة في قفص من حديد . فلما وصل تسلم رسولهم ما شرطه من المال فاخذوا نصراً وضربوه بالسياط ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويلة ثم انزلوه يوم عاشوراء سنة ٥٥١ هـ واحرقوه

ولم يحكم الخليفة الفائز بنصر الله الا ست سنوات . وفي سنة ٥٥٥ هـ توفي . وكانت مصر قد انحطت في ايامه الى مهاوي الضعف حتى انه كان يؤدي الاموال الطائلة ترضية للصليبيين في بيت المقدس ليتوقفوا عن الغزو من جهة عسقلان وغزة

خلافة العاضد بن يوسف

من سنة ٥٥٦ — ٥٦٧ هـ او من ١١٦٠ — ١١٧١ م

وبعد وفاة الخليفة الفائز اخذ الملك الصالح يهتم في اقامة من يخلفه فقدم السراي فقدموا له شيخاً من الاسرة الفاطمية لم يكن ثم احق منه للخلافة فهمّ بمبايعته فجاء احد اصدقائه وهمس في اذنه « ان سلفك في الوزارة كان احسن تدبيراً منك لانه لم يسلم نفسه لخليفة عمره اكثر من خمس سنوات » فرنت هذه العبارة في اذن الوزير

فعدل عن تنصيب هذا الشيخ وعمد الى عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ولم يكن بالغاً رشده . فبايعه ولقبه بالعاضد لدين الله . وهو الخليفة الرابع عشر للدولة الفاطمية ثم زوجه ابنته ومعها ثروة عظيمة

ولما كانت ادارة الاحكام منوطة بالوزير كان النفوذ الاكبر له ولم يكن الخليفة العاضد لدين الله اقل استعباداً من سلفه فلقب وزيره الصالح بلقب الملك . ففتحت اعين الاعداء عليه وفي جملتهم عمة الخليفة . فعزمت على قتله فارسلت اولاد الراعي فكمنوا له في دهاليز القصر وضربوه حتى سقط الى الارض على وجهه وحمل جريحاً لايعي الى داره فمات يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ وكان شجاعاً كريماً جواداً فاضلاً محباً لاهل الادب جيد الشعر وفيه عقلٌ وسياسة وتدبير . وكان ذا هيبة في شكله عظيماً في سطوته وغناه وكان محافظاً على الصلاة وفرائضها ونوافلها شديد المغالاة في التشيع صنف كتاباً سماه « الاعتماد في الرد على اهل العناد » جمع له الفقهاء وناظرهم عليه وهو يتضمن امامة علي بن ابي طالب والكلام على الاحاديث الواردة في ذلك . وله شعر كثير يشتمل على مجلدين في كل فن فمنه في اعتقاده :

يا امة سلكت ضلالاً بيناً حتى استوى اقرارها وجحودها
ملتم الى ان المعاصي لم يكن الا بتقدير الاله وجودها
لو صح ذا كان الاله بزعمكم منع الشريعة ان تقام حدودها
حاشا وكلاً ان يكون الهنا ينهى عن الفحشاء ثم يريدها

ولم يمت الصالح الا بعد ان انتقم من عمة الخليفة بامر الخليفة نفسه لانه لم يكن يحبها . ثم استوزر ابنه محيي الدين رزيك ولقبه بالملك العادل وكنيته ابو شجاع وهذا استلخف شاور

مشهد الحسين

ومن اعمال الملك الصالح طلائع بن رزيك انه علم بوجود مشهد الحسين في عسقلان . وكان امير الجيوش اثناء حروبه في سوريا قد ظفر بمدفن راس الامام الحسين في تلك المدينة فابتنى فوقه مشهداً فلما علم طلائع بوجود ذلك المشهد في تلك الجهة خاف عليه من الصليبيين فعزم على نقله الى مصر فابتنى له جامعاً مخصوصاً خارج باب زويلة دعاه جامع الصالح نسبة اليه على ان يجعل فيه المشهد . فلما فرغ من بنائه لم يمكنه الخليفة من ذلك بدعوى انه لايليق ان يكون ذلك الاثر الشريف خارج سور المدينة وابى الا ان يجعله في بعض اجزاء قصره المدعو قصر الزمرد فاقام له مشهداً هناك وفي سنة ٧٤٠ هـ احترق المشهد فأعيد بناؤه مراراً واخيراً اقيم في جواره جامع

حتى اذا كانت ايام الامير عبد الرحمن كخيا احد امراء المماليك فاعيد بناء المشهد الحسيني في اواخر القرن الثامن عشر للميلاد وبعد ذلك اعيد بناؤه برمته في ايام الخديوي اسماعيل ولم يبقَ من البناء القديم الا القبة المغطية لمقام الامام فاصبح على مانشاهده الآن وهو الجامع المعروف بجامع سيدنا الحسين في السكة الجديدة بالقاهرة

ضرغام

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيك قد انشأ في وزارته امراء يقال لهم البرقية . وجعل في مقدمتهم ضرغام ابا الاشبال . فترقى هذا الرجل حتى صار صاحب الباب . فلما تولى شاور الوزاره طمع ضرغام في سلبه اياها فجمع رفقته . وتخوف شاور وجمع اليه رجاله . فاصبح الجيش فرقتين فرقة مع ضرغام واخرى مع شاور . وبعد تسعة اشهر من وزارة شاور اي في رمضان سنة ٥٥٨هـ ثار ضرغام وصاح على شاور فاخرجه من القاهرة وقتل ولده الاكبر المسمى بطي وبقي شجاع المنعوت بالكامل وخرج شاور من القاهرة يريد الشام . وكذلك فعل الوزير رضوان بن ولخشي فانه كان رفيقاً له في تلك الكرة . واستقر ضرغام في وزارة الخليفة العاضد لدين الله بعد شاور وتلقب بالملك المنصور . فشكر الناس سيرته لانه كان فارس عصره وكان كاتباً جميل الصورة فكه المحاضرة عاقلاً كريماً لا يضع كرمه الا في سمعة ترفعه او مواراة تنفعه الا انه كان اذناً مستحيلاً على اصحابه فاذا ظن في احد شراً جعل الشك يقيناً وعجل بالعقوبة . فبلغه بعد حين ان رفاقه البرقية يسعون في خلعه واعادة الوزارة الى شاور فعلى عادته من التعجل ارسل اليهم وكانوا نحواً من سبعين اميراً سوى اتباعهم واحضرهم الى دار الوزارة ليلاً وقتلهم بالسيف صبراً فذهبت لذلك رجالة الدولة واختلت احوالها وضعفت اكابرها وفقد اصحاب الرأي والتدبير منها

اسد الدين شيركوه وصلاح الدين

وفي اثناء ذلك قصد الصليبيون بلاد مصر فخرج اليهم همام اخو ضرغام وحاربهم فغلبوه ونزلوا على حصن بلبيس وملكوا بعض السور ثم عادوا الى بلادهم . وعاد همام عوداً رديئاً فما هو الا ان قدم رسل الصليبيين على ضرغام في طلب مال الهدنة المقررة في كل سنة وهو ٣٣ الف دينار

ثم جاء الخبر بقدوم شاور ومعه اسد الدين شيركوه بن شادي — وهو كردي الاصل من قبيلة الروادية من اشهر قبائل الاكراد من مدينة دوين من اعمال اذربيجان .

وكان شيركوه هذا واخوه نجم الدين ايوب في خدمة الاتابك نور الدين صاحب دمشق منذ مدة طويلة واظهرا من اللياقة مامكن ثقته فيهما . فلما سار شاور الى دمشق استنجد اتابك نور الدين ليرجع الوزارة الى يده . فنور الدين لم يغفل عن هذه الفرصة التي تجعل له يداً بامور مصر فارسل معه اسد الدين شيركوه في كثير من المماليك (الغز) وسار معهما يوسف ابن اخيه نجم الدين بن ايوب وكان صغير السن ولم يكن ابوه راضياً بسفره في هذه الاخطار لصغر سنه . ولعل التقادير ساقته الى مصر ليكون سلطاناً عليها فان هذا الغلام صار بعد ذلك البطل الذي يلهج التاريخ بذكره السلطان صلاح الدين الايوبي . اما مولده فقلعة تكريت سنة ٥٣٢ هـ . وسار الاتابك نور الدين بنفسه مشيعاً جيوشه الى حدود مصر وقصده من ذلك ايهام الصليبيين الذين في طريقه انه آت لمحاربتهم فانحصروا في مدنهم ومر جيشه بامان ولا معارض حتى اتى مصر

قتل ضرغام وعود شاور الى الوزارة

فلما علم ضرغام بقدوم شاور ومن معه ومطاليب الصليبيين اضطرب واصبح الناس في ٢٩ جمادى الاولى سنة ٥٥٩ هـ خائفين على انفسهم واموالهم فجمعوا الاقوات والماء وتحولوا من مساكنهم وخرج همام بالعسكر في اول جمادى الآخرة فسار الى بلبيس وكانت له وقعة مع شاور انهزم ضرغام فيها . وصار الى شاور واصحابه جميع ما كان مع عساكر همام واسروا عدة ونزل شاور بمن معه الى التاج (قليوب) بظاهر القاهرة يوم الخميس ٦ جمادى الآخرة

فجمع ضرغام الناس وضم اليه الطائفة الريحانية والطائفة الجيوشية من الجند بداخل القاهرة وشاور مقيم في التاج اياماً ثم سار شاور ونزل في المقس (الازبكية) فخرج اليه عسكر ضرغام وحاربه فانهزم هزيمة قبيحة وسار الى بركة الحبش ونزل بالشرف الذي عرف بعد ذلك بالرصد وملك مدينة مصر (الفسطاط) واقام بها اياماً

فاخذ ضرغام مال الايتام الذي كان بمودع الحكم فكرهه الناس واستعجزوه ومالوا مع شاور فتنكر منهم ضرغام وتحدث بايقاع العقوبة بهم فزاد بغضهم له . ونزل شاور في ارض اللوق خارج باب زويلة وطارد رجال ضرغام وزحف الى باب سعادة وباب القنطرة وطرح النار في منظرة اللؤلؤة وما حولها من الدور وعظمت الحروب بينه وبين اصحاب ضرغام وفني كثير من الطائفة الريحانية فبعثوا الى شاور ووعدوه انهم عون له فانحل امر ضرغام فارسل العاضد الى الرماة يأمرهم بالكف عن الرمي فخرج الرجال الى شاور وصاروا من جملته وفترت همة اهل القاهرة واخذ كل منهم يعمل الحيلة في الخروج الى

شاور فامر ضرغام بضرب الابواق والطبول ماشاء الله من فوق الاسوار فلم يخرج اليه احد وتفرق عنه الناس فسار الى باب الذهب من ابواب القصر ومعه ٥٠٠ فارس فوقف وطلب من الخليفة ان يشرف عليه من الطاق وتضرع اليه واقسم عليه بآبائه فلم يجبه احد وظل واقفاً الى العصر والناس تنحل عنه حتى بقي في نحو ٣٠ فارساً فوردت عليه رقعة مكتوب فيها « خذ نفسك وانج بها » واذا بالابواق والطبول قد دخلت من باب القنطرة ومعها عساكر شاور فمر ضرغام الى باب زويلة فصاح الناس عليه ولعنوه وتخطفوا من معه وادركه القوم فاردوه عن فرسه قريباً من الجسر الاعظم فيما بين القاهرة ومصر القديمة قرب جامع السيدة نفيسة واحتزوا راسه في غاية جمادى الآخرة وفرّ منهم اخوه الى جهة المطرية فأدركه الطلب وقتل عند مسجد تبر خارج القاهرة وقتل اخوه الاخر عند بركة الفيل وبقي ضرغام ملقى على الارض يومين ثم حمل الى القرافة ودفن بها وكانت وزارته ٩ اشهر وكان من اجل اعيان الامراء واشجع فرسانهم واجودهم لعباً بالكرة واشدهم رمياً بالسهام وكان له مع ذلك خط ابن مقلة وكان ينظم الموشحات الجيدة . ولما جيء براسه الى شاور رفع على قفاه وطيف به فقال الفقيه عمارة

ارى جنك الوزارة صار سيفاً يحز بحده جيد الرقاب
كأنك رائد البلوى والا بشير بالمنية والمصاب

وهكذا اعيدت وزارة مصر الى شاور فاستلم زمامها وصار يدفع للافرنج نور الدين ثلث محصولاتها مقابلة لما بذله في اعادتها اليه . الا ان الافرنج لم يكن هذا حد مطامعهم في مصر فقد كان له بتلك الحملة غرضان الاول ان يقضي حق شاور لانه قصده مستنصراً والثاني ان يستعلم عن احوال مصر لانه كان يبلغه انها ضعيفة من جهة الجند واحوالها في غاية الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك

شاور وشيركوه

ولما اقيم شاور على مصر عقد بينه وبين اسد الدين شركوه اتفاقاً سرياً بشأن تسليم مصر الاّ ان الشيطان وسوس لشاور انه قادر على دفع جيوش نور الدين فينال السلطة لنفسه فكتب الى شيركوه ان يسير الى سوريا . فاعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور اليه . فلما راى ذلك ارسل الى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكموا على البلاد الشرقية فارسل شاور الى الصليبيين يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكانوا قد ايقنوا بالهلاك ان تم ملكه لها . فلما ارسل شاور يطلب منهم ان يساعدوه على اخراج اسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية

دعوته ونصرته وطمعوا في تملك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالاً على المسير اليه وتجهزوا وساروا . فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره الى اطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم ان الخطر في مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر اشد . فتركوا في بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس في الباقين الى مصر . وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الصليبيين في البحر لزيارة بيت المقدس فاستعانوا بهم فاعانوهم فسار بعضهم معهم واقام بعضهم في البلاد لحفظها . فلما قارب الصليبيون مصر فارقها اسد الدين وقصد مدينة بلبيس فاقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهراً يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والصليبيون ونازلوا اسد الدين شيركويه بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة اشهر وهو ممتنع بها مع ان سورها قصير جدًّا وليس لها خندق ولا ما يحميها وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئاً . فبينما هم كذلك اذ اتاهم الخبر بهزيمة الصليبيين على حارم وتملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس . فحينئذ سقط في ايديهم وارادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا اسد الدين في الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولان الاقوات والذخار قلت عنده وخرج من بلبيس في ذي الحجة

فلما وصل الى الشام اقام على حاله في خدمة نور الدين الى سنة ٥٦٢ وكان بعد عوده منها لايزال يتحدث بها ويقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير . فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الاخر في جيش قوي وسير معه نور الدين جماعة من الامراء فبلغت عدتهم الفي فارس وكان كارهاً لذلك ولكن لما راى جد اسد الدين في المسير لم يمكنه الا ان يسير معه جمعاً خوفاً من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام . فلما اجتمع معه عسكره سار الى مصر على البر وترك بلاد الصليبيين الى يمينه . فوصل الديار المصرية فقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل الفسطاط وتصرف في البلاد الغربية وحكم عليها واقام نيفاً وخمسين يوماً

وكان شاور لما بلغه مجيء اسد الدين اليهم قد ارسل الى الصليبيين يستنجدهم فأتوه على الصعب والذلول طمعاً في ملكها وخوفاً من ان يملكها اسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين . فالرجاء كان يقودهم والخوف يسوقهم . فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربي وكان اسد الدين وعساكره قد ساروا الى الصعيد فبلغ مكاناً يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والافرنج وراءه بها فأدركوه في

الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان ارسل الى المصريين والصليبيين جواسيس فعادوا اليه واخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم في طلبه فعزم على قتالهم . الا انه خاف من اصحابه ان تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه اقرب من سلامتهم لقلة عددهم وبعدهم عن اوطانهم وبلادهم وخطر الطريق . فاستشارهم فكلهم اشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقي والعود الى الشام وقالوا له « ان نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على الظن فالى اين نلتجيء وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌّ لنا »

فقام امير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب الشقيف وكان شجاعاً وقال « من يخاف القتل والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن مالنا من اقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما اخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا ويقول تأخذون اموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مصر الى الكفار والحق بيده » فقال اسد الدين « هذا الراى وبه اعمل » وقال ابن اخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال

فاقام اسد الدين بمكانه حتى ادركه المصريون والصليبيون . وهو على تعبية وجعل الاثقال في القلب يتكثر بها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينهبها اهل البلاد . وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولمن معه « ان المصريين والصليبيين يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم اني فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين ايديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا في اعقابهم » واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ووقف بهم في المجنبة

فلما تقابل الطائفتان فعل الصليبيون ماذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالاً يسيراً وانهزموا بين ايديهم غير متفرقين . فحمل حينئذ اسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا على المسلمين من الصليبيين الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن واكثر القتل والاسر . فلما عاد الفرنج من اثر المسلمين راوا عسكرهم مهزوماً والارض منهم قفراً فانهزموا ايضاً وكان هذا من اعجب مايؤرخ ان الفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل

ولما انهزم المصريون والصليبيون من اسد الدين بالبابين سار الى ثغر الاسكندرية وجبى ما في القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة

من اهلها سلموها اليه فاستناب بها صلاح الدين بن اخيه . وعاد الى الصعيد فملكه وجبى امواله واقام به حتى صام رمضان

واما المصريون والصليبيون فانهم عادوا واجتمعوا على القاهرة واصلحوا حال عساكرهم وجمعوهم وساروا الى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد الحصار وقل الطعام على من بها فصبر اهلها على ذلك وسار اسد الدين من الصعيد اليهم وكان شاور قد افسد بعض من معه من التركمان فوصل رسل الصليبيين والمصريين يطلبون الصلح ويبذلوا له خمسين الف دينار سوى ما اخذه من البلاد فاجاب الى ذلك وشرط على الصليبيين ان لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة فاجابوا الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية في نصف شوال ووصل شيركوه الى دمشق ثامن عشر ذي القعدة

الصليبيون في القاهرة

واما الصليبيون فانهم استقر بينهم وبين المصريين ان يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نورالدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار — هذا كله استقر مع شاور لان العاضد لم يكن له معه حكم وقد حجر عليه وحجبه عن الامور كلها . وعاد الصليبيون الى بلادهم بالساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور قد ارسل الى نورالدين مع بعض الامراء ينهى محبته وولاءه ويعرض الدخول في طاعته وضمن على نفسه انه يفعل هذا وبذل مالاً يحمله كل سنة فاجابه الى ذلك وحمل اليه مالاً جزيلاً فبقي الامر على ذلك الى ان قصد الصليبيون مصر سنة اربع وستين وخمسمائة

مضت على ذلك سنتان والافرنج (الصليبيون) لهم شحنة (ضابطة) في القاهرة وقد تسلموا ابوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم واعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالاذى العظيم . فلما راوا ذلك وان البلاد ليس فيها من يردهم ارسلوا الى ملكهم بالشام وهو مرى ولم يكن للصليبيين منذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء يستدعونه ليملكها واعلموه خلوها من موانع وهوّنوا امرها عليه بقصدها وتملكها فقال لهم «الراي عندى اننا لانقصدها ولا طمعة لنا بها واموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين وان نحن قصدناها لنملكها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لايسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين ولئن صار له فيها مثل اسد الدين فهو هلاك الصليبيين واجلاؤهم من ارض الشام» فلم يقبلوا

قوله وقالوا له « انها لامانع فيها ولاحامي . والى ان يتجهز عسكر نور الدين ويسير اليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة » فسار معهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون انهم يريدون قصد مدينة حمص فلما سمع نور الدين شرع ايضاً يجمع عساكره

وجدَّ الصليبيون في السير الى مصر فقدموها ونزلوا مدينة بلبيس وملكوها قهراً مستهل صفر سنة ٥٦٥هـ ونهبوها وقتلوا فيها واسروا . وكان جماعة من اعيان المصريين قد كاتبوا الصليبيين ووعدوهم النصرة عداوةً لشاور . منهم ابن الخياط وابن فرجلة فقوي جنان الصليبيين وساروا من بلبيس الى مصر فنزلوا على القاهرة في ١٠ صفر وحصروها فخاف اهلها ان يفعلوا بهم كما فعلوا باهل بلبيس . فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه . فلو ان الصليبيين احسنوا السيرة في بلبيس لملكوا الفسطاط والقاهرة . ولكن فشلهم في فتحها عاد على الفسطاط بالدمار لان شاور امر باحراقها تاسع صفر المذكور وامر اهلها بالانتقال منها الى القاهرة وان ينهب البلد . فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر اهلها وذهبت اموالهم ونعمتهم قبل نزول الصليبيين عليهم بيوم خوفاً من ان يملكها الصليبيون فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوماً

شاور والصليبيون

وارسل الخليفة العاضد الى نورالدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الصليبيين وارسل في الكتب شعورالنساء وقال «هذه شعورنسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الصليبيين » فشرع نور الدين في تسيير الجيوش . واما الصليبيون فانهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على اهلها وشاور هو المتولي للامر والعساكر والقتال فضاق به الامر وضعف عن ردهم . فاخذ الى اعمال الحيلة فارسل الى ملك الصليبيين يذكر له مودته ومحبته له قديماً وان هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح واخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين . فأجابه الى ذلك على ان يعطوه ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار مصري يعجل البعض ويمهل بالبعض . فاستقرت القاعدة على ذلك . وراى الصليبيون ان البلاد قد امتنعت عليهم وربما سلمت الى نورالدين . فاجابوا كارهين وقالوا « نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين فعجل لهم شاور مائة الف دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً . وجعل شاور يجمع لهم المال من اهل القاهرة

ومصر (الفسطاط) فلم يتحصل له اكثر من خمسة آلاف دينار لان اهل الفسطاط كانوا قد احترقت دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرون على الاقوات فضلاً عن الاقساط . واما اهل القاهرة فالاغلب على اهلها الجند وغلمانهم فلهذا تعذرت عليهم الاموال . وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه ويذلوا له ثلث بلاد مصر وان يكون اسد الدين مقيماً عندهم في عسكر واقطاعهم من البلاد المصرية ايضاً خارجاً عن الثلث الذي لهم

وكان نور الدين لما وصله كتاب العاضد بحلب فارسل الى اسد الدين يستدعيه اليه فخرج الرسول في طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت اقطاعه . وكان سبب وصوله ان كتب المصريين وصلته ايضاً في المعنى . فسار الى نور الدين واجتمع به وعجب نورالدين من حضوره في الحال وسره ذلك وتفاءل به وامر بالتجهيز الى مصر واعطاه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك . وحكمه في العسكر والخزائن واختار من العسكر الفي فارس واخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونورالدين الى باب دمشق فوصلها آخر صفر ورحل الى راس الماء . واعطى نورالدين كل فارس ممن مع اسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكيته واضاف الى اسد الدين جماعة آخرين من الامراء منهم مملوكه عزالدين جرديك وغرس الدين فلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسان المنجي وصلاح الدين يوسف بن ايوب اخي شيركوه على كره منه وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم - احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته . وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه وسيرد خبر ذلك

مقتل شاور

وسار اسد الدين شيركوه من راس الماء مجداً منتصف ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الصليبيون الى بلادهم بخفي حنين خائبين مما املوا وسمع نورالدين بعودهم فسره ذلك وامر بضرب البشائر في البلاد وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك فانه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لبلاد الشام وغيرها . واما اسد الدين فانه وصل القاهرة سابع جمادى الآخرة ودخل اليها واجتمع بالعاضد لدين الله فخلع عليه وعاد الى خيامه بالخلعة العاضدية وفرح به اهل مصر واجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة . ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه راى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه . وشرع يماطل اسد الدين في تقرير ما كان

بذل لنور الدين من المال واقطاع الجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى اسد الدين ويسير معه وبعده ويمنيه . ثم انه عزم على ان يعمل دعوة يدعو اليها اسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الصليبيين فنهاه ابنه الكامل وقال له « والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن شيركوه » فقال له ابوه « والله لئن لم تفعل هذا لنقتلن جميعاً » فقال « صدقت ولان نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من ان نقتل وقد ملكها الصليبيون فانه ليس بينك وبين عود الصليبيين الا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد » فترك ما كان عزم عليه

ولما راى العسكر النوري مطل شاور خافوا شره فاتفق صلاح الدين يوسف بن ايوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور . فنهاهم اسد الدين فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله

فاتفق ان شاور قصد عسكر اسد الدين على عادته فلم يجده في الخيام وكان قد مضى ليزور قبر الشافعي فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك في جمع من العسكر وخدموه واعلموه بان شيركوه في زيارة قبر الامام الشافعي . فقال نمضي اليه . فساروا اليه جميعاً فساير صلاح الدين وجرديك والقوه الى الارض عن فرسه فهرب اصحابه عنه فاخذ اسيراً فلم يمكنهم قتله بغير امر اسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا اعلموا اسد الدين فحضر ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه . وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فارسل الى اسد الدين يطلب منه راس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل وارسل راسه الى العاضد في السابع عشر من ربيع الاخر . ودخل اسد الدين القاهرة فراى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم « امير المؤمنين (يعني العاضد) يأمركم بنهب دار شاور » فتفرق الناس عنه فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور امير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقر في الامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق اليه من اصحابه واقطع البلاد لعساكره

واما الكامل بن شاور فانه لما قتل ابوه دخل القصر هو واخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم . فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لانه بلغه ما كان منه مع ابيه في منعه من قتل شيركوه وكان يقول وددت انه بقي لاحسن اليه جزاء لصنيعه

حضارة الفسطاط

قد علمت ما كان من احراق الفسطاط بامر شاور فيجدر بنا ان نذكر ما كانت عليه من الحضارة والثروة . وقد تقدم سبب بنائها على يد عمرو بن العاص وهي اول مدينة اسلامية بناها المسلمون بمصر . واخذت تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين في البلاد وتوطد سلطانهم حتى فاقت البصرة والكوفة في كثير من الوجوه وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة اميال . وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠٠ شارع مسلوك و ١١٧٠ حماماً . وقد يستبعد ذلك ولكن ايراده يدل في كل حال على العظمة والعمران . ومما نظمه الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

احنُّ الى الفسطاط شوقاً وانني ... لادعو لها ان لايحل بها القطر
وهل في الحيا من حاجة لجنابها ... وفي كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروساً والمقطم تاجها ... ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وبلغ من تزاحم الناس في الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ نفس وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠٠٠٠ دينار وهي دار الحرم لخمارويه

واشتهر من تلك الابنية دارٌ ضرب المثل بعظمها وغنى اهلها تسمى « دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبون فيها اربعمائة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان الاسطال التي كانت بالطاقات المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٠٠٠ سطل مؤيدة ببكر واطناب لها ترخي وتملأ . وذكر رجل دخلها في اواخر القرن الثالث للهجرة في زمن خمارويه بن احمد بن طولون قال « طلبت بها صانعاً يخدمني فلم اجد فيها صانعاً متفرغاً لخدمتي وقيل لي ان كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة فسألت كم فيها من صانع فاخبرت ان بها ٧٠ (كذا) صانعاً قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج »

وفي ذلك دليل على غنى اهل الفسطاط وترفهم . ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش . فقد يقتني احدهم الف فرشة او عشرة آلاف فرشة وذكروا رجلاً من اهل الفسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لحظية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها وقد تكون اثمانها فاحشة فلا يبالون لغناهم — قال القضاعي ان قطر الندى ابنة خمارويه كان في جملة جهازها الف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة

آلاف دينار. ناهيك بتأنقهم في المآكل والمشارب مما يطول شرحه وقد فصله المقريزي وغيره في كلامهم على الفسطاط

موت اسد الدين ووزارة صلاح الدين

فسرّ الخليفة العاضد جدًّا لنجاته من شاور . فاستلم اسد الدين الوزارة في يوم الاربعاء ١٧ ربيع اول سنة ٥٦٤ هـ وفرق العطايا في جيوشه التي رافقته الى مصر وامر النصارى بشد الزنانير على اوساطهم ومنعهم من ارخاء الذؤابة التي تسمى بالعذبة فكتب المهذب بن ابي المليح زكريا وكان مسيحياً الى اسد الدين بقوله :

يا اسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شد اوساطنا فما الذي اوجب كشف القفا

فلم يسعفه بطلبته ولا مكنه من ارخاء الذوابة وعند ما يئس من ذلك اسلم

ولم تطل مدة وزارة اسد الدين فعاجلته المنية في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٤هـ ولم يمكث في منصبه الا شهرين وخمسة ايام فقط . ودفن في القاهرة ثم نقل الى مدينة الرسول . وكان شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة . وكانت تتواتر عليه التحف والخوانيق فاعتراه خانوق عظيم ذهب بحياته . وكان يعدّ نفسه نائباً لنور الدين في مصر وانه قائم بمنصب الوزارة باسمه . وبعد وفاته احب العاضد ان يبين حبه له فولى مكانه ابن اخيه يوسف صلاح الدين ولقبه بالملك الناصر وكان لا يزال شاباً

وذكر ابن الاثير في سبب مجيء صلاح الدين الى مصر نقلاً عن صلاح الدين نفسه قال : لما اتت كتب العاضد الى نورالدين يستغيث به من الافرنج ويطلب ارسال العساكر احضرني واعلمني الحال وقال « تمضي الى عمك اسد الدين بحمص مع رسولي اليه ليحضر وتحثه انت على الاسراع فما يحتمل الامر التأخير » ففعلت . وخرجنا من حلب فما كنا على ميل منها حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى فامره نور الدين بالمسير . فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي اليّ فقال لي « تجهز يا يوسف فقلت والله لو اعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا انساه ابداً » فقال لنور الدين « لا بد من مسيره معي » فامرني نور الدين وانا استقيل . وانقضى المجلس وتجهز اسد الدين ولم يبق غير المسير فقال لي نورالدين « لابد من مسيرك مع عمك » فشكوت اليه الضائقة وعدم البرك فاعطاني ما تجهزت به فكانما أساق الى الموت فسرت معه وملكها . ثم توفي فملكني الله تعالى ما لا كنت اطمع في بعضه . اه

واما كيفية ولايته فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا النقد على العساكر ولاية الوزارة العاضدية بعد اسد الدين نهم عين الدولة اليازوقي وقطب

الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين . وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع اصحابه ليغالب عليها . فارسل العاضد الى صلاح الدين احضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه . وكان الذي حمله على ذلك ان اصحابه قالوا له « ليس في الجماعة اضعف ولا اصغر سناً من يوسف والراي ان يولى فانه لايخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم الينا فيصير عندنا من الجنود من تمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف اونخرجه » فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه احد من اولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولاخدموه

وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى اماله اليه وقال له « ان هذا الامر لايصل اليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما » ثم قصد الحارمي وقال له « هذا صلاح الدين هو ابن اختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر فلا تكن اول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك » فمال اليه ايضاً . ثم فعل مثل هذا الباقين وكلهم اطاع غير عين الدولة الياروقي فانه قال « انا لا اخدم يوسف » وعاد الى نور الدين بالشام ومعه غيره من الامراء . فثبت قدم صلاح الدين — ومع هذا فهو نائب عن نور الدين . وكان نور الدين يكاتبه بالامير الاسفهسلار ويكتب علامته على راس الكتاب تعظيماً عن ان يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب « الامير الاسفسلار صلاح الدين وكافة الامرء بالديار المصرية يفعلون كذا » واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال فمالوا اليه واحبوه وضعف امر العاضد . ثم ارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله . فارسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته وكلهم فعل ذلك . واخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاهم اهله والامراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطاعة

مؤتمن الخلافة وصلاح الدين

فلما اجمع المصريون على حب صلاح الدين ظهر حساده واكبرهم مؤتمن الخلافة وهو خصي كان بقصر العاضد واليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه . فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الصليبيين واستدعائهم الى البلاد والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه . وسيروا الكتب مع انسان يثقون اليه واقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فالقيه انسان تركماني فرأى معه نعلين جديدين فاخذهما منه وقال في نفسه « لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهيئة » وارتاب به وبهما فاتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه . وكان غرض مؤتمن الخلافة ان يتحرك الصليبيون الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها خرج

صلاح الدين في العساكر الى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون باجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره والصليبيون من بين يديه فلايبقى لهم باقية . فلما قرأ صلاح الدين الكتاب سأل عن كاتبه فقيل رجل يهودي فاحضر فامر بضربه وتقريره فاسلم واخبره الخبر . واخفى صلاح الدين الكتاب لكن مؤتمن الخلافة استشعر فلازم القصر ولم يخرج منه خوفاً واذا خرج لم يبعد من صلاح الدين ولا يظهر له شيئاً من الطلب لئلا ينكر ذلك

فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانية للتنزه فلما علم به صلاح الدين ارسل اليه جماعة فاخذوه وقتلوه واتوا برأسه . وعزل جميع الخدم الذين يتولون امر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش . وهو خصي ابيض وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير الا بامره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ولانه كان يتعصب لهم فحشدوا وجمعوا فزادت عدتهم على خمسين الفاً . وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر ايضاً وقاتلوهم بين القصرين وكثر القتل في الفريقين

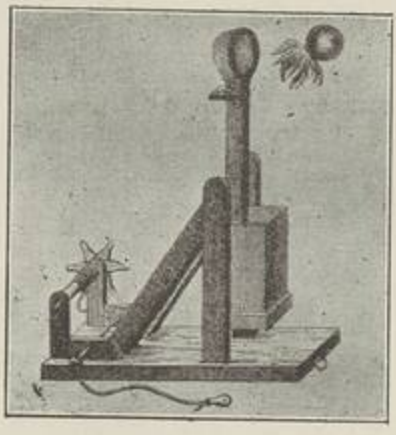

ش ٥٤ : آلة رمي قارورة النفط مشتعلة للاحراق

وكان العاضد في هذه الوقعة يشرف من المنظرة . اما اهل القصر فلما رأوا كسرة السودان وعساكر مصر رموا على الغز من اعلى القصر بالنشاب والحجارة حتى انكوافيهم وكفوهم عن القتال وكادوا ينهزمون . فامر حينئذ صلاح الدين النفاطين باحراق المنظرة فاحضر شمس الدولة النفاطين واخذوا في تطييب قارورة النفط ووضعوها في الآلة وصوبوا

بها على المنظرة التي فيها العاضد فخاف العاضد على نفسه وفتح زعيم الخلافة باب المنظرة وقال بصوت عال « امير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول دونكم والعبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم » فلما سمع السودان ذلك ضعفت قلوبهم وتخاذلوا . فحمل عليهم الغز فانكسروا وركب القوم اقفيتهم الى ان وصلوا سوق السيوفيين فقتل منهم كثير واسر منهم كثير وامتنعوا هناك على الغز بمكان فاحرق عليهم . وكان في دار الارمن قريباً من بين القصرين خلق عظيم من الارمن كلهم رماة ولهم جار في الدولة يجري عليهم . فعند ما قرب منهم الغز رموهم عن يد واحدة حتى امتنعوا عن ان يسيروا الى العبيد فاحرق شمس الدولة دارهم حتى هلكوا حرقاً وقتلاً . ومروا الى العبيد فصار هؤلاء كلما دخلوا مكاناً أحرق عليهم وقتلوا فيه . الى ان وصلوا الى باب زويلة فاذا هو مغلق فحصروا هناك واستمر فيهم القتل يومين . ثم بلغهم ان صلاح الدين احرق المنصورة التي كانت اعظم حاراتهم واخذت عليهم افواه السكك . فايقنوا انهم قد اخذوا لا محالة فصاحوا الامان فامنوا وذلك يوم السبت في ٢٨ ذي القعدة وفتح لهم باب زويلة فخرجوا الى الجيزة . فعدا عليهم شمس الدولة في العسكر وقد قووا باموال المهزومين واسلحتهم وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد . وتلاشى من هذه الواقعة امر العاضد ودعيت بواقعة العبيد . ومن غرائب الاتفاق ان الذي فتح مصر للدولة الفاطمية وبنى القاهرة يدعى جوهراً والذي كان سبباً في زوال هذه الدولة وخراب القاهرة يدعى ايضاً جوهراً الملقب بمؤتمن الخلافة

فلما انتهت هذه الواقعة واستفصلت جرثومة الفساد عاد صلاح الدين الى السكون فولى اخاه طوران شاه قوص واصوان وعيذاب مكافأة لما اظهره من البسالة في واقعة العبيد . وجعل البلاد المذكورة له اقطاعاً فكان دخلها في تلك السنة ٢٦٦٠٠٠ دينار . وفي سنة ٥٦٨ هـ خرج طوران شاه لغزو بلاد النوبة وفتح قلعة ابريم فسبى وغنم ثم عاد بعد ان اقطع ابريم بعض اصحابه . وفي سنة ٥٦٩ هـ خرج الى بلاد اليمن وفتحها عنوة ولقب بالملك المعظم طوران شاه

حصار دمياط

وكانت وزارة صلاح الدين في مصر سبباً لاضطراب الصليبيين . اما نور الدين فركب عمارة مصرية وجعل يطوف البحر المتوسط عند شطوط سوريا ليمنع مرور الوافدين الى الارض المقدسة ويستولي على ما يرد الى الصليبيين من المؤن والذخائر . فتشاور الصليبيون في شأن ذلك فاقروا على ارسال بطريرك صور فريدريك مع يوحنا اسقف

عكا لاستمداد ملوك فرنسا وانكلترا وصقلية وغيرهم من الامراء المسيحيين فلم ينجح مسعاهم . غير ان امبراطور القسطنطينية ارسل عمارة من مائة وخمسين شراعاً مملوءة بالذخار والمؤن والعدة والرجال فاتحدت بجند عسقلان وساروا برًّا وبحراً الى مصر حتى اذا بلغوا الفرما جدوا السير حتى اتوا دمياط فعسكروا بينها وبين البحر في صفر سنة ٥٦٥ هـ

وكانت هذه الحملة تحت قيادة الملك امري فظن انه يقدر على اخذ دمياط بالهجوم لكنه راى منها مقاومة ودفاعاً الزماه على اقامة الحصار فاقامه ولم يكن اكثر فائدة له من الهجوم لان اهل دمياط كانوا كثيرين ولم يبالوا بعدة الصليبيين وعددهم وطال الحصار حتى نفدت مؤونة الصليبيين فارادوا العبور في النيل ليأتوا بالزاد فاوقفهم سدٌّ اقامه المسلمون في عرض النهر وهو عبارة عن سلسلة قوية من الحديد طرفها الواحد

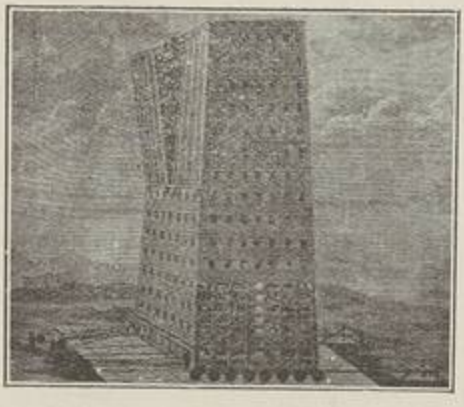

ش ٥٥ : برج من ابراج الحصار

مشدود بمتاريس دمياط والطرف الآخر ببرج هائل منيع الجانب من ابراج الحصار . وكانت الامدادات ترد لحامية دمياط من القاهرة بسهولة اما الصليبيون فكان انتظارهم للمدد من سوريا عبثاً فانتشر الجوع في معسكرهم وقام الشقاق بين الفرنساويين منهم وهم الذين كانوا في سوريا والروم الذين اتوا بالمدد من الاستانة . واشتد ذلك الاختلاف حتى افضى الى الانفصال التام بعد ان بلغ منهم الجوع مبلغاً عظيماً فكانوا يتخاصمون على كسرة ويضغون افنان النخيل . ومما زاد شقاءهم تكاثر الامطار وهبوب الزوابع على معسكرهم بدون انقطاع حتى اصبحوا كانهم في طوفان عظيم . وحصل من تكاثر الاعصار نوء في النيل اسرع جريه فتزاحمت مراكب الصليبيين وتلاطمت فلم يعد استخدامها

ممكناً لوقوعها بين قوتين متضادتين الريح من جهة ومجرى النيل من جهة اخرى فتكسر معظمها ثم انتشبت النار فيها فاحرقت ما بقي منها

فلما شاهد الافرنج ذلك لم يروا بدًّا من العود على اعقابهم الى سوريا صفر اليدين بعد ان تعاقدوا مع المسلمين ان لا يعارضهم معارض في سيرهم . وكان صلاح الدين قد اعد في القاهرة جيوشاً ليسير بها مدداً الى دمياط لكنها لم تبلغها حتى فارقت الجيوش الصليبية مراكزها فشق عليه ذلك وعنف الامراء الذين سمحوا لهم بالرجوع ثم عاد الى القاهرة

وفي السنة التالية جرد صلاح الدين على سوريا لمحاربة الذين ضافوه السنة الماضية فدخل فلسطين سنة ٥٦٦ هـ فعلم امري وهو في عسقلان انه حاصر قلعة دارون وهو دير قديم للنصارى على قمة جبل وعر على اربع اميال من غزة اتخذه الصليبيون معقلاً فاسرع الملك امري لمهاجمة صلاح الدين في ذلك المكان وكان صلاح قد علم الدين بقدومه فسار لملاقاته فلاقاه في منتصف الطريق وحاربه وغلبه ونزل على غزة فاستولى عليها . واستبشر المسلمون بهذه الانتصارات ولكنهم اكتفوا بها اخذاً بالثار فتركوا في غزة حامية وعادوا الى مصر فبلغوا القاهرة في اواخر السنة المذكورة

ثم بلغ صلاح الدين ان الافرنج احتلوا ايلة وتحصنوا فيها فسار اليها ومعه عصبة من رجاله الاقوياء وحمل معه مراكب مفككة ينقلها على الجمال ولما وصل الى البحر عند ايلة ركب تلك المراكب وانزلها البحر وهاجموا ايلة في ربيع الاول من السنة المذكورة برًّا وبحراً وما زالوا عليها حتى فتحوها وقتلوا من كان فيها من الصليبيين وجعل فيها صلاح الدين جماعة من ثقاته وقواهم بما يحتاجون اليه من سلاح وغيره وعاد الى القاهرة

وكان لصلاح الدين نفوذ عظيم في مصر ولم يكن الخليفة العاضد الا اسماً لغير مسمى ولم يعد لديه الا السلطة الدينية . فلاح لنور الدين ان يتخلص من سلطة الفاطميين فاوعز الى صلاح الدين ان يقطع خطبتهم ويخطب للخليفة العباسي

الخطبة العباسية بمصر

وفي سنة ٥٦٧ هـ جعل صلاح الدين الخطبة بمصر للخليفة العباسي بدلاً من الفاطمي . ومعنى ذلك في اصطلاحهم ان مصر عادت الى سيطرة العباسيين السنيين وخرجت من سلطة الفاطميين الشيعة وكان صلاح الدين سنياً . وكيفية البيعة ان صلاح الدين لما ثبتت قدمه بمصر وازال المخالفين له وضعف امر الخليفة العاضد وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وكان من اعيان الامراء الاسدية وكلهم يرجعون اليه .

فكتب اليه نور الدين محمود بن زنكي يامره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة للمستضيء بالله العباسي . فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام اهل الديار المصرية لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين فانه كان يخافه ان يدخل الى الديار المصرية وياخذها منه . فكان يريد ان يكون العاضد معه حتى ان قصده نور الدين امتنع به وباهل مصر عليه فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره والح عليه بقطع خطبته والزمه الزاماً لافسحة له في مخالفته لانه على الحقيقة نائب نور الدين . واتفق ان العاضد مرض في هذا الوقت مرضاً شديداً . فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار امراءه فمنهم من اشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافهم الا انه لم يمكنه الا امتثال امر نور الدين

وكان قد دخل الى مصر انسان اعجمي يعرف بالامير العالم فلما راى ما هم فيه من الاحجام وان احداً لا يتجاسر يخطب للعباسيين قال « انا ابتدىء بالخطبة له » فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بالله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان . وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا

موت العاضد وانقضاء الدولة الفاطمية

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه احد من اهله واصحابه بقطع الخطبة وقالوا ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته . فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة . ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش وكان قد رتبه قبل موت العاضد

فحمل جميع ما فيه الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم — فمنه الحجل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً او سبعة عشر مثقالاً واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله . ومنه النصاب الزمرد الذي طوله اربع اصابع في عرض عقد كبير . ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ . فلما راوه ظنوه عمل لاجل اللعب فيه فسخروا من العاضد وكسروه ثم علموا انه طبل قولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك . وكان في القصر من الكتب النفيسة المعدومة المثل مالا يعد فباع جميع ما فيه . ونقل اهل العاضد الى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم واخرج جميع من فيه من امة وعبد فباع البعض واعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كان لم يغن بالامس . وكان العاضد لما مرض ارسل الى

صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيراً بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه

ويقول بعض المؤرخين الصليبيين ان صلاح الدين قتل العاضد بيده الا ان الجمهور على خلاف ذلك . على اننا لا يسعنا الا لومه لتطرفه في احتقار الخليفة وتجريده اياه من ذات يده ومن متاعه . وقد بالغ بذلك حتى انه علم بجواد كريم كان يركبه الخليفة لترويح النفس في حديقته فطلبه منه فلم يسع الخليفة الا اعطاؤه اياه والتوقف عن الرياضة التي لم يبقَ لديه من ثروة الخلفاء سواها . وكان الخليفة العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة واذا رأى سنياً استحل دمه . وترى في الشكل الخامس الخمسين صورة نقود زجاجية ضربت في عهد الدولة الفاطمية ايام احتياجها للمال وقلة الذهب وحالما تولى صلاح الدين الغاها وضرب نقوده المعروفة بالنقود الناصرية نسبة اليه

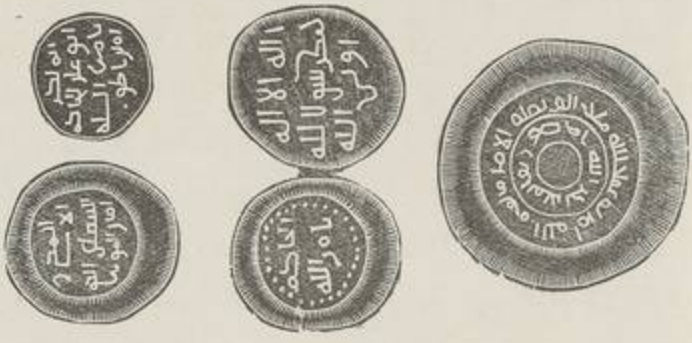

ش ٥٦ : نقود زجاجية مضروبة على عهد الدولة الفاطمية

حضارة الدولة الفاطمية

انقضت هذه الدولة بموت العاضد الفاطمي والخطبة للمستضيء العباسي سنة ٥٧٦ فيجدر بنا ان نأتي على ما كان من مبلغ حضارتها لولا ما نخافه من التطويل وقد افاض المقريزي في ذكره مفصلاً فنأتي على مثال من بذخهم وترفهم وقد ذكر شيء من ذلك

ادوات الترف

كان الفاطميون يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في اسباب الحضارة وكان التمدن الاسلامي قد نضج واخذت الدولة العباسية بالتقهقر ففاقوهم في كثير من اسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الاثاث والرياش والثياب فان العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا

كوز الزير من البلور مرصعاً بالجوهر وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس وتأنقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم . فاذا جلس الخليفة في احدى المناظر للراحة او تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب عليها اشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها المسكال باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ومن الصور الوحشية مايشبه الفيلة بينها عنبر معجون كخلقة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده . وعلى الفيل سرير منجور من عود بمتكآت فضة وذهب وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رؤوسهم الخود وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمراوان وهو على فريسته واشكال من سائر الوحوش . واصناف تشد من المرسين المسكال باللؤلؤ شبه الفاكهة

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها ادوات الترف يسمونها خزائن بعضها للفرش والبعض الآخر للجوهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسروج او الدرق او الكسوات او الادم او الشراب او النوابل او الخيم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزانة

الحلى والمجوهرات عند الفاطميين

فمما اخرجوه من خزانة الجوهر في ايام الشدة على عهد المستنصر بالله (سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة امداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انا نعرف قيمة الشيء اذا كان مثله موجوداً . واستخرجوا خريطة فيها وبية جوهر قال الصياغ ان لاقيمة له واصل ثمنه ٧٠٠٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين الف دينار ووجدوا ما لايحصى من اقداح البلور المنقوش والمجرود ومحوناً من الميناء منها مايساوي مئات من الدنانير وفي مكان آخر ١٨٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح اثمانها بين عشرة دنانير والف دينار كل قطعة . وصوان من الذهب المجراة بالميناء وغير المجراة المنقوشة بانواع النقوش و١٧٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب . ونحو مئة كاس بادزهر واشباهها على اكثرها اسم هارون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وانصابها من الجواهر المختلفة وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من

ذهب والفضة والصندل والعود والابنوس والعاج محلاة بالجواهر مما يساوي الف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة ازيار مملوءة كافوراً وعدة جماجم عنبر ونوافج مسك التيبتي وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٠٠ من الثياب المصمت الواناً و ١٠٠ قاطرميز مملوءة كافوراً قيصورياً ومعممات جواهر من ايام المعز . وبيت هارون الرشيد الخز الاسود الذي مات فيه بطوس . ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز ايضاً ويطول شرحه . وخزانة مملوءة بأنواع الصيني يساوي القطعة منها الف دينار وحصير من الذهب وزنه عشرة ارطال يظن انه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون وصوان من الذهب من ملك الروم اهداها الى العزيز بالله

ووجدوا انواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة اوالعاج والابنوس وعدد كبير من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة اقل كل منها وزنه ١٢ مناً ومن تماثيل الخليفة مالا يحد . والكلوثة المرصعة بالجوهر قيمتها ١٣٠٠٠ دينار فيها من الجوهر ١٧ رطلاً . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر وعلى رأسه من ياقوت احمر وريشه من الزجاج المينا الجري بالذهب على الوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر بطنه ابيض قد نظم من در رائق . وشجرة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الصنعة في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيأته ومن الجواهر لاقيمة لها . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة ارطال ومزيرة مكللة بحب اللؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من امثاله

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من اصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف . من ذلك ١٠٠٠٠ قطعة خسرواني اكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣٥٠ دينارا واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الاحمر المذهب و ٣٠٠٠ قطعة خسرواني حرير مطرز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها لكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه وبسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المخمل والديباج والخز وسائر انواع الحرير وعليها اشكال وصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف

الوانها واطوالها فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة ايامه وشرح حاله . و٤٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير كان المعز لدين الله امر بعمله وفيه صورة اقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب والفضة اوالحرير وقد كتب في آخره « مما امر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ »

فاعتبر ماتدل عليه هذه الآثار من رقي المدنية والحضارة وكم تكون قيمتها لو وجدت الان وكم يدفع المتمولون من المال في الحصول عليها

وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف ففي خزانة السلاح سيف الحسين ابن علي ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق ومئات الالوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج الوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي الف دينار الى سبعة الاف دينار . وفي خزانة الخيم انواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور والشراعات والمشارع العمومية من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج المكي والارمني والبهنساوي والكردواني وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من الفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير وغيرها من اشكال السباع والطيور والآدميين مما ينصب على اعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع ملحقاته مئة جمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام السادجة والمطرزة وغيرها

ومن ادلة الترف والاسراف في هذه الدولة ان السيدة الشريفة ست الملك اخت الحاكم بامر الله اهدت اخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهب منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبستان من الفضة مزروع من انواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن ان ما تقدم ذكره لايخلو من مبالغة اوهو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في الاعصر الاسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق ولذلك قالوا « من دخل مصر ولم يستغن فلا اغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف

وامثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الامر بنفسه ورأى هذه التحف راي العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التي اقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما اصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره — قال « وحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فمنه الجبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً او ١٧ مثقالاً انا لا اشك فيه لاني رايته ووزنته واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله اربع اصابع في عرض عقد كبير »

ش ٥٧ : السلطان صلاح الدين الايوبي

الدولة الايوبية

من سنة ٥٦٧ — ٦٤٨ هـ او من ١١٧١ — ١٢٥٠ م

سلطنة صلاح الدين يوسف

من سنة ٥٦٧ — ٥٨٩ هـ او من ١١٧١ — ١١٩٣ م

ولما علم صلاح الدين بوفاة العاضد وضع يده على القصر . وكان قد عهد الى بهاء الدين قراقوش ان يخفي التحف التي كانت قد جمعت . ثم القى القبض على جميع من بقي من الاسرة الفاطمية وهم الامير داود بن ولي العهد وينعت بالحامد لله واخواه ابو الامانة جبريل وابو الفتوح وابنه ابو القاسم . وسليمان بن داود بن العاضد وعبد الوهاب ابن ابراهيم بن العاضد واسماعيل بن العاضد وجعفر بن ابي طاهر بن جبريل وعبد الظاهر بن ابي الفتوح بن جبريل بن الحافظ وجعلهم تحت الحجر في مكان بعيد من القصر . اما مماليك العاضد وعبيده فباع بعضها وفرّق البعض الآخر في ارباب دولته

هكذا كانت نهاية دولة الفاطميين فقد غادروا القاهرة وفيها من آثارهم بنايات عظيمة وقصور ومناظر منها القصر الكبير الذي بناه جوهر عند ما اناخ في موضع القاهرة والقصر الصغير الغربي ونحو عشرة قصور اخرى جميعها متقنة ثمينة كلها قاعات ومناظر داخل سور القصر كان يقال لها القصور الزاهرة

ومن آثارهم عدة بساتين ومناظر باماكن مختلفة من القاهرة . وقلما بقي من تلك الآثار على حاله . ولكن هناك اثراً عظيماً لايمحوه كرور الايام نعني به القاهرة فانها من بنائهم كما علمت . وللفاطميين احاديث مطولة فيما يتعلق بهيئاتهم في مجالسهم العامة وكيف كان يجالسهم ارباب الدولة والفقهاء والعلماء وسائر انواع الاتباع وكيفية صلاتهم في المساجد وما يجري في ذلك من الاحتفال فمن احب الاطلاع عليه فليطالعه في خطط المقريزي

ويقال ان صلاح الدين وجد بين تلك الخزائن مكتبة تحتوي على مئة الف مجلد منتخبة من احسن المؤلفات . ولا يزال قسم منها الى الآن في مكتبة ليدن بالمانيا

نور الدين وصلاح الدين

ثم اسرع صلاح الدين الى تبليغ اتابك نورالدين انه انفذ امره وان الخليفة مات. واتصل هذان الخبران ببغداد فاصبح خليفتها منفرداً بالخلافة على سائر المشرق. فخلع على اتابك نورالدين وبعث اليه سيفين اشارة الى توليته على سوريا ومصر. وخلع ايضاً على صلاح الدين وبعث اليه بالاعلام السوداء يجعلها على المنبر. وبعد ان كانت القاهرة عاصمة من عواصم الاسلام امست كغيرها من المدن وتحولت العظمة جميعها الى بغداد

فلما رأى نورالدين نفسه سيداً على سوريا كلها تقريباً وعلى بعض جزيرة العرب وعلى اسيا الصغرى وما بين النهرين عزم على الاستقلال بها وبمصر. اما صلاح الدين فكان في نيته الاستقلال بمصر لنفسه منذ اول توليته فيها وكان بينه وبين نورالدين مكاتبات سرية ما لها المحافظة على سلطة الخليفة العباسي الدينية ريثما يتأتى لهم الاستقلال فكان صلاح الدين مع تظاهره في تأييد سلطة الخلفاء العباسيين لا يفتر ساعياً في اتمام مقاصده التي كانت تحت طي الخفاء. فاخذ في تربية الاحزاب واعداد القوات الى ما يمكنه من الاستقلال بمصر ومقاومة نور الدين اذا عارضه بذلك. فشعر نور الدين فبعث اليه على اثر وفاة العاضد يستقدمه وفرقة من رجاله مظهراً استنجاده على الصليبيين في الكرك. وقصده الحقيقي ان يخرجه من مصر ويبقيه عنده تحت مراقبته فيأمن طائلته فادرك صلاح الدين غرضه الحقيقي لكنه لم يستصوب مخالفة امره لئلا تتنافر القلوب فتتعرقل مساعيه فكتب اليه انه اذعاناً لامره برح القاهرة في فرقة من الجند للاقاة جند نور الدين في الكرك. فوصل نور الدين اليها ولم يجد فيها احداً فانتظر فلم يقدموا. ثم ورد اليه كتاب من صلاح الدين بانه برح القاهرة بجنده يطلب الكرك فعرض له في الطريق ما الجأه الى العود حالاً الى مصر

دهاء نجم الدين ايوب

فعلم نور الدين انها مماطلة مقصودة فاقرّ على المسير بنفسه الى مصر والاشتغال بصلاح الدين عن الصليبيين. لكنه قبل ذهابه بعث الى صلاح الدين يهدده بالعزل اذا لم يبادر الى ما امر به فجمع صلاح الدين اهله وفيهم ابوه نجم الدين ايوب وخاله شهاب الدين الحارمي وسائر الامراء. فلما تكامل الجمع اعلمهم بما كان بينه وبين نور الدين وما بلغه من عزمه على المجيء اليه واستشارهم فلم يجبه احد. فنهض تقي الدين عمرو ابن شاهين شاه اخي صلاح الدين فقال « ان الراي اذا جاءنا نور الدين قاتلناه ومنعناه

من البلاد » ووافقه غيره من اهلهم . فشتمهم نجم الدين ايوب والد صلاح الدين واستعظم اقوالهم وشتم تقي الدين واقعده وقال لصلاح الدين « انا ابوك وهذا شهاب الدين خالك وهل تظن بين هؤلاء من يحبك ويخلص لك اكثر منا ؟ » قال لا . فقال « اعلم يا يوسف اننا والله لو راينا نور الدين لم نمكث ان نقتل بين يديه ولو امرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا ؟ وكل الذين تراهم عندك من الامراء لو رأوا نور الدين وحده لم يجسروا على الثبات على سروجهم وهذ البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فان اراد سمعنا واطعنا . والرأي ان تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه : بلغني انك تريد الحركة الى هذه البلاد فاي حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني اليك وما هنا من يمنع »

وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا . ثم خلا ايوب بصلاح الدين فقال له « باي عقل فعلت هذا ؟ اما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا اهم الوجوه اليه وحينئذٍ لانقوى عليه ؟ واما الآن اذا بلغه ما جرى وما اظهرنا من الطاعة له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها . ووالله لو اراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته انا عليها حتى امنعه او اقتل » ففعل صلاح الدين ما اشار به ابوه

فلما جاء كتاب صلاح الدين الى نورالدين كما نصه ابوه سكن روعه وتوقف عن المسير الى مصر وعاد للاهتمام بامر الصليبيين وكانوا قد امعنوا في سوريا ولم تعد اخبارهم تصل لنور الدين بالسرعة اللازمة لاتساع ايالاته فاستخدم الحمام لنقل الاخبار فكانت تأتيه بها بزمن قريب

وثوب المصريين بصلاح الدين

اذعن المصريون لصلاح الدين وفي قلوبهم غل فتآمر جماعة من اصحاب الخلفاء الفاطميين على الوثوب به وسبب ذلك ان جماعة من الشيعة منهم عمارة بن ابي الحسن اليمني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان وحاشية القصر ووافقهم جماعة من امراء صلاح الدين وجنده ـ اتفق رأيهم على استدعاء الصليبيين من صقلية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شيء يبذلونه لهم من المال . فاذا قصدوا البلاد وخرج صلاح الدين بنفسه اليهم ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة الفاطمية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الصليبيين . وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ثاروا

واخذوه اخذاً باليد لعدم الناصر له . وقال لهم عمارة « وانا قد ابعدت اخاه الى اليمن خوفاً من ان يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده »

فارسلوا الى الصليبيين في ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الصليبيين . وكان من لطف الله بالمسلمين ان الجماعة المصريين ادخلوا معهم زين الدين علي بن نجا الواعظ والقاضي المعروف بابن بحية ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة . الا ان بني رزيك قالوا ان الوزير منا وبني شاور والقاضي قالوا يكون الوزير منا . فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين واعلمه حقيقة الامر فامره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطاتهم على ما يريدون فعله وتعريفه مايتجدد اول بول . ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه

ثم وصل رسول من ملك الصليبيين بالساحل بهدية ورسالة وهو في الظاهر اليه والباطن الى اولئك الجماعة . وكان صلاح الدين يرسل اليهم بعض النصارى تأتيه رسلهم فاتاه الخبر من بلاد الصليبيين بجلية الحال . فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق اليه من النصارى وداخله فاخبره الرسول بالخبر على حقيقته . فقبض حينئذ على المقدمين في هذه الحادثة ومنهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم

وقيل في كشف امرهم ان عبد الصمد المذكور كان اذا لقي القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يخدمه ويتقرب اليه فالقيه يوماً فلم يلتفت اليه. فقال القاضي الفاضل « ماهذا الاسبب » وخاف ان يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فاحضر علي بن نجا الواعظ واخبره الحال وقال « اريدان تكشف لي الامر » فسعى في كشفه فلم يراله من جانب صلاح الدين شيئاً فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضي الفاضل واعلمه . فقال « تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال اليه » فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع فذكر له الحال . فقام واخذ الجماعة وقررهم فاقروا فامر بصلبهم وكان بين عمارة وبين الفاضل عداوة من ايام العاضد وقبلها فلما اراد صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في اطلاقه وظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين « يامولانا لاتسمع منه في حقي » فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة « انه كان يشفع فيك » فندم ثم اخرج عمارة ليصلب فطلب ان يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فاغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودي في اجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها الى اقاصي الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من اهله واما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا اعلمهم انه علم بحالهم

واما الصليبيون فكانوا يتألفون عصباً ويتقدمون في سوريا يفتتحون مدنها وما زالوا في خطتهم هذه حتى لم يعد امامهم الا عدوان كبيران وهما نور الدين وصلاح الدين. وكان هذا الاخير يترقب الفرص لبلوغ مرامه فكان يغتنم فرصة اشتغال نور الدين بالمحاربة في مابين النهرين ويسير الى غزو سوريا وحالما يعلم بقدومه اليها يعود الى مصر حالاً

وفاة نورالدين ومناقبه

فآل ذلك الى النفور الشديد بين هذين الرجلين وهمَّ نور الدين بحشد الجيوش وتسييرها الى مصر لاخراج صلاح الدين منها واقامة حامية لحماية الحدود التي يخشى هجوم الصليبيين عليها . وبينما هو على اهبة الرحيل فاجأته المنية بعلة الخوانيق فمات في دمشق في شوال سنة ٥٦٩ هـ وسنه ستون سنة ومدة حكمه ٢٩ سنة . وكانت مملكته شاملة جميع سوريا الشرقية وقسماً من سوريا الغربية ومصر والموصل وديار الجزيرة . وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين . وكان قد اتسع ملكه جداً ، خطب له بالحرمين الشريفين وباليمن . وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه في الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين . واقد شكت اليه زوجته من الضائقة فاعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له يحصل منها في السنة نحو عشرين ديناراً . فلما استقالتها قال « ليس لي الا هذا وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا اخوض نار جهنم لاجلك » وكان يصلي كثيراً بالليل وله فيه اوراد حسنة وكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما احسن المحراب في المحراب

وكان عارفاً بالفقه على مذهب ابي حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث واسمعه طلباً للاجر . واما عدله فانه لم يترك في بلاده على سعتها مكساً ولا عشراً بل اطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند احكامها . واحضره انسان الى مجلس الحكم فمضى معه اليه وارسل الى القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري يقول « قد جئت محاكماً فاسلك معي ماتسلك مع الخصوم » وظهر الخوف له فوهبه الخصم الذي احضره وقال « اردت ان اترك له مايدعيه انما خفت ان يكون الباعث لي على ذلك الكبر والانفة من الحضور الى مجلس الشريعة فحضرت ثم وهبته

يدعيه » وبنى دار العدل في بلاده وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم من الظالم ولو انه ولده او اكبر امير عنده . واما شجاعته فاليها النهاية وكان في الحرب ياخذ قوسين ليقاتل بهما فقال له القطب النساوي الفقيه « بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالاسلام فان اصبت في معركة لايبقى من المسلمين احد الا اخذه السيف » فقال له نور الدين «ومن محمود حتى يقال له هذا أمن قبلي من حفظ البلاد والاسلام ؟ ذلك الله الذي لا اله الاهو » واما مافعله من المصالح فانه بنى اسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النوري بالموصل وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق وبنى الخانكاهات في جميع البلاد ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة وكان حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صورى وكان يكرم العلماء واهل الدين ويعظمهم ويقوم اليهم ويجلسهم معه ويتبسط معهم ولا يرد لهم قولاً ويكاتبهم بخط يده وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه

استقلال صلاح الدين بمصر والشام

فانتقلت مملكته بعد موته الى ابنه الملك الصالح اسماعيل وكان في الحادية عشرة من العمر . فأقيم شمس الدين محمد بن المقدم نائباً له في تدبير المملكة . فاستخف الناس به لصغر سنه حتى هم افراد اسرته بتنزيله لكنهم لم ينجحوا وحاول الملك امري غزوه فعاد خائباً . اما الامراء الذين كانوا على الامارات في مملكته فحاول كل منهم الاستقلال بذاته فأحب نائب الملك ان يسير الى صلاح الدين يستنجده فأوقفه اولئك الامراء . وفي خلال ذلك ورد اليهم والي نائب الملك كتبٌ من صلاح الدين تقول بوجوب الخضوع التام لخليفة نور الدين كما كان له وارسل نقوداً مضروبة في مصر باسم السلطان الجديد . ومما كتبه للامراء قوله « لو علم نور الدين ان فيكم من هو اكثر اهلية وامانة مني لولاية مصر فلا اشك انه كان يعهدها اليه وهي اجمل واخصب ولاياته واعلموا ايضاً انه لو لم يفاجئه القضاء لاقامني وصياً على ابنه وارى انكم تحاولون اخراج يدي ولكني سأذهب الى دمشق بنفسي واقدم عبوديتي الى هذا السلطان الجديد معترفاً بالافضال العظيمة التي حملنيها ابوه اما انتم فسأعاملكم بمقتضى تصرف كل واحد منكم لاني اعدكم من اهل الفتنة »

وجاء صلاح الدين الى دمشق بعد وصول كتبه بقليل واخرج منها سيف الدين غازي بن اخي نور الدين . وكان قد وضع يده عليها واعادها للملك الصالح ثم اسرع

في استرجاع الاماكن التي كان قد استقلّ بها بعض الامراء الصغار من اسرة نور الدين في سوريا الشرقية استخفافاً منهم بسلطة الملك الصالح . فاسترجع منهم حمص وحماة وبارين وسلامية وتل الخاطب وبعلبك والرها . الا ان هذه الفتوح لم تجد الملك الصالح نفعاً لانها دخلت في سلطة صلاح الدين ولم يعطِ منها شيئاً للملك الصالح . فاستنكف منه وخافه . ثم حاول صلاح الدين الاستيلاء على حلب وكانت في حوزة الملك الصالح على نية ان يخرجه الى شرقي البلاد السورية . واستنجد الملك الصالح ابن عمه سيف الدين غازي وكان قد ولاه الموصل فأمدّه . فاتحد الجيشان وهاجموا صلاح قرب في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ هـ فتغلب عليهم وسلب منهم امتعتهم واستولى على حلب وابطل الخطبة للملك الصالح وخطب لنفسه

فراى صلاح الدين اذ ذاك من قواته والاحوال المحيطة به ما يؤهله لبلوغ ماطالما كان يتمناه من الاستقلال بالملك . فصرح بسلطانه في مصر وسوريا وكان كذلك . فاصبح الصليبيون اعداءه مباشرة . اما هم فاغتنموا اشتغاله في جهات حلب وحملوا على البلاد الغربية من سوريا وجعلوا يفتكون باهلها ويسومونهم سوء العذاب يقتلون بعضهم ويأسرون البعض . فحاربهم طوران شاه اخو صلاح الدين فلم يقوَ عليهم . فبلغ ذلك اخوه وكان قد استقدم جنداً مصرياً . فانفذ بعضهم فارجعوا الصليبيين على اعقابهم فعاد الى اتمام فتوحه فحارب سيف الدين غازي وفاز به واستولى على بوزاع ومنبج وعيزاز حيث قبض على اثنين من الباطنيين وقتلهما بيده وكانا مرسلين من قبل امير الباطنيين ليقتلاه . وختم صلاح الدين فتوحة بمعاهدة عقدها مع سيف الدين غازي والملك الصالح تقضي باستبقاء جميع البلاد التي فتحها تحت سلطته وان لا يكون للملك الصالح دخل فيها

اصلاحات صلاح الدين بمصر

وعاد صلاح الدين الى مصر في ٢٠ محرم سنة ٥٧٢ هـ بعد ان استخلف اخاه طوران شاه على دمشق وكان قبل مسيره الى الشام قد استخلف على مصر وزيره الامير بهاء الدين الاسدي الخصي الفارسي الذي تقدم ذكره . فعهد اليه تدبير الاحكام وامره ان يقيم البنايات اللازمة لرونق البلاد ومنعتها . فانفذ بهاء الدين ما عهد اليه بغيرة ونشاط وكانت الجسور المبنية لتنظيم مجرى النيل عند الفيضان قد اهمل شأنها منذ تولى الخلفاء الفاطميون فاذا فاض النيل طغت مياهه على اليابسة وخربت الطرق وافسدت الزرع فمهد الطرق واحتفر الترع واقام الجسور والسدود واستخدم لذلك بعض حجارة

الاهرام الصغيرة التي كانت تحيط باهرام الجيزة وغيرها من ابنية المصريين القدماء . وانشأ طريقاً يمتد طولاً على ضفة النيل فيقيها من صدمات المياه وتسهل علائق العاصمة بمصر العليا والسفلى . وشاد فوق الترعة التي كانت تجري بين الجيزة واهرامها جسراً عظيماً مؤلفاً من اربعين قنطرة

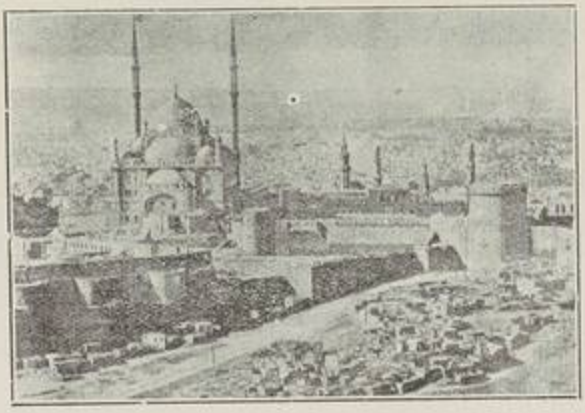

ش ٥٨ : قلعة القاهرة الآن

ولم يكن لصلاح الدين اذ ذاك مسكن الا القصران اللذان كانا للخليفة والوزير السابقين ولم يكونا منيعين حق المنعة فجعلهما منزلاً لامراء الدولة وقواد الجند وبنى في الطرف الشمالي من جبل المقطم على سفحه قلعة منيعة لارهاب الاهالي اذا حاولوا العصيان وجعل فيها قصراً لبلاطه . وكان في ذلك المكان بناء قديم من عهد الدولة الطولونية يعرف بقبة الهواء فهدمه واقام القلعة في مكانه واتى بحجارتها من خرائب منف والاهرام وغيرها فجاءت قلعة منيعة الجانب تشرف على كل المدينة وليس في القاهرة بناء آخر امنع موقعاً من القلعة وهي لا تزال باقية الى هذا العهد وتعرف بقلعة الجبل وقلعة القاهرة . واحتفر بهاء الدين في القلعة بئراً نقراً في الصخر عميقة جداً تسع كل ما تحتاج اليه الحامية من الماء ولا تزال البئر والقصر الى هذه الغاية يعرفان باسمه فالبئر تدعى بئر يوسف ويظن بعض العامة انها سميت هكذا نسبة الى يوسف الصديق ابن يعقوب والصحيح نسبتها الى يوسف صلاح الدين الذي امر باحتفارها . والغالب ان هذه البئر كانت محفورة من ايام قدماء المصريين ثم طمرت بالرمال فاعاد صلاح الدين حفرها وما بقي من القصر يعرف بديوان يوسف او ديوان صلاح الدين .

وابتنى هذا الوزير ايضاً حواصل كبيرة في الفسطاط لخزن الغلال التي ترد من الاعمال سنوياً ولا تزال تدعى الى يومنا هذا بمخازن يوسف وقد ظن بعضهم انها من بناء فرعون في زمن يوسف الصديق

سور القاهرة

وبعد ان فرغ بهاء الدين من اصلاح الترع والخلجان والطرق وبناء القلعة اخذ يهتم باتمام سور القاهرة وكان قد ابتدا بعمارته السلطان صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ وهو يومئذ على وزارة العاضد فلما عهد الى بهاء الدين اتمامه عمل له رسماً عظيم الاتساع يحيط بالقاهرة والفسطاط وقصر الشمع وما بينها من الارض. الا انه استعظم بناءه بهذا الاتساع فجعله محيطاً بالقاهرة والقلعة فقط واضطر لقيام مشروعه هذا الى هدم جوامع وبيوت وقبور كثيرة كانت في مكان السور. ولم يكن الاهالي معتادين على الاذعان لاوامر صلاح الدين كسلطان وبعضهم لايزال متشيعاً للدولة الفاطمية فاتهموه بالاستبداد ولقبوا بهاء الدين بقراقوش اي الطير الاسود وهو العقاب ولا يزال بعض عامة الشرقيين يعبرون بهذا الاسم عن الاستبداد والعسف وينسبون اليه احكاماً عجيبة في ولايته حتى ان الاسعد بن مماتي له كتاب لطيف سماه الغاشوش في احكام قراقوش وفيه اشياء يبعد وقوع مثلها منه . والظاهر انها موضوعة فان صلاح الدين كان معتمداً في احوال المملكة عليه ولولا وثوقه بمعرفته وكفاءته مافوضها اليه وكان رجلاً مسعوداً وصاحب همة عالية

وهذه هي المرة الثالثة لبناء سور القاهرة ففي المرة الاولى بناه جوهر وفي الثانية اميرالجيوش وفي الثالثة بناه بهاء الدين بامر صلاح الدين فزاد فيه القطعة التي من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر. وبنى قلعة المقس وهي برج كبير جعله على النيل بجانب جامع المقس الذي يعرف اليوم بجامع اولاد عنان وهو خارج باب البحر على يسار الذاهب من وجه البركة الى محطة السكة الحديد . وانقطع السور من هناك . وزاد في سور القاهرة قطعة مما يلي باب النصر ممتدة الى باب البرقية والى درب بطوط والى خارج باب الوزير يتصل بسور قلعة الجبل فانقطع من مكان يقرب من الصوة تحت القلعة والى الآن آثار الجدر ظاهرة للمتأمل فيما هو آخر السور الى جهة القلعة . وجاء دور هذا السور المحيط بالقاهرة ٢٩٣٠٢ من الاذرع الهاشمية

وقلعة المقس المذكورة كانت برجاً مطلاً على النيل في شرقي جامع المقس ولم تزل حتى هدمها الوزير الصاحب شمس الدين عندما جدد الجامع المذكور سنة ٧٠٧ هـ وجعل في مكان ذلك البرج حديقة . وحفر بهاء الدين خارج السور خندقاً جعله من

باب الفتوح الى المقس . ومن الجهة الشرقية خارج باب النصر الى البرقية وما بعده وجعل خارج هذا الخندق سوراً آخر بابراج مبني بالحجارة الا ان هذا السور الثاني هدم جميعه والخندق ردم الا في بعض الاماكن

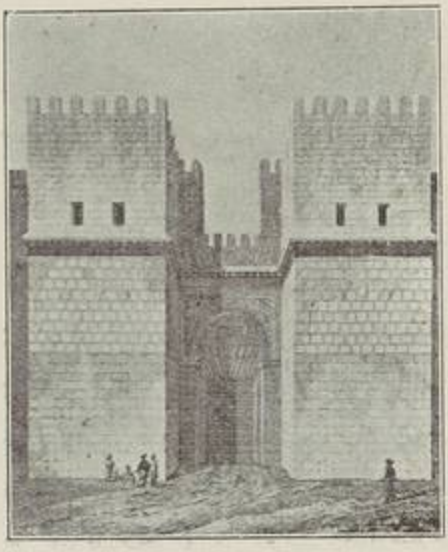

ش ٥٩ : باب النصر كما هو الان

وفي سنة ٥٧٣ هـ عاد الصليبيون الى التعدي فحصلت بينهم وبين صلاح الدين واقعة في الرملة كان الفوز فيها للصليبيين الا ان ذلك الفوز لم يلبث حتى انقلب عليهم لما حدث بين رؤسائهم من الانشقاق

وفي ٥ صفر سنة ٥٧٦ هـ توفي شمس الدولة طوران شاه في ثغر الاسكندرية وكان قد جاءها من دمشق فنقلته اخته ست الشام بنت ايوب الى دمشق ودفنته في مدرستها التي انشأتها بظاهر دمشق فهناك قبره وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين وقبر زوجها ناصر الدين بن اسد الدين شيركويه صاحب حمص وكانت قد تزوجته بعد لاجين

وفي سنة ٥٧٨ هـ حمل صلاح الدين على سوريا حملة ثانية وسببها ان الملك الصالح كان قد مات واستخلف عز الدين ملك الموصل فاراد هذا ان يخرق المعاهدة التي كانت قد عقدت مع صلاح الدين فاتصل ذلك بصلاح الدين واتصل به ايضاً ان امراء

الموصل تآمروا عليه سرًّا مع الصليبيين فاسرع الى سوريا فجاء حلب وحاصرها فسلمت ثم استولى على الرها والرقة ونصيبين وسروج وخابور وسنجار وحران ثم اتى فعسكر امام الموصل ولم يبق غيرها للملك الصالح فحاصرها وبعد اخذ ورد سلمت سنة ٥٨١ هـ واصيب فيها صلاح الدين بمرض شديد فانتشر ذلك في انحاء سوريا ثم بعث عز الدين يطلب المصالحة وكانت المصالحة النهائية لانهم جعلوا لها حيثية دينية ومن مقتضاها الخطبة لصلاح الدين في الموصل وسائر البلاد التي ارجعت للاتابك الملك الصالح . وان يعترف صاحب الموصل انه تابع لصلاح الدين وعليه تقديم العدة والرجال عند الحاجة لمحاربة الصليبيين

واقعة حطين

وفي ١٤ ربيع آخر سنة ٥٨٣ هـ كانت بداية واقعة حطين الشهيرة في وسط نهار الجمعة والاسلام كثيراً ما يحاولون لقاء عدوهم يوم الجمعة عند الصلاة تبرُّكاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر في سائر العالم الاسلامي في وقت واحد . فسار السلطان صلاح الدين بما اجتمع لديه من الجند على اتم نظام وحط رحاله عند بحيرة طبرية على سطح الجبل على امل ان الافرنج اذا بلغهم نزوله هناك يقدمون اليه وكانوا معسكرين في مرج صفورية بارض عكا فلم يتحركوا من منزلهم . فسار صلاح الدين في جريدة من جيشه الى طبرية واستلمها بساعة بعد القتل والنهب الا ان القلعة بقيت سالمة بمن فيها . فبلغ الافرنج ما حصل في طبرية فساروا نحوها فعلم السلطان بذلك فترك على قلعة طبرية من يحاصرها وعاد لملاقاة العدو فالتقى به على سطح جبل طبرية الغربي في يوم الخميس ٢٢ ربيع آخر وبعد حرب شديدة تفرقت جيوش الصليبيين الافرقة منهم تحصنت في تل يقال له تل حطين وهي قرية هناك عندها قبر النبي شعيب فضايقهم المسلمون واشعلوا حولهم النيران فاشتد بهم العطش الى ان الجأهم الامر للقتال يأساً فاسرت مقدمتهم وقتل الباقون

وكان في جملة المأسورين الملك جفري واخوه البرنس ارباط صاحب الكرك والشوبك وغيرهما من القواد والامراء . فجلس السلطان صلاح الدين في خيمته وامر بتحضير الاسرى بين يديه فاحضروا وفيهم الملك جفري فامر له بشربة من جلاب ثلجي فشربها وكان في غاية الظمأ ثم اعطى البرنس ارباط اخاه فشرب وقال السلطان للترجمان « قل للملك انت الذي سقيته اما انا فما سقيته » اذ كان من جميل عادة العرب ان الاسير اذا اكل اوشرب من مال من اسره امن . فقصد السلطان بقوله هذا ان الملك جفري

امن اما اخوه فلم يأمن . وكان في قلب صلاح الدين حقد على البرنس ارباط لسابق تعديه على جماعة من المسلمين وقتلهم في حال سلمية لغير داع فسبق من السلطان قسم انه اذا ظفر بهذا الامير قتله . فبعد ان شربا ارسلها للهائدة فاكلا ثم اعيدا الى السلطان فاخذ بيده سيفاً وتقدم الى البرنس ارباط قائلاً « ها انا انتصر لمحمد » ثم عرض عليه الاسلام فابى فضربه بالسيف فخل كتافه وتمم قتله من حضر ورميت جثته على باب الخيمة. فلما راى جفري ذلك وقع الرعب في قلبه . فكلمه السلطان وطيب خاطره وقال له « لم تجر العادة ان يقتل الملوك الملوك اما هذا فقد تجاوز الحد وتجرأ على الانبياء » وفي اثناء هذه الحروب التقى صلاح الدين بريكاردس قلب الاسد

ش ٦٠ : ريكاردس قلب الاسد

وفي اليوم التالي نزل السلطان على طبرية فاستلم قلعتها ثم رحل طالباً عكا فبلغها يوم الاربعاء غاية ربيع آخر . وفي اليوم التالي حاربها واخذها وانقذ من كان فيها من

اسارى المسلمين وكانوا اكثر من ٤٠٠٠ واستولى على ما فيها من الاموال . ثم فرق السلطان صلاح الدين جيشه فرقاً في انحاء سوريا فاستولى على نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة . وسار هو يطلب تبنين فنزلها يوم الاحد ١١ جمادى الاولى وهي قلعة منيعة فحاصرها اسبوعاً ونصب عليها المنجنيق حتى فتحها عنوة ثم رحل عنها الى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد نزوله ثم سار الى بيروت وركب عليها المنجنيق وما زال حتى اخذها في يوم الخميس ٢٩ جمادى الآخرة وسارت سرية من رجاله الى جبيل من اعمال لبنان فاستلمها . ثم حول شكيمة فتوجه جنوباً قاصداً عسقلان فمر على مواضع كثيرة كالرملة والدارون فاستولى عليها فلما وصل عسقلان نصب عليها المنجنيق وقاتلها قتالاً شديداً حتى تسلمها ثم بعث من رجاله من استلم غزة وبيت جبريل والبترون بغير قتال

فتح بيت المقدس

ولما تم لصلاح الدين الاستيلاء على البلاد المحيطة ببيت المقدس شمر عن ساعد الجد في المسير اليه فجمع جنده وكانوا متفرقين في الساحل وسار بهم حتى اتى بيت المقدس يوم الاحد ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ . وكان به البطريرك المعظم عندهم وهو اعظم شأناً من ملكهم . وبه ايضاً باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم

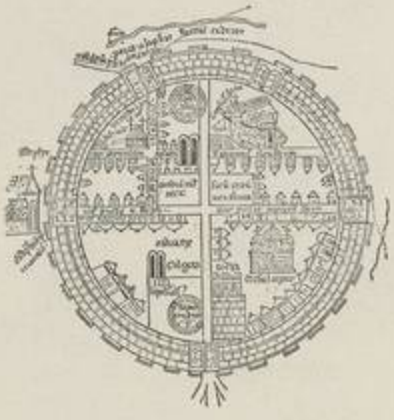

ش ٦١ : شكل بيت المقدس واسواره لما حاصره صلاح الدين

تقارب مرتبة الملك . وبه ايضاً من خلص من فرسانهم من حطين . وقد جمعوا وحشدوا واجتمع اهل تلك النواحي عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت ايسر عليه من ان يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى

ن بذل نفسه وماله واولاده بعض ما يجب عليه من حفظه . وحصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلاً . وصعدوا على سوره بجدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والدفاع نه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا لمنجنيقات ليمنعوا الدنو منه والنزول عليه . ولما قرب صلاح الدين منه تقدم امير في جماعة من اصحابه غير محتاط ولا حذر فالقيه جمع من الصليبيين قد خرجوا من القدس قاتلوه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه . فاهم المسلمين قتله وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس في منتصف رجب . فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لاهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع . وبقي صلاح الدين خمسة ايام يطوف حول المدينة لينظر من اين قاتلها لانها في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليها موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود او كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها . ونصب

ش ٦٢ : منجنيقات لرمي النبال

صليبيون على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا اشد قتال رآه احد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني كانوا يمتنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا يزدجرون . وكان خيالة الصليبيين كل يوم

يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين . وممن قتل من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من اكابر الامراء وكان ابوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم فقتل . وكان محبوباً الى الخاص والعام . فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك واخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد . فازالوا الصليبيين عن مواقفهم فادخلوهم بلدهم . ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف

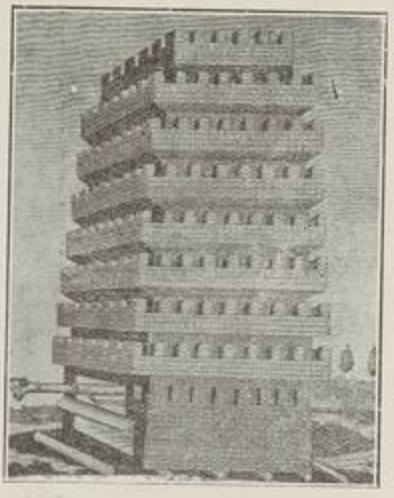

ش٦٣ : آلة لنقب الاسوار وهي برج يجر على محادل اوعجل نحو السور. وفي اسفله رجل ينقبون السور بعمود طرفه كراس الكبش وفي البرج رجل يشغلون حماة السور برمي النبال

الصليبيين عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب . فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما راى الصليبيون شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين من النقب وانهم قد اشرفوا على الهلاك اجتمع مقدمروهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون . فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم بيت المقدس الى صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم في طلب الامان . فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابتهم وقال « لا افعل بكم الا كما فعلتم باهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢ هـ من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها » . فلما رجع الرسل خائبين محرومين ارسل باليان بن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الامر وتحريره . فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم

يرحمه . فلما آيس من ذلك قال له « ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظناً منهم انك تجيبهم اليه كما اجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا راينا الموت لابد منه فوالله لنقتلن ابناءنا ونساءنا ونحرق اموالنا وامتعتنا ولا نتركنكم تغنمون منا ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل امثاله وتموت اعزاء او نظفر كراما »

شروط التسليم

فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يدري عاقبة الامر فيه عن اي شيء تنجلي وقالوا « نحسب انهم اسارى بايدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم » فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للصليبيين فاستقر ان يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن ادى ذلك في اربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوماً عنه ولم يؤد ماعليه فقد صار مملوكا . فبذل باليان ابن بيرزان عن الفقراء ثلاثين الف دينار فاجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب . وكان يوماً مشهوداً ورفعت الاعلام الاسلامية على اسوارها ورتب صلاح الدين على ابواب البلد في كل باب اميناً من الامراء ليأخذوا من اهله ما استقر عليهم . فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه الامانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت ايدي سبا . ولو اديت فيه الامانة لملأ الخزائن وعم الناس فانه كان فيه على الضبط ستون الف رجل مابين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان . ولا يعجب السامع من ذلك فان البلد كبير واجتمع اليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والدارون والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس . وكان الانسان لايقدر ان يمشي . ومن الادلة على كثرة الخلق ان اكثرهم وزن ما استقر من قطيعة . واطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر الف رجل وزن عنهم ثلاثين الف دينار وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ويعطي واخذ اسيراً ستة عشر الف آدمي مابين رجل وامرأة . ثم ان جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية قطاعه مقيمون بالبيت المقدس فيطلقهم ويأخذ قطيعتهم

وكان جماعة من الامراء يلبسون الصليبيين زي الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون فيهم قطيعة قرروها واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الصليبيين فوهبهم لهم فاخذوا قطيعتهم . وبالجملة فلم يصل الى خزائنه الا القليل . وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت واقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير ولها من الاموال والجواهر النفيسة شيء عظيم فطابت الامان لنفسها ومن معها فامنها وسيرها . واطلق ايضاً ملكة القدس التي كان زوجها الذي اسره صلاح الدين قد ملك الصليبيين بسببها وكان يقوم بالملك نيابة عنها . واطلق مالها وحشمها واستأذنته في المسير الى زوجها وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس فاذن لها فأتته واقامت عنده

واتته ايضاً امراة للبرنس ارباط صاحب الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده في حطين فشفعت في ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين « ان سلمت الكرك اطلقته » فسارت الى الكرك فلم يسمع منها الصليبيون ولم يسلموه فلم يطلق ولدها ولكنه اطلق مالها ومن تبعها . وخرج البطريرك الكبير الذي للصليبيين ومعه من اموال البيع منها الصخرة والاقصى وقمامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله . وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له ليأخذ ما معه يقوي به المسلمين فقال « لا اغدر به » ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور . وكان على راس قبة الصخرة صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم الى اعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره المسلمون والصليبيون . اما المسلمون فكبروا واما الصليبيون فصاحوا تفجعاً وتوجعاً فسمع الناس صيحة كادت الارض ان تميد بهم لعظمها وشدتها

فلما ملك البلد وفارقه الصليبيون امر صلاح الدين باعادة الابنية الى حالها القديم فان الداوية بنوا غربي الاقصى ابنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من هرى ومستراح وغير ذلك وادخلوا بعض الاقصى في ابنيتهم فاعيد الى حاله الاول . وامر بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار والانجاس ففعل ذلك اجمع . ولما كانت الجمعة الاخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محي الدين ابن الزكي قاضي دمشق . ثم رتب فيه صلاح الدين خطيباً واماماً يرسم الصلوات الخمس وامر ان يعمل له منبر فقيل له ان نور الدين محمودًا كان قد عمل بحلب منبرًا امر الصناع بالمبالغة في تحسينه واتقانه وقال « هذا قد عملته لينصب بالبيت المقدس » فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الاسلام مثله فامر

باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فاحضروا من الرخام الذى لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك مما يحتاجون اليه وقد ادخر على طول السنين . فشرعوا في عمارته ومحوا ما كان في تلك الابنية من الصور . وكان الصليبيون فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فامر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالفرش ان القسيسين باعوا كثيراً منها للصليبيين الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا

ش ٦٤ : كنيسة القيامة بالقدس عند فتحها

يشترونه بوزنه ذهباً رجاء بركتها . وكان احدهم اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة وجعله في مذبحها . فخاف ملوكهم ان تفنى فامر بها ففرش فوقها حفظاً لها . فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف والربعات ورتب القراء وادر عليهم الوظائف الكثيرة

واما الافرنج من اهل بيت المقدس فانهم شرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من امتعتهم وذخائرهم واموالهم وما لا يطيقون حمله وباعوا ذلك بارخص الثمن . فاشتراه التجار من اهل العسكر واشتراه النصارى من اهل القدس الذين ليسوا من الصليبيين فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فاجابهم الى ذلك . فاستقروا فاشتروا حينئذ من اموال الصليبيين وترك الصليبيون

ايضاً اشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسرة والصناديق والبتيات وغير ذلك وتركوا ايضاً من الرخام الذي لايوجد مثله من الاساطين والالواح وغيره شيئاً كثيراً ثم ساروا

تهاني الشعراء بالفتح

وكانت ليلة المعراج وكان يوم فخر لجيش المسلمين فتقاطر الشعراء من سائر الانحاء لتهنئة السلطان صلاح الدين بما اتاه الله من الفتح ونظموا القصائد وقالوا الخطب على الجماهير وسالت اقلام الكتاب وفاضت قرائحهم فكنت ترى فيهم اما خطيباً يبشر ويحرض واما شاعراً يحمد الله ويمدح الفتح او مؤرخاً يذكر الحادثة بما فيها من الفخر لجيش المسلمين وكان من جملة من كتب القاضي الفاضل صاحب السيرة الايوبية وعماد الدين الاصبهاني . وممن انشد في هذا الشان عبد الرحمن بن بدر النابلسي فقال قصيدة منها

هذا الذي كانت الايام تنتظر ... فليوفِ للهِ اقوامٌ بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت ... في سالف الدهر اخبار ولا سيرُ
الآن قرت جنوب في مضاجعها ... ونام من لم يزل حلفاً له السهر
يابهجة القدس اذ اضحى به علم الا ... سلام من بعد طي وهو منتشر
يا مالك الارض مهدها فما احد ... سواك من قائم للمهد ينتظر
ما اخضرَّ هذا الطراز الساحلي ثمراً ... الا لتعلو به اعلامك الصفر
افحى بنو الاصفر الانكاس موعظة ... فيها لاعدائك الآيات والنذر
صاروا حديثاً وكانوا قبل حادثة ... على الورى يتقيها البدو والحضر
هذا الذي سلب الافرنج دولتهم ... وملكهم ياملوك الارض فاعتبروا
ولا اصرح باسماء البلاد فقد ... اسهبت والقائل المنطيق يختصر
يغنيك اجمال قولي عن مفصله ... في لفظة البحر معنى تحته الدرر

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدح بها السلطان ويهنئه بالفتح

فتح سائر سوريا

وبعد فتح بيت المقدس سار صلاح الدين لفتح صور فجاء عكا فنزل فيها ونظر في امورها ثم سار عنها الى صور في يوم الجمعة ١٥ رمضان فنزل قريباً منها وارسل لاحضار آلات القتال ولما تكاملت نزل عليها وقاتلها برًّا واستقدم اسطول مصر ليقاتلها بحراً ثم ارسل من حاصر هونين فسلمت . اما الصوريون فارسلوا اسطولهم الى اسطول المسلمين فاسروا منه خمس قطع وقتلوا كثيراً من المسلمين فعظم ذلك على السلطان وضاق صدره

كان الشتاء قد هجم وتراكمت الامطار. واستشارهم فيما يفعلون فاشاروا عليه بالرحيل لتستريح الرجال ويجتمعوا للقتال فساروا وحملوا من الات القتال ما امكن واحرقوا ما بقي منها وسارت كل جماعة الى بلادهم وسار صلاح الدين الى عكا

وبقيت الهدنة الى ان دخلت سنة ٥٨٤ هـ وعند ذلك نزلوا على حصن كوكب وكان منيعاً فاخذوه بعد قتال شديد ثم سار السلطان الى دمشق وبقي فيها خمسة ايام . ثم بلغه ان الافرنج قصدوا جبيل فسار نحوهم ثم علم انهم رحلوا عنها فتوقف وسار قاصداً اتمام فتح سوريا فجاء ترسوس في ٦ جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ وكان قد انضم اليه رجال من سنجار والموصل تحت قيادة عماد الدين زنكي ومظفر الدين بن زين الدين ففتح ترسوس ثم سار الى جبلة ففتحها ومنها توجه الى اللاذقية في ٢٤ جمادى الاولى واخذها في يوم واحد الاقلعتيها على انهما اضطرتا اخيراً للتسليم . ثم رحل من اللاذقية الى صهيون فنزل عليها في ٢ جمادى الاخرة فصالحه اهلها على ان يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمراة خمسة والصغير دينارين . ثم سير من رجاله من استولى على عدة قرى منها بلاطس وغيرها من الحصون المنيعة . ثم رحل عنها واتى بكاس وهي قلعة حصينة على نهر العاصي ففتحها عنوة وهدم قلعتها وتوجه بعدئذ الى قلعة برزنة الشهيرة ففتحها وفتح غيرها من القلاع

وفي ٣ شعبان ارسل اهل انطاكية يطلبون الصلح فصالحهم ثم توجه الى حلب في ضيافة ابنه الملك الظاهر ثم الى حماه في ضيافة عمر ابن اخيه فبات في حماه ليلة واحدة ثم سار على طريق بعلبك ودخل دمشق . وسار في اوائل رمضان يريد صفد فحاربها واستولى عليها بالامان وفي هذا الشهر سلمت الكرك ايضاً

ثم نزل في الغور واقام بالمخيم بقية الشهر واعطى الجماعة دستوراً وسار مع اخيه العادل يريد زيارة القدس ووداع اخيه لانه كان متوجهاً الى مصر فدخل القدس في ٨ ذي الحجة وصلى بها العيد وسار منها الى عسقلان في ١١ منه ينظر في امورها فاخذها من اخيه العادل وعوضه عنها الكرك . ثم مرّ على بلاد الساحل يتفقد احوالها ثم دخل عكا فاقام بها معظم المحرم من سنة ٥٨٥ هـ واصلح امورها ورتب بها الامير بهاء الدين قراقوش والياً وامره بعمارة سورها وسار الى دمشق فدخلها في مستهل صفر واقام بها الى ربيع اول ثم خرج الى شقيف اريون وهو موضع حصين منيع في مرج عيون بالقرب من الشقيف في ١٧ ربيع اول . واقام اياماً يباشر قتاله كل يوم والعساكر تواصل اليه فتضايق صاحب الشقيف فنزل الى صلاح الدين بنفسه وطلب الامان

ووعد انه يسلم المكان بشرط ان يعطى له موضع يسكنه في دمشق . لانه بعد ذلك لايقدر على مساكنة الصليبيين واقطاع تقوم به وبأهله وشروطاً غير هذه . فاجابه الى ما طلب وفي اثناء ذلك وصله الخبر بتسليم الشوبك وكان السلطان قد اقام عليها انا يحاصرونها مدة سنة كاملة الى ان نفد زاد من كان فيها فسلموا

ثم ظهر بعد ذلك للسلطان ان جميع ما قاله صاحب الشقيف كان خديعة فسيره مهاناً الى دمشق . ثم ظهر له ان الصليبيين قصدوا عكا ونزلوا عليها في ١٣ رجب سنة ٥٨٥ هـ فسار اليها حالاً ونزل فيها بغتة ليقوي قلوب من بها وارسل يستدعي النجدات من الانحاء وكان عند الصليبيين نحو الفي فارس و ٣٠ الف راجل . ثم تكاثروا واستفحل امرهم واحاطوا بعكا وحاصروها في آخر رجب فضاق صدر السلطان لذلك ثم اجتهد في فتح الطريق اليها لتستمر السابلة بالنجدة فتمكن وانفتح الطريق وسلكه المسلمون ودخل السلطان عكا وجرى بينه وبين الصليبيين مناوشات في عدة ايام . ثم تأخر المسلمون الى تل العياضة وهو مشرف على عكا . وفي هذه المنزلة توفي الامير حسام الدين طمان

وما زالت الحال كذلك والصليبيون يتشددون بما كان يأتيهم من المدد بحراً الى ان قووا على فتح المدينة ودخلوها والسلطان خارجها فعظم ذلك عليه جدًّا . ثم بلغه ان الصليبيين سيخرجون من عكا للاستيلاء على عسقلان فاتى السلطان الرملة وتشاور وذوي شوراه في امر عسقلان وهل الصواب اخرابها ام بقاؤها فاتفقت اراؤهم ان يبقوا الملك العادل قبالة العدو وان يسير صلاح الدين بنفسه لاخرابها خوفاً من وصول العدو اليها فيأخذ بها القدس فسار وشرع باخرابها بكل نشاط رغم ارادته لانه قال « لأن افقد ولدي جميعهم احب اليَّ من ان اهدم منها حجراً ولكن اذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصلحة للمسلمين فما الحيلة » وهاجر اهالي عسقلان الى الشام ومصر وغيرها حزانى تاركين اراضيهم وبيوتهم ومواشيهم بحالة يرثى لها . وبينما كان الاخراب قائماً من الملك العادل ان الصليبيين تحدثوا معه بامر الصلح طالبين جميع البلاد الساحلية فرأى السلطان ان موافقتهم على طلبهم هذا افضل لما رأى من الضجر الذي خالط قلوب المسلمين من المشاق المتوالية فكتب اليه يأذنه في ذلك وفوّض الامر الى رأيه واصر على حريق عسقلان ففوض ذلك الى احد اولاده الافضل وسار الى الرملة ومنها الى اللد واشرف عليها وامر باخرابها واخراب قلعة الرملة ثم دار حول قلعة البزوة وهي قلعة منيعة فامر باخرابها

وفي يوم الاربعاء ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ هـ تم الصلح بين صلاح الدين وكبير الصليبيين بعد مداولات ومخابرات بطول شرحها ونادى المنادون ان البلاد الاسلامية والنصرانية واحدة فمن احب من كل طائفة ان يتردد الى بلاد الطائفة الاخرى من غير خوف ولا محذور . وكان يوماً مشهوداً سرّت به الطائفتان وعادت الصلات الى مجاريها وعادت التجارة وجعل الزائرون يفدون الى بيت المقدس من كل صوب . وتوجه السلطان الى تلك المدينة يتفقد احوالها . وسار اخوه الملك العادل الى الكرك وابنه الملك الظاهر الى حلب وابنه الافضل الى دمشق وبقي السلطان صلاح الدين في القدس مدة يقطع الناس ويعطيهم دستوراً ويتأهب للمسير الى الديار المصرية . وكان قد عزمه السفر للحج لكنه لم يستطع

ولما سار ملك الصليبيين الى بلاده رأى السلطان ان يعود لتفقد القلاع السورية فعل وسار منها الى دمشق فوصلها في ١٦ شوال وفيها اولاده الافضل والظاهر والظافر المعروف بالمشمر واولاده الصغار . وكان يحب تلك المدينة ويؤثر الاقامة فيها على سائر البلاد . ثم قدم الملك العادل من الكرك قاصداً البلاد الفراتية . فنزل دمشق واجتمعت هذه العائلة على رغد وسلام . وقد نسي السلطان صلاح الدين عزمه الى مصر وعرضت له امور اخرى غير ما تقدم

وفاة صلاح الدين ومناقبه

على ان المنية مع عجزها عن مهاجمة هذا الباسل في ساحة الحرب لم تخف مهاجمته على فراشه وبين اولاده واخوانه . ففي يوم الجمعة ١٥ صفر ركب السلطان للملاقاة الحج فعاد الى منزله كسلاً ثم غشيته حمى صفراوية . ثم اصبح في اليوم التالي اكثر كسلا وضعفاً ومازال المرض يتزايد يوماً فيوماً الى ان توفاه الله بعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين وغشي القلمة والملك والدنيا وحشة عظيمة وكان الناس يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم . وكان عمره عند وفاته ٥٧ سنة ومدة حكمه ٢٤ سنة في مصر و١٩ سنة مع سوريا . فحضر الجميع وشيعوا جنازته ودفنوه في الدار التي كان متمرضاً فيها وكانت بينهم شقيقة الفقيد المدعوة ست الشام وفرقت في الناس الصدقات العظيمة من جيبها الخاص لانه لم يترك في خزينته الخصوصية الا ديناراً واحداً و٤٧ درهماً من الفضة . ولم يجدوا في جميع صناديقه اثراً للذهب او لغيره من الحجارة الكريمة وذلك مما يدل على فرط كرمه لانه اصاب اموالاً كثيرة جاد بها على آله وذويه

ومن آثاره في العدل والرفق ان الاموال الهلالية كانت قد اعيدت الى مصر في اثناء الدولة الفاطمية وصارت تعرف بالمكوس . فلما تولى السلطان صلاح الدين امر باسقاطها وكانت مداخيلها عظيمة جداً تبلغ مائة الف دينار سنوياً الا انها كانت مضروبة على جميع انواع الاطعمة والالبسة والحيوانات من ماشية وخيول وغيرها. وعلى الحوانيت والاخشاب والمصنوعات والمزروعات والابنية والاقمشة الى غير ذلك . جميع هذه امر صلاح الدين بالغائها . ورأى ان كثيرين من الاهالي لا يزالون مثقلين بالديون بسبب تلك المظالم فسامحهم بما كان عليهم . وكان بالغاً قدراً عظيماً جداً من الدنانير والغلال

وكان بين اقارب السلطان صلاح الدين رجل يدعى عز الدين موسك كان من حفظة القرآن ومحبي اهل العلم فابتنى قنطرة فوق الخليج الكبير دعاها قنطرة الموسكي ولما تم الصلح بين السلطان صلاح الدين والصليبيين اباح لهم ان يستوطنوا مصر وكان هو اول من فعل ذلك فجاء منهم بعض الباعة واستوطنوا في جهات الموسكي لانها خارج سور المدينة وافتتحوا حوانيت لبيع الادوات الافرنجية . ثم اخذ شارع الموسكي بالظهور على تمادي الايام حتى وصل الى ما هو الآن

وترك صلاح الدين من الاولاد ١٧ ذكوراً . وانثى واحدة اسمها مؤنسة خاتون تزوجت ابن عمها ناصر الدين محمد بن سيف الدين الذي لقب بعدئذ بالملك الكامل فلما توفي صلاح الدين اقتسم اولاده واخوته واولادهم مملكته فيما بينهم غير ان الحصص لم تكن متساوية لان ثلاثة من اولاده اخذوا اكبرها واقتنع الباقون بمقاطعات صغيرة . وتم كل ذلك بموافقة الامراء فتلقب اول اولاد صلاح الدين المدعو نور الدين بالملك الافضل وكان من نصيبه مملكة دمشق والشطوط البحرية واورشليم والبصرة وبانياس وسوريا الغربية . ولقب ابو الفتح غازي بالملك الظاهر غياث الدين فأخذ حلب وجميع سوريا الشرقية ومن ضمنها حران وتل باسر وعيراز ومنبج . ولقب عماد الدين عثمان بالملك العزيز وتولى مصر

ومن هؤلاء الامراء الثلاثة تكونت ثلاث دول مختلفة هي الدول الايوبية الحلبية والدمشقية والمصرية . أما ما بقي من تلك العائلة فكانوا ولاة على بلاد اقطعهم اياها صلاح الدين الا انهم تحت سلطة هؤلاء الثلاثة . فسيف الدين ابو بكر المقلب بالملك العادل بن ايوب واخو صلاح الدين كان حاكماً في الكرك والشوبك . وناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور بن تقي الدين عمر بن شاهين شاه احد اخوي صلاح الدين كان اميراً على حماه والسلامية ومارا . وبهرام شاه الملقب بالملك الامجد حفيد شاهين شاه

ايضاً كان ملقباً بملك الرها . وشمس الدولة طوران شاه بن ايوب الذي كان قد فتح اليمن بامر ابيه سنة ٥٦٩ هـ كان قد اقام فيها مملكة . وكان اخوه توغتغن حاكماً فيها تحت اسم الملك المعز

ش ٦٥ : نقود صلاح الدين
« ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ »

وترى في الاشكال ٦٥ و٦٦ و ٦٧ صور النقود التي ضربت في ايام السلطان صلاح الدين على احد وجهيها اسمه وعلى الوجه الآخر اسم الامام الناصر الخليفة العباسي لذلك العهد . فالصورة الاولى نقود ذهبية

ش٦٦ : نقود صلاح الدين «ضربت سنة ٥٨٤»

ضربت في دمشق سنة ٥٨٣ هـ والثانية نقود نحاسية ضربت سنة ٥٨٤ هـ . والثالثة مثل ذلك

ش ٦٧ : نقود صلاح الدين

سلطنة الملك العزيز بن يوسف

من سنة ٥٨٩ — ٥٩٥ هـ او من ١١٩٣ — ١١٩٨ م

وبعد ان قسمت الدولة الايوبية على ما تقدم عرف كل منهم نصيبه . وبعد يسير نهض اعداء صلاح الدين وكانوا ينتظرون فرصة للانتقام منه لقهره اياهم . فلما لم يستطيعوا ذلك في حياته قاموا على خلفائه واجمعوا على محاربتهم . فاتحد الايوبيون في بادئ الرأي دفعاً لمناهضيهم ثم تفرقت كلمتهم لما قام بينهم من التحاسد انقياداً للمطامع واصغاء لذوي المفاسد فاصبحوا بما بينهم في شاغل عن دفع مهاجميهم

ففي سنة ٥٩٢ هـ راى الملك العادل صاحب الكرك والشوبك ان حصته قليلة ومنصبه حقير بالنسبة لغيره من الاسرة الايوبية فتواطأ مع الملك العزيز عثمان سلطان

مصر على خلع الملك الافضل نور الدين علي عن دمشق وتولية احدهما الملك العادل عليها وفعلا ذلك بسهولة . ففرّ الملك الافضل من دمشق الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة الناصر لدين الله العباسي . وكان كلاهما شاعراً ماجداً . فكتب الافضل الى الامام الناصر :

مولاي ان ابا بكر وصاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
وهو الذي كان قد ولاه والده عليهما فاستقام الامر حين ولي
فخالفاه وحلاّ عقد بيعته والامر بينهما والنصّ فيه جلي

فاجابه الامام الناصر بقوله :

وافى كتابك يا بن يوسف معلناً بالود يخبر ان اصلك طاهرُ
غصبا علياً حقه اذ لم يكن بعد النبي له بيثرب ناصرُ
فابشر فان غداً عليه حسابهم واصبر فناصرك الامام الناصرُ

الا ان الملك العادل لم يلبث ان بكّته ضميره فاعاد الملك الى ابن اخيه الافضل وتنازل ايضاً عن حصته الاصلية . الا ان العزيز لم يتمتع بالملك مدة طويلة فتوفي في القاهرة في ٢١ محرم سنة ٥٩٥هـ وكان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً الى الناس يقرب ارباب الخير والصلاح . ولكنه كان ضعيف الرأي سهل الانقياد قليل التروي . وكان له عشراء من ذوي الخفة فاشاروا عليه يوماً ان يهدم اهرام الجيزة . فامر بهدمها حالاً وبعث اليها بالعملة فابتدأوا بالهرم الثالث منها وهو اقلها متانة ويعرف بالهرم الاحمر . قال عبد اللطيف البغدادي وقد زار مصر على اثر ذلك «وحينما شاهدت المشقة التي يجدونها في هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين فقلت لو بذل لكم الف دينار على ان تردوا حجراً واحداً الى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم ذلك ؟ فاقسم بالله انهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم اضعافه » وقد شوهوا وجه الهرم تشويهاً ولم يهدموا منه الا قسماً صغيراً جعل في الهرم خرقاً لايزال ظاهراً فيه

ثم ارتأى الملك العزيز مشروعاً آخر جاء بنتيجة اقبح من تلك . وذلك ان ايام الفيضان في مصر وخصوصاً في القاهرة تعدُّ من ايام النزهة لجريان المياه في الترع والخلجان ولاسيما خليج مصر فانه يجري مخترقاً المدينة . فكان الناس يخرجون في ذلك الحين في صغار القوارب للنزهة في مجاري المياه ليلاً ونهاراً يتمتعون بنعمة ربهم فيقيمون الولائم ويضربون الموسيقى . وكان الحاكم بامر الله قد حاول مرات عديدة ابطال هذه العادة فلم يقدر لان الناس ابوا الا التمتع بما وهبتهم الطبيعة من اسباب السرور . فامر الملك

العزيز سنة ٥٩٤ هـ بالامتناع عن هذه الاحتفالات امتناعاً كلياً واستخدم لتنفيذ امره هذا طرقاً خشنة . فاسترحم الناس الغاء هذه الاوامر مرات عديدة فلم ينجحوا فجاهروا بالعصيان . ثم عاجلت المنية الملك العزيز فقطعت جهيزة قول كل خطيب

ومما اتاه الملك العزيز في سلطنته من المظالم انه اعاد اليها المكوس الظالمة التي كان قد الغاها ابوه وزاد في شناعتها وزادت في ايامه المنكرات وترك الانكار لها وكثر شرب السكر واباحه اولو الامر والنهي . وتفاحش الامر فيه الى ان غلا سعر العنب لكثرة من يعصره . واقيمت في حارة المحمودية مطحنة لطحن الحشيش المزروافردت برسمه وحميت بيوت المزر واقيمت عليها الضرائب الكثيرة . فمنها ما انتهى امره في كل يوم الى ١٦ ديناراً . وحملت اواني الخمور على رؤوس الاشهاد في الاسواق فداهمهم غلاء الحبوب لوقوف زيادة النيل جزاء لفحشهم . وآل الامر الى وقوف وظيفة الدار العزيزية من خبز ولحم بحيث لم يعد لهم مايأكلون . وكثر ضجيجهم وشكواهم فجعل الملك العزيز يغتصب الارزاق ويضمها الى اقتيات عائلته . وصارت الاهالي في حال صعبة زادها ارتكاب المنكرات والمظالم صعوبة . الى ان جاءت المنية منصفة المظلوم من الظالم وسبب موته انه توجه الى الفيوم فساق فرسه وراء صيد فتقنطر به فاصابته الحمى فحمل الى القاهرة فتوفي في الساعة الرابعة من ليلة الاحد سنة ٥٩٥ هـ

سلطنة الملك المنصور بن العزيز

من ٥٩٥ — ٥٩٦ هـ او من ١١٩٨ — ١٢٠٠ م

وخلف العزيز ابنه ناصر الدين محمد وعمره ٨ سنوات فلقبوه بالملك المنصور ثم استقدموا عمه الملك الافضل من سوريا ليكون وصياً على ملكهم الجديد . فقبل وجاء القاهرة ونودي به اتابكاً اي وصياً على ابن اخيه الا انه لم يتمتع بهذا المنصب لان عمه الملك العادل قدم بجيش جرار الى القاهرة وبين حقوقه بالتوصية بناء على انه جدّ الصبي الحاكم وعمٌّ وصيه . فحاول الافضل مقاومته فلم ينجح . فحاصره في قصره في القاهرة ثم فرّ راجعاً الى حكومته في دمشق مكتفياً بما قسم له

وترى في الشكل ٦٨ صورة النقود النحاسية التي ضربت على عهد الملك المنصور ابن العزيز

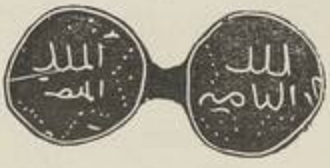

ش ٦٨ : نقود المنصور بن العزيز

سلطنة الملك العادل بن ايوب

من ٥٩٦ — ٦١٥ هـ او من ١٢٠٠ — ١٢١٨م

ولما خلا الجو للملك العادل خلع الملك المنصور في شوال سنة ٥٩٦ هـ بعد ان حكم ٢١ شهراً . وتولى سلطنة مصر وسوريا بنفسه وخلع الملك الافضل عن دمشق وما زال حتى جعل جميع من بقي من الحكام الايوبيين في الامارات الصغيرة خاضعين لسلطانه وفي جملتهم ابن اخيه الظاهر ملك حلب فعادت مملكة صلاح الدين بعد ان انقسمت حصصاً الى مملكة واحدة تحت سلطان واحد

مجاعة سنة ٥٩٧ هـ

وفي السنة التالية حدثت بمصر المجاعة الشهيرة التي وصفها عبد اللطيف البغدادي في رحلته فقال « وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار واقحطت البلاد واشعر اهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع وانضوى اهل السواد والريف الى امهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد ايادي سبا ومزقوا كل ممزق ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت وعند نزول الشمس الحمل وبدء الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى اكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث . ثم تعدوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم فكثيراً مايعثر عليهم ومعهم صغار مشويون او مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل . ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد احضر الى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس انهما ابواه فامر باحراقهما

« ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فاكل وبقي قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم — ومثل هذا اعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة وكذلك كل من آثر الاطلاع على علم التشريح. وحين ما نشم الفقراء في اكل بني آدم كان الناس يتناقلون اخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعاً لامره وتعجباً من ندوره ثم اشتد قرمهم اليه وضراوتهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطيبة ومدخراً وتفننوا فيه وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له

« ولقد رأيت امراة مشجحة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه واهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم لم ار فيهم من يعجب لذكر

ذلك او ينكره فعاد تعجبي منهم اشد وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لايستحق ان يتعجب منه . ورايت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوياً وقد اخذ به شابان اقرا بقتله وشيه واكل بعضه

« وفي بعض الليالي بعيد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فبينما هو الى جانبها اغتنمت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه وجعلت تأكل منه نيئاً . وحكى لي عدة نساء انه يتوثب عليهن لاقتناص اولادهن ويحامين عنهم بجهدهن

« ورايت مع امراة فطيماً لحياً فاستحسنته واوصيتها بحفظه فحكت لي انها بينا تمشي على الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الارض حتى ادركها الارس وطرده عنها وزعمت انه كان يهم بكل عضو يظهر منه ان يأكله وان الولد بقي مدة مريضاً لشدة تجاذبه المراة والمفترس

« وتجد اطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس منبثين في جميع اقطار البلاد وازقة الدروب كالجراد المنتشر ورجال الفقراء ونساءهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم وانما يعثر عليهم في الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ

« واكثرما كان يطلع من ذلك مع النساء وما اظن العلة فيه الا ان النساء اقل حيلة من الرجال واضعف عن التباعد والاستتار . ولقد احرق بمصر خاصة في ايام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر انها اكلت جماعة فرايت امراة قد احضرت الى الوالي وفي عنقها طفل مشوي فضربت اكثر من مائتي سوط على ان تقر فلا تحير جواباً بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت » اه

عود الصليبيين الى الحرب

وفي سنة ٥٩٨ هـ ارسل الملك العادل ابنه ابا الفتح موسى الملقب بالملك الاشرف مظفر الدين الى الرها فتملكها ثم اضيفت اليه حران وكان الاشرف رجلاً محبوباً من الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب . وفي سنة ٦٠٠ هـ حصلت بينه وبين نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل موقعة حربية عظيمة وكان النصر له

وكان الصليبيون عند انقسام الدولة الايوبية قد اغتنموا الفرصة لاعادة سلطتهم فاكثروا من الجند وجاهروا بطلب الفتح فسار اليهم العادل وعسكر على جبل طابور امامهم . وكانوا قد استمدوا اوربا على امل ان تأتيهم الامدادات واملاك المسلمين منقسمة وكلمتهم متفرقة فيسهل قهرهم لكنها لم تصل اليهم الا بعد ان اتحد المسلمون واصبحت بلادهم مملكة واحدة تحت سلطان واحد هو السلطان الملك العادل سيف الدين فحاربهم

فعادوا على اعقابهم وقد حبط مسعاهم فتعقبهم نحواً من شهر فجاءه مخبر يخبره بحصول زلزلة عظيمة في مصر شعر بها اهل سوريا وقبرص واسيا الصغرى حتى العراق وما بين النهرين . وهذه هي الزلزلة التي هدمت اسوار صور سنة ٦٠٠هـ . وكانت تهدد مصر زلزلة اخرى سياسية وهي عمارة صليبية عظيمة احتلت سواحلها واخترقتها حتى بلغت فوه على فرع رشيد فاستولت عليها بعد ان نهبتها وذبحت اهلها فاضطرب العادل لهذين الخبرين فاسرع لملافاة الامر فتخابر مع قواد الصليبيين وعقدوا معاهدة تقضي بانسحابهم من مصر على ان يتنازل لهم بمقابلة ذلك عن يافا ويسحب من كان في اللدو الرملة من المسلمين

فاجلى الصليبيون من مصر لكنهم لم ينفكوا عن المحاربة في سوريا وهم لم يقبلوا بتلك المعاهدة الا ليشغلوا السلطان العادل في مصر ويسيروا الى فتح حماه والاستيلاء على ما بطريقهم اليها . فاتصل ذلك بالسلطان العادل فبرح مصر في جيش للمدافعة عن حماه فحصلت بينه وبينهم مواقع كثيرة وبينما هم في ذلك جاء الخبر بقدوم المدد الى الصليبيين وهي الحملة العظيمة التي ارسلها البابا وحطت رحالها عند عكا وغيرها فهرع الملك العادل الى نابلس ليقيم فيها حصناً فطردوه منها فرجع الى برج الصفر . فقطع الصليبيون المخابرات مع مصر حتى جاؤا على نهاية الحروب الصليبية في سوريا فحولوا اعنتها الى مصر

حصار دمياط

فجاؤا اليها بحراً وحاصروا دمياط في يوم الثلاثاء في ٤ ربيع اول سنة ٦١٥هـ وهم نحو ٧٠ الف فارس و٤٠٠ الف راجل فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي وحفروا على معسكرهم خندقا واقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط فانه كان برجا منيعاً في سلاسل من حديد غلاظ تمتد على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر المالح من الدخول الى ديار مصر في النيل . وكان البر الذي نزل عليه الصليبيون جزيرة محاطة بالنيل من جهة وبالبحر المالح من الاخرى يقال لها جزيرة دمياط وكان المسلمون في مدينة دمياط محاصرين حصاراً منيعاً من البحر والبر والسلسلة ممتدة بين البرج والسور فحاول الصليبيون امتلاك ذلك البرج لانهم اذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل الى القاهرة وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلين تأتي اليه المؤن من دمياط على جسر خشبي منصوب في عرض النيل وبعد مدة انكسر ذلك الجسر فاغتنم الصليبيون تلك الفرصة واصطنعوا برجاً خشبياً نصبوه على مركبين موسوقين قيوداً وانزلوا اليه اقوى رجالهم واحسن عدتهم وساروا في النيل لمهاجمة برج المسلمين . فلما راى المسلمون ذلك تجمهروا من البرج والسور واخذوا يرمي السهام والحراب والحجارة والمنجنيق على برج الصليبيين

قلعبت النار به فخاف الذين فيه ثم انطفأت حالاً وتشدد الصليبيون حتى استولوا على برج المسلمين وطمعوا بالاستيلاء على دمياط

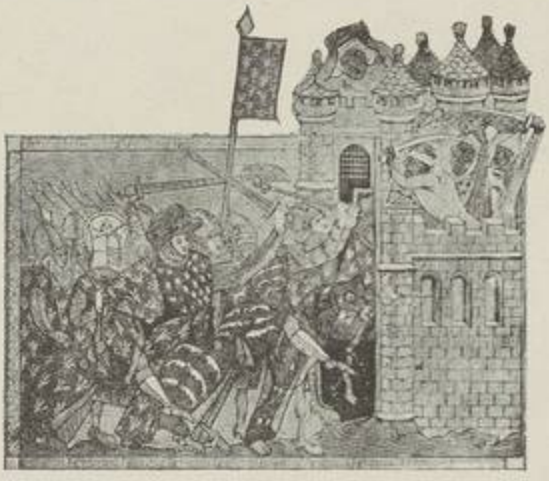

ش ٦٩ : دخول الصليبيين برج المسلمين عنوة

فبلغ قدوم الصليبيين الملك الكامل وكان يخلف اباه الملك العادل على ديار مصر فخرج بمن معه في ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر نزول الصليبيين وامر والي الغربية بجمع العربان وسار هو في جمع كبير بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط واندت عساكره الى دمياط لتمنع الصليبيين من السور والقتال مستمر اربعة اشهر والعادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء حتى تكاملت عنده واشتد خوفه من نزول الصليبيين على دمياط فرحل من مرج الصفر الى عالفين فنزل به المرض ومات في جمادى الاخرة فكتم الملك المعظم عيسى موته وحمله في محفة وجعل عنده خادماً صليبياً راكباً الى جانب المحفة والشرابدار يصلح الشراب ويحمله الى الخادم فيشربه ويوهم الناس ان السلطان شربه الى ان دخلوا به الى مدينة دمشق وصارت اليها الخزائن والبيوتات واعلن موته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان

ش ٧٠: نقود العادل وعليها اسم الخليفة الناصر

ش ٧١: نقود العادل وعليها اسم الخليفة الناصر

معه ودفنه بالقلعة ثم نقله الى مدرسة العادلية بدمشق

وترى في الاشكال ٧٠ و٧١ و٧٢ صور النقود التي ضربت في عهد الملك العادل بن ايوب فالاولى والثانية عليهما اسم الملك العادل من الجهة الواحدة والخليفة الناصر لدين الله من الجهة الاخرى والثالثة لا يظهر عليها الا اسم الملك العادل فقط

ش ٧٢ : نقود نحاسية للملك العادل

سلطنة الملك الكامل بن العادل

من سنة ٦١٥ — ٦٣٥ هـ او من ١٢١٨ — ١٢٣٨ م

وبلغ الملك الكامل موت ابيه وهو بمنزلة العادلية فاستلم زمام الاحكام اما الصليبيون فالحوا في القتال ولا سيما عند ما علموا بموت الملك العادل وقطعوا السلاسل التي كانت تتصل بالبرج لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد . فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً في عرض النيل فقاتل الصليبيون قتالاً شديداً الى ان قطعوه وكان قد انفق عليه وعلى البرج ما ينيف على سبعين الف دينار

وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتفقد الاحوال واعمال الحيلة في مكايدة الاعداء فامر ان تغرق المراكب في النيل لتمنع الصليبيين من سلوكهم فيه فعمد هؤلاء الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري فيه قديماً فحفروه وعمقوا حفره واجروا فيه الماء الى البحر المالح واصعدوا مراكبهم فيه الى بؤرة على ارض جزيرة دمياط مقابل المنزلة التي فيها السلطان ليقاتلوه من هناك . فلما صاروا في البورة قاتلوه في الماء وزحفوا اليه مراراً فلم يظفروا منه بطائل . ولم يتغير على اهل دمياط شيء لان الميرة والامداد متصلة اليهم والنيل يحجز بينهم وبين عدوهم وابواب المدينة مفتوحة ليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر . وكانت العربان تخطف الصليبيين في كل ليلة حتى منعوهم من الرقاد خوفاً من غاراتهم فقوي طمع العرب في الصليبيين حتى صاروا يخطفونهم نهاراً ويأخذون الخيم بمن فيها . فكمن لهم الصليبيون عدة كمناء وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فكفوا عن ذلك . ثم ادرك الناس الشتاء وهاج

البحر على مخيم المسلمين واغرقهم فعظم البلاء وتزايد الغم والحاح الافرنج في القتال حتى كادوا يملكون .كل ذلك والملك الكامل يرسل الرسل الى الجهات ينادي باخوته مدداً ويستنجد اهل الاسلام على النصارى ويخوفهم من غلبة الافرنج ولا من مجيب

وفي اثناء ذلك ظهر في رجال الملك الكامل ثورة زعيمها عماد الدين احمد بن المشطوب احد كبراء رجاله على ان لا يقبلوا الكامل عليهم سلطاناً بعد ابيه وكان ذلك باتفاق مع اخيه الملك الفائز فوقع الملك الكامل في حيرة واوجس خيفة على مركزه ولم يرَ من ينجده فسار من العادلية الى قرية تدعى اشمون طناح (اشموم نطاح) فاصبح العسكر بغير سلطان فركب كل انسان منهم هواه ولحقوا بالكامل ولم يقفوا لاخذ شيء من خيامهم وذخائرهم واموالهم واسلحتهم

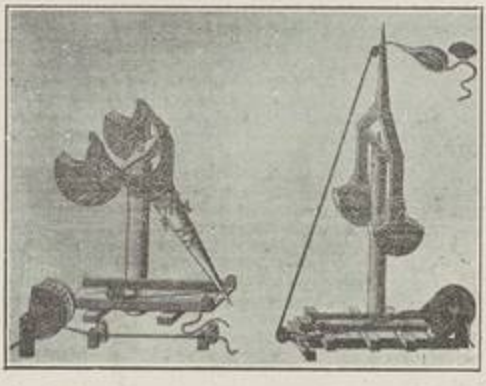

ش ٧٣ : منجنيقات لرمي الحجارة في الحرب كما ترمى القنابل بالمدافع اليوم

كل ذلك والصليبيون في البر الثاني لا يدرون . وفي ٢٠ ذي القعدة سنة ٦١٥ هـ بلغهم ما كان من امر المسلمين فعبروا النيل الى بر دمياط (البر الشرقي) آمنين بغير منازع وغنموا ما في عسكر المسلمين مما تركوه من امتعتهم وغيرها خارج المدينة وكان شيئاً لا يحيط به الوصف وحاصروا دمياط واهلها يرمونهم عن اسوارها بالنبال وهم يرمون اسوارها بالحجارة الضخمة من المجانيق . فلما بلغ السلطان الكامل ذلك داخله هم عظيم وكاد ان يفارق البلاد لانه لم يعد يثق بنفسه ولا بمن حوله

اما مدينة دمياط فبقيت محاصرة وقد شدد الصليبيون عليها الحصار براً وبحراً وكانت سنة ليس اشد منها وطأة على المسلمين وقد اخذ اليأس منهم مأخذاً عظيماً . وهم في ذلك الشأن وفدت عليهم نجدة من الشام تحت قيادة الملك المعظم عيسى اخي

الملك الكامل وكان قد تولى دمشق بعد ابيه العادل فلما علم بما حصل لجيوش ابيه بعد وفاته اتى في عدة من رجال الشام فاطلعه الكامل على صورة الحال سرًّا واسرَّ اليه ان راس هذه الطائفة ابن المشطوب فجاء الملك المعظم يوماً على غفلة الى خيمة ابن المشطوب واستدعاه فخرج اليه فقال له «اريد ان اتحدث معك سرًّا في خلوة» وسار معه وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق بهم وقال لهم «اتبعونا» ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء الى شيء حتى ابعده عن المعسكر ثم قال له «ياعماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي ان تهبها لنا» ثم اعطاه شيئاً من النفقة وقال لاولئك المجردين «تسلموه حتى تخرجوه من الرمل» فلم يسعه الا امتثال الامر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال. ثم عاد المعظم الى اخيه الكامل وعرفه صورة ما جرى. ثم جهز اخاه الفائز المذكور الى الموصل لاحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار وكان ذلك خديعة لاخراجه من البلاد. فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الامراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرهاً لا طوعاً

وبعد يسير عاد الملك المعظم الى دمشق لينظر في احوال رعيته. ثم خشي من الصليبيين ان امتلكوا دمياط ان يمدوا يدهم الى اورشليم فتقوى سلطتهم فامر بهدم اسوارها حتى اذا ملكوها لا تزيد قوتهم شيئاً يستحق الاعتبار. هذا والصليبيون قد ضيقوا على دمياط ومنعوا القوت من الوصول اليها وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقاً وبنوا عليه سورا. واهل دمياط يقاتلونهم اشد القال ويمانعونهم وقد غلت عندهم الاسعار لقلة الاقوات. والملك الكامل كان لا يزال في اشمون ينظر الى دمياط وهي محصورة ولايقدر ان يصل اليها. وخشي اخيراً ان ييأس اهلها من المساعدة فيسلموا المدينة فانتدب احد الجاندارية المدعو شمائل للدخول الى دمياط لينشط من فيها ويعدهم بالانفاذ. فكان يسبح في النيل الى ان يصل الى اهل دمياط فيوصل اليهم الاخبار ويطمئنهم ويعود. وبقي على ذلك مدة فحظي عند الكامل وتقرب منه حتى جعله والياً على القاهرة واليه تنتسب خزانة شمائل بالقاهرة. وفي اثناء حصار دمياط قاسى المسيحيون في داخلية البلاد اضطهاداً شديداً وكان في الاسكندرية كنيسة قديمة البناء على اسم القديس مرقس فهدمها المسلمون لئلا يباغت الصليبيون الاسكندرية من اجلها فيتخذونها حصناً لانها كانت حصينة البناء كثيرة الاعمدة. وجعلوها بعد ذلك جامعاً ولا تزال آثارها الى هذا العهد بقرب باب القباري

فتح الصليبيين دمياط

ثم دخلت سنة ٦١٦ هـ وقد غلت الاسعار في دمياط بما يفوق الحد فبلغت البيضة عدة دنانير وكان رجال الملك الكامل ينفذون الاقوات الى اهل دمياط بحيل مختلفة مثل ان يأتوا بجمل ويشقوا جوفة ويملاوه فراخاً وفاكهة وبقلاً وغير ذلك ثم يخيطون عليه ويرمونه في النيل فيسير منحدراً مع المجرى فاذا جاء امام دمياط نزل من فيها اليه واخذوه واقتاتوا على ما في جوفه . وكان الافرنج احياناً يظفرون بهذه الحيلة فيأخذون تلك المؤن . وفي آخر الامر زاد الضيق في المدينة وكثرت الموتى جوعاً وامتلات مساكنهم وطرقات البلد منهم وعدمت الاقوات حتى لم يبق عندهم الا بعض القمح والشعير

وفي يوم الثلاثا ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار جميعها ١٦ شهراً و٢٢ يوماً . فدخلوها واحكموا السيف فيمن بقي فيها من الاحياء الى ان تجاوزوا الحد في القتل وكانت الابخرة الفاسدة تتصاعد عن جثث الموتى ما يلحق الاحياء بهم . وكانت تلك الجثث متراكمة في الاسواق والبيوت وعلى الاسرة فكان يموت الابن جوعاً وليس من يسعى في دفنه فيبقى في مكانه فيلحقه الاخ ثم الام ثم الاب وهكذا

مدينة المنصورة

واتصل ذلك بالسلطان الملك الكامل فرحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل نبالة طاخا على رأس بحر اشموم وراس بحر دمياط ليمنع الصليبيين من المسير الى داخلية القطر بحراً وحيز في محلة المنزلة واقام معسكره هناك . اما الافرنج فحصنوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وبثوا رجالهم في القرى يقتلون وينهبون ويأسرون وبعثوا جميع من اسروا من المسلمين الى عكا بحراً . اما الملك الكامل فاخذ في تحصين معسكره في المنزلة فامر ببناء الدور والفنادق والحمامات والاسواق وصارت تدعى بعد ذلك الحين «المنصورة» اشارة الى انتصاره على الصليبيين هناك وكتب الى المسلمين في سوريا يستحثهم على محاربة الافرنج واخراجهم من ديار المسلمين

اما الصليبيون فتركوا امتعتهم ومؤنهم في دمياط بعد ان اقاموا فيها حامية وساروا الى ان وصلوا تجاه المنصورة في ما هو امام سراي المنصورة الان وعسكروا هناك وكان عدد الصليبيين اذ ذاك نحو مائتي الف راجل وعشرة الاف فارس . فقدم المسلمون شوانيهم امام المنصورة وعدتها مائة قطعة . فاصبح المسلمون في ضيق . فامر الملك الكامل ان ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر انحاء القطر فاجتمع الناس من سائر النواحي من اصوان

الى القاهرة . ونودي بالنفير العام ايضاً فيما بين القاهرة الى آخر الحوف الشرقي فاجتمع عالم لايقع عليه حصر . وانزل السلطان على ناحية شار مساح الف فارس في الاف من العربان ليحولوا بين الافرنج ودمياط وسارت الشواني ومعها حراقة كبيرة على راس بحر المحلة وعليها الامير بدرالدين بن حسون فانقطعت الميرة عن الافرنج من البر والبحر

وفي اثناء ذلك اتت النجدات للملك الكامل من الشام والشرق يتقدمها الملك الاشرف موسى بن العادل وعلى ساقتها الملك المعظم عيسى . فتلقاهم الملك الكامل وانزلهم عنده بالمنصورة في ١٣ جمادى الاخرة . وتتابع مجيء الملوك حتى بلغت عدة جيوش المسلمين نحو اربعين الف فارس فحاربوا الصليبيين في البحر والبر واخذوا منهم ست شوان واسروا منهم الفين ونيفاً . فتضعضع الافرنج وضاق بهم المقام فخابرهم الملك الكامل بامر الصلح ليخرجهم من بلاده فعرض عليهم ان يعطيهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر الاماكن التي فتحها السلطان صلاح الدين الا الشوبك والكرك لانهما اصبحتا ملكاً خاصاً له نالها بالارث من السلطان صلاح الدين وطلب اليهم في مقابل ذلك ان يردوا له دمياط وينسحبوا من القطر المصري

فأصرَّ الصليبيون على طلب تينك المدينتين ومبلغ ٣٠٠ الف دينار تعويضاً لما سببه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بهدم اسوار بيت المقدس فامتنع المسلمون عن التسليم لهم بذلك . ثم بعثوا سرية من رجالهم لتسير سرًّا من وراء معسكر الصليبيين وتخرق سد ترعة المحلة وكان النيل في معظم ارتفاعه فطافت مياه الترعة حتى اغرقت جميع الاراضي التي تفصل جيش الصليبيين من دمياط فاصبحوا على مثل الجزيرة وقد حال الماء بينهم وبين نجدة اصحابهم فخافوا سوء المصير وباتوا يشكون من قلة الطعام وكثرة المياه . ولم يكن باقياً بينهم وبين دمياط الا طريق ضيق فامر السلطان بنصب الجسور عند اشمون طناح فعبرت العساكر عليها وملكت تلك الطريق فاضطرب الصليبيون وضاقت عليهم الارض

انسحاب الصليبيين من دمياط

واتفق مجيء مرمة عظيمة مدداً للصليبيين حولها عدة حراقات وقد ملئت كلها بالميرة والاسلحة فقاتلتها شواني المسلمين حتى ظفروا بها . فاتصل ذلك بالافرنج فزاد خوفهم وندموا على رفضهم المعاهدة كما طلبت اليهم . فطلبوا الامان على ان ينسحبوا من القطر المصري جميعه ولا يطلبوا لذلك مقابلاً فقبل السلطان الكامل في ٧ رجب سنة ٦١٨ هـ بان يعطي كل من الفريقين رهائن فاعطى الصليبيون ملك عكا ونائب البابا رهناً واعطى

الملك الكامل ابنه الملك الصالح وكان سنه ١٥ سنة وجماعة من الامراء . فسار الصليبيون الى دمياط وسلموها الى المسلمين في ١٩ رجب بعد ان كانوا قد اجهدوا انفسهم في تحصينها وخرجوا من القطر . وبعد خروجهم بقليل جاءت نجدة عظيمة في البحر الى الصليبيين فشكر المسلمون الله لتأخرها الى ذلك الحين . ولما بلغ الصليبيون مكانهم ارسلوا الملك الصالح ومن معه الى ابيه فارسل لهم رهنهم وتفرق الناس الى بلادهم ودخل الملك الكامل دمياط باخوته وعساكره وكان ليوم دخوله اليها احتفال عظيم

ثم عاد الى المنصورة وجلس في قصره فيها وبين يديه اخواه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف موسى صاحب بلاد الشرق وغيرهما من اهله وخواصه وهم في سرور واحتفال وبين يديهم المغنون فامر الملك الاشرف جاريته فغنت على عودها :

ولما طغى فرعون عكا وقومه وجاء الى مصر ليفسد في الارض
اتى نحوهم موسى وفي يده العصا فاغرقهم في اليم بعضاً على بعض

فطرب الاشرف وقال لها بالله كرري . فشق ذلك على الملك الكامل واسكتها وقال لجاريته غني انت . فاخذت العود وغنت :

ايا اهل دين الكفر قوموا لتنظروا لما قد جرى في وقتنا وتجددا
اعبّاد عيسى ان عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمدا

وهذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن حبارة اولها (ابى الوجد الا ان ابيت مسهدا) فاعجب ذلك الملك الكامل وامر لكل من الجاريتين بجائزة

ثم نهض القاضي الرئيس هبة الله بن محاسن قاضي غزة . وكان من جملة الجلساء وقال :

هنيئاً فان السعد جاء مخلدا وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحاً لنا بدا مبيناً وانعاماً وعزّاً مؤبدا
تهلل وجه الارض بعد قطوبه واصبح وجه الشرك بالظلم اسودا
ولما طغى البحر الخضم باهله الطـ ـغاة وافحى بالمراكب مزبدا
اقام لهذا الدين من سل عزمه صقيلاً كما سلّ الحسام المهندا
فلم ينج الا كل شلو مجدل ثوى مبهم او من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الارض رافعاً عقيرته في الخافقين ومنشدا
اعبّاد عيسى ان عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمدا

فكانت هذه الليلة بالمنصورة من احسن الليالي التي مرت لملك من الملوك . ثم عاد

السلطان الى مقر ملكه في القاهرة . وانتقل من دار الوزارة التي كانت الى ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن في قلعة الجبل واطلق جميع من كان في مصر من الاسرى . وكان منهم من له من ايام السلطان صلاح الدين . وكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط الى ان اقلعوا عنها ثلاث سنين واربعة اشهر و١٩ يوماً منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة اشهر واربعة وعشرون يوماً

ولما استتب للملك الكامل المقام على سلطنة مصر اخرج زعماء الثورة منها وطهر البلاد منهم حتى لم يعد لديه من ينازعه في الملك . ثم عمد الى الصليبيين مغتنماً فرصة ضعفهم وعقد معهم معاهدة على كيفية تمكنه من الاغتيال باخويه اللذين لولاهما لم تقم له قائمة في مصر فاغرى الامبراطور فريدريك ملك الصليبيين على الاغتيال باخيه الملك المعظم واستخراج دمشق من يده فقدم هذا الامبراطور الى عكا فاتصل به خبر وفاة الملك المعظم سلطان دمشق وتنصيب ابنه الملك الناصر صلاح الدين داود مكانه . فاستبشر الملك الكامل ووضع يده على الشوبك وبيت المقدس وغيرهما مما هو من مملكة دمشق فشق ذلك على الملك الناصر فاستنجد عمه الاشرف وكان متسلطاً على بلاد المشرق وما بين النهرين فجاءه حالاً في جيش كبير ولكن بدلاً من ان يدافع عنه ضد الملك الكامل جاء بعكس الامر

اما فريدريك فسار توًّا من عكا لافتتاح مملكة دمشق ففتح اولاً صور وسار فالتقى بالملك الاشرف فتخاصما على الفريسة تخاصماً انتهى بموت الملك الاشرف . فخلا الجو للملك الكامل واصبح الوارث لكلا الملكين فاتى سوريا لهذه الغاية فوصل دمشق ومات فيها في رجب سنة ٦٣٥هـ ودفن في قلعتها . وكان محباً للعظمة والافتخار متمسكاً بالسنة النبوية محباً للعلماء حسن الاعتقاد معاشراً لارباب الفضائل حازماً في اموره لا يضع الشيء الا في موضعه من غير اسراف ولا اقتار . وكان يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ويشاركهم في مباحثاتهم كواحد منهم . تولى سلطنة مصر وخفض ضرائبها نحو الثلث واقام فيها الزينة

ش ٧٤ : نقود الملك الكامل وعليها اسم المستنصر

وترى في الشكلين ٧٤ و ٧٥ صور النقود التي ضربت في ايام الملك الكامل بن العادل على احد وجهيها اسم الملك الكامل وعلى

الآخر اسم الامام المستنصر بالله الخليفة السادس والثلاثين من بني العباس . فالاولى نقود ذهبية ضربت في القاهرة سنة ٦٢٧ هـ والثانية نحاسية ضربت في حلب

ش ٧٥ : نقود الملك الكامل

سلطنة الملك العادل بن الكامل

من سنة ٦٣٥ – ٦٣٧ هـ او من ١٢٣٨ — ١٢٤٠م

ولما علم المصريون بوفاة الملك الكامل بايعوا ابنه سيف الدين ابا بكر الملقب بالملك العادل (الثاني) وكان قد استخلفه ابوه على مصر عند ما سار الى سوريا . واقاموا الامير يونس الملقب بالملك الجواد اميراً على سوريا تابعاً لمملكة مصر الا ان امارته هذه لم تطل لانه اتفق في السنة التالية مع الملك الصالح نجم الدين ايوب شقيق سلطان مصر وكان اميراً على مابين النهرين على ان يتبادلا الامارات . فاتى الملك الصالح الى سوريا وسار الامير يونس الى ما بين النهرين . وكان غرض الملك الصالح من هذه المبادلة الاقتراب من مصر والسعي في اختلاس الملك من اخيه فتنبأ الملك العادل بذلك واوجس خيفة فسار بجيوشه الى بلبيس ليوقف سير اخيه اذا حاول المجيء الى مصر . فلما وصل بلبيس نزل فيها وما اصبح الاوهو في قبضة امرائه مقيداً وذلك يوم الجمعة في ٨ ذي الحجة سنة ٦٣٧ هـ وفي الحال خلعوه واستقدموا اخاه الملك الصالح وبايعوه على مصر فدخل القاهرة في موكب حافل واصوات الترحاب والدعاء مالئة الجو فانتهت سلطنة الملك العادل الثاني وكانت مدتها سنتين

سلطنة الملك الصالح بن الكامل

من سنة ٦٣٧ — ٦٤٧ هـ او من ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م

ولما استوى الملك الصالح على سلطنة مصر اخذ في تمكين قدمه فيها فامر السنة التالية بالقبض على الامراء والمماليك الذين ساعدوه على خلع اخيه وبايعوه مكانه وقتلهم جميعاً وولى مكانهم من اختبر امانتهم نحوه . ثم عزل الملك الجواد يونس من امارته وحظر عليه القدوم الى مصر فاغتاظ لهذه المعاملة فالتجأ الى الصليبيين في عكا فقبلوه من اجل ثروته راجين التقرب بواسطته من اسماعيل امير دمشق . وقد كانت تلك فرصة ثمينة لهم فتحالفوا مع امير دمشق والملك المنصور ابراهيم امير حمص وامير الكرك وتعهدوا لهم بمحاربة مصر وقهرها على ان يأخذوا في مقابل ذلك مدن الصعيد والشقيف وطبرية وعسقلان واورشليم . ولما تم التحالف المذكور احتل الصليبيون تلك الاماكن واخذوا في ترميم حصون طبرية وعسقلان ثم اخذوا يهتمون بمحاربة مصر

وفي خلال ذلك نشأ في شرقي سوريا مخاوف كثيرة سببها ان قبيلة الخوارزميين لما طردهم جنكيز خان من شرقي اسيا في اثناء فتوحه هناك جاؤا سوريا الشرقية ونزلوا على حدودها فانفذ اليهم الملك الصالح سلطان مصر رسلاً عقدوا معهم صلحاً وعاهدوهم على محاربة الصليبيين وامراء سوريا الذين على دعوتهم . فتجند الخوارزميون واخترقوا سوريا الى ان بلغوا غزة فحاربوا الصليبيين عند اسوارها وانجدهم سلطان مصر من الجهة الثانية فانهزم الصليبيون فتتبعوهم حتى استولوا على غزة وبيت المقدس باسم الملك الصالح . فارسل هذا الى مصر شيئاً كثيراً من الاسرى ورؤوس القتلى . ثم جمع مدداً وسار الى اسماعيل امير دمشق والى امير حمص وحاصرهما وحارب محاربات اخرى شغلته من سنة ٦٤٥ الى ٦٤٧ هـ وشفت عن خضوع دمشق . اما حمص فكانت لا تزال تدافع الى ذلك العهد فضجر من طول هذه المحاربات فسار بنفسه لقيادة جندها ففاجأه مرض ثقيل وهو تورم في مأبضه تكون منه ناصور فتح وعسر برؤه وانضاف اليه قرحة في الصدر فلزم الفراش في دمشق . فجاءه منبئ يخبره بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر واخذها وقد اكثروا من التجنيد ووردت اليهم النجدات من اخوانهم في اوربا وكانت هذه التجريدة الصليبية السابعة على الاسلام . وكأني بهولاء الافرنج قد خجلوا لكثرة انكساراتهم امام جيش المسلمين بعد ان جردوا اليهم اولاً وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً وسادساً فاقروا المرة السابعة على تجريد قوة عظيمة يراسها ملك

فرنسا لويس التاسع وهي مؤلفة من خمسين الف مقاتل ومعهم من العدة والسلاح شيء كثير وعدد عديد من المراكب المذخرة وضباطها انتخبوهم من اشد رجال اوروبا

فلما علم الملك الصالح بقدوم الصليبيين وهو في ما تقدم من المرض لم يسعه الا الخروج من دمشق فسار في محفة ونزل اشمون طناح في اول سنة ٦٤٧هـ وجمع في مدينة دمياط من الاقوات والازواد والاسلحة وآلات القتال شيئاً كثيراً خوفاً من ان يجري على دمياط ماجرى في ايام ابيه . واعدَّ اسطولاً من دار الصناعة بمصر وجعل فيه سائر ما يحتاج اليه الجند وسيره شيئاً فشيئاً وضم الى جنده كثيراً من العربان واكثرهم من بني كنانة جعلهم وراء متاريس دمياط وعهد بقيادة حامية هذه المدينة الى الامير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ . ففي صباح يوم الجمعة في ٢٠ صفر من تلك السنة وردت مراكب الصليبيين الى دمياط وفيها جموعهم وحال وصولهم بعث ملكم لويس التاسع الى الملك الصالح كتاباً يقول فيه :

« أما بعد فانه لم يخف عليك اني امين الامة العيسوية كما انه لا يخفى عليَّ انك ابن الامة المحمدية . وغير خاف عليك ان عندنا اهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار وانا قد ابديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لي بكل الايمان وادخلت علي الاقساء والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلاً اليك وقاتلك في اعز البقاع اليك . فاما ان تكون البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي واما ان تكون البلاد لك والغلبة عليَّ فيدك العليا ممتدة الي . وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملا السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك باسياف القضاء »

فلما قرئ الكتاب على السلطان الملك الصالح وقد اشتد به المرض بكى واسترجع فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب . « بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه اجمعين . اما بعد فانه وصل كتابك وانت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد ابطالك فنحن ارباب السيوف . وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ولو رات عينك ايها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الأواخر منكم والاوائل لكان لك ان تعض على انامك بالندم ولا بد ان تزل بك القدم في يوم اوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون. فاذا قرات كتابي هذا

فتكون فيه على اول سورة النحل اتى امر الله فلا تستعجلوه وتكون على آخر سورة (ص) ولتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو اصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغي له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام »

وفي اليوم التالي حصلت بين الفريقين مناوشات قتل فيها بعض امراء المسلمين وفي المساء فرّ الامير فخر الدين لغير داع فتبعته بنو كنانة وخرجوا من المدينة فتبعهم الاهلون في الليل على وجوههم لايلتفتون الى شيء ولحقوا بالعسكر في اشمون فدخلت المدينة للصليبيين فدخلوها بامان في ٢٢ صفر واستولوا على جميع مافيها من المؤن والزخائر والاسلحة وعدة الحرب فخسر سلطان مصر بذلك خسارة لاتعوض . فاستشاط الملك الصالح غيظاً وجمع اليه بني كنانة وعنفهم لانهزامهم على حين لم يكن داع للهزيمة فقالوا نحن لم نفعل ذلك الا بعد ان راينا الامير فخر الدين فارًّا ومن ورائه رجاله فامر الملك الصالح باعدام ٥٤ من امرائهم لانهم خرجوا من دمياط بغير اذنه

وفي ٢٤ صفر عسكر في المنصورة وحصنها الا انه لم يعش بعد ذلك كثيراً فتوفاه الله في ١٤ شعبان وسنه اربعون سنة . وكان رجلاً مهيباً قليل التكلم يهابه من يجلس في مجلسه . وكان عنده عدد من المماليك لم يسبقه اليه احد قبله ولم يوص قبل موته بمن يأخذ السلطان بعده ولم يكن له من البنين الاغياث الدين طوران شاه وكان قد تركه في سوريا

وكان من جملة جواري الملك الصالح جارية تدعى شجرة الدر مربية غياث الدين فتواطأت مع الامير فخر الدين ورئيس الخصيان جمال الدين محسن على مبايعة ابنها وكانت عارفة بامور الحكومة وسياستها . ويقال ان الملك الصالح كثيراً ما عهد اليها ادارة الاحكام في اثناء غيابه عنها في حملاته الحربية . فلما توفي الملك الصالح كتمت امر موته ووقفت في جمهور الامراء والاعيان قائلة « ان السلطان يأمركم ان تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الامير فخر الدين اتابكا لادارة الاحكام » فبايع جميع الامراء . ثم ارسلت هذه الاوامر الى القاهرة فبايع جميع من فيها من القواد واعيان السلطنة وبعثت بالرسائل في ذلك مختومة بختم السلطان الملك الصالح الى جميع انحاء المملكة وكان الجميع يظنون ان الملك الصالح لايزال حياً لكنهم عند ماعلموا باستقدام الملك المعظم بسرعة الى القاهرة داخلهم الريب

اما الصليبيون فكانوا في خلال ذلك قد تقدموا قاصدين المنصورة وحاربوا في اثناء الطريق محاربات طفيفة ولما بلغوا المنصورة حاربوها محاربة قوية وكان الجيش الاسلامي

تحت قيادة الامير فخر الدين فحارب ببسالة كلية . كل ذلك وبين الجيشين بحر اشمون ولم يستطع الصليبيون العبور الى المنصورة ولم يكونوا يعلمون طريقاً اليها غير النيل . فأتى اليهم بعض من غدروا من المسلمين واخبروهم عن طريق يمكنهم سلكها بسهولة فسارت سرية من فرسانهم وهاجمت المنصورة بغتة . وكان الامير فخر الدين في الحمام فأتته الاخبار بهجوم الصليبيين على المحلة فبغت ونادى في رجاله وخرج للدفاع فادركه بعضهم فقتله وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا مماليك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعاً شديداً وانتهت الواقعة وقد اعيا الفريقين التعب ولم يكن احدهما يجسر على تجديد القتال لعظم ما قاسيا من الخسائر . وفي اثناء ذلك وصل الملك المعظم الى المنصورة قادماً من سوريا فاشتد عزم المسلمين به وهاجموا النصارى في البر والبحر فاسروا منهم ٣٢ مركباً . فلما راى الصليبيون ما كان من ضعفهم طلبوا المصالحة على ان ياخذوا بيت المقدس وضواحيه وينسحبوا من مصر بعد اخلاء دمياط . فلم يقبل المصريون فاقاموا في المنصورة حتى نفد زادهم وقد انقطعت السابلة بينهم وبين دمياط . وفي ٢ محرم سنة ٦٤٨ هـ عزموا على التقهقر فتعقبهم المصريون حتى ادركوهم غربي فرسكور فاستلحموهم واثخنوا في قتلهم . ويقال انهم قتلوا منهم ٣٠ الفاً واسروا الملك لويس التاسع وكثيراً من ضباطه وكبار جيشه وكانوا قبل ان قبض عليهم قد فروا الى منية ابي عبد الله فاسروهم هناك

سلطنة الملك المعظم بن الصالح

من سنة ٦٤٧ — ٦٤٨ هـ او من ١٢٤٩ — ١٢٥٠ م

فلما تأكد الفوز للمصريين شهروا وفاة الملك الصالح ومبايعة الملك المعظم توران شاه فاقام الملك المذكور في فرسكور احتفالاً لمبايعته وانتصاره معاً . ثم عزل كل من كان في يده ازمة الحكومة من المصريين وولى مكانهم رجالاً ممن جاؤا معه من بين النهرين لانه كان اشد ثقة فيهم فشغب الناس وتحدثوا في ذلك كثيراً . وفي غاية محرم ثار عليه المماليك وهموا بقتله وفي جملتهم مملوك يدعى بيبرس . ففرّ الملك المعظم والتجأ الى برج من الخشب كان قد اقامه للحصار في فرسكور . فاحرقوا البرج فألقى بنفسه الى النيل لعله يجد قارباً يركبه فينجو بحياته . فادركه المماليك وقطعوه ارباً ارباً

وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية السابعة وموت السلطان الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وهو آخر من ملك من الاسرة الايوبية وبموته انقضت دولتهم وقامت دولة المماليك الاولى

دولة المماليك الاولى

من سنة ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ او من ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م

منشأ المماليك ومبدأ امرهم في السلطنة

قد تقدم الكلام عن اصل استخدام المماليك الاتراك في الدولة في ايام المعتصم عند كلامنا عن مبدا الدولة الطولونية . اما السلاطين المماليك فلهم تاريخ آخر في منشئهم وذلك انهم من قفجاق من شمالي اسيا . وكانت من المستعمرات الاسلامية فكانوا يجعلون عليها ولاة من امراء السلاف الذين كانوا من حكام روسيا . فلما غزا المغوليون تلك الاصقاع تحت قيادة باتوخان حفيد جنكيز خان اخرجوا منها سكان الولايات القزوينية والقوقاسية فتشتتت قبائلهم وتفرقوا في القارة . فالخوارزميون نزلوا اعالي سوريا وما بين النهرين وحطوا رحالهم هناك . اما ما بقي من تلك القبائل التائهة فلم يجدوا لهم مقرًا يقيمون فيه . فجعلوا يطوفون البلاد باولادهم ونسائهم لايستقرون على حال وكانت تجارة الرقيق في ابانها فاغتنم تجارها فرصة ثمينة وجعلوا ينتقون من ابناء اولئك المساكين اجملهم صورة واقواهم بنية وانورهم عقلاً ويبيعونهم بيع السلع . اما الضعفاء وقبيحو الصورة فكانوا ينبجونهم . فاكثر امراء سوريا وملوكها من اقتناء اولئك الارقاء البيض ودعوهم بالمماليك

فالملك الصالح من سلاطين الدولة الايوبية كان قد ابتاع منهم نحو الالف حتى جعل منهم امراء دولته وخاصة بطانته والمحيطين بدهليزه . ودعاهم بالحلقة اشارة الى انه لا يبرح محاطاً بهم كيفما توجه كما فعل الخليفة المعتصم العباسي بالاستكثار من المماليك الاتراك

وكانت مماليك الملك الصالح صفوفاً يميز كلٌّ منهم بعلامات خصوصية يجعلونها على ثيابهم واسلحتهم . فكانت علامة بعضهم الورد وعلامة البعض اشكال الطيور . وكانوا

يتطلقون بمناطق جميلة مختلفة الالوان فتألف منهم جيش مخصوص تسبب عنه قلاقل في سائر المملكة المصرية . وقد كانوا بالواقع ميالين الى الاستقلال بالحكم لا يمكنهم الرضوخ لسلطان من السلاطين باختيارهم لانهم كانوا كثيري العدد والعُدد . وكانت اهم المناصب في ايديهم وامنع حصون البلاد في قبضتهم قد اتخذوها مستقرًّا لهم حتى اذا ضاقت ذرعاً عن الاحاطة بهم ابتنوا بامر الملك الصالح قصوراً عظيمة متقنة البناء منيعة الجانب في جزيرة الروضة قرب المقياس . وقد زادها مركزها الطبيعي مناعة وجمالاً لان النيل يتفرع هناك الى فرعين . وكان يدعى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم اتساعه فسمي هؤلاء بالمماليك البحرية ومنها اسم دولتهم تمييزاً لها من دولة المماليك الشراكسة

وكانت سطوة المماليك البحرية تنتشر يوماً فيوماً الى انهم طمعوا بخلع السلطان وتولي الملك مكانه . فلما تولى الملك المعظم آخر سلاطين بني ايوب وكان على ما كان عليه من الاستبداد انفت نفوسهم من اعماله فسعوا بما سعوا الى ان قتلوه على ما تقدم. وكان الملك لويس التاسع والذين معه لايزالون اسرى في البرج الخشبي الذى التجأ اليه الملك المعظم قبل قتله . ولما لعبت النار بالبرج فر الملك لويس ومن معه ومروا بين المصريين وهم يقتلون ملكهم ثم نزلوا على مراكب كانت في انتظارهم واقلعوا بعد ان شاهدوا مقتل الملك المعظم . ثم جاءهم رجل من المصريين يدعى الفارس اقطاي حاملاً قلب الملك المعظم واعطاه للملك لويس وطلب اليه ان يكافئه على قتل عدوه . وقال بعض المؤرخين ولا اراه في مكان الثقة ان الامراء المصريين بعد قتلهم ملكهم طلبوا الى لويس المذكور ان يتولى زمام الاحكام مكانه فرفض

سلطنة شجرة الدر

سنة ٦٤٨ هـ او ١٢٥٠ م

فلما قتل الملك المعظم اختلفت الاحزاب على من يبايعون بعده وكل فئة منهم تحاول استبقاء الحكم في يدها . وعلا الخصام حتى كاد يفضي الى الحرب فتداركت الامر شجرة الدر بعد ان رات ماحل بالملك المعظم وتبصرت في امر من يجب ان يخلفه فرأت حزب المماليك اعز جانباً من الجميع . ونظراً لكونها من ابناء جلدتهم وافقتهم على رأيهم وكانت قبل ذلك قد تمكنت بطريقة غريبة لم يسبق لها مثيل في الاسلام

ان تستلم زمام الاحكام باقرار الجميع . وكيفية ذلك انها تواطأت مع ايبك عز الدين وكان من اعظم الامراء المماليك واقواهم نفوذاً وكان بينهما علاقات ودية منذ ايام الملك الصالح . ويقال انه من قتلة الملك المعظم فتمكنت بذلك التواطؤ من مبايعة جميع الاعيان لها ولقبت بعصمة الدين ام خليل في ١٠ صفر . وكانت توقع بما مثاله « والدة خليل » ونقشت اسمها على النقود بما هو « المستعصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة امير المؤمنين » وخطب لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة وهذه صورة الخطبة : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح

ش٧٦: المحمل المصري

نجم الدين ايوب » وعينت عز الدين اتابكاً عندها لتدبير المملكة . ثم اخذت في التقرب من ارباب الدولة ووجهاء البلاد فجعلت تخلع عليهم الخلع الثمينة وتمنحهم المناصب والرتب وتخفض الضرائب . الا ان جميع هذه المساعي لم تأتها بفائدة لان الناس لم يرتاحوا الى طاعتها . فانفذ السوريون الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في امر هذه المملكة . فكتب اليهم يقول : « من بغداد لامراء مصر . اعلمونا ان كان ما بقي عندكم

في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . اما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « لا افلح قوم ولوا امرهم امراة »

فاستمسك مماليك مصر بهذه الفتوى وثار رفقاؤهم في دمشق وخلعوا طاعة شجرة الدر وبايعوا سلطان حلب الملك الناصر يوسف الايوبي في ٨ ربيع اول وقتلوا كل من في دمشق من المماليك على دعوة شجرة الدر . ومثل ذلك فعل اهل بعلبك وشميس وعجلون . فنشأ بسبب ذلك خصام بين مماليك سوريا ومماليك مصر آل الى وقائع حربية . فتمكن عز الدين ايبك في هذه الانقسامات من الاستقلال عن صديقته والجأ الامراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقالت . وهي اول من ارسل المحمل من مصر الى مكة ولا يزال ذلك جارياً الى الآن

سلطنة ايبك الجاشنكير والاشرف بن يوسف

من سنة ٦٤٨ — ٦٥٥ هـ او من ١٢٥٠ — ١٢٥٧ م

وفي سنة ٦٤٨ هـ بويع عز الدين ايبك على مصر ولقب بالملك المعز الجاشنكير التركماني الصالحي وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبها الى حزبه واحتفلوا بتوليته السلطنة على جاري عادتهم في الاحتفالات الكبرى فركب دوبشعار وحملت على راسه القبة والطير ولعبوا قدامه بالغواشي الذهب وجلس على سرير الملك وجميع الامراء قبلوا الارض بين يديه . وبعد قليل انقسم المماليك الى قسمين عظيمين عرفا بالمعزيين نسبة الى الملك المعز ايبك والصالحيين نسبة الى الملك الصالح نجم الدين وتنازعا النفوذ . ففاز الصالحيون وطلبوا ان يكون السلطان عليهم من سلالة الايوبيين وقالوا « لابد لنا من واحد من ذرية بني ايوب نسلطنه علينا » وكان المتكلم يومئذ من الامراء الامير بلباي الرشيدي والامير فارس الدين اقطاي والامير بيبرس ركن الدين البندقداري والامير منقر الرومي وغيرهم جماعة من المماليك البحرية فوقع الاتفاق بينهم وبين المعز ايبك بان يحضروا بشخص من بني ايوب يقال له مظفر الدين يوسف من اولاد الملك مسعود صاحب بلاد الشرق

فاعتزل ايبك السلطنة وبايع مظفر الدين بن يوسف اتسز ملك اليمن وعمره نحو عشرين سنة فبايعه في ٥ جمادى الاولى وبايعه الناس ولقبوه بالملك الاشرف وتعين

عز الدين اتابكاً له غير ان ازمة الاحكام ما برحت في يده ولم يكن الاشراف الا اسماً بلا رسم ومن الغريب تألف هذه السلطة المزدوجة من احد سلالة الاسرة الايوبية واحد مماليكها . واغرب من ذلك ان يخطب لهما معاً

وفي خلال ذلك نهض سلطان دمشق الجديد ناصر الدين يوسف الايوبي للاخذ بثار الملك المعظم فدعى اليه اقرباءه امراء الاسرة الايوبية للتعاضد على ذلك وتأكيداً لنجاح مسعاه استمد لويس التاسع ملك فرنسا وكان اذ ذاك في عكا على ان يعيده له في مقابلة ذلك بيت المقدس . فارسل ملك فرنسا الى ناصر الدين راهباً لعقد المعاهدة وانفذ الى المماليك في مصر مندوباً يطلب اليهم التعويض عن نكث المعاهدة التي عقدوها مع الصليبيين وكان من مصلحتهم الاتفاق مع الصليبيين على سلطان دمشق فاجابوا مطاليبه واطلقوا عدداً كبيراً من الاسرى المسيحيين بعثوا بهم الى عكا وارفقوهم بمندوبين لتجديد المعاهدة . فاقترح لويس التاسع ان يضاف اليها البنود الثلاثة الآتي ذكرها وهي :

اولاً ارجاع رؤوس الصليبيين التي كانت مغروسة على متاريس القاهرة

ثانياً ارجاع جميع الاولاد الذين كانوا قد اجبروا على الاسلام

ثالثاً التنازل عن المائتي الف دينار التي تعهد الصليبيون بدفعها بمقتضى معاهدة المنصورة

فرضي المماليك بجميع ذلك واهدوه فوقها فيلاً جميلاً وكان هذا اول فيل ارسل الى فرنسا ووعدوه ان يعيدوا اليه بيت المقدس اذا تغلبوا على سلطان دمشق . فاتصل امر تلك المخابرات بسلطان دمشق فانفذ عشرين الف مقاتل تحول دون اتحاد الجيشين فعثروا بالمصريين في غزة فناهضوهم حتى ارجعوهم الى الصالحية فانجدهم الفارس اقطاي فاعادوا السوريين على اعقابهم الى سوريا . ثم تشدد السوريون وعادوا بمدد كبير تحت قيادة شمس الدين لولو صاحب دمشق ومعهم سلطان دمشق نفسه فالتقوا بالمماليك تحت قيادة ايبك والفارس اقطاي يوم الخميس ١٠ ذي القعدة سنة ٦٤٩ هـ في العباسة وتقاتلا فانكسر المصريون اولا فتعقبهم السوريون فجعل ايبك والفارس اقطاي انهزامهما نحو سوريا ومعهما جماعة من الفرسان فالتقيا بشمس الدين لولو في شرذمة من رجاله فقتلاه وشتتا رجاله فاشتد ازرهما فعادا لمهاجمة سلطان دمشق وكان في معسكره مع شرذمة قليلة من الجند . اما باقي الجيش فكانوا يتعقبون الجيوش المصرية المنهزمة فاضطر السلطان الى الفرار بنفسه فتبعاه فلم يدركاه فعادا الى مصر فرايا الجيوش السورية قد دخلت القاهرة وخاف اهلها ظناً منهم ان النصر لناصر الدين فبايعوه وخطبوا له . الا

ان الفقهاء لم يوافقوا على المبايعة شخصياً على انهم لم ينجوا من انتقام ايبك . فلما علم المصريون ان النصر لهم فرحوا جداً وابطلوا مبايعة ناصر الدين . اما هذا فلما رأى امر انكساره على ما تقدم لم يعد يمكنه استئناف الحرب فصالح المصريين على ان يتخلى لهم عن مصر وغزة وبيت المقدس وقد ربح من الجهة الثانية ما كان يرومه من فساد المعاهدة بين المصريين والصليبيين فاتفق مع المماليك على محاربة الصليبيين

خراب دمياط

ثم اتفق المماليك البحرية على تخريب مدينة دمياط خوفاً من مسير الافرنج اليها مرة اخرى فسيروا اليها الحجارين والفعلة فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ ومحيت آثارها ولم يبق منها سوى الجامع ويعرف بجامع الفتح واخصاص ابتناها بعض الفقراء للسكن في قبليها ودعوا ذلك المكان المنشية . اما دمياط الباقية الى هذا العهد فابتنيت على انقاض تلك فبلغت جمالاً فائقاً وقد ساعدها على ذلك حسن مركزها الطبيعي واهميته للتجارة وقد بالغ المقريزي في وصفها لانها كانت في ايامه ازهى واعمر مما هي الان فنظم في مدحها قصيدة اقتطفنا منها هذه الابيات

سقى عهد دمياط وحياه من عهد ... فقد زادني ذكراه وجداً على وجد
وبشنينها الريان يحكي متيماً ... تبدّل من وصل الاحبة بالصد
فقام على رجليه في الدمع غارقاً ... يراعي نجوم الليل من وحشة الفقد
وظل على الاقدام تحسب انه ... لطول انتظار من حبيب على وعد
كان التقاء النيل بالبحر اذ غدا ... مليكان سارا في الحجافل من جند
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا ... ولا طعن الا بالمثقفة المد

وعظم الفارس اقطاي في عيون المصريين لما اظهره من البسالة والاقدام في الحروب الاخيرة فلقبه احزابه بالملك وتزوج اخت المنصور سلطان حماه واسكنها في القلعة لاتصال حبل قربابها بالعائلة الملوكية فاوجس ايبك شرًّا من نفوذ الفارس المذكور حتى خشي مناظرته في الملك فاخذ يسعى في التخلص منه وكان الفارس زعيماً لحزب من المماليك الصالحيين وكانوا يطلبون له المشاركة في الملك مع الملك الاشرف وما زالوا حتى نالوا مطلوبهم فرقى كثيرين منهم وفي جملتهم سيف الدين قطوز الذي صار بعد ذلك ملكاً . اما الفارس اقطاي فقتله ايبك وهو داخل بسراي القلعة ثم خشي الوقوع في شر اعماله فامر باقفال القلعة وابواب المدينة وليث يتوقع الحوادث فلم تمض برهة حتى ناوأه الامراء الصالحيون تحت رئاسة بيبرس وتجمهروا على ابواب القلعة وطلبوا الفارس

اقطاي وهم يحسبونه مأسوراً فرمى اليهم براسه من على السور فلما علموا بقتله ارتاعت قلوبهم فعمدوا الى الفرار نحو باب القراطين ففتحوه وساروا قاصدين سوريا وبقي منهم شرذمة قبض عليهم واودعوا السجن

فلما تخلص الملك المعز ايبك من طائفة الصالحيين قبض على الملك الاشرف والقاه في سجن مظلم فمات فيه تعساً بعد ان حكم سنة وشهراً

ش ٧٧ : نقود الملك الاشرف

وترى في الشكل السابع والسبعين صورة النقود التي ضربت على عهد الملك الاشرف بن يوسف وعليها اسمه واسم الامام المستعصم بالله العباسي . والاشرف آخر من ملك مصر من الايوبيين . وحكم بعض افراد هذه العائلة في دمشق وحلب وحمص وميافرقين . الا ان هؤلاء لم تمض عليهم عشر سنين حتى انقرضوا ولم يبق منهم الا فرع واحد في حماه بقي حاكماً فيها قرناً بعد انقراض جميع الدولة وكانت سلطته ضعيفة لانحصارها في تلك الامارة الصغيرة وقد جاء من نسله ابو الفدا المؤرخ المشهور سنة ٧١٨ هـ . وقد نسي كثيرون منا ذكر الدولة الايوبية وفتوحاتها العظيمة ولكننا لم ننس ابا الفدا لانه ترك لنا ذكراً لا يمحى بتأليفه المشهور

واستوزر ايبك شخصاً من نظار الدواوين يدعى شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي احد كتاب الاقباط وكان قد اسلم من ايام الملك الكامل وترقى في الكتابة وكان طبيباً للسلطان الايوبي الخامس مشهوراً بالطب والسياسة فلما صار وزيراً قرر على التجار وذوي اليسار وارباب العقاقير اموالاً ورتب مكوساً وضمانات سموها حقوقاً ومعاملات

ولما استتب المقام لايبك وتخلص من المماليك الصالحيين وغيرهم ممن كانوا ينازعونه الملك حسب الجو قد خلا له وما درى ان شجرة الدر لاتزال واقفة له بالمرصاد بعد ان صارت له زوجة فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يجسر على مقاومتها مع علمه باستقلالها من مهام الملك على انه لم يستطع احتمال هذا التقييد والسلطان في يده وهي تمن عليه بانها سبب وصوله الى ذلك المنصب فجعل يبحث عن طريقة تنقذه من هذه القيود مع علمه ان مكايدة النساء اشد وطأة من ملاقاة الرجال . فادعى انها عقيمة لايرجى منها نسلاً فاقتنى عليها سراري اخريات فولدت له احداهن ولداً دعاه نور الدين علي ثم بلغها انه ساع في التزوج بابنة بدر الدين لولو ملك الموصل وكان قد امسك عن زيارتها فاشتعلت حسداً لعلمها ان هذه الزوجة الاخيرة من بنات الملوك فخافت ان تحل محلها

من العظمة فاقرت على الكيد به

وكانت شجرة الدر صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس سكرانة من خمرة العجب فلما ضايقت ايبك نزل من القلعة وهو غضبان فبعثت تتلطف به حتى عاد الى القلعة فلاقته وقامت اليه وقبلت يديه على غير عادة منها وكانت قد اضمرت له السوء فندبت له خمسة من الخدم الخصيان الروم وقالت لهم « اذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طلع الى القلعة اصطلح مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه اولئك الخدم وبايديهم السيوف فقام ايبك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فاغلظ عليها بعض الخدم في القول وقال لها « ان تركناه فلا يبقى عليك ولا علينا » فقتلوه في الحمام خنقاً وقيل ربطوا محاشمه بوتر وجذبوه حتى مات . فلما حملوه واخرجوه من الحمام اشاعوا انه قد اغمي عليه في الحمام فوضعوه على فراش الحمام واشاعت انه مات مصروعا . وكان ايبك ظلوماً غشوما سفاكاً للدماء

ولم تجسر شجرة الدر على تعاطي الاحكام بنفسها خوفا من الايقاع بها فجاءت بخاتم الملك الى اميرين من كبار الامراء وطلبت اليهما امام جثة زوجها ان يستلما زمام الاحكام فابيا . وكان قتل ايبك في داخل السراي ليلاً ولم يشع الخبر في القاهرة الى الصباح التالي . فلما علم اصحابه من المماليك بما حل به اضمروا الانتقام وكان سن ابنه نور الدين علي ١٥ سنة فبايعوه ولقبوه بالملك المنصور

وكانت مدة ايبك في الاحكام عشر سنوات واحد عشر شهراً شاد في خلالها بنايات عظيمة وفي جملتها مدرسة دعاها المدرسة المعزية نسبة اليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلاً مخصوصاً للنفقة عليها . وهو اول من اقام من ملوك الترك قلعة الجبل

سلطنة نور الدين علي بن ايبك

من سنة ٦٥٥ — ٦٥٧ هـ او من ١٢٥٧ — ١٢٥٩ م

فالملك المنصور حالما بويع قبض على قاتلة ابيه وعهد بها الى نساء بيته فاماتوها ضرباً بالقباقيب على راسها وطرحوا جثتها في خندق القلعة فاكلت الكلاب نصفها

ودفن النصف الباقي قرب مدفن السيدة نفيسة

فانتهت حياة هذين الخادعين شجرة الدر وايبك كما رايت فجوزي كل منهما بما فعل لانهما قتلا الملك المعظم . اما نور الدين علي فلم يحكم الا مدة قصيرة تحت مناظرة وصيه شرف الدين هبة الله المتقدم ذكره

وكان نور الدين قد استقر بالامير سيف الدين قطز المعزي نائب السلطنة بمصر واتابك العساكر . وكان قطز شديد الباس صعب الخلق فقبض على الوزير شرف الدين هبة الله وصادره واخذ جميع امواله ثم صلبه على باب القلعة وخلع على القاضي زين الدين يعقوب بن الزبير واستقربه وزيراً عوضاً عن هبة الله

وفي ايام هذا السلطان بمصر هجم هولاكو التتري على مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرب بغداد . ووصل الخبر الى مصر انه حامل على بلاد الشام ومصر فخافوا وعقد قطز مجلساً من العلماء والقواد اقروا فيه ان الحالة تقتضي ان يتولى السلطنة رجل حازم . فانزلوا نورالدين في ٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ بعد ان حكم سنتين وبايعوا سيف الدين قطز وكان نورالدين طائش العقل يلعب بالحمام مع الغلمان

سلطنة المظفر سيف الدين قطز

من ٦٥٧ — ٦٥٨هـ او من ١٢٥٩ — ١٢٦٠

وسيف الدين هذا شريف الاصل من عائلة ملوكية خلافاً لسلفه فهو ابن مودود شاه ابن اخي ملك خراسان فتح التتر بلاده فتشتتت اسرته . ولما تولى سلطنة مصر لقب بالملك المظفر وحالما استوى على السلطنة قبض على نورالدين وامر بقتله فحاول وصيه شرف الدين المدافعة عنه فصلبه عى باب القلعة

ثم لاح له ان دمياط بعد ان دكت اسوارها لم يبق ما يعيق مراكب العدو عن المرور في النيل فامر بردم مصب النيل هناك وبعث بفرقة من الحجارين فمضوا وقطعوا كثيراً من الحجارة والقوها فيه حتى ضاق وتعذر سير المراكب منه الى دمياط وهو على ذلك الى اليوم فان المراكب الكبيرة لا تستطيع المرور فيه فتنقل البضائع منها الى الجروم والمتواتر على السنة البعض ان سبب ذلك وجود جبل او رمل متجمع هناك

محاربة التتر

وفي خلال ذلك جاء القاهرة قائد تتري ناقلاً منشوراً من هولاكو ملك المغول حفيد جنكيزخان وكان التتر قد انتشروا في جميع اسيا الشمالية الشرقية . وكان هولاكو قد غزا العراقين بجيش عظيم واستولى على مدينتي الموصل وحلب وقتل الخليفة المستعصم بالله كما تقدم . ونزل هولاكو على سوريا ففتح دمشق والسواحل البحرية حتى قصد مصر فبعث اليها منشوراً مضمونه : من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الاعظم ونعت نفسه بالفاظ معظمة وذكر في الكتاب شدة سطوته وكثرة عساكره وما جرى على اهل البلاد منه ولا سيما ما فعله في بغداد وما جرى على اهلها منه الى ان قال « يا اهل مصر انتم قوم ضعاف فصونوا دماءكم مني ولا تقاتلوني ابداً فتندموا »

فلما قرأ قطوز ذلك المنشور وعلم ما كان من امر فتوح هذا التتري وما هو عليه من القوة والمنعة اوجس خيفة . غير ان جيوشه كانوا قد حاربوا الجيوش الصليبية وانتصروا عليها ولم يزل في نفوسهم عزة الظفر وانفة النصر فاستخفوا بقول هولاكو واصروا على القتال فحشدهم قطوز وجهزهم بما يلزم من العدة والسلاح واستقدم اليه نائل العربان وفرق فيهم وفي سائر جيشه نحواً من ستماية الف دينار جمعها من الضرائب التي اقامها على المصريين مما دعاه تصقيع الاملاك وزكاتها واحدث على كل انسان ديناراً يؤخذ منه واخذ ثلث التركات الاهلية فكان يجمع منها ٦٠٠٠ دينار سنوياً . ثم سار من القاهرة لملاقاة التتر في غاية شعبان سنة ٦٥٨ هـ وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت ابيه منجوخان ملك التتر فاضطر الى العود حالا ليطالب بحقوق الوراثة . فعاد تاركاً في سوريا نحواً من عشرة الاف من نخبة فرسانه تحت قيادة نسيبه ونائبه كتبغا لمحاربة قطز فالتقيا في فلسطين في عين الجالوت فالتحم الجيشان وحصلت بينهما واقعة كبيرة شفت عن هلاك كتبغا وكل رجاله والقبض على ابنه . وغنم المصريون غنيمة كبيرة تكفي لاغناء كل المشرق لانها تحتوي على اثمن ما نهبه هولاكو من اغنى المدن في اثناء فتوحه . فعاد الملك المظفر الى القاهرة ظافراً ولم تتم سعادته لان المنية كانت في انتظاره على الطريق فقتله بعض رجاله الذين كانوا يترقبون فرصة لقتله فتمكنوا من ذلك يوم السبت في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ بعد ان حكم ١١ شهراً و١٣ يوماً

وتفصيل ذلك انه بينما كان عائداً بجيشه الى القاهرة مرّ من امامه ارنب بري وكان مولعاً بالصيد فسار على اثره في عرض الصحراء حتى امعن فيها ثم عاد وحده ولا صيد معه فتقدم لملاقاته احد امرائه المدعو ركن الدين بيبرس البندقداري فلما دنا منه هم

نيده كانه يريد تقبيلها فامسكها باحدى يديه وطعنه بالاخرى في قلبه فسقط صريعاً يخبط الارض . فجاء باقي الامراء وكانوا متواطئين معه على هذه الفعلة فرفعوا جثة سلطانهم ودفنوها في قبر صغير قرب قبر خلف نخشي ذوو الفقيد ان تبلغ الموسى لحاهم فتفرقوا في مصر السفلى لا يظهرون على احد . وكان الاتابك اذ ذاك في الصالحية مع السواد الاعظم من الجيش فسار اليه قتلة قطوز واخبروه بما فعلوا فقال لهم « من منكم ضربه الضربة الاولى » فاجاب بيبرس «انا هو» فقال له « فاحكم مكانه »

فبويع بيبرس للحال ولقب بالملك القاهر ثم تشاءم من هذا اللقب فابدله بالملك الظاهر واضاف اليه ابا الفتوح وكان يلقب ايضاً بالعلائي وبالبندقداري نسبة الى سيده الذى كان يدعى علاء الدين بندقدار

سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري

من سنة ٦٥٨ — ٦٧٦ هـ او من ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م

ولما تمَّ لبيبرس امر السلطنة سار الى القاهرة واستوزر بهاء الدين بن حنا واتخذ بلباي (بيلي بك) الخازندار وهو من اعز اصدقائه بل هو صنيعته وجعله نائب السلطنة وصار صاحب الحل والعقد فيها . واستقدم من بقي من عائلة قطوز فأمنهم وضمهم اليه واطلق من في السجون جميعاً بغير استثناء واكثر من العطايا لرجاله وابطل كثيراً من الضرائب التي كان قد ضربها سلفه كتصقيع الاملاك وتقويتها واخذ زكاة ثمنها في كل سنة وجباية دينار من كل انسان وغير ذلك . واعلن امره هذا على لسان الخطباء في المنابر

على انه مع ذلك لم ينل رضاء كل الرعية . فاهل الشام شقوا عصا الطاعة وبايعوا الامير سنجر صاحب حلب ولقبوه بالملك المجاهد وعضدهم على ذلك التتر اصحاب هولاكو . فسار بيبرس حالاً الى دمشق لاخماد الثورة فحارب التتر وتغلب عليهم في ٣ وقائع متوالية . فقنط الدمشقيون من المساعدة فسلموا المدينة فدخلها وانتقم منها شر الانتقام ومازال حتى اخضع بلاد الشام . ولما عاد الى القاهرة اخذ في اصلاح الداخلية

الخلفاء العباسيون بمصر

وفي سنة ٦٥٩هـ قدم القاهرة رجل من بغداد قال انه من ذرية بني العباس واسمه الامام احمد بن الخليفة الظاهر بامر الله بن الناصر بن المستنصر . فلما بلغ الملك الظاهر قدومه خرج الى لقائه . فلما وصل الى المطرية تلاقى هناك هو والامام احمد المذكور

وكان الامام احمد هذا اسمر اللون وامه ام ولد حبشية . فلما وقعت عين الملك الظاهر عليه نزل عن فرسه ونزل الامام احمد عن فرسه ايضاً وتعانقا ثم ركبا ومرا في القاهرة ودخلا من باب النصر فزينت له القاهرة . وكان له موكب عظيم ويوم مشهود لم يسمع بمثله . فلما وصلا الى القلعة طلع الامام احمد مع السلطان الى القلعة فانزله السلطان في قاعة الاعمدة فاقام بها اياماً . ثم ان الملك الظاهر اراد ان يثبت نسب الامام احمد بانه من ذرية بني العباس لان الخلافة كانت خالية من حين قتل الخليفة المستعصم فعقد مجلساً من القضاة والعلماء والمشائخ واثبتوا نسبه فاقامه خليفة في القاهرة ولقبه بالمستنصر بالله . فاصبحت القاهرة من ذلك الحين مقر الخلفاء العباسيين وقد ذهب نفوذهم الا من الوجه الديني وهو الذي كان الظاهر في حاجة اليه لتأييد سلطانه . فلما بويع المستنصر ثبت الملك الظاهر في منصبه . ورافق نزول العباسيين في القاهرة قحط عم سائر القطر فشاءم الناس بحلولهم . أما بيبرس فلم يألُ جهداً في استجلاب الاقوات من جهات سوريا وغيرها وتفريقها في الناس فانقذ بلاده من ضيق عظيم

ثم اراد بيبرس ان يسترجع بغداد للخلفاء العباسيين فانفذ مع الخليفة المستنصر بالله جنداً كبيراً لاخراج التتر منها وتسليمها للخليفة المستنصر فلاقاهم التتر في الطريق فحاربوهم وشتتوا شملهم وقتلوا الخليفة ولم يجلس على كرسي الخلافة الا خمسة اشهر وعشرين يوماً فبايعوا في القاهرة الخليفة الحاكم بامر الله . ثم الجئ بيبرس الى تجريدة أخرى انتقاماً من فتح الدين رئيس قلعة الكرك وسبب ذلك ان بيبرس قبل توليه سلطنة مصر كان قد ترك امرأته عند فتح الدين وقاية لها مما كان يقاسيه من الاسفار والعذاب وعهد اليه رعايتها فلم يحترم هذا حرمة الدين والشرف ففتك بها بغير وجه الحق . فاتصل ذلك ببيبرس وكان قد تولى امور مصر فتارفيه حب الانتقام . فجرد الى الكرك وحاصر قلعتها وكانت منيعة الجانب طالما امتنعت على كبار الفاتحين ومنهم السلطان صلاح الدين . ثم تمكن بيبرس من القبض على فتح الدين احتيالا وسلمه الى امرأته فقتلته على مثل ما قتلت عليه شجرة الدر . فامست الكرك بغير رئيس . فسلمت وصارت جزءاً من مملكة مصر

ولما عاد بيبرس الى القاهرة حشد جيشاً كبيراً لمناهضة الصليبيين وكانوا لا يزالون حاكمين في اماكن كثيرة من فلسطين فدارت الحرب بينهما سجالا مدة سنتين (سنة ٦٦٣ و ٦٦٤) وانتهت باستيلاء بيبرس على قيصرية . وهو محاصر عكا الجئ الى المسير لمحاربة التتر وكانوا قد استولوا على دمشق بمساعدة اهل ارمينيا وهددوا

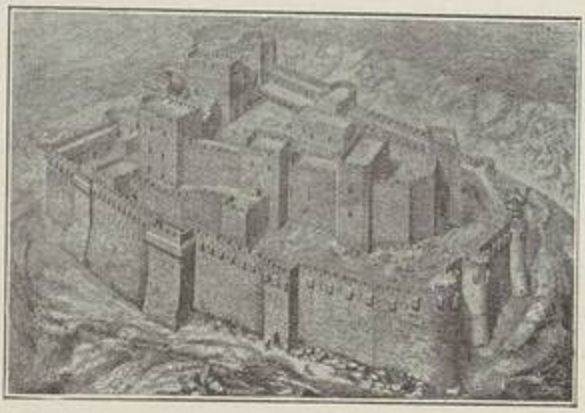

ش٧٨ : قلعة الكرك لما فتحها بيبرس

سائر سوريا . فاغفل حصار عكا وسار فلما وصل الى دمشق لم يجد عدوًّا الان هولاكو كان قد مات وتشتت جيوشه فسار بيبرس الى ارمينيا وكان عليها ملك مسيحي يقال له هينون فاستولى على عاصمتها سيس وعلى سائر مدنها وتابع فتوحه الى الاناضول فهاجمه ريكا خان بن هولاكو وولي عهده فاعاده على اعقابه فرجع الى سوريا وفتح صفد وذبح اهلها . ثم رجع الى عاصمته بعد ان فتح ايلة على البحر الاحمر

الآداب العمومية

وقضي بيبرس سنة ٦٦٥ هـ في القاهرة يستعد لحرب جديدة وينظم داخليته فابطل ضمان الحشيش وجهاته وامر باراقة الخمور وابطال المنكرات وتعفية بيوت المسكرات ومنع الحانات والخواطئ بجميع اقطار مملكة مصر والشام . فطهرت من ذلك البقاع وعادت البلاد الى الهدوء والرغد فقال احد الشعراء المعاصرين :

ليس لابليس عندنا ارب غير بلاد الامير مأواه
حرفته الخمر والحشيش معاً حرمتا ماؤه ومرعاه

ثم رأى ان بعض الرعية لايزالون على ماكانوا قد اعتادوه من الفواحش فامر بمنع النساء الخواطئ من التعرض للبغاء ونهب الحانات التي كانت معدة لذلك وسلب اهلها جميع ماكان لهم ونفى بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بجميع ذلك توقيعاً قرئ في المنابر . وعلم بعد ذلك ان الطواشي شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز يشرب المسكر فشنقه تحت قلعة الجبل . ولا شك ان الملك الظاهر لم يشدد في

ابطال هذه المنكرات الا لعلمه يقيناً ان استعمالها يورث الفقر والذل ويخمد الهمة ويضعف عزة النفس ويغضب الله

وفي ٦٦٢ هـ بنى الملك الظاهر دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها لعرض العساكر في كل اثنين وخميس . وكان ينظر في امر المتظلمين بنفسه فاذا كان لاحد مظلمة يأتي راساً ويشكوها للسلطان وهو يأمر بصرفها

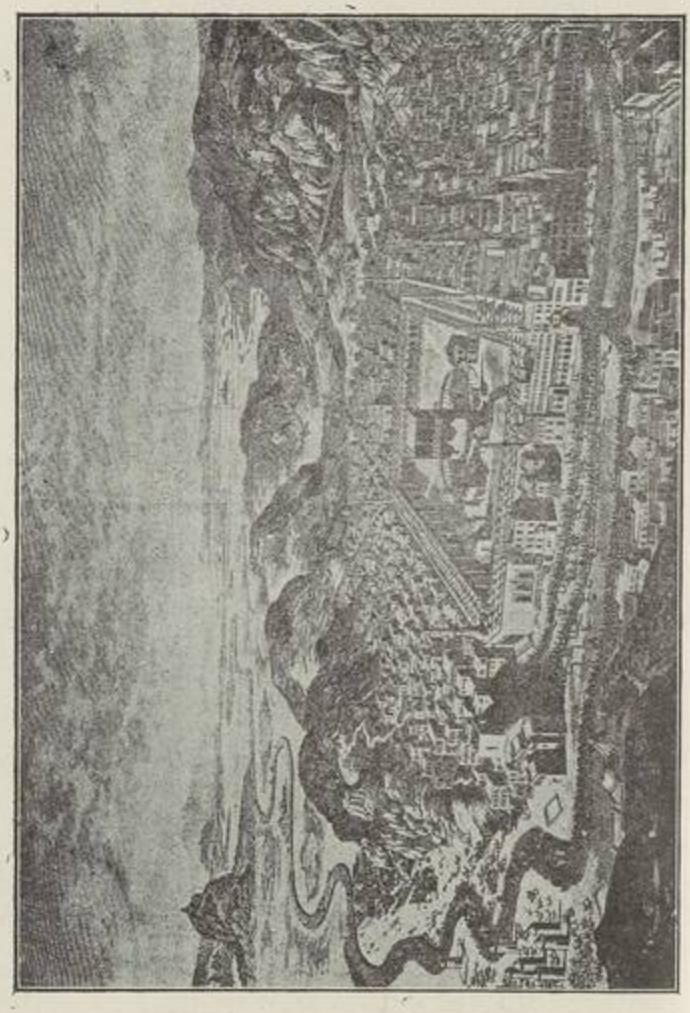

ش ٧٩ : مكة المكرمة

وفي سنة ٦٦٦ هـ استأنف الحرب مع فلسطين فاستولى على يافا والشقيف وطبرية وارصوف وانطاكية وبقراس والقرين وصافيتا ومرقية وايباس وختم ذلك بفتح بغداد ثم اتجه بطريقه الى مصر ان يمر بالحج الى مكة مع ابنه بركة خان فمر بحلب فطرد التترمنها

ثم زار قبر ابراهيم الخليل في حبرون . وسار لزيارة بيت المقدس . ثم عاد الى مصر وقد اتم سياحته الجهادية والدينية معاً

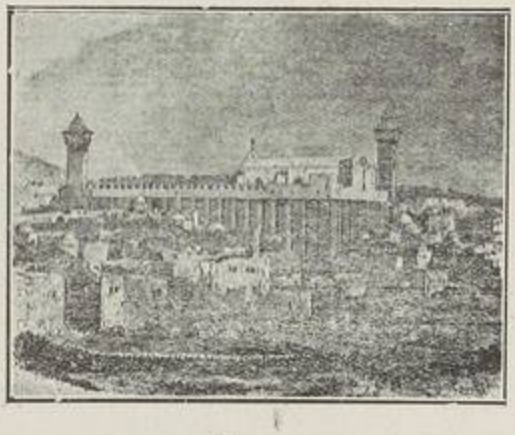

ش ٨٠ : مسجد الخليل في حبرون

واصبح امر الشام يهمه فاشتغل في تسهيل المواصلة بينها وبين مصر فرتب خيل البريد فكانت اخبار البلاد الشامية ترد عليه في الجمعة مرتين وقيل انه انفق على ذلك مالاً كثيراً حتى تم له ترتيبه وكانت خيل البريد عبارة عن مراكز بين القاهرة ودمشق وفيها خيول جيدة وعندها رجال يعرفون بالسواقين ولايقدر احد يركب خيل البريد الا بمرسوم سلطاني وكان عند كل مركز ما يحتاج اليه المسافرون من زاد وعلف وغير ذلك

وكانت طريق الحج من مصر الى مكة عن طريق صحراء عيذاب يركبون النيل من ساحل الفسطاط الى قوص بمصر العليا ثم يركبون الابل من قوص فيقطعون صحراء عيذاب الى البحر الاحمر حيث ينزلون الى جدة ساحل مكة وهكذا بعودهم الى مصر، وكانت قوافل التجار من الهند واليمن والحبشة تأتي مصر على هذه الطريق ايضاً وكانت صحراء عيذاب اذ ذاك آهلة بالسكان امينة المسالك . وبقيت طريق الحج على مثل ذلك الى السنة التي زار فيها السلطان الملك الظاهر مكة وكساها وعمل لها مفتاحاً فصارت طريق الحج براً من ذلك الحين . أما التجار فما زالوا يقدمون مصر عن طريق الصحراء الى سنة ٧٦٠ هـ ومن ذلك الحين قلت اهمية مدينة قوص فصارت في حالة تشبه حالتها في الوقت الحاضر بعد ان كانت مدينة زاهرة بالتجارة والعمارة

وفي سنة ٦٧٠ هـ سار بيبرس لمحاربة من بقي من طائفة الباطنيين . وكان هولاكو قد اهلك السواد الاعظم منهم في جهات العراق . فافتتح بيبرس قلعة الاكراد وقتل من فيها من الباطنيين فتفرقت جموعهم وهكذا كان انقراض دولتهم

وفي خلال ذلك عاد التتر الى سوريا وحاصروا البيرة فتجند اليهم بيبرس وسارت معه فرقة تحت قيادة الامير قلاون الالفي فالتقى الجيشان عند البيرة واشتدت الحروب بين المسلمين والتتر وانتهت بانتصار المسلمين فاستولوا على البيرة . ثم ساروا الى ارمينيا ففتحوها واغتنموا منها غنائم كثيرة ثم عاد بيبرس الى مصر ففرشوا له القاهرة بالبسط والسجاد الثمين احتفالا بعوده ظافراً وحملت القبة والطير على راسه وقد قرض الباطنيين وغلب التتر

ثم ان ابغاخان بن هولاكو خان قدم سوريا وحاصر البيرة ثانية فلاقاه الامير قلاون بفرقة من الجيوش المصرية وارجعه على اعقابه . فسر بيبرس من بسالته واتخذ ابنته زوجة لابنه ليكون ابنه في المستقبل آمناً في حمى حميه . فامنت سوريا بعد هذه الانتصارات ولم تعد تخشى اغتيالاً فانفذ بيبرس الامير اق سنقر الفرغني سنة ٦٧٤ هـ لافتتاح بلاد النوبة فافتتح اصوان بعد ان استولى على جميع مصر العليا

موت الملك الظاهر ومناقبه واعماله

وفي سنة ٦٧٥ هـ اتت الاخبار بان التتر زحفوا على البلاد فخرج اليهم السلطان وتوجه الى حلب وتقاتل مع التتر فكسرهم وقتل منهم خلائق لاتحصى . وكان ملك التتر ابغاخان فلما انكسر هرب فتبعه السلطان الى نحو الابلستين فكانت بينهما هناك وقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين نحو مائة الف انسان فانكسر ابغا وهرب فتبعه السلطان نحو زبيد . ثم رجع السلطان من هناك الى قيسارية وحاصر اهلها فارسلوا يطلبون منه الامان فارسل لهم الامان على يد الامير بيسري فسلموا المدينة فدخلها السلطان وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً . فنزل بدار السلطنة وصلى بها ركعتين وحكم بين الناس واقام بها اياماً ثم رحل الى دمشق وحلب سنة ٥٧٦هـ فتوعك واخذته الحمى فسقاه الحكماء مسهلاً فافرط في الاسهال وثقل عليه المرض فرحل من حلب وقصد الدخول الى دمشق فمات في بعض ضياعها . فلما مات كتم موته عن العسكر وحمل في محفة الى ان دخل دمشق فدفن هناك ليلاً . وكان موته في يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ٦٧٦ هـ ومات وله من العمر نحو ستين سنة وكان ملكاً عظيماً جليلا مهيباً كثير الغزوات خفيف الركاب يحب السفر والحركة في الشتاء والصيف وكان مشهوراً بالفروسية في الحرب وله اقدام وعزم في القتال وله ثبات عند التقاء الجيوش وكان يلقب

بابي الفتوحات لكثرة الفتوح في ايامه وكان له موكب بمصر وموكب بالشام وكان شعاره الاسد اشارة لشجاعته وقوة بأسه وكان كريماً سخياً على الرعية باسط اليد يفرق الغنائم التي تحصل من الفتوح على الرعية ترغيباً لهم في القتال وقت الحرب وكان محباً لجمع الاموال كثير المصادرات لاجل الغزوات والتجاريد وينفق ذلك على العسكر. وكان حسن الوجه طويل القامة مستدير اللحية الغالب في لحيته البياض . وكان مبجلاً في موكبه كفؤاً للسلطنة منقاداً للشريعة يحب العلماء والصالحين ويحب فعل الخير وله بر ومعروف وآثار اهمها رده الخلافة لبني العباس بعد ان كادت تنقطع عنهم

ش ٨١ : اسوار انطاكية

وخلف من الذكور ثلاثة وهم السعيد محمد بركة خان وقد ملك بعده وسلامش وهذا ملك بعده ايضاً والمسعود خضر . وترك من البنات سبعاً . ومما استولى عليه من ايدي الصليبيين قيسارية وارصوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وانطاكية وبقراس والقصير وحصن الاكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا ومرقية وحاب . وقد ناصفهم على المرقب وبانياس وترسوس وادنة والمصيصة وغيرها من المدن في بر الاناضول . وصار الي بده مما كان في يد المسلمين دمشق وبعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والسلط وحمص وتدمر والرحبة وتل باشر وصهيون وبلاطس وقلعة الكهف والقدموس والعليقة والخواني والرصافة ومصياف والقلعة والكرك والشوبك . وفتح بلاد النوبة وبرقة

ومن اعماله المأثورة انه عمر الحرم النبوي وقبة الصخرة ببيت المقدس وزاد في اوقاف الخليل وعمر قناطر شبرامنت بالجيزة وسور الاسكندرية ومنار رشيد . وردم فم بحر دمياط ووعر طريقه وعمر الشواني وعمر قلعة دمشق وقلع الصبيبة وبعلبك والساط وصرخد وعجلون وبصرى وشيزر وحمص. وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة والجامع الكبير بالحسينية وقد جعله الفرنساويون عند مجيئهم الى مصر قلعة . وهو البناء القديم في شارع الظاهر جعلته الحكومة مخازن للاقوات ويعرف بجامع الظاهر. وحفر خليج الاسكندرية القديم وباشره بنفسه وبنى هناك قرية سماها الظاهرية وحفر بحر اشمون طناح وجدد الجامع الازهر بالقاهرة واعاد اليه الخطبة وعمر بلد السعيدية من الشرقية بمصر وبنى القصر الابلق في دمشق . ومن آثاره في القاهرة ايضاً قناطر السباع قرب ميدان الجبل والبرج الكبير في القلعة

وكان محباً لركوب الخيل الجياد ورمي النبال فانشأ ميداناً دعاه ميدان القبق ويقال له ايضاً الميدان الاسود وميدان العبد والميدان الاخضر وميدان السباق وكان شاغلاً بقعة من الارض تمتد بين النقرة التي ينزل اليها من قلعة الجبل وبين قبة النصر التي هي تحت الجبل الاحمر . وبنى فيه مصطبة سنة ٦٦٦ هـ للاحتفال برمي النشاب والتمرين على الحركات العسكرية . وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ونحو ذلك . فكان ينزل كل يوم الى هذه المصطبة من الظهر فلا يركب منها الى العشاء وهو يرمي ويحرض الناس على الرمي والنضال والرهان فما في امير ولا مملوك الا وهذا شغله . وما برح من بعده اولاده ومن بعدهم يمارسون في هذا الميدان جميع الالعاب الحربية

ش ٨٢ : نقود الملك الظاهر بيبرس

وكان يقوم بنفقات جميع هذه الاعمال وقلما يسلب الاهالي من المال فوق ما اعتادوا دفعه من

الضرائب لان الغنائم التي كان يكسبها من اعدائه كانت تساعده كثيراً في النفقات

هذه هي اعمال الملك الظاهر بيبرس قد تركت له اثراً يبقي ذكره دهوراً طوالاً

وترى في الشكل الحادي والثمانين صور نقود الملك الظاهر بيبرس وعليها صورة اسد

سلطنة بركة خان بن بيبرس

من سنة ٦٧٦ — ٦٧٨ هـ او من ١٢٧٧ — ١٢٧٩م

فلما توفي بيبرس اقر الامراء على مبايعة ابنه البكر محمد ناصر الدين بركة خان. ولكنهم كانوا قد اجمعوا بعد المشورة طويلاً على ان يكتموا وفاة بيبرس لئلا يطمع فيهم العدو فارسلوا جثته سرًّا الى دمشق واشاعوا هناك انه مريض فنقلوه الى القاهرة في محفة ثم استقدموا الجيوش جميعها الى مصر فقدمت وحالما ادخلوا الجثة الى القلعة بايعوا ابنه البكر بركة خان ولقبوه بالملك السعيد . واقاموا الامير بلباي اتابكاً وكان بلباي في الاصل مملوكاً ابتاعه بيبرس بثمن بخس الا انه ارتقى في خدمته حتى صار امين خزائنه ونائبه كما تقدم . ثم استحق بعد طول الخدمة الصادقة الامينة ان يكون وصياً على ابنه في مهام السلطنة . وكان للملك السعيد ثقة كبرى في بلباي حتى انه القى اليه كل مهام الدولة فسعدت مصر في باديء الرأي لكنها ما لبثت ان تعكر كأس صفائها بوفاة ذلك الوصي الامين الحكيم . ولم يكن الملك السعيد يثق باحد من امرائه ليعهد اليه مهام الامة . وكان يظن انهم هم الذين سعوا في قتل وصيه ولكنه لم يتأكد ذلك فنفر منهم فوقع اختياره على اق سنقر فاتح النوبة فولاه الاتابكية وبعد يسير خنقه في احد ابراج الاسكندرية فتباعد الامراء عن هذا المنصب وارادوا بالسلطان سوءاً لكنهم شغلوا عنه بثورة الدمشقيين . وذلك ان شرف الدين سنجر الملقب بالاشقر كان والياً على دمشق تحت رعاية بركة خان فادعى الملك لنفسه فبايعه اهلها ولقبوه بالملك الكامل فاسرع بركة خان الى دمشق ونزل بجيشه في القصر الابلق الذى كان قد بناه ابوه وبعد التحري عن اسباب تلك الثورة علم انها دسيسة من امرائه . فلما علم هؤلاء بظهور امرهم عادوا بمن كان على دعوتهم من المماليك الى القاهرة وتحصنوا فيها فتبعهم بركة خان فامتنعوا عليه وعجز عن قهرهم لكثرتهم فالتجأ الى قلعة الجبل فحاصرهم فيها وشددوا عليه الحصار فسلم فانحط قدره عندهم وهموا بقتله فمنعهم الخليفة الحاكم

بر الله العباسي لكنهم اصروا على خلعه فخلعوه في ربيع اول سنة ٦٧٨ هـ بعد ان حكم سنتين وثلاثة اشهر فبعثوه الى قلعة الكرك منفياً وحبسوه فيها ثم عادوا الى قتله فقتلوا اليه من يقتله ثم بلغهم انه سقط عن جواده ومات

سلطنة سلامش بن بيبرس

من سنة ٦٧٨ — ٦٧٨ هـ او من ١٢٧٩ — ١٢٧٩ م

فبايعوا اخاه بدر الدين سلامش وسنه سبع سنوات وبضعة اشهر ولقبوه بالملك العادل واقاموا الامير سيف الدين قلاون الالفي وصياً عليه ولم يكن هم هذا الوصي الا خلع ذلك السلطان الرضيع . وفي رجب من تلك السنة تمكن من مراده فبعثه الى قلعة الكرك منفياً واستلم هو زمام الاحكام وطلب المبايعة فبايعه الناس ولقبوه بالملك المنصور وهو لقب ثاني سلاطين هذه الدولة

سلطنة الملك المنصور قلاون

من سنة ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ او من ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م

وهو من مماليك اق سنقر الكاملي وقدمه الى الملك الصالح فاعتقه سنة ٦٤٧ هـ فلما تولى السلطنة قرب انصاره وانعم عليهم واستوزر فخر الدين وكان كاتب سره الخصوصي وبعث الامير طرنطاي الى دمشق لاخماد ثورة اهلها . فسار في فرقة من الجند فلاقاه الملك الكامل ودافع دفاعاً حسناً ولكنه الجيء في سنة ٦٨٠ هـ الى التسليم فقبضوا عليه وجاؤا به الى القاهرة واودعوه سجناً مظلماً وولوا على دمشق وسائر الشام الامير حسام الدين لاجين

وفي سنة ٦٨١ هـ عاد التتر الى الشام بجيشين الواحد تحت قيادة ابغا خان والآخر مؤلف من ثمانين الف فارس تحت قيادة اخيه منجوتيمور (منكوتمر) فحاربهم المصريون وفازوا بهم وقتلوا منجو تيمور وفر ابغا خان الى حمدان فسمه اخوه الثالث تيكودار وغلان وتولى الحكم بعده ثم اعتنق الاسلام ولقب باحمد خان . وكان اسلامه وسيلة لحقن الدماء لانه خابر قلاون مخابرة سلمية وتعاهدا على حفظ الولاء . وما زال ذلك مرعياً الى مابعد قتل احمد خان وتولية ارغون مكانه . فكانت مصر في خلال ذلك

مطمئنة في خارجيتها فنشأت القلاقل في داخليتها بسبب تمرد بعض العامة . فغضب السلطان غضباً اعمى بصره وامر مماليكه ان يضعوا السيف فيهم ولم يعد يميز المجرم من البريء فساق الجميع بعصا واحدة واعمل فيهم السيف ثلاثة ايام متواليـة حتى غصت الاسواق بجثثهم رجالاً ونساء واولاداً . فجاء العلماء الى السلطان واخذوا يخففون من غيظه ويبينون له وجه عسفه . فانتبه لما جاءه من الاستبداد الفاحش فندم ندماً لامزيد عليه وتكفيراً لذلك امر ببناء البنايات والتكايا رحمة بالمساكين وذوي الاسقام . ومن اجل ذلك ايضاً بنى المستشفى الشهير بالبيمارستان المنصوري بخط بين القصرين (في شارع النحاسين) وكان في الاصل قاعة لست الملك بنت العزيز بالله ولها تاريخ ذكره المقريزي في صفحة ٤٠٦ ج ٢

ملابس المماليك

وكان المماليك الى ذلك الحين يلبسون لباس الزينة بما يناسب جمالهم كانت كلوتاتهم (للرأس) من الصوف الازرق الغميض وهي مضربة عريضة بغير شاش . وكانوا يربون ذوائب من الشعر خلفهم يجعلونها في اكيـاس حرير احمر او اصفر وكانوا يشدون في اوساطهم بنوداً بعلبكية عوضاً عن الحوائص . وكانت خفافهم برغالي اسود . وكانوا يشدون فوق قماشهم ابزيم جلد وفيه حلق نحاس . وفي ذلك الابزيم ملعقة من الخشب كبيرة وسكين كبيرة . وكانت لهم مناديل من الخام قدر فوطة كبيرة لمسح ايديهم . فلما تولى الملك المنصور قلاون امر العسكر ان يغيروا هذه الملابس الشنيعة ويدخلوا في الهيئة المطبوعة . وكانت خلع المقدمين من العنتابي فامر لهم بالخلع المخمل الاحمر والاخضر بالفرو والسمور . ثم سار الى حصن مرقد فحاصره ٣٣ يوماً فسلم . وفي سنة ٦٨٤ هـ افتتح قلعة الكرك وقبض على سلامش لانه كان يحاول الاستقلال عن مصر فقاده الى القاهرة واودعه سجناً مظلماً مكث فيه الى ما بعد وفاة قلاون

موت قلاون وآثاره

ولما اطمأن باله في داخليته عكف على تنظيم الوزارة وما زال يعزل ويولي حتى اقر على وزارة شمس الدين سنة ٦٨٥هـ فبقي على دستها زمناً طويلاً . ثم اوصى قلاون بولاية العهد لابنه علي ولقبه بالملك الصالح (الثالث) واخذ منذ ذاك الحين في تدريبه على الاحكام وادارتها على ان يستخلفه عليها اذا طرأ عليه ما يستدعي غيابه عن مصر في حرب او غيرها فلم يصح تقديره لان علياً اصيب بحمى شديدة ذهبت بحياته سنة ٦٨٧ هـ فحزن قلاون حزناً شديداً وكثرت دواجسه حتى كره الاحكام . ثم راى ان

بجرد حملة لافتتاح طرابلس الشام تسلية له عن هواجسه . وكانت في حوزة الصليبيين منذ مائة وثمانين سنة لم ينازعهم احد عليها . فسار اليها قلاون وافتتحها وذبح من فيها واخربها ثم اعاد بناءها وجعل عليها حامية

ولما عاد الى القاهرة جاءه وفد من قبل الفونس ملك ارغون عقدوا معه معاهدة في ١٣ ربيع اول . غير ان ذلك لم يكن ليشغله عن احزانه وما زال كئيباً حتى قضى يوم السبت في ٦ ذي القعدة فاحتفل بجنازه احتفالاً حضره جمع غفير من جهادية وملكية وشيعوه الى البيمارستان حيث واروه التراب ولايزال مقامه هناك الى هذا العهد وكانت مدة حكمه ١١ سنة و٣ اشهر و ٦ ايام

ش ٨٣ : بقايا البيمارستان المنصوري

ومن آثاره الباقية الى هذا اليوم جامعه الشهير ومقامه وكلاهما داخلان في بناء البيمارستان الذي يشاهده المار في شارع النحاسين شمالاً بعد ان يتجاوز خان الخليلي ولا تزال هذه الابنية قويمة العماد تجلى فيها العظمة والقوة الا البيمارستان فانه اصبح اقرب الى الارض من العين . وقد زرت مقام هذا السلطان فرأيت فيه كما رأيت في غيره من امثاله جماعات من النساء والاطفال هم في الغالب من ذوي الامراض قد جاؤا يطلبون الشفاء وهم يأتون غالباً في ايام السبت ولهم في ذلك اساليب مختلفة . فرايت بعضهم يضع الطفل

المريض تحت المحراب ويجلس مصلياً متضرعاً وآخر يأتي بقطعة من الليمون الحامض يمرح بها جدار المحراب او ما يقاربه ثم يلحسه بلسانه طلباً للشفاء . ورأيت آخرين تفعلون غير ذلك

وكان المنصور قلاون حسن الشكل ربع القامة دري اللون . وكان قليل الكلام بالعربية . وكان شجاعاً بطلاً مقداماً في الحرب مغرماً بمشترى المماليك حتى قيل انه تكامل عنده اثنا عشر الف مملوك وقيل سبعة آلاف مملوك . ومما يدل على علو همته وحسن اعتقاده عمارة البيمارستان المذكور

وقد كان قلاون سبباً لاخراج السلطنة من نسله كما كان الملك الصالح الايوبي باستكثاره من المماليك الشراكسة حتى جمع منهم نحواً من ١٢ الفاً جعل منهم بطانته وكان يلقب بعضهم بالالفي اي المبتاع بالف دينار وبعضهم بابي المعالي وغير ذلك

ش ٨٤ : نقود الملك المنصور قلاون

وترى في شكل ٨٤ صورة نقود الملك المنصور قلاون مضروبة في حلب

سلطنة خليل بن قلاون ثم الملك القاهر بيدرا

من سنة ١٢٨٩ — ٦٩٣ هـ او من ١٢٩٠ — ١٢٩٣ م

وتولى بعده على سلطنة مصر ابنه البكر صلاح الدين خليل ولقب بالملك الاشرف فاستوزر علم الدين سنجر وجرد للجهاد على الصليبيين فسار في سنة ٦٩٠ هـ حتى اتى عكا فحاصرها . وكانت الحصن الوحيد الذي بقي لهم فحصنوه تحصين اليأس لكنه لم يمتنع على جيوش المسلمين فهدموه ودخلوا المدينة وامعنوا فيها قتلاً ونهباً . وفي سنة ٦٩١ هـ عاد الى القاهرة واخرج سلامش منفياً الى القسطنطينية لانه كان سبباً للقلاقل . ثم سار الى ارمينيا وفتح ارضروم فذاع صيته حتى ارهب اعداءه فعاد الى القاهرة ليستريح من الاسفار فهاجأته المنية على فراشه . وسبب موته ان احدى نسائه تواطأت مع مملوك له يدعى بيدرا فقتلاه بخنجر في جوفه في شهر محرم سنة ٦٩٣ هـ بعد ان حكم ثلاث سنوات وشهرين واربعة ايام . والى جهاركس الخليلي احد المنسوبين اليه ينسب الخان المشهور بخان الخليلي في السكة الجديدة بالقاهرة . وكان في مكانه قبل

بنائه مدافن الخلفاء الفاطميين فبني على انقاضها . واضاف الغوري الى بنائه في القسم العلوي كما يفهم ذلك مما هو مكتوب فوق مدخله . وفي الخان تباع الآن جميع انواع الاقمشة السورية والهندية وما شاكل من طنافس ومطرزات واوان نحاسية وغيرها

ومن آثاره البنائية قاعة الاشرفية التي بقلعة الجبل والمدرسة التي بالقرب من مزار السيدة نفيسة

وبويع بعده بيدرا ولقب بالملك القاهر الا انه لم يحكم الا يوماً واحداً ثم قتله المماليك اخذاً بثار سلطانهم السابق . وبايعوا الملك الاشرف المدعو محمد بن قلاون وعمره ٩ سنوات ولقب بالملك الناصر

سلطنة الملك الناصر بن قلاون (اولاً)

من سنة ٦٩٣ — ٦٩٤ هـ او من ١٢٩٣ — ١٢٩٤ م

وسلطنة هذا الملك اكثر اهمية من سلطنات سلفائه لكثر ما حصل فيها من التقلبات السياسية والثورات المتعددة . ونظراً لصغر سنه اقاموا له وصياً يدعى زين الدين كتبغا الملقب بالمنصوري لانه كان من مماليك الملك المنصور قلاون . فما استتبت له الوصاية حتى تاقت نفسه الى السلطة وكان معه وزير آخر هو علم الدين سنجر وكانت تحدثه نفسه بمثل ذلك ايضاً فاختلفا وتخاصما وانتهت المخاصمة بقتل سنجر . ولما خلا الجو لكتبغا ولم يعد من ينازعه عمد الى الملك الناصر فخلعه وتولى مكانه سلطاناً على مصر ونفاه الى الكرك ولم يحكم هذه المرة الا سنة واحدة

سلطنة الملك العادل كتبغا

من سنة ٦٩٤ — ٦٩٦ هـ او من ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م

وفي شهر محرم سنة ٦٩٤ هـ بويع كتبغا ولقب بالملك العادل وهو اللقب الذي لقب به قبله سلامش بن بيبرس الاول واستوزر فخر الدين وزير قلاون . ولما كان هذا الاختلاس داعياً لتراكم المصائب على مصر وتداخل الاجانب فيها فداهمها الطاعون ثم القحط فاهلك جزءاً كبيراً من اهلها ثم جاءت الحرب تتمة لهذه الضربات

وذلك ان قبيلة المغول التي كانت تحت قيادة بيدو بن طرغاي بن هولاكو

اصبحت بعد وفاته تحت قيادة الملك غازان محمود بن خربنده بن ايغاني فتخوفت منه طائفة من رجاله عرفوا باسم الاويراتية وفروا من بلاده الى نواحي بغداد . فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاي وجرت لهم خطوب آلت بهم الى اللحاق بالفرات فاقاموا بها هناك وبعثوا الى نائب حلب يستأذنونه في قطع الفرات ليعبروا الى ممالك الشام فأذن لهم وعبروا الفرات الى مدينة بهنا فاكرمهم نائبها وقام لهم بما ينبغي من العلوفة والضيافة فاتصل ذلك بالملك العادل زين الدين كتبغا فاستشار الامراء في ما يفعل بهم فاتفق الرأي على استقدام اكابرهم الى الديار المصرية وتفريق باقيهم في البلاد الساحلية وغيرها من بلاد الشام فجيء بثلاثمائة من اكابرهم الى القاهرة وفرق الباقون بالبقاع العزيزية وببلاد الساحل . ولما قرب الجماعة الى القاهرة خرج الامراء بالعسكر الى لقائهم واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للفرجة عليهم . فكان لدخولهم يوم عظيم فساروا الى قلعة الجبل فانعم السلطان على مقدمهم طرغاي بامرة طبلخانة واجرى عليهم الرتب وانزلهم بالحسينية . وكانوا على غير الدين الاسلامي فشق ذلك على الناس وبلوا مع ذلك منهم بانواع البلاء لسوء اخلاقهم ونفرة نفوسهم وشدة جبروتهم وكان اذ ذاك في مصر والقاهرة غلاء عظيم فتضاعفت المضرة واشتد الامر على الناس . وقال في ذلك شمس الدين محمد بن دينار

ربنا اكشف عنا العذاب فانا قد تلفنا في الدولة المغلية
جاءنا المغل والغلا فانصلقنا وانطبخنا في الدولة المغلية

وفي اول رمضان سنة ٦٩٥ هـ لم يصم احد من الاويراتية فأعلن السلطان بذلك فابى ان يكرههم على الاسلام ومنع من معارضتهم ونهى ان يشوش عليهم احد . وكان مراده ان يجعلهم عوناً له فبالغ في اكرامهم فشق ذلك على امراء الدولة وخشوا ايقاعه بهم لان الاويراتية كانوا من مواطني كتبغا وكانوا مع ذلك جميلي الصورة فافتتن بهم الامراء وتنافسوا فيهم وبالغوا في تقربهم حتى بعثوا الى البلاد الشامية استجلبوا طائفة كبيرة منهم فتكاثر نسلهم في القاهرة . واشتد التحاسد والتشاجر بسببهم بين أهل الدولة حتى آل الامر بسببهم وباسباب أخرى الى خلع السلطان الملك العادل كتبغا وذلك في صفر سنة ٦٩٦ هـ

سلطنة الملك المنصور لاجين

من سنة ٦٩٦ — ٦٩٨ هـ او من ١٢٩٦ — ١٢٩٩ م

وبويع حسام الدين لاجين المنصوري ولقب بالملك المنصور كما كان لقب سيده قلاون ن لكتبغا ان يخرج الى صرخد في سوريا وقبض على طرغاى مقدم الاويراتية لى جماعة من اكابرهم وبعث بهم الى الاسكندرية فسجنهم بها . ثم قتلهم وفرّق ع الاويراتية على الامراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم فصار اهل الحسينية ك يوصفون بالحسن. وما برحوا ايضاً يوصفون بالزعارة والشجاعة وكان يقال لهم ورة فيقال البدر فلان والبدر فلان . وكانوا يعانون لباس الفتوة وحمل السلاح ؤثر عنهم حكايات كثيرة . وكانت الحسينية قد فاقت عمارتها على سائر اخطاط ر والقاهرة

اقطاعات القاهرة

وكانت ارض مصر ٢٤ قيراطاً يختص السلطان منها باربعة والاجناد بعشرة وكان مراء يأخذون كثيرًا من اقطاعات الاجناد فلا يصل الى الاجناد منها شيء . وكان ير ذلك الاقطاع في دواوين الامراء ويحتمي بها قطاع الطريق وتثور بها الفتن ع منها الحقوق الديوانية وتصير طعمة لاعوان الامراء ومستخدميهم ومضرة على ل البلاد التي تجاورها . فعند ما تولى الملك المنصور لاجين راك البلاد ورد تلك قطاعات على ارابها واخرجها باسرها من دواوين الامراء وجعل للامراء والاجناد ه عشر قيراطاً وافرد تسعة قراريط ليخدم بها العسكر او يقطعهم اياها . ثم رتب راقاً بتكفية الامراء والاجناد بعشرة قراريط واقتصد قيراطاً لزيادة ما عساه يطلب ة لقلة متحصل اقطاعه . وافرد لبطانته عدة اعمال جليلة فتنكرت قلوب الامراء حقدوا عليه وما انفكوا حتى قتلوه في ١١ ربيع آخر سنة ٦٩٨ هـ فبقي كرسي لطنة خالياً ٤١ يوماً تمكن في خلالها الامير سيف الدين طقجي من دعوة الناس حزبه فالتف عليه جماعة كبيرة فبايعوه ولقبوه بالملك القاهر كما لقب بيدرا قبله كان حظه من الملك كحظ سمية فلم يحكم الا يوماً واحداً ثم ذبحه المماليك

سلطنة الملك الناصر بن قلاون (ثانية)

من سنة ٦٩٨ — ٧٠٨ هـ او من ١٢٩٩ — ١٣٠٨ م

ففكر المماليك في انتخاب سلطان يحكم فيهم فاقروا على استقدام الملك الناصر بن قلاون من منفاه وقد بلغ الخامسة عشرة من العمر ليبايعوه. فبعثوا اليه وفداً يبلغه ذلك القرار فقدموا اليه في الكرك. وكانت والدته عنده فلم تسمح بسفره معهم لئلاً يكون تحت اقوالهم مقاصد خطرة. فالحوا عليها وأكدوا لها صدقهم ثم جثوا امام الملك الناصر وبايعوه فتأكدت اخلاصهم فاذنت بمسيره معهم فساروا حتى اتوا القاهرة فحاول بعض دعاة لاجين الايقاع بحياة الملك الناصر لكنهم هددوا فبايعوه

وكان غازان خان ملك التتر قد عاد ثانية الى افتتاح سوريا فجرد اليه الملك الناصر سنة ٧٠٠ هـ جيشاً جراراً واسرع حتى التقى به في حمص فتقهقر الناصر ثم جمع رجاله وامدهم بالعدة والرجال واستأنف الحرب. وكان التتر قد حسبوا ان الفوز تقرر لهم فوضعوا ايديهم على سوريا وضربوا عليها الضرائب واخذوا في ادارة احكامها. وبينما هم في ذلك وصل الملك الناصر بجيشه الى مرج الصفر بقرب دمشق فخرج اليهم التتر وانتشب القتال بين الفريقين فغلب المصريون في باديء الامر ثم ارتدوا على صفوف التتر كالسيل الهاطل بعزم اشد من الجبال ففرقوا جموعهم وانخنوا فيهم ضرباً بالسيف حتى تطهرت الشام منهم فعاد الملك الناصر الى القاهرة ظافراً ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم

ولما لم يبق ما يشغله في سوريا عكف على اخضاع قبائل العربان الذين شقوا عصا الطاعة في مصر العليا فجرد اليهم فدانوا له واغتنم منهم خمسة آلاف فرس ومائة الف رأس غنم وثلاثين الف من المواشي الكبيرة كالبقر والجاموس وعدداً وافراً من الاسلحة. فلما كانت سنة ٧٠٢ هـ داهمت الشرق زلزلة قوية اخربت قسماً عظيماً من سوريا ومصر واخرجت المياه من الآبار الى سطح الارض وطافت الابحر على اليابسة فاغرقت خلقاً كثيراً. والظاهر ان هذا الحادث الطبيعي اثر في اخلاق المصريين فانقسموا احزاباً يضاد بعضها بعضاً ثم عادوا فاتحدوا على خلع الناصر فرأى انه لا يقوى على دفعهم وخاف على حياته فترك القاهرة مظهراً للحج وسار مع بطانته الى الكرك وكان له فيها ثروة تبلغ ٢٧ الف دينار ومليون وسبعماية الف درهم فاستولى عليها

وحصن المدينة ثم بعث بالختم السلطاني الى المماليك مصرحاً بتنازله ومفوضاً لهم تولية من ارادوا

سلطنة بيبرس الجاشنكير

من سنة ٧٠٨ — ٧٠٩ هـ او من ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م

فوصل كتابه اليهم في ٢٥ رمضان سنة ٧٠٨ هـ فبايعوا الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (بيبرس الثاني) ولقبوه بالملك المظفر وهو من مماليك الملك المنصور قلاون ومما يؤكد ذلك انهم وجدوا بين اسلحته سيفاً منقوشاً عليه اسمه مع لقب « المنصوري والسيفي » كما ترى في الشكل الخامس والثمانين

وفي اواخر هذه السنة قدم الصليبيون بموافقة صاحب قبرس لغزو دمياط بحراً فاتفق الامراء في القاهرة على انشاء جسر يمتد من القاهرة الى دمياط خوفاً من قدوم الصليبيين

ش ٨٥ : اسم بيبرس على سيفة

بحراً في ايام الفيضان فيتعذر الوصول الى دمياط فكتبوا بذلك الى العمال ان يخرجوا بالرجال والابقار لاتمام ذلك فاجتمع ستماية راس بقر و ٣٠ الف رجل وباشروا العمل واتموه في شهر واحد . فكان طوله من دمياط الى قليوب وعرضه اربع قصبات من اعلاه وست قصبات من اسفله تمشي عليه ستة رؤوس من الخيل صفاً واحداً . ومن آثاره في القاهرة جامعه المعروف بجامع جاشنكير في الجمالية مبني على مثال جامع السلطان حسن ولا يزال مسجداً الى هذه الغاية

ثم ندم الملك الناصر لاستقالته وتخليه عن مقاليد الاعمال لاحد مماليكه فجعل يترقب فرصة لتسلق العرش ثالثة . وفي شهر شعبان من سنة ٧٠٩ هـ برح الكرك مستخلفاً عليها ارغون احد مماليكه المقربين وجاء دمشق فبايعه امراؤها فجند الى مصر ومعه رجال عديدون . وكان الامير برلك احد زعماء المماليك قد نبذ طاعة بيبرس ومعه كثيرون من نخبة رجاله فتشجع الناصر وقدم القاهرة . اما بيبرس فخاف ولم يرسبيلاً لنجاته الا بالتنازل فاستقال واخذ معه مبلغاً مقداره ٣٠٠ الف دينار وكثيراً من

الجمال والخيل وخرج الى مصر العليا طامعاً في الاستيلاء عليها فلاقاه خارج القاهرة سرب من الاسافل اوسعوه شتما ورجماً فرشقهم بما كان معه من النقود وسار حتى جاء اخميم فنزل فيها

سلطنة الملك الناصر بن قلاون (ثالثةً)

من سنة ٧٠٩ — ٧٤١ هـ او من ١٣٠٩ — ١٣٤١ م

وفي غد خروج بيبرس من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم وهي المرة الثالثة لتوليه . وكان ذلك في يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع بالسلطنة ولبس خلعة السلطنة وهي جبة سوداء وعمامة سوداء بعذبة زركش وسيف بداوي . فجلس على سرير الملك وجميع الامراء من كبير وصغير قبلوا الارض بين يديه وهو جالس في الايوان الاشرفي . ثم خلع على سائر الامراء والنواب الذين حضروا معه خلع الاستمرار . وخلع على الخليفة المستكفي بالله سليمان والقضاة الاربع وارباب الدولة من اصحاب الوظائف ثم تتبع الهاربين وقبض عليهم وجردهم مما اخذوه . وفي جملة الذين قتلهم الاميرسلار النائب وضبط امواله سنة ٧١٠ هـ فكان في جملتها صناديق افرنجية مصفحة بنحاس فيها فصوص ياقوت احمر بهرمان رطلان وفصوص بلخش رطلان ونصف وفصوص زمرد بابي عشرون رطلاً وفصوص الماس وعين الهر ثلثماية قطعة ولؤلؤ كبير مدور كل حبة وزن مثقال مائة وخمسون حبة . ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائة الف دينار . ومن الفضة اربعمائة الف درهم وواحد وسبعون الف درهم . وفي يوم الاثنين سابع عشره وجد له من الذهب العين خمسة وخمسون الف دينار ومن الفضة مليون درهم ومن الفصوص المختلفة رطلان . ووجد له مصاغ من ذهب ما بين خلاخل واساور وزن اربعة قناطير مصرية . ووجد عنده طاسات فضة واطباق واهوان ذهب وطشوت فضة ستة قناطير . وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر وجد له من الذهب العين خمسة واربعون الف دينار ومن الفضة ثلثمائة الف وثلاثون الف درهم ووجد عنده طلعات فضة للصناجق وقطريات فضة ثلاثة قناطير — وغير ذلك شيء كثير ذكره ابن اياس في تاريخه مفصلاً مما يدهش لكثرته

وكان سن الملك الناصر لما تولى للمرة الثالثة ٢٥ سنة صرف ١٦ منها في مقاساة الاهوال

حتى عرف كيف تؤكل الكتف وكيف يجب ان ترسخ قدمه في الملك فكان ذلك بمثابة الامثولة له فمكث على دست السلطنة هذه المرة حتى توفي اي مدة ٣٣ سنة

وكان النصارى الى ايام هذا الملك يقيمون احتفالاً سنوياً في ٨ بشنس في ناحية شبرا من ضواحي القاهرة يسمونه احتفال عيد الشهيد زعماً منهم ان النيل لا يفي الا اذا القوا فيه تابوتاً من خشب فيه اصبع من اصابع ابائهم المائتين . فكانوا يجتمعون من سائر القرى افواجاً على اختلاف الدرجات والنزعات ويكثرون بسبب ذلك من الغناء وشرب المسكر . فكانوا ينفقون مبالغ فاحشة في هذا السبيل . وكان فلاحو شبرا يركنون في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في ذلك العيد . فامر الملك الناصر بابطال هذه العادة . وابطل كثيراً من الضرائب الظالمة كزكاة الدولة وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله ابداً ولو عدم منه واذا مات يؤخذ من ورثته . وابطل ما كان يجبى من اهل القاهرة وضواحيها اذا حضر مبشر بفتح حصن او نحوه فانهم كانوا يأخذون من الناس كل واحد على قدر طاقته . وكان يجتمع من ذلك مال كثير . وابطل ما كان يجبى من اهل الذمة وهو دينار سوى الجالية برسم نفقة الاجناد في كل سنة وكانت العادة اذا كان وفاء النيل ان يجبوا من التجار والباعة ديناراً من كل واحد قياماً باحتفال كانوا يقيمونه عند المقياس يكثرون فيه من الشوى والحلوى والفاكهة فابطل الجباية وامر بصرف ذلك من بيت المال

اعماله

أما اعماله فاكثرها بناء وترميم فقد بنى في سنة ٧١٧ هـ جسراً بين بولاق وميت عبيج لحجز مياه النيل عند الفيضان وكانت الارض واطية ولم يكن فيها شيء من البناء فاذا ارتفع النيل جرى على مسافة قصيرة من المقس (ثمن الازبكية) فلما بنى الجسر كف الماء الا يسيراً فتكوّن هناك جزيرة دعوها جزيرة بولاق فاقيمت فيها المساكن ثم اتصلت بالبر الحقيقي فاصبحت جزءاً منه فاتخذوها مرسى للسفن الواردة الى مصر ولا تزال كذلك الى اليوم وهذا ما يعبر عنه الآن بثمن بولاق

ومن آثاره البنائية جامعه المسمى الجامع الجديد عند موردة الخلفاء . ويقال انه نقل حجارته من صنم عند قصر الشمع اسمه السرية عمل منه قواعد للاعمدة الكبار وعمر القصر الابلق بالقلعة . وجر الماء الى قلعة القاهرة سنة ٧١٨ هـ في مجراة على قناطر مبنية بالحجر وركز للمياه آباراً وجعل عليها سواقي نقالة من عدة اماكن وهي باقية الى الآن تعرف بالسبع سواقي عند فم الخليج وتمتد منها نحو القلعة قناطر

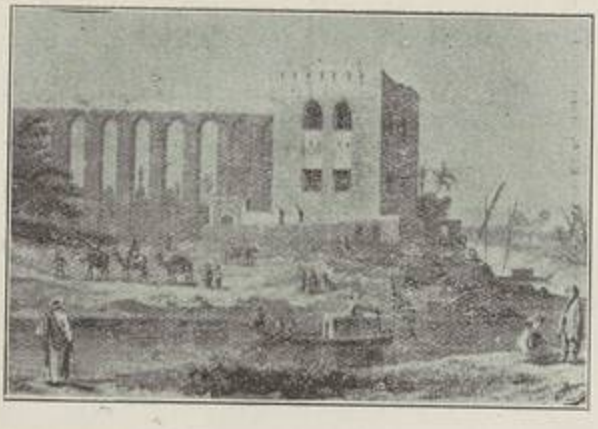

ش ٨٦ : مجراة الماء والسبع سقايات

تفصل بين القاهر ومصر القديمة . وعمر الحوش الكبير في القلعة زرع فيه بستاناً نقل اليه الاشجار من الشام وغيرها . وبنى قناطر عديدة في اماكن مختلفة والبركة الناصرية . وكان في القلعة ايوان يسمى الايوان الاشرفي فهدمه وبناه وعقد فوقه قبة عظيمة وكان يعمل فيه المواكب العظيمة والقصر الكبير عند البركة الناصرية . وعمل باب الكعبة من الخشب السنط الاحمر المصفح بالفضة

وكانت مدة حكم الناصر هذه المرة كلها سكينة وسلاماً خارجاً وداخلاً ولم يخرج من مصر كل هذه المدة الا مرتين لزيارة الحرمين ولم يتخابر مع دولة اخرى الا التتر وذلك بشأن تزوجه بابنة ازبك خان سنة ٧٢٠ هـ فكان معتكفاً بكليته الى ترقية شأن البلاد فاقام فيها ولا سيما في القاهرة مشروعات كلية الاهمية منها نزح الخليج المدعو باسمه (الخليج الناصري) سنة ٧٢٧ هـ وقد انشأ سنة ٧٢٨ هـ سبعة جسور وفي السنة التالية انشأ مرصداً في الميدان وشاد قصراً على انقاض قصر الاشرف فانتهى منه في سنة ٧٣٤ هـ واقام جسور شيبين سنة ٧٣٥ هـ وابتنى عدا عن الجامع الناصري المتقدم ذكره جامعاً آخر بجانب جامع ابيه في شارع النحاسين يشاهد فيه عند الدخول اليه اعمدة ملتفة يقال ان الملك الاشرف بن قلاون جاء بها من عكا تذكاراً للظفر . وهناك كتابة يقول فيها ان الذي بنى ذلك المشهد هو السلطان محمد بن الملك المنصور قلاون الصالحي سنة ٦٩٨ هـ والمقريزي يقول ان بناءه تم سنة ٧٠٣ هـ وان الملك العادل كتبغا هو الذي وضع اساسه ايام السلطنة . وشاد الناصر داراً كبيرة دعاها دار العدل وانشأ عيوناً كثيرة ومدارس عالية متعددة

ومن اعماله الحميدة انه ابطل جميع الضرائب الظالمة التي كانت تؤخذ على ما يباع ويشترى من حيوانات ونبات وعقار فاحبته الرعية واجمعوا على طاعته . فاستتبت الراحة وعم الصعيد على وجه خاص . ولم يشب الراحة الا تنازع الوزراء على منصب الوزارة فالغاه حسماً للمشاكل

وفي سنة ٧٤٠ هـ توفي ابنه انوك فحزن عليه حزناً شديداً اورثه مرضاً رافقه حتى الموت فتوفي الناصر في ٢١ ذي الحجة سنة ٧٤١ هـ وعمره ٧٥ سنة ومدة حكمه ٤٤ سنة وبضعة اشهر عن ثمانية اولاد ذكور تناوبوا الملك بعده الواحد بعد الآخر الا ان تصييهم وخلعهم كانا منوطين باحزاب متضادة لا يستقرون على حال . فكانت مدات حكمهم قصيرة جدًّا

وتزايدت فخامة ملك ابن قلاون في آخر حكمه وكثرت مماليكه حتى صار راتبه وراتب مماليكه كل يوم من اللحم الضاني ستة وثلاثين الف رطل . وبالغ في مشترى المماليك حتى قيل بلغت مماليكه اثني عشرة الف مملوك . وهو اول من اتخذ الشاش والقماش للعسكر والاقبية المفتوحة واتخذ الطرز الذهب والحوائص الذهب والسيوف المسقطة بالذهب والاقبية القاقم . ورتب المواكب في القصر ترتيباً حسناً . ورتب نوب السكر بعد السماط في القصر والامراء مجتمعون ورتب وقوف الامراء في المواكب على قدر منازلهم وكذلك ارباب الوظائف من المتعممين . وقد طالت ايامه في السلطنة بخلاف من تقدمه من الملوك وصفا له الوقت وصار اكثر الامراء والنواب مماليكه أو مماليك والده قلاون ولا يعلم لاحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه حتى قيل قد تزايدت في ايامه الديار المصرية والبلاد الشامية في العمائر مقدار النصف من جوامع وقناطر وجسور وغير ذلك من العمائر والانشاء

وترى في الشكل ٨٧ صورة نقود الملك الناصر بن قلاون النحاسية

ش ٨٧ : نقود الملك الناصر بن قلاون

سلطنة اولاد الناصر وهم ابو بكر وكجك واحمد واسماعيل

وشعبان وحاجي وحسن وصلاح الدين

من سنة ٧٤١ — ٧٦٢ ﻫ اومن ١٣٤١ — ١٣٦٢م

فاول من تولى بعد الملك الناصر ابنه البكر سيف الدين ابو بكر ولقب بالملك المنصور (الرابع) وبعد اربعين يوماً عزل ونفي الى قوص في مصر العليا وتوفي سنة ٧٤٢ﻫ وفي يوم خلعه سطا المماليك على نساء ابيه واهانوهن ونهبوا متاعهن . فبويع اخوه علاء الدين كجك وله من العمر ست سنوات فقط ولقب بالملك الاشرف

وبعد خمسة اشهر اي في رمضان من تلك السنة خلع الاشرف وسجن في قلعة القاهرة فتوفي هناك . فبويع اخوه شهاب الدين احمد وكان متغيباً في الكرك فاستقدم وبويع ولقب بالملك الناصر (الثاني) وفي ١٢ محرم سنة ٧٤٣ ﻫ اعيد الى الكرك منفاه الاول . فبويع اخوه عماد الدين اسماعيل ولقب بالملك الصالح وهذا بقي على كرسي السلطنة اكثر قليلاً من اخوته السابقين اي ثلاث سنوات وشهرين وبضعة ايام . واهم ما حصل في ايامه انه اعاد منصب الوزارة الى حكمه سنة ٧٤٤ ﻫ وكان قد الغاه ابوه كما رايت . وانه قتل اخاه شهاب الدين احمد سنة ٧٤٦ ﻫ وكان منفياً في الكرك ثم انتهت سلطنته بموته في ٤ ربيع آخر سنة ٧٤٦ ﻫ . فبويع اخوه الخامس زين الدين شعبان ولقب بالملك الكامل ولكنه لم يكن اسماً على مسمى فابغضته الرعية وهجاه الشعراء . ومكث حاكماً سنة وبضعة اشهر وفي جمادى الاولى سنة ٧٤٧ ﻫ عزل . فبويع اخوه السادس زين الدين حاجي ولقب بالملك المظفر (الثالث) وكان اكثر استبداداً من سلفه فلم تطل مدة حكمه اكثر من سنة وثلاثة اشهر فذبح في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨ ﻫ فبويع اخوه السابع ناصر الدين حسن ولقب بالملك الناصر (الثالث) وقد كان من سيره في الملك ما كان لابيه فحكم ثلاث سنوات وعشرة اشهر بمساعدة نائبه الامير الطنبغا وخلع في غرة رجب سنة ٧٥٢ ﻫ وسجن في قلعة القاهرة . فبويع اخوه الثامن صالح صلاح الدين ولقب بالملك الصالح وكان على وزارته الامير شيخو العمري والى هذا الامير ينسب الجامع المعروف بجامع شيخون او شيخو في الصليبة غربي الرميلة ويقابله خانقاه . وبقي الصالح على دست السلطنة ثلاث سنوات وثلاثة اشهر و ١٤ يوماً

وفي سنة ٧٥٤ ﻫ دهم القطر طاعون وانتشر حتى عمّ البلاد واختطف الالوف

الحاكم بامر الله (الثاني) وصي الخلافة فبويع عمه المعتضد بالله

وفي اوائل سنة ٧٥٥ هـ رفع المسلمون الى الملك الصالح تقارير مفصلة بما للنصارى من الاملاك الموقوفة للاديرة فاحيات هذه التقارير الى ديوان الاحباس فوجد ان للنصارى اوقافاً تبلغ ٢٥ الف فدان من الطين كلها موقوفة للكنائس والاديرة . فعرضت على الامير شيخو والامير صرغتمش والامير طاز وكانوا قائمين بتدبير الدولة فقرروا ان ينعم بذلك على الامراء زيادة على اقطاعاتهم وهدموا للنصارى عدة كنائس . وفي اواخر رجب من هذه السنة خرج الحاجب والامير علاء الدين علي بن الكوراني وكان والياً على القاهرة الى ناحية شبرا الخيام من ضواحي مصر فهدم كنيسة للنصارى واخذ منها اصبع الشهيد في صندوق واحضره الى الملك الصالح فاحرق بين يديه في الميدان وذرى رماده في البحر حتى لا ياخذه النصارى فبطل عيد الشهيد من يومئذ . وكان من المترشحين للوزارة وزيران قبطيان مرتدان هما موفق الدين وعلم الدين فتنازعا عليها وانضم الى كل منهما احزاب فانتهى الخصام بخلع الملك الصالح في ٢٢ شوال سنة ٧٥٥ هـ وكان منشأ هذا النزاع دسيسة من اخيه الملك الناصر حسن باتفاق مع الامير تاج الدين وكان الناصر مسجوناً ففاز بمراده وخلع اخاه فأخرج من السجن وبويع وبقي الملك الناصر حسن على دست السلطنة هذه المرة ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام بمساعدة الامير تاج الدين فولاه الوزارة مكافأة لمسعاه . وفي ٩ جمادى الاولى سنة ٧٦٢ هـ قتل بمكيدة من كبار امرائه

ومن آثاره الباقية الى هذا العهد جامعه في الرميلة مقابل قلعة الجبل في القاهرة وهو المعروف بجامع السلطان حسن او بجامع الحسنية وهو من اجمل جوامع القاهرة وانفقها اقتضى لبنائه ٣ سنوات انفق عليه في خلالها ما يساوي ستماية جنيه كل يوم . وقد حاه بالحجارة الكبيرة من انقاض الاهرام ونقش عليه الكتابات الكوفية والعربية فزاده رونقاً وجمالاً وقد اصبح الآن وعلى وجهه ملامح الشيخوخة لكنها لم تزده الا عظمة ووقاراً

وترى في الشكل الثامن والثمانين صورة النقود الذهبية للملك الناصر ناصر الدين حسن

ش ٨٨ : نقود الملك ناصر الدين حسن

سلطنة محمد بن حاجي

من ٧٦٢ — ٧٦٤ هـ او من ١٣٦٠ — ١٣٦٢م

ولما قتل السلطان حسن بويع ابن اخيه محمد بن الملك المظفر حاجي وسنه ١٤ سنة ولقب بالملك المنصور (الخامس) وفي منتصف شعبان سنة ٧٦٤ هـ اضطر الى التنازل عن الملك لابن عمه شعبان بن حسن وسنه عشر سنوات فبويع ولقب بالملك الاشرف (الثالث)

وترى في الشكل التاسع والثمانين صورة النقود الذهبية للملك المنصور محمد ضربت في القاهرة سنة ٧٦٤ هـ

ش ٨٩ : نقود الملك المنصور ضربت في القاهرة سنة ٧٦٤

سلطنة شعبان بن حسن

من سنة ٧٦٤ — ٧٧٨ هـ او من ١٣٦٢ — ١٣٧٦ م

وحكم الاشرف شعبان ١٤ سنة وشهرين وبضعة ايام معظمها سكينة وسلام وفي السنة الثالثة من حكمه اصيبت مصر وسوريا بقحط ضيق على الناس حتى اكلوا الكلاب والقطط واكل بعضهم اولاده من شدة الجوع . واستمر الامر كذلك في بعض الاماكن ٣ سنوات وما كانت السنة الحادية عشرة من حكمه اصاب البلاد حروب اهلية اشد وطأة من الجوع . وسببها ان يلبغا العمري احد امراء المماليك كان نائباً للملك . ففي سنة ٧٧٦ هـ سطت عليه عصبة من مماليكه في قصره فقتلوه وساروا يريدون مثل ذلك من السلطان نفسه فردهم بعد حرب هائلة قتل فيها زعيمهم فتشتتوا فولى على البابا الجاي اليوسفي وكان طماعاً فتقرب من السلطان حتى تزوج بوالدته فنال منها ثروة عظيمة فقويت شوكته وكثر اشياعه فطمع بالسلطة فقتل زوجته المذكورة وتواطأ مع قاتلي يلبغا على قتل السلطان فهاجموه فدفعهم ورئيسهم وقتل منهم جمعاً كبيراً وتبعهم رجاله حتى اغرقوهم في النيل . ولم يكد يطمئن من هذا القبيل حتى اجتمع عليه اضداد

يريدون قتله فتربصوا ينتظرون فرصة حتى اذا كان عائداً من زيارة الحرمين كمنوا له في ضيق العقبة فقتلوا من معه من الحاشية ولم يقفوا للسلطان على اثر فظنوه قتل فعادوا الى القاهرة وعهدوا الى الخليفة المتوكل بالله العباسي وكان قد تولى الخلافة بعد المعتضد بالله سنة ٧٦٣ هـ ان يبايع من يشاء فكتب اليهم « اختاروا من بينكم من تناؤون وانا اصادق على بيعته » ثم علم الامراء ان الاشرف لايزال حياً مختبئاً في القاهرة فقبضوا عليه وخنقوه في ١٥ ذي الحجة سنة ٧٧٨ هـ

وترى في الشكل التسعين نقود الملك الاشرف شعبان

ش ٩٠: نقود الملك الاشرف شعبان

سلطنة علي بن شعبان

من سنة ٧٧٨ — ٧٨٣ هـ او من ١٣٧٦ — ١٣٨١ م

وبايعوا ابنه علاء الدين علي وسنه تسع سنوات فسر بذلك المنصب لصغر سنه ولم يعلم انه مدفن ابيه ولا يلبث حتى يلحق به . فلقبوه بالملك المنصور (السادس) واقاموا له الامير لاجين بك وصياً . ثم ابدل لاجين بالامير قرطاي ثم ابدل هذا بالامير برقوق . وهو الذي اتى على ختام هذه الدولة وتأسيس دولة جديدة وكانت هذه مقاصده منذ ولي الوصاية لكنه بقي محافظاً على ولاء مولاه الى ان توفاه الله في شهر ربيع اول سنة ٧٨٣ هـ وكانت مدة حكمه اربع سنوات واربعة اشهر

سلطنة حاجي بن شعبان

من سنة ٧٨٣ — ٧٨٤ هـ او من ١٣٨١ — ١٣٨٢ م

فبويع اخوه زين الدين حاجي وسنه ست سنوات ولقب بالملك الصالح ولم تمض على مبايعته سنة ونصف حتى مل برقوق من اخفاء مقاصده فخلعه ونفاه في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ واستتم مقاليد الملك . وكان الملك المنصور هذا آخر من حكم من دولة المماليك الاولى المسماة بالبحرية او التركمانية فانقرضت دولتهم بعد ان حكمت نحواً من مائة وست وثلاثين سنة اولها امرأة وآخرها صبي وقامت دولة المماليك الثانية او الشراكسة

دولة المماليك الثانية

من سنة ٧٨٤ — ٩٢٣ هـ او من ١٣٨٢ — ١٥١٧ م

منشأ المماليك الشراكسة

دعيت هذه الدولة بدولة المماليك الشراكسة نسبة الى منشأ سلاطينها فانهم من الشعب الشركسي ويدعى ايضا كركس أو جركس او كرغز. وهم لم ينشأوا في اسيا العليا انما جاؤا اليها من سيبيريا ونواحي بحيرة بيقال منذ القرن السادس للميلاد. ثم هاجروا الى غربي بحر قزوين يحملون من بلادهم للاتجار بهم في جهات العالم فاقتنى منهم سلطان المماليك البحرية الاخير عدداً وافراً فضلاً عن المماليك البحرية اقتداء باسلافه. وكانوا يستخدمونهم في مصالح الدولة فارتقوا فيها تبعاً لما خصتهم به الطبيعة من الجمال والذكاء حتى صارت اليهم حماية الحصون والقلاع فجعلوا سكناهم في الابراج فلقبوا بالبرجية. وما زالوا يزدادون عدداً وقوةً ومنعة حتى تاقت نفوسهم الى تسلق كرسي الملك يجعلونه ارثاً لنسلهم. وقد رأينا انهم تمكنوا مما ارادوا فخلعوا حاجي ابن شعبان وبايعوا برقوق

أما برقوق فهو ابن مرتد شركسي اسمه انس من قبيلة كسا استملك في شركاسيا وقيد الى القرم فاشتراه رجل مسلم يقال له عثمان وجاء به الى مصر سنة ٧٦٢ هـ وباعه للامير يلبغا فجعله في عداد مماليكه الا ان نباهة برقوق وجماله ومهابته استلفتت انتباه سيده فبالغ في ترقيته حتى ادخله في بطانته ولقبه بالشيخ اشارة الى براعته بالفقه وسائر العلوم الاسلامية وجعله في مصاف الامراء وكان يلقب بالعثماني واليلبغاوي. ومازال في خدمته الى ان قضى الله على يلبغا بما قضى وتشتتت مماليكه فبقي برقوق وامير آخر يقال له بركة لانهما كانا في السجن ثم اطلقا فدخلا في خدمة منجك صاحب دمشق. ثم عادا الى مصر بطلب الملك الاشرف شعبان فتمكن برقوق بوسائط مختلفة من الحصول على رتبة باش امير ياخور وقيادة الف رجل فاصبح من الذين يطمعون في نيابة الملك فتولاها ولقب باتابك الجيوش. وتولى رفيقه بركة رئاسة الاعمال (المديريات) وما زالت الحال كذلك حتى خلع الملك الصالح حاجي. فتمكن برقوق بمساعدة احزابه ان يتسلق كرسي الملك في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ هـ كما رايت

سلطنة الملك الظاهر برقوق

من سنة ٧٨٤ — ٨٠١ هـ او من ١٣٨٢ — ١٣٩٨ م

فاقرّ الخليفة المتوكل على الله على تولية برقوق وبايعه جميع القضاة والمشايخ والعلماء والامراء ولقبوه بالملك الظاهر وهو لقب اعظم من حكم مصر من دولة المماليك الاولى نعني به ركن الدين بيبرس البندقداري . واول شيء خالف فيه اسلافه انه ابطل حمل القبة والطير على رأس السلطان عند توليه وابطل ما كان يعمل في يوم النيروز اول السنة القبطية . ومما كان يعمل في ذلك اليوم بالديار المصرية انه كان يجتمع السواد الاعظم من الناس الاسافل فيقفون على ابواب الاكابر من اعيان الدولة فيكتب امير النيروز وصولاً بالجمل الثقال وكل من امتنع عن الاعطاء من الاكابر سبوه سباً قبيحاً ولا يزالون قائمين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقرّون عليه من الدراهم بحسب ما يقرره عليه امير النيروز . فيأخذون منه ذلك غصباً ويمضون . وكان ذلك السواد الاعظم العياق يقفون في الطرق ويتراشون بالماء المتنجس ويتراجمون بالبيض النيء في وجوههم ويتصافعون بالانطاع والاخفاف ويقطعون الطريق حتى يمتنع الناس من الخروج الى الاسواق وتغلق في ذلك اليوم ايضاً اسواق القاهرة ودكاكينها وكل من ظفروا به في الطرق سبوه

وكان تيمورلنك القائد التتري الشهير اذ ذاك قد ملأ الارض بافتتاحاته حتى سمع دويّها في سوريا اذ جاء يهدد حدودها فنهض اليه برقوق في جيش عظيم فاوقفه عند حده لكنه لم يكد يتخلص منه حتى ظهر له عدوٌ في بيته نعني به الخليفة المتوكل على الله فانه دعا الى خلع برقوق فالتف حوله دعاة عديدون فاجتمع برقوق بالمشايخ والأئمة والعلماء واجمع معهم على خلع الخليفة فخلعه وحبسه في القلعة سنة ٧٨٧ هـ ونصب عمراً خا ابراهيم ولقبه بالواثق بالله . ثم توفي الواثق في ١٩ شوال سنة ٧٨٨ هـ فنصب ابا يحيى زكريا عمر بن الخليفة المستنصر بالله . وهذا لم يلبث طويلاً لانه اساء السلطان برقوق فخلعه في جمادى الاولى سنة ٧٩١ هـ واعاد المتوكل على الله لكنه ندم بعد ذلك لما رأى من سعيه في خلعه فحاول تنزيله ثانية فلم يستطع لان المتوكل كان قد تواطأ مع احد الامراء المسمى منطاش على خلعه ووافقهما سائر الامراء ورجال الدولة فخلعوه بعد ان حكم ست سنوات وسبعة اشهر وبضعة ايام وارسلوه منفيًّا الى قلعة الكرك منفى السلاطين في تلك الايام واستقد وا السلطان حاجي آخر سلاطين دولة المماليك

ش ٩١ : تيمورلنك القائد التتري

البحرية وهو الذي خلعه برقوق . فبايعوه في ٦ جمادى الأخرى سنة ٧٩١هـ . وكان يلقب بالملك الصالح فابدله بالملك المنصور لكنه لم يهنأ بهذه التولية الثانية لان المتوكل ومنطاش بعد ان سعيا في توليته ندما فانزلاه واعادا برقوق في ٤ صفر سنة ٧٩٢ هـ فتعلم برقوق هذه المرة كيف يستبقي الملك في يده فبادر حالاً الى المنصور حاجي وامانه وقتل كل من كان على دعوته منعاً لدسائسهم . ثم عمد الى الخارجية فوطد الامن في انحائها ولم يكن يثق بمقاصد اعوان الخلفاء فدخل في احزابهم يتحد تارة مع هؤلاء وطوراً مع هؤلاء ليدوم الشقاق بينهم فلا يتفقوا على خلعه

وفي سنة ٧٩٤ هـ اهداه قرا يوسف امير فارس مدينة تبريز فبعث اليه برقوق خلعة وفوّض اليه ان يفتتح ما استطاع من المدن على ان يكون والياً عليها . لكنه ما لبث ان جاء القاهرة في السنة التالية مع احد محالفيه احمد بن اويس فارين من وجه تيمورلنك وكانا قد التجأا الى منويل امبراطور القسطنطينية فلم يؤمنهما لانه كان في ريب من امره مع دولة اخرى قارب صبحها الانفجار ـ وهي الدولة العثمانية نسبة الى عثمان الغازي اول سلاطينها . وجرى ذلك في عهد بيازيد بن مراد رابع سلاطين هذه الاسرة الظافرة . وكان قد غزا معظم ايالات المملكة الرومانية الشرقية (مملكة الروم)

واعظمها حتى هدد القسطنطينية فجاءه التتر من ورائه بقيادة تيمورلنك فاوقفوه عن مقصده واصبحت قارة اسيا بين مناظرين عظيمين يتنازعانها وكل منهما ذو بأس شديد وهما تيمورلنك التتري وبيازيد التركي فتلاطمت الزوبعتان فارتعدت لهما افريقيا واضطربت مصر من دويهما

وطمحت انظار هذين الفاتحين الى مصر فبعث كلٌّ منهما وفداً الى القاهرة فطلب وفد بيازيد الى برقوق ان يعاهده على السلم والى الخليفة المقيم في القاهرة ان يقر بيازيد رسميًّا على سلطنة الاناطول فاجابهم الى ما طلبوه . اما وفد تيمورلنك فاتخذوا خطة اخرى لانهم استعملوا الخشونة والفظاظة في اقوالهم ومطالبهم فطلبوا اليه ان يسلم لهم قرا يوسف واحمد بن اويس اللذين قد التجأا اليه . فطيب برقوق خاطرهم واخذهم بالملاينة فازدادوا فجوراً فأمر بقتلهم . فشق ذلك على تيمورلنك فساق جيشه وقدم للانتقام فمر بالرها فافتتحها وقتل من فيها ثم جاء حلب فانكى فيها . ثم توقف عن مسيره لغرض في نفسه ليسهل عليه افتتاح مصر . فلم يغفل برقوق عن ذلك فاكثر من الجند والسلاح وتأهب للدفاع أو الهجوم لكنه لم يكد يتم هذه التأهبات حتى ادركته الوفاة بداء الصرع في يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ وعمره ستون سنة فاسف عليه الناس اسفاً شديداً لما كان من عدله ويقظته ورفقه برعيته

اعماله

ومن ادلة ذلك انه خفف ضرائب الحبوب وابطل الضرائب التي كانت تؤخذ على الاثمار والفواكه الواردة عن طريق بولاق . وكان كثير التصدق على الفقراء محبًّا للعلم والعلماء فبنى مدرسة دعاها المدرسة الظاهرية نسبة اليه . وابتنى جامعاً لا يزال معروفاً باسم جامع السلطان برقوق بجانب جامع الملك الناصر في شارع النحاسين . وكان له ولع خاص في اقتناء الاسلحة والخيول الجياد والاستكثار من المماليك الشراكسة فنظم منهم فرقة يركن اليها عند الحاجة . وقد رتب مراتب الدولة في ايامه على هذه الصورة :

١ اتابك العساكر
٢ رأس نوبة الامراء
٣ امير السلاح
٤ امير المجلس
٥ امير الياخور
٦ دوادار

٧ رأس النوبة الثاني
٨ حاجب الحجاب
٩ النائب

وكانت مقاليد الحل والعقد بيد هؤلاء التسعة فاذا اجمعوا على امر انفذوه ولا مرد لقضائهم

ومما انشأه في ايامه من العمائر جسر الشريعة بالغورية وجدد بناء خزائن السلاح بثغر الاسكندرية وجدد عمارة زريبة البرزخ بثغر دمياط بعد ان ظهر منها عظام الشهداء وبنى سوراً على مدينة دمنهور وعمر قناة العروب بالقدس وجدد عمارة المجراة التي تجر الماء من بحر النيل الى قلعة الجبل

سلطنة فرج بن برقوق (اولاً)

من سنة ٨٠١ — ٨٠٨ هـ او من ١٣٩٨ — ١٤٠٥ م

فلما توفي السلطان برقوق بايعوا بكر ابنائه فرج زين الدين الملقب بابي السعادات وسنه ست وعشرون سنة ولقبوه بالملك الناصر . وفي اول حكمه ثار الاتابك ايتمش وتمم الفرساني حاكم سوريا فتواطأ هذا الاخير مع يلبغا السالمي حاكم حلب فاستولى على مضايق فلسطين على نية الاستيلاء على سائر مدنها . الا ان حدسه لم يحقق فأخذت منه المضايق وضوبق عليه حتى قيد اسيراً وقتل هو وكل دعاته . ولم تكد تنجو مصر من هذه النازلة حتى داهمتها نازلة اشد وطأة واصعب مراساً . فان تيمورلنك بعد ان اتم حروبه في الهند وبغداد وسيواس وملاطية سنة ٨٠٣ هـ امعن في سوريا فاستولى على حلب وحمص بعد حروب شديدة . وفر فرج الى مصر فجمع اليه رجاله وتأهب للدفاع فبلغه ان عدوه شغل عنه بمحاربة بيازيد في الاناطول فسكن روعه ثم جاءته الانباء بفوز تيمور وانكسار بيازيد واسره سنة ٨٠٤ هـ في وقعة انقرة فخارت قواه ويئس من الفرج . فبعث اليه تيمورلنك فيلاً هندياً وطلب اليه ان يبايعه ويبعث اليه باحمد وقرا يوسف حالاً . فلم يسع فرج الا الاذعان لقضاء الله . فاجابه الى طلبه صاغراً واهداه زرافة حبشية وبايعه واعترف بسيادة التتر على مصر وانه قائم باحكامها بالنيابة عنهم . اما احمد وقرا يوسف فقال انهما احتميا به وحقوق الضيافة تمنعه من تسليمهما

فيكون هو الجاني عليهما لكنه وعد ان يسجنهما عنده فاستقرت سيادة تيمور على مصر

وفي سنة ٨٠٦هـ شرقت مصر بقصور النيل فدهى اهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف حتى انه مات في مدينة قوص وحدها ١٧ الف انسان ومات في مدينة اسيوط ١١ الفاً ونحو ذلك في مدن اخرى . وفي ١٧ شعبان من السنة التالية ادرك تيمور القضاء المبرم في اوترار وتخاصم ابناؤه على الملك فتخلصت مصر من سلطة التتر وذهب الخذر عن احمد وقرا يوسف فافرج عنهما فسارا الى بلادهما

ثم اخذ فرج بالتأهب لاسترجاع سوريا بنفسه فلم يكد يتم الاستعداد حتى ضويق عليه في قصره . لان المصريين لما راوا اذعانه لتيمور وتسليمه بسيادته حسبوا ذلك خيانة وضعفاً وايقنوا انه لا يصلح لادارة الاعمال فاقروا على خلعه وتولية اخيه عز الدين عبد العزيز وكان اعظم في عيونهم منه . فاجتمعوا تحت لوائه وساروا لمحاصرة اخيه في قصره في ١٦ ربيع اول سنة ٨٠٨ هـ وما زالوا يهددونه حتى تنازل حفظاً لحياته وقد حكم ست سنوات وخمسة اشهر و ١١ يوماً

وكانت ايامه كثيرة الفتن والشرور فقد طرق الشام فيها تيمورلنك كما رايت فاخربها واحرقها وعمها بالقتل والنهب والاسر حتى فقدمنها جميع انواع الحيوانات وتفرق اهلها في جميع اقطار الارض ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء فاشتد بها الغلاء على من تراجع اليها من اهلها وشنع موتهم واستمرت بها مع ذلك الفتن وقصر مد النيل بمصر حتى شرقت الارض الا قليلاً وعظم الغلاء والفناء فباع اهل الصعيد اولادهم من الجوع وصاروا ارقاء مملوكين وشمل الخراب الشنيع عامة ارض مصر وبلاد الشام من مصب النيل عند الجنادل الى حيث مجرى الفرات

سلطنة عبد العزيز بن برقوق

من سنة ٨٠٨ - ٨٠٩ هـ او من ١٤٠٥ - ١٤٠٥م

ثم خرج من قصره واختفى في مكان غير معلوم فظن الناس انه قتل من الضوضاء والازدحام فبايعوا اخاه ولقبوه بالملك المنصور . ولم يمض شهران على توليته حتى تحققوا خيبة ظنهم به فملوا من طاعته ومالوا بكليتهم الى سافه فاتصل ذلك بفرج فخرج من خبائه فتقدم اليه الناس ورجال الدولة ان يعود الى منصبه فعاد في جمادي الاخرة ونفى

اخاه عز الدين الى الاسكندرية فعاش فيها اشهراً قليلة وتوفي في ٧ ربيع آخر سنة ٨٠٩ هـ

سلطنة فرج بن برقوق (ثانية)

من سنة ٨٠٩ — ٨١٥ هـ او من ١٤٠٥ — ١٤١٢ م

فلما عاد فرج الى منصبه وجه انتباهه خصوصاً الى استرجاع ثقة الاهلين فيه فغزا دمشق وافتتحها ثم فتح غيرها من مدن سوريا واهتم براحة الرعية فخيم الامن وسكنت القلوب . فاذا كانت سنة ٨١٣ هـ ظهرت في القاهرة ثورة دينية ذهبت بحياته . وذلك ان احد امراء المماليك المدعو ابا نصر الملقب بالشيخ المحمودي الظاهري نسبة الى سيده الامير محمود احد امراء الملك الظاهر برقوق . وكان الملك الظاهر قد اعتقه ووعده بالمناصب الحربية فطمحت ابصاره الى السلطنة فاستخدم لهذه الغاية الخليفة المستعين بالله وكان قد ولي الخلافة بعد الخليفة المتوكل على الله منذ خمس سنوات . وكان الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد وانتقالهم الى القاهرة لا يخرجون في اعتبار الاهالي عن حد السلطة الدينية وكانوا يلقبونهم بالايمة . فاسرَّ الشيخ المحمودي الى المستعين انه يقدر ان يعيد السلطة السياسية كما كانت لاسلافه وقال له «ان الناس ميالون الى ذلك بكليتهم وهم مستعدون لمبايعتكم وتنفيذ اوامركم» . فتنبه في قلب الخليفة حب السيادة فوافق الشيخ المحمودي . وكان فرج اذ ذاك في دمشق فاتفقا على استقدامه فانفذا اليه اولا ان يتنازل عن الملك فاجاب ان لا جواب عنده غير السيف واخذ في اعداد مهمات الحرب ومثل ذلك فعل الخليفة والشيخ المحمودي وتقدم الجيشان لكنهما لم يتلاحما حتى اصدر امراً بتوقيعه فجاء بما لا يجيء به السيف ونصه «من الامام ابي الفضل المستعين بالله امير المؤمنين الى اهل مصر . اعلموا اننا قد خلعنا فرج بن برقوق عن سلطنة مصر والشام لان سيدهما الحقيقي انما هو الخليفة خليفة الرسول (صلعم) فويل لمن خالفه»

فلما دار ذلك بين الجيوش اعرضوا عن فرج ولم يبق له نصير فحاول الفرار فلم ينج فقبض عليه وقيد الى الخليفة فانتحل له ذنباً يستوجب عليه المحاكمة — وهو انه كان قد اضطر لكثرة ما انفقه في محاربة التتر ان يضرب ضرائب فوق العادة فرفعت عليه

رائض التشكي الى مجلس الايمة والفقهاء انه اختلس الاموال وخرب البلاد وانه تمرد
ى الخليفة ظل الله على الارض فاتخذ الخليفة ذلك ذريعة للحكم على فرج بالاعدام
تلوه في ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ خارج اسوار دمشق وتركوا جثته ملقاة على
نة هناك

سلطنة الامام المستعين بالله

من سنة ٨١٥ — ٨١٥ هـ او من ١٤١٢ — ١٤١٢ م

فاجتمعت السلطتان الروحية والسياسية للمستعين بالله فبايعه الامراء وقواد الجند
بوه بالملك العادل فاستلم مقاليد الاحكام وجعل الشيخ المحمودي اتابك العساكر
دبر المملكة . واخذ في اصلاح الاحوال ووجه انتباهه الى ما يكتسب قلوب الرعية
اد الامن الى البلاد بمقاصة المعتدين واظهر لياقته لما عهد اليه فشرع في تنظيم الاحكام
نصاف المظلومين وبذل العطاء فاحبه الناس . اما الشيخ المحمودي فانه قام بهذه
ثورة خدمة لاغراضه وليس للخليفة فراى انه اصبح آلة بيده فاضمر له شرًا ونوى
ى خلعه لكنه استخدم الحزم والتأني واغتنام الفرص خوفاً من الوقوع في شر
اله فعمل على توطيد العلاقات الودية بينه وبين امراء المماليك والتقرب منهم واقناعهم
ن طي البساطة والاخلاص ان في هذا الخليفة شيئاً من ضعف الراي والخمول فضلاً
ن كونه غريباً عنهم . فاستمال قلوبهم واشتد ازره بهم فاخذ يشكو من منصبه فولاه
خليفة نيابة الملك في ٨ ربيع اول من تلك السنة فصار اقدر على تنفيذ مآربه وما
ل ساعياً الى مطمح انظاره حتى كثرت احزابه واصبحت ازمة البلاد في يده فاجبر
خليفة على مشاركته في السلطة فاجاب ولقبه بالملك المؤيد ثم خطا خطوة اخرى
لع الخليفة وحبسه في بعض غرف القصر

سلطنة الشيخ المحمودي

من سنة ٨١٥ — ٨٢٤ هـ او من ١٤١٢ — ١٤٢١ م

فلم يستطع المستعين بالله مقاومة لكنه كتب سرًا الى نوروز احد اصدقائه القدماء
كان قد ولاه سوريا يستنجده فقدم نوروز مسرعاً الى القاهرة في جيش فرأى انه

يقصر عن مناواة المحمودي فاوعز الى الخليفة ان يستخدم الوسائط الدينية كما فعل المرة الماضية . وكان الشيخ المحمودي في دمشق فاصدر منشوراً بخلعه فاغتنم المشائخ والامراء فرصة غيابه وجاهروا بخلعه . وبلغ ذلك الشيخ المحمودي فاسرع الى القاهرة فخافه المشائخ والعلماء وانكروا خلعه وقالوا ان الخليفة اولى بذلك الخلع والحوا على معاقبته لانه تمرد على سلطانهم فخلعوه من السلطنة والخلافة وسجنوه ثم نفوه الى الاسكندرية سنة ٨١٨ هـ واقاموا اخاه داود خليفة مكانه ولقبوه بالامام المعتضد بالله . فعاد الشيخ المحمودي الى كرسي السلطنة واخذ يسعى في اكتساب ثقة الاهلين فاتبع خطة الخليفة المستعين فانصف ورفق فأمنت الرعية وسعدت البلاد . وما زالت الحال كذلك ثماني سنوات وخمسة اشهر وفي ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ توفي السلطان الشيخ المحمودي . وكان محبا للعلماء يكرم مثواهم . وله بنايات جميلة من جملتها الجامع المسمى جامع المؤيد بالقرب من باب زويلة وقد جدد بناؤه وهو كثير النقوش ولم يبق من البناء القديم الا ليوان القبلة . وبعد وفاته عادت الامور الى مجراها الاول من القلاقل فتولى السلطنة بعده ثلاثة سلاطين لم يحكموا الا مدة قصيرة

سلطنة احمد بن المحمودي ثم سيف الدين ططر ثم محمد بن ططر

من سنة ٨٢٤ — ٨٢٥ هـ او من ١٤٢١ — ١٤٢٢ م

اولهم ولده شهاب الدين احمد الملقب بالملك المظفر وفي شوال من تلك السنة تخلى عن الملك لوصيه وحميه سيف الدين ططر الملقب بالملك الظاهر وهذا توفي في ذي الحجة من السنة المذكورة فبويع ابنه ناصر الدين محمد ولقب بالملك الصالح وبعد اربعة اشهر خلعه وصيه سيف الدين برس باي فقضى باقي حياته في الشقاء

سلطنة الملك الاشرف برس باي

من سنة ٨٢٥ — ٨٤١ هـ او من ١٤٢٢ — ١٤٣٧ م

وبعد خلعه اختلف الامراء في من يخلفه فتنحى برس باي حتى اهلك الاحزاب بعضها بعضاً فالتقم السلطنة غنيمة باردة . فبويع في ٨ ربيع آخر سنة ٨٢٥ هـ وتلقب

الملك الاشرف وقد كان برس باي مملوكاً احبه سيده الملك الظاهر ططر فاعتقه ورقاه حتى جعله وصياً على ابنه . وفي اول حكمه فاض النيل حتى غمر الارض باخيرات فكثرت الحبوب وشبع الفقراء . وكان برس باي كالشيخ المحمودي حكمة ورفقاً وقد رمم عدة مدن وشاد في القاهرة عدة بنايات منها الجامع المعروف بجامع الاشرفية تجاه سوق العطارين ابتدأ في بنائه سنة ٨٢٦هـ . وقد تمكن برس باي لحسن سياسته وحزمه من استبقاء السلطة بيده مدة طويلة والبلاد في سكينة الا في سنة ٨٢٧ هـ اذ ثار الامير ينبق النجاشي نائبه في دمشق . غير ان تلك الثورة ما لبثت ان ظهرت حتى اضمحلت وعوقب الثائرون بمساعدة امير زنجي يقال له عبد الرحمن فولاه برس باي على سوريا بدلاً من النجاشي وكانت هذه الثورة اول القلاقل وآخرها في ايامه

اما محارباته مع الدول الاخرى فجديرة بالاعتبار لانه جرد على الافرنج عدة تجريدات وتغلب عليهم فاخضع جزيرة قبرص وحمل الملك جان لوسينيان الثالث على الاعتراف بسلطانه واداء الجزية . وعقد مع ملوك الصليبيين وسلطان آل عثمان اذ ذاك مراد بن محمد معاهدات سلمية تدل على عظيم شوكته . فكانت مصر في ايامه سعيدة داخلاً وخارجاً وقال بعض المؤرخين ان الملك الاشرف برس باي اجدر الملوك الشراكسة بالمدح لانه كان اعلاهم همة واشدهم عزيمة واكثرهم تدرُّباً في الاحكام . ومما يمتدح عليه انه ابدل جميع التذللات التي كانت تقدم للملوك قبله بتقبيل اليد فقط . لكنه اصيب في اواخر ايامه بمرض في عقله كما اصيب الحاكم بامر الله فاصدر اوامر غريبة منها انه امر بنفي الكلاب الى برالجيزة . فصار كل من امسك كلباً يأخذ نصف فضة من صيرفي باب السلسلة فامسك العياق من الكلاب نحو الف كلب فنفوها الى برالجيزة . ثم انه امر بان لا تخرج امرأة من بيتها الا باذن من الحكومة فكانت العاملة اذا ارادت التوجه الى ميتة تأخذ ورقة من المحتسب تجعلها في راسها وتمشي في السوق . ثم انه نادى في القاهرة بان لا يلبس الفلاحون زمطاً مطلقاً فامتثل الناس امره . ثم انه رسم بتوسيط الحكماء فوسط الرئيس خضر . ووسط الرئيس شمس الدين بن العفيف واستمر على امثال ذلك الى ان مات بعد ان حكم ١٧ سنة و٨ اشهر و٦ ايام . قضى يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١ هـ وعمره ستون سنة

سلطنة يوسف بن برس باي

من سنة ٨٤١ — ٨٤٢ هـ او من ١٤٣٧ — ١٤٣٨ م

فبويع ابنه جمال الدين يوسف الملقب بابي المحاسن ولقب بالملك العزيز وبعد ثلاثة اشهر من مبايعته تخاصم مماليكه وسيف الدين جقمق اتابك جيشه خصاماً انتهى بعزله ومبايعة جقمق في ١٩ ربيع اول سنة ٨٤٢ هـ

سلطنة الملك الظاهر جقمق

من سنة ٨٤٢ — ٨٥٧ هـ او من ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م

وكان سن جقمق اذ ذاك ٦٩ سنة ولقب بالملك الظاهر وبعد سنتين من حكمه اصيبت مصر بطاعون تفشى في انحائها . وفي سنة ٨٤٦ هـ توفي الامام المعتضد بالله وكان باراً تقياً واوصى بالخلافة بعده لاخيه بالرحم فبايعوه ولقبوه بالمستكفي بالله وكان صديقاً للسلطان جقمق وبعد ثماني سنوات من خلافته توفي سنة ٨٥٤ هـ وكان كاخيه تقيّ وبرّاً حتى تخاصم الاعيان والكبراء في المسابقة الى حمل نعشه وقت الجنازة حتى السلطان جقمق فانه حمل به على منكبيه . فبويع اخوه ولقب بالقائم بامر الله . وكان سير هذا الخليفة مغايراً لسير اسلافه فابغضه السلطان وخاف دسائسه وكان قد تجاوز الثمانين من سنه ولم تبق فيه عزيمة على مقاومة الدسائس فتنازل عن السلطة لابنه فخر الدين عثمان وتوفي في ٢٩ صفر سنة ٨٥٧هـ وهي السنة التي فتح فيها السلطان محمد الثاني القسطنطينية

سلطنة عثمان بن جقمق

من سنة ٨٥٧ — ٨٥٧ هـ او من ١٤٥٣ — ١٤٥٣ م

وبويع فخر الدين عثمان ولقب بالملك المنصور اما الخليفة فلم ينفك عن دسائسه طمعاً

بالسلطة فدعا اليه زمرة من الامراء وحملهم على نبذ طاعة الخليفة على امل ان ينال بذلك ما ناله المستعين بالله فانتشبت الثورة وخلع الملك المنصور عثمان في غرة شهر ربيع آخر من تلك السنة بعد ان حكم شهراً ويوماً . اما الخليفة فخاب انتظاره وحبطت مساعيه فغادرته الاحزاب وبايعوا مملوكاً مسناً اسمه ابو النصر اينال ولقبوه بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف اينال

من سنة ٨٥٧ — ٨٦٥ هـ او من ١٤٥٣ — ١٤٦٠ م

فقال الخليفة في نفسه ان هذا السلطان شيخ فلننتظر وفاته انه لا يلبث ان يصيب حتفه . فانتظر ست سنوات فلم يمت فعمد الى الدسيسة فاتصل ذلك بالوزير بلجيوني فاعلم السلطان بامره فاستحضر الخليفة وقرّعه ثم امر بخلعه عن الخلافة . فقال الخليفة « من اين لك ان تخلع الخلفاء ولهم وحدهم ان يولوا ويعزلوا » فلم يجبه الا بالنفي الى الاسكندرية فبقي فيها مدة ثم مات . فبايعوا يوسف اخا المعتضد بالله ولقبوه بالمستنجد بالله وكان حكيماً معتدلاً وعاش السلطان اينال بعد ذلك سنتين ولى وعزل في اثنائها كثيراً من الوزراء ثم توفي يوم الخميس ١٥ جمادي الاولى سنة ٨٦٥ هـ بعد ان حكم ٨ سنوات وشهرين وستة عشر يوماً

سلطنة احمد بن اينال

من سنة ٨٦٥ — ٨٦٥ هـ او من ١٤٦٠ — ١٤٦١ م

فتولى بعده ابنه شهاب الدين احمد الملقب بابي الفتح وكان قد تعاطى الاحكام في اخر ايام ابيه . وترى في شكل ٩٢ صورة نقود مضروبة في عهد شهاب الدين احمد يوم كان يتعاطى الاحكام في حياة ابيه فلما بويع لقب بالملك المؤيد ولكنه لم يحكم الا اربعة اشهر فعزل في ١٨ رمضان من تلك السنة وبويع سيف الدين خوش قدم ولقب بالملك الظاهر

ش ٩٢: نقود ابي الفتح والاشرف

سلطنة الظاهر خوش قدم

من سنة ٨٦٥ — ٨٧٢ هـ او من ١٤٦١ — ١٤٦٧ م

ويعرف خوش قدم هذا بالرومي لانه يوناني الاصل وبالناصري لانه كان من مماليك الملك الناصر وكان محباً للاداب اليونانية محافظاً عليها . وكان حكيماً باراً حليماً محباً لرعيته ساهراً على راحتهم ولم يكن يستوزر الا الذين اختبر نزاهتهم ونشاطهم فاحبته الرعية واجمعوا على طاعته والاخلاص له . ويقال بالجملة ان هذا السلطان من افضل سلاطين مصر وقد اقتدى به رجال دولته . اما الخليفة فلم يكن يتجاوز سلطته الدينية فحكم خوش قدم ست سنوات ونصف كلها سلام ونعيم وتوفي في ١٠ ربيع اول سنة ٨٧٢ هـ وسنه ستون سنة فاسف عليه الناس كثيراً

وكان حسن الشكل معتدل القامة مترك الوجه احمر اللون مستدير اللحية ضخم الجسم شائب اللحية فصيح اللسان بالعربية وكان ماشياً على النظام القديم تابعاً لطريقة الملوك السالفين في اقامة المواكب في القصر الكبير والمبيت به في كل ليلة . وكان سائراً على خطة استاذه الملك المؤيد شيخ في كسر السد بنفسه ولبس الصوف في المطعم وكان كثير الرمايات في كل سنة ويشق في القاهرة المواكب الجليلة . وكان يطيف المحمل في كل سنة في رجب وتسوق الرماحة على جاري العادة اربعين يوماً ثم يلبسون الاحمر وتزين القاهرة ثلاثة ايام ويخرج الناس في ذلك عن الحد بالقصف والخلاعة وكانت ايامه كلها لهواً ولم يجيء في ايامه الطاعون بمصر ولا جرد تجريدة الى البلاد الشامية . وكان منأنقاً في ملبسه فصنع ركباً ومهاميز من ذهب . وكان يلبس السمور الاسود بلون الحبر وكان يلبس القباء الصوف الفاخر ويبطنه بالمخمل الاحمر الكفوي

سلطنة الملك الظاهر بلباي ثم الظاهر تمربغا

من ٨٧٢ — ٨٧٢ هـ او من ١٤٦٧ — ١٤٦٧ م

فبايعوا ابا سعيد بلباي ولقبوه بالملك الظاهر فكان سمياً لسابقه بالاسم لا بالفعل فجاء من السيئات اكثر مما جاء من الحسنات لانه كان مستبداً عاتياً لا يغادر كبيراً ولا

صغيراً فكرهته الناس ولم يمضِ ٦٦ يوماً من توليته حتى خلعوه وذلك في ١٧ جمادى الاولى من تلك السنة وبايعوا الامير ابا سعيد تمربغا الملقب بالظاهري ولقبوه بالملك الظاهر ايضاً فكان حظه من الملك كحظ سلفه لانه خلع بعد شهرين من توليته وبايعوا الامير قايت باي الملقب بالمحمودي وبالظاهري ولقبوه بالملك الاشرف

سلطنة الملك الاشرف قايت باي

من سنة ٨٧٢ — ٩٠١ هـ | من ١٤٦٧ — ١٤٩٥ م

فتوالى على مصر في سنة ٨٧٢ هـ اربعة سلاطين . اما السلطان الاخير فمكث على سرير السلطنة مدة طويلة رغم ما كانت عليه البلاد من الاضطراب . وكان قايت باي مملوكاً محرراً من مماليك جقمق وكان لعلو همته وحسن سياسته قابضاً على ازمة الاحزاب فكانت البلاد آمنة مطمئنة الا انها اضطربت بخبر انتصار محمد الثاني العثماني على اوزون حسن ملك الفرس . وكان بين الفرس والمصريين تحالف فتنبأ قايت باي ان ذلك التحالف سيكون سبباً لعزم العثمانيين على فتح سوريا . فارسل حامية كبيرة الى الحدود فاجل العثمانيون عزمهم لاشتغالهم بحروبهم في اوربا . اما قايت باي فخاف سوء العقبى ولم ير سبيلاً لرفع التبعة عنه الا بالتنازل عن الملك فادرك الامراء شدة احتياجهم اليه في مثل تلك الاحوال فاجبروه على قبول السلطنة . ولم يكد يعلوها حتى جاءته الانباء بانتصار محمد الثاني على الافرنج وعزمه على فتح سوريا وذلك سنة ٨٨٥هـ لكنه لم يخرج من برالاناطول حتى داهمته المنية في مدينة طيقور جابر . وتخاصم ابناه بايزيد وجم (اوزيزم) على الملك فشغلا عن الفتح فاغتنم قايت باي تلك الفرصة وانسحب بجيشه الى مصر

وما زال الخصام يتعاظم بين ابني محمد حتى كانت بينهما واقعة يكي شهر فانهزم جم حتى اتى مصر فالتجأ الى قايت باي فاكرم وفادته ثم علم ان ذلك الاكرام يهيج حاسة الانتقام في بيازيد . فقال في نفسه « اذا كان لا بدَّ لنا من محاربة العثمانيين فلنكن مهاجمين اولى من ان نكون مدافعين » فجعل يناوىء الاتراك ويقطع السبل على قوافلهم الذاهبة الحجاج الى الحرمين حتى قبض على وفد هندي مرسل في مهمة سياسية الى

بيازيد واستولى على ادنة وترسوس وكانتا في حوزة العثمانيين . أما بيازيد فكان واقفاً بالمرصاد ينتحل حجة لمهاجمة المصريين فجاءت تلك الاجراءات طيبة على عجينة الا انه راى ان يأتيهم من باب الحزم فانفذ اليهم رسلاً في طلب التعويض عما سببوه من الخسائر والاضرار . فارجع قايت باي الرسل وبعث يهاجم الجيوش العثمانية فقاومته اشد مقاومة وارجعت جيشه الى ملاطية فانجدهم قايت باي بخمسة آلاف رجل فعادوا الى العثمانيين وهم في مضايق الجبال فهجموا عليهم بغتة وذبحوا منهم عدداً كبيراً وفر الباقون وتحصنوا في ترسوس وادنة . فاتصل ذلك بقايت باي فارسل الامير الازبكي في نجدة لاخراج العثمانيين من تينك المدينتين فسار وحارب وفاز فشق ذلك على بيازيد وآلى على نفسه الا ان يسترجع ترسوس وادنة فانفذ جيشاً كبيراً تحت قيادة صهره احمد وهو ابن امير البوسنه ـ ولد في البانيا ثم اسلم واخذ يرتقي في اعمال الدولة حسب استحقاقه حتى تمكن مع صغر سنه وكونه غير مولود في الاسلام من قيادة هذه الحملة لمحاربة الجيوش المصرية . فلما وصل الى معسكر الازبكي اقتتل الجيشان فهجم احمد هجمة قوية لكن رجاله لم يستطيعوا الثبات فمازت الجيوش المصرية واسر احمد بعد ان جاهد جهاداً حسناً فعاد الازبكي باسيره الى مصر ظافراً فبنى جامعه المشهور المعروف بجامع الازبكية وكانت في ايامه بركة يتجمع اليها الماء في ايام الفيضان وستأتي كيفية تحويلها الى ما هي عليه الآن

فلما بلغ بيازيد ما كان من انكسار جيوشه استشاط غضباً وجند جنداً كبيراً جعله تحت قيادة علي باشا لمحاربة المصريين فسارت تلك الحملة من الاستانة فعبرت البوسفور في ٣ ربيع آخر سنة ٨٩٣ هـ ونزلت في قرمان . فاتصل خبرها بقايت باي فاوجس خيفة فعمد الى المصالحة فانفذ الى بيازيد صهره احمد واسطة لعقد شروط المصالحة . فرفض بيازيد ذلك رفضاً كلياً وسار حتى التقى بالمصريين في ادنه وترسوس فحاربهم وفاز عليهم واسترجع المدينتين الواحدة بعد الاخرى بعد ان اهرق دماء غزيرة . ثم سار الى ارمينيا واخضعها وحاصر عاصمتها فافتتحها بعد ان دافعت دفاعاً قوياً واسر حاكمها وارسله بعد ذلك الى مصر بدلاً من الامير احمد . فبعث قايت باي الازبكي ثانية لدفع العثمانيين فواقعهم في ترسوس فغلبوه اولاً ثم عاد اليهم وفاز بهم واعادهم القهقرى وعاد الى القاهرة ظافراً فخلع عليه قايت باي . ثم راى ان يغتنم كونه ظافراً لمصالحة العثمانيين فبعث الى بيازيد في ذلك فاجابه مهدداً وطلب اليه ان يتنازل له عن ترسوس وادنه وانه اذا لم يفعل يدعو الناس الى الجهاد فيجتمع تحت لوائه

كل من يدعو لآل عثمان فيجيء مصر ويفتحها فتحاً مبيناً . فخاف قايت باي وتنازل عن المدينتين اكتفاء باهون الشرّين وكان ذلك سنة ٨٩٦ هـ

وعاش قايت باي بعد مصالحة الدولة العثمانية خمس سنوات وتوفي في ٢٢ ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ بعد ان حكم ٢٩ سنة واربعة اشهر وعشرين يوما فبكاه الناس . ومن آثاره جامعه المعروف باسمه الى هذا العهد في القرافة خارج القاهرة . وفيه مقام قايت باي وهو مثال لما بقي من مدافن المماليك في تلك الجهة . وبنى قايت باي جاماً في جزيرة الروضة لا يزال يشاهد هناك الى هذا اليوم

سلطنة محمد بن قايت باي ثم قنسوخمسمئة ثم قنسو ابي سعيد ثم قنسوجانبلاط ثم الملك العادل طومان باي

من سنة ٩٠١ — ٩٠٦ هـ او من ١٤٩٥ — ١٥٠١م

وتولى بعد قايت باي ابنه ابو السعادة محمد ولقب بالملك الناصر ولم يجلس على سلطنة مصر رجل اقل لياقة لها منه فأنه كان احمق جبيصاً وحشياً لادين له الا الانغماس في الملذات الحيوانية ولو كلفه ذلك ارتكاب شر الآثام . وقد زادت قحته حتى سلخ جلد احد مماليكه حياً فثار عليه المماليك وخلعوه بعد ان حكم ستة اشهر . وبايعوا الامير قنسو الملقب بخمسمئة لانه ابتيع بالاصل بخمسمائة دينار ولقبوه بالملك الاشرف . وبعد خمسة اشهر تنازل عن الملك عجزاً فاعادوا الملك الناصر محمد ثانية لكنه لم يبق الا ١٨ شهراً ونصف فذبحه المماليك في ١٦ ربيع اول سنة ٩٠٤هـ وبايعوا عم قنسو واسمه قنسو الثاني الملقب بأبي سعيد ولقبوه بالملك الظاهر ولم يقبل هذا المنصب الخطر الا بالرغم عنه . وبعد عشرين شهراً وبضعة ايام عزلوه وبايعوا قنسو الثالث جانبلاط ولقبوه بالملك الاشرف ولم يحكم الا سبعة اشهر ثم خلع في ١٨ جمادى الآخر سنة ٩٠٦هـ فاقام امراء دمشق الامير سيف الدين طومان باي وكان من مماليك قايت باي ولقبوه بالملك العادل . فوافقهم امراء القاهرة على ذلك . وبعد ثلاثة اشهر اضمر له المماليك مكيدة يقتلونه بها فعلم هو بذلك ففر طلباً للنجاة فأوى الى مكان ظنه ملجأ حصيناً مكث فيه اربعين يوماً ثم اكتشف عليه المماليك وقتلوه في ذي القعدة سنة ٩٠٦هـ ثم اجتمع المماليك

والاعيان وارباب الدولة وتداولوا فيمن يجب ان يختاروا ليحكم فيهم من اهل اللياقة فاقروا على الامير قنسو الرابع الملقب بالغوري وكان هو ايضاً من مماليك قايت باي وكان رجلاً تقياً مخلصاً محترماً عفيفاً غير عالم بما كان يتخاصم عليه الامراء وما كانوا يدسونه من الدسائس . فلما بلغه امر مبايعته انذهل ورفض قائلاً للذين انتخبوه « لا اخالف لكم امراً انما اراني غير لائق بهذا المنصب لاني لم اعتد معاناة الاحكام والامر والنهي » فاجابوه ان صدق نيته واخلاصه وثقة الناس فيه كافية لاستحقاقه هذا المنصب . فلم ير بدًّا من القبول لكنه قال لهم « اكون في غاية السرور اذا جئتموني يوماً تنبئونني بالاقالة من هذا المنصب فارجع الى ما اعتدته من معيشة السكينة » فولوه في غرة شوال من تلك السنة ولقبوه بالملك الاشرف ايضاً

سلطنة قنسو الغوري

من سنة ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ او من ١٥٠١ — ١٥١٦ م

فاستلم الغوري مقاليد الاحكام واخلص في الحكم فاطمأنت البلاد وسكن حالها فاخذ في اصلاح شأنها فابتنى في القاهرة جامعاً ومدرسة ينسبان اليه وهما مدرسة الغورية وجامع الغورية في اول شارع الغورية في السكة الجديدة كل منهما الى جانب من الطريق . فالى الشرق البناية التي كانت فيها المدرسة ويليها الى الجنوب مدفن فيه مقام بعض اهله . والى الغرب الجامع ويظهر للناظر عندما يشرف عليه انه هائل وهو مبني على مثال جامع قايت باي وعلى القبلة كتابة كوفية . وقد رمم بمساعي جمعية حفظ الاثار والى الشمال سبيل جميل . ثم كانت الحوادث السياسية فتوقف الغوري عن اتمام ما كان يقصده من البناء والتحسين فان البرتغاليين لما استولوا على بعض بلاد الهند اثقلوا على العلاقات التجارية بينها وبين مصر فجهز قنسو الغوري الى محاربتهم حملة عظيمة ذهبت غنيمة باردة لجيوش الافرنج في البحر الاحمر

وفي سنة ٩١٨ هـ جاء كركود اخو السلطان سليم بن بيازيد « سليم الاول » الى مصر ملتجئاً اليها بعد ان تخاصم مع اخيه على الملك كما حصل بجم وبيازيد المتقدم ذكرهما فرحب به قنسو الغوري ترحاباً عظيما وجهزه بعشرين بارجة بحرية لافتتاح

القسطنطينية فذهبت هذه العمارة غنيمة لمراكب اورشليم في البحر المتوسط ولم تكن النتيجة الا اثارة غضب السلطان سليم على مصر فجهز اليها وابتدأ بافتتاح الحدود السورية واسل الى مصر رسائل التهديد . فاتحد الغوري مع ملك الفرس اسماعيل شاه على قهر العثمانيين وكان الفرس في حرب معهم الا ان الجيوش العثمانية لم تبال بكثرة العدد فشتتت الجيشين واي تشتيت . فعمد قنسو الغوري الى مخابرة العثمانيين بامر الصلح على اي وجه كان وبعث الى السلطان سليم بذلك فسارت الرسل حتى اتوا السلطان سليم فخروا ساجدين وخاطبوه بامر الصلح فقال لهم وقد استشاط غيظاً « لقد فات الاوان انهضوا وارجعوا الى سلطانكم وقولوا له ان الرجل لا تعثر بحجر واحد مرتين . وها انا ذاهب الى القاهرة فليستعد للدفاع ان كان له اهلا » فعادوا واخبروا بما كان فجمع اليه رجاله وسار لملاقاة الجيوش العثمانية فالتقى بها في مرج دابق قرب حلب فانتشبت الحرب هناك واظهر الغوري بسالة واقداماً عظيمين حتى اوشكت رجاله ان تستظهر فمنعتها مدافع العثمانيين من ذلك ولم يكن سلاح المصريين الا الرماح والحراب والسيوف فتشوش نظامهم ووقع الرعب في قلوبهم وانحاز قائد جناحيهم الى العثمانيين وكان الغوري قائداً لقلب الجيش فاضطر الى الفرار فحول شكيمة جواده فسقط عنه لشدة الازدحام وذهب قتيلاً تحت ارجل الخيل في ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ بعد ان حكم ١٥ سنة وتسعة اشهر و ٢٥ يوماً

سلطنة الملك الاشرف طومان باي

من سنة ٩٢٢ — ٩٢٣ هـ او من ١٥١٦ — ١٥١٧ م

وكان السلطان قنسو الغوري قبل خروجه من القاهرة هذه المرة قد استخلف عليها ابن اخيه طومان باي (الثاني) فلما اتصل خبر تلك الموقعة بالامراء بايعوا طومان باي ولقبوه ايضاً بالملك الاشرف وكان حازماً باسلاً . فلما وصلت بقية الجيوش المنهزمة الى القاهرة امر باعداد حملة اخرى لمحاربة العثمانيين . وكان العثمانيون في سوريا قد توقفوا للاستراحة فظن طومان باي ان الرمال المتراكمة بين سوريا ومصر تحول بين العثمانيين وما يريدون . الا ان الامر لم يكن كما ظن لانه لم يكد يتم اعداداته حتى اتاه كتاب السلطان سليم الى القاهرة ونصه :

« من السلطان سليم خان بن السلطان بيازيد خان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان الخ . الى طومان باي الشركسي

« الحمد لله . اما بعد فقد تمت ارادتنا الشاهانية وباد اسماعيل شاه الهرطوقي . اما قنسو الكافر الذي حملته القحة على مناواة الحجاج فقد نال جزاءه منا ولم يبق لدينا الا ان نتخلص منك فانك جارٌ معاد والله سبحانه وتعالى يساعدنا على معاقبتك فاذا اردت اكتساب رحمتنا الملوكانية اخطب لنا واضرب النقود باسمنا وتعالَ الى اعتابنا واقسم على طاعتنا والاخلاص لنا والا . . . . . »

فلما قرا طومان باي الكتاب وما في ذيله من التهديد المستتر استشاط غيظاً واصر على المقاتلة وكان عالماً بعجزه لكنه فضل الموت في ساحة الحرب على التسليم . فزاد في حصون دمياط وغيرها من الحدود السورية وجمع كل ما امكنه جمعه من الرجال وسار لملاقاة العثمانيين حتى اتى الصالحية فعسكر هناك . اما السلطان سليم فسار من مرج دابق وافتتح غزة والعريش والقطيعة . ثم علم بفقر الجيوش المصرية في الصالحية وما هم فيه من العزم على المدافعة لشدة اليأس فعرج بجيشه تاركاً الصالحية عن يمينه وسار حتى اتى الخانكاه على بضع ساعات من القاهرة

فلما بلغ طومان باي تقدم العثمانيين الى هذا القدر عاد بجيشه لمهاجمتهم من الوراء فالتقى الجيشان في سهل قرب بركة الحج يوم الجمعة في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ واقتتلا طويلاً والمصريون يحاربون ببسالة شديدة لكنهم لم يكونوا يعرفون البارود ولا المدافع كما قدمنا فكانت الغلبة للعثمانيين ففر المصريون الى القاهرة وعسكر العثمانيون في الروضة . فجمع اليه طومان باي عدداً كبيراً من العربان بعد ان ارضاهم بالمال وهجم على معسكر السلطان سليم هجمة اليأس فلم ينل هذه المرة غير ما نال في المرات الماضية فعاد الى القاهرة على نية الحصار فزاد في حصونها واستحكاماتها وحصن القلعة تحصيناً عظيماً واقام في كل شارع وفي كل بيت طابية للدفاع وحمل السلاح كل من يستطيع حمله للمدافعة عن الوطن . ولكن رغم كل هذه الاعدادات وما عما اظهره طومان باي من البسالة والاقدام وما سعى اليه امراؤه لم تنج القاهرة من يد العثمانيين فانهم دخلوها عنوة وامعنوا فيها قتلاً ونهباً وحرقاً واستلموا القلعة

اما طومان باي فتمكن من الفرار على معدية قطع بها الى الجيزة ثم سار منها قاصداً الاسكندرية فقبض عليه بعض العربان الرحل وباعوه للعثمانيين . فاستحضره السلطان سليم مغلولاً ونظر اليه فاذا هو في حالة الكدر وقد علا وجهه القنوط لما حل

ببلاده من الذل والدمار فتحركت عواطف السلطان سليم فامر بان تحل قيوده وان يؤذن له بالحضور في مؤتمرات كان يعقدها السلطان سليم لاجل المداولة في امر البلاد فكان يسأله مسائل كثيرة تتعلق بمحصولات البلاد وخراجها وادارتها وبقي الحال كذلك نحو عشرة ايام وفي اليوم العاشر راى السلطان سليم انه لم يعد في احتياج الى مشورة طومان باي فامر بشنقه في ١٩ ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ فعلقوه تحت رواق باب زويله بكلاب من حديد كان باقياً هناك الى عهد قريب

وبقتل طومان باي انتهت دولة المماليك الشراكسة او البرجية بعد ان تسلطوا نحو ١٣٩ سنة واصبحت مصر احدى الايالات العثمانية الكبيرة . وبقيت جثة طومان باي ثمانية ايام معلقة ليراها الناس

تم الجزء الاول

من تاريخ مصر الحديث

فهرس الجزء الاول

من تاريخ مصر الحديث

	صفحة
المقدمة	٣
اقسام تاريخ مصر العام	٩
مصادر تاريخ مصر القديم	١١
جغرافية مصر القديمة	١٥
ديانة المصريين القدماء	١٨
فذلكة تاريخ مصر القديم	
الدولة الملكية الاولى	٢٣
» » الوسطى	٢٨
» » الاخيرة	٣٥
» » الفارسية الاولى	٥٣
» اليونانية — والبطالسة	٥٧
» الرومانية	٦٥
الدور المسيحي	٦٧
تاريخ مصر الحديث	
مصادر تاريخ مصر الحديث	٦٩
جغرافية مصر الحديثة	٧١
دولة الخلفاء الراشدين	
خلافة عمر بن الخطاب	٧٥
» عثمان بن عفان	١٠٠
» علي بن ابي طالب	١٠٥
الدولة الاموية	
خلافة معاوية بن ابي سفيان	١١٣
خلافة يزيد بن معاوية	١١٤
» مروان بن الحكم	١١٥
» عبد الملك بن مروان	١٢٠
» الوليد بن عبد الملك	١١٩
» سليمان بن عبد الملك	١٢٠
» عمر بن عبد العزيز	١٢١
» يزيد بن عبد الملك	١٢٢
» هشام بن عبد الملك	١٢٣
» الوليد بن يزيد	١٢٤
» مروان بن محمد	١٢٥
الدولة العباسية للمرة الاولى	
خلافة ابي العباس السفاح	١٢٧
» المنصور بن محمد	١٢٨
» محمد المهدي	١٣٠
» هارون الرشيد	١٣٢
» محمد الامين	١٣٥
» عبد الله المأمون	١٣٧
» محمد المعتصم	١٤١
مبدأ الدولة الطولونية	١٤٢
خلافة الواثق	١٤٤
» المنتصر بن المتوكل	١٤٦
» المستعين بن محمد	١٤٧
» المعتز بن المتوكل	١٤٨

صفحة

خلافة المهتدي والمعتمد ١٥١

الدولة الطولونية

احمد بن طون ١٥٤
خمارويه بن احمد ١٧٢
جيش بن خمارويه ١٧٥
هارون » » ١٧٧
شيبان بن احمد ١٧٩

الدولة العباسية للمرة الثانية

خلافة المكتفي والمقتدر ١٧١
« القاهر ١٨٢
مبدأ الدولة الاخشيدية ١٨٢
خلافة الراضي ١٨٣

الدولة الاخشيدية

محمد الاخشيد ١٨٥
انوجور بن الاخشيد ١٨٩
ابو الحسن بن الاخشيد ١٩٠
كافور الاخشيدي وابو الفوارس ١٩١

الدولة الفاطمية

خلافة المعز لدين الله ١٩٢
« العزيز بالله ٢٠٣
« الحاكم بامر الله ٢٠٧
« الظاهر بن الحاكم ٢١١
« المستنصر بن الظاهر ٢١٢
« المستعلي بن المستنصر ٢٣١

صفحة

خلافة الآمر بن المستعلي ٢٣٥
« الحافظ بن محمد ٢٣٨
« الظافر بن الحافظ ٢٤٠
« الفائز بن الظافر ٢٤١
« العاضد بن يوسف ٢٤٢

دولة الايوبية

سلطنة صلاح الدين الايوبي ٢١٦
» العزيز بن يوسف ٢٨٩
» المنصور بن العزيز ٢٠١
» العادل بن ايوب ٢٩٢
» الكامل بن العادل ٢٩٦
» العادل بن الكامل ٣٠٣
» الصالح بن الكامل ٣٠٤
» المعظم بن الصالح ٣٠٧

دولة المماليك الاولى

منشأ المماليك ٣٠٨
سلطنة شجرة الدر ٣٠٩
» ايبك والاشرف ٣١١
» نور الدين بن ايبك ٣١٥
» المظفر سيف الدين ٣١٦
» الظاهر بيبرس ٣١٨
» بركة خان بن بيبرس ٣٢٦
» سلامش بن بيبرس ٣٢٧
» المنصور قلاون ٣٢٧
» خليل بن قلاون والقاهر ٣٣٠
» الملك الناصر بن قلاون اولاً ٣٣١

	صفحة
سلطنة الملك العادل كتبغا	٣٣١
» المنصور لاجين	٣٣٣
» الناصر بن قلاون ثانية	٣٣٤
» بيبرس الجاشنكير	٣٣٥
» الملك الناصر ثالثة	٣٣٦
» اولاد الناصر	٣٤٠
» محمد بن حاجي وشعبان	٣٤٢
» علي بن شعبان وحاجي اخيه	٣٤٣

دولة المماليك الثانية

منشأها	٣٤٤
سلطنة الملك الظاهر برقوق	٣٤٥
» فرج بن برقوق اولاً	٣٤٨
» عبد العزيز بن برقوق	٣٤٩

	صفحة
سلطنة فرج بن برقوق ثانية	٣٥٠
» الامام المستعين بالله	٣٥٠
» الشيخ المحمودي	٣٥١
» احمد بن المحمودي وغيره	٣٥٢
» الملك الاشرف برسباي	٣٥٢
» يوسف بن برسباي	٣٥٤
» الظاهر جقمق وابنه عثمان	٣٥٤
» الاشرف اينال وابنه احمد	٣٥٥
» الظاهر خوش قدم	٣٥٦
» بلباي وتمربغا	٣٥٦
» الاشرف قايت باي	٣٥٧
» محمد بن قايت باي وغيره	٣٥٩
» قنسو الغوري	٣٦٠
» الاشرف طومان	٣٦١

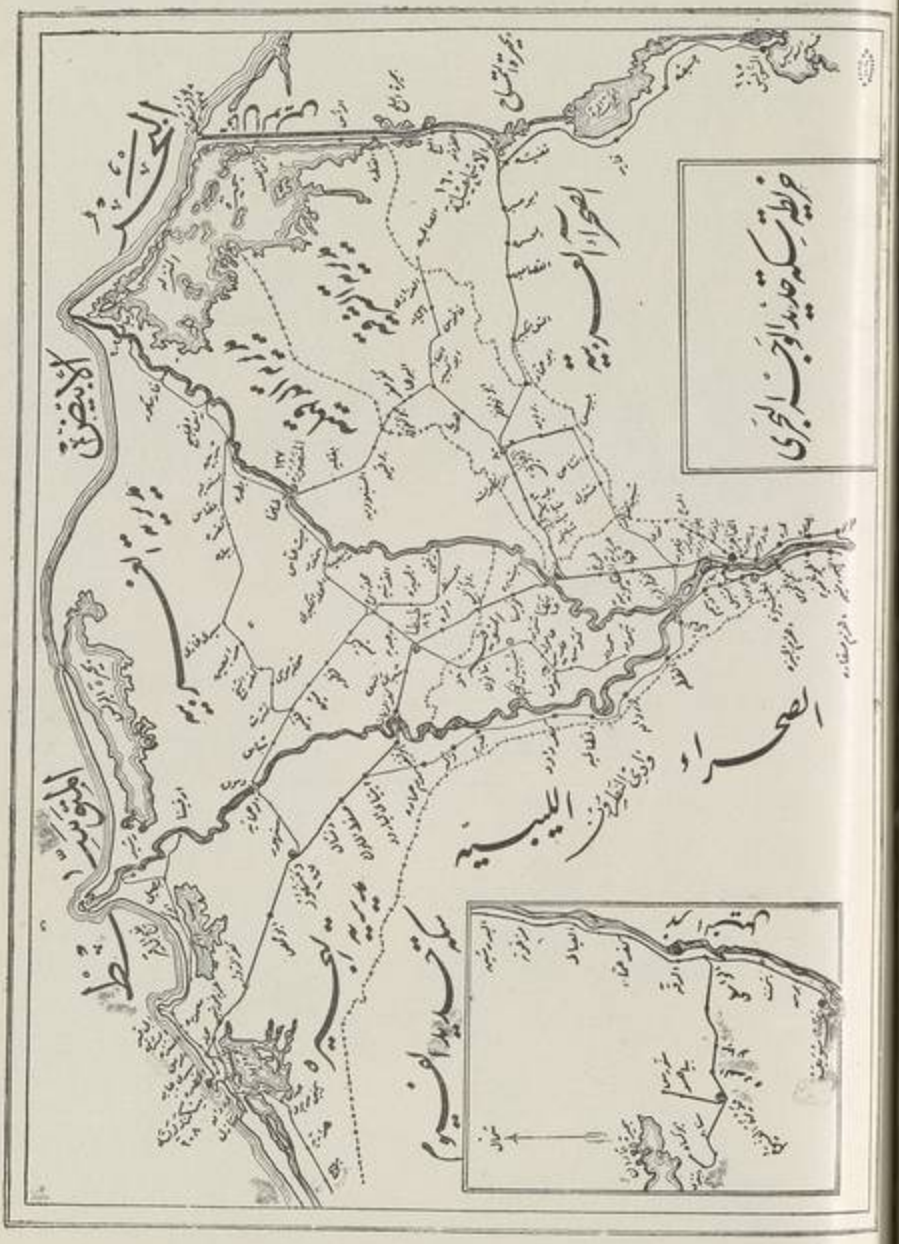
خريطة مديرية الوجه البحري
البحر الأبيض المتوسط
الصحراء الليبية

Gautier, Théophile

Ives, George Burnham tr.

Introd. by Frédéric-César de Sumichrast

Little French masterpieces

288

كتاب

تاريخ مصر الحديث

من الفتح الاسلامي الى الآن

مع

فذلكة في تاريخ مصر القديم

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الثاني

وهو يشتمل على تاريخ مصر من الفتح العثماني الى الآن
اي في عهد الدولة العثمانية وحملة بونابرت
والدولة المحمدية العلوية او الاسرة الخديوية ولا يزال

الطبعة الثانية

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩١١

بيان

انتهى الجزء الاول من هذا الكتاب في طبعته الاولى بانقضاء الدولة الايوبية فبدأنا الجزء الثاني بدولة المماليك الأولى . ونظراً لتوسعنا في مواضيع الكتاب واضافة ما جدَّ من الحوادث المصرية بعد الطبعة الاولى جعلنا الجزء الاول من هذه الطبعة ينتهي في آخر دولة المماليك الثانية . فاصبح الجزء الثاني هذا يبتديء بدخول مصر في سيادة الدولة العثمانية وينتهي بالعام الماضي . ولذلك كان اكثر توسعنا في تاريخ الدولة المحمدية العلوية من زمن مؤسسها محمد علي باشا الى الان . ويدخل في ذلك بيان ما حدث في هذا العصر من النهضات السياسية والعلمية والمالية والصحافية وما تقلب على مصر من الاحوال السياسية اشهرها الحوادث العرابية والحوادث السودانية . واقتضى ذلك ان نخص هذا الجزء بدرس خاص فطالعنا اهم المؤلفات التي صدرت عن احوال مصر وتاريخها بعد صدور الطبعة الاولى او ما لم نكن اطلعنا عليه من قبل وهاك اهمها :

مصر الحديثة	في مجلدين	تأليف اللورد كرومر	في الانكليزية
انكلترا في مصر	« «	« « ملنر	« «
الاسماعيلية . رحلة الى خط الاستواء	« «	للسير صموئيل باكر	« «
مصر والخديوي		لدايسي	« «
تاريخ السودان	في ٣ مجلدات	لنعوم بك شقير	« العربية
تقارير اللورد كرومر		للورد كرومر	« «
مصر في حكم محمد علي	في مجلدين	لهامون	في الفرنساوية

منشأ الدولة العثمانية

قبل التقدم الى تاريخ مصر في سلطة الدولة العثمانية يحسن بنا ان نأتي على فذلكة في اصلها ومنشأها

يتصل نسب العثمانيين بالتتر الذين كانوا يقطنون ما يجاور جبال التاي عند حدود الصين الشمالية ويغلب على الظن انهم الاسكثيون المعروفون قديماً بالشجاعة وشدة البأس . ويقال ان جماعة منهم ينتسبون الى جد يقال له « ترك » نزحوا غرباً في الجيل الاول للميلاد واقاموا فيما هو الآن بلاد تركستان ويحدها شمالاً سيبريا وجنوباً بخارا وشرقاً حدود الصين وغرباً بحيرة اورال وهي مشهورة بجودة الاقليم وخصب المرعى وجمال السكان وقوة ابدانهم

وما استتب لهم المقام في تركستان حتى اخذوا يمدون سلطتهم وهم لا يزالون في حالة الجاهلية . ولم يعتنقوا الديانة الاسلامية الا في اواسط القرن الرابع للهجرة واشهرهم طائفتان كبيرتان تعرفان بالاغوزية والسلجوقية

وكان الاتراك السلجوقيون يقيمون في ما يجاور بخارا ثم اشتدوا وانشأوا مملكة مستقلة شاسعة الاطراف يحدها بحر قزوين من جهة وبحر الروم من جهة اخرى عواصمها فرسبوليس (اصطخر) وقرمان ودمشق وحلب وروميةفي آسيا الصغرى . ثم افتتحوا جانباً من بلاد فارس. ثم هددوا امبراطور الروم وتغلبوا عليه حتى اضطر الى تقبيل الارض بين يدي الب ارسلان ملك السلجوقيين

وفي القرن الثالث عشر للميلاد كانت سلطة السلجوقيين منتشرة في آسيا الصغرى وسلطانها علاء الدين ومقره مدينة قونية

وظهر في اثناء ذلك جنكزخان القائد المغولي وغزا قبائل الاتراك المقيمين في تركستان فاذعنوا له الا قبيلة اوغوزية من قبائل خراسان هاجرت تحت قيادة امير يدعى سليمان تطلب مقاماً لها ومرعى لمواشيها . وما زالوا يسيرون غرباً حتى حدث وهم يعبرون الفرات ان اميرهم سقط بجواده في النهر ومات فدفنوه هناك ـ وهو جد ساكن الجنان السلطان عثمان الغازي فاصبحوا بعده جماعات متفرقة فاتخذ ابنه ارطغرل قيادة جماعة منهم وسار بهم يخترق آسيا الصغرى . وهو في بعض السهول شاهد عن بعد غباراً متصاعداً وحرباً قائمة فتقدم على نية الانتصار لاضعف الفئتين ففعل وهو لا يدري

لمن ينتصر فقيض الله النصر له وتقهقرت الفئة الاخرى ثم علم انه انتصر للسلجوقيين وقهر المغوليين فشكر الله على ذلك

فنال بذلك منزلة رفيعة لدى علاء الدين فاقطعه بقعة كبيرة يقيم فيها برجاله على حدود فريجيا وبيثينيا وكانت ارضاً جيدة ذات مرعى خصب . وفي تلك البقعة نشأ ابنه عثمان وشب وترعرع . وما زال ارطغرل تحت رعاية علاء الدين حتى توفي هو وخلفه عثمان . ثم توفي علاء الدين بغير ولد فاقتسم امراؤه مملكته فاستقل عثمان بما لديه سنة ١٣٠٠ م وهو اول امراء دولة آل عثمان

السلطان عثمان الغازي

ومن التقاليد المأثورة بين العثمانيين ان عثمان هذا عشق وهو شاب فتاة تدعى « مال خاتون » وكان والدها شيخاً تقياً ورعاً طاعناً في السن اسمه ادبالي فلما شعر بمحبة عثمان لابنته خاف العاقبة وصار يحاول ابعادهما الواحد من الآخر وبالغ في حجاب ابنته لانه لم يكن يطمع بمصاهرة ابن حاكمه

فجاء عثمان ذات ليلة ليبيت في منزل ادبالي وقضى معظم الليل هاجساً بحبيبته حتى غلب عليه النعاس فرأى في الحلم كأن القمر خارج من صدر ادبالي ثم رآه يتسع بسرعة حتى غطى كل ما كان واقعاً تحت نظره من الارض . ثم اخذ في التقلص حتى عاد الى حجمه الاول وارتد الى صدر ادبالي كما كان . ثم رأى شجرة عظيمة خارجة من صلب ادبالي واخذ ظلها يمتد حتى غطى البر والبحر وترا أى له ان انهر دجلة والفرات والدانوب والنيل خارجة من اصل تلك الشجرة . وجبال قوقاس واطلس وطورس وهيمس

ينظل باغصانها ورأى اوراقها تستطيل وتستدق حتى صارت كالسيوف ورؤوسها مصوبة الى اشهر عواصم العالم وخصوصاً القسطنطينية الواقعة عند ملتقى القارتين ومجتمع البحرين . وخيل له انها جوهرة بين زمردتين وياقوتتين مصطنعة في فص خاتم وانه همَّ ان يجعل ذلك الخاتم في اصبعه فاستيقظ مبغوتاً . فاخبر ادبالي في الصباح بما كان فاستبشر بما سيكون من مستقبل ذلك الشاب وانه سيملك القسطنطينية

وما انفك خلفاءُ عثمان كلما اتسع سلطانهم يزدادون ثقة بمآل ذلك الحلم وقد حاول بعضهم فتح القسطنطينية فرجع ولم ينل وطراً حتى ظهر محمد الفاتح السلطان السابع من سلاطين آل عثمان وبينه وبين صاحب الحلم نحو ١٦٠ سنة ففتحها بعد ان يئس المسلمون من فتحها

السلطان محمد الفاتح
يوم دخوله القسطنطينية بعد فتحها سنة ١٤٥٣

وحارب العثمانيون اعظم ملوك اوربا وطاردوهم الى بلاد المجر وحاصروا فينّا عاصمة النمسا واخذوا الجزية من الارشيدوق فرديناند واكتسحوا البحر الابيض الى شواطىء اسبانيا - ووجهوا مطامعهم من الجهة الاخرى نحو الشرق ففتحوا العراق والشام ومصر على يد سليم الفاتح كما تقدم وبسلطنته يبدأ هذا الجزء من تاريخ مصر الحديث

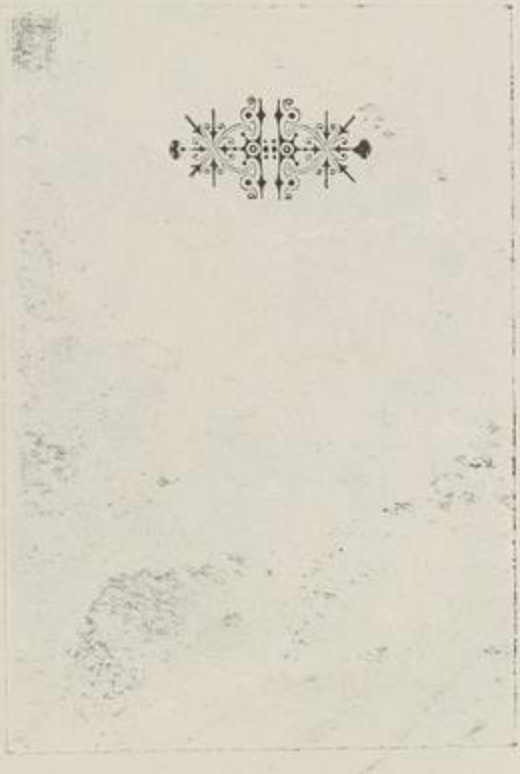

الدولة العثمانية

من سنة ٩٢٣ — ١٢١٣ هـ او من ١٥١٧ — ١٧٩٨ م

سلطنة سليم بن بيازيد

من سنة ٩٢٣ — ٩٢٦ هـ او من ١٥١٧ — ١٥٢٠ م

امر السلطان سليم بدفن طومان باي قرب قبر قنسو الغوري وبعد دفنه بثلاثة ايام دخل السلطان سليم عاصمة الديار المصرية ظافراً في غاية ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ. وبعد يسير نزل الى الاسكندرية في فرقة من جيوشه لوضع الحماية عليها . ثم عاد الى القاهرة ومكث فيها الى ٢٠ شعبان من تلك السنة فبرحها قاصداً الروملي . ويقال انه نقل معه الف جمل محملة ذهباً وفضة فضلاً عن اسلاب اخرى وهدايا قدمت له . وقبل خروجه من مصر جعل فيها حكومة منظمة فاصبحت مصر ايالة عثمانية

وكان فيها من الخلفاء العباسيين اذ ذاك محمد المتوكل على الله (الثالث) الخليفة الثامن عشر من الدولة العباسية بمصر . وكيفية وصول الخلافة اليه ان الامام المستنجد بالله الخليفة الخامس عشر الذي تولى الخلافة في ايام ينال سنة ٨٥٩ هـ كما تقدم توفي في ٢٩ محرم سنة ٨٨٤ هـ بعد ان تولاها ٢٥ سنة وولي مكانه الخليفة عبد العزيز بن يعقوب حفيد الخليفة العاشر المتوكل على الله ولقب بلقب جده . ثم توفي يوم الجمعة في ٢ صفر سنة ٩٠٣ هـ فخلفه الخليفة ابو صابر يعقوب الملقب بالمستمسك بالله ثم خلف هذا نحو الفتح العثماني الخليفة محمد المتوكل على الله المتقدم ذكره . فلما فتح العثمانيون مصر راى السلطان سليم الفاتح ان نصره لا يؤيد الا اذ قبض على الازمة الدينية . فاستخرجها من ايدي الخلفاء العباسيين فصارت الخلافة الاسلامية الى العثمانيين واول خلفائهم السلطان سليم . واما الخليفة العباسي فانه نقل الى الاستانة وخصص له راتب معين لنفقاته وقبل وفاة السلطان سليم بيسير عاد المتوكل الى مصر وعاش فيها منفرداً الى ان توفاه الله سنة ٩٤٥ هـ وهو آخر الخلفاء العباسيين

الخلافة والعرب والترك

ويجدر بنا ان نقول كلمة في الخلافة ونسبتها الى العرب او غيرهم . افضت امور المسلمين الى ملوك وسلاطين من الفرس والاتراك والاكراد والبربر والجركس وغيرهم ومع ما بلغوا من سعة الملك وعز السلطان ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولهم وتجتمع الرعية على طاعتهم لم يخطر لاحد منهم ان يطلب الخلافة لنفسه قبل انتقال الاسلام الى طوره الثاني بعد تضعضه بفتوح المغول . ولا ادعاها احد من العرب غير قريش . واول سلطان غير عربي بويع بالخلافة السلطان سليم العثماني ولا تزال الخلافة في دولته الى الان

على ان الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن من الامراء المسلمين او القواد غير العرب كانوا اذا طمعوا بالسيادة الدينية او الخلافة انتحلوا لانفسهم نسباً في قريش كما فعل ابو مسلم الخرساني لما رأى من نفسه القوة على انشاء الدولة وربما طمع بالخلافة فانتحل لنفسه نسباً في بني العباس فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن العباس

واما الملوك او السلاطين الاعاجم فلما ضخمت دولهم في اواخر العصر العباسي وراوا انحطاط الخلافة وتقهقرها وتمنوا الاستغناء عنها ولكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك الا ان يستبدلوها بخلافة اخرى . على ان بعضهم طمع بالنفوذ الديني من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة . واول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ هـ فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسي في ايامه ان يتزوج بابنته وغرضه من ذلك ان تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب ولم يوفق الى مراده

ولما افضت السلطة الى السلاجقة تقدموا في هذا الطريق خطوة اخرى فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة ايضاً ولكن على ان يتزوج السلطان طغرلبك السلجوقي ابنة الخليفة وهو يومئذ القائم بامر الله فخطبها اليه ووسط قاضي الري في ذلك فانزعج الخليفة لهذا الطلب ايما انزعاج اذ لم يسبق ان يتزوج بنات الخلفاء الا اكفاؤهم بالنسب وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده فاخذ في استعطافه ليعفيه من الاجابة على طلبه فابى السلطان الا ان يجاب . وحدثت امور يطول شرحها خيفة منها على الدولة فاضطر الخليفة الى القبول — فعقد له عليها سنة ٤٥٤ هـ وهذا لم يجر مثله قبله لان آل بويه لم يطمعوا بذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب اذ يكفي من الخليفة تنازلاً ان يتزوج بنات الملوك لا ان يزوجهم بناته ولم

بل هذا الشرف احد قبل طغربك . ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه في السنة التالية قبل الارض بين يديها وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له . وظل اياماً يحضر على هذه الصورة وينصرف . على انه لم يوفق لاتمام ما اراده لانه توفي في تلك السنة . اما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة اسلامية قبل العثمانيين

نظام الحكومة المصرية ايام العثمانيين

واخذ السلطان سليم في تأييد سلطته في مصر ليأمن من تمردها وتلاعب ذوي الاغراض فيها . فجعل عليها حاكماً يلقب بالباشا اليه مرجع الحل والعقد . وكان من جملة الذين انحازوا الى العثمانيين في واقعة مرج دابق امير يقال له خير بك من كبار رجال قنصوه . فلما فتح الله على العثمانيين ولاه السلطان سليم على مصر بلقب باشا . ثم خشي ان تفرد هذا الحاكم بالامر مع بعد مصر عن الاستانة ان يكون داعياً لعصيانه . فاعمل الفكرة فيما يكفيه مؤونة هذا الخطر فاهتدى الى طريقة تضمن له ذلك . وهي ان يجعل في مصر ثلاث ادارات كل منها تراقب اعمال الأخريين فلا يخشى من اتحادها وتمردها

فالقوة الاولى « الباشا » واهم واجباته ابلاغ الاوامر السلطانية لرجال الحكومة والشعب ومراقبة تنفيذها

والقوة الثانية « الوجاقات » فانه اقام في القاهرة وفي المراكز الرئيسية من القطر ستة الآف فارس وستة الاف ماش بالبنادق جعلها ستة وجاقات « فرق » تحت قيادة واوامر خير الدين احد قواد العثمانيين العظماء وامره ان يقيم في القلعة ولا يخرج منها لاي سبب كان . وواجبات هذه الوجاقات حفظ النظام في القطر المصري والدفاع عنه وجباية الخراج . وقد رتبها على الوجه الاتي :

١ وجاق المتفرقة . وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطاني
٢ وجاق الجاويشية . وهو مؤلف في الاصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج
٣ وجاق الهجانة
٤ وجاق التفقجية . وهم ناقلو البنادق
٥ وجاق الانكشارية . وهم اخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية وكانوا يعرفون ايضاً بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم
٦ وجاق العزب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من افراد يقال لهم « وجاقلية » واحدهم « وجاقلي » على كل وجاق منها ضابط يلقب بالآغا يصحبه الكخيا والباش اختيار والدفتردار والخزندار والرزنامجي . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضي امراً الا بمصادقتهم . اما هم فلهم ان يوقفوه عن الاجراء وان يستأنفوا الى ديوان الاستانة عند الاقتضاء . ولهم ايضاً ان يطلبوا عزله حالما يشتبهون بمقاصده

الانكشارية

واهم تلك الوجاقات « الانكشارية » وهم يشملون الجند العثماني في ذلك العهد . انشىء هذا الجند في زمن السلطان اورخان ثاني سلاطين آل عثمان (سنة ٧٢١ — ٧٦١ هـ) على يد قره خليل احد كبار رجال الدولة ونظر في تنظيمه الى خلوه من عصبية تبعث على التمرد . وكان العثمانيون يومئذ يفتحون البلاد واكثراهلها مسيحيون فيدخل في حوزتهم جماعة من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم واصبحوا لا نصير لهم ولامرجع لآمالهم — فارتأى ان يربي اولئك الغلمان تربية اسلامية ويدربهم على الفنون الحربية ويجعلهم جنداً دائماً لايخشى منه التمرد لانه لايعرف عصبية غير الدولة ولا عملا غير الجندية ولا ديناً غير الاسلام . فجندهم وسار بهم الى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية باماسية ليدعولهم . فدعا لهم وسماهم « يكي چري » الجند الجديد

وقسم هذا الجند الى وجاقات واحدها وجاق والوجاق يقسم الى اورط احداها اورطة ولكل اورطة عدد تعرف به ولبعضها اسماء خاصة . ويختلف عدد الجند في كل اورطة حسب الاعصر من ١٠٠ الى ٥٠٠ ويختلف عدد الاورط في الوجاق وعدد الوجاقات بمقتضى ذلك . واكبر ضباط الوجاق او قائدها الاكبر يسمى « آغا » تحت سكبان باشي تحته غيره فنغيره على هذه الصورة :

الاغا	قائد الوجاق و يقابل اللواء في هذه الايام
سكبان باشي	ينوب عن الاغا في الاستانة و يقابل القائمقام اليوم
قول كخيا او كخيا بك	نائب الآغا او السكبان باشي
سمسونجي باشي	قائد اورطة نمرو ٧١
زغرجي باشي	قائد الاورطة نمرو ٦٤
محضر اغا	ينوب عن الانكشارية عند الصدر الاعظم
خصكي	ينوب عن الآغا في القيادة على الحدود

باشجاويش قائد الاورطة الخامسة
كخيا كري ينوب عن الوجاق لدى الآغا
الافندي الكاتب

ولكل اورطة ضباط يقتسمون قيادتها وادارة شؤونها مما يطول شرحه

١ ٢ ٣ ٤

ش ١ : اغا الانكشاريه ونائبه وخادمه

كان للانكشارية رواتب يسمونها العلوفة كانت تدفع يومياً باعتبار درهم واحد لكل انكشاري ثم ارتفعت الى خمسة دراهم غير الهدايا التي كانوا ينالونها في الاعياد وعند تولية السلاطين ويسمونها «بخشيش الجلوس» وغير ما يصرف لهم من الاطعمة كاللحم والخبز او القمح

ملابس الانكشارية وطعامهم

المقصود من البسة الجند التفريق بين رتبهم . فكان لكل طبقة من الانكشارية لباس خاص نقتصر على وصف بعضها بالتصوير (انظر ش ١)

فالصورة الوسطى التي تحتها نمرة (٢) هي صورة آغا الانكشارية وعمامته كبيرة منفوخة وعليه القفطان والجبة وحول وسطه الحزام وفيه الخنجر وفي قدميه نعال مكشوفة . والى يمينه في الطرف نمرة (٤) نائبه المسمى «قول كخيا» وقاووقه يختلف عن ذاك اختلافا عظيماً وفي قمته شبه المروحة من الريش وبجانبه نمرو (٣) خادم الاغا

وعمامته كالعمائم المعروفة . والى يسار الآغا نمرو (١) الباشجاويش ويختلف لباسه عن اولئك من كل جهة وخصوصاً قاووقه وقفطانه وازاره ونعاله

وترى مثل هذا الاختلاف في صغار الانكشارية ايضاً على تفاوت في الرتب والاعمال فترى في الشكل الثاني ان نمرة (٣) صورة جندي انكشاري واقف وعليه الجبة والقفطان بشكل خاص والقاووق مثنى الى الوراء ونمرة (٤) انكشاري واقف وقفة الاحترام و(١) ضرب آخر من الانكشارية يعرف بسلاق و(٥) نوع آخر جيولك . وانتبه الى (٢) فانها صورة احد الغلمان الاعاجم الذين يخرج الانكشارية منهم ونمرة (٦) انكشاري مدرع

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦

ش٢ : انفار الانكشارية

ويمتاز الانكشارية بعادات خاصة في طعامهم واهم اصنافه الشوربا فقد كانت تصنع في حلل خاصة ترسل الى الاجناد في قدور كبيرة يحملونها معلقة باعواد مستعرضة كما ترى في الشكل الثالث

يحمل الحلة اثنان من الجند يقال لهما « قراقول اغجي » يتقدمهما ضابط اسمه باش قراقول اغجي يحمل على كتفه ملعقة كبيرة من الحديد . فيمر بالاماكن التي فيها عساكر من اورطتهم وهم في انتظار وصولهم فيحطون القدر على الارض ويغرفون منها بالملعقة لمن يأتي بطبقه على قدر حاجته

وللطعام شان كبير عند الانكشارية وفي مطبخ كل اورطة قدر كبيرة هي مثال لقدر يحترمونها اعتماداً على حديث يتناقلونه بينهم عن الحاج بكطاش صاحب الطريقة

ش ٣ : توزيع الشورباء على الانكشارية

البكطاشية التي ينتسب اليها الانكشارية انه طبخ شورباءه فيها ويعتقدون انهم اذا نقلوا هذه القدر من مكانها وصبوا هناك ماء زلزلت الارض . وكانت هـذه القدور ملجأ المجرمين فمن اتى اليها وجب على الانكشارية حمايته والدفاع عنه كما كان يفعل العرب في حماية من يستجير بهم . وفي الحوادث الكبيرة التي تتفق لهم كقيامهم بثورة او مفاوضتهم في امر يهمهم يجتمعون حول هذه القدر للمفاوضة بجانبها تبركاً بها

الامراء المماليك

اما القوة الثالثة فالمماليك . وهم بقايا الدولتين السالفتين والفائدة منهم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات لانهم في الاصل اعداء لكلا الفريقين ومن غرضهم الانتصار للفريق الاضعف ليمنعوا القوي من الاستبداد . وقد كان القطر المصري منقسما الى ١٢ « سنجقلية » (مديرية) يحكم كلاً منها حاكم يقال له « سنجق » او (بك) يعينه الديوان (وهو مجلس شورى الباشا) من امراء المماليك . ولا غرو ان تقاطع المصالح على هذه الصورة واختلاطها مع تعداد الآمرين مما يقود الى القلاقل والمتاعب اما الدولة العثمانية فقد اجتنت راحة من هذا التعب لانها كانت على ثقة من استبقاء الديار المصرية في حوزتها

وبقي خير بك باشا والياً على مصر الى ان ادركته الوفاة بمرض جلدي سنة ٩٢٨هـ ودفن في جامعه المعروف باسمه في شارع درب الوزير تحت القلعة . وبعد وفاته لهجت الالسنة بذمه لعظم استبداده فكانوا يقولون انه كان ينهض من لحده ليلا ويستغفر الله على ما اتاه من الشرور في حياته

سلطنة سليمان القانوني

من سنة ٩٢٦ — ٩٧٤ هـ او من ١٥٢٠ — ١٥٦٦ م

ش ٤ : السلطان سليمان القانوني

وقبل وفاة خير بك باشا بسنتين توفي السلطان سليم وخلفه ابنه السلطان سليمان سنة ٩٢٦هـ وسنه ٢٦ سنة ويعرف بالقانوني لانه سن قانوناً . فمكث على كرسي الخلافة نحواً من نصف قرن وقد اكثر من الاهتمام بمصر وتنظيمها . وكان ابوه قبل وفاته قد رسم الخطة التي يجب ان تسير عليها مصر في حكومتها وادارتها لكنه توفي قبل ان يبرزها الى حيز الفعل فلما تولى السلطان سليمان جعل اهتمامه اتمام مشروع ابيه

نظام الحكومة المصرية ايضاً

وكان من راي السلطان سليم ان ينشىء ديواناً تحت رئاسة الباشا حفظاً للموازنة اما السلطان سليمان فاتم الموازنة بانشاء ديوانين عرفا بالديوان الكبير والديوان الصغير « او الديوان فقط » واناط رئاستهما بالباشا وعليه ان يجلس عند انعقاد الجلسة وراء ستار المنبر . وعلى الكخيا والدفتردار استئذانه قبل المفاوضة ومتى اقرّ الديوان على امر ابلغاه ذلك القرار وليس له الا المصادقة والامر بالتنفيذ . وجعل اقامة هذا

الباشا بالقلعة تحت ملاحظة الآغا الذي هو قومندانها ويجدد تعيين الباشا في كل سنة

اما واجبات الديوان الكبير فهي المفاوضة والاقرار على ما يتعلق بالاشغال العمومية التي لا تتعلق ادارتها بالباب العالي نفسه . اما اعضاء هذا الديوان فهم اغاوات الوجاقات الستة ودفتداريوها وروزنامجيوها . ونواب من جميع فرق الجيوش وامير الحج وقاضي القضاة واعيان المشايخ والاشراف والمفتون الاربعة والائمة الاربعة والعلماء . اما المخاطبات التي ترد الى هذا الديوان فتعنون باسم الديوان الكبير لكنها تسلم للباشا وله وحده الحق ان يأمر بعقد جلساته ولم تكن كثيرة . اما جلسات الديوان الاصغر فكانت تنعقد يومياً في قصره واعضاء هذا الديوان هم كخيا الباشا ودفتداره وروزنامجيه ونائب من كل من الوجاقات والاغا وكبار ضباط وجاق المتفرقة . ومن واجبات هذا الديوان النظر في الحوادث اليومية ومن اختصاصاته البحث في الادارات الثانوية

وانشأ السلطان سليمان فضلاً عن الستة الوجاقات التي انشأها ابوه وجاقاً سابعاً دعاه وجاق الشراكسة وهم بقية جند المماليك . ومن هذه الوجاقات السبعة تتألف حكومة مصر وحاميتها . اما نفقاتها فمن مخصصات يتولى ضبطها وتفريقها « افندي » من كل وجاق . وجعل لكل وجاق مجلساً مؤلفاً من ضباط ذلك الوجاق وبعض صف ضابطانه لمحاسبة الافندية والنظر في الدعاوي الخصوصية وعرض الترقيات للباشا للمصادقة عليها ومقامهم في القاهرة ولكل منهم لباس خاص برتبته وعليه علاماته ومجموع رجال الوجاقات معاً عشرون الفاً وقد يزيد او ينقص حسب الاقتضاء . اما مقرهم ففي القاهرة على انهم كثيراً ما كانوا يخرجون منها للمهمات في المديريات . وكان لوجاق الانكشارية امتيازات على سائر الوجاقات وقائده (الآغا) مفضل على سائر القواد وله نفوذ عليهم

وجعل السلطان سليمان للبكوات المماليك الذين اقامهم السلطان سليم امتيازات خصوصية وحقاً بالارتقاء الى رتبة الباشوية . واضاف اليهم ١٢ بيكاً آخرين مهمات فوق العادة . وهاك اسماء الموظفين الذين ينتخبون من البكوات المماليك وهم : الكخيا او نائب الباشا والقبابطين الثلاثة وهم قومندانات ثغور السويس ودمياط والاسكندرية ويسمى واحدهم قبطان بك والدفتردار وامير الحج وامير الخزنة وحكمداريو اومديريو المديريات الخمس الآتي ذكرها وهي جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية . ولم يكن لغير الكخيا والدفتردار وامير الحج الحق في دخول

الديوان فالدفتردار كان عليه ضبط الحسابات وحفظ الدفاتر والسجلات ولا ينفذ امر بيع عقار الا بعد توقيعه عليه اشارة الى تسجيله في دفاتره . وامير الحج يحمل الهدايا والصدقات التي كانت يرسلها السلطان سنوياً الى مكة او المدينة وعليه حماية قافلة الحج ذهاباً واياباً . واما امير الخزنة فيحمل القسم المختص بالقسطنطينية من حاصلات مصر برًّا وعليه حمايته . وينتخب من البكوات المماليك ايضاً شيخ البلد » وسنعود اليه

وكانت مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم في عهدة كشاف لا فرق بينهم وبين البكوات في النفوذ . ولا يعمل باقرار احدهم الا بعد مصادقة الشريجية وغيرهم من الوجاقليين الذين يتألف منهم ديوان خاص في كل مديرية

ثم ان تعيين نكيا الباشا وقبابطين السويس ودمياط والاسكندرية متعلق رأساً بجلالة السلطان فيرسلونهم من الاستانة ويستدعونهم اليها في آخر كل سنة . اما البكوات الاخرون فيعينهم الديوان ويوليهم الباشا ويثبتهم الباب العالي ومراكزهم ثابتة الا ان واجباتهم تتغير الا الدفتردار . وقد ينتخب البكوات من وجاق المتفرقة ومتى انتخبوا لا يعودون تابعين لذلك الوجاق . وكان من هم الباب العالي الانتباه الى السويس ودمياط والاسكندرية على الخصوص لانها الابواب التي يدخل منها الى مصر فكان يرسل حاميتها راساً من الاستانة تحت قيادة القبابطين ويجددها كل سنة وهؤلاء القبابطين لم يكونوا يحسبون من جند مصر الا باعتبار اقامتهم فيها وبما ينالونه من الامدادات المالية لنفقاتهم . اما فيما خلا ذلك فكانوا يحسبون اجانب في اعتبار الباشا وديوان مصر ولم يكونوا تحت اوامر حكومة البلاد في شيء فاوامرهم كانت ترد اليهم من ديوان الاستانة رأساً

حاصلات البلاد

هذا من قبيل الادارة . اما من قبيل حاصلات البلاد فان السلطان سليمان صرح بانه المالك الحر لارض مصر فكانت له ملكاً وكان يفرقها اقطاعات على مزارعين كان يدعوهم « الملتزمين » . على انه لم يكن له ان يمنع اقطاعها او يوقفه فلم يكن بالحقيقة فرق بين هذه الاقطاعات والملك الحقيقي . والفلاحون الذين كانوا يحرثون الارض كانوا يتمتعون بنصيبهم منها ويورثونها لاعقابهم ولكنهم كانوا مجبورين على العمل فيها بدون حق التصرف بها وعليهم خراج لامناص من دفعه للملتزمين فاذا توفي فلاح بلا وريث تعطى ارضه للملتزم وهو يعهد بحراثتها الى من يشاء واذا مات الملتزم بلا وريث تعود الارض للسلطان . وكان على كل من الملتزمين والفلاحين خراج يدفعونه اما نقداً واما عيناً فاذا تاخر الفلاح عن الدفع يمنع من نيل نصيبه واذا تاخر الملتزم تؤخذ الارض منه . ونظراً لاتساع ارض مصر لم يمكن حصر املاك كل من الملتزمين

فلم يكن ممكناً تعيين مقدار خراجها فارسل السلطان سليمان مساحين مسحوا الارضين المصرية فقسموا المديريات الى اقسام دعوها بالقراريط ومسحوا كلاً منها على حدة وحدوده

باشوات مصر او ولاتها ايام السلطان سليمان

كل هذه النظامات الادارية والمالية اجراها السلطان سليمان بالتتابع بواسطة الباشوات الذين اقامهم على مصر مدة حكمه وعددهم ١٤ . اولهم مصطفى باشا تولى بعد وفاة خير بك باشا في ذي الحجة سنة ٩٢٦ هـ وبعد تسعة اشهر و ٢٥ يوماً ابدل باحمد باشا وكان عدواً للصدر الاعظم ابراهيم باشا فاسر الصدر سنة ٩٣٠ هـ الى امراء القاهرة ان يقتلوه فعلم هو بالدسيسة فقبض على الكتب الوارده بذلك قبل ان تصل الى اصحابها ثم استدعاهم واعلنهم انها اوامر من جلالة السلطان بقتلهم ولم يطلعهم عليها فابوا الاذعان الا ان اباءهم لم يمنع قتلهم

ولما تأكد احمد باشا انه صار في مأمن من المقاومين صرح باستقلاله وامر ان يخطب له وان تضرب النقود باسمه ـ وهو اول من طمع بالاستقلال من ولاة مصر في عهد الدولة العثمانية . لكنه بالغ بالعسف فاختلس ممتلكات البعض وحبس البعض فثارت الافكار عليه حتى اصبحت حياته في خطر . وبينما كان ذات يوم في الحمام فاجاه اميران من امرائه كان قد امر بسجنهما وهما جهم الحمزاوي ومحمود بك فكسرا باب السجن وخرجا رافعين العلم الشاهاني يستنصران الناس حتى اتيا الحمام فعلم الباشا بذلك ففر من السطح والتجأ الى احد مشايخ عربان الشرقية واسمه ابن بقر فتعقبه اعداؤه حتى ادركوه وقطعوا رأسه وعلقوه على باب زويلة ثم نقل الى الاستانة سنة ٩٣١ هـ

فارسل السلطان عوضاً عنه قاسم باشا وفي نيته تقصير مدة هؤلاء الولاة لئلا يثور في خواطرهم حب الاستقلال فبعد تسعة اشهر و١٤ يوما استبدله بابراهيم باشا وكان نشيطاً محباً للاصلاح والنظام الا ان قصر مدته لم تمكنه من اتمام ما كان شارعاً فيه فعزل واقيم بدلاً منه سليمان باشا سنة ٩٣٣ هـ وكان السلطان راضياً عن هذا الباشا واثقاً به فابقاه في الحكم تسع سنوات و١١ شهراً

وفي سنة ٩٤١ هـ استقدمه الى الاستانة ليسلمه قيادة حملة اعدها لمحاربة الفرس والهند وقد اقام في اثناء حكمه بنايات كثيرة من جملتها جامع سارية في القلعة . وناب عنه في غيابه خسرو باشا نحو سنة وعشرة اشهر فعاد سليمان باشا الى مصر وبقي عليها بعد ذلك نحو سنة وخمسة اشهر

وفي سنة ٩٤٥ هـ عهدت باشوية مصر الى داود باشا فبقي عليها ١١ سنة و٨ اشهر

وكان رجلاً مستقيماً كريم الاخلاق محباً للعلماء آخذاً بناصرهم كلفاً بالمطالعة وعلى نوع خاص مطالعة المؤلفات العربية فجمع منها عدداً وافراً واستنسخ كل ماظفر به من الكتب غير المطبوعة فجمع مكتبة جميلة جداً . وكان الاهلون في مدة حكمه في بحبوحة السعادة والامن وتوفي في القاهرة سنة ٩٥٦هـ فتولى مكانه علي باشا وهذا رمم وبنى عدة بنايات عمومية في القاهرة وفي فوة ورشيد واقتدى به غيره من بكوات مصر فجعلوا يشيدون الجوامع منها الجامع الذي ابتناه عيسى بك في دبروط . وكان علي باشا محبوباً مكرماً عند المصريين بمنزلة الاب لكنه مع ذلك لم يحكم الا اربع سنوات وستة اشهر . ففي سنة ٩٦١ هـ تولى باشوية مصر محمد باشا وكان الناس يبغضونه فلم يحكم الا ثلاث سنوات ولما زاد التشكي منه عزل واستقدم الى الاستانة للمحاكمة فحكم عليه بالقتل سنة ٩٦٣ هـ

وبعد محمد باشا تولى اسكندر باشا فحكم ٣ سنوات و٣ اشهر ونصف وفي سنة ٩٦٨ هـ تولى علي باشا الخادم . وبعد ١٧ شهراً خلفه مصطفى باشا (الثاني) في سنة ٩٦٩ هـ ثم في سنة ٩٧١ هـ تولاها علي باشا الصوفي سنتين و٣ اشهر . وكان علي الصوفي قبلاً حاكماً في بغداد مشهوراً فيها باعوجاج الاحكام والخيانة فلما تولى مصر كثرت فيها السرقات والتعديات حتى غصت ضواحي القاهرة باللصوص واخترقت فئة منهم المدينة حتى الجامع الابيض . فاضطرت الحكومة ان تقيم سوراً من قنطرة الحاجب الى هذا الجامع منعاً لمثل ذلك

وفي شوال سنة ٩٧٣ هـ ابدل علي باشا الصوفي بمحمود باشا وهو آخر من تولى مصر في ايام السلطان سليمان فجاء من الاستانة بموكب عظيم فاهدي اليه في اثناء مروره من الاسكندرية الى القاهرة هدايا عظيمة . فلما وصل القاهرة لاقاه الامير محمد بن عمر متولي الصعيد على قارب فيه جميع انواع الهدايا وخمسون الف دينار فاخذ الباشا الهدايا منه وأمر بخنقه حال خروجه من مجلسه . وامر ايضاً بخنق القاضي يوسف العبادي لانه لم يات لملاقاته ولم يهده شيئاً واستمر على هذه المظالم حتى قتل معظم اعيان القاهرة فكان لايمر الا ومعه الشوباصي (رئيس الجلادين) فاذا مرَّ باحد واراد قتله اشار بيده الى الشوباصي فيعمد حالاً الى ذلك السيء الطالع فيعدمه الحياة باسرع من لمح البصر

وفي ٣ رجب سنة ٩٧٤ هـ توفي الامير ابراهيم الدفتردار وكان اميراً للحج فاستولى محمود باشا على ماترك من المال والمماليك والجواري وجملة ذلك مائة الف دينار ضمها الى المال الذي يرسل الى الاستانة سنوياً وبعث معها هدايا ثمينة للسلطان ووزرائه استجلاباً

خاطرهم . لكنه لم ينتفع من ذلك قبل ان قتل في يوم الاربعاء غاية جمادى الاولى سنة ٩٧٥ هـ وهو مارٌّ في موكبه الاعتيادي بين البساتين . ولم تقف الحكومة على القاتل فاتهمت اثنين من الفلاحين وقتلتهما ظلماً لانهما وجدا بقرب مكان القتل . وكان السلطان سليمان قد توفي قبل ذلك بسنة (صفر سنة ٩٧٤ هـ) وسنه ٧٤ سنة ومدة حكمه ٤٨ فتولى بعده ابنه سليم شاه « الثاني » في ٩ ربيع اول من تلك السنة

وترى في الشكل الخامس نقود السلطان سليمان ضربت في القسطنطينية سنة ٩٢٦ هـ . ومما يحسن التنبيه اليه ان سلاطين آل عثمان لا يؤرخون نقودهم الا بسنة جلوسهم على السلطنة وليس بسنة ضربها

ش ٥ : نقود سليمان القانوني

سلطنة سليم بن سليمان

من سنة ٩٧٤ — ٩٨٢ هـ او من ١٥٦٦ — ١٥٧٤ م

فلما بلغ السلطان سليم شاه موت محمود باشا امر بنقل سنان باشا من باشوية حلب الى باشوية مصر . وبعد وصوله اليها بتسعة اشهر انفذه لمحاربة اليمن فسار سنان من مصر في ٤ شوال سنة ٩٧٦ هـ ومعهُ حمزة بك وماماي بك وغيرهما من امراء مصر واستخلف على مصر اسكندر باشا الشركسي . ومكث سنان باشا في تلك الحملة سنتين و٤ اشهر ففتح اليمن وعاد ظافراً الى مصر فراى الاحوال هادئة والنظام مستتبا بعراية اسكندر باشا المذكور لانه كان حكيماً محباً للرعية فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين والقسم الاعظم من طلبة العلم وكان شديد التعلق بالعلم وذويه فلما عاد سنان باشا الى مصر (اول صفر سنة ٩٧٩ هـ) عادت احكامها الى يده فاهتم بتأييد النظام وحفظ رونق البلاد فاعادحفر ترعة الاسكندرية ورمم وبنى فيها جامعاً وشارعاً وعدة حمامات . وبنى في بولاق بمصر شارعاً ووكالات وجامعاً لا يزال معروفا باسمه . ومازال على مصر الى ذي الحجة سنة ٩٨٠ هـ فخلفه حسين باشا وكان على جانب من اللطف والدعة وحب العلم والادب ولا يعاب الا لكثرة حلمه الامر الذي آل الى تكاثر اللصوص في ولايته ولم يحكم الا سنة وتسعة اشهر . وفي ايامه توفي السلطان سليم

شاه (سليم الثاني) في ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ هـ بعد ان حكم ثماني سنين وخمسة اشهر و ١٩ يوماً

وترى في الشكل ٦ صورة نقود السلطان سليم الثاني مضروبة في حلب بتاريخ سنة ٩٧٤ هـ

ش ٦ : نقود السلطان سليم الثاني

سلطنة مراد بن سليم

من سنة ٩٨٢ — ١٠٠٣ او من ١٥٧٤ — ١٥٩٤ م

وفي ١٠ رمضان بويع ابنه مراد خان (مراد الثالث) وحال جلوسه على كرسي السلطنة ولى على مصر بدلاً من حسين باشا مسيح باشا وكان خزندار عند السلطان سليم الثاني فحكم في مصر خمس سنوات وخمسة اشهر ونصف ووجه اهتمامه خصوصاً الى ابطال السرقات والتعديات فكان يقبض على اللصوص ويقتلهم بدون شفقة حتى بلغ عدد من قتل من اللصوص عشرة آلاف فارتاحت البلاد من شرورهم . ثم عكف على اصلاح شؤون الرعية وكان نزيهاً لا يقبل الرشوة ولا الهدية . ومن آثاره مسجد عظيم في ضواحي القرافة لا يزال يعرف باسمه . وقد بناه على اسم الشيخ نور الدين القرافي وجعله له ولنسله ملكاً حرًّا وخصص دخلاً معيناً للنفقة عليه . وامر مسيح باشا ان تستهل الاوامر والكتابات الرسمية والاحكام بهذه العبارة « الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا وآله وصحبه ان المؤمنين اخوة فاحفظوا السلام بين اخوتكم واتقوا الله »

وفي سنة ٩٨٨ هـ ولي مصر حسن باشا الخادم خزندار السلطان مراد الثالث فلم يكن همه الا جمع الاموال باية وسيلة كانت واعادة ما كان حظره سابقه من الرشوة والهدايا . فبقي على ولاية مصر سنتين وعشرة اشهر . ولما عزل عنها سار من القاهرة خفية وطلع من باب المقابر لئلا ينتقم منه اهلها . وفي سنة ٩٩١ هـ خلفه ابراهيم باشا فاخذ يستطلع ويتحرى ما اتاه سابقه من الاختلاس فجعل في جامع السلطان فرج بن برقوق موظفاً خصوصياً لاستماع تشكيات المتظلمين على الوالي السابق من ١٠ رجب من تلك السنة الى غاية رمضان فاطلع على مظالم لا تحصى من جملتها ١٠٠٤٤٢

ب قمح من الشون العمومية باعها حسن باشا واستولى على قيمتها فرفع ابراهيم
ا تقريراً مدققاً بشأن ذلك الى السلطان فامر بقتله خنقاً . ثم طاف ابراهيم باشا
سه يتفقد احوال المديريات ويتحقق حالتها وزار ايضاً آبار امرود في الصحراء ورمم
ضها . وفي عودته الى القاهرة استقال من منصبه سنة ٩٩٢ هـ وتولى مكانه سنان باشا
اني وكان دفتدار . وبعد ستة اشهر وعشرين يوماً برح مصر هارباً وسبب ذلك انه
اء التصرف فاشتكاه الناس الى الاستانة فجاء اويس باشا الى مصر ليتحرى تلك التشكيات
فلما علم سنان بمجيئه فر هارباً

فتولى اويس حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ وكان صارماً في الاحكام. وكان في اول امره
كاشياً ثم صار دفتدار في الروملي ثم نقل الى باشوية مصر كما تقدم . وبقي عليها خمس
نوات وخمسة اشهر وعشرة ايام واراد ان يدرب الجنود فعصوه وهجموا عليه في الديوان
في ٢٨ شوال سنة ٩٩٧هـ واهانوه ونهبوا بيته وفي جملة ما نهبوا منه ساعة كبيرة تعرف
ساعة الايام . ثم ذبحوا الامير عثمان قائد وجاق الجاويشية واخربوا بيت قاضي العسكر
وقتلوا قاضيين من قضاة مصر ثم عمدوا الى الحوانيت فنهبوها — كل ذلك والامراء لا
يستطيعون منعهم والاضطراب يزداد والثائرون يتمردون وقد حاول الدفتدار ايقافهم
عند حدهم فذهب سعيه باطلاً . ثم ظن اويس باشا انه اذا جاءهم بالحسنى ربما يلينون
فبعث الى القضاة ان لا يخالفوا لهم امراً فلم يزدهم ذلك الا عناداً وفجوراً حتى قبضوا
على اولاد الباشا رهناً لما يريدون فاضطر الباشا الى الاذعان لما ارادوه واعطاهم ما
طلبوه واستقال من تلك الولاية بعد ان ملّ من خيبة مساعيه الحميدة فيها . فتولى
مكانه حافظ احمد باشا سنة ٩٩٩ هـ وكان حاكماً في قبرص وعلى جانب عظيم من
حب العلم وطلبيه حاذقاً مدرباً في امور الاحكام . وكان رفيقاً بالاهلين ففرق
الحسنات على الحجاج الفقراء وابتنى في بولاق
وكالتين وعدة قيصريات وعدة بيوت وخصص ريع
دخلها لعمل الخير وبقي حاكماً في مصر ٤ سنوات

ش ٧ : نقود السلطان مراد بن سليم

وترى في الشكلين ٧ و٨ صورة نقود
السلطان مراد بن سليم ضروبة في القاهرة بتاريخ
سنة ٩٨٢ هـ

ش ٨ : نقود السلطان مراد بن سليم

سلطنة محمد بن مراد

من سنة ١٠٠٣ — ١٠١٢ه او من ١٥٠٤ — ١٦٩٣ م

وفي ١٧ رمضان سنة ١٠٠٣ ه تولى الخلافة في الاستانة السلطان محمد بن مراد (محمد الثالث) عوضاً عن ابيه مراد الثالث

فولى على مصر قورط باشا فلم يبق فيها الا سنة وثمانية ايام وكان الناس يحبونه للطفه ودعته وتنشيطه لطالبي الادب ومساعدته للفقراء ولكل من يلتجىء اليه . وفي شوال سنة ١٠٠٤ ه خلفه السيد محمد باشا وبقي على الحكومة سنتين اتبع في اثنائهما خطة اسلافه في تنشيط العلم والادب فاعاد بناء الجامع الازهر وجعل فيه وظائف يومية من العدس المطبوخ تفرق في الطلبة الفقراء ورمم المشهد الحسيني . ومع كل ما كان يتوخاه من السعي في حفظ النظام بين الاهلين لم يمكنه انقاذهم من ثورة عسكرية انتشبت في غرة رجب سنة ١٠٠٦ ه في سائر انحاء القطر المصري . ثم اجتمع العصاة الى القاهرة وكان السيد محمد باشا اذ ذاك في منزله في بر بة الجيزة فعاد الى القاهرة تحفُّ به السناجق وزمرة من الخفراء فلم يبال العصاة بذلك بل اطلقوا عليه النار ولم يتخلص من ايديهم الا بعد شق الانفس . فسار الى احد منازله فتبعوه وحاصروه هناك ليلاً ونهاراً والحوا عليه ان يسلمهم بعضاً من ضباطه وفي جملتهم دالي محمد احد كبار الامراء والامير جلاد الشوباصي والامير خضر كاشف المنصورة فطلب اليهم ان يمهلوه ثلاثة ايام . فلما جاءهم رسوله قالوا له « سيحكم الله بيننا وبين مولاك » وتفرقوا في المدينة فظفروا بقاضي العسكر عبد الرؤوف فاجبروه على القيام بمطالبهم . اما الباشا فاغتنم اشتغالهم بذلك الشأن وفرَّ من منزله ودخل القلعة واقفل ابوابها وراءه والتجأ الى حسين باشا السكراني قائد عموم الجيش وبيري بك امير الحج فحاولا تسكين الثورة فذهب سعيهما عبثاً . ثم علما ان العصاة قتلوا الامير محمد بك والدالي محمد وعلقوا رأسيهما على باب زويلة ونهبوا بيتيهما واثخنوا في الناس قتلا ونهباً

وفي ١٧ ذي الحجة سنة ١٠٠٦ ه ابدل السيد محمد باشا بخضر باشا فحكم ثلاث سنوات و ١٢ يوماً وقد اغضب الاهلين منذ وصوله القاهرة لانه امر بقطع الاعطيات والجرايات التي كانت توزع على العلماء والفقراء من الخنطة ولم يقتصر على الايقاع بهؤلاء الضعفاء بل تجاوزهم الى الضابطة فاحرمهم زادهم فتجمهروا في

ش ٩ : والي مصر في موكبه بالقرن العاشر للهجرة

٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩ هـ وساروا الى قاضي العسكر. ثم اتحدوا والقاضي في مقدمتهم وتوجهوا الى الديوان يريدون الانتقام فقتلوا كخيا الباشا وامراء آخرين فخاف الباشا فسلم لهم بما كانوا يطلبونه واعاد لهم الاعطيات كما شاؤا وخمدت الثورة وعادت المياه الى مجاريها . الا ان الباشا لم يلبث هنيهة حتى جاءه الامر بالاقالة فاستقال وولي مكانه الوزير علي باشا السلحدار وكان محبا للحرب ولذلك كان يكرم الجند على الخصوص لكنه كان سفاكاً للدماء فتظلم الناس من قسوته ولم يكن يخرج في موكبه الى المدينة او ضواحيها الا ويميت على الاقل عشرة اشخاص تحت حوافر جواده فكان الناس يرتعدون خوفاً من ذكر اسمه . ورافق كل ذلك جوع عظيم فكثرت الوفيات وعم الخراب . فازداد الرعب حتى امر الباشا ان تدفن الموتى سراً اما هو فترك القاهرة فراراً من تلك الغائلة واستخلف عليها بيري بك . وبعد يسير توفي هذا فانتخب السناجق الامير عثمان بك ليقوم مقامه وبقي هذا حتى عين الباب العالي من يخلف علي باشا وكان ذلك التغيير بسبب وفاة السلطان محمد الثالث في ١٦ رجب سنة ١٠١٢ هـ .

ش ١٠ : نقود السلطان محمد بن مراد ضربت في القاهرة

وترى في الشكلين ١٠ و١١ صورتين من نقود السلطان محمد بن مراد الاولى مضروبة في القاهرة والثانية في دمشق

ش١١: نقود السلطان محمد بن مراد مضروبة في دمشق

سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١٠١٢ — ١٠٢٦ هـ او من١٦٠٣ — ١٦١٧ م

فنصب ابنه احمد بن محمد (احمد الاول) فولى على مصر ابراهيم باشا. فحكم فيها مدة قصيرة انتهت بخطب جسيم — وذلك انه منذ وصوله اليها عزم على ابطال طلبات الجند ولما اراد انفاذ ما نواه زادت الجنود تمرداً. وفي ٣٩ ربيع آخر سنة ١٠١٣ هـ علموا ان الباشا خرج من القاهرة في زمرة من رجاله وركب النيل الى بولاق قاصداً شبرا قرب جسر ابي المنجا. فاجتمعوا في ضواحي القرافة وتعاقدوا بالايمان المغلظة على قتله. وفي الصباح التالي جاؤا وعسكروا في بولاق ينتظرون عوده. ثم قاموا من هناك يريدون مهاجمته في قلعة الدولاب وكانوا قد علموا بالتجائه اليها. فلما علم هو ومن معه من السناجق بقدوم تلك العصابة تشاوروا فيما بينهم فنصح له السناجق ان يسافر بحراً قبل ان يصل اليه ضيم فلم يصغ لهم وتشدد بمن معه من الجاويشية والمتفرقة

ثم جاءت الجنود الثائرة واحاطوا بالقلعة وبعثوا من بينهم ١٥ رجلاً ليأتوا برأس الباشا فدخل هؤلاء القلعة والسيوف مشرعة في ايديهم حتى جاؤا مجلسه فانتهرهم قائلاً «ماذا تريدون الم تستولوا على مرتباتكم والانعام الذي يعطى اعتيادياً عند تولية الحكام عليكم فماذا تطلبون؟» فاجابوه «لا نطلب منك شيئاً الا راسك» قالوا هذا وصفعه احدهم على وجهه وادركه الباقون بالطعن مراراً. ثم عمد احدهم الى راسه فقطعه. فانتهرهم الامير محمد بن خسرو ووبخهم على ما جاءوا به من القحة فلم يجيبوه الا بما اجابوا ذاك واخذوا راسي الاثنين وعادوا بهما الى رفاقهم حول القلعة. ثم حملوهما وداروا بهما شوارع المدينة الى ان علقوهما على باب زويلة وكان قد نعوذ مثل هذه الاكاليل

وفي ذلك اليوم اقاموا عليهم عثمان بك فلم يقبل فولوا قاضي العسكر مصطفى افندي

ش ١٢: جامع السلطان احمد بالاستانة

فلما علم ديوان الاستانة بقتل ابراهيم باشا ارسل عوضاً عنه الوزير محمد باشا الكورجي الملقب بالخادم . وحال وصوله القلعة وردت الاوامر الصارمة من الباب العالي الى جميع السناجق ان يستطلعوا اصل الثورة واسبابها ويقبضوا على زعمائها . فاجتمع السناجق والقسم الاعظم من الجيش في قراميدان وكان الباشا في القلعة فبعث يستقدم السناجق اليه ليبلغهم هذه الاوامر رسمياً فرفضوا المثول بين يديه فتوسط الامراء ووعدوا السناجق انهم اذا سلموا القاتلين نجوا ونالوا العفو العام فقبلوا وسلموا القاتلين الى الباشا فامر بقطع اعناقهم بين يديه حالاً واطلق السناجق . فخاف الثائرون وضعف عزمهم ولا سيما لما رأوا من محمد باشا التيقظ لحفظ النظام ومعاقبة المعتدين وقد قتل منهم نحواً من مائتي رجل في مدة حكمه القصيرة التي لم تدم اكثر من سبعة اشهر وتسعة ايام

فتولي بعده الوزير حسن باشا وهو اقل صرامة من سلفه فكان يعامل الجند بالحسنى وكان ابنه فيهم برتبة بكلربكي وكانت الاحوال هادئة جداً في اثناء حكمه . ثم تولى بعده الوزير محمد باشا في ٧ صفر سنة ١٠١٦ هـ وبقي على حكومة مصر اربع سنوات واربعة اشهر و١٢ يوماً وكان حكيماً حازماً اخذ منذ وصوله القاهرة في المحافظة على السلام فنجى الاهلين مما كان يكدر راحتهم فاكتسب ثقتهم ومحبتهم الا انه لم ينج من الحساد وذوي الاغراض

وفي اواخر شوال من السنة التالية ثارت عليه الجيوش واجتمعوا في برج سيد

احمد البدوي وتحالفوا ان لا يوافقوه على الغاء الضرائب غير العادلة التي كانت مضروبة على القطر الى ذلك العهد . ثم اختاروا من بينهم رئيساً ولوه عليهم سلطاناً وتقاسموا مصر الى اقسام تولى كل واحد منهم اثارة الشغب والنهب في قسم منها فانتشرت تعدياتهم في جميع الذلنا . فلما علم محمد باشا بذلك جمع السناجق والجاويشية والمتفرقة وسار بهم تحت قيادته لردع العصاة في ٩ ذي الحجة سنة ١٠١٧ه واخذ معه ستة مدافع وانضم اليه كثير من مشائخ قبائل العرب وفي الليلة التالية عسكر الجميع في بركة الحج

وفي الصباح هاجموا العصاة في الخانقاه فضيقوا عليهم بالنيران فاضطر اولئك الى التسليم فاخذ عليهم الباشا عهوداً اولها ان يسلموا اليه سلطانهم وكبار رؤسائهم ووعدهم بالتأمين على حياتهم فقبلوا وسلموا الرؤساء وعددهم نحو ٧٧ فامر بقتلهم حالاً . ثم جرد الباقين من سلاحهم فتفرقوا فتعقبهم رجال الباشا وقتلوا من ظفروا به منهم . فلما راى قاضي العسكر محمد افندي الملقب ببختي زاده ما كان يحصل من امثال هذه المذابح يومياً نصح للباشا ان ينفي كل من يقبض عليه منهم الى اليمن ففعل وكانت النتيجة حسنة وبطلت التعديات

ولما ارتاح محمد باشا من تلك الثورات اخذ في اصلاح الادارة المالية فتفحص بنفسه النفقات التي كانت تدفع من الخزينة واقتصد منها كل ما لم يكن ضرورياً . ثم نظر الى الضرائب فابطل طريقة المماليك الشراكسة فيها واتبع القوانين التي صدرت سنة ٩٣٢ ه في زمن السلطان سليمان القانوني ثم نظم المكوس وعدلها ولم يكن يكلف نفساً الا وسعها فاذا راى ارضاً لا تقوى على القيام بما فرض عليها من المكوس تنازل لها عنه وساعدها في احياء مواتها . ولما برح مصر نال من المكافآت والانعامات ما لم ينله احد من اسلافه في مصر . وتولى بعده محمد باشا الملقب بالصوفي وكان يحب العلماء ورجال الفضيلة وكان ورعاً حليماً عفيفاً لم يقبل رشوة ولم يأت ظلماً الا انه كان ملوماً لزيادة ضعفه بما يتعلق بمحبوبه يوسف الذي كثيراً ما تعدى حدوده

وفي سنة ١٠٢٢ ه ارسل الصدر الاعظم عشرة آلاف جندي الى اليمن لاخماد ما كان ثائراً من الشغب هناك وارسلت الفرقة المذكورة عن طريق مصر ومعها امر سلطاني الى الباشا بدفع النقود اللازمة لها وتشييع الحملة الى اليمن . فلما وصلت الجيوش الى مصر وعلموا بما ورد من الاوامر بشأنهم ادعوا انهم جاؤا ليقيموا في مصر ولم يذعنوا لاوامر الباشا بالسفر فاتخذوا لهم منازل في مخازن باب النصر وطردوا بعض اصحابها منها فاجتهد الباشا ان يحملهم على التسليم بالاوامر الواردة اليه بشأنهم فذهب سعيه

هلاً واقاموا المتاريس في ابواب الحارة واقفلوا باب النصر ونصبوا المدافع في برجيه
اضطر الباشا الى محاصرتهم بكل مالديه من الوجاقات والمدافع فتمكن الامير عابدين بك
من الدخول الى حصنهم من باب في المدرسة المدعوة بالجانبلاطية فخاف العصاة وسلموا
فرق فيهم الباشا نحو ثمانين كيساً وسافروا

وبعد يسير اقيل محمد باشا الصوفي فاعتزل في قبة العدليـة ولم يبرحها الا بعد ان
علم بوصول خلفه احمد باشا دفتردار مصر سابقاً الى الاسكندرية ثم جاء القاهرة ودخلها
بموكب حافل . وبينما هو بموكبه في المدينة رماه بعض الناس بحجر من سطح بعض
البيوت فكسر الهلال الذي كان فوق عمامتـه ولم يؤذه فامسك الفاعل فاعترف بذنبه
وقتل في ذلك المكان

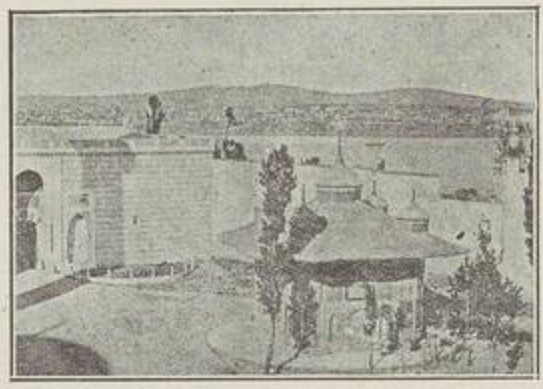

ش١٣ : سبيل السلطان احمد بالاستانة

وفي محرم سنة ١٠٢٥ هـ ورد الى الباشا المذكور امر من الاستانة ان يرسل الفاً
من جنود مصر لتنضم الى الجيش العثماني الذاهب لمحاربة الفرس . فارسلهم تحت قيادة
صالح بك امير الحج فساروا على اتم نظام ومروا بالمديريات ولم يشعر الاهالي بمرورهم
لما كان لهذا الباشا من النفوذ وما اقامه في مصر من النظام مع اعطائه الجيوش حقهم من
المرتبات . ولم يكن يتيسر قبل ذلك مرور مائة رجل بمقاطعة واحدة مالم ينهبوها .
والتحقت هذه الفرقة بالجيش العثماني في الخانقاه وانضمت اليه ولما ودع الباشا عساكره
فرق فيهم المال فاصاب الواحد منهم ٢٠ ديناراً على الاقل

وكانت مدة حكم احمد باشا سنتين وعشرة اشهر واثني عشر يوماً ولم يقتل في اثنائها اكثر من عشرة اشخاص ارتكبوا اموراً استوجبوا من اجلها القتل ولم يكن يحكم على احد الا بعد البحث الدقيق واستماع تقارير الدعوى من الطرفين

سلطنة مصطفى بن محمد ثم عثمان بن احمد ثم مصطفى بن محمد ثانية

من سنة ١٠٢٦ — ١٠٣٢ هـ او من ١٦١٧ — ١٦٢٣ م

وفي يوم الاربعا ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ هـ توفي السلطان احمد الاول وبويع اخوه السلطان مصطفى الاول ويوم مبايعته استبدل احمد باشا بمصطفى باشا لفغلي. لكن السلطان مصطفى لم يمكث على عرش السلطنة الا ثلاثة اشهر وثمانية ايام. وفي يوم الاربعاء ٣ ربيع اول سنة ١٠٢٧ هـ خلفه ابن اخيه ابو النصر عثمان. اما الوزير مصطفي باشا فلم يبق على مصر بعد خلع السلطان الذي ولاه الا بضعة اشهر لانه سهل النفوذ لذويه في الاحكام فنشأت ثورة عسكرية في ٧ شوال سنة ١٠٢٧ هـ فقتل الثائرون عدداً كبيراً من الامراء والاغوات وغيرهم من الكبراء واضطر الباقون الى الفرار ولم يسكن الاضطراب الا بعزل مصطفى باشا بامر السلطان عثمان. فتولى مكانه الوزير جعفر باشا وهذا لم تطل حكومته اكثر من خمسة اشهر ونصف. وكان محباً للعلم والعلماء يجمع اليه رجال الادب ويكرم مثواهم ولم يهتم كل تلك المدة الا بما فيه منفعة البلاد وراحة العباد

وظهر في ايامه وباء انتشر في مصر وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً من غاية ربيع اول سنة ١٠٢٨ هـ الى غاية جمادى الثانية من السنة المذكورة وقد لوحظ ان معظم الذين ماتوا بهذا الوباء شبان بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين اعمارهم وبلغ عدد من توفي بسببه ٣٦٥٠٠٠ نفس

وتولى بعد جعفر باشا مصطفى باشا فقبض على مصطفى بك الملقب بالبكاجي زعيم الثورة التي نشأت في ايام مصطفى باشا لفغلي وحكم عليه بالاعدام. فسر الناس بذلك لان مصطفى بك المذكور كان اصل متاعبهم. على ان سرورهم لم يلبث ان ظهر حتى ابدل بالكدر لان مصطفى باشا حاكمهم الجديد اضطهد تجارهم وضيق عليهم مسالك رزقهم. فرفعوا تظلماتهم الى السلطان فنظر في دعواهم وانصفهم فعزل ذلك الباشا وولي حسين باشا. فبادر هذا الى ابطال جميع الضرائب غير العادلة التي كان قد فرضها

سلفه . وفي ايامه ارتفع النيل ارتفاعاً فوق العادة فطاف على الارض واغرقها حتى يئس الناس من البقاء لنهاية ذلك الطوفان واصابهم ضيق عظيم عقبه طاعون شديد . ثم عزل حسين باشا واستقدم الى الاستانة وقبل وصوله اليها خلع السلطان عثمان الثاني يوم الخميس في ٨ رجب سنة ١٠٣١ هـ واعيد مصطفى الاول الذي كان قبله

اما الباشا المعزول فوصل الى الاستانة في اسعد الاوقات له لان اعراض السلطان السابق عنه كان داعياً لرغبة السلطان الجديد في تقريبه منه فاتفقت الاحزاب هناك على توليته الصدارة العظمى . وكان عثمان الثاني قبل وفاته قد بعث الى مصر محمد باشا بدلاً من حسين باشا لكنه لم يصل مصر الابعد ان انبيء اهلها بما كان يأتيه في الروملي يوم كان والياً عليها فنفروا منه وخافوا من تصرفه. ولحسن حظهم لم يبق بينهم الا شهرين ونصف شهر فلما تولى حسين باشا الصدارة العظمى عزله بأمر السلطان مصطفى الاول وولى ابراهيم باشا . وبقي هذا على مصر سنة وقد تمكن بحسن سياسته وتدبيره من اكتساب رضى الاهلين وثقتهم الا انه حصل في ايامه ضيق عيش وغلت اسعار المأكولات جدًّا

ولما عزل ابراهيم باشا سافر الى الاسكندرية بحراً خلافاً للعادة الجارية في من يعينوه على حكومة مصر فانهم كانوا اذا عزلوا من مناصبهم سافروا برًّا . وتولى مكانه مصطفى باشا واستلم زمام الاحكام في ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ هـ فاتاه كتبة الديوان يشتكون تصرف سلفه وقالوا انه مدين للخزينة بمبلغ وافر فارسل في اثره بعض الجاويشية فالتقوا به فهددهم بالقتل اذا لم يعودوا عنه فخافوا وعادوا الى القاهرة . فارسل الامير صالح بك فادركه وقد نزل البحر في الاسكندرية فاوعز اليه ان يقف فاجاب انه متوجه الى الاستانة فاذا كان عليه شيء يدفعه هناك الى السلطان نفسه . قال ذلك ونشر الشراع فمخرت به السفينة فاطلقوا عليه من طابية منارة الاسكندرية بعض الطلقات المدفعية فلم يبال بها

سلطنة مراد بن احمد

من سنة ١٠٣٢ ـــ ١٠٤٩ هـ او من ١٦٢٣ ـــ ١٦٤٠ م

فبلغ الاستانة والسلطان مصطفى الاول قد خلع وتولى مكانه السلطان مراد الرابع ابن احمد فلم يتعرض له احد. وبعد تولية مصطفى باشا بثلاثة اشهر اي في ١٥ ذي الحجة ورد الى القاهرة الامر بعزله وتولية علي باشا مكانه. فاجتمعت الاجناد وساروا الى القائمقام عيسى بك يطلبون الاعطاءات التي تفرق عند تولية كل وال جديد فانتهرهم عيسى بك قائلاً «افي كل ثلاثة اشهر تجددون هذه الطلبات» فاجابوه «وما المانع؟ الم يغير مولانا السلطان كل ثلاثة اشهر والياً علينا. الا يضر ذلك بمصلحة البلاد واذا اراد ان يولي كل يوم والياً فنحن ايضاً كل يوم نطلب الاعطاءات التي لنا». فحاول القائمقام اقناعهم فلم ينجح ولم يزدهم ذلك الا عناداً وتهديداً وصرخوا جميعهم بصوت واحد «نحن لا نرضى حاكماً آخر غير مصطفى باشا وليرجع هذا الى حيث اتى» ثم قراوا الفاتحة واقسموا ان يحافظوا على ما قالوه وان لا يخن احد منهم بذلك وبناء عليه اعيد مصطفى باشا الى منصبه

فلما راى الحزب العسكري معه كتب الى السلطان يطلب تثبيته وارفق الكتاب برسائل عديدة ممضاة من علماء القاهرة ومشائخها وقضاتها وجميعهم يطلبون تثبيته. ثم بلغهم وصول علي باشا الى الاسكندرية فبعثوا اليه وفداً يبلغونه ان الجند والاهلين متفقون على رفضه فجمع الوفد اليه ودفع اليهم كتباً كلها مدح واطناب للامراء والجيوش فعاد الوفد وقرأ تلك الكتب على الجند فلم يكن جوابهم الا اعادة الوفد ليعيدوا مطالبهم الاولى. فلما راى اصرارهم استشاط غضباً وامر فقبض على ذلك الوفد وقيدوا الى قلعة الاسكندرية مغلولين وزجوا في سجنها فتآمروا مع جند الاسكندرية وكانوا من حزبهم فحلوا وثاقهم وهجموا جميعاً على علي باشا وقوضوا خيمته واجبروه على الخروج من الاسكندرية حالاً فنزلوه في قارب مخصوص واخرجوه من الميناء وكانت الريح ضده فاعادته ثانية فاطلق عليه الامير مصطفى من قلعة المنارة عدة طلقات ثقبت سفينته ثقوباً لم تغرقها لكنها اخرجتها من الميناء ولقب الامير مصطفى من ذلك الحين بالطبجي

وفي ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٣٣ هـ جاء القاهرة كتاب يحمله حمام الزاجل — وهو

يريد تلك الايام — فحواه قرب وصول مندوب عثماني ومعه الاوامر السلطانية . وبعد ايام وصل ذلك المندوب ودخل القاهرة وجمع السناجق والامراء وكبار الموظفين في الديوان والبس مصطفى باشا الخلعة المرسلة اليه من السلطان . ثم تلا عليهم الفرمان بتثبيته على مصر . وفي السنة التالية زاد النيل زيادة فوق العادة فبلغ ٢٤ ذراعاً فخاف الناس ان لا ينحسر الماء عن اراضيهم في زمن يمكنهم فيه زراعتها . لكنه اخذ في الهبوط بسرعة فانكشفت الارض وزاد خصبها

الوباء وبيرام باشا

ولم تكد مصر تنجو من الجوع حتى داهمها ما هو اصعب مراساً منه — نعني الوباء فانه ظهر فيها باوائل ربيع اول سنة ١٠٣٥ هـ واخذ ينتشر في جميع انحائها بسرعة . وفي شعبان من تلك السنة اخذ بالتناقص ولم ينقض الا في اوائل رمضان . قال بعضهم ان الذين ماتوا بسبب هذا الوباء ثلاثمائة الف نفس . فتذرع الباشا بهذه الضربات لاختلاس اموال الناس فجعل نفسه وريثاً لكل من مات بالوباء من الاغنياء فاستولى على تركاتهم فظلم الورثاء الى الاستانة . ولا يخفى ان هذا الباشا لم يتولَّ مصر الا رغم ارادة الباب العالي فاغتنم هذه الفرصة فعزله وولى بيرام باشا فجاء وحاكم مصطفى باشا وحكم عليه بدفع الاموال التي اختلسها فباع كل ماله من المتاع والمقتنيات ودفع ما عليه . ولما عاد الى الاستانة (سنة ١٠٣٧ هـ) حكم عليه بالاعدام

ولا يخفى ان محاولة الجيوش والامراء عزل وتولية باشوات مصر بمجرد ارادتهم مخالف للنظام ومغاير لما وضعه السلطان سليم الفاتح لكل فئة من فئات مصر الحاكمة من الحدود . فكانت موافقة الباب العالي على مطاليب الامراء خرقاً للحدود السابقة . وعلى ما تقدم حصل بعض التعديل في القواعد الاساسية التي سنها السلطان سليم الاول منذ قرن . وكان بيرام باشا محباً للعلم والعلماء لكنه كان اكثر حبًّا لجمع المال واقامة المشاريع المفيدة وتنشيط التجارة على انواعها فاكثر من الضرائب حتى على الصابون وكان حازماً لم يترك للجند فرصة للتمرد فهدأت مصر في ايامه

محمد باشا وموسى باشا

ثم استدعي الى الاستانة وعين وزيراً في ديوانها وهذه هي المرة الثالثة لتعيينه في ذلك المنصب . فتولى بعده الوزير محمد باشا فساس الامور بحكمة ودراية وكان محبًّا للعزلة فلم يخرج بموكبه في اثناء حكمه التي هي نحو سنتين الا ست مرات . واتصل به ما اصاب اليمن من الشغب الناتج عن سوء السياسة مع القبائل البدوية فعرض على

السلطان اخضاعها وتعهد بارسال فرقة من رجاله بقيادة قنسوبك امير الحج لهذه الغاية. فاجابه السلطان الى ما طلب وولى قنسوبك على اليمن مع رتبة باشا وجعله بكاربكي (امير الامراء) على الجيش. فانشأ قنسو جيشاً من ثلاثين الف مقاتل وقبض مبلغاً كبيراً ليدفع منه نفقات الحملة وبعد ان قبضه توقف عن السفر وترك جيشه بمصر يسلبون وينهبون ويقتلون الاهلين ويتعرضون للمسافرين. ولحسن الحظ كان بين تلك الجيوش الف رجل من الروملي جاؤا للاشتراك في تلك الحملة تحت قيادة الامير جعفر آغا فاخمدوا تلك الثورة والزموا قنسوبك ان يسير بهم الى اليمن في محرم سنة ١٠٣٩ هـ فسار وحارب وفاز. وبعد سبعة اشهر من سفر تلك الحملة (في ١٩ شعبان) طاف على مكة سيل من الماء أغرق القسم الاعظم من ارضها حتى الكعبة فهدم معظم بنائها ولم يبقَ من جدرانها الا الايمن. فاتصل ذلك بوالي مصر فاوصله للسلطان مراد الرابع فانفذ السلطان الى محمد باشا يعهد اليه ترميمها ففعل. فبلغت جميع النفقات نحو مئة الف قرش (القرش يساي اربعة فرنكات تقريباً)

وفي سنة ١٠٤٠ هـ كان ارتفاع النيل قليلاً فجاء شهر توت ولم يبلغ ١٦ ذراعاً ومع ذلك فتح الخليج وسيقت المياه قليلة الى الاراضين ولكن البلاد امنت من الجوع بتدبير محمد باشا. وفي هذه السنة استدعي محمد باشا الى الاستانة وقلده السلطان منصب الوزارة في الديوان الشاهاني مكافأة لحسن سياسته ودرايته. وتولى مكانه في مصر موسى باشا. وكان للاهلين في بادئ الرأي ثقة فيه وكانوا يحبونه ويجلون قدره فخرجوا لملاقاته في شبرا لكنه لم يكد يمكن قدمه حتى استسلم لهواه. فاخذ في الاختلاس والاستبداد بانفس العباد فامر بقتل اكبر رجال مصر بغير وجه حق وجعل يراقب سير اغنيائها ويترصد خطواتهم لعله يجد سبيلاً للاستيلاء على ثرواتهم

وفي شعبان من تلك السنة بعث السلطان يطلب اليه ان يعد حملة من جنده لمحاربة الفرس فجمعها تحت قيادة قيطاس بك وضرب على البلاد ضرائب فاحشة باسم اعانة حربية. ولما وصلت تلك المبالغ اليه زعم ان مصر لا يمكنها تجريد مثل هذه الحملة لان ماليتها لا تسمح لها بدفع النفقات اللازمة. فنصح له قيطاس ان يتبع الاستقامة وهي افضل له فذهبت اقواله عبثاً. ثم اوجس موسى باشا خيفة من قيطاس بك لانه اطلع على فظائعه فاستدعاه الى القلعة في عيد الاضحى يوم الاربعاء في ٩ ذي الحجة وامر اربعين من رجاله ان يقتلوه ففعلوا

فلما راى الاميران كنعان بك وعلي بك ذلك وقع الخوف في قلبيهما واسرعا الى

الجيوش فاعلماهم بما كان من امر قيطاس بك مع موسى باشا فاجتمعت العساكر حالا في الرميلة . واما السناجق والامراء والقضاة وكبار الموظفين فاجتمعوا في جامع السلطان حسن وتفاوضوا في الامر فاقروا على عزل موسى باشا وتولية من يقوم مقامه موقتاً ريثما يأتي امر الباب العالي بشأنه فخلعوه واقاموا حسن بك مكانه . فكتب موسى باشا الى السلطان يعلمه بخبر تلك الثورة . وكان رؤساؤها قد رفعوا الى ديوان الاستانة كتابين الواحد بالتركية وقع عليه السناجق والاغوات وكبار ضباط العسكرية والآخر بالعربية من القضاة والمشايخ والعلماء يطلبون بصوت واحد خلع موسى باشا . فاجابهم السلطان الى طلبهم فولى عليهم خليل باشا

خليل باشا

وفي ربيع اول سنة ١٠٤١ هـ وصل خليل باشا الى مصر واستلم ازمتها . وبلغهُ ان جماعة من اللصوص ثاروا تحت رئاسة احد الشرفاء المدعو نامي ونهبوا مكة فجمع جند القاهرة وارسلهم بقيادة الامير قاسم بك لاخماد تلك الثورة . فساروا وحاربوا اللصوص وقتلوا زعماءهم . وفي صفر سنة ١٠٤٢ هـ عاد قاسم بك بجيشه الى القاهرة ظافراً . واقبلت غلة مصر تلك السنة وزاد خصبها وتضاعف ريعها ونزلت اسعار الحنطة من ثمانية غروش الاردب الى غرشين

وفي سنة ١٠٤٢ هـ استقال خليل باشا من ولاية مصر فخرج منها والناس يثنون عليه ثناءً جميلاً لانه كان عادلاً حليماً . فلم يكن يصدر حكمه الا بعد التروي بما يقوله المتخاصمان . ومما يحكى عنه انهُ جيء اليه يوماً بثلاثة لصوص قبض عليهم وهم متلبسون بالجناية . فامر ان يحاكموا فقال احد رجال ديوانه ان هذه الحادثة لا تحتاج الى محاكمة لثبوت الجناية فعلاً فيجب اصدار الحكم رأساً بالاعدام . فلم يكن جواب الباشا الا الامر بهدم بيت ذلك الناصح . فاستغرب الرجل ذلك وسأل عن السبب الموجب له فاجابه الباشا قائلاً « كيف يحق لك الاعتراض عليَّ اذا امرت بهدم بيتك المبني من حطام الدنيا ولا يحق لذلك الباني العظيم معارضتنا اذا هدمنا بنايته بغير وجه شرعي » ثم ابطل الامر بالهدم واطلق اللصوص . قال ابن ابي السرور ناقل هذه الحكاية ان اللصوص قلوا بعد تلك الحادثة احتراماً للباشا

وبعد استقالة خليل باشا من مصر عين على الروملي وتولى مصر الوزير احمد باشا الملقب بالكورجي وكان قبلاً اميرياخور . وفي صفر سنة ١٠٤٣ هـ وردت له الاوامر الشاهانية ان يبعث الفين من عساكر مصر الى سوريا مدداً للحملة العثمانية على دروز لبنان مع خمسة آلاف قنطار من البقسماط واربعة آلاف قنطار من البارود .

ثم جاءت اوامر اخرى بطلب الفي رجل آخرين وثلاثة الاف قنطار من البارود لمحاربة الفرس . فراى احمد باشا ان مصر لاتقوم بهذه الطلبات فاعتذر الى السلطان فبعث اليه ١٢ الف قنطار من النحاس ليسبكها نقوداً على ان يبعث عوضاً عنها الى الاستانة ثلاثماية الف زر محبوب

النقود بمصر

وللنقود في مصر تاريخ لابأس من الاشارة اليه — كانت المعاملة بمصر عند الفتح الاسلامي بالدرهم وهو وزن درهم من الفضة والدينار وهو مثقال من الذهب وكان الدينار يبدل بعشرة دراهم . ثم تكاثرت الفضة فصار الدينار يساوي ١٢ درهماً في ايام بني امية و١٥ درهماً في اوائل بني العباس ثم زادت قيمته الى ٢٠ درهماً او ٢٥ او ٣٠ باختلاف الاحوال . فلما كانت الحروب الصليبية واختلط الافرنج بالمسلمين دخل البلاد الاسلامية كثير من النقود الافرنجية وحدثت نقود ذهبية جديدة كالبندقي والمجر والبينتو وزر محبوب (وهو الدينار) والجنيه العثماني والافرنجي والمصري وغيرها وكلها من الذهب . اما النقود الفضية فابدلت دراهمها بالانصاف وهي البارات وكانت المبيعات الصغرى تقدر بالانصاف والكبرى بالبندقي او الزر محبوب او غيرهما من النقود الذهبية

فاخذ احمد باشا في سبك النحاس واعد لذلك عمالاً ومعامل . ثم راى بعد حين ان جميع هذه الاجرآات ذاهبة عبثاً لان الفعلة ملوا العمل ومات اكثرهم من الحر والجهد فجمع اليه ذوي شوراه من الامراء وقضاة الاقسام والقرى واستشارهم . وكان من رايه ان يدفع مطاليب السلطان من ماله الخاص ثم يجعل النحاس سبائك صغيرة لتباع في بلاد السودان بين تكرور وبلاد الزنج . فرأى احد القضاة رايآ آخر وهو ان يجبر اهالي القاهرة على استلام هذا النحاس ودفع المبالغ المطلوبة . وان يفرق النحاس عليهم مقادير متناسبة لما يدفعونه فوافق الجميع على ذلك واخذوا في تنفيذه في ١٦ ذي الحجة سنة ١٠٤٣ هـ وتموه في آخر شعبان من السنة التالية

وكان ذلك ثقلاً عظيماً على كاهل المصريين لانه لم ينج من هذه الضريبة غني ولا فقير فقلت النقود وغلت الحبوب وسائر المأكولات غلاء فاحشاً وزاد في الطنبور نغمة ان النيل في السنة التالية لم يكن وفاؤه حسناً لكن الناس استغلوا الارض غلة متوسطة

مظالم وتعديات

وبعد يسير دعي احمد باشا الى الاستانة فسار ولم يدفع الاموال التي جمعت للخزينة فرفع المصريون شكواهم بشأن ذلك فلما وصل الاستانة حكم عليه بالاعدام . وتولى مكانه الوزير حسين باشا فجاء مصر في عصابة من الدروز التقطهم من كل ناد وكان

من قاطعي السبل فساموا المصريين انواع العذاب نهباً وقتلاً فاضطربت الاحوال واقفلت الحوانيت ووقفت حركة الاعمال . وهذا اصل استهجان المصريين لكلمة « درزي » على ما يظن

وابطل حسين باشا حقوق الوراثة فاذا مات احد الناس استولى هو على تركته واحرم منها ورثته الايتام او الارامل او الثكالى واذا اراد احد الانتقام من عدو له يكفيه ان يشي به الى حسين باشا بأنه غني او ابن غني فيزجه الباشا في السجن ولا يخرج منه الا بالبذل الكثير . ولم يكن يمر يوم لايطوف فيه حسين باشا المدينة في موكبه ولا تغيب الشمس قبل ان يقتل رجلاً او رجلين او اكثر . ويخطر له احياناً ان يقتل كل من لاقاه في طريقه انساناً كان او حيواناً . وقد حسب عدد الذين ذهبوا فريسة عتو هذا الغاشم في مدة حكمه وهي سنة و١١ شهراً فبلغوا نحواً من الف ومائتي نفس غير الذين كان يقتلهم بيده . وكان له هيبة في قلوب رجاله فاراد يوماً ان لايشاركوه بالقتل والنهب فحظر عليهم ذلك فلم يعودوا يجسرون على المخالفة ولم يسمع بشيء من تعدياتهم من ذلك الحين

ثم اقيل وخلفه الوزير محمد باشا بن احمد باشا وابن ابنة السلطان سليم الثاني . وفي شوال من سنة ١٠٤٧ هـ وردت اليه الاوامر ان يرسل الف وخمسماية مقاتل نجدة للحملة العثمانية الى بغداد فارسل تلك الفرقة بقيادة امير الحج قنسوبك في محرم سنة ١٠٤٨ هـ فسارت ولم ترجع الى مصر الا بعد الاستيلاء على تلك المدينة في صفر سنة ١٠٤٩ هـ

واتبع هذا الباشا خطوات سلفه بالاختلاس والنهب فجمع ثروة عظيمة من تركات الامراء والعلماء فقام عليه الورثة وبعد الجهد تمكنوا من تحصيل نصف الاموال . وازداد ظلماً وعتواً حتى منع الصدقات التي كانت تدفع الى الارامل والايتام واخذها لنفسه فكثرت التظلمات وتعددت العائلات المعسرة . وفي يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ هـ توفي السلطان مراد الرابع

ش ١٤ : نقود السلطان مراد الرابع بن احمد

وترى في شكل ١٤ صورة النقود الذهبية للسلطان مراد الرابع ضربت في القاهرة سنة ١٠٣٢ هـ وهي سنة توليته

سلطنة ابراهيم بن احمد

من سنة ١٠٤٩ — ١٠٥٨ هـ اومن ١٦٤٠ — ١٦٤٨

فظن المصريون ان في تغيير السلطان منجاة لهم مما كانوا يكابدونه . فبويع اخوه السلطان ابراهيم بن احمد وامر حالاً باستبدال محمد باشا واحرمه من العطية التي كانت تعطى لحاكم مصر عند ما يستقيل من منصبه . لكنه امر بعد ذلك بابقائه فعاد الى اعماله وازداد ظلماً وعسفاً ففتك بالناس فتكاً ذريعاً لم يبق ولم يذر

ثم استبدل محمد باشا بمصطفى باشا الملقب بالبستانجي [1] وكان ابي النفس على نوع ما الا ان كاتبه احمد افندي كان عاتياً غشوماً وكانت ازمة الاحكام بيده فاستبد بها فكره المصريون الحياة من اجله واتفق في ايامه تقصير النيل فازدادت الاثقال بغلاء الحبوب . ولم يكن الباشا يتعرض للاحكام مطلقاً فكثرت السرقات حتى لم ينج حي من احياء القاهرة من النهب واضطر الناس الى مهاجرة بيوتهم . وكان رئيس الضابطة اذا جيء اليه ببعض اللصوص لا تغيب عليهم الشمس في السجن . ومثل ذلك كان يفعل الكشاف « حكام الاقاليم » فتواترت التشكيات الى الباشا فاضطر الى عزل رئيس الضابطة وتولية كنعان بك مكانه فاهتم هذا بالقبض على اللصوص فسجن عدداً كبيراً منهم

وفي شوال سنة ١٠٥١ هـ ثارت الجهادية وتمرد الجاويشيون على رئيسهم الامير علي لانه لا يفرق الاعطيات الا على كتبته فلم يرَ الباشا بدًّا من عزله وتولية عابدين بك في مكانه . فلما راى سائر الجيش ما كان من فوز الفئة الثائرة ثاروا جميعاً وادعوا ان مخازن الحبوب فارغة وطلبوا معاشاتهم المتأخرة منذ سنة . فعين محمد افندي قاضي العسكر لتحري دعواهم فتفقد مخازن الحبوب فرآها حقيقة فارغة وعلم ان ما كان فيها باعه الكاتب واخفى ثمنه . فاضطر الباشا مراعاة لطلب الجمهور ان يتخلى عن كاتبه مع شدة حبه له فاستنجد الجاويشية فانجدوه واعادوه الى مركزه فازداد تمرداً وبغياً في الانتقام . ثم استقال مصطفى باشا وتولى الوزير مقصود باشا وكان والياً على ديار بكر قديماً . فلما استلم مقاليد الاحكام بمصر بحث عن تصرفات سلفه فاطلع على اعماله فقبض

١ هو لقب فرقة من الجنود العثمانية يومئذ رئيسها يعرف بالبستانجي باشي وهو من اعظم وزراء الدولة

ل كاتبه والكخيا وجلدهما واجبرهما على ارجاع مائتي كيس من النقود الى الخزينة . مصطفى باشا فأرسل الى الاستانة وهناك اخذ منه مائتا كيس سلمت للخزينة ثمانية واصبح في جملة الوزراء السبعة العظام

الوباء

وفي ايام مقصود باشا قاست مصر امرَّ العذاب من وباء وفد عليها كان اصعب قراسا من الوباء الذي وفد في ايام علي باشا وجعفر باشا لانه كان عاماً لم ينج من صابته الشيوخ ولا الشبان وقد اصاب من الشيوخ واحداً في الثمانية . ظهر هذا الوباء ولاً في بولاق باوائل شعبان سنة ١٠٥٢ هـ وبعد ذلك بشهرين ظهر في القاهرة . وما ل على معظمه من اول ذي القعده من تلك السنة الى غاية صفر من سنة ١٠٥٣ هـ اخذ بالتناقص شيئاً فشيئاً ولم ينقض حتى انقضى الشهر الثاني . ولم يكن يسمع الا وفيات المتتابعة في كل ساعة . وكانت الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة فيمر الشارع الواحد احياناً ثلاثون او اربعون جنازة . وقد روى ابن ابي السرور هو من المؤرخين المعاصرين ان جملة من صلي عليهم من المتوفين في الجوامع الخمسة الرئيسية في القاهرة في اثناء ثلاثة اشهر الفان وتسعماية وستون . وصاروا في اخر الامر يدفنون موتاهم بلا صلاة وعدد هؤلاء لايقل عن عدد الذين صلي عليهم . اما خرج القاهره فلم يكن الوباء اقل فتكاً ويقال ان ٢٣٠ قرية اصبحت خراباً لاصابة سكانها جميعاً بذلك الداء

مقصود باشا

فلما راى مقصود باشا ما الم بمصر من الدمار سعى في اصلاح الاحوال جهده واستعمل الرفق والغى الضرائب التي وضعها اسلافه بغير الحق . وجعل الوراثة في الاقرباء الشرعيين مع دفع شيء من التركات الى الحكومة وتحرى التعديات تحريا جديداً وشدد في القبض على اللصوص فقبض على كثيرين منهم فقتل بعضاً وسجن بعضاً وقاصَّ آخرين حسب ذنوبهم مع الصرامة فاستكنت النفوس وطابت قلوبهم . وبينما كان هذا الباشا ساعياً في ما تقدم ظهرت في الاسكندرية في ٢٠ ذي القعدة من تلك السنة ثورة كدرت اعماله . وذلك ان نحواً من ستمائة من المسيحيين كانوا تحت تهمة القصاص مغلولين في سجون الاسكندرية ففي اليوم المذكور فتقوا السجون والمسلمون في الجوامع يصلون وطفقوا ينهبون الحوانيت والمخازن والبيوب ولم يبقوا ولم يذروا . ولما ملأوا جعبة مطامعهم نزلوا الى مركب كان بانتظارهم في البحر

وأقلعوا يطلبون الفرار

ولم يكن ذلك كل ما هدد مقصود باشا وحال دون مشاريعه بل هناك ما هو ادهى وامرُّ . وذلك ان جماعة السناجق تآمروا على عزله في يوم الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٠٥٤ هـ باجتماع عقدوه في بيت الامير رضوان بك الملقب بابي الشوارب . وسبب ذلك ان مقصود باشا كان قد طلب اليهم حباً بايفاء رواتب الجيش عن شهر رمضان ان يدفعوا الثلث الاول من المال الذي يطلب منهم للخزينة عن الاقطاعات العسكرية التي في ايديهم . فرفضوا بالاجماع وطلبوا عزل بعض الموظفين الذين يعدونهم من انصار الباشا . فسلم لهم الباشا بما ارادوا فلم يقنعوا بذلك فكتبوا الى الاستانة يشكون من سوء تصرفه ووافقهم كثيرون من الاعيان فكتب اليه الباب العالي راساً ما مفاده « ان الحضرة الشاهانية لم تعلم اسباب الثورة الجهادية التي انتشبت في مصر وتتعجب كيف ان الباشا لم يبلغ الباب العالي خبرها » فاجاب الباشا انه لم يحصل لديه ما يدعى ثورة وانما هناك بعض الاختلافات التي يرجو اصلاحها بالتي هي احسن ولذلك لم يكن ثمَّ حاجة لابلاغها . فطلب اليه الباب العالي ان يتحرى ويعاقب المعتدين ويصرف الامر بما يتراءى له . ومع كل ذلك اضطر الى الاذعان لكنه اراد الفتك بالامير علي بك والامير ماماي بك والدفتردار شعبان بك لعلمه انهم زعماء تلك الثورة فاعد لهم كميناً ليقتلوهم في الديوان وعين لذلك يوم الاثنين في ٢٣ ذي الحجة سنة ١٠٥٤ هـ لكن الدفتردار نزل الى الديوان وحده في ذلك اليوم فشاور الباشا عقله بين ان يفتك به وحده أو يخفي ما في ضميره ريثما يفتك بالثلاثة معاً فاقر اخيراً على ارجاء ذلك العمل الى يوم آخر

ايوب باشا وغيره

وفي اليوم التالي جاء الفرمان بعزله وتولية الدفتردار شعبان بك قائمقاماً يتعاطى الاحكام وقتياً فشق ذلك على الباشا لكنه اذعن وسلم مقاليد الاحكام لشعبان بك فكتب السناجق الى الباب العالي يطلعونه على حقيقة ما حصل في ايام الباشا السابق ويطلبون اليه الاسراع في ارسال من يخلفه فانفذ اليهم ايوب باشا . وكان قبل ذلك الحين من رجال القصر الشاهاني . فلما عهدت اليه هذه الولاية تردد في قبولها لما رأى من الاخطار المحدقة بها لكنه لم ير بدًّا من قبولها . وقد كان رجلاً حازماً مستقيماً استعان برجاله على ادارة الاعمال فلم تمض سنتان على حكمه حتى استتب النظام وسادت الراحة . ثم استقال من ذلك المنصب بعد ان صار وزيراً وعكف على العبادة واعتزل

السياسة وزهد زهد الدراويش فتنازل عن املاكه في الاستانة الدائرة الخاصة الهمايونية وانفرد في احد المعابد في الروملي . فولى مكانه الوزير محمد باشا حيدر سنتين و نصف ولم يحسن الادارة فارتبكت الاحوال

وفي ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ هـ ثارت فرقة من الانكشارية في مصر القديمة فهددهم والي الشرطة فازدادوا تمرداً فساروا الى الباشا وطلبوا قتل ذلك الوالي ولم يكن ذنبه الا انه قام بما عليه فوافقهم الباشا على ما ارادوا . اما الوالي فكان من وجاق الجاويشية . فلما علم هؤلاء بعزم الباشا قاموا يشكون من سوء تصرفه بصوت واحد فخاف ان تبلغ هذه التشكيات مسامع الباب العالي فتعود العاقبة وبالاً عليه فاجتمع بقنسو بك واستشاره بما يفعل وكان هذا لا يشير الا بما يعود عليه بالمنفعة الشخصية فاشار على الباشا ان يرفع الى الاستانة تقريراً سرياً يشرح فيه ما حصل من القلاقل وينسبها جميعها الى الاميرين رضوان بك وعلي بك وينسب اليهما ايضاً اختلاس الخزينة المصرية وانهما سلباه منصب امير الحج وحكومة جرجا كل ذلك لكي يرجع قنسو بك وماماي بك الى منصبيهما

رضوان بك وعلي بك

فباشر الباشا كتابة ذلك التقرير وطلب الى بعض الاعيان ان يوقعوا عليه فبلغ ذلك مسامع رضوان بك فاسرع الى كتابة تقرير مناقض لتقرير الباشا وبعث به الى الاستانة فوصل قبل تقرير الباشا وفيه ما فيه من التشكيات ضد قنسو بك وماماي بك فورد الجواب من الاستانة مفوضاً الى رضوان بك وعلي بك امر النظر في تلك القضية وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٠٥٧ هـ ورد الفرمان بذلك الى الباشا وفي ٢٧ منه استدعاهما الباشا الى القلعة فاستدعيا قنسو بك وماماي بك وامرا بقتلهما وقتل امراء آخرين كانوا على دعوتهما . ولم تكد تتخلص مصر من دسائس هؤلاء حتى ظهرت دسائس مصطفى نكيا الملقب بالششنير لانه لم يسم سنجقاً عوضاً من قنسو بك . وفي ٨ رمضان من تلك السنة وردت الاوامر الى علي بك ان يترك القاهرة ويتوجه حالاً الى حكومته في جرجا . وبعد ثلاثة ايام استدعى الباشا رضوان بك الى وليمة في القلعة فخاف من دسيسته فابى الحضور فغضب عليه الباشا وجرده من امارة الحج فخرج رضوان بك من القاهرة في مائتين من رجاله وفيهم عدة من الامراء والكشاف واتحد مع علي بك فبعث الباشا على اثرهما الفين من جنوده ونحو خمسمائة من الانكشارية فاجتمع الجند في الرميلة واقروا على اغفال اوامر الباشا . ثم وردت الاوامر من الاستانة بتثبيت رضوان بك وعلى بك في منصبيهما . فاضطر الباشا الى استقدام

الاميرين فقدما الى القاهرة في ١٩ رمضان بما لهما من الرواتب والحقوق فسعى الى مصالحتهما مع مصطفى نكيا

وفي ٦ ذي الحجة من تلك السنة شاع في القاهرة ان الوزير مصطفى باشا سمي على مصر عوضاً من محمد باشا بن حيدر . وفي ٢٦ منه وردت الاوامر قاضية باعادة محمد باشا الى منصبه . وفي ١٧ رجب سنة ١٠٤٨ هـ توفي السلطان ابراهيم وتولى مكانه السلطان محمد الرابع

وترى في شكل ١٥ صورة النقود الفضية للسلطان براهيم بن احمد ضربت في القاهرة سنة ١٠٤٩ هـ

ش ١٥ : نقود السلطان ابراهيم بن محمد

سلطنة محمد بن ابراهيم

من سنة ١٠٥٨ — ١٠٩٩ هـ او من ١٦٤٨ — ١٦٨٧ م

وبلغ خبر ذلك التغيير الى مصر في اوائل رمضان مع عزل محمد باشا وتولية الوزير احمد باشا فاستلم هذا زمام الاحكام مدة سنتين كلهما اضطراب وقلاقل

واول تلك القلاقل كانت سنة ١٠٦٠ هـ بسبب تقصير النيل فانه لم يرتفع تلك السنة اكثر من ١٦ ذراعاً فلم يرتو من ارض الصعيد الا الثلث اما الوجه البحري فلم يرتو منه شيء تقريباً . فغلت الاسعار حتى خيف من المجاعة

اما الباشا فلم يكن يهمه غير تكثير الضرائب مع انه لم يكن يرسل منها الى الاستانة الا الثلثين وكان لسوء نيته يرسل تلك المبالغ في عهدة رضوان بك ليحمل الباب العالي على الشك بامانته فيتغير خاطر السلطان عليه . وكان اتاماً لمكيدته يكتب الى الباب العالي على التتابع يشكو من تصرف رضوان بك ويطلب خلعه عن امارة الحج وتقليدها لعلي بك . وكان هذا على ما علمت من الصداقة مع رضوان لكنه لم يكن يعلم بدسائس الباشا . اما الباشا فكان في نيته ان يوقع الضغائن بين الاميرين فيحل عرى اتحادهما لكنه لم يتم مقصده حتى اتى الامر العالي بعزله يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ هـ ورضوان بك لم يرجع الى القاهرة بعد . ولم تكن نتيجة مساعي احمد باشا الا زيادة تألف قلبي ذينك الاميرين وكان من كرم اخلاقهما ان كلا منهما كان يتنازل

الآخر عن امارة الحج فاعجبت هذه الاريحية المصريين فاحبوهما وبالغوا في احترامهما حتى اقاموا لهما دعاء عمومياً في الرملة . والباشا اذ ذاك محبوس في القلعة ولم يفرج عنه حتى دفع للخزينة مبالغ وافرة . فتولى مكانه الوزير عبد الرحمن باشا وما زال الى اول شوال سنة ١٠٦٢ هـ وقد قاسى ما قاساه سلفه من السجن والاهانة لانه سار على خطواته . فاختار الباب العالي الوزير محمد باشا ليقوم مقامه في ٥ شوال من تلك السنة ولكنه لم يدخل القاهرة الا يوم الثلاثاء في ٨ محرم سنة ١٠٦٣ هـ

وما زالت الولاة تتوالى على مصر ولا شيء من اعمالهم واحوالهم يستحق الذكر. وفي آخر الامر تحول النفوذ كله من ايديهم الى ايدي البكوات المماليك وهم يعدون مصر وطنهم ويغارون عليها . اما الباشوات اذا اتوا مصر لايكون ديدنهم الا اكتساب الثروة باية طريقة كانت لعلم كل منهم انه لا يلبث ان يأتيه الامر بالعزل وقلما عزل احدهم ولم يكن السجن مأواه

السلاطين سليمان بن ابراهيم واحمد بن ابراهيم

ومصطفى بن محمد

من سنة ١٠٩٩ — ١١١٥ هـ او من ١٦٨٧ — ١٧٠٣ م

فالسلطان محمد الرابع أقيل من السلطنة في ٣ محرم سنة ١٠٩٩ هـ واودع السجن حتى مات (سنة ١١٠٥) وبويع السلطان سليمان الثاني وبعد ٣ سنوات توفي (في ٢٠ رمضان سنة ١١٠٢ هـ) فبويع السلطان احمد خان ويدعى احمد الثاني وبعد ٣ سنوات ونصف توفي (سنة ١١٠٦) فبويع ابن اخيه السلطان مصطفى خان وهو مصطفى الثاني بن السلطان محمد الرابع . وبعد ٩ سنوات تقريباً (في جمادى الاولى سنة ١١١٥هـ) اقيل وتوفي في السجن (في محرم سنة ١١١٩ هـ)

سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١١١٥ — ١١٤٣ هـ او من ١٧٠٣ — ١٧٣٠ م

وبويع اخوه احمد خان وهو احمد الثالث وكانت مدة حكمه على المملكة العثمانية نحواً من ٣٠ سنة . وفي ايامه حصلت ثورات عديدة انتهت بتحول سلطة الباشوات ونفوذهم الى البكوات المماليك . وكانت قلعة الجبل سجناً للباشوات الذين كانوا يتولون الاحكام ولا يهمهم منها الا الكسب الشخصي

وقد توالى على مصر من سنة ١٠٦٣ هـ الى ١١١٩ هـ اثنان وعشرون والياً اغضينا عن ذكرهم لعدم اهميتهم . وفي سنة ١١١٩ هـ في ايام السلطان احمد خان تولى مصر حسن باشا وكان على القاهرة قاسم عيواظ بك بوظيفة شيخ بلد

ومشيخة البلد منصب كان يتولاه احد البكوات المماليك كما يتولون ادارة المديريات ويقابل محافظة القاهرة اليوم . ولم يكن المنصب بنفسه مهماً ولكن تراخي الباشوات واستفحال امر المماليك جعل لهذا المنصب اهمية كبرى حتى افضى النفوذ بتوالي الايام الى صاحبه وصار اليه الامر والنهي كما ستراه في ما يلي

قاسم بك وذو الفقار بك

وكانت المماليك في مصر على حزبين كبيرين يعرفان بالمماليك القاسمية نسبة الى قاسم بك والفقارية نسبة الى ذي الفقار بك . وكان هذان الحزبان لا ينفكان عن المنافسة يحاول كل منهما اكتساب النفوذ له واذلال الآخر . اما اصل هذين الحزبين ففيه اقوال منها انهما ينسبان الى اخوين هما قاسم بك وذو الفقار ولدي سودون احد امراء المماليك في عهد السلطان سليم الفاتح وان السلطان سليماً هو الذي نشطهما ونشط احزابهما . وقد ذكر الجبرتي لذلك قصة طويلة لا حاجة بنا الى ذكرها . وبعضهم يقول ان هذين الحزبين ينسبان الى قاسم عيواظ بك الدفتردار وذي الفقار بك الكبير سنة ١٠٥٠ هـ وكان قاسم عيواظ بك رئيس الطائفة القاسمية وذو الفقار بك رئيس الفقارية وكان لكل من هاتين الطائفتين مناقب مختصة بها . فالفقارية كانت توصف بالكثرة والسخاء والقاسمية بالثروة والبخل . وشارة الفقارية علم ابيض مزاريقه برمانة والقاسمية علم احمر

وكانت هاتان الفئتان قبل تولي حسن باشا في وفاق تام فلما جاء خشي من اتحادهما

نعمد الى الدسائس فالقى بينهما الشقاق فحصلت بين الطائفتين وقائع دامت ثمانين يوماً وكانوا يخرجون من القاهرة الى مكان يعرف بقبة العرب يومياً ويأخذون بالكفاح من شروق الشمس الى غروبها ثم يعودون الى القاهرة فيقضون الليل بسلام في بيوتهم بين نسائهم واولادهم ثم يعودون في الصباح التالي الى المحاربة . ومن الغريب ان هذه المحاربات لم تؤثر في الراحة العمومية مطلقاً فظلت الاشغال جارية في مجراها والحوانيت والمخازن تفتح وتقفل كالعادة

مشيخة اسماعيل بك

وانتهت تلك الوقائع بوفاة قاسم عيواظ بك فأسف عليه الناس وبكوه بكاءهم على حاكم عادل او اب حنون بارّ . ولم يبقَ صديق ولا عدوٌ حتى بكاه لانه كان فضلاً عن حكمته وعدله ودعته شجاعاً باسلاً ابي النفس . فاقاموا ابنه اسماعيل بك مكانه شيخ بلد وصادق الباشا على ذلك لظنه ان اسماعيل لصغر سنه يكون آلة بيده يديرها كيف شاء فزاد كدر ذي الفقار بك واشتد حنقه لانه كان ينتظر ان يأول ذلك المنصب اليه .

وكان اسماعيل عاقلاً حكيماً كوالده عارفاً وجه الربح والحق فسعى في الوفاق مع طائفة الفقارية فاتحدت الطائفتان على الباشا . وكان اسماعيل بك من الجهة الاخرى يظهر الطاعة والرضوخ لاحكام الباشا لانه رئيسه لكنه لم ينفك ساعياً سرًّا في خلعه فكتب عنه الى الاستانة ففاز بعزله فجاء غيره ثم ابدل بآخر فآخر واسماعيل بك في منصبه والرعية يحبونه الى ما يشبه العبادة

ومما يحكى عنه ان احد تجار القاهرة في ايامه واسمه عثمان باع لاحد القبقجية (لقب يعطى للحرس السلطاني) ثلاثمائة قفة بن الى اجل مسمى وكتب عليه بذلك صكاً . فقبل الاستحقاق جاء من الاستانة اعلان بخيانة القبقجي والحكم عليه بالاعدام حالاً فجيء به الى الباشا فقتله ووضع يده على تركته وفيها البن كما هو . فعلم عثمان التاجر بذلك فعرض لاسماعيل بك ماكان من امر البن فجبر الباشا ان يرجع البن لصاحبه قبل كل شيء ففعل فاصبح عثمان في حال من الامتنان لا يعرف كيف يبينها . فلاح له ان يهديه علبة مرصعة وبضعة قناطير من السكر النقي فرفض اسماعيل بك تلك الهدية وخاطب عثمان التاجر قائلاً « اذا كان المال الذي حصلت عليه بواسطتي حقاً لك فاكون قد فعلت الواجب عليّ والله يكافئني فاذا قبلت هديتك اظلم نفسي . اما اذا كان هذا المال ليس لك وانما حصلت عليه بالحيلة فقبولي هديتك يعدّ مشاركة لك

بالخيانة لكنني مع ذلك اقبل السكر الذي حملته الي على ان تقبض ثمنه من وكيلي لاني سآمره ان يدفعه اليك »

ويحكى عنه ايضاً انه كان يأدب في ليالي رمضان مأدبات يجتمع اليها العلماء والفقهاء والمشايخ وقراء القرآن ولم يكن يؤذن لغير هؤلاء في الحضور فيها . فرأى ذات ليلة رجلاً بين الحضور عليه ملامح الكآبة واليأس فاوصى بعض الخدم متى ارفض الاجتماع ان يأتوا به اليه ففعلوا فلما حضر بين يديه اعطاه مصحفاً وامره ان يتلو عليه سورة . فتوقف الرجل وجلاً ثم ترامى على قدمي البك متضرعاً وقال « يعش سيدي البك اني رجل نجار لا اعرف القراءة وانما اتيت الى هذه المأدبة متنكراً بثوب الفقهاء لاملأ جوفي من الطعام فاني في حالة من الفاقة شديدة » فانصفه ولم يكتف بالاغضاء عن ذنبه لكنه جعله في عداد خدمته وجعل لعائلته راتباً معيناً . وصار هذا النجار بعد ذلك من اصدق الخدمة واكثرهم غيرة وهمة

وما زال اسماعيل بك شيخاً للبلد ١٦ سنة تقلب في اثنائها على مصر عدة بشوات كانوا اسماً بلامسمى . وكان لحسن سياسته قد اوقف الفقاريين عن كل حركة لتظاهره انه على وفاق معهم فلم يجعل لهم فرصة يتحدون بها عليه . على انه ارتكب خطأ واحداً آل الى قتله . وذلك ان احد المماليك الفقارية واسمه ذو الفقار ايضاً كان له عقار يقوم بنفقات عائلته فاختلسه منه احد المماليك القاسمية (من مماليك اسماعيل بك) فرفع ذو الفقار دعواه الى شيخ البلد (اسماعيل بك) فلم يصغ لطلبه وقضى بالعقار لمملوكه . فشق ذلك على ذي الفقار فرفع دعواه الى زعيم الفقارية وبقال له شركس بك . وكان خصماً لاسماعيل بك بالفطرة فسار الى الباشا وخاطبه بشأن تصرف اسماعيل بك . وكان في قلب الباشا حزازات من الحسد عليه فوافقه على الايقاع به ثم قال له « ليس لك وسيلة افضل من ان تبعث احد مماليكك وتأمره بقتله وانا اجعل له جميع ما يتركه من المال والنساء مكافأة لاتعابه »

فوافقه على رأيه وعين لتلك الفعلة اول يوم يجتمع فيه الديوان وامر مملوكه ذا الفقار ان يستعد لاجرائها فقبل اعتماداً على وعد الباشا . فني اليوم المعين جاء ذو الفقار الى الديوان وفيه اسماعيل بك فتقدم اليه وقبل يده قائلاً « ارجو ان تأمر بارجاع عقاري الي » فاجابه اسماعيل بك « سننظر في طلبك هذا » فألح عليه فانتهره فاستل خنجراً ماضياً بقر به بطنه فتدفقت امعاؤه ومات لساعته في وسط الديوان فهجم رجال الباشا وقتلوا كل من كان هناك من رجال اسماعيل ولم ينج منهم الا سريع العدو

هكذا كانت نهاية حكم اسماعيل بك سنة ١١٣٦ هـ فنقلت جثته الى بيته ثم دفنت بجانب
جة ابيه بجوار باب اللوق

فتولى مشيخة البلد شركس بك واستولى ذو الفقار على جميع ممتلكات اسماعيل
ك ونسائه حسب وعد الباشا فاصبح رجلا عظيماً يشار اليه بالبنان وفي حوزته مئات
ن المماليك نخافه شركس بك واخذ يسعى في اذاقته ما اذاقه لاسماعيل بك . فعلم
و الفقار بتلك الدسائس فجمع اليه رجاله وفيهم عدة من الرجال العثمانيين وهجم على
شركس بك فجرت واقعة لم يستطع رجال شركس الثبات فيها اكثر من ربع ساعة
قتل معظمهم وفر الباقون وزعيمهم معهم يطلبون الصعيد وهو الملجأ الوحيد
لبكوات المغضوب عليهم

ذو الفقار بك

فتولى ذو الفقار مكانه مع لقب بك بعد ان اقرّ الباشا على ذلك واصبح ذو الفقار
عدوًّا لاترابه البكوات وعلى الخصوص لابي دفية (سمي بذلك لانه كان يتشح برداء
كبير يقال له دفية) ثم انبيء ذو الفقار بك ان ابا دفية ساع في اهلاكه وحاول ذلك مراراً
ولم ينجح . اما شركس بك فجمع دعاته في الصعيد وسار بهم نحو القاهرة فارسل
و الفقار بك عثمان كاشف احد كبار قواده في فرقة من المماليك لمحاربته فتقهقر شركس
ورجاله مراراً حتى لحق ببلاد البربر

فكر ذو الفقار من خمرة النصر واخذ في الانتقام من البكوات الذين في القاهرة
وقتل منهم من يظن فيه الانحياز الى شركس بك وهم كثيرون فاتحد من بقي حياً منهم
مع رئيس الشرطة والاغا رئيس الانكشارية وبعثوا الى شركس بك بما كان من فعلة
ذي الفقار وتعاهدوا جميعاً على محاربته وانضم اليهم مصطفى القرد وكان من اعداء ذي
الفقار ومعه جماعة من الرجال الاشداء . فقدم شركس بك الى القطر المصري فعلم
و الفقار بذلك فجمع اليه العلماء والمشايخ وشاورهم في الامر فاجمعوا على عدم مناسبة
الهجوم في تلك الحال الا اذا تأكد الفوز فلم يصغ لمشورتهم فارسل عثمان بك احد
قواده لمحاربة شركس بك فحصلت بينهما واقعة قتل فيها مصطفى القرد وغرق شركس بك
في النيل وهو يحاول الفرار . فبعث عثمان بك برأسيهما الى ذي الفقار . اما هذا فلم يهنأ
بذلك النصر لانه قتل بعد قتل عدوه شركس بيومين بمكيدة اعدها له البكوات في
القاهرة — وذلك انهم البسوا واحداً منهم دفية وجاؤا به الى بين يدي ذي الفقار وقالوا له

« هذا ابو دفية قد جعله الله في ايدينا » وكانوا قد جعلوا تحت دفيته عيارين ناريين . فلما وقف بين يديه اطلقهما عليه دفعة واحدة فسقط ذو الفقار مضرجاً بدمائه في وسط ديوانه سنة ١١٤٢ هـ فعلم عثمان بك بما اصاب رئيسه فهرع للاخذ بثاره فدخل القاهرة وجعل يفتك بمن يصادفه في طريقه تخافه الجميع

ثم ان محمد بك احد البكوات الذين كان يترقبهم عثمان بك راى منصب مشيخة البلد خالياً فطمع فيه فعاهد صديقه صالح كاشف على ان يقتلوا من بقي من زملائه البكوات بحيلة ينصبها لهم . فأدب محمد بك مأدبة فاخرة دعاهم اليها فلبوا دعوته ثم علموا بحيلته فقاوموه مقاومة شديدة وتمكنوا من قتله . فيئس صالح كاشف من مرامه ففر الى القسطنطينية بعد ان شاهد رؤوس البكوات ملقاة على الطريق امام جامع الحسين . ثم عقب هذه القلاقل ضربة اشد وطأة نعني الوباء الذي اصاب مصر في تلك السنة ويدعى طاعون الكي فانه انتشر في البلاد انتشاراً سريعاً وفتك بالعباد فتكاً ذريعاً . ورافق كل هذه الضربات خلع السلطان احمد الثالث في جمادى الاولى سنة ١١٤٣ هـ

وترى في شكل ١٦ صورة النقود الذهبية للسلطان احمد بن محمد مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١١١٥ هـ

ش ١٦ : نقود السلطان احمد بن محمد

سلطنة محمود بن مصطفى

من سنة ١١٤٣ — ١١٦٨ هـ او من ١٧٣٠ — ١٧٥٤ م

وبعد عزل السلطان احمد بويع ابن اخيه محمود بن مصطفى خان وهو السلطان الرابع والعشرون من بني عثمان ويدعونه محموداً الاول وبقي هذا على كرسي السلطنة خمساً وعشرين سنة . اما الباشوات الذين تولوا مصر في ايامه فلم يكونوا اكثر اهلية من اسلافهم وكانت الاحكام قائمة بمشايخ البلد ولهم الحل والعقد لا يستطيع الباشوات معارضتهم في شيء

مشيخة عثمان بك

فبعد قتل ذي الفقار بك تولى مكانه عثمان بك المتقدم ذكره فرقى كثيرين من مماليكه الى رتبة البكوية ليقوموا مقام الذين هلكوا بالحوادث الاخيرة . وكان عثمان بك عادلاً حازماً ولكنه كان صارماً لايراعي في تنفيذ العدل جانباً فعلم مرة ان احد بكواته يسعى في اقليمه ظلماً فاستدعاه اليه فتحقق ارتكابه فقطع راسه . ويحكى عن عثمان بك حوادث كثيرة تشير الى حزمه واستقامته وقسطه لابأس من ذكر بعضها على سبيل المثال

يحكى ان حماراً من حماري القاهرة اراد ترميم مذود حماره . وهو يفعل ذلك عثر في احد جدران البيت على وعاء مملوء ذهباً ففرح جدًا واخذ الوعاء وسلمه الى امراته واوصاها ان تكتم الامر لئلا ينكشف للحكومة فتأخذ المال منه لان لها وحدها الحق بالاستيلاء على مخزونات الارض . فطلبت المراة من زوجها ان يبتاع لها حليا وثياباً فاخرة لتتمتع بتلك الهبة فأبى زوجها اجابة طلبها لئلا يقود ذلك الى كشف الحقيقة فاغاظت واسرعت لساعتها ووشت به الى عثمان بك فاستدعى الحمار وبعد ان سمع حقيقة الحال صرفه قائلاً « احفظ ما وهبك الله وطلق امراتك وعش بسلام »

ولما جاء الوباء الى مصر كان عثمان بك في اول حكمه فلما راى الجوع الذي عقب الوباء فتح مخازنه وخزائنه وفرق الاقوات والاموال في الناس . ومع ذلك لم يستطع النجاة من مكايد ذوي المطامع وفي مقدمتهم ابراهيم واسماعيل رضوان الاول نكيا (١) الانكشارية والآخر نكيا العزب وكان كلاهما من المماليك الواحد من طائفة القزدغلية والآخر من طائفة الجلفية . واصل الطائفة الاولى مملوك يقال له القزدغلى كان سروجيا واصل الطائفة الثانية احمد الجلفي كان في اول امره شيالاً واغناه الله بطريقة في غاية الغرابة لا بأس من ذكرها وهي

جاء بعض المماليك الى احدى معاصر الزيت ليبتاع مؤونة بيته من الزيت مدة السنة وكان احمد الجلفي شيالاً في تلك المعصرة فابتاع المملوك الزيت واستأجر احمد لحمله وسار معه حتى بلغا بيته فانزل الحمل ووقف ينتظر اجرته . فجاءه المملوك وطلب اليه ان يساعده في اخفاء مبلغ من النقود في احد جدران البيت والح عليه ان يكتم الامر سرًا واعطاه بضعة دراهم مكافأة لذلك . فساعده واخذ الدراهم وسار في سبيله

(١) ويكتب ايضاً كتخدا وكان لكل وجاق نكيا وفي عهدته ملاحظة شرطة ذلك الوجاق وقضاياه

حامداً شاكراً . وبعد ثلاثين يوماً اتفق له المرور بالقرب من ذلك البيت فشاهد جماهير مجتمعة . ثم علم ان ذلك المملوك توفي وقد عرضت تركته للبيع . فتقدم احمد وابتاع البيت الذي فيه المخبأة وبعد ارفضاض الجمع استخرج النقود وسار بها الى قريته (جلف) في مصر العليا وامتلك ممتلكات كثيرة ثم اتسعت ثروته وما زال حتى اصبح زعيماً لعصابة كبيرة نسبت اليه

وكان ابراهيم واسماعيل رضوان في بادئ الراي على تباين كلي بالادبيات والماديات : كان ابراهيم في ضيق من المعاش مع اقدام وبسالة ومطامع كبيرة . وكان اسماعيل غنياً بليداً لايهمه الا التمتع بالملذات والشهوات . فكان ابراهيم في احتياج الى اسماعيل ولذلك كان يتقرب منه . ثم تزوج ابراهيم ابنة محمد البارودي احد التجار الاغنياء واخذ معها مالاً كثيراً فتمكن بذلك من التقرب الى بيت شيخ البلد والقاء المفاسد فيه بواسطة بعض المماليك والاتراك وغيرهم من ذوي الرتب كان يستعملهم آله لتنفيذ مآربه . ثم تأتى له الارتقاء الى رتبة البكوية مع صديقه اسماعيل رضوان فصار اسمه رضوان بك واتحد الاثنان على السراء والضراء ووحدا ممتلكاتهما واجتزءا بالسواء من محصولاتها

فاوجس عثمان بك خفية من سرعة نمو ثروتهما وملافاة لما كان يخشى حدوثه من طموح انظارهما ضم اليه ثلاثة احزاب احدها حزب ابراهيم بك القطامش وفيه ثلاثة بكوات . والثاني حزب علي بك الدمياطي وفيه بيكان . والثالث حزب علي نكيا الطويل وشاورهم في الامر فاقروا على قتل ابراهيم بك وكان اذ ذاك نكيا الانكشارية ورضوان بك فوافقوه على ما اراد . وكان وكيله احمد السكري من مماليك ابراهيم بك فلم يمكنه كتمان ذلك عنه فجاء اليه واخبره بجميع ما كان من التواطؤ على قتله وقتل رفيقه . فسار للحال الى رضوان بك واخبره وتشاورا بشأن ذلك فقررا نصب احبولة يقتلان بها عثمان بك فبعثا اليه رجالاً يترصدونه في طريقه الى القلعة فمرفوثبوا عليه فمر بجواده حتى دخل القلعة ولم يظفروا به . فلاقاه وكيله وقد اضمر له الشر فسأله عما المّ به فاخبره بما كان فكلمه بلسان الثعلب ناصحاً له ان يبرح المدينة حالاً لان الناس قد قاموا يطلبون قتله وما زال حتى اقنعه ففر الى سوريا وسار هو معه . حتى اذا دنوا من غزة تنحى احمد عن الطريق واختبأ في قرية يقال لها الاشرفية بحجة استطلاع الاحوال لحماية عثمان بك فتربص هناك مدة ثم عاد الى القاهرة بمن معه من المماليك وسار الى ابراهيم بك واعلمه بما فعله فكافأه على تلك الخيانة برتبة البكوية . وهم الاهلون بيت

عثمان فاحرقوه واقتسموا تركته

اما هو فوصل سوريا وحده وسار منها الى الاستانة فولي بروصة ولبث فيها حتى توفاه الله . وجميع هذه الحوادث توالت على مصر في اثناء سنة ١١٥٦ هـ

ابراهيم كخيا ورضوان بك

فلما خرج عثمان بك من مصر صفا الجو لابراهيم كخيا ورضوان بك فعملا على ابادة الاحزاب التي تآمرت عليهما فاخذ رضوان بك على نفسه قتل علي كخيا الطويل فأمر احد مماليكه ان يقتله بالرصاص في وليمة حافلة فلبى المملوك الامر لكنه اخطأ الرمي وعوضاً من ان يصيب علياً اصاب مملوكه الذي كان بجانبه فقبض عليه وقتل للحال . اما ابراهيم كخيا فتكفل باهلاك من بقي من الاحزاب وكان على ولاية مصر اذ ذاك كيور احمد باشا فطلب اليه ابراهيم ان يوافقه على ابادة البكوات فوافقه وربما فعل ذلك خوفاً منه او لانه يعود عليه بالنفع الشخصي واستعانوا بالنقود فبذلوها فسهلت مشروعهم حتى قتلوا علي بك الدمياطي بيد وكيله سليمان في وسط الديوان وقد وعدهم هذا بتسليم رؤوس البكوات الآخرين من احزابه . فامر ابراهيم كخيا ورضوان بك ان تقفل جميع منافذ القلعة على من فيها من البكوات المنوي قتلهم وجعلا على بابي الانكشارية والعزب جنداً . وحافظ سليمان على وعده فبوشرت المذبحة واول من قتل فيها خليل بك من دعاة الدمياطي ومحمد بك من دعاة قطامش وكثيرون غيرهم . وحاول علي بك وعمر بك البلاط الفرار فتبعهما الباشا بنفسه ثم لاقاهما ابراهيم ورضوان وقتلاهما عند باب القلعة ولم يدفن من القتلى الا محمد بك وخليل بك

ولم يبق من مناظري ابراهيم كخيا ورضوان بك الا ابراهيم قطامش وعلي كخيا الطويل . فالاول مات من الحزن بعد مدة قصيرة والثاني هاجر من تلقاء نفسه تاركاً الدار ومن بناها . فصفا الجو لابراهيم كخيا فتولى مشيخة البلد وسمي رضوان بك اميراً للحج . ثم جعلا يتبادلان هذين المنصبين كل سنة وعاد كل منهما الى ميله الطبيعي ابراهيم الى مطامعه ورضوان الى ملاهيه . فاخذ ابراهيم كخيا يفسد الاحكام ويستخدمها لاسترجاع مابذله للحصول عليها فلم يغادر وسيلة الا استخدمها في سبيل مطامعه من قتل وفتك فابتدأ بسليمان قاتل علي بك الدمياطي فحجر عليه في القلعة ولم يفرج عنه حتى استرجع منه ما كان اعطاه من النقود . ثم باغت من بقي من الاغنياء في القاهرة ووضع يده على ممتلكاتهم بعد ان قتل بعضاً منهم وبقي البعض الاخر . فاستولى في يوم واحد على اموال ثمانين بيتاً من بيوت القاهرة ووضع يده على

محصولات البلاد والكمارك والقرى والمخازن حتى الحوانيت الصغيرة فلم يبق ولم يذر

وكان كيور احمد باشا قد استدعي الى الاستانة وولي حكومة قبرص فاقيم مقامه باشا آخر سنة ١١٥٦ هـ فعامله ابراهيم كخيا بالاحتقار فحقد عليه . ثم اتفق غياب ابراهيم في قافلة الحج الى مكة فاغتنم الباشا غيابه وتواطأ مع حسين بك الخشاب على مكيدة يعدانها لابراهيم فاتفقا على ان يقوم الخشاب بقتل ابراهيم ورفيقه رضوان وان يكافئه الباشا على ذلك بمشيخة البلد . فلما رجع ابراهيم سعى الخشاب في انجاز وعده ففاز بالقبض على الاثنين فسجنهما في القلعة فولاه الباشا مشيخة البلد . لكنه لم يهنأ بها لان دعاة ابراهيم كخيا اتحدوا وهجموا على حسين بك والباشا واخرجوا المسجونين ففر الخشاب الى مصر العليا واختبأ في ابريم من بلاد النوبة . اما الباشا فاستدعي الى الاستانة فعاقبه السلطان عقاباً انتهى بالموت

نشأة علي بك الكبير

وكان في حوزة ابراهيم كخيا اكثر من الفي مملوك في جملتهم علي الذي سيلقب بعلي بك الكبير ويكون له شأن عظيم بهذا التاريخ وسترى في سيرته انه من افراد الدهر حزماً وبطشاً وحكمة . وكان علي سلحداراً بين مماليك ابراهيم كخيا . وكان ابراهيم يحبه كثيراً ويجل مواهبه حتى جعله ناقل سيفه . ومما زاده تعلقاً به انه اصطحبه الى الحرمين في قافلة وكان قد صار كاشفاً . فسار قائداً لتلك القافلة فلاقاهم في الطريق عصابة من اللصوص فدفعهم علي بقلب لايهاب الموت فلقبوه بالجني . ولما رجع ابراهيم كخيا الى القاهرة عزم على مكافأة علي برتبة بك لكن صغر سنه ودسيسة الخشاب حالا دون ذلك

ثم عقب ذلك شاغل اكثر اهمية زاد الامر تأخيراً — وذلك انه جاء القاهرة خبر وصول باشا جديد الى الاسكندرية بدلاً من الباشا الذي اخرج منها . وكان من عادة رجال الحكومة في مصر اذا علموا بمجيء باشا جديد ان يبعثوا وفداً يلاقونه في الاسكندرية وفيهم العيون والجواسيس فيحيطون به يستطلعون مقاصده ونواياه ويطلعون على ما في يده من الاوامر السلطانية فاذا رأوا تلك الاوامر سامية ومقاصده حسنة رحبوا به وفتحوا له الطريق حتى يصل بولاق فيحتفل الامراء بلقائه . اما اذا تبينوا من احواله غير ذلك ابلغوا الامراء بالقاهرة فيجتمعون ويقررون اعلانه ان يقف حيث هو ويكتبون الى ديوان الاستانة بعدم مناسبة ذلك الباشا الجديد وان بقاءه في مصر مخل بالنظام العمومي او ربما حمل الرعية على الثورة . ثم يطلبون استبداله بآخر اكثر موافقة للبلاد منه

فلما اتصل بهم خبر قدوم هذا الباشا واسمه راغب محمد باشا سار شيخ البلد بنفسه لاستقباله ومعه البكوات فخلع على كل واحد منهم خلعة كالعتاد . ثم اجتمعوا جميعاً بجلسة رسمية واقسموا على الطاعة والاخلاص لامير المؤمنين . واحب الامراء راغب باشا محبة عظيمة لانه عرف كيف يعامل شيخ البلد فاحبته الرعية ومالوا بكليتهم اليه وقضى بين ظهرانيهم سنتين كلهما سلام وطمأنينة حتى اجمع البكوات على استبقائه بينهم زمناً طويلا

ش ١٧ : اكبر رجال الدولة بملابسهم الرسمية
الصدر الاعظم والقائم مقام والرئيس افندي وعضو المجلس

وهم في ذلك ورد الى الباشا خط شريف (١) ان يسعى جهده في قطع دابر البكوات وفي جملتهم شيخ البلد ومن يلوذ به . فاستنتج الباشا من نص ذلك الخط ان ديوان الاستانة مشتبه بتصرفه في مصر وانه وشى الى جلالة السلطان بان اتفاقه مع بكوات مصر ليس الا لعزمه على استخدامهم في مآربه بالاستقلال بحكومة مصر واخراجها من طاعة الدولة العلية . فوقع في حيرة وتردد بين ان ينفذ الاوامر الشاهانية مع مافيها من الخطر أو ان يعصيها او يؤخرها فيعرض حياته للخطر ويؤيد التشكيات التي تقدمت بحقه . وبعد ان نظر في المسألة من سائر وجوهها فضل الفتك باصدقائه البكوات . فتواطأ مع عصابة من رجاله انه متى اجتمع البكوات في مجلسه فليكونوا على

(١) يقصدون بالخط الشريف الاوامر الصادرة من جلالة السلطان رأساً

استعداد للهجوم عليهم معاً عند اول اشارة . ففعلوا ما امرهم به لكنهم لم يفوزوا كل الفوز لان ثلاثة من البكوات تمكنوا من النجاة وفي مقدمتهم شيخ البلد بعد ان جاهدوا الجهاد الحسن واوسعوا الباشا تعنيفاً على فعلته هذه التي لم يكونوا ينتظرونها منه بعد ما اظهروه نحوه من اللطف والاخلاص . فبرا ساحته باطلاعهم على الفرمان السري الوارد له بهذا الصدد فكفوا عن الانتقام منه لكنهم عزلوه وكتبوا الى الاستانة يطلبون بدله . وعينوا ثلاثة بكوات في مكان الثلاثة الذين قتلوا بتلك المكيدة

واغتنم ابراهيم كخيا هذه الفرصة لترقية علي كاشف فرقاه الى رتبة بك فشق ذلك على احد البكوات المدعو ابراهيم بك شركسي المولد يعرف بابراهيم بك الشركسي وكان من دعاة ابراهيم كخيا لكنه تظاهر عند ذلك بعداوته وتمت بينهما الضغائن ولم تنته الا بقتل ابراهيم كخيا بعد ذلك بخمس سنوات بيد ابراهيم بك الشركسي المذكور سنة ١١٦٨ هـ . وفي تلك السنة توفي السلطان محمود بن مصطفى

وترى في شكل ١٨ صور نقود السلطان محمود بن مصطفى مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١١٤٣ هـ فالاولى منها ذهبية وهي صورة القطعة المعروفة باسم زر محبوب أو سكوين . والثانية ذهبية ايضاً وهي نصف سكوين أو نصفية والثالثة صورة القطعة النحاسية المعروفة بالجديد

ش ١٨ : نقود السلطان محمود بن مصطفى

سلطنة عثمان بن مصطفى

من سنة ١١٦٨ — ١١٧١ هـ او من ١٧٥٤ — ١٧٥٧ م

فبويع اخوه السلطان عثمان بن مصطفى ويدعونه ايضاً عثمان الثالث وبقي على كرسي الخلافة ثلاث سنوات فقط . فشفى ابراهيم بك الشركسي غليله بقتل ابراهيم كخيا لكنه لم يرو مطامعه لان مشيخة البلد انتقلت الى رضوان بك

صديق ابراهيم كخيا ثم ظهر لرضوان منافس آخر من زعماء حزب ابراهيم يقال له حسين ك اصبح بعد قتل الكخيا اكبر رجال ذلك الحزب فادعى لنفسه الاولوية بمشيخة البلد م تقبل دعواه فجمع اليه بعض دعاته المماليك وصعد الى قلعة القاهرة واستولى على طارية من المدافع تشرف على بركة الفيل حيث يقيم رضوان بك فاطلق بعض القنابل لى المنازل فخرقت جدرانها فتداعت اركانها ورضوان بك مشغول بحلاقة لحيته . ما احسّ بالامر طاب جواده ولم يعلُ ظهرهُ حتى اصيب برصاصة كسرت فخذه . تمكن من الفرار ومعه بعض المماليك الى قرية الشيخ عثمان وهناك توقف عن المسير زيادة الالم ومعه رئيس الضابطة وكان مجروحاً ثم توفي الاثنان ودفنا معاً

فسمي حسين بك من ذلك الحين شيخ البلد واخذ يتقرب من اترابه البكوات وهم لا يزيدون منهُ الا نفوراً. ولم تمض بضعة اشهر من توليته حتى كمنوا له في مكان مصاطب الشاب في السهل الواقع بين القاهرة وارض ابراهيم بك . وكان مشتغلا بعرض جنوده المماليك فهموا به وذبحوه ثم قطعوه ارباً ارباً وصار يعرف من ذلك الحين بحسين بك المقتول . فتولى مكانه خليل بك واشتهر بحب القتل وكان متظاهراً بالعداوة والحسد لعلي بك على الخصوص لاعتقاده انه اشد اعدائه وطأة واقواهم عزيمة

سلطنة مصطفى بن احمد

من سنة ١١٧١ — ١١٧٨هـ او من ١٧٥٧ — ١٧٧٤ م

وفي سنة ١١٧١ هـ تولى الخلافة العثمانية مصطفى بن احمد وهو مصطفى الثالث . والحقيقة ان علي بك كان كثير الاخلاص لابراهيم كخيا لا ينفك ساعياً في الانتقام له ولكنه كان يرى السبيل الاقرب والاسهل لبلوغ مرامه انما هو القوة . فاخفى في ضميره ٨ سنوات اشتغل في اثنائها بجمع القوة . فابتاع عدداً وافراً من المماليك ووطد علائقه مع البكوات الآخرين واكتسب ثقتهم بما كان يظهره من الغيرة عليهم والاخلاص لهم وما كان يكرمهم به من الهدايا . وما زال يخطو خطوة بعد اخرى حتى اقترب من النقطة المطلوبة فاوجس خليل بك خيفة منه وجعل يتجسس حركاته بالارصاد والعيون ويعدُّ المكائد في شوارع القاهرة . ففي ذات يوم هجم عليه حسين كشكش بامر خليل بك وبعد موقعة هائلة اضطر علي بك ان يفر الى الصعيد في طائفة من اصدقائه البكوات يستعد للانتقام مضاعفاً

فصرح خليل بك ان علي بك واتباعه البكوات مجردون من رتبهم وحقوقهم وولى مكانهم بكوات من ذويه وقتل من ظفر به في القاهرة من اصدقاء علي بك او المنتمين اليه . اما علي بك فالتقى في الصعيد بواحد من مماليك مصطفى القرد يدعى صالح بك كان منفياً هناك وفي قلبه من خليل بك حزازات فاتحد الاثنان ورجالها وزحفا على القاهرة . فخرج خليل بك وحسين بك كشكش فدارت رحى الحرب فكان الفوز لعلي ورفيقه فطاردا خليل بك ورجاله حتى قطعوا مديرية القليوبية واوصلوهم الى المسجد الاخضر على ضفاف النيل . واشتد الكفاح هناك فالتجأ خليل بك ورجاله الى طنطا فبعث علي بك كاشفه محمد الملقب بابي الذهب ليهاجمهم فهاجمهم واستلم طنطا بعد ان قتل حسين كشكش اما خليل بك فاختبأ بالمسجد وبقي فيه وقد غلبه الجوع ثم قبض عليه ونفي الى الاسكندرية وخنق هناك . ونقلوا رؤوس القتلى الى القاهرة وطافوا بها في اسواقها

علي بك الكبير

من سنة ١١٧٧ — ١١٨٧ هـ او من ١٧٦٣ — ١٧٧٤ م

فتمكن علي بك بهذا الانتصار من استلام مشيخة البلد في القاهرة سنة ١١٧٧ هـ واول امر باشره قتل ابراهيم الشركسي الذي قتل سيده فثارت عليه احزابه يطلبون الانتقام وهم عديدون فخاف علي بك على حياته ففر الى سوريا فالتجأ الى متسلم (حاكم) بيت المقدس وكانت بينهما صداقة قديمة الا ان هذا الملجأ لم يحمه الا شهرين لان اعداء البكوات لما علموا بمقره شكوه للسلطان مصطفى واخبروه بمقره فانفذ الى متسلم القدس فرماناً يأمره به ان يرسل علي بك مخفوراً الى الباب العالي . فعلم علي بك بذلك ففر الى عكا وهناك اكتسب صداقة الشيخ ضاهر العمر امير تلك المدينة الحصينة فاكرم وفادته وسعى في تبرئته امام الباب العالي . وبمساعدة نصرائه من اصدقاء ابراهيم نجا اكتسب له العفو من الحضرة الشاهانية فالغيت الاوامر بالقبض عليه واعيد الى القاهرة في منصبه الاول

وفي سنة ١١٧٩ هـ اي بعد ذلك بسنتين هدد علي بك بالاقالة من ذلك المنصب — وذلك ان محمد راغب باشا الذي كان على مصر وعزل منها على ما مرّ بك كان يتذكر

كرم اخلاق علي بك مذ كان كاشفاً . فبعد استقالته من مصر ولي بر الاناضول وبعد تسع سنوات صار صدراً اعظم وما انفك متذكراً صداقة علي بك لا يفتر عن معاضدته وتسهيل مطالبه سرًّا وجهراً . ففي سنة ١١٧٩ هـ توفي الوزير محمد راغب باشا فأصبح علي بك في حاجة لمن يعضده . فاغتنم اعداؤه هذه الفرصة ووشوا به الى الاستانة فاضطر ان يفر الى اليمن ولم تأت سنة ١١٨٠هـ حتى عاد الى القاهرة واسترجع منصبه بمساعدة احزابه وموت اربعة من دعاة ابراهيم الشركسي . ثم تراءى له ان صديقه صالح بك تحدثه نفسه بخرق حرمة الصداقة واتباع داعي المطامع الشخصية فوكل امر قتله الى ابراهيم كاشف احد اتباعه فقتله طعنا وسترى ان ابراهيم هذا سيرتقي حتى يتولى مشيخة البلد

وراى علي بك ان قبائل العربان في مصر السفلى قد شقت عصا الطاعة فانفذ اليها احد مماليكه المدعو احمد في فرقة من الرجال فحارب اولئك العربان وامعن في قتلهم حتى لقبوه بالجزار وهو الذي تولى عكا بعدئذ واشتهر باحمد باشا الجزار . اما من بقي من اعداء علي بك فخافوا ولزموا السكوت وتحقق تخلصه من القلاقل والمفاسد والمقاومات وراى من باب الاحتياط والحرص ان يرقي ثمانية عشر مملوكاً من اتباعه الى رتبة البكوية لينصروه وقت الحاجة وهذه اسماؤهم :

١	رضوان ابن اخيه	من جورجيا
٢	علي الطنطاوي	» »
٣	اسماعيل	» »
٤	خليل	» »
٥	عبد الرحمن	» »
٦	حسن	» »
٧	يوسف	» »
٨	ذو الفقار	» »
٩	عجيب	» »
١٠	مصطفى	» »
١١	احمد الجزار	» اماسيا
١٢	سليم آغا	انكشاري
١٣	سليمان نكيا	»

ص ١٩ : صورة ختم سليمان نكيا

١٤	لطيف	شركسي
١٥	عثمان	«
١٦	ابراهيم	«
١٧	مراد	«

ولهذين الاخرين شأن في هذا التاريخ لانهما سيتنازعان السلطة في مصر

١٨ محمد

وكان يعز محمداً هذا اكثر من الجميع وستراه رجلاً عقوقا منكراً للجميل . ولما تقلد البكوية لقب بابي الذهب فاحب ان يجعل هذا اللقب اسماً على مسمى فتظاهر بالكرم المفرط وبدلاً من ان يفرق العطايا بالبارات فرقها بالارباع

اما علي بك فكان ساهراً على مصلحة البلاد سهراً تاماً وكان مخلصاً في اعماله فطهر البلاد من اللصوص وسعى جهده في اصلاح شؤونها فساد الامن فيها بعد ان كانت معرضاً للقلاقل والمفاسد . ولم تقف مطامع علي بك عند هذا الحد فانه راى من تحامل الواشين بينه وبين ديوان الاستانة وايقاع ذوي الاغراض به وبسلطته ما حمله على السعي في الاستقلال بمصر وتجريدها من رعاية الدولة العثمانية لكنه كتم مقاصده وجعل يسعى في تنفيذها تحت طي الخفاء

مساعيه في سبيل الاستقلال

واول خطوة خطاها نحو هذه الغاية انه انتحل اسباباً بنى عليها عزل مستخدمي الملكية والجهادية ورؤساء الوجاقات واستبدلهم برجال على دعوته الاّ وجاق الانكشارية فانه لم يمسه بعد ان تمكن من استبقائه تحت حمايته وسد جميع السبل التي يمكنه بها التطرق الى مقاومته وأخر دفع مرتبات الوجاقات الاخرى عمداً وصار يدفع رواتبهم اقساطاً عملة ورق بول كانت تخسر المائة منها تسعين فكان يربح ارباحاً عظيمة باسترجاع الورق بالاثمان البخسة وصرفه ثانية بثمنه الاصلي . فلما رات رجال الوجاقات انهم لا يستولون من ماهياتهم الا على العشر كرهوا الاستخدام بالعسكرية وجعلوا يستقيلون منها شيئاً فشيئاً ويتعاطون اشغالاً اخرى اكثر فائدة لهم

ثم سعى في تقليل العساكر العثمانية واستخدام المماليك من دعاته . حتى صاروا نحواً من ستة الاف وحظر على سائر البكوات والكشاف الذين يخشى تغيرهم عليه ان يقتني احدهم اكثر من مملوك او مملوكين . وكان على ولاية مصر اذ ذاك محمد باشا فازعجته اجراآت علي بك وخشي عاقبتها فنصح له ان يقف عند حده فلم يكترث بقوله . فاقر على مقاومته لان هذه الاجراآت مضادة لمصلحة الباب العالي ولكنه لم يكن يستطيع

لمجاهرة بمقاصده هذه فاخذ يدسها سرًّا واتحد مع من بقي من دعاة ابراهيم الشركسي واجمعوا على الانتقام من علي بك ثم جعلوا يسعون فساداً بين احزابه واستجلبوا بعضاً منهم الى جانبهم بالمواعيد المبنية على الحسد والطمع . وفي جملة هؤلاء محمد بك ابو الذهب الذي طمره علي بك بفضله حتى ازوجه ابنته وكان يناديه كمايناديه اولاده . ولم يكونوا يستطيعون تنفيذ مآربهم جهاراً فاغروا صهره محمد بك المذكور بالمال ووعدوه انه اذا قتل علي بك يتولى المشيخة مكانه فقبل لكنه علم بعدئذ انه يقصر عن مناوأة علي بك واستعظم الجناية فعدل عنها الى جناية تقرب منها . وذلك انه شكى الى علي بك معاملة الباشا له فاسرع علي بك الى انقاذه منه وما انفك عن الباشا حتى اخرجه من مصر فعاد الى الاستانة . ولم يزدد علي بك الا ثقة في محمد بك ابي الذهب واخلاصاً له رغم ما كان ينقل اليه عنه من السعي ضده

وفي سنة ١١٨٢ هـ انتشبت الحرب بين روسيا والدولة العلية فبعثت هذه الى مصر ان تمدها باثني عشر الفاً فوصلت الاوامر لعلي بك بذلك ومشروعه لم ينضج بعد فلم يسعه الا مباشرة ما أمر به فابتدأ بجمع الجنود . اما اعداؤه فاغتنموا تلك الفرصة للوشاية فضموا اليهم الباشا الجديد الذي كان قد ارسل من القسطنطينية بدلا من الباشا الذي اخرجه علي بك واتفقوا جميعاً على كتابة تقرير امضاه الباشا وسائر البكوات اعداء علي يشون به الى الديوان الشاهاني بدعوى انه انما اراد بما يجمعه من الجيوش معاضدة روسيا للاستقلال بمصر فانفذ الديوان الشاهاني الى الباشا امراً مشدداً ان يقتل علي بك ويرسل راسه الى الاستانة

فاتصل ذلك بعلي بواسطة اصدقائه بالاستانة فبعث علي بك الطنطاوي احد دعاته في عشرة من اتباعه المماليك متنكرين بلباس البدو يكمنون على مسافة قصيرة من القاهرة حيث لا بد للقابجي باشي حامل ذلك الفرمان من المرور به فمكثوا هناك ثلاثة ايام وفي اليوم الرابع بان لهم القابجي ومعه اربعة رجال فوثبوا بهم وقتلوهم وطمروهم في الرمل واخذوا ملابسهم والفرمان وساروا الى علي فقراه ثم جمع اليه ديوان البكوات العمومي واطلعهم عليه واقنعهم ان ذلك الامر ليس لقتله وحده بل لقتلهم جميعاً ثم خاطبهم قائلاً « دافعوا اذا عن حياتكم وحقوقكم واعلموا ان مصر ما برحت منذ القدم يحكمها دول من المماليك كانوا سلاطين اشداء تفاخر بهم الارض السماء فاعيدوها اليهم . وهذه فرصة لاتضيعوها فانكم لن تعثروا عمركم على فرصة مثلها : هلم اذا نسعى في الاستقلال فان فيه حياتنا وحريتنا »

استقلال علي بك بمصر

فتأثر البكوات من فصاحة علي وبلاغته وكانوا ثمانية عشر قد اجمعوا على دعوته فعاهدوه على الدفاع عنه ما استطاعوا الى الدفاع سبيلاً . اما سائر الامراء المماليك من اعدائه فخافوا العاقبة ولزموا السكوت . فكتب ديوان علي بك امراً الى الباشا ان يبرح الديار المصرية في ثمان واربعين ساعة واذا لم يفعل يقتل وان مصر قد اصبحت مستقلة . وبعث علي الى الشيخ ضاهر العمر امير عكا يعلنه رسمياً باستقلال مصر ويدعوه للمساعدة في ذلك فاجابه الشيخ ضاهر مسروراً وجمع اليه رجاله ورجال بنيه السبعة وصهره وانضم الجميع الى جنود علي وكان قد اضاف الى الستة الآلاف التي عنده من المماليك الاثني عشر الفاً التي جمعت مدداً للعثمانيين واضاف الى هذه ايضاً رجال اصدقائه البكوات حتى رجال اعدائه لانهم لم يعد يسعهم الا طاعته

فاتصل ذلك بالاستانة فارسل الباب العالي امراً الى والي دمشق ان يسير في ٢٥ الفاً لمنع جنود عكا من معاضدة علي فسار الوالي في ذلك العدد من الرجال فلاقاه الشيخ ضاهر في ٦ آلاف بين لبنان وبحيرة طبرية ورده على اعقابه سنة ١١٨٣ هـ . وكانت هذه الواقعة آخر الوقائع لان الباب العالي امسك بعدها عن ارسال الجند كانه نسي علاقته مع سوريا ومصر بالكلية

أما علي فاغتنم اشتغال الدولة العلية بالمحاربة مع روسيا وصرف عنايته في تنظيم مملكته الجديدة واصلاح ما داخلها من الخلل فخفض الضرائب وجعل على المالية مدبر الكمرك القديم المعلم ميخائيل فرحات القبطي بدلاً من يوسف بن لاوي الاسرائيلي وكان قد قتل جزاء خيانته . ونظم التجارة الخارجية والمواصلات وابعد العربان الى الصحراء فاستولى الامن وانتشر الاصلاح في القطر فزادوا على القاب علي لقب بلوط قبان (مبيد اللصوص)

قبيلة الهوارة

وكان في جملة القبائل الثائرة على مصر قبيلة الهوارة وهي اشدهن بأساً واطولهن باعاً جاءت في الاصل من ضواحي تونس الغرب واستقرت بين جرجا وفرشوط في بقعة من الارض لم تكن تصلح للزراعة فاعتنوا فيها حتى انشأوا عدة قرى وما زالوا ينشرون سطوتهم حتى احتلوا جميع البقاع بين هوارة وكفر الشيخ سليم . ثم اغتنم الشيخ همام (شيخ الهوارة) اشتغال مصر بما تقدم ووضع يده على البلاد من اسيوط الى اسوان وجمع اليه محصولاتها . وكان قد حارب هذه القبيلة كثيرون ممن تولوا مصر قبل علي

وفرضوا عليها ضريبة مقدارها ٢٥٠ الف اردب من الحنطة توردها سنويا الى مصر

ففي سنة ١١٨٣ هـ ارسل علي بك صديقه محمد بك ابا الذهب لمحاربة الشيخ همام وقبيلته فحاربهم وتغلب عليهم في اواخر تلك السنة . فاضطر ابناء الشيخ ان يتاعوا حياتهم بما لديهم من ثروة ابيهم . فربح ابو الذهب من ذلك مالا كثيراً ثم اسرع الى القاهرة لما علمه من الدسائس التي كان ساعياً بها رفيقه احمد بك الجزار على علي بك وكانه لم يكن يريد ان يشاركه احد بالدسائس على سيده . وكان احمد الجزار ينظر الى ابي الذهب نظره الى عدو يناظره في ارتكاب الدنايا فسعى في قتله فلم ينجح . وكان لاحمد الجزار سيف مشهور بطيب فولاذه واتقان صنعه . فاتفق يوماً انه اجتمع بمحمد ابي الذهب فقال له محمد « ارني حسامك لاجرب فرنده » فاجابه احمد « لا يسل حسامي سواي ولا اغمده حتى يستباح قتيل » ثم نهض للحال وغادر القاهرة قاصداً القسطنطينية فوصلها . ثم عهدت اليه ولاية عكا بعد ذلك . وما زال فيها حتى توفاه الله

فتوح علي بك ومعاهداته

اما علي بك فبعد ان تغلب على الصعيد ثار في خاطره حب الافتتاح فجرد الى اليمن جيشاً تحت قيادة محمد ابي الذهب فسار في عشرين الف مقاتل فقطع برزخ السويس ومضيق العقبة ولم يبق على احد من القبائل التي حاولت الوقوف في طريقه وما زال حتى اتى اليمن وافتتحها . وامر علي فسار اسماعيل بك في ثمانية آلاف لافتتاح السواحل الشرقية للبحر الاحمر وحسن بك لافتتاح جدة ولقب بالجداوي اشارة الى انتصاره على تلك المدينة وما زال يعرف بهذا اللقب من ذلك الحين . ولم تمض سنة اشهر حتى افتتحت شبه جزيرة العرب وفي جملتها مكة المشرفة ولحق بها نهب شديد وانزل شريفها واقيم مقامه ابن عمه الامير عبد الله فوافق عليًّا في سلطنته وسماه بسلطان مصر وخاقان البحرين — فعل ذلك بصفته الدينية تملقاً لعلي . فلما حصل علي بك على ذلك من شريف مكة اخذ يتمتع بحقوق السلطنة فامر ان يخطب باسمه في الصلوات العمومية ايام الجمعة . وضرب النقود سنة ١١٨٥ هـ في القاهرة باسمه كما سترى

وسعى علي بك في هذه السنة الى امر سبق به الى حتفه وذلك انه عهد الى محمد بك ابي الذهب ان يسير في ثلاثين الفاً لاخضاع بلاد الشام لانه كان يعتبر هذه الولاية بعد خروجه من طاعة الدولة العلية عدوًّا قريباً يخشى منه على نفسه وعلى صديقه ومحالفه الشيخ ظاهر . وكان ينظر الى سوريا كانها جزء طبيعي من مملكة مصر .

وكانت بالواقع قسماً منها في سائر الازمنة التي كانت فيها مصر مستقلة في الدولة الطولونية والفاطمية والايوبية والمماليك وغيرها

وسعى علي بك في التحالف مع الدول التي بينها وبين الاستانة عداوة طبيعية فاستخدم تاجراً ايطالياً اسمه روستي عقد له معاهدة سلمية مع البندقيين على ان يكونوا حلفاء له . ثم عهد الى رجل ارمني اسمه يعقوب ان يستطلع من الكونت الكسيس اورلوف قومندان القوات الروسية في البحرين (المتوسط والاسود) عن عقد معاهدة دفاعية وهجومية مع قيصرة روسيا كاترينا الثانية . فاجاب الكونت بالايجاب

ش ٢٠ : كاترينا الثانية

وفتحت المخابرات بشأن ذلك وطال امرها كثيراً لبعد المسافة بين الطرفين . اما جنود علي بك في سوريا فصاحبها الظفر واتحدت بجنود الشيخ ضاهر فاستولوا على غزة والرملة ونابلس والقدس ويافا وصيدا واخيراً حاصروا دمشق ولم تلبث يسيرا حتى سلمت

خيانة محمد بك ابي الذهب

فلما رأى محمد ابو الذهب تمام هذه الفتوحات العظيمة على يده حدثته نفسه ان يجعلها لنفسه . ثم قادته مطامعه الى محاربة علي واستخراج مصر من يده . ويظن انه لم يقدم على ذلك من تلقاء نفسه وانما حمل عليه باوامر جاءته من الاستانة لان المخابرات السرية كانت متواصلة بينه وبينها بواسطة الباشا الذي اخرجه علي من مصر. فامسك محمد عن المسير في البلاد العثمانية وحول شكيمة مقاصده نحو الديار المصرية فجمع ما كان لديه من الجيوش وضم اليها الحاميات التي كان قد اقامها في المدن المفتتحة وسار قاصداً مصر . لكنه لم يجسر على المسير الى القاهرة رأساً خوفاً من الانكشارية والوجاقات الاخرى لعلمه بما في قلوبهم من الضغينة عليه . فعرج نحو الصحراء حتى اتى الصعيد فحط رحاله هناك واستولى على اسيوط في آخر يوم من سنة ١١٨٥ هـ . ثم استقدم قبائل العربان وطلب محالفتهم ومحالفة بكوات الصعيد وجاهر بعزمه على خلع علي بك وسار قاصداً القاهرة فوصلها في اوائل سنة ١١٨٦ هـ فنزل بجيشه تجاه البساتين فوق مصر القديمة

فلما علم علي بك بذلك ندم على ما وضعه من الثقة في رجل كان له ان يعتبر من سيرته الماضية انه على غير الاخلاص والاستقامة . فجند ٣ آلاف رجل بقيادة اسماعيل بك وامرهم ان يمنعوا محمداً من عبور النيل . فسار اسماعيل لكنه خاف سطوة عدوه ووردت عليه كتب مفعمة بالمواعيد يمازجها بعض التهديد فاخذ جانبه وضم جيشه الى جيشه فقطع محمد بك النيل فاستقبله رجال اسماعيل بالترحاب . فاتصل ذلك بعلي فيئس من الفوز فانقطع الى القلعة باهله واصدقائه ورجال دعوته وقد عزم على المدافعة الى آخر نسمة من حياته

علي بك في عكا

وبعد ثلاثة ايام ورد اليه كتاب من الشيخ احمد احد ابناء صديقه الشيخ ضاهر ان يبرح القاهرة حالاً ويأتي الى ابيه في عكا . فخرج علي من القلعة بمن معه وسار من جهة الجبل الاحمر طالباً سوريا عن طريق الصحراء . وكان خروجه قبل دخول محمد بك القاهرة بيوم واحد اي مساء ٩ محرم سنة ١١٨٦ هـ وهذه هي المرة الثالثة لخروجه منها الى سوريا وفي معيته عدد يسير من الجند لايبلغ ستة آلاف معظمهم من الخدمة الذين لايستطيعون الدفاع . ولم يحمل معه من المال الا ثمانماية الف زر محبوب يحملها ٢٥ جملاً . ونقل معه من المصوغات والحلي مايساوي اربعة اضعاف ذلك . وما زالوا في

المسير ليلاً ونهاراً فوصلوا الى خان يونس في حدود سوريا بعد ثلاثة ايام فراوا ان خمسة من الجمال الحاملة للنقود قد ذهبت فريسة بيد القبائل البدوية وان عدداً من جنوده فروا ومعهم يوسف الخزندار . وفي اليوم التالي دخل علي بك غزة ثم واصل السير حتى اتى عكا بعد ثمانية ايام فرحب به اميرها وكانت بينهما مودة شديدة فاطمأن علي هناك . غير ان ماتكبده من المشاق في الاسفار مع ما اثر في نفسه من الغيظ الشديد غير صحته فلم يصل عكا الا وهو في حالة الخطر من شدة المرض

وفي اثناء ذلك وصل مينا عكا اسطول روسي فلما علمت حاميته بما حل بعلي عقدوا معه معاهدة ثانية وقدموا له كل مايحتاج اليه من المؤن والزخائر وكان في خدمة ذلك الاسطول فرقة من الالبانيين « الارناؤوط » مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل فأمدوه بهم . فلما راى علي بك ماكان من نجدة الروسيين مع مايمكنه الحصول عليه من جنود الشيخ ضاهر عزم على مناواة ابي الذهب لكنه لم يكن يستطيع مباشرة ذلك بنفسه لانحراف صحته . فعهد الى علي بك الطنطاوي بعد ثلاثة اشهران يسير اولاً لاسترجاع المدن السورية التي دخلت في حوزة محمد ابي الذهب فسار واستولى على صور وصيدا وقرى اخرى من سواحل سوريا كانت قد احتلتها جنود عثمانية بعد انسحاب جنود محمد ابي الذهب . ثم سار علي بنفسه مع من بقي من الجند الى يافا وافتتحها بعد محاصرة خمسة اشهر استولى في اثنائها على غزة عنوة وعلى الرملة واللد تسليماً . فاعاد يافا الى حكومة الشيخ ضاهر وجعل على اللد حسن بك الجداوي وعلى الرملة سليم بك

محمد ابو الذهب بمصر

وفي ٩ ذي القعدة ١١٨٦ هـ كان علي بك في يافا فجاءته رسل من القاهرة بهمة سرية من وجاق الانكشارية والوجاقات الاخرى وسائر اعيان القاهرة يعلمونه ان محمداً ابا الذهب دخل القاهرة حالما خرج منها هو وسمى نفسه شيخ البلد وجعل يعيث في البلاد عيثاً لم يسبقه الى مثله احد ممن تولى مصر قبله. فجعل بعض الضرائب ضعفين وبعضها ثلاثة اضعاف . ثم اختلق قانوناً غريباً دعاه قانون رفع المظالم والمقصود منه بحسب الظاهر انقاذ ملتزمي الاموال الاميرية من الاجراآت الاستبدادية التي كان يسومهم اياها الكشاف الى ذلك العهد واستبدالها بما يعود بالمنفعة والحقيقة ان الضرائب ماانفكت اشد وطأة من ذي قبل والاجراآت لم تزدد الا استبداداً فضلاً عما رافق كل ذلك من الفتك بالعباد قتلاً ونهباً

ثم قالوا ان مصر بجملتها لما رأت ما وصلت اليه من الانحطاط وما لحق باهلها من

المظالم التي ما انزل الله بها من سلطان قد انابتهم ان يبلغوا علي بك انها بصوت واحد تلتمس رجوعه ليحكم فيها لانه هو منقذها الوحيد وان مدينة القاهرة مستعدة ان تفتح ابوابها لاستقبال اميرها القديم وان تدافع عنه الدفاع الممكن اذا حاول محمد بك ابو الذهب ما يخالف الصوت العمومي

خروج علي بك لمحاربة ابي الذهب

فلما علم علي بكل ذلك شعران آماله عادت اليه وبرح يافا للحال قاصداً القاهرة ولم يكن معه من الجنود الا الفان وخمسمائة فاستنجد حاميات اللد والرملة وانضم اليهم جنود الشيخ ضاهر وجنود ابنه الشيخ شلبي وصهره الشيخ كريم وحسن شيخ صور وكان قد استأجر ثلاثة آلاف وخمسماية من المغاربة . فكان عدد جنوده جملة ثمانية آلاف محارب

ففي ١١ محرم سنة ١١٨٧ هـ وصل علي بك الى خان يونس وفي ١٦ منه اقترب من الصالحية . وفي ١٨ منه التقى بمقدمة جيوش محمد بك ابي الذهب وعدتهم اثنا عشر الف مقاتل وبعد محاربة بضع ساعات ظهر علي بك عليهم وقد قتل عدداً غفيراً من رجالهم . فانفتحت له ابواب الصالحية فدخلها وقد أصيب بجروح بليغة . ثم علم ان اعتماده على احزابه في القاهرة لا يورثه الا خيبة الامل لان ابا الذهب كان قد جمع اليه كبراء البلاد ورجال حكومتها لما علم بمظاهرتهم لعلي واقنعهم ان علي بك قد غدر الامة وخان الوطن واباح دماء المسلمين بمعاهداته مع الروسيين وغيرهم من الامم النصرانية . واستخدم ابو الذهب في سبيل اقناعهم الدرهم الوضاح فانحازت اليه القوات العسكرية الا وجاق الانكشارية فانه ظل محافظاً على ولاء علي بك . فلما تحقق محمد بك ابو الذهب اجتماع الاحزاب على دعوته أمن من الاضطراب الداخلي فسار بنفسه لمحاربة علي

أما علي فانزعج لتلك الاحوال انزعاجاً كثيراً فضلاً عما كابده من مشاق الاسفار في قطع الصحراء الحارة وزد على ذلك الجروح التي اصابته في واقعة الصالحية فاصيب بحمى شديدة عجز معها عن ركوب جواده وقيادة جنوده . وفي ٢ محرم سنة ١١٨٧هـ علم بمجيء ابي الذهب وهو على ما تقدم من المرض فلم يتردد في وجوب الدفاع . فامر قواده فانتظمت رجاله على قلتها وتهيأت للدفاع وكان على احد جناحي الجيش علي بك الطنطاوي ومن معه من البكوات وعلى الجناح الآخر ابن الشيخ ضاهر وصهره فاستظهرت جنود علي في بادىء الرأي حتى قاربت الفوز التام . ثم ارسل ابو الذهب

بعض جواسيسه الى المغاربة في جيش علي يغريهم على خيانة رئيسهم فوافقوه ووافقه غيرهم كثيرون من بكوات علي وفي جملتهم ابراهيم بك ومراد بك . وهذا الاخير اشترط ان يأخذ مقابلاً لخيانته هذه ما يخلفه علي من المتاع والنساء وخصوصاً امرأته نفيسة وكان علي يحبها ويحترمها لما كانت عليه من الفطنة والجمال

فلما انتشبت الحرب في الصباح التالي انحاز جميع المغاربة والبكوات الذين خانوا الى معسكر ابي الذهب . وكانت جنود علي بك قريبة من الفوز فلما رأت تلك الخيانه تضعضعت وفر الجند يطلبون النجاة بانفسهم بعد ان قتل علي بك الطنطاوي والشيخ شبلي ونجا الشيخ كريم والشيخ حسن ورضوان بك من المعركة وساروا الى فسطاط علي واعلموه بما حصل وطلبوا اليه ان يمتطي فرسه ويسير برفقتهم الى غزة حيث يلاقيهم الشيخ ضاهر بمن معه من الجند

مقتل علي بك

اما علي بك فابت نفسه الاصغاء لما ارادوا فجلس بباب خيمته وقال لهم « اني ملازم هذا الموضع لا ابرحه حتى تبرحني نفسي لان الموت هنا افضل عندي من الفرار . اما انتم اذا شئتم النجاة بانفسكم فبادروا الى الفرار قبل ان يغشاكم ما ربما لا تقوون على دفعه » . فاضطر ابن اخيه ورجاله الباقون ان يذعنوا لما امر . فودعوه وحولوا الاعنة في طريق خان يونس قاصدين غزة فلقوا الشيخ ضاهراً هناك فاعلموه بما كان وبوفاة ابنه فاسف عليه كثيراً . ومكث علي بك بعد ذهاب اصدقائه بضع ساعات ينتظر منيته وبجانبه عشرة من مماليكه واذا بخمسين رجلاً تحت قيادة الكخيا نائب محمد ابي الذهب قد وصلوا الى الخيمة ودخلوها وقتلوا من كان فيها من المماليك ثم وثبوا على علي وكان المرض مشتداً عليه وفيه جروح لكنه نهض بسيفه فقتل اول قادم اليه وجرح اثنين آخرين فخشي الباقون الاقتراب منه فاطلقوا عليه البنادق فجرحوه جروحاً بليغة في ذراعه اليمنى وفخذه . فجعل يدافع بيسراه دفاعاً شديداً الى ان وثب عليه الكخيا بنفسه فدافعه علي حتى اصيب في ذراعه اليسرى وفي اماكن اخرى فسقط على الارض وهو لا ينفك عن الدفاع فتكاثرت عليه الرجال حتى امسكوه حيا وساروا به الى محمد ابي الذهب وطرحوه عند قدميه فامر بحمله الى القاهرة فحملوه اليها وانزلوه في داره بدرب عبد الحق في شارع البكري وراء صندوق الدين فلبث فيها سبعة ايام ثم توفاه الله . وقد قال بعضهم ان ابا الذهب ادخل السم في جروحه فقتله والله اعلم . ودفنوه بتربة استاذه ابراهيم كخيا بجوار الامام الشافعي . وكان موت هذا الرجل تاسع

عظيم في قلب كل من عرفه حتى ان ابا الذهب نفسه لم يسعه الا التدم داخلياً لما فرط منه وما اتاه من نكران الجميل وارتكاب مثل هذه الخيانة

مناقبه

ومن مناقب علي بك انه كان عظيم الهيبة حتى اتفق لاناس انهم ماتوا خوفاً من هيبته . وكانت تأخذ الرعدة بعضهم بمجرد المثول بين يديه فيأخذ هو بتلطيف رعبه فيقول له « هون عليك » . وكان صحيح الفراسة شديد الحذق يفهم ملخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ولا يحتاج في التفهيم الى ترجمان او من يقرا له الصكوك والوثائق بل يقراها هو بنفسه ولا يختم ورقة حتى يقراها ويفهم فحواها . ومن مآثره البناية العظيمة بطنطا وهي المسجد والجامع والقبة على مقام السيد البدوي والمكاتب والميضاة الكبيرة والحنفيات والمنارتان العظيمتان والسبيل المواجه للقبة والقيسارية العظيمة . وجدد ايضاً قبة الامام الشافعي وبنايات ووكالات في بولاق مصر ولا يزال هذا الرجل مميزاً عند المؤرخين بلقب الكبير فيدعونه « علي بك الكبير »

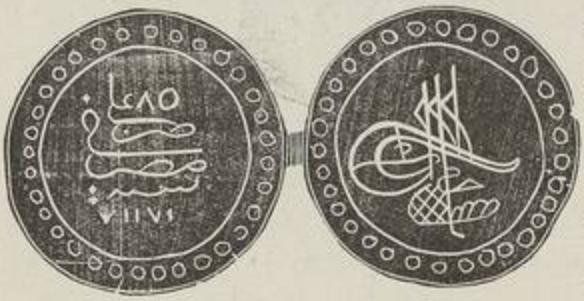

ش ٢٠ : نقود السلطان مصطفى بن احمد وعلي بك

وترى في الشكلين ٢٠ و٢١ صورتي النقود التي ضربت على عهد علي بك في القاهرة . الاولى فضية وعليها الطغراء الشاهانية للسلطان مصطفى بن احمد وتاريخ توليه السلطنة سنة ١١٧١ هـ ويشاهد عليها ايضا من الاعلى اسم علي وتاريخ ٨٥ وهي مختصر من سنة ١١٨٥ هـ وتدعى هذه القطعة من المعاملة فرشاً . والثانية فضية ايضاً ويشاهد عليها الطغراء العثمانية . اما تاريخ تولية السلطان فاستبدل بسنة ١١٨٣ هـ وهي السنة التي صرح بها علي بك باستقلاله ويشاهد عليها اسمه . وتدعى هذه القطعة عشرينية اي نصف قرش

ش ٢١ : نقود السلطان مصطفى ابن احمد وعلي بك

سلطنة عبد الحميد الاول

ش ٢٢: عبد الحميد الاول

من سنة ١١٧٧ — ١٢٠٣ هـ او من ١٧٧٤ — ١٧٨٩ م

وفي تلك السنة تولى الخلافة العثمانية السلطان عبد الحميد الاول عوضاً من السلطان مصطفى الثالث

ش ٢٣ : نقود السلطان مصطفى بن احمد

وترى في الشكلين ٢٣و٢٤ صورتي نقود ضربت في القاهرة في عهد السلطان مصطفى بن احمد قبل استقلال علي بك بتاريخ ١١٧١ هـ الاولى فضية والثانية نحاسية

وبوفاة علي بك عاد وادي النيل الى ما كان عليه قبله تابعاً لاملاك الدولة العلية وعادت احكامه الى مشائخ البلد والكشاف الذين جعلوا تلك المناصب وسيلة لاختلاس

اموال الناس وحقوق الدولة . وكان علي بك قد جعل لكل هذه المظالم حدًا واصلح الشؤون حتى علقت الآمال باعتزاز مصر ورفع شأنها فلم تبق المنية عليه

ش ٢٤ : نقود السلطان مصطفى

نعم ان مصر بعد وفاته عادت الى كنف الدولة العلية لكنها بالحقيقة لم تفدها شيئاً لانها كانت في الحالة الاولى طعمة لرجل محب الاصلاح مخلص بمقاصده وان كانت بمعزل عن سيادة الدولة واصبحت في الثانية طعمة لثلاثين رجلاً كل منهم يسعى في ابتلاعها لا يتفقون الا على كره الدولة التي هم تحت حمايتها . اما السلطان عبد الحميد فلم يكن يرسل اليها من الولاة الا من كان اسماً بلا مسمى كما كان شأنهم قبل ظهور علي . فكان الباشا من هولاء آلة يديرها البكوات كيف شاؤا ولم يكن لديه من الاعمال الا مخابرة القسطنطينية سرًا بما كان يقع بين هولاء البكوات من الخلاف وما كانوا يتداعون اليه من الخصام . وواجباته المهمة ان يستلم الجزية من الحكومة المصرية ويرسلها الى الاستانة اذا تمكن من قبضها

ابو طبق وعزل الباشوات

فكانت ولاية مصر منصباً يستحي العقلاء من قبوله لانهم كانوا يعتبرونها منفى يستحقه الباشا او الوزير الذي يرسل اليها وكان يعلم قبل خروجه من الاستانة انه اذا لم يكن راضياً بما يرضاه شيخ البلد لا يلبث ان يصله منه رسالة ينقلها ناقل يقول له الاوطه باشي وفيها الامر بعزله امراً لا مرد له ولا مجال للمدافعة بعده . وكيفية ذلك ان شيخ البلد ورجاله اذا راوا في تصرف الباشا ما يوجب الشك اجتمعوا اجتماعاً عمومياً في الديوان وقرروا عزله وكتبوا بذلك امراً يسلمونه الى الاوطى باشي ليوصله الى الباشا فيحمله ويسير على حمار (لان القانون لا يسمح له بركوب الخيل او البغال) وبين يديه فرمان العزل فاذا مر في الاسواق على هذه الصورة علم الناس انه ساع في امر هام فيه عزل فيهرولون وراءه . ولا يزال سائراً في عرض الطرق قائداً لتلك الجماهير نحو القلعة . ومن واجبات اي جندي لقيه في تلك الحال ان يرافقه لقاء ما يخشى حدوثه عند وصوله الى القلعة

فاذا وصل القلعة يدخل على الباشا ثم يجثو امامه باحترام ووقار وعند ما ينهض يطوي السجادة التي كان جاثياً عليها وينادي باعلى صوته « انزل يا باشا » وعند طي السجادة والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق ذلك الباشا ولا يعود له اقل سلطة

على الجنود التي كانت قبل بضع دقائق تنتظر اشارته . وتصير تحت اوامر الاوطه باشي وكانوا يسمون الاوطه باشي ابا طبق لانه كان يلبس على راسه قبعة مثل الطبق والباشا يقف ممتثلاً يسمع تلاوة الفرمان سواء كان منطوقه بعزله او بقتله فلا يسعه الا الطاعة التامة . على مثل ذلك كانت معاملة باشوات مصر — فانهم كانوا عرضة لاوامر العزل التي اذا لم تكن من الاستانة كانت من مصر

ش ٢٥ : ابو طبق في موكبه

فلما مات علي بك اختلف اعداؤه في القاهرة على الاجتزاء من انتصاراتهم فكان كل منهم يظن لنفسه الحق بالتمتع بثمار الانتصار كغيره او اكثر فاختلفت الاحزاب من بينهم . اما من بقي من رجال علي فلم يجدوا مكاناً فيه راحة لهم وكانوا في عكا عند الشيخ ضاهر على ماتقدم فتفهقر ابو الذهب لانه كان يحب الانتقام حبا يفوق التصديق وقد آلى على نفسه الا يبقى على احد من رجال علي

اما الشيخ ضاهر امير عكا فلم يعد يطيب له السكون بعد ان خسر ابنه في سبيل نصرة علي بك فثارت في خاطره بواعث الانتقام . ولكن ابا الذهب لم يعد يستطيع صبراً على ذلك فاسترحم من الباب العالي ان يؤذن له بالمسير لاخضاع سوريا ولا سيما عكا واتهم اميرها الشيخ ضاهراً بالعصيان وانه ساع ضد الدولة . فاجاب الباب العالي بفرمان يثبته في مشيخة البلد مع لقب باشا ورتبة والي القاهرة مكافأة لما اتاه من كسر

نوكة علي واحزابه واذن له ان يتتبع ذلك الشيخ العاصي . فلما وصل الفرمان الى ابي الذهب كاد يطير من شدة الفرح واعد جيشاً تحت قيادته واستخلف في مصر اسماعيل بك وعهد حكومة مدينة القاهرة الى ابراهيم بك . وسار في جيشه الى سوريا ولم تنته سنة ١١٨٩ هـ حتى دخل فلسطين . وكان لشدة عجبه بما اوتيه من الالقاب والرتب وما وعده به الباب العالي من المساعدات لايزيد الاكبراً حتى جعل خيمته التي يستريح فيها من اثمن ما يمكن وزينها ابدع زينة . فمر بخان يونس فالرملة ولم يلاق مقاومة . اما يافا فكان عليها الشيخ كريم صهر الشيخ ضاهر فدافعت قليلاً ثم فتحت عنوة فدخلها رجال ابي الذهب عنوة وقتلوا القسم الاعظم من سكانها رجالاً ونساء شيوخاً واطفالاً

فبلغت تلك الفواحش مسامع الشيخ ضاهر وهو في عكا فخاف ان يصيبه ما اصابها ففر بعائلته وبمن هاجر اليه من المصريين ولم يترك في المدينة الا ابنه عليا ولما علم هذا باقتراب جيوش ابي الذهب اخلى القلعة وانسحب منها لاعتقاده انه اذا حاول الدفاع انما يحاول عبثاً . فوصلها ابو الذهب وابوابها مفتوحة فدخلها ولم يبق عليها وفي هذه المدينة انتهت فظائع هذا الرجل لانه بينما كان عازماً على العود الى مصر اصبح القوم فوجدوه ميتاً في خيمته ولم يعرفوا القاتل رغم ما اتخذوه من الاحتياطات وما كان لديهم من القرائن الكثيرة . فقال بعضهم انه اصيب بنقطة وهي داء السكتة وقال آخرون انه مات مقتولاً بيد عدو فاتك والله اعلم . وبعد موت ابي الذهب عادت الجيوش المصرية تحت قيادة مراد بك الى مصر ومعهم جثة رئيسهم فدفنوها بالقرب من مدفن علي بك . ومات ابو الذهب بعد موت علي بك بسنتين ولقب « بالخائن »

مشيخة اسماعيل بك

وتولى مشيخة البلد بعده اسماعيل بك ولم يبق غيره من رجال ابراهيم كخيا . وهو من الذين نالوا البكوية بواسطة علي بك وكان لا يزال على دعوته وانما انضم الى ابي الذهب خوفاً . وقلبه لم يفترلاهجاً بالمدافعة عن رئيسه لانه لم يأت نحوه الا ما يستدعي نصرته فضلاً عن انهما من طائفة واحدة

فلما استلم زمام الاحكام نسج على منوال علي بك فبعث الى رجال حزبه الذين كانوا لايزالون في سوريا فاستقدمهم اليه واقرهم في اماكنهم وطيب خاطرهم استعداداً لمقاومة مراد وابراهيم مناظريه على مشيخة البلد . وكانا قد اتحدا على خلع اسماعيل بك

طالبا اولا طرد حسن بك الجداوي صديق اسماعيل بك فلم يفوزا لكنهما تمكنا من احتلال القلعة فاتحد اسماعيل بك وحسن بك واخرجاهما منها ففرا الى الصعيد . ثم جمعا حزباً كبيراً واستعدا لقتال اسماعيل فبعث جيوشاً لتخمد انفاسهما فعادت على اعقابها وفاز الاميران .فاضطر اسماعيل بك الى مغادرة القطر المصري فيمم الاستانة . اما حسن بك فقبض عليه ونفي الى جدة بحراً فاحتال في اثناء الطريق فارضى رئيس المركب الذي نقله فانزله في القصير على سواحل القلزم ومن هناك قطع الصحراء غرباً حتى اتى الصعيد فاستكن في اعلاه

مراد بك وابراهيم بك

فلما خلا الجو لمراد بك وابراهيم بك اقتسما الاحكام فتعين الاول اميراً للحج والثاني شيخاً للبلد ورقيا كثيرين من مماليكهما الى رتبة البكوية وقلداهم مصالح البلاد وكانت الاحكام في عهدهما كما كانت في ايام اسلافهما من المظالم والاستبداد . وبلغهما بعد مدة ان اسماعيل بك عاد من الاستانة وجاء حلوان فبعثا اليه فرقة من المماليك فتكت بكل من كان معه من عائلته ورجاله . اما هو فتمكن من النجاة باختبائه في بعض الكهوف ثلاثة ايام .ثم خرج طالباً الشلال اجتمع وهناك بصديقه حسن بك الجداوي وسارا معاً واويا الى الجنادل في السودان

فاختلف مراد بك وابراهيم بك على ارسال حملة للقبض على الهاربين فارتأى احدهما وجوب التجنيد وخالفه الآخر حتى آل الامر الى الخصام وخروج ابراهيم بك مغتاظاً من القاهرة الى المنيا في الصعيد . فارسل اليه مراد بك بعض الاختيارية يسكنون من غضبه فارضوه واعادوه الى مركزه في القاهرة . الا ان العلاقات الودية ظلت متكدرة بين الاثنين ولم تمض مدة حتى خرج مراد بك الى المنيا غيظاً من زميله لانه اتحد مع خمسة من بيت عدوهما القديم وهم البكوات عثمان الشرقاوي وايوب الصغير وسليمان وابراهيم الصغير ومصطفى الصغير

ولبث مراد بك بعيداً عن القاهرة خمسة اشهر وابراهيم يظن انه لا يلبث ان يسكن غضبه ويعود اليه فلما استبطأه ارسل اليه الاختيارية كما فعل ذاك معه . فابى مراد بك ورد الاختيارية خائبين . ثم جند جنداً من اتباعه المماليك وسار على الضفة الغربية للنيل حتى اتى الجيزة مقابل مصر القديمة وعسكر هناك . وهمّ بقطع النيل فعلم ابراهيم بك بذلك فجند في الجهة المقابلة على البر الشرقي ليمنعه من المرور ولبث الجانبان على تلك الحال ثمانية عشر يوماً لا يتحاربان الا على سبيل المناوشة باطلاق مدفع

ش ٢٦ : مراد بك

ومدفعين ولم يقتل الا رجل او فرس . فمل مراد بك من تلك احال فعاد الى المينا

اما ابراهيم بك فكان كثير الرغبة في مصالحة زميله فانفذ اليه بعد خمسة اشهر من خروجه وفداً ثانياً من كبار البلاد ومشائخها يطلبون اليه الرجوع الى القاهرة فوافقهم لكنه اشترط عليهم ان يسلموه الخمسة البكوات المتقدم ذكرهم حال وصوله الى القاهرة . فقبلوا بذلك الشرط فنزل معهم فعلم اولئك البكوات سرًّا من ابراهيم بك بما اشترطه مراد بك فخرجوا من القاهرة نحو القليوبية على نية الشخوص الى الصعيد عن طريق الاهرام . فاتصل ذلك بمراد بك فجعل عند الجسر الاسود قرب الاهرام عصابة من العربان تترصد مرورهم ولم يستطع صبراً على ذلك فقطع النيل ببعض رجاله فاتى بالمنهزمين عند راس الخليج فتلاحموا فجرح مراد بك ونجا اولئك فلاقاهم العربان عند الجسر الاسود فاسروهم وجاؤا بهم الى مراد بك فنفاهم الى المنصورة

وفرسكورودمياط تفريقاً لكلمتهم وبعد مدة يسيرة عادوا واجتمعوا في اخرسنة ١١٩٧ واتفقوا ان يفروا الى الصعيد ويجمعوا اليهم عصابة يقاومون بها عدوهم ولم يباشروا ذلك حتى توسط شيخ جامع الازهر في امرهم وحصل لهم العفو من مراد بك فصفح عنهم واعادهم الى القاهرة بكل اكرام واعاد اليهم رتبهم وامتيازاتهم

حملة عثمانية لحرب المماليك

مضى بعد ذلك ثلاث سنوات على ابراهيم بك ومراد بك وهما على وفاق وسكينة يقتسمان ايراد البلاد بينهما بالسواء لا يقدمون عنه حساباً او اذا قدموه كان حبراً على ورق . فوشى بهما محمد باشا والي مصر اذ ذاك الى السلطان وبما كانا فيه من الاستئثار بمالية البلاد . فامر السلطان عبد الحميد سنة ١١٩٩ هـ ان يرسل الى مصر جيش لايقافهما عند حدهما . فسار الجيش في عمارة بقيادة حسن قبطان باشا فوصل الاسكندرية في ٢٥ شعبان سنة ١٢٠٠ هـ فخاف البكوات خوفاً شديداً واجتمعوا اجتماعاً عاماً في الديوان وتباحثوا في ما يجب اجراؤه . فكثر اللغط واختلفت المقاصد والاراء فلم يقروا على شيء واخيراً ارتأوا طلب توسط محمد باشا ولما عرضوا عليه رايهم رفض . فطلبوا من الشيخ احمد العريشي شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد المهدي ـ الذي تعين في زمن الفرنساوية كاتم سر الديوان الخصوصي كما سيجيء ـ وغيرهما ان يسيروا الى رشيد ويستعطفوا القبطان باشا وترى في شكل ٢٧ صورة ختم الشيخ المهدي وتوقيعه الرسمي وفيه لقبه كما يكتبه بيده

ش ٢٧ : ختم محمدي المهدي وامضاؤه

فركبوا من بولاق في زورق فاخر وما زالوا حتى بلغوا رشيداً فلاقاهم القبطان باشا بما يليق من الاحترام . اما هم فلعلمهم ان الاميرين ابراهيم ومراداً لا يثبتان على راي خافوا اذا طلبوا لهما العفو وحصلوا عليه ان ينكث ذانك فتكون الملامة عليهم . فقال الشيخ العروسي «يامولانا ان رعية مصر ضعفاء وبيوت الامراء مختلطة ببيوت الناس» فقال الباشا « لا تخشوا بأساً فان اول ما اوصاني به مولانا السلطان هو قوله « ان الرعية وديعة الله عندي وانا استودعك ما اودعنيه الله تعالى »

فدعوا له بطول العمر ثم قال لهم « كيف ترضون ان يملككم مملوكان كافران

سومونكم سوء العذاب لماذا لا تخرجونهما من بلادكم ؟ »

فاجابه احدهم بقوله « ياسلطانم هؤلاء عصبة شديدو البأس لا نقوى على دفعهم » فطيب خاطرهم ووعدهم بالحماية . وبالحقيقة ان هذا الوفد تصرف بالحكمة لانهم لم يكادوا يخرجون من حضرة القبطان حتى سمعوا بقدوم مراد بك ومعه عشرة من البكوات وبعض الكشاف والمماليك . ثم شاع انهم نزلوا في الرحمانية عند منشأ الترعة المحمودية الاسكندرانية . وسبب ذلك ان مراد بك بعد ما ارسل الوفد خطر له الدفاع بالسيف فجمع اليه ذوي شوراه وفاوضهم فاقروا على الدفاع وان يسير مراد لذلك ويبقى ابراهيم للمحافظة على القاهرة

فسار مراد بمن معه ونزلوا في الرحمانية كما قدمنا فلاقتهم الجنود العثمانية وجرت بينهما واقعة لم تطل الا يسيراً فانذعرت جنود المماليك من قنابل العثمانيين التي كانت تتدافع بين حوافر خيلهم فتشتت شملهم وفاز العثمانيون . ففر مراد بك ومن معه حتى اتوا القاهرة فاجتمعوا بابراهيم بك وخرجوا جميعاً الى الصعيد ومكثوا ينتظرون حركات العثمانيين . فلما راى محمد باشا الوالي خلو القاهرة من المماليك جمع اليه الاوجاقات ونزل بهم من القلعة لاستقبال الجنود العثمانية

ففي ٥ شوال سنة ١٢٠٠ هـ دخل حسن باشا القاهرة بعد ان اخربت جيوشه كل ما امروا به من المدن والقرى ونهبوها ولولاه لم يبقوا على شيء اصلاً . لكنه كان يمنعهم من ذلك بالقوة وقتل منهم كثيرين عبرة للباقين فكفت الايدي فسكنت الناس فلما وصل القاهرة نزل في بيت ابراهيم بك عند قصر العيني على النيل . ثم عرض امتعة البكوات المنهزمين للمزاد العمومي وفي جملتها حريمهم واولادهم ومماليكهم فاسترحم المشائخ ان يخرج الاولاد والنساء الحوامل من معرض البيع لان ذلك فضلاً عن مخالفته للعواطف الانسانية فهو مغضب لله

فانتهرهم القبطان باشا قائلاً « سأكتب الى الاستانة بانكم تعارضون في بيع امتعة اعداء جلالة السلطان » فاجابه الشيخ السادات قائلاً « قد ارسلت الينا لمعاقبة شخصين مجرمين وليس لهتك شرائعنا والطعن في عاداتنا فاكتب الى الاستانة ما شئت »

فعند ذلك امر الباشا باستثناء المخدرات الحوامل من البيع . وبعد ان بيعت سائر الامتعة عكف حسن باشا على اصلاح الادارة فاصلحها على ما يوافق الارادة الشاهانية وكان قد استقدم اسماعيل بك وحسن بك الجداوي من الصعيد فارسلهما في جيش بقيادة عابدين باشا ودرويش باشا قائدي الحملة العثمانية التي جاءت مصر عن طريق البر

(فضلاً عن العمارة البحرية المتقدم ذكرها) وسار في تلك الحملة ايضاً نحو الف مقاتل من رجال الشام تحت قيادة امير كبير من امراء شين اغلي فاجتمعت هذه الحملة وسارت نحو الصعيد لمحاربة مراد بك ورجاله

ش ٢٨ : الشيخ ابو الانوار السادات

فحصلت هناك واقعة عظيمة شفت عن عدة قتلى من الجانبين وانهزم مراد بك ورجاله الى الشلالات ورجعت الجنود العثمانية ظافرة الى القاهرة . ثم جاءت الاوامر الشاهانية بعزل محمد باشا وتولية عابدين باشا مكانه

وهنا تنتهي مهمة حسن قبطان باشا فاستدعي الى الاستانة بسبب الحرب مع روسيا. ولكن مصر لم تنج من البكوات وكانوا لا يزالون في مصر العليا كما رايت . والمسيحيون يشكون من معاملة حسن باشا بانه اخذ متاعهم وباعه على مشهد من الناس فضلا عن الاهانة التي سامهم اياها وعلى الخصوص المعلم ابراهيم الجوهري امين احتساب مصر فانهم قبضوا على امراته واجبروها ان تخبرهم بمخابئ زوجها من النقود فاخبرتهم فاستخرجوها واخذوها . ولما برح حسن باشا القاهرة اقام عليها اسماعيل بك شيخ البلد فعهد هذا الى صديقه القديم حسن بك الجداوي امارة الحج واتفقا معاً على اقتسام الايراد

وفي سنة ١٢٠٣ هـ توفي السلطان عبد الحميد الاول

وترى في الشكلين ٢٩و٣٠ صورتي النقود ش٢٩ : نقود السلطان عبد الحميد الاول

ش ٣٠ : نقود السلطان عبد الحميد الاول

الذهبية التي ضربت على عهد السلطان عبد الحميد الاول بن احمد في القاهرة بتاريخ ١١٨٧ هـ الاولى تدعى نصف زر محبوب والثانية فندقلي

سلطنة سليم الثالث

ش ٣١ : السلطان سليم الثالث

من سنة ١١٧١ — ١١٧٨ هـ او من ١٧٥٧ — ١٧٧٤ م

فبويع السلطان سليم الثالث بن مصطفى فاقر اسماعيل بك في مركزه فتعاطى لاحكام بدراية وحكمة الى سنة ١٢٠٥ هـ وفي هذه السنة طرأ على الديار المصرية ولاسيما القاهرة وباء شديد الوطاة لم تقاس مثله قبله حتى بلغ عدد الموتى به نحو الالف في اليوم

بالقاهرة وحدها وتقلب على حكومتها في يوم واحد ثلاثة حكام . وسبب ذلك ان اسماعيل بك اصيب بالوباء فاقيم آخر مكانه فآخر حتى فني كل من كان من بيت اسماعيل بك الا واحداً يدعي عثمان بك الطبل . ولا يزال هذا الوباء مشهوراً بفتكه ويعرف بطاعون اسماعيل . فتولى عثمان بك الطبل المذكور مشيخة البلد ولم يكن قادراً على ادارة الاعمال التي عهدت اليه فاستدعى ابراهيم بك ومراد بك فدخلا القاهرة في ٢١ ذي القعدة من تلك السنة ففر حسن بك الجداوي الى مصر العليا قانطاً

فاستلم ابراهيم ومراد ازمة الاحكام وجعلا يعيشان فيها وكانا يتناوبان مشيخة البلد وامارة الحج سنوياً بعد ان افنيا كل من كان على غير دعوتهما فصفا الجو لهما . اما قلباهما فكانا لا يخلوان من الضغائن المتبادلة لما طبع عليه كل منهما من حب الاثرة وقد اختلفا في الطباع والمناقب : كان مراد بك شديد البطش مقداماً لا يهاب الموت وكان ابراهيم بك اكبر سناً واكثر اختباراً ربعاً ضخم القامة حسن الطلعة حاد البصر وكان يتربص لمراد محاذراً بطشه لئلا يطلبه للنزال ولولا ذلك لم يرض معه بالاجتزاء من الدخل اجتزاء سوياً . وكان لا يعارضه في ما يأتيه من الاستبداد ووضع الضرائب وسلب اموال الناس لانه شريكه في الارباح الناتجة من ذلك . وكان في ابراهيم رياء يظهر غير ما يضمر اذا استصرخ وعد مع العزم على الاخلاف . وكان جباناً فاذا اراد امراً لا يتظاهر به وانما يسعى اليه بالدسائس والمكائد

اما مراد بك فلم يكن يعرف المكر وانما كان يسعى في اغراضه بالقوة والحزم وكان طويل القامة عضلي البنية شديد البأس يقطع عنق الثور بضربة من سيفه وعلى وجهه ملامح الاسود فاذا غضب يهابه ويخاف منه كل من يراه حتى احب اصدقائه (انظر ش ٢٦) . وكان كريم النفس لا يبيت على غيظ حر الضمير لا ينكر الحق ولو كان عليه مخاصماً لاصحابه مقيما على قوله . وكان طمعه بمقدار سخائه وحبه لذاته بمقدار حرية مباديه . وكان سريع الغضب شديده لا يراعي في حال غضبه امراً من الامور وربما فتك بمصلحة نفسه او اضر بشخصه

ش ٣٢ : ختم مراد بك وختم ابراهيم بك

وترى في شكل ٣٢ صورة كل من ختمي مراد بك وابراهيم بك محفورة على شكل جميل

والم بالبلاد بعد عود هذين الاميرين الى مصر جوع هائل ويقال انه حصل من كثرة ما

ضبطاه من الحبوب في مصر العليا طمعاً بالكسب . ثم الغيا النظامات التي وضعها حسن باشا قبطان وابدلاها بما يوافق مطامعهما الشخصية . فكثرت تعديات مماليكهما وعلى الخصوص تعديات احدهم محمد الالفي [1] فثار الاهلون ثورة عامة لم يسعهما معها الا توقيف تلك الاجرآات وقتياً فخمدت الثورة فعادا الى ما كانا عليه فعاد الناس الى الاضطراب وكسدت سوق التجارة لقلة الامنية

نسخة قديمة من القرآن

يحكى ان مراد بك اظهر يوماً انه عازم على تجديد الملابس والامتعة العسكرية وطلب ما يقوم بنفقاتها ففرض على الاسرائيليين مبلغاً كبيراً اعانة لهذا المشروع فاجتمع رؤساؤهم وتخابروا في ماذا يصنعون لينجوا من هذه الضريبة فاقروا على ان ينفذوا اليه اثنين من كبرائهم يسعيان في ما ينجيهم من هذه الضريبة فسارا ولما مثلا بين يدي مراد بك قالا له « ايها الامير اننا فقراء ولو بعنا ممتلكاتنا ونساءنا واولادنا وانفسنا لا نجمع عشر ما تطلبه منا فاذا اعفيتنا من هذه الضريبة التي يستحيل علينا دفعها نطلعك على مخبأة تكفيك مؤنه هذه المطالب . وهذه المخبأة لا يعلم بها احد سوانا وقد تتوقل هذا السر في عائلتنا حتى وصل الينا ونحن نوصله لاولادنا عند ما تحضرنا الوفاة »

فلما سمع كلمة « مخبأة » فتح اذنيه وقاطعهما قائلاً « هلم بنا لنرى تلك المخباة فاني اذا رأيتكم صادقين اعفيكم وطائفتكم من كل ضريبة . هلم بنا الى المخباة اين هي ؟ » فاجابا « ان هذه المخباة ايها الامير في جامع عمرو بن العاص في مصر القديمة جعلها ذلك الفاتح هناك في صندوق من حديد في دهليز لا يعرف مقرّه الا نحن »

فتأكد مراد بك انهما يتكلمان الصدق فصرفهما . ثم سار في اليوم التالي مظهراً للصيد في البرية فمر بجامع عمرو فدخله كانه يريد الصلاة ثم نظر الى الجامع فاذا به قد تداعت اركانه فالتفت الى شيخه قائلاً « بما ان الله قد ادخلني هذا المسجد المبارك وجب علي ان اسعى في اصلاحه لكي يذكر اسمي في الصلاة مع اسم مؤسسه الفاتح عمرو بن العاص وغداً ان شاء الله ارسل اليكم الفعلة يباشرون العمل »

وفي اليوم التالي ارسل الفعلة بمراقبة احد ثقاته وبدلاً من ان يبداوا بهدم القسم المتساقط من الجامع بداوا بالقسم القائم وبعد بضع ساعات جاء مراد بك بنفسه فرا هم قد وصلوا الى دهليز فيه صندوق من الحديد فتحقق ما قاله له الاسرائيليان وكانا بين الجماهير فامر فاخرج الصندوق ثم امر بفتحه فاذا هو ملآن رقوقاً عليها ايات بالقلم الكوفي تم علموا بذلك انه القرآن الشريف

---

١ سمي بهذا الاسم لانه بيع بالف دينار

وترى في شكل ٣٣ رسم كلمات من فاتحة القرآن مثالاً لنوع كتابته الكوفية. وكان يظن انه كتب في ايام عمرو بن العاص

ش ٣٣ : كلمات من فاتحة القرآن الشريف

فلما راى الاسرائيليان ذلك فرّا من بين الجماهير. اما مراد فاستشاط غيظاً ولما عاد الى القاهرة ضاعف الضريبة على الاسرائيليين واصرّ الا ان يدفعوها حالا واستعمل الكرباج لحثهم على ذلك. اما تلك الرقوق الثمينة فالقيت في الدهليز بغير اعتناء وتركت هناك عرضة للشمس والماء ففسد بعضها ولما كانت الحملة الفرنساوية التقط ما بقي منها المسيو مارسل مدير مطبوعات تلك الحملة وحفظها عنده في متحفه الخصوصي. وفي المكتبة الخديوية نسخة من القرآن يقال انها وجدت في جامع عمرو فلا يبعد ان تكون هي التي التقطها مارسل. وهي من اقدم نسخ القرآن الموجودة في العالم اليوم والغالب انها كتبت في اوائل القرن الثاني للهجرة

ش ٣٤ : نقود السلطان سليم بن مصطفى

ش ٣٥ : نقود السلطان سليم بن مصطفى

وعاد مراد بك ورفيقه الى ما كانا عليه من اختلاس اموال الاهلين واموال الاجانب بالضرائب الفاحشة. وضربا على التجار الاجانب في الاسكندرية والقاهرة ورشيد ضرائب ما انزل الله بها من سلطان فرفعوا شكواهم الى قناصلهم فلم تكن النتيجة الا زيادة الاضطهاد. اما توسط الباشا في مثل هذه الامور فكان عديم الفائدة على الاطلاق فرفع المتظلمون شكواهم الى الاستانة فكان جوابهم الصمت ولم يزدد مراد بك الا عتوّاً وعسفاً ولم يكن يبالي بما يقوله القائلون او يتظلم منه المتظلمون من سائر ساكني القطر. كل ذلك جرى على عهد السلطان سليم بن مصطفى وهو من اكثر السلاطين رغبة في الاصلاح ولكنه غلب على امره

وترى في الشكلين ٣٤ و٣٥ صور نقود السلطان سليم مضروبة بتاريخ سنة ١٢٠٣ هـ

الحملة الفرنساوية

تمهيد

قد رايت ما كان من انغماس مراد بك ورفيقه في المظالم واختلاس الاموال بغير الحق . وكيف انهما تطرقا بتصرفهما هذا الى الاجانب القاطنين في هذا القطر تحت حماية دولهم فانهما لم يكونا يراعيان حرمة ولا ذمة . وكان اولئك الاجانب يتحملون تلك التعديات بالصبر الجميل لانهم رفعوا شكواهم الى دولهم مراراً فاوعزت الى الظالم ان يرعوي فلم يرعو . وما زال الحال كذلك حتى جاء نابوليون بونابرت الرجل العظيم برجاله لافتتاح هذه الديار . وقبل الخوض في تفاصيل تلك الحملة نشرح للقارىء . اولاً ما الداعي الذي حمل الفرنساويين الى تجريدها . ثانياً كيف كانت مصر عند وصول تلك الحملة اليها

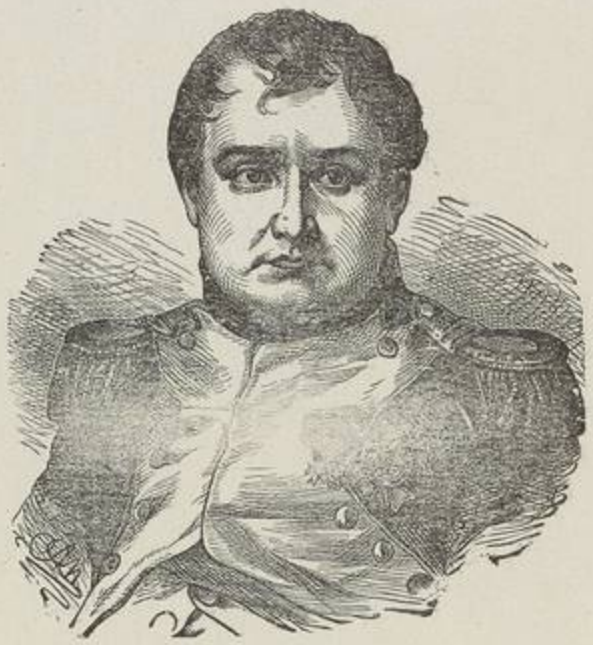

ش٣٦ : نابوليون بونابرت

لماذا جرَّد الفرنساويون الى مصر

لما قتل الفرنساويون ملكهم لويس السادس عشر وتخلصوا من الحكم الاستبدادي اقاموا عليهم نوعاً من الحكومة دعوها « الادارة » وهي عبارة عن لجنة مؤلفة من خمسة اعضاء يسمون كلاً منهم « مديراً » وذلك سنة ١٧٩٥ للميلاد (١٢١٠ هـ) ثم جعلوا يحملون على ممالك الارض يفتحونها بهمة كبير قوادهم الرجل العظيم بونابرت فحاربوا النمسا ثم ايطاليا فغيرها ولم يبق في سبيلهم الا دولة انكلترا واقفة لهم بالمرصاد وهي على جانب عظيم من القوة ولاسيما في البحار . فتباحثت ادارة فرنسا بذلك مراراً لكنها لم تستطع مناهضة تلك الدولة لما كانت تعلمه من قوتها ومناعة جانبها

وكان بونابرت قد مرَّ في البحر المتوسط وضم قسماً عظيماً من شواطئه الى فرنسا فطمع بمصر وقد اعجبه شأنها وما فيها من الخيرات وما بها من التعزيز لدولته والارهاب لانكلترا . الا ان الادارة لم تكن على بينة من الامر فعرض بونابرت رأيه هذا عليها وشرح لها شرحاً مستوفياً كيف كان هذا الوادي منذ القدم منشأ لخيرات العالم المتمدن ثم امسى موضوعاً لمطامع الدول العظيمة . وشاغلاً لرجال الفتوح من الاسكندر الى الايام الاخيرة ثم قال مخاطباً الادارة :

« ان مصر ايها السادة اكثر بقاع الارض خصباً . كانت اهراء لرومية قديماً وللقسطنطينية الآن . وفيها الحنطة والارز وسائر انواع البقول والسكر والنيلة والقطن والسنا والخيارشنبر والنطرون والكتان والقنب وفيها صنوف الماشية والطيور الداجنة وقد اشتهرت على الخصوص بحسن حميرها وقوة جمالها . نعم ان مواد الاشتعال والزيت والبن والتبغ نادرة فيها لكن ذلك مستدرك لان الشرق لا يستغني عن هذا الوادي وهو مركز متوسط بين افريقيا واسيا . فالقوافل تحط رحالها في القاهرة كما ترسو المراكب عند الشواطىء بعد سفر طويل . وهذه القوافل مؤلفة من مئات واحياناً الوف من الجمال قادمة من بلاد العرب او سوريا او سواحل المغرب او الحبشة او اواسط افريقيا او من راس الرجاء الصالح او السنغال تحمل انواع التجارة من الخشب والفحم والزيت والتبغ والبن والاثمار ومن الرقيق والتبر والعاج والريش والصمغ والاطياب والعطور والشالات وكل محاصيل الهند فتبيعها في مصر وتأخذ بدلاً منها احمالاً من مصنوعات اوربا

« فما برحت مصر ايها السادة منذ القدم موصلاً تجارياً بين اوربا والشرق وهذه

تجارتنا مع الهند قد كانت قبل اكتشاف راس الرجا الصالح تأتينا عن طريق مصر ترسو السفن عند برنيس من سواحل البحر الاحمر ومنها تنقل السلع على الجمال في الصحراء ٢٤ مرحلة الى طيبة (الاقصر) ومنها في النيل الى مصر وتتوزع فيها ومنها تنقل الى اوربا . وكانت تنقل احياناً الى القصير في البحر الاحمر ومنها الى السويس ثم على الجمال الى منف ومنها الينا . واذا اغضينا عن اهمية مصر بالنسبة لتجارة الهند فان لها اهمية عظمى بالنظر لتجارتها الخصوصية

فاذا فتحنا هذه البلاد واعتنينا بادارتها خمسين سنة فقط يبلغ عدد سكانها اضعاف اضعاف ما هو عليه الآن . كان سكان هذا الوادي في الازمنة الخالية بين ١٢و١٥ مليوناً وهم الآن لا يبلغون ربع هذا القدر لسوء الادارة . فضلاً عما تقدمه مصر لعاملنا من حاصلاتها وما نبيعه فيها وفي جوارها من مصنوعات بلادنا . فما هي مستعمراتنا بالنسبة الى هذه البلاد الخصبة الشاسعة الاطراف ؟ هلم اليها فنستغل من ارزها وسكرها وقطنها كما فعل غيرنا وهي تغنينا عن حاصلات اميركا وتكفينا مؤونة الارتباط معها

« ولا يخفى عليكم ايضاً اننا اذا ثبتنا قدمنا في مصر لا تبقى انكلترا طويلاً في الهند او نجعل على سواحل البحر الاحمر حاميات نقيمها في معاقل منيعة نذخر فيها نتاج ذلك القطر ونحول التجارة الهندية اليه . ولو فرضنا بقاءها عن طريق راس الرجا الصالح كما هي الآن فاننا نقيم بيننا وبينها باباً للمنافسة ونشق ترعة بين السويس والنيل . ولا شك اذا فعلنا ذلك اننا نحبط مساعي انكلترا جملة لان التجارة تتحول الينا . اما هذه الترعة فقد كانت محفورة منذ القدم ولا يصعب علينا اعادة حفرها . فاذا فتحنا مصر لا يقتصر نفعها لنا مثل نفع سائر المستعمرات العظيمة لكننا نعرقل مساعي انكلترا بها فتكتفي مؤنة مقاومتها — هذا اذا لم نذهب بها الى الحضيض »

فترددت الادارة بقبول مشروعه لكنه ما زال يستحث اعضاءها حتى اشتدَّ الجدال بينه وبينهم فراى فيهم اصرارا على مقاومته فعرَّض بذكر استقالته فنهضوا اليه واوقفوه واعادوا النظر في ما عرضه ووافقوه على رايه بشرط ان يكون ذلك سرًّا لئلاَّ تتصل مقاصدهم بمسامع انكلترا فتسعى ضدهم . فانحصر هذا المشروع بين بونابرت والخمسة المديرين فقط — حتى الكاتب الذي كتب الامر باعداد الحملة لم يكن يفهم حقيقته لانه امر ان يكتبه بصورة مبهمة في ٥ مارس سنة ١٧٩٨

ومن مقتضى هذه الاوامر السرية ان تكون هذه الحملة مؤلفة من اربعين الف

مقاتل علمهم اربعون قائداً يختارهم بونابرت وطائفة من رجال العلم لا يقل عددهم عن المائة بين مهندسين وجغرافيين وطبيعيين وكيماويين ولغويين وفلكيين ونحو ذلك العدد من سائر الصناع . وعمارة بحرية بقيادة الاميرال برويس يضاف اليها المراكب الراسية عند طولون . وان يقبض في مدة عشرة ايام من الخزينة مليون وخمسماية الف فرنك فضلاً عن ثلاثة ملايين من خزينة بارن وان يتصرف بهذه المبالغ حسب حكمته والاوامر السرية المعطاة له

فبذل بونابرت جهده لتعزيز هذه الحملة والاسراع في اعدادها . فشاعت الاقاويل عن هذه الاعدادات وكثرت الظنون فقال بعضهم انها حملة تعدها فرنسا لمحاربة انكلترا وقال آخرون انها تفعل ذلك لافتتاح مدن جديدة في اسيا وافريقيا وقال اخرون غير ذلك

وبونابرت لم يأل جهداً في اعداد المهمات وترتيب امور الحملة فجعل المراكب المعدة لنقل الجند اربعمائة مركب تسير في اربع فرق من اماكن مختلفة الفرقة الاولى تسير من طولون والثانية من جينوا والثالثة من شيفيتافكيا والرابعة من جاكسيو ثم تجتمع وتتحد وتسير الى مصر . وان تنقل على هذه المراكب ايضاً مطبعة عربية كانت في البروباغندا برومية مع ما يلزمها من العمال . وعلى انقاض هذه المطبعة اقيمت مطبعة بولاق الاميرية ونقلوا ايضاً كل ما يلزم من الادوات الكيمية والطبيعية والرياضية وانضم الى طائفة العلماء كثير من مشاهير علماء فرنسا وصناعهم متطوعين ومثل ذلك القواد . فكأن فرنسا بجملتها تاقت الى مرافقة هذا القائد العظيم فانضم الى حملته كثير من ابطالها وعلمائها وصناعها بقلب واحد . وهم لا يعلمون الى اين تذهب بهم الاقدار

اما الجيوش فجعل فيهم الفين وخمسمائة من الفرسان والفاً من الطبجية والمهندسين ومن بقي (من الاربعين الفاً) من المشاة وكان من جملة القواد الذين رافقوا تلك الحملة كلابر وديزه ورينير وبون ومينو وهم قواد الخمس الفرق من المشاة . وكان مورات قائداً للفرسان وكافرللي قائداً لفرقة المهندسين ودومارتين على الطبجية

هذا من قبيل الحملة البرية اما الحملة البحرية فكانت مؤلفة (اولاً) من ١٥ مركباً حربياً من جملتها « الشرق » محمولها ماية وعشرون مدفعاً ومركبان محمول الواحد منهما ثمانون مدفعاً وعشرة مراكب محمول الواحدة منها ٧٤ مدفعاً . واثنان محمول كل منهما ٦٤

(ثانياً) من اربع عشرة مدرعة في بعضها اربعون مدفعاً وفي بعضها ٣٦ وفيها اربعان

(ثالثاً) من ٧٢ مركباً حربياً صغاراً على اشكال مختلفة . هذه هي الحملة البحرية وهي كما رايت اكثر من ماية قطعة ومعها سبعمائة مركب لنقل العساكر البرية ومهماتهم وخيولهم واسلحتهم بقيادة برويس وبلغ عدد الملاحين نحو عشرة آلاف

اما الحملة العلمية المرافقة لتلك الحملة العسكرية فكانت مؤلفة من فرق لكل من العلوم او الصنائع وجملة اعضائها مائة فيهم فرقة للهندسة واخرى للفلك وفرق اخرى للميكانيكيات وللكيميا والمعادن والحيوان والنبات . ومثل ذلك للجراحة والطب والاقتصاد السياسي والانشاء والجغرافيا وعلم الآثار والبناء والتصوير والرسم والنقش والحفر والموسيقى الخ . وقد اختير لهذه الفنون اشهر من اشتغل بها ومعهم المطبعة المتقدم ذكرها وعدة مترجمين . وجميع هذه المعدات كانت على اهبة السفر في ٢٠ ابريل سنة ١٧٩٨ اي بعد صدور الامر ببضعة اسابيع . ومن الغريب انه مع تعداد الرجال الذين ساعدوا في تنفيذ اوامر الادارة وفيهم القواد العظام ورجال العلم والصناع لم ينكشف لاحد منهم حقيقة المقصود من هذه الحملة الا تاليران وهو الرجل السياسي الذي ارسلته الادارة الى الاستانة لمخابرة الباب العالي بشأنها وطلب مصادقته على تجريدها

وفي ٩ مايو سنة ١٧٩٨ م وصل بونابرت الى طولون والجند في انتظاره كانهم على جمر الغضا فخطب فيهم فزادهم حماسة ورغبة في الحرب . وفي ١٩ منه ودع بونابرت امراته وركب على الدارعة « الشرق » وهي اكبر دوارع الاسطول ومعه اركان حربه كانهم ذاهبون الى نزهة او غنيمة باردة . واقبلت سائر المراكب من النقط الاخرى حتى اتحدت وعددها جميعاً يزيد على الخمسمائة فسارت تخترق عباب البحر وعليها خمسون الف نسمة . وفي ٩ يونيو سنة ١٧٩٨ وصلوا الى مالطة ومنها ساروا يطلبون الاسكندرية

فاوجست انكلترا خيفة من هذه الحملة فانفذت نلسون احد كبار قوادها البحريين في اسطول وعهدت اليه ان يقتص آثار الاسطول الفرنساوي في البحر المتوسط وان يكون ساهراً على اجراآته وان يقاومه اذا راى منه مساً لحقوق انكلترا فسار نلسون حتى طاف البحر المتوسط ثم تنبأ ان الاسطول الفرنساوي لا يقصد الا مصر او سوريا فسار نحوهما . فبلغ ذلك بونابرت فامر الاسطول ان يقيم غربي الاسكندرية ببضعة مراحل وان يكون دائماً في استعداد للدفاع

حالة مصر عند قدوم الحملة الفرنساوية

لم يكن في وادي النيل اذ ذاك اكثر من ثلاثة ملايين من السكان يتألفون من ثلاث طوائف كبرى وهم اولاً الاقباط سكان مصر الاصليون لا يزيدون عن مائتي الف نفس ثانياً العرب الذين افتتحوها ثالثاً الاتراك وفيهم المماليك . وشرذمات من طوائف اخرى

والباشا هو الحاكم المرسل من الاستانة لتأييد سلطة السلطان كان يقيم في قلعة الجبل في القاهرة لا فائدة من وجوده هناك الا اثبات سلطة جلالة السلطان على مصر ويقوم ذلك بالخطبة له في الصلاة وضرب النقود باسمه . اما المماليك فكانوا اخلاطاً من الاتراك والشراكسة والكرج وجميع ثروة البلاد وادارتها في ايديهم . على انهم مع ذلك لم يكن لهم في البلاد عصبية لانهم لم يكونوا يتوارثون الحكم الا نادراً . وانما كان يتولى منهم من يمتاز بالقوة او الاحتيال او المحسوبية وما شاكل . وقلما ارتقوا منصة الحكم بالحكمة والدراية وحسن السياسة ولذلك كانت احكامهم عرضة للفساد وداعية للخلل . وكان مقرهم في بهو كبير مختص بهم في قلعة الجبل وفيها اصطبلات كبيرة لخيلهم ومخازن لاسلحتهم ومعداتهم . اما مساكنهم الخصوصية فكانت غالباً في حي قيسون وحي بركة الفيل ودرب الجبانية في اجمل مايكون من البناء مرصفة بالرخام والفسيفساء وفيها الرياش من المخمل المزركش بالحرير . وفي بعضها حدائق غناء تزينها السراري الجميلات من نساء الكرج وغيرهن

اما الجنود فكانوا لا يزيد عددهم على الثمانمائة او الالف من المماليك الاشداء وقلما يكونون على شيء من الفنون الحربية واكثرهم من الفرسان اما المشاة فقليلون بينهم . فاذا امتطى المملوك صهوة جواده تقلد القربينة بمنكبيه والطبنجات في منطقته والسيف على يساره وهراوة في قربوزة وقضيباً من الفولاذ امام انفه ممتداً من جبهته الى ذقنه . وقد يتفق ان يتمرن احدهم على الحركات العسكرية اما الجماعات فلا يعرفون شيئاً عن المربعات او الخطوط الحربية وانما كانوا يتقنون الفروسية . وفي يوم قدوم الفرنسويين الى مصر كان على الاحكام ابراهيم بك ومراد بك كما مر بك الاول شيخ البلد والثاني اميرالحج وبايديهما الحل والعقد . وكان ابراهيم بك مشهوراً بالغنى والطمع والاحتيال . وكان مراد يفوقه اقداماً وحزماً وفيه كرم وسخاء . وكلاهما لم يؤيدا سلطتهما الا بالقتل والنهب والاحتيال وقد اتفقا على اقتسام ايراد البلاد

اما العرب فمنهم فئة العلماء والفقهاء وفي ايديهم ادارة المعابد والتكيات وهم في الغالب

من عائلات قديمة متصلة بالصحابة او غيرهم من اصحاب البيت وكانت معيشتهم غالباً في ترف ورخاء وان لم يبلغوا في ذلك مبلغ البكوات المماليك . وكانوا محترمين لدى الاهلين احتراماً دينيا وادبيا . اما نفوذهم السياسي فكان ضائعاً في جانب استبداد المماليك

وكانت التجارة رائجة في مصر واصحابها من ثقات العرب واصحاب الامانة ولذلك قلت بينهم التفاليس . وكانت فرضة القاهرة بولاق وفيها كانت ترسو المراكب حاملة البضائع على اختلاف الانواع قادمة من اقطار شتى من العالم . ومن بولاق تحمل الى الخانات او الوكالات كخان السبع قاعات وخان التركماني وتباع فيها بالاجمال . اما البيع بالمفردات فكان في الاسواق الى شمال المدينة من باب زويلة الى الباب الذي يشرف على الصحراء

اما جباية جمع الخراج فكانت موكولة الى فئتين من المصريين هما المسلمون والاقباط . فمن المسلمين كان الروزنامجية وعندهم تقاويم الارضين وسجلات الاملاك وكانوا متنازين عن سائر الاهلين ومحافظين على انسابهم لا يتزوجون الا من بنات اكفائهم وكانوا على جانب من الثروة ولهم عقارات واسعة يضرب بهم المثل في ذلك . اما الاقباط فكانوا يقتصرون على ضبط الحسابات في القبض والصرف كسائر الحساب الا فيما ندر . وكانت مساكن الاقباط في القاهرة شمالي المدينة وغربيها فيما كان يعرف بباب المقس حيث ثمن الازبكية الآن وفي باب البحر ولذلك دعي بعض احيائها بحارة النصارى واكثرهم من متوسطي الثروة . اما اصحاب المصارف والمداينون والصيارف فكانوا من اليهود ويقيمون عائلات كثيرة في بيت واحد بحارة اليهود ويضطهدهم المماليك اضطهاداً شديداً

اما الاجانب في القاهرة فاكثرهم من الفرنساويين وكانوا يلبسون اللباس العربي ويتكلمون اللغة العربية جيداً ويقيمون في جهة الموسكي وكانوا يتزاوجون مع المسيحيين من السوريين وهؤلاء كانوا يقيمون غالباً في درب الجنينة . وكان في وادي النيل جماعة كبيرة من السوريين يقيمون غالباً في السواحل وفي المدن الكبيرة مثل دمياط ورشيد واسيوط يتعاطون التجارة اما ببضائع اوروبا او بحاصلات السودان من العاج والريش والصمغ او ببضائع بلاد اخرى . اما علاقة مصر مع الدول الاجنبية في ذلك العهد فكانت قاصرة على التجارة . والبندقية « فنيس » امتن علاقة معها من سائر الامم ولها قنصل مقيم في الاسكندرية فضلاً عن علاقات اخرى مع تجار فرنسا وانكلترا

هذا ملخص حالة مصر عند قدوم الفرنساويين اليها

الحملة الفرنساوية

من سنة ١٢١٣ — ١٢١٦ هـ او من ١٧٩٨ — ١٨٠١ م

مر بك في الفصل السابق ان الاسطولين الفرنساوي والانكليزي سارا في البحر المتوسط قاصدين شواطىء الدلتا

ففي يوم الاحد الواقع في ١١ محرم سنة ١٢١٣ هـ ظهر في ميناء الاسكندرية اسطول مؤلف من خمسة وعشرين مركباً انكليزياً. وكان متسلم الاسكندرية «حاكمها» السيد محمد كريم احد اعيان الوطنيين . فلما علم بقدوم الاسطول جعل يراقب حركاته وسكناته واهل المدينة يتساءلون فيما بينهم عن امره وبعد قليل اقترب من الثغر قارب فيه عشرة من الافرنج طلبوا مقابلة الحاكم فجيء بهم الى السيد محمد كريم وهو في مجلسه وحوله رجال حكومته فسألهم عما جاؤا من اجله فقالوا « ان ما ترونه في هذا البحر اسطول انكليزي جاء للتفتيش عن عمارة فرنساوية عظيمة خرجت مؤخراً تريد جهة من الجهات فربما داهمتكم فلا تقوون على دفعها فنكون لكم نصراء عليها » فظن السيد محمد كريم ذلك مكيدة فاغلظ لهم بالقول فقالوا « اننا نرسو في هذا البحر نحافظ عليه لا نطلب منكم الا المدد بالماء والزاد بثمنه »

فاجابوهم « ان هذه البلاد بلاد السلطان ولا يد للفرنساويين فيها فاذا جاؤنا لانبالي بهم فاذهبوا انتم عنا » فعادوا ثم اقلعت المراكب تخترق عباب البحر . اما السيد محمد كريم فانفذ الى مراد بك في القاهرة حال وصول الاسطول يخبره بما كان وارسل الى كاشف البحيرة يأمره بجمع العربان وان يأتي بهم للمحافظة على الثغر. فلما اتصل ذلك بمسامع الامراء والبكوات لم يكترثوا به وقالوا «لا نبالي بمن تحدثه نفسه بمداهمتنا واننا ندوسه تحت حوافر خيولنا » اما الشعب فاضطرب وخاف . ثم جاء خبر آخر باقلاع الانكليز فسكن الجأش

وفي يوم الاثنين في ١٨ منه وصلت ثغر الاسكندرية العمارة الفرنساوية فارسلت احد قواربها تطلب القنصل فمانع السيد محمد كريم في اول الامر بتسليمه . ثم اذن له فنزل حتى اتى الدارعة التي عليها بونابرت فسأله عن حال المدينة فاخبره بما كان من امر الاسطول الانكليزي وان الاهلين في يقظة واستعداد للدفاع جهادًا في سبيل الدين

تدابير المماليك لرد الفرنساويين

وكانت حامية الاسكندرية لا تزيد على خمسمائة من الانكشارية معظمهم يتعاطون التجارة او يشتغلون بالصناعة وكانوا مع ذلك في استعداد للدفاع . وكتب السيد محمد كريم الى مراد بك وابراهيم بك في القاهرة بما جرى الى ان قال « ان العمارة التي ظهرت في هذا اليوم لا يعرف اولها من آخرها » فلما تلا مراد بك الرسالة استشاط غيظاً ورمى بالكتاب الى الارض . ثم ركب جواده قاصداً ابراهيم بك في سراي قصر العيني على ضفة النيل المطلة على جزيرة الروضة . فلما اجتمعا قررا عقد جمعية عمومية فبعثا الى كبراء البلاد ورجال الدولة وفيهم بكير باشا الوالي فاجتمعوا اجتماعاً حافلاً وتباحثوا في ما جاءهم من الانباء الاخيرة . فقال مراد بك وهو ينظر الى بكير باشا شزراً « لا ريب ان الفرنساويين لا يجسرون على القدوم الى مصر من تلقاء انفسهم فلعلهم جؤا بامر من الباب العالي .. ولكن الله قادرٌ ان ينصرنا على الاثنين »

فاجابه بكير باشا « ان هذا الكلام لا يليق صدوره منك وكيف يخال لك ان الباب العالي يسلم بدخول امة غريبة الى بلاده دع عنك ذلك وهلم الى سيفك ورجلك لدفع العدو الذي داهمك » . وبعد المفاوضة اقروا على المود الآتية :

١ ان يسير مراد بك في فرقة من الفرسان على الضفة الغربية لفرع رشيد من النيل نحو الاسكندرية لايقاف الفرنساويين عن التقدم

٢ ان يعسكر ابراهيم بك بمن يبقى من الجند على الضفة الشرقية عند بولاق لحماية القاهرة

٣ ان يرسل بكير باشا الى الاستانة يستمد الباب العالي « بالترياق من العراق » ثم شاع في اسواق القاهرة خبر قدوم الفرنساويين فكثر الهرج وازداد الاضطهاد على المسيحيين . وعبثاً حاول ابراهيم بك وبكير باشا اقناع المسلمين ان هؤلاء المسيحيين من جملة رعايا الدولة العلية

فتح الاسكندرية

أما بونابرت فبعد ان استوعب كلام القنصل اقرَّ على النزول الى البر حالاً فاعترضه الاميرال برويس بما يحول دون ذلك من بعد المسافة وصعوبة المسلك فاصرَّ على النزول وكانت قيادة القوتين البحرية والبرية بيده فوافقه برويس مكرهاً فسار بالمراكب الى جهة العجمي وبرج مرابوت على مسافة قصيرة جدًّا من الاسكندرية غرباً . وقضوا النهار بطوله يستعدون للنزول . وفي الساعة العاشرة مساء باشروا النزول بالسرعة

الممكنة وما زالوا مجدين في ذلك الى الساعة الاولى بعد نصف الليل وقد نزل منهم اربعة آلاف وثلاثمائة رجل فنزل بونابرت وكانت الليلة مقمرة فنام نحو ساعتين على الرمال . ثم ارسل طلائعه وسار بمن بقي مشاة مستترين بجنح الليل ومستنيرين بالقمر وفي الصباح التقى بونابرت بقبائل من عرب البحيرة « ولد علي » تحت قيادة اميرهم فتبادلوا طلقات قليلة . ثم فرَّ العربان وتقدم بونابرت برجاله حتى اشرفوا على الاسكندرية يستدلون على مكانها بعمود السواري

ثم وقف بونابرت على مرتفع اشرف منه على الاسكندرية فرآها وفيها المآذن والمنائر تناطح السحاب . فجعل رجاله فرقاً بين الواحدة والاخرى مرمى رصاص وخطب فيهم وحرضهم ان يتجنبوا اهراق الدماء ما استطاعوا الى حجبها سبيلاً فهاجم الفرنساويون المدينة ودخلوها عنوة وقد اصيب الجنرال كلابر برصاصة في راسه لم تمنه فاستلمت الجنود الفرنساوية الاسوار وفرت الحامية المصرية تطلب ملجأ في الابراج القديمة وسقط الجنرال مينو عن احد الاسوار التي استلمها هو فجرحت فخذه . اما الجنرال مرمون فدخل المدينة من بابها بعد ان حطمه بالفؤوس . وخرق باقي الجيش الاسوار ودخلوا منها لانها لم تكن متينة البناء

ثم ارسل بونابرت احد ضباط جيشه الى سكان المدينة يخبرهم انهم في مأمن على ارواحهم واموالهم وان الفرنساويين لم يأتوا لمحاربتهم وانما جاؤا لمحاربة المماليك

اما السيد محمد كريم والعساكر الاتراك ففروا الى حصن فرعون فاضطر الاهلون الى التسليم قهراً فدخل بونابرت ورجاله الاسواق . وبلغ ذلك السيد محمد كريم فجاء بمن معه وسلم سلاحه وفعل مثل ذلك المشايخ والعلماء فاكرمهم بونابرت اكراماً خصوصياً . ثم التفت الى السيد كريم قائلاً « قد اخذت سلاحك بالسيف وكان لي ان اعاملك معاملة الاسير لاني اخذتك بعد ان دافعت عن نفسك ما استطعت . ولكن الشجاعة حليفة الشرف ها اني اعيد اليك سيفك على امل ان تكون مساعداً امينا للجمهورية الفرنساوية كما كنت للحكومة السابقة على عتوها وظلمها » ثم سأله اذا كان يرغب في معاضدة مساعيهم وهي تأييد سلطة الباب العالي وقمع المماليك . فاجاب بالايجاب فاقره على الاسكندرية تحت مناظرة الجنرال كلابر وكان قد اضطر الى البقاء في الاسكندرية بسبب الجرح الذي اصابه

ثم اباح بونابرت للمسلمين المحافظة على معتقداتهم وصلواتهم كما كانوا قبلاً . وجرد الاهلين من السلاح وامرهم ان يجعلوا على صدورهم الجوكار وهو علامة مصنوعة من

الجوخ او الحرير مستديرة بقدر الريال مؤلفة من ثلاث قطع كحلية وبيضاء وحمراء توضع بعضها فوق بعض بحيث تظهر الالوان الثلاثة ـ شارة العلم الفرنساوي ذي الثلاثة الالوان

منشور بونابرت الى المصريين

ولما رسخت قدم الفرنساويين في الاسكندرية نزل للبر بعض رجال الحملة العلمية ومعهم المطبعة العربية وجعلوا ينقبون في آثار الاسكندرية البنائية والجيولوجية . ثم امر بونابرت ان تنزل جميع المهمات العسكرية من خيول واسلحة ومدافع وغيرها الى البر سريعاً وان يطبع منشور بالعربية يفرق في البلاد فكتب وطبع وهذا نصه بالحرف الواحد :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه . من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على اساس الحرية والمساواة السر عسكر الكبير بونابرت امير الجيوش يعرف اهل مصر جميعهم ان السناجق الذين يتولون مصر منذ زمن مديد يعاملون الملة الفرنسوية بالاحتقار والاعتداء وقد حضرت الان ساعة عقوبتهم واحسر تاه انه منذ ايام وعصور هؤلاء المماليك المجلوبون من بلاد الاباظة والكرج يفسدون في احسن اقاليم الكرة الارضية ولقد حتم رب العالمين القادر على كل شيء بانقضاء دولتهم . فيا ايها المصريون وقد يقال لكم انني ما نزلت هذه الجهة الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح لا تصدقوه وقولوا لاخوانكم انني ما قدمت اليكم الا لاخذ بحقكم من الظالمين وانني اكثر من المماليك عبادة لله سبحانه وتعالى واحتراماً لنبيه محمد « صلعم » وللقرآن العظيم . وقولوا لهم ايضاً ان جميع الناس شرع عند الله وان الذي يميز بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم . واي شيء في المماليك يميزهم عن غيرهم ويستوجب ان يكون لهم وحدهم كلما تجلب به الحياة الدنيا . فحيثما تكون ارض مخصبة فهي للمماليك ومثل ذلك احسن الجواري واكرم الخيل واجمل المساكن . فان كانوا قد اخذوا الارض المصرية التزاماً فليظهروا لنا الحجة التي كتبها لهم الله . ولكن رب العالمين رؤوف على الناس وبعونه تعالى من اليوم فصاعداً لا يستثنى احد من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم يفوض اليهم تدبير الامور والمهام وبذلك تصلح حال الامة كلها في الاراضي المصرية كالمدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر الواسع الذي اضاعه طمع المماليك وظلمهم . فيا ايها القضاة والمشايخ والائمة ويا ايها الشربجية واعيان البلاد قولوا لامتكم ان الفرنسويين هم ايضاً مسلمون مخلصون . واثباتاً لذلك قد نزلوا رومية الكبرى واخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة

المسلمين ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الكفاليرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم محاربة المسلمين . ومع ذلك فان الفرنسويين في كل وقت احباء حضرة سلطان العثمانيين واعداء اعدائه ايد الله ملكه وبعكسهم المماليك فانهم خرجوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لاوامره ولم يطيعوه الا عن طمع في قلوبهم كمين . فطوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فتصلح حالهم وترفع مراتبهم وطوبى للذين يقعدون في اماكنهم غير مائلين لاحد الفريقين المتحاربين . لكن الويل ثم الويل للذين يتحدون مع المماليك ويساعدونهم في الحرب علينا فلا يجدون طريق الخلاص ولا يبقى لهم اثر

« المادة الاولى . جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة على مسافة ثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها العسكر الفرنساوي يجب ان ترسل للصاري عسكر بعض وكلاء من عندها لكي يعرفوا المشار اليه انهم اطاعوا وانهم نصبوا العلم الفرنساوي الذي هو ابيض وكحلي واحمر

« المادة الثانية . كل قرية تقوم على العساكر الفرنسوية تحرق بالنار

« المادة الثالثة . كل قرية تطيع العساكر الفرنسوية يجب عليها ان تنصب العلم الفرنساوي كذلك علم سلطان العثمانيين محبنا دام بقاؤه

« المادة الرابعة . على المشايخ في كل بلد ان يختموا حالاً جميع الارزاق والبيوت والاملاك خاصة المماليك وعليهم الاجتهاد الزائد لكي لايضيع ادنى شيء منها

« المادة الخامسة . يجب على المشايخ والقضاة والائمة ان يلازموا وظائفهم وعلى كل واحد من اهل البلد ان يبقى في مسكنه مطمئناً كذلك تقدم الصلاة في الجوامع على العادة . وعلى المصريين جميعاً ان يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى على انقراض المماليك قائلين بصوت عال ادام الله اجلال سلطان العثمانيين . ادام الله اجلال العسكر الفرنسوي لعن المماليك واصلح حال الامة المصرية

« تحريراً في معسكر الاسكندرية في ١٣ شهر مسدور من السنة السابعة من الجمهورية الفرنساوية يعني اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هـ » اهـ

زحف بونابرت على القاهرة

وامر بتوزيع هذا المنشور في البلاد المصرية . ثم فكر في امر التوجه الى القاهرة واخضاع سائر القطر . وكان من الاسكندرية الى القاهرة طريقان الواحد يمر بدمنهور وهو طريق الصحراء على البر الغربي والثاني طريق رشيد في النيل . فراى الطريق

الثاني اصعب مسلكاً عليه لان رشيد كانت لاتزال في حوزة المماليك فاقرَّ ان يسير عن طريق دمنهور في الصحراء وكان قد انفذ الجنرال ديزه عند استلام الاسكندرية ليسير في ذلك الطريق وارسل عمارة بحرية لتحتل رشيد ثم تتقدم في النيل لملاقاته في الرحمانية

وفي ٢٤ محرم سنة ١٢١٣هـ (٧ يوليو سنة ١٧٩٨ م) برح بونابرت الاسكندرية في الساعة الخامسة مساء اتقاء الحر تاركاً كلابر فيها . وما زال سائراً بحملته الى منتصف الليل فنزلوا للراحة فرقدوا ساعتين ثم نهضوا وما زالوا يواصلون السير ليلاً ونهاراً وقد قاسوا عذاباً شديداً من قلة الماء حتى وصلوا دمنهور فوجدوا خيرات كثيرة وماء غزيراً فمكثوا هناك يومين وليلتين . ثم شخصوا الى الرحمانية في صباح ٢٨ محرم سنة ١٢١٣ هـ (١١ يوليو سنة ١٧٩٨ م)

وفي اليوم الثاني من سيرهم لاقتهم شرذمة من الفرسان المماليك فجرت بين الفريقين مناوشة شفت عن انهزام المماليك وقد قتل منهم نحو خمسين فارساً . فواصل بونابرت سيره حتى وصل الرحمانية وقابل النيل فتواثب العساكر على مائه كانهم ذئاب خاطفة فشربوا وتركوا خيولهم للمرعى . وعسكر بونابرت ومن معه طلباً للاستراحة على اثر ماقاسوه من مشاق السفر والعطش ريثما تصلهم العمارة البحرية التي بعثوها الى رشيد . وبعد ليلتين من مكوثهم هناك اتت العمارة وقد استولت على رشيد وجعلت فيها حاميه تحفظها . وكانت الجيوش قد استراحت فتأهبت للرحيل الى القاهرة فسارت المشاة والفرسان على الضفة الغربية حذاء النيل والى يسارها العمارة سائرة في النيل وما زالوا يجدون السير حتى اتوا محلة سلامة عند المساء فلم يمكنهم استطلاع حالة العدو تلك الليلة

خطة مراد بك في الدفاع

اما ما كان من امر مراد بك فلما عهد اليه المسير الى الاسكندرية كما تقدم جمع اليه فرسانه وقبل خروجهم من القاهرة صاروا يصادرون الناس ويأخذون مايحتاجون اليه بلا ثمن . ثم سار بهم الى الجسر الاسود في البر الغربي فمكث يومين ريثما تكامل العسكر وسناجقه وفيهم علي باشا الطرابلسي وناصيف باشا وكانا من اخصائه المقيمين معه في الجيزة . واخذ معه كثيراً من المدافع والبارود . وجعل الرجالة وهم اسراب من الالداشات والغليونجية والاروام والمغاربة حملة بحرية تسير في النيل على الغلايين الصغار التي انشأها هو

ولما برح الجسر الاسود ارسل الى مصر باشارة علي باشا الطرابلسي يأمر باصطناع سلسلة من الحديد في غاية الثخن والمتانة طولها مايه وثلاثون ذراعاً تنصب بعرض البوغاز عند برج مغيزل من البر الى البر لتمنع مراكب الفرنساويين من المرور وان يشاد عندها جسر من المراكب عليها المتاريس والمدافع ظناً منه ان الفرنساويين لايناهضون المصريين في البر ولا بد من قدومهم بحراً وانهم يطاولونهم ويصابرونهم في القتال حتى تأتيهم النجدات . وما زال مراد بك سائراً فيمن معه على ضفة النيل الغربية والى يمينه الغلايين وفيها من ذكرنا من الرجال قاصداً الجيوش الفرنساوية فوصل الى قرية شبرايس وعسكرهناك بفرسانه وارسل عمارته لملاقاة عمارة الفرنساويين فالتقت بها على مسافة قصيرة من منية سلامة وقد تجاوزت جنود البر بسبب الريح الشديدة التي طلعت عليها ذلك اليوم

التقاء الجيشين

فبغت الفرنساويون لذلك الاتفاق فاطلقوا نارهم فاجابهم المماليك وكان على قيادة العمارة المصرية علي باشا الطرابلسي المتقدم ذكره فاحتدمت الحرب بين الفريقين وكادت تدور الدائرة على الفرنساويين وقد يئسوا لدخول عدة من مراكبهم في حوزة المماليك فارسل يريه قائد العمارة الفرنساوية رسولاً يوصل الخبر الى بونابرت ليسرع الى امدادهم . ثم اتفق ان احدى قنابل الفرنساويين اصابت المركب الذي فيه زخائر المماليك فاحرقتها وتطايرت اجزاؤها في الفضاء فاندعر المماليك وخابت آمالهم . ثم وصل بونابرت بمن معه فحمد الاتفاق الذي نجى عمارتهم وامر ان تجعل عساكره مربعات منتظمة لملاقاة المماليك في البر ايضاً فالتقى الفريقان وبعد الاخذ والرد عاد المماليك على اعقابهم يطلبون النجاة وفر كل من كان في القرى المجاورة فدخلها الفرنساويون فلم يجدوا فيها احداً فواصلوا السير حتى اتوا وردان فعسكروا للاستراحة ثم بلغهم ان مراد بك ورجاله تحصنوا في امبابه مقابل القاهرة

وفي ٧ صفر سنة ١٢١٣ هـ خرج بونابرت من وردان بجيشه قاصداً القاهرة وما مشى يسيراً حتى ظهرت له الاهرام العظيمة وراء الافق . وما زال اهل القاهرة منذ سفر مراد بك لملاقاة الفرنساويين في اضطراب يجتمع علماؤهم وفقهاؤهم في الجامع الازهر يقدمون الصلوات والتضرعات الى الله ان ينصره على اعدائه ومثل ذلك كان يفعل القراء وتلامذة المدارس . اما باقي الاهلين فكانوا في اضطراب عظيم ولا سيما عندما كانوا يسمعون بتقهقر المماليك

معركة امبابة

اما ابراهيم فكان معسكرا في بولاق كما تقدم . فلما بلغه تقهقر مراد بك من شبرايس بمدافعه خابر رجال حكومته فاقروا على بناء الطوابي عليها المدافع من بولاق الى شوبرا تعزيزاً للقاهرة . اما سكان القاهرة فمن يسكن جاشهم وقد وقع في قلوبهم الرعب ؟ وكان مراد بك قد تحصن في امبابه على ان يقابل الفرنساويين هذه المرة بالمدافع وليس بالفرسان كما فعل في شبرايس . وفي صباح يوم السبت في ٨ صفر بلغ الفرنساويون الجسر الاسود ثم ام دينار . وفي صباح ٨ منه (٢١ يوليو) غادر الفرنساويون ام دينار ونزلوا على ميلين من امبابه في حقل من البطيخ . فكان النيل عن يسارهم والاهرام وسلسلة جبال ليبيا عن يمينهم وامبابه امامهم وفيها مراد وجنوده وعليهم الالبسة والدروع من الحديد المصقول تتلالأ في اشعة الشمس . والوان ملابسهم تزيدها رونقاً واصوات خيولهم قد ملات الفضاء

ونظر بونابرت الى معسكر العدو فرآه حصيناً وفي مقدمته اربعون مدفعاً معدة لاطلاق القنابل على الفرنساويين عند اول حركة يتحركونها نحوهم . فالتفت الى رجاله واشار الى الاهرام قائلاً « اعلموا ان خمسين جيلاً من الناس تنظر اليكم من قمم هذه الاهرام وتراقب حركاتكم تنظر ما يأول اليه امركم مع هؤلاء المماليك »

وترى شكل ٣٧ الجيوش الفرنساوية بجوار اهرام الجيزه

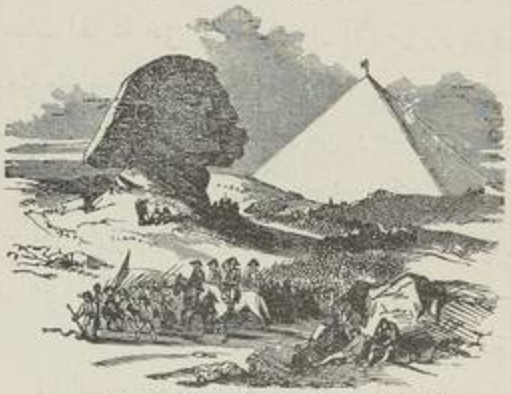

ش ٣٧ : الجيوش الفرنساوية بجوار الاهرام

ثم امر فرقة الجنرال ديزه ان تتقدم نحو اليمين والفرق الاخرى نحو اليسار تجنباً لنيران تلك المدافع . فادرك مراد بك مرادهم من هذه الحركات فامر ايوب بك الدفتردار ان يطلق القنابل على فرقة الجنرال ديزه ويوقفها عن المسير . فوقفت على شكل مربع تنتظر هجوم المماليك فهجم ايوب بك هجمة الاسود وتبعته السناجق بالسيوف فلاقاه مربع ديزه بنار كالصواقع المتساقطة فلم ينفك ايوب بك هاجماً وهو ينادي باعلى صوته « ويل لكم ايها الكفار الملاعين قد ساقتكم كبرياؤكم الى ارضنا مهلا انتا سنملا القبور باجسادكم

ونجعل هذا اليوم يوماً تذكره اعقابكم من بعدكم . اما نحن فاذا مات احدنا فانه يذهب شهيداً الى النعيم والذي يبقى حياً فله السعادة الى آخر ايامه »

هجمت الفرق الفرنساوية من على اليسار واشتد القتال وما زالت الحرب سجالاً حتى تقهقر المماليك وقتل ايوب بك وفر مراد بك بمن بقي من رجاله قاصداً الصعيد واستولى الفرنساويون على امبابه

خوف اهل القاهرة

فلما اتصلت تلك الاخبار بالقاهرة ضجت العامة وكثرت الغوغاء من الرعية واخلاط الناس بالصياح منادين « يا رب يا لطيف يا رجال الله » كانهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم والعقلاء منهم ينادونهم ان يتركوا ذلك الصياح قائلين « ان الصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الاصوات والصراخ والنباح » فكانوا لا يسمعون ولا يرجعون

ثم ركبت طائفة من الامراء والاجناد من المعسكر الشرقي في بولاق وفيهم ابراهيم بك وشرعوا في التعدية امداداً لمراد فتزاحموا على المعادي لان التعدية من محل واحد والمراكب قليلة فلم يصلوا الى البر الثاني حتى وقعت الهزيمة على المحاربين وريح النكباء يشتد هبوبها وامواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلم يستطع احدهم ان يفتح عينيه من شدة الغبار . وكان ذلك من اعظم اسباب الهزيمة حتى خيل للناس ان الارض زلزلت والسماء ساقطة عليها . والهزيمة مع ذلك متواصلة حتى انهزم ابراهيم بك وبكير باشا . وجعل اهالي المدينة يأخذون ما خف حمله وغلا ثمنه ويفرون من وجه الموت جنوباً وشرقاً الى الصعيد او الى السويس وبلبيس . اما ابراهيم بك فسار نحو الشرق . كل ذلك ظناً منهم ان الفرنساويين قد عدوا الى البر الشرقي ولاسيما عند ما راوا الدخان يتصاعد من جهة بولاق وقيل لهم ان الفرنساويين قد احرقوها وجاؤا ليحرقوا المدينة وينهبوا ويفتكوا

وفد العلماء الى بونابرت

ولما اصبح القوم تبين لهم ان الفرنساويين لا يزالون في البر الغربي فاجتمع المشائخ والعلماء في الازهر وتشاوروا في ما يفعلونه واقروا على مخابرة الفرنساوية للتفاهم في ما يأول اليه امرهم . فبعثوا وفداً ينوب عنهم في ذلك فاغتنم بونابرت تلك الفرصة واجابهم بخطاب فحواه « اننا ما حضرنا الا بقصد ازالة المماليك الذين يعاملون الفرنساوية بالذل والاحتقار واخذ مال التجار ومال السلطان . ولما حضرنا الى البر

الغربي خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم واسرنا آخرين ونحن في طلبهم حتى لا يبقى احد منهم بالقطر المصري . وأما المشائخ والعلماء وأصحاب المراتب والرعية فيكونون مطمئنين في مساكنهم »

ثم قال « فليأت الينا المشائخ لنؤلف لهم ديواناً ننتخبه من عشرة اشخاص عقلاء يدبرون الامور »

فلما عاد الوفد الى المشائخ وبلغوهم ما قاله بونابرت اطمأنوا وركب جماعة منهم الى معسكر بونابرت في الجيزة فتلقاهم بالترحاب وطمأنهم وطلب اليهم ان يستدعوا كبارهم ليؤلف منهم ديواناً

الديوان العمومي

ثم دخل بونابرت القاهرة وجمع المشائخ وطلب اليهم ان ينتخبوا منهم عشرة اشخاص فوقع الانتخاب على الاسماء الآتية :

الشيخ عبد الله الشرقاوي	الشيخ موسى السرسي
« خليل البكري	« مصطفى الدمنهوري
« مصطفى الصاوي	« احمد العريشي
« سليمان الفيومي	« يوسف الشبرخيتي
« محمد المهدي الكبير	« محمد الدواخلي

هؤلاء العشرة هم اعضاء الديوان الوطني . وبعد ان تم انتخابهم انتخبوا رئيساً عليهم منهم بالقرعة فوقع الانتخاب على الشيخ عبد الله الشرقاوي

واحتفل بونابرت بافتتاح الديوان وبالغ في اكرام اعضائه وامر بعض المصورين فصوروهم كل واحد على حدة ولا تزال هذه الصور محفوظة في معرض فرسايل . ونرى في ما يلي نسخاً من بعضها . وهو اول ديوان وطني تألف بمصر — لم ينتخبه الشعب لان الشعب لم يكن له ذكر ولكن العلماء انتخبوه وهم نواب الشعب بحكم العرف فكان ذلك فاتحة السلطة النيابية الانتخابية

واعضاء هذا المجلس هم خيرة علماء مصر في ذلك العصر : فالشيخ عبد الله الشرقاوي هو ابن ابراهيم الشافعي الازهري الشهير بالشرقاوي ولد سنة ١١٥٠هـ وتربى بالفرين ثم نقل الى الازهر وقرأ على اعلم مشائخ عصره في الازهر وغيره وله مؤلفات اسلامية مفيدة منها الحاشية على التحرير ومتن العقائد وشرحها وشروح ومختصرات

ش ٣٨ : الشيخ عبد الله الشرقاوي

كثيرة في الفقه واللغة والتاريخ . وكان في صباه في قلة من العيش ثم اتسعت حاله بالهدايا التي كانت تأتيه من بعض التجار . ولما مات الشيخ العروسي تولى بعده مشيخة الجامع الازهر ووقع بينه وبين والي مصر اختلاف وتغاضبا حيناً ثم تصالحا بشرط ان يلزم الشرقاوي داره فلما جاء بونابرت الى مصر سنة ١٢١٣ هـ والف الديوان الذي نحن في صدده جعله رئيساً عليه . واكتسب في ايام الفرنساويين مالاً كثيرة فاتسعت عليه الدنيا فاشترى الابنية والقصور والحمامات والحوانيت حتى توفي سنة ١٢٢٧ هـ

والسيد خليل البكري من سلالة ابي بكر الصديق وتولى نقابة الاشراف بمصر ومشيخة السجادة . وتأيد منصبه بها بعد مجيء بونابرت فاستولى على اوقافها وانتخبوه من جملة اعضاء الديوان كما رأيت . وكان وافر الحرمة مقبول الشفاعة عندهم فكان امراء المماليك الهاربون يوسطونه لدى الفرنسوية في العفو عنهم . ولما خرج الفرنساويون عادت نقابة الاشراف الى السيد عمر مكرم . وتوفي سنة ١٢٢٣ هـ

والشيخ المهدي الكبير يختلف في نسبه عن سائر اولئك العلماء فقد ولد قبطياً وابوه اسمه ابيفانيوس فضل الله . ولما ولد سمي هبة الله وكان ابوه كاتباً في بيت سليمان كاشف او مباشراً لاموره ولما ترعرع هبة الله اعجب به الكشف واحب ان يجعله

ش ٣٩ : السيد خليل البكري

من ضمن مماليكه ولم يكن له ميل الى العسكرية فادخله في مصاف طلبة الازهر ولم يكن يقبل فيه غير المسلمين فاعتنق الاسلام وسمي محمد المهدي وكان زكياً فما زال يرتقي حتى صار من كبار العلماء والفقهاء ودرس في الازهر والف كتباً كثيرة ونال حظاً من الوجاهة واتسعت حاله ونال الاقطاعات والهدايا من الكشاف وغيرهم فبنى الدور واقتنى الخدم وشارك في التجارات حتى اصبح من اهل الثروة. ولما دخلت الفرنساوية مصر قربوه وسايرهم في اغراضهم ووثقوا بقوله فكان موضع ثقتهم الواسطة العظمى بينهم وبين الناس حتى لقبوه كاتم السر ولما رتبوا الديوان انتخب من اعضائه وصار اليه النفوذ الاكبر وله تاريخ طويل لا محل له هنا

والشيخ سليمان الفيومي اصله من الفيوم . اتى الى مصر وهو رقيق الحال وتلقى العلم في الازهر وتقرب من الامراء المماليك لحسن انشاده وقراءة الاشعار . وتقرب من بعض الامراء البرقوقية وتعرف الى الاغوات وتوسط بهم الى التوكل بالقضايا والدعاوي واكتسب الاموال الطائلة وتحسنت حاله فتجمل بالملابس وركب البغال وتعين استاذاً في الازهر برواق الفيمة وكان للامراء المماليك ثقة فيه فانفذوه بمهمة خصوصية الى الاستانة . ولما عاد الى مصر توالت عليه الهدايا من الامراء والاعيان وغيرهم فاتسعت حاله وصار منزله ملجأ للناس على اختلاف الطبقات . ولما دخلت

ش ٤٠ : الشيخ محمد المهدي الكبير

الفرنساوية مصر وهرب الامراء جاءت نساؤهم الى دار الشيخ الفيومي ووسطوه فدافع عنهن لدى الفرنساوية وتوسط في العفو عن بعض رجالهن وكان في جملة من تعينوا في الديوان كما رأيت

ش ٤١ : الشيخ سليمان الفيومي

الديوان الخصوصي

على ان الفرنساويين شعروا ان هذا الديوان لايمثل كل عناصر الامة وطبقاتها فعمدوا الى تشكيل مجلس عام يؤلف من الطوائف القاطنة في مصر على اختلاف عناصرها وطبقاتها ومذاهبها . ومتى اجتمعوا ينتخبون من بينهم ديواناً يسمى الديوان الخصوصي او الديوان الديومي اي يشتغل دائماً والديوان الآخر يجتمع عند الاقتضاء. فنشروا منشوراً على اهل القطر طلبوا فيه الى اعيان البلاد من المشائخ والتجار واهل الوجاهة من كل الطوائف والملل ان يحضروا الى دار الحكومة . فجاء كثيرون وانتخبوا منهم ستين شخصاً ممن ثبتت لهم صفة تميزهم عن العامة بالعلم او الثروة اوغيرهما وهذه اسماؤهم باعتبار طوائفهم :

مشايخ وعلماء : السيد البكري . السيد الدمرداشي . السيد حسين رفاعي . الشيخ عبد الله الشرقاوي . الشيخ محمد المهدي . الشيخ مصطفى الصاوي . الشيخ موسى السرسي . الشيخ محمد الامير . الشيخ سليمان الفيومي . الشيخ احمد العريشي . الشيخ ابراهيم بن المفتي . الشيخ صالح الحنبلي . الشيخ محمد الدواخلي . الشيخ مصطفى الدمنهوري

وجاقلية : محمد اغا شوربجي فلاح . علي نكيا الجدلي . خليل اغا شوربجي فلاح . احمد ذو الفقار اوطه باشي فلاح

انكشارية : يوسف شوربجي باش جاويش توزنكجيان . يوسف شوربجي باش جاويش جمليان . مصطفى افندي شراكة . امير سليم شرابي

عرب : مصطفى افندي عاصي . مصطفى كخيا باش اختيار . حسن شوربجي بركاوي

تجار الغورية : الحاج محمد الاشوبي شيخ الغورية . الحاج محمد ابو النصر . الحاج سيد شيخ المغاربة

تجار البهار : الحاج احمد محرم . الحاج احمد المحروقي . ابراهيم افندي . قاضي البهار الحاج حسين جار ابراهيم . المعلم ميخائيل كحيل . المعلم يوسف فرحات . الحاج احمد حسين

تجار البضايع التركية : السيد احمد العقاد المحروقي . الحاج مصطفى شيخ العقادين الحاج احمد القازانجي

تجار العطور : السيد محمد شيخ العطارين

تجار السكر : درويش عبد القاهر البغدادلي . ابراهيم قرموط . محمد همشري

تجار النحاس : السيد مصطفى مصباح . الحاج حسين النحاس
صياغ وجوهرجية : الحاج سالم الجوهرجي . محمد البغدادلي
تجار ورق : علي بن الحاج خليل الوراق
تجار اقمشة : الحاج ابراهيم المصري . علي الصلانجي شيخ القماحين
تجار صابون : السيد احمد زرو . سيد يوسف فخر الدين
تجار دخان واقمشة سورية : احمد نظام
مشايخ الاقسام : شيخ جزاري الحسينية . شيخ العطوف
الاقباط : المعلم لطف الله المصري . المعلم ابراهيم جر العايط . المعلم ابراهيم مقار . ابراهيم كاتب الصرة

الفرنساويون : دلمار . وكاف . وبوديف

هؤلاء اعضاء المجلس العام او الديوان العام وهو منتخب من اعيان البلاد . وقد اصدروا بتعيينه امراً رسمياً مؤرخاً في رجب سنة ١٢١٣ هـ واشترطوا في ذلك الامر ان يكون في الديوان المذكور مندوب فرنساوي اسمه جلوتيه ومندوب مسلم اسمه ذو الفقار كخيا وان يجتمعوا في يوم عينه في الامر المومأ اليه لينتخبوا منهم ديواناً مؤلفاً من ١٤ عضواً يسمى « الديوان الخصوصي » ويكون الانتخاب بالقرعة وبالاكثرية المطلقة . وعين لاجتماع الديوان الكبير ثلاثة ايام متوالية ثم لايجتمع الا عند الحاجة . ومتى تم انتخاب الديوان الخصوصي يصادق عليه السر عسكر (بونابرت) . ثم ينتخب له رئيس يوالي اجتماعاته كل يوم لمساعدة الحكومة في النظر في مصلحة الوطنيين . ويعين له كاتب وترجمان ومحضر وعشرة حجاب يقومون بخدمته . وختم الامر بتعيين رواتب اعضاء المجلس الخصوصي واتباعهم وهي مائة ريال في الشهر للرئيس وثمانون ريالا لكل عضو . وللمحضر ٦٠ بارة في اليوم وللحاجب ٤٠ بارة

فاجتمع الديوان العام المشار اليه وانتخب من اعضائه ١٤ عضواً يتألف منهم الديوان الخصوصي وهو غير الذي تقدم ذكره . فان هذا لم يكن فيه من المشايخ الا الشرقاوي والمهدي والصاوي والبكري والفيومي . وباقي الاعضاء من سائر الطوائف على هذه الصورة . من التجار المحروقي واحمد محرم ومن النصارى القبط لطف الله المصري ومن السوريين يوسف فرحات وميخائيل كحيل ومن الانكليز « رواحة » ومن الفرنساويين بودني وموس . فهو مجلس وطني مختلط تشكل من نواب يمثلون اهم العناصر التي تتألف منها الامة المصرية — بعضهم من الوطنيين الاصليين المسلمين

والاقباط والبعض الآخر من الجالية السورية والافرنجية . فهو كثير الشبه بالمجلس النيابي الذي اشار اللورد كرومر بتشكيله من العناصر التي تتألف منها الامة المصرية الآن وجعل ذلك شرطاً لاستقلالها ونجاحها

ش ٤٢ : الديوان الخصوصي
اول مجلس شورى وطني في مصر انشأه بونابرت سنة ١٧٩٨

ولما تم تأليف المجلس الخصوصي على هذه الصورة كتب بونابرت بذلك مناشير علقوها في الاسواق ضمنها التهديد المشوب بالتزلف مثل سائر منشوراته بمصر . وقد صوروا هذا الديوان في احدى جلساته وفيه بونابرت قاعداً على دكة والعلم الفرنساوي بجانبه وقد قعد الاعضاء بين يديه وفيهم الكاتب والترجمان والمحضر وبعض الحجاب كما ترى في الشكل ٤٢

واخذ الديوان المذكور يوالي اجتماعاته ولا يبرم بونابرت امراً مهما بمصر الا شاوره واخذ رأيه فيه وانما كان شغله بالاكثر النظر في المسائل الوطنية . فالديوان الخصوصي هذا خطوة اخرى نحو السلطة النيابية في مصر لانه منتخب من وجهاء البلاد من كل الطوائف واذا لم تشترك العامة في انتخابه فالانتخاب حتى في الحكومات الدستورية اليوم يتم بالحقيقة على ايدي الوجهاء والخاصة الذين تنتخبهم العامة

وشكل الفرنساوية مجلساً آخر او ديواناً سموه محكمة القضايا مؤلفاً من ١٢ عضواً ستة من الاقباط وستة من التجار المسلمين وجعلوا قاضيه الاكبر اورئيسه المعلم ملطي القبطي وفوضوا اليه النظر في القضايا التي تقع بين التجار والعامة وفي المواريث ونحوها فهو شبيه بمحكمة اهلية مختلطة . وكانت تلك القضايا تنظر الى ذلك الحين في المحاكم الشرعية . فكان بونابرت اول من اسس المحاكم النظامية بمصر

نزول الفرنساويين القاهرة

وفي يوم الثلاثاء ١١ صفر عدت الجيوش الفرنساوية الى القاهرة ونزل بونابرت في بيت محمد بك الالفي واخذت العساكر الذين دخلوا القاهرة من الفرنساويين يعاملون الباعة باللين ويبتاعون مايحتاجون اليه ويدفعون فيه ثمناً غالياً فاحبتهم الناس وارتاحوا اليهم

ثم اخذت العساكر الفرنساوية تعدي للبر الشرقي شيئاً فشيئاً حتى كثر عددهم في القاهرة فامتلأت منهم الاسواق وسكنوا في البيوت ولكنهم لم يشوشوا على احد وكانوا يأخذون مايحتاجون اليه بزيادة في الثمن ففجر السوقة وصغروا اقراص الخبز وطحنوا الحنطة بترابها وكثرت باعة المأكولات وفتح الاروام عدة حوانيت لبيع الاشربة وحانات وقهوات وفتح بعض الافرنج المتوطنين بيوتاً لصنع الاطعمة والاشربة على النمط الافرنجي اي لوكاندات افرنجية ولم يكن ذلك معروفاً في مصر الى ذلك العهد ولذلك وصفها المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي كانها شيء جديد دخل عليهم فقال « وفتحوا بيوتاً لصنع الاطعمة والاشربة على طرائقهم في بلادهم وجعلوا على ابوابها علامات يعرفونها بينهم فاذا مرت طائفة تريد الاكل بذلك المكان دخلوه وهو يشتمل على عدة مجالس بين دون وعال ووسط وعلى كل مجلس علامة ومقدار الدراهم التي يدفعها الداخل . وفي تلك المجالس موائد من الخشب عليها الطعام وحولها الكراسي فيجلسون اليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم فياكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه ثم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم »

وفي اليوم السبت ١٥ صفر سنة ١٢١٣ اجتمع الديوان المتقدم ذكره وتباحث في احتياجه الى النقود فقرر استدانة خمسمائة الف ريال من التجار المسلمين والنصارى والنبط والسوريين والافرنج واخذوا في تحصيلها وقرروا ان ينادى في الاسواق ان من اخذ شيئاً من نهب البيوت عليه ان يحضر به الى بيت القائمقام وان لم يفعل وظهر بعد ذلك يشتد عقابه . وان ينادى على نساء الامراء والبكوات بالامان وان يدكن بيوتهن وان كان عندهن شيء من امتعة ازواجهن يصالحن على انفسهن . فجاء كثيرات منهن وصالحن ودفعن مبالغ عظيمة

وفي يوم الاحد في ١٦ منه طاب بونابرت الخيول والجمال والاساحة فجمعوا شيئاً كثيراً منها وكذلك الابقار والثيران واشاعوا التفتيش وكسروا عدة دكاكين سوق السلاح وغيره واخرجوا ما وجدوه فيها من الاساحة واخرجوا كثيراً من الخبايا والودائع بواسطة البنائين والمهندسين والخدم الذين يعرفون بيوت اسيادهم . وكانوا يطلعونهم على اماكن الخبايا ومواضع المدافن تقرباً من الفرنساويين . وفي ذلك اليوم قبضوا على شيخ الجعيدية « الرعاع » ورموه بالرصاص ببركة الازبكية مع آخر لم يلبث له ثم قبضوا على آخرين في الرميلة فخاف الناس وصار يأتي الذين عندهم منهوبات ويقدمونها للديوان

وفي يوم الثلاثاء ١٨ منه طلبوا اهل الحرف والتجار وضربوا عليهم مالاً على سبيل القرض لم يستطيعوا دفعه فامهلوهم ستين يوماً لدفعه فاستغاثوا وذهبوا الى الجامع الازهر والمشهد الحسيني واستشفعوا المشايخ فتكلموا بامرهم امام الديوان فخفف المطلوب الى نصفه ووسعوا لهم في الاجل . وكان بكل عطفة او حارة من عطف القاهرة وحاراتها باب كبير مصفح بالحديد يقفل ليلاً . فامر بونابرت بنزع ابواب الدروب والعطف والحارات واستمروا في ذلك عدة ايام فخاف الناس وكثرت ظنونهم في المقصود من تلك الاعمال . فظن بعضهم ان الفرنساويين عازمون على قتل المسلمين وهم في صلاة الجمعة وقال آخرون غير ذلك . وكان في القاهرة دار لضرب النقود تضربها باسم السلطان فامر بونابرت ان يستمر الضرب كما كان وعهد بذلك الى احد رجاله . وكان في نيته انشاء بريد (بوسطة) بين مصر والاسكندرية لكنه لم يستطع ذلك لكثرة الاخطار التي تحيط برسل البريد في اثناء الطريق

وفي ٢٠ منه وردت الى الديوان كتب من قافلة الحج بالعقبة فذهب ارباب الديوان الى السر عسكر بونابرت واعلموه بذلك وطلبوا منه اماناً لامير الحج فامتنع

لئلا يكون في كثرة من الحجاج فيحدث ما يكدر الراحة . وقال « لا اعطيه ذ
الا اذا جاء في قلة ولا يدخل معه المماليك » فقالوا « ومن يحفر الحجاج » قال
ارسل لهم من عساكري اربعة آلاف يوصلونهم الى مصر » فكتبوا الى امير الح
كتاباً لطيفاً واوعزوا اليه ان يحفر بمن معه الى الدار الحمراء وانه متى وصل
هناك يدبرون ما فيه الخير . فلم يصله ذلك الكتاب حتى خابره ابراهيم بك وكان
بابيس يطلب اليه ان يوافيه الى هناك حالاً . فسار الى بابيس فعلم بونابرت بذ
ابراهيم بك في بابيس فارسل اليه فرقة من جيوشه تحت قيادة الجنرال لاكلارك ف
وعسكر في الخانقاه وراء المعادية ومكث هناك يومين ولم يصادف اقلّ مقاومة

وفي اليوم الثالث هجم عليه وعلى رجاله قبائل من العرب بينهم عدد كبير
المماليك وبعد محاربة شديدة تقهقرت الجيوش الفرنساوية نحو القاهرة لعجز خيو
فعلم الجنرال مورات بذلك فاستمد بونابرت فامده فاجتمعت الجيوش الفرنس
ثانية الى الخانقاه وتبعهم بونابرت بنفسه خيفة ان يكونوا في ارتباك فينكسروا وتع
العائدة عليهم فاتحدت جميع الجيوش الفرنساوية في الخانقاه وساروا جميعاً في
العربان والمماليك حتى الصالحية وهناك كان ابراهيم بك بمن معه ثم علموا انه
الصالحية فارًّا نحو سوريا ملتجئاً الى الجزار في عكا وانضم كثيرون من رجاله
عسكر الفرنساويين وسلمت الصالحية بمن فيها

واقعة ابي قير

فلما رأى بونابرت ذلك اسرع بالعود الى القاهرة . وبينما هو في الطريق
رسول بكتاب مفضوض فتلاه فاذا به خبر قدوم عمارة نلسون الانكليزية
الاسكندرية وحصول واقعة كبيرة في ابي قير شفت عن تحطم العمارة الفرن
برمتها . فاندعر لذلك الخبر ولكنه تجلد وقال لاركان حربه وكان قد فض الكت
وتلاه قبله « دع هذا الخبر في سرك الآن لنرى ماذا يأتي به الغد »

وتفصيل تلك الواقعة ان نلسون بعد ان برح الاسكندرية علم بقدوم الفرن
اليها ودخولهم القطر المصري فعاد بعمارته ثم جاء الاسكندرية في ١٩ صفر سنة ١٢
(اول اغسطس سنة ١٧٩٨ م) وكانت العمارة الفرنساوية راسية في جون ابي قير
خط واحد مستقيم من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي تحت قيادة الاميرال بر
وكانت قد ارسلت في ذلك الصباح خمسة وعشرين نفراً من كل دارعة من دو
الى البر لحفر الفعلة المرسلين لاحتفار الآبار . فلما استكشفوا العمارة الانكليزية

ل ان يعودوا الى المراكب

م تداول الاميرال برويس مع ضباطه في كيف يقابلون العمارة الانكليزية فاشاروا ان يخرج من الجون ويستقبلها في ظهر البحر فاصر على بقائه في مكانه لان عدد لا يسمح له بقبول مشورتهم فبقيت العمارة في الجون بانتظار الانكليز

ش ٤٣ : الاميرال نلسن

أما نلسون فكان مذ علم باحتلال الفرنساويين مصر وهو يعمل فكرته في كيفية تهم . فلما صار على مشهد من عمارتهم فكر في احسن اسلوب يأخذهم به فاقرّ ن يرسل قسماً من مراكبه يدخل بين سفن الفرنساويين والبر والقسم الآخر من الامام فيجعلهم هدفاً لنارين حاميتين وكان عالماً بما يحيط بهذا العمل طر لكنه كان ممن يستسهلون الصعب . فسارت بعض مراكبه من وراء ساويين بينهم وبين البر وتقدمت بقية المراكب من الامام وكانت الشمس قد مالت غروب وابتدأ نلسون باطلاق المدافع فاجابه الفرنساويون بنار مثل ناره . وبعد قيقة انكسرت دارعة فرنساوية ثم انكسرت دارعتان اخريان ولم يأت العشاء حتى ل الانكليز على عدة دوارع فرنساوية غير التي كسرت

وكان الاميرال برويس عَلَى الدراعة « الشرق » ذات المائة والعشرين مدفعاً وعليها نحو الف رجل . وكان نلسون من الجهة الاخرى عَلَى احدى دوارعه يراقب حركات الفرنساويين ويعطي الاوامر فاصابته رصاصة في جبهته فوق احدى عينيه فتدلى الجلد حتى غشى بصره فرفعه بيده غير مبال وهو ينظر الى ما يكون من حركات الدوارع وكان بجانبه احد ضباطه فامسكه بيده فانتبه كانه كان في غفلة وناداه قائلاً « قد قتلت فارجو ان تذكرني امام امراتي »

وحملوه الى غرفته واحاط به الاطباء وبعد ان كشفوا عن جروحه طيبوا خاطره وطمأنوه ان الجرح لا يؤذن بالخطر السريع اما هو فلم يكن ينتظر الشفاء ولكنه مع ذلك لم يشغل عن اصدار الاوامر الى ضباط الدوارع وكان يتتبع حركاتها وهو عَلَى فراشه . ثم ضمدوا جرحه وهو يخاطب كاتب سره ان يكتب حالاً لنظارة البحرية في لندن عن هذه المعركة . فلم يستطع احد من الحضور ان يمسك القلم من شد التأثر فاخذ نلسون قلمه وكتب ما اوتيه من النصر

اما الاميرال برويس فأصيب اولاً ببعض الجراح ثم اصابته قنبلة قطعت احشاءه فسقط عَلَى الارض فارادوا حمله الى اسفل الدارعة فاشار ان يتركوه يفارق الحياة عَلَى ظهرها فتركوه . وبعد العشاء بيسير اصاب « الشرق » الدارعة الفرنساوية العظيمة احتراق تطرق الى جارتها فبلغ ذلك الاميرال نلسون فطلب ان يحملوه الى ظهر دراعته ليشاهد ذلك فحملوه . فلما راى تلك المشاهد تأثر منها كثيراً فامر ان يسير احد الضباط في سرب من العساكر لمساعدة الفرنساويين في انقاذ الدارعة « الشرق » من الحريق ولم ينج من رجالتها الا القليل . واشتد الحريق حتى رآه اهل الاسكندرية ورشيد . وما زال الاطلاق متواصلاً والاضطراب متسلطاً الى ظهيرة اليوم التالي وقد فاز الانكليز فوزاً مبيناً

وكان كلابر ورجاله في الاسكندرية باثناء المعركة في خوف واضطراب وكانوا جميعاً تحت السلاح . وفي الصباح وردت لهم الاخبار بانكسار العمارة الفرنساوية . ثم جاءت مكاتبات اخرى ان اسرى الفرنساويين وجرحاهم محفوظون بكل اكرام عند الانكليز وفي نية نلسون ان يبعث بهم الى البر يقيمون في المستشفيات تحت معاينة بعض اطبائه . فلما وصل خبر انكسار الفرنساويين الى رشيد والاسكندرية خاف الفرنساويون وانحط قدرهم في اعين الوطنيين . واضطر الرشيديون منهم الى مواصلة المخابرة مع الاسكندرانيين فاقاموا قافلة تنقل البرد وفيها الكتب والرسائل والاخبار لاجل المفاوضة في امر الدفاع اذا اراد الانكليز محاربتهم . فكتب كلابر الى بونابرت

بواقعة الحال وما انتهت اليه العمارة الفرنساوية فوصله الكتاب في اثناء عوده من الصالحية كما مر بك . اما العمارة الانكليزية فاقلعت عن الاسكندرية

فسار بونابرت حتى اتى بلبيس فرأى ضباطه واركان حربه على المائدة صباحاً فرحين بانتصارهم على المماليك في الصالحية لا يعلمون بشيء من واقعة ابي قير فقال لهم ضاحكا « افرحوا ولتنشرح صدوركم واجتهدوا ان تعتادوا على هواء هذا الاقليم فاننا اصبحنا لا مراكب لدينا تنقلنا الى اوربا » فاضطربت قلوبهم عند ذلك فطلب اليهم ان لا يذيعوا الخبر ثم ساروا حتى وصلوا القاهرة مساء الخميس ٤ ربيع اول

فتح الخليج والمولد النبوي

وفي اليوم التالي كان يوم وفاء النيل (١٣ مسري) فامر بونابرت ان يحتفل بفتح الخليج كالعادة فزينوا عدة غلايين (مراكب) ونادوا في الناس الخروج للنزهة في النيل والمقياس والروضة على عادتهم . وارسل بونابرت دعوة رسمية الى كخيا الباشا والى القاضي وارباب الديوان واصحاب الشورى وارباب المناصب وغيرهم للحضور في صبحها وركب هو معهم في موكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره الى قنطرة السد وكسروا الجسر بحضورهم واطلقوا المدافع اطلاقاً متوالياً واحرقوا النفوط حتى جرى الماء في الخليج ثم ركب وعاد حتى اتى الى داره . اما اهل المدينة فلم يخرج منهم تلك الليلة للنزهة في المراكب كالعادة الا الافرنج والسوريون والقبط وقليلون غيرهم

ثم جاء المولد النبوي ولم يكن في نية العلماء الاحتفال به فاستنهم بونابرت عن سبب ذلك فاعتذر الشيخ البكري بتوقف الاحوال وتعطل الامور وعدم امكانهم القيام بما يقتضيه ذلك الاحتفال من النفقات . فقال لا بدّ من الاحتفال كالعادة ودفع في الحال ثلثمائة ريال فرنساوي وامر بتعليق قناديل واحمال وتعاليق واجتمع الفرنساويون يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم وارسل بونابرت طبلخاناته الكبري (الموسيقى) الى بيت الشيخ البكري واستمروا يضربونها طول الليل والنهار بالبركة تحت داره واحرقوا في اثناء الليل نفوطاً وشواريخ كثيرة . وفي ذلك اليوم البس الشيخ خليل البكري فروة وتقلد نقابة الاشراف ونودي في المدينة بان كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها الى النقيب

ثم جاء يوم احتفال الفرنساويين بجمهوريتهم للسنة السابعة فاحتفلوا به غاية الاحتفال ونخصوا فيه معركة امبابه وانكسار المماليك ونصبوا شجرة الحرية نقش منها الوطنيون ولم يكونوا يفهمون المقصود بها . ثم ارسل بونابرت مندوباً ينصب العلم الفرنساوي ذي الثلاثة الالوان على قمة احد الاهرام العظمى وحفروا هناك اسماء الضباط الذي قتلوا في واقعة امبابه

قتل السيد محمد كريم

قد تقدم ان السيد محمد كريم بقي في الاسكندرية كما كان فيها قبل مجيء الفرنساويين . وقبل واقعة ابي قير بيسير عثر الفرنساويين عَلَى كتاب مرسل من محمد كريم المذكور الى مراد بك يتواطأ معه عَلَى تسليم الاسكندرية . فاستحضر الى القاهرة فحكم عليه ان يدفع ثلاثمائة الف فرنك غرامة عَلَى خيانته وانه اذا لم يدفع المبلغ في خمسة أيام يقطع راسه . فقال له الترجمة « انت رجل غني فافد نفسك بهذا المبلغ » فتبسم وقال « لا لا ادفع شيئاً لاني اذا قدر لي الموت لا يدفع الدفع مقدوراً واذا قدرت لي الحياة فانا حيٌّ بلا دفع » . ثم استحضر وسئل عن تلك الخيانة فانكر فابرزوا له الكتاب فافحم فارسله بونابرت الى شيخ البلد فطلب العلماء من بونابرت ان يعفو عنه فاطلعهم عَلَى كتابه واصرَّ عَلَى قتله وما انفك حتى اذاقه الموت وطوف راسه بالمدينة مكتوباً فيه « هذا جزاء الخائن »

الشارة الفرنساوية او الجوكار

وفي ٢٠ منه استدعى بونابرت مشائخ القاهرة وعلماءها الى بيته فلما استقر بهم الجلوس خرج ثم عاد وبيده طيالسة ملونة بثلاثة الوان كل طيلسان ثلاثة عروض ابيض واحمر وكحلي فوضع واحدا منها عَلَى كتف الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان . فرمى به الى الارض واستمنى وتغير مزاجه واخذ منه الغيظ مأخذاً عظيماً . فقال الترجمان الذي كان مرافقاً لبونابرت « يا مشائخ ما بالكم لا تزالون في نفرة من حضرة الصاري عسكر فقد صرتم من احبائه وهو يقصد بالباسكم هذه الطيالسة تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فانكم اذا تميزتم بها عظمتكم العساكر واكثرت من احترامكم » فقالوا « لكنَّ قدرنا يحط عند الله وعند احواننا المسلمين » فاغتاظ بونابرت وانتهر الشرقاوي قائلاً « ان مثلك لا يصلح للرئاسة » فنهض بقية الجماعة وجعلوا يلطفون من غضب بونابرت ويطلبون اليه ان يعفيهم مما اراد . فقال « ان لم يكن هذا فلا بد من وضع الجوكار في صدوركم وهي العلامة التي يقال لها الوردة وقد تقدم ذكرها فقالوا « نستمهلك ريثما نتروى في الامر » وانصرفوا

ثم استدعى بونابرت الشيخ السادات اليه فحضر فلاطفه في القول واعرب له عن محبته له « كل ذلك بواسطة الترجمان » ثم ناوله خاتماً من الالماس هدية وطلب اليه ان يحضر في اليوم التالي فحضر . فاتى له بجوكار وعلقه بفرجيته فسكت ولما انصرف نزعه . وفي ذلك اليوم نودي بالمدينة بوجوب نقل هذه العلامة وانها هي علامة الطاعة والمحبة فانف الناس على ان بعضهم علم انها لا تخل بالدين وخاف العقاب فوضعها . وفي العصر نادوا بعدم اعطائها الا لبعض الاعيان اما الباقون فيضعونها اذا جاءوا لمقابلة رسمية

سياسة نابوليون في مصر

ومن الغريب ان بونابرت مع رغبته في الاستيلاء على مصر وسهره على ذلك لم يحسن التصرف كما يجب . فقد رأيناه يصرح باحترامه الديانة الاسلامية وتامين الاهلين على عاداتهم واديانهم وارزاقهم واعراضهم . واظهر تقربه من المصريين حتى قيل انه كان يتزيا بزيهم في الاحتفالات الوطنية فيلبس القفطان والجبة والعمامة — وهو لباس امراء الشرق او سلاطينه — وقد مثله بعضهم بصورة نقلناها في الشكل ٤٤ عن كتاب نوابغ الاقباط ومشاهيرهم — كل ذلك يوجب الثناء عليه الا اننا لا نرى وجهاً يصوب ادعاءه الاسلام ادعاء لم يصدقه احد من المصريين ولم يزدد الناس بسببه الا حذراً من الفرنساويين لانهم لم يدعوا غير دينهم الا تقرباً منهم لغرض في نفوسهم يحاولون نيله

ش ٤٤ : بونابرت بلباسه الشرقي

على انه لو ادعى تلك الدعوى ثم تظاهر بما يثبتها لكان خيراً لكننا رأيناه من الجهة الاخرى يأمر بالمساواة في الارث بين الانثى والذكر امراً يخالف نص القرآن مخالفة صريحة كما لا يخفى وقد تجاهل العادات الشرقية واراد ان يجعل الشعب المصري بعد

ما قاساه في ايام المماليك ان يسير على خطوات الشعب الفرنساوي بعاداته وشرائعه وازيائه . فكانت العساكر الفرنساوية تدخل بيوت الهوانم اللواتي لم يجسر الباشا ان يدخلها — وكان السبب في ذلك ان بونابرت اجاز لرجاله الدخول في بيوت النساء للتفتيش عن اسلحة او مخبآت اوامور اخرى — ولايخفى ما في ذلك من تنفير القلوب وكل منا يعلم ان الشرقي أشد حرصاً على عرضه منه على حياته . ناهيك بما كان يأتيه الجند الفرنساوي من الفواحش التي تأباها النفوس الشرقية

على اننا لا ننكر على هذا الرجل العظيم ما ادخله بواسطة هذه الحملة من الاصلاح في احوال الامة المصرية صحياً وادبياً وشرعياً ولكننا لا نعجب بعد ان علمنا من سوء تصرفه اذا رأينا الاهلين بعيدين عن الاخلاص له — رغم قرب الشعب المصري من الطاعة والانقياد . ولا غرو بعد هذا اذا راينا هم يشتغون بمصائبه ويترقبون فرصة لشق عصا الطاعة وتفضيل سلطة المماليك على تمكنها من العسف والظلم لانهم شركاؤهم بالدين وهو اكبر رابط بين المشارقة . وقد خدع بونابرت بقبول العلماء الاجتماع في ديوان تحت حمايته وما علم ان قبولهم ذلك وغيره من مثله انما جرى رغم ارادتهم وامتثالاً لقول القائل « اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون »

ومن الامور المغايرة التي اتاها الفرنساويون واستوجبوا من اجلها نفور الناس زيادة الضرائب والشدة في تحصيلها واستحداث القوانين على الموتى والضرائب على المواريث وعلى المسافرين من بلد الى آخر فتعطى لهم تذكرة مرور بثمنها واباحة بيع المسكر في الشوارع وهدم بعض الجوامع والمنائر وتخريب بعض التربة باسم الاصلاحات الصحية وبناء القلاع والاستحكامات على التلال خارج القاهرة وقطع ارزاق الاوقاف عن اهلها وتسليمها لغير المسلمين

منشور آخر

وفي خاتمة الجميع وردت العلماء والمشائخ تحاريز سرية من ابراهيم بك واحمد باشا الجزار حاكم عكا في ٣ ربيع آخر مآلها ان السلطان قد ارسل قوة عسكرية ستصلهم قريباً لانقاذهم من نير الفرنساويين — علم بونابرت بذلك فجمع العلماء والفقهاء واعيان البلاد وخاطبهم يحاول اقناعهم ان خطابات المماليك لهم كاذبة

وفي ١٨ ربيع آخر استكتب بونابرت المشائخ كتاباً ارسل منه نسخة لجلالة السلطان ونسخة لشريف مكة وطبعوا منها عدة نسخ الصقوها بالشوارع جعله عن

لسان المشائخ يتكلمون عن أعمال الفرنساويين بمصر ومفاده

« ان الفرنساويين قد قاتلوا المماليك وهزموهم وانهم انما اتوا مصر وتكبدوا ما تكبدوه في سبيل حبهم للباب العالي لانهم من اخصاء جلالة مولانا السلطان واعداء اعدائه وان السكة والخطبة لا تزالان باسمه وشعائر الاسلام قائمة على ما كانت عليه وانهم هم انفسهم مسلمون يحترمون النبي والقرآن الشريف وانهم اوصلوا الحجاج المتشتتين واكرموهم واركبوا الماشي منهم واطعموا الجائع وسقوا الظمآن واعتنوا باقامة الزينة يوم جبر البحر استجلاباً لسرور المؤمنين وانفقوا اموالاً برسم الصدقة على الفقراء واعتنوا كذلك بالمولد النبوي وانفقوا المال في شأن انتظامه وعلو شأنه وانهم قد انفقوا راياً على لبس الجناب الاكرم مصطفى اغا كخيابكير باشا والي مصر حالاً وانهم (المشائخ) استحسنوا ذلك لبقاء علاقة الدولة العلية وانهم مجتهدون في اتمام مهمات الحرمين ـ وقد امرونا ان نعلمكم بذلك والسلام » . وارسلوا من هذا المنشور نسخة الى احمد باشا الجزار والي عكا واخرى الى والي سوريا

ثورة اهل القاهرة

وفي اول جمادى الاولى سنة ١٢١٣ هـ (٢١ اكتوبر « ت ١ » سنة ١٧٩٨) جاء الى الشيخ البكري جم غفير من اولاد المكاتب والفقهاء والعميان والمؤذنين وارباب الوظائف والمستحقين من خدمة الاوقاف وشكوا من قطع مرتباتهم وخبزهم لان الاوقاف تعطل ايرادها واستولى على نظارتها غير المسلمين فوعدهم انه اذا قدموا شكواهم الى الديوان يساعدهم في تحصيل حقوقهم

وفي اليوم التالي اجتمع المشائخ في الجامع الازهر وارسلوا القراء يطوفون الاسواق ينادون قائلين « فلينهض كل من يوحد الله الى الجامع الازهر هذا هو يوم الجهاد في محاربة الكفار واخذ الثار » فعج الناس واقفلوا حوانيتهم وتقلدوا اسلحتهم وكانوا قد خبأوها في اماكن معلومة وساروا نحو الجامع افواجاً يزاحم بعضهم بعضاً وفي مقدمتهم السيد بدر وبعض رعاع الحسينية ينادون باعلى اصواتهم « نصر الله دين الاسلام » وساروا توًّا الى بيت قاضي العسكر فوجدوا هناك كثيرين اخرين ممن سبقوهم على شاكلتهم . فخاف القاضي واغلق بابه واوقف حجابه فضربوهم وحاول هو الهرب فامسكوه . وكان قد توجه القسم الاعظم من الجماهير الى الجامع الازهر . ثم سارت فرقة منهم الى بيت الجنرال كافارلي وفيه بعض الادوات فنهبوه واخربوه ولم يكن الجنرال فيه

وكان الجنرال ديبوي قائمقام القاهرة مقيماً عند بركة الفيل وشاهد في الصباح بعض الجماهير مارين في الاسواق فلم يعبأ بحركاتهم وعند الظهيرة راى الجماهير تعاظمت والاسواق ازدحمت فركب في جماعة واسرع الى بيت الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان بقرب الغورية فلم يجده فسار نحو بيت القاضي وهو يرى الجماهير تزداد والاصوات تتعاظم فمر بين القصرين فراى جمهوراً كبيراً اوقفه عن المسير فكلمهم بواسطة الترجمان فلم يسمعوا فامر رجاله بالهجوم عليهم فرماه بعض الناس من احد الشبابيك على عنقه بحربة مشدودة براس عمود فقطعت له وعاء دموياً كبيراً وكانت القاضية عليه

وتعاظمت الجماهير على الخصوص بجوار الجامع الازهر اما اهالي مصر القديمة وخط بركة الفيل فلم يتجرأوا على ذلك وكانت الجيوش الفرنساوية على غير استعداد لمثل هذه الثورة وحصونهم على سفح المقطم والربى خارج القاهرة خالية من الجنود فلم يكونوا يستطيعون تهديد المدينة . وجعل الثائرون يطوفون الاسواق يقتلون المسيحيين على اختلاف نزعاتهم بين الافرنج واقباط وسوريين ويونانيين وينهبون مساكنهم

دفاع الفرنساويين

فلما اتصل ذلك ببونابرت ركب في ٣٠ من دواليه وسار الى اكثر الاماكن تعرضاً للنهب والسلب فانتعشت جنوده بوجوده فعهد قيادة المدينة الى الجنرال بون وفرق الطوبجية عند مجتمعات الثائرين . واصبح القوم في اليوم التالي واذا بسفح المقطم والربى خارج القاهرة مرصعة بالمدافع وقد ارسل بونابرت وفداً الى المشائخ يطلب اليهم ان يوقفوا الرعاع عن التجمهر فلم يفعلوا . وفي الساعة التاسعة (افرنجية) من الصباح بلغ بونابرت ان بعض العربان قادمون الى القاهرة يريدون الدخول اليها من باب النصر فبعث اركان حربه سالكوسكي لينظر في امر ذلك فبينما كان ماراً عند باب العدوي هجم عليه بعض الثائرين وقتلوه وكان بونابرت يحبه فاسف عليه كثيراً

وهم في ذلك وصل الجنرال كلابر بجيشه من الاسكندرية بعد ما شفي من جراحه فاشتد ازر الجنود الفرنساوية وتألفوا للمحاربة بقلب واحد فقبضوا على جمهور عظيم من الثائرين بجهة الازبكية . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر اطلقت المدافع من الحصون خارج القاهرة على خط الجامع الازهر بؤرة الثورة وفيه زعماؤها وما زال الضرب الى المساء فاضطرب الناس ووقع في قلوبهم الرعب فاجمع المشائخ على التسليم فركبوا خيولهم وساروا الى بونابرت يطلبون الامان فوبخهم على ما اتوه من سفك الدماء ثم

انهم واوقف الضرب . اما سكان خط الحسين ومعظمهم من الجزارين فلم ينفكوا عن الضرب حتى فرغت جعبهم من البارود فهدأوا

دخول الجامع الازهر

فدخلت الجنود الفرنساوية واخذوا في تسكين الناس وتفريق الجموع وفرقوا الخيالة في الاسواق للخفر فادخلوا خيولهم الى الجامع الازهر وكسروا قناديله ومحوا بعض ما كان مكتوباً عليه من الايات القرآنية . وفي يوم الثلاثا ٤ جمادى الاولى خرج المسلمون للصلاة في الجامع الازهر فاذا بالخيول تعج فيه عجيجاً . وفي صباح الاربعاء ٥ منه بعث المشائخ الى بونابرت يلتمسون اخراج الخيول من الجامع فسألهم عن زعماء الثورة ومنشطيها فلم يجيبوه فرفض طلبهم . ثم تداخل محمد الجوهري من اعيان القاهرة وفضلائها في الامر وكان ممن لازموا الحياد فوافقه بونابرت على اخراج الخيالة من الجامع على ان يجعل في ذلك الخط خفراً من سبعين رجلاً . ثم جاء السوريون واليونانيون الذين نهبت بيوتهم بسبب الثورة الى بونابرت وشكوا اليه خسائرهم . فعكف على الاقتصاص من زعماء الثورة . فجعل يقبض على من تقع عليهم الشبهة رجالاً ونساء حتى قتل منهم ١٢ شيخاً دفعة واحدة وجعل جثثهم في اكياس القاها في النيل وعزم من ذلك الحين على الصرامة في معاملته المصريين فمنع المشائخ من المباحثة في الديوان وحصر شغلهم في نشر المنشورات على الشعب لاجل تسكين الثورة فسكن روع الشعب حسب الظاهر

فرمان السلطان

وفي ليلة السبت ٢٤ جمادي الاولى جاء الى القاهرة هجان بكتابات من احمد باشا الجزار وفيها فرمان عليه الطغراء العثمانية وكتابات اخرى من بكير باشا وابراهيم بك وجميعها معنونة باسم مصطفى بك . فلما تناولها وقراها لم يسعه من خوفه الا ان يسلمها الى بونابرت فترجمت له وهاك ترجمتها بعد الاستهلال « ان الفرنساويين ابادهم الله وغشى اعلامهم غشاء العار لانهم كفار معاندون لا يؤمنون برسالة النبي (صلعم) ويسخرون بجميع الاديان ويجحدون البعث وما قدره الله فيه من الثواب والعقاب وهم يعتقدون ان الصدفة العمياء هي المتسلطة على الحياة والموت وان النفس مادة وان الاجسام بعد انحلالها في الارض لا تعود الى الحياة ثانية ولا يلحقها حساب ولا دينونة

وبناء على هذا الاعتقاد قد وضعوا ايديهم على هياكلهم وطردوا منها قسسهم ورهبانهم وعندهم ان الكتب المنزلة خزعبلات واكاذيب ملفقة وان القرآن والتوراة والانجيل خرافات وان موسى وعيسى ومحمداً رجال مثل سائر الرجال وان الناس جميعاً خلقوا سواء لا شيء يميز بعضهم من بعض . وان كلاً منهم يعتقد بما يخطر له وعلى هذه المعتقدات قد بنوا جميع اعمالهم ووضعوا شرائع جهنمية وقد اهتزت اوربا لاجراآتهم هذه وسفكت في سبيل ذلك دماء غزيرة . وانتم تعلمون ما يأمركم به الدين الاسلامي الحنيف فعليكم الانتباه للافاة ما يبثونه بينكم لان غرضهم هدم مكة والمدينة واورشليم وذبح من فيها من الاطفال واقتسام تركاتهم واراضيهم اما من يبقي منهم حياً فيجبرونهم على اتباع مباديهم وتعلم لغتهم فيذهب الاسلام من الارض . فافهموا اذاً ما تكون النتيجة اذا لم ينهض كل واحد لنصرة الاسلام ويجاهد ضد هؤلاء المعطلين فانتبهوا اذاً الى الشراك التي نصبت لكم . والاسد لا يكترث بالثعالب كثر عددها او قل الخ »

منشور آخر لاهل مصر

فلما فهم بونابرت فحوى هذا الفرمان اجتهد ان يغرس في اذهان المشائخ انها فتنة قد سعى بها اعداء الدولة والدين وما زال حتى استكتبهم منشوراً امضوه وفرقوه في البلاد وهذا نصه بالحرف الواحد :

« نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونبرا الى الله من الساعين في الارض بالفساد . نعرّف اهل مصر قاطبةً انه حصل بعض الخلل في مدينة المحروسة من طرف الجعيدية واشرار الناس فحركوا الشرور بين الرعية وعسكر الفرنساويين بعد ان كانوا اصحاباً واحباباً وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهب بعض البيوت ولكن بلطف الله سكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند امير الجيوش بونابرته وارتفعت هذه البلية لانه رجل كامل العقل ذو رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة الى الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر احرقت جميع المدينة ونهبت جميع الاموال وقتلت كامل اهل مصر فعليكم ان لا تثيروا الفتن ولا تطيعوا المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الاشرار ولا تكونوا مع الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يفتكرون بالعواقب لكي تحفظوا اوطانكم وتطمئنوا على عيالكم واديانكم فان الله سبحانه وتعالى يوتي ملكه من يشاء ويحكم من يريد . ونخبركم ان كل من تسببوا في اثارة هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم واراح الله منهم البلاد والعباد ونصيحتنا لكم ان لا تلقوا بايديكم الى

النهلكة واشتغلو باسباب معايشكم وامور دينكم وادفعوا الخراج الذي عليكم والدين النصيحة والسلام » وهذا المنشور ممضى من علماء مصر كافة طبعوه بالمطبعة التي اتت بها الحملة كما تقدم

نصيحة العلماء

ثم شاع بين الاهالي امر الفرمان الذي ورد من جلالة السلطان فاضطربوا فاصدر المشائخ والعلماء منشوراً يبرئون به الفرنساويين مما جاء بحقهم في ذلك الفرمان ونصه حرفياً :

« نصيحة من علماء الاسلام بمصر . نخبركم يا اهل المدائن والامصار من المؤمنين ويا سكان الارياف من العربان والفلاحين ان ابراهيم بك ومراد بك وبقية دولة المماليك ارسلوا عدة من المكاتبات والمخاطبات الى سائر الاقاليم المصرية لاجل تحريك الفتنة بين المخلوقات وادعوا انها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان . وسبب ذلك انه حصل لهم الغم الشديد والكرب الزائد واغتاظوا غيظاً شديداً من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وان يتركوا عيالهم واوطانهم فارادوا ان يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساويين لاجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية . ولو كانوا في هذه الاوراق صادقين بانها من حضرة سلطان السلاطين لارسلها جهاراً مع اغوات معينين . ونخبركم ان الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائماً يحبون المسلمين وملتهم ويبغضون المشركين وطبيعتهم وهم اصحاب لمولانا السلطان قائمون بنصرته واصدقاء ملازمون له لمودته وعشرته ومعونته يحبون من والاه ويبغضون من عاداه . وذلك بين الفرنساويين والمسكو غاية العداوة الشديدة ومن اجل هذا يعاونون حضرة السلطان على اخذ بلاد الموسكو ان شاء الله ولا يبقون منهم بقية . فننصحكم يا اهالي الاقاليم المصرية ان لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العسكر الفرنساوي بشيء من انواع الاذية فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية . ولا تسمعوا كلام المفسدين ولا تطيعوا امر المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون والا فتصبحون على ما فعلتم نادمين وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا في اوطانكم سالمين وعلى عيالكم واموالكم آمنين مطمئنين لان حضرة صاري عسكر الكبير امير الجيوش بونابرته اتفق معنا على انه لا ينازع احداً

في دين الاسلام ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على اخذ الخراج ويزيل ما احدثته الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم بابراهيم ومراد وارجعوا الى مولاكم مالك الممالك وخالق العباد . فقد قال نبيه ورسوله الاكرم الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها بين الامم عليه افضل الصلاة والسلام ختام »

ولصقوا نسخاً من هذين المنشورين في اسواق القاهرة وفرقوا منها في سائر بلاد القطر

اصلاحات الفرنساويين بمصر

واقام بونابرت على القاهرة الجنرال استنك عوضاً من دبوي الذي تقدم انه قتل ثم عمد الى مداخل القطر المصري الاسكندرية ورشيد ودمياط فحصنها تحصيناً منيعاً وجعل في القاهرة وضواحيها استحكامات تمنع ثورة الاهالي مرة اخرى . وانشأ في القاهرة مطاحن هواء ومطاحن ماء لاجل طحن الحنطة واقام في الروضة مستشفى (اسبيتالية) يسع خمسمائة مريض

واقام مطاحن ومستشفيات ايضاً في الاسكندرية ورشيد ودمياط وانشىء في القاهرة اذ ذاك مدرسة لتعليم اولاد الفرنساويين المولودين في مصر وجريدتان فرنساويتان الواحدة تدعى « دكاد اجبسيان » والاخرى « كوريه ديجيبت » ومرسح للتشخيص ومعامل للاقفال والاساحة والنجارة . ومعامل للمدافع وتوابعها وآلات الهندسة والورق والاقمشة وسائر احتياجات البلاد . واستحدث فيها ايضاً اماكن للهو وحدائق للنزهة وانشأ مجمعاً علمياً مصرياً (انستيتي ديجيبت) وبالنتيجة ان الجيش الفرنساوي لم يكن ينقصه من داعيات الراحة الا البريد

وكان بونابرت لا يغفل عن شيء يرى فيه راحة جيشه ورفاهية البلاد . فسكنت الاحوال مدة شهرين تمكن الفرنساويون في اثنائها من اجراء بعض الاصلاح في المدينة فردموا ما جاور بركة الازبكية والاماكن المجاورة لمسكن بونابرت فجعلوها رحبة واسعة . وجددوا قنطرة المغربي وبنوا جسراً ممتداً من الازبكية الى بولاق حيث ينقسم الى فرعين يسير احدهما الى طريق ابي العلاء والآخر الى جهة النباتة وضفة النيل وجعلوا بجانبي ذلك الجسر خندقين وغرسوا على جانبيه اشجاراً وسيبانا واحدثوا طريقاً آخر بين باب الحديد وباب العدوي عند المكان المعروف بالشيخ شعيب ومهوا جسراً آخر من هناك الى خارج الحسينية وازالوا ما يتخلل ذلك من

الابنية وهدموا الابنية التي بين باب الحديد والرحبة التي بظاهر جامع المقس ومهدوا الارض بينهما . فعلوا ذلك كله ولم يسخروا احداً بل كانوا يدفعون الاجور فوق الاستحقاق . وجعلوا جامع الظاهر خارج الحسينية على طريق العباسية قلعة ومنارته برجاً فصار يعرف بقلعة الظاهر

ش ٤٥ : جرجس الجوهري احد رؤساء القبط وكتابهم في زمن الفرنساوية (١)

وبنوا اماكن للارصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير في حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ورمموا ما فيه من بيوت الامراء واستخدموها لتلك الغاية وجعلوا بيت حسن كاشف جركس في تلك الخطة مكتبة للمطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم في اوقات معينة من النهار واذا دخلها احد الوطنيين رحبوا به وانا اراد التفرج اطلعوه على ما اراد او المطالعة سلموه ما اراد من الكتب ولا سيما التي تدهش البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة وفي جملتها رسم للنبي ورسوم اخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم من الايمة والاماكن المهمة . وكان في مكتبتهم هذه كتب كثيرة

(١) نقلت هذه الصورة بالاوتوغراف عن رسم له بباريس لكنها أخذت من موقف منحرف فظهرت كما ترى

عربية . وافردوا للاشتغال بكل علم داراً ولا سيما الكيميا فانهم خصصوا معملاً كبيراً للتقطير والتصعيد واستحضار الخلاصات وسائر الاعمال العقارية وكانوا يجرون امام الاهالي بعض التجارب الكيماوية التي تدهش غير العارفين بنواميس الكيمياء وقد ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي بعض تلك التجارب واظهر دهشته منها . وافردوا ايضاً اماكن للتجارة والصناعة وطواحين هوائية واستخدموا العربات . وقرروا اطلاق مدفع كل يوم عند الزوال

منشور بونابرت عن تجديد الديوان

وفي ١٦ رجب سنة ١٢١٣ هـ (٢٥ دسمبر (ك ا) سنة ١٧٩٨ م) امر بونابرت بترتيب الديوان على نظام جديد كما تقدم في الكلام عن هذا الديوان عند انشائه وكتب بذلك منشوراً ارسله الى الاعيان والصق منه نسخاً في الاسواق ونصه :

« من بونابرته اميرالجيوش الفرنساوية خطاباً الى جميع اهل مصر الخاص والعام. نعلمكم ان بعض الناس الضالي العقول الخالين من المعرفة وادراك العواقب اوقعوا الفتنة سابقاً بين اهل مصر فاهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة والباري سبحانه وتعالى امرني بالشفقة والرحمة للعباد فامتثلت امره وصرت رحيماً بكم شفوقاً عليكم . ولكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ولاجل ذلك ابطلت الديوان الذى كنت رتبته لنظام البلد واصلاح احوالكم من مدة شهرين والآن توجه خاطرنا الى ترتيب الديوان كما كان لان حسن احوالكم ومعاملتكم في المدة المذكورة انسيانا ذنوب الاشرار واهل الفتنة التي وقعت سابقا

« فيا ايها العلماء والاشراف اعلموا امتكم ومعاشر رعيتكم بان الذي يعاديني ويخاصمني انما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره فلا يجد مخلصاً ولا ملجأ ينجيه مني في هذا العالم ولا ينجو من يد الله لمعارضته مقاديره سبحانه وتعالى . والعاقل يعرف ان ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ومن يشك في ذلك فهو احمق واعمى البصيرة . واعلموا ايضاً امتكم ان الله قدر في الازل هلاك اعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدي . وقدّر في الازل ان اجيء من ارض المغرب الى ارض مصر لاهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الامر الذي امرت به . ولا يشك العاقل ان هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه . واعلموا ايضاً امتكم ان القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل وآشار في آيات اخرى الى امور اخرى تقع في المستقبل وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يختلف . واذا تقرر هذا وثبتت هذه

مقالات في آذانكم فلترجع امتكم جميعاً الى صفاء النية واخلاص الطوية فان منهم من يتبع من اعني واظهار عداوتي خوفاً من سلاحي وشدة سطوتي . ولم يعلم ان الله مطلع على السرائر يعلم خاينة الاعين وما تخفي الصدور والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لاحكام الله ومنافقاً وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب . واعلموا ايضاً اني قادر على اظهار ما في نفس كل منكم لانني اعرف احوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد نظري اليه وان كنت لا اتكلم ولا انطق بالذي عنده ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم عياناً ويتضح ان ما فعلته وحكمت به هو حكم الهي لا يرد . وان اجتهاد الانسان بغاية جهده لا يمنعه من قضاء الله الذي قدره واجراه على يدي فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام »

ترعة السويس

وفي ذلك اليوم (١٦ رجب) برح بونابرت القاهرة في سرب من رجال معيته وبعض المهندسين قاصداً برزخ السويس لاستطلاع آثار الترعة التي حفرت قديماً بين البحر المتوسط والنيل فوصل السويس في ١٨ منه وفي ٢١ منه قطع البحر الاحمر الى آبار موسى فجعل يتأمل ويتذكر ما قيل عنها من المعجزات . وفي ذلك اليوم عاد بمن معه قاصداً السويس خوضاً في البحر مثل ما فعل موسى فاخطأوا الطريق حتى كادت المياه تغمر خيولهم وبعد المشقة وصلوا السويس في اوائل الليل وفي الصباح التالي اتم بونابرت استكشافه وبرح السويس قاصداً القاهرة فمر ببلبيس فاستولى عليها وسار منها حتى اتى القاهرة في ٢٥ منه (في ٣ يناير سنة ١٧٩٩)

وفي يوم وصوله لاقاه الجنرال كلابر قادماً من الاسكندرية ومعه كتب وجرائد واردة من فرنسا وغيرها تنبيء بتغير الباب العالي على الجمهورية الفرنساوية لافتتاحها مصر واستقلالها باحكامها . فاندع بونابرت يطالع كتبه وجرائده ولنلتفت الى الجنرال ديزه وحملته الى الصعيد بعد واقعة امبابه

حملة ديزه في الصعيد

لما عدّى الجيش الفرنساوي البر الشرقي ودخل القاهرة بعد واقعة امبابه عزم بونابرت الى الجنرال ديزه ان يسير جنوباً لتعقب المماليك واخضاع الصعيد . فسار في ١٢ محرم سنة ١٢١٣ هـ حتى أتى بني سويف فلاقاه مراد بك برجاله وطال الحرب بينهما وكثر الاخذ والرد وانتهت الوقائع بتقهقر المماليك وامعانهم في داخلية الصعيد

وفي ١٣ جمادى الاخرى برح الجنرال ديزه بني سويف فاتى المنيا في ١٨ منه وتربص هناك ينتظر الدوارع القادمة على النيل لنجدته فتأخر وصولها بسبب الريح المعاكسة لسيرها . ثم سار من المنيا وما زال يتعقب مراد بك واتباعه حتى اتى اصوان في البر الغربي فعسكر هناك . وكان كلما مر بأثر من الآثار المصرية القديمة حفر عليه اسمه واسماء المدن التي افتتحها . وقد شاهدنا مثل هذه الكتابة على جانبي باب من ابواب هيكل الكرنك بجوار الاقصر

واستطلع ديزه اخبار العدو في اصوان فعلم انه معسكر فوق الشلال الاول بمسافة قصيرة فاحتل جزيرة فيلوي وحصن اصوان لدفع المماليك اذا قدموا اليها لانه لم ير فائدة من تتبعهم الى ما وراء ذلك وقد حفر على صخر فوق الشلال جميع فتوحه على مثل ما تقدم . وهناك آخر ما وصله الفرنساويون في حملة بونابرت . ولم يكد يتم ديزه تحصين اصوان حتى سمع باحتلال الفي بك جهات طيبة فعاد اليه وحاربه وهزمه . فاذعنت الصعيد وهدأت احوالها

حملة بونابرت على سوريا

اما بونابرت فانه علم من مطالعة تلك الجرائد ومن قرائن اخرى ان الدولة العلية تسعى في استرجاع مصر من الفرنساويين وقد بعثت بمنشورات رسمية الى سائر بلادها طعناً بالجمهورية الفرنساوية وامرت احمد باشا الجزار والي عكا ان يبعث جيشاً لاحتلال العريش ففعل . فبعث اليه بونابرت ان يخلي تلك المدينة لانها من حدود مصر فلم يطعه فامر باعداد حملة يسير بها ليس للمدافعة عن مصر فقط بل لافتتاح سوريا ايضاً . فاعدّ حملة من اثني عشر الفاً بينها الف ومائتان من الطبجية وسار قاصداً سوريا بعد ان عهد بقيادة القاهرة الى الجنرال دوغا وبقيادة الصعيد الى الجنرال ديزه وقيادة الاسكندرية الى الجنرال مرمرون وامر بتحصين دمياط . وجعل في تلك الحملة بعض مشائخ القاهرة ليستعين بنفوذهم الديني . وفي ٢١ شعبان اصدر منشوراً مطبوعاً فرقه في الناس وهاك نصه بالحرف الواحد :

« الحمد لله وحده . هذا خطاب الى جميع اهل مصر من خاص وعام من محفل الديوان الخصوصي من عقلاء الانام وعلماء الاسلام والوجاقات والتجار الفخام

« نعلمكم معاشر اهل مصر ان حضرة صاري عسكر الكبير بونابرته امير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكامل عن كل الناس والرعية بسبب ما حصل من ارادل

الناس اهل البلد والجعيدية من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية وعفا عفواً شاملاً واعاد الديوان الخصوصي في بيت قائد آغا بالازبكية ورتبه مع اربعة عشر شخصاً اصحاب معرفة واتقان انتخبوا بالقرعة من ٦٠ رجلاً حصل انتخابهم بموجب فرمان وذلك لاجل قضاء مصالح الرعايا وحصول الراحة لاهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على اكمل نظام واحكام . كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ومزيد حبه لمصر وشفقته على سكانها من صغير القوم حتى كبيرهم . ورتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لاجل خلاص المظلوم من الظالم وقد اقتص من عسكره الذين اساؤا بمنزل الشيخ محمد الجوهري وقتل منهم اثنين في قره ميدان وانزل طائفة منهم عن مقامهم العالي الى ادنى مقام لان الخيانة ليست من عادة الفرنساويين خصوصاً مع النساء الارامل فان ذلك قبيح عندهم لا يفعله الا كل خسيس . وقبض بالقلعة على رجل نصراني مكاس لانه بلغه انه زاد المظالم في الجمرك بمصر القديمة على الناس . ففعل ذلك بحسن تدبيره بتبع غيره من المظالم ومراده رفع الظلم عن كامل الخلق ودائماً يفكر في فتح الخليج الموصل من بحر النيل الى بحر السويس لتخف اجرة الحمل من مصر الى قطر الحجاز وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطرق وتكثر عليهم اسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق . فاشتغلوا في امر دينكم واسباب دنياكم واتركوا الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم وعليكم بالرضى بقضاء الله وحسن الاستقامة لاجل خلاصكم من اسباب العطب والوقوع في الندامة رزقنا الله واياكم التوفيق والتسليم . ومن كان له حاجة فليأت الديوان بقلب سليم الا من كان له دعوى شرعية فليتوجه الى قاضي العسكر المتولي بمصر المحمية بخط السكرية والسلام على افضل الرسل الى الدوام »

فتح العريش وغزة

وفي ٢٥ شعبان (اول فبراير (شباط) سنة ١٨٩٩ م) سار الجنرال كلابر والجنرال رينر في مقدمة الحملة نحو العريش وفي ٥ رمضان او ١٠ فبراير (شباط) سافر بونابرت بمن بقي منها . وكان على العريش قاسم بك من قبل الجزار وقد عسكر خارج المدينة . ففي صباح ٨ منه كانت مقدمة الفرنساويين على مقربة من معسكر قاسم وفي المساء هاجموه بغتة فقتلوه وشتتوا جيشه واستولوا على الذخائر والمهمات وساروا نحو المدينة . اما بونابرت فوصل الصالحية في ٧ منه وفي ١١ منه وصل المسعودية فطلعت ريح شديدة نسفت عليه وعلى رجاله الرمال احمالا وكانت المياه قليلة فعطشت

العساكر عطشاً عظيماً فعسكر هناك وبعث الخبراء يستطلعون خطوات كلابر وجهة مسيره فعادوا واخبروه فنهض وما زال حتى اتى العريش في ١٢ رمضان فراى كلابر قد حاصرها وامتنع عليه فتحها لقلة الطبجية ونفاد المؤن . فلما وصل بونابرت ارسل الى حامية العريش كتاباً يطلب اليهم التسليم ويهددهم فسلموا بعد بضعة ايام فدخل الفرنساويون العريش وامنوا اهلها على حياتهم وقبضوا على خمسة كشاف كانوا هناك من قبل المماليك وارسلوهم الى القاهرة تحت الحجز ثم جعلوا في العريش حامية وساروا الى غزة فاستولوا عليها بغير قتال وجعلوا فيها حامية وديوانا وطنياً لتنظيم الاحوال

فتح يافا وقتل حاميتها

وفي ٢٣ رمضان سنة ١٢١٣ هـ (٢٨ فبراير (شباط) سنة ١٧٩٩ م) ساروا الى يافا فلما وصلوها امر بونابرت الجنرال كلابر ان يتقدم في فرقته الى عكا ففعل . وكانت حامية يافا اخلاطاً من الاتراك والمغاربة والارناوط والاكراد فلم ير بونابرت محاصرتها فامر بالهجوم عليها في ٢٧ منه ٤ مارس (اذار) فهجم الفرنساويون عليها وما زالوا حتى خرقوا الاسوار ودخلوها ففرت الحامية فتتبعوها وقد تحصنت في بعض الخانات الكبيرة فالحوا عليها فقال الارناوط ومنهم تتألف معظم الحامية « نحن نسلم لكم انفسنا اذا أمنتمونا على حياتنا » وكان على قيادة الهاجمين من الفرنساويين احد اركان حرب بونابرت فوعدهم بالامان فسلموا فقادهم موثقين وعددهم نحو اربعة الاف حتى اتى بهم المعسكر الفرنساوي فلما رآهم بونابرت قال للقادم اليه « ما هذه الجماهير » قال « هي حامية هذه المدينة قد سلمت وجئنا بها اليك » قال « ماذا تريدون ان افعل بهذا العدد اعندكم زاد يكفيهم او مراكب تنقلهم الى مصر او فرنسا واذا ارسلناهم في البر فمن يتولى خفارتهم ؟ » فاجابه قائلاً « اننا قد قبلنا تسليمهم حجباً للدماء » فقال بونابرت « نعم يجب ان تفعلوا ذلك ولكن مع الاطفال والنساء والشيوخ وليس مع مثل هذا القدر من الرجال الاشداء المجندين » ثم امرهم بالجلوس مكتوفي الايدي امام المعسكر . وفي اليوم التالي فرقوا فيهم شيئاً من البقسماط الجاف والماء

ثم عقد بونابرت مجلساً في خيمته للمفاوضة في ماذا يجب ان يفعل بهؤلاء الاسرى وبعد الاجتماع عدة جلسات لم يقروا على شيء فانزعج بونابرت لكثرة التردد في الامر وبعد التفكير والتأمل راى انه لا يستطيع استبقاءهم معه لعدم وجود ما يكفيهم من الزاد ولا ارسالهم الى مصر لعدم استغنائه عن رجال يسيرون لخفارتهم ولا اطلاق سبيلهم لئلا يرتدوا عليه فاقر على اعدامهم . وفي ٤ شوال (١٠ مارس (اذار) سنة

٩٩) بعد الظهيرة قادوهم موثقين الى صحراء رملية خارج يافا ثم جعلوهم فرقاً ساقوا كلاً منها الى ناحية وقتلوا الجميع بالرصاص قتلاً ما انزل الله به من سلطان . فلما بلغت هذه الفعلة مسامع الجزار ورجاله في عكا اصروا على الدفاع الى آخر نسمة من حياتهم كلا يصيبهم اذا سلموا ما اصاب اولئك

منشور بونابرت بفتح يافا

ولما استلم بونابرت يافا امر بترميم حصونها وبعث الى الاسكندرية يأمر العمارة الباقية هناك ان توافيه الى يافا . ثم فشا الطاعون في يافا وضواحيها لفساد الهواء من الجثث التي ملات تلك الجهات . وكتب بونابرت الى جند بيت المقدس يطلب اليهم التسليم فاجابوا انهم تابعون لولاية عكا وحالما تسلم عكا يسلمون . ثم كتب الى القاهرة منشوراً باستيلائه على يافا وكان قد ارسل مثل هذا المنشور عند ما استولى على العريش وغزة ولنذكر هنا منشوره من يافا فقط على سبيل النموذج وفيه تفصيل ما تقدم عن فتح يافا وهاك نصه بالحرف الواحد :

« بسم الله الرحمن الرحيم سبحان مالك الملك يفعل في ملكه ما يريد . هذه صورة ما ملك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساويين لبندر يافا من الاقطار الشامية . نعرف اهل مصر واقالیمها ان العساكر الفرنساوية انتقلوا من غزة ثالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة في ٢٥ منه في امن واطمئنان وشاهدوا عسكر احمد باشا الجزار هاربين بسرعة قائلين الفرار الفرار ووجدوا في الرملة ومدينة اللد مقداراً كبيراً من مخازن البقسماط والشعير ووجدوا ايضاً ١٥٠٠ قربة مجهزة جهزها الجزار ليسير بها الى اقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومراده التوجه اليها مع العربان الاشرار من رفح الجبل ولكن تقادير الله تفسد المكر والحيل . وما كان قصده سوى سفك الدماء مثل عادته في اهل الشام وناهيكم ما هو مشهور عنه من التجبر والظلم والجور فانه اراحة المماليك الظلمة المصريين وفاته ان الامر لله وكل شيء بقضائه وتدبيره

« وفي السادس والعشرين حلت طلائع الفرنساويين ببندر يافا من الاراضي الشامية واحاطوا بها وحاصروها من الجهة الشرقية والغربية وارساوا الى حاكمها وكيل الجزار ان يسلمهم القلعة قبل ان يحل بهم وبعسكرهم الدمار لكنه لخشونة عقله وفساد رايه وسوء تدبيره لم يرد . وفي ذلك اليوم اي ٢٦ من شهر رمضان تكامل عسكر الفرنساوي على محاصرة يافا وانقسم ثلاث فرق توجهت فرقة منهن على طريق عكا على مسافة اربع ساعات من يافا وفي ٢٧ امر حضرة صاري عسكر الكبير بحفر

خنادق حول السور لعمل متاريس متينة واستحكامات حصينة اذ عرف ان سور يافا ملآن بالمدافع الكثيرة مشحون بعساكر الجزار الوفيرة

« وفي ٢٩ ناهز حفر الخنادق النهاية وصار على مسافة ١٥٠ خطوة في السور فامر صاري عسكر ان تنصب المدافع على المتاريس وان توضع اهوان القنابر باحكام وامر بنصب مدافع اخرى بجانب البحر لمنع الصلة بين عسكر البر والمراكب التي اعدها عسكر الجزار في المينا للهرب والفرار . ولما راى عسكر الجزار المحاصرون في القلعة ان عديد الفرنساويين قليل غرهم الطمع فخرجوا اليهم من القلعة مسرعين ظناً منهم انهم يغلبون على الفرنساويين فهجم عليهم الفرنسيس وقتلوا منهم كثيرين واجبروهم على الدخول الى القلعة ثانية

« وفي يوم الخميس غاية شهر رمضان اشفق حضرة صاري عسكر وخاف على اهل يافا اذا دخلت عساكره بالقهر والقوة فارسل اليهم مع رسول خطاباً هذا مضمونه : « لا اله الا الله وحده ولا شريك له . باسم الله الرحمن الرحيم . من حضره صاري عسكر برتيه كتخدا العسكر الفرنساوي الى حضرة حاكم يافا . نخبركم ان حضرة صاري عسكر الكبير بونابرته امرنا ان نعرفكم في هذا الكتاب ان سبب مجيئه الى هذا الطرف هو اخراج عسكر الجزار فقط من هذا البلد لانه تعدى بارسال عسكره الى العريش ومرابطته فيها والحال انها اقليم مصر التي انعم الله بها علينا فلا تجوز له الاقامة بالعريش لانها ليست من ارضه فقد تعدى على ملك غيره . ونعرفكم يا اهل يافا اننا حصرنا بندركم من جميع اطرافه وجهاته وضيقنا عليه بآلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقنابر وفي برهة ساعتين يخرب سوركم وتبطل آلات حربكم . ونخبركم ان حضرة صاري عسكر لمزيد رحمته وحنوه خاف عليكم من سطوة عساكره المحاربين فانهم اذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر اهلكوكم جميعاً ولذلك امرنا ان نرسل اليكم هذا الخطاب تأميناً لاهل البلد ولاسيما الضعفاء والفقراء والغرباء وان نؤخر ضرب المدافع واطلاق القنابر ساعة واحدة واني لكم لمن الناصحين وهذا آخر خطاب بيننا » . فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة المحمدية والقوانين الحربية . فتميز صاري عسكر من الغيظ وهاج واشتد غضبه وامر باطلاق المدافع والقنابر . ولم يمض الا اليسير حتى خرست مدافع يافا وانقلب عسكر الجزار في وبال وخسران وعند الظهر انخرق سور يافا وارتج له القوم ونقب من الجهة التي ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله ولا مدافع . وفي الحال امر حضرة صاري عسكر بالهجوم وفي اقل من ساعة ملكت

العساكر الفرنساوية جميع البندر والابراج ودار السيف في المحاربين وحمي الوطيس وكثر القتل

« وفي يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة صاري عسكر الكبير ورق قلبه لا سيما على من كان في يافا من اهل مصر فاعطاهم الامان وامرهم بالعود الى الاوطان . وكذلك امر اهل دمشق وحلب بالرجوع الى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمته ومزيد رافته . وقتل في هذه الوقعة اكثر من ٤٠٠٠ من عسكر الجزار بالسيف . واما الفرنساويون فلم يقتل منهم الا القليل وسبب ذلك ان سلوكهم الى القلعة كان في طريقة امينة خافية عن العيون واخذوا زخائر كثيرة واموالاً غزيرة واستولوا على المراكب التي في المينا ووجدوا في القلعة نيفاً وثمانين مدفعاً وقد فات الجزار وعساكره ان آلات الحرب لا تدفع مقادير الله . فاستقيموا عباده وارضوا بقضاء الله ولا تعترضوا على احكام الله وعليكم بتقوى الله واعلموا ان الملك لله يؤتيه من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله »

حصار عكا

ثم سار بونابرت برجاله قاصداً عكا تاركا في يافا حامية كافية فقابله في الطريق بعض العصاة من المماليك فحصلت بينهما مناوشات شفت عن فرار المماليك فواصل السير حتى اتى سفح الكرمل واذا بعكا قد تحصنت تحصناً منيعاً بهمة واليها احمد باشا الجزار وهو الرجل الوحيد الذي كان يعتمد عليه الباب العالي في حماية سوريا

ش ٤٦ : مدينة عكا

فعبروا النهر وعسكروا في البر الآخر . وفي ٢ شوال صعد بونابرت الى راية وجعل يتأمل حصون عكا بالنظارة المكبرة ثم امر ان يسير بعض العساكر الى المدينة وكانت في مياهها عمارة انكليزية بقيادة السير سدني سميث قد زادت الجزار تمسكاً بالدفاع . ففي اليوم التالي استطلعوا الحصون واستكشفوا قوات العدو . وفي ٤ شوال او ٢٠ مارس (اذار) بداوا بالمحاربة وكانت الدوارع الانكليزية تساعد الجزار من البحر وقد اظهر هذا الرجل بسالة عظيمة لكنه اضطر اخيراً الى استنجاد قوات صيدا ودمشق وحلب

اما بونابرت فابقى الحصار على عكا وحول شكيمة فتوحاته نحو جهات اخرى من سوريا فارسل فرقاً استولت على صفد وصور وطبريا واماكن اخرى واتوا منها بمؤن كثيرة . وبعد يسير وصلت الدوارع الفرنساوية من الاسكندرية ومعها المدافع والمؤن . وفي ٤ ذي القعدة سنة ١٢١٣ هـ (٩ افريل (نيسان) سنة ١٧٩٩ م) قتل الجنرال كافارلي

وفي ٥ ذي الحجة ٩ مايو (ايار) وهو اليوم الخمسون لحصار عكا اقرّ بونابرت على الهجوم النهائي فهجموا عليها هجمة اليأس بقلوب لا تهاب الموت ولم تكن عكا لتقف في طريقهم لولا العمارة الانكليزية وهي التي اخرت الفتح بدفاعها عنها بالبر والبحر ثم جاءتهم نجدة من الاستانة تحت قيادة حسن بك فازداد المدافعون قوة ومضى ذلك اليوم ولم ينل الفرنساويون شيئاً . وفي اليوم التالي هجموا هجمة اخرى لم ينالوا منها الا التقهقر لانهم لاقوا مقاومة عنيفة قتل فيها الجنرال بون فيئس بونابرت لحبوط مساعيه وفشل حملته السورية على انه كان يتعزى بما سبق استيلاؤه عليه من المدن والقرى السورية الا ان تلك الاماكن حالما سمعت بما الم بجيشه من الفشل انحازت الى الباب العالي هرباً من العقاب . وزد على ذلك ان السير سدني سميث كتب منشورات وزعها على المشائخ والامراء في لبنان يدعوهم الى الاتحاد مع الباب العالي وارسل الى سراة المسيحيين ايضاً صورة منشور بونابرت الذي يقول فيه انه هدّ اركان الديانة المسيحية فامتنع اللبنانيون عن توريد الخمر والبارود للفرنساويون فاصبح بونابرت في حالة اليأس الشديد لا يدري ماذا يصنع وقد خابت آماله . فكتب الى ديوان مصر انه قد هدم اسوار عكا واخرب بيوتها بالقنابل وجرح واليها الجزار وانه سيبرحها بعد ثلاثة ايام عائداً الى مصر ومتى جاءها يقتص من الباغين . ثم استقدم حاميات صفد وطبرية وغيرها

رجوع حملة بونابرت الى مصر

وفي ٢١ ذي الحجة أو ٢٣ مايو (أيار) امر بونابرت بالمسير الى مصر بكل رجاله وفيهم الجرحى فقاسوا عذاباً مرًّا من العطش وفشا فيهم الوباء فزادهم عناء فامر بونابرت ان يسير الرجال الاصحاء على اقدامهم وان تعطى الخيول والجمال للمرضى والجرحى. وزادهم شقاء ان العمارة الانكليزية كانت تتعقبهم في البحر والعربان يتعرضون لهم في البر والجنود العثمانية تسوقهم من وراءهم. اما هم فكانوا يخربون كل ما يمرون به من المدن والقرى. وفي ٦ ذي الحجة أو ٢ يونيو (حزيران) وصلوا العريش فامر بونابرت بتحصينها تحصيناً منيعاً واشتد عليهم القيظ وكان في الماء الذي يشربونه علق يمتص الدم فكان يعلق بحلقهم عند الشرب فيعذبهم عذاباً اليماً

ثم واصلوا المسير الى القاهرة رغم الحر والوباء حتى وصلوها فخرج المشائخ والاعيان الى خارج المدينة لاستقبالهم فدخلوها ولم يصدقوا انهم تخلصوا من حملة سوريا ومما مروا به من الصحاري الحارة. فاخذ بونابرت في تنظيم العساكر وتطبيب الجرحى واعادة النظام واكتساب ثقة الاهلين ولم يكد يفعل حتى بلغه تقدم المماليك من جهة الصعيد. وسبب ذلك ان مراد بك كان في اعلى الصعيد فبلغه قدوم حملة عثمانية لاخراج الفرنساويين من مصر فجمع اليه رجاله وسار ببعضهم على الضفة الغربية للنيل وارسل البعض الآخر على الضفة الشرقية للاتحاد مع ابرهيم بك القادم من جهة سوريا فعلم بونابرت بذلك فانفذ جنداً على كل من الضفتين لمحاربة الفرقتين فالتقى جند الضفة الشرقية بفرقة ابراهيم بك وراء المقطم فشتتها واخذ امتعتها والتقى جند الضفة الغربية وفيه بونابرت بمراد بك في الجيزة فانتشبت الحرب فانكسر المماليك وتشتت شملهم فعادت الجنود الفرنساوية ظافرة

حملة عثمانية لاخراج الفرنساويين من مصر

وفي ٦ محرم سنة ١٢١٤ هـ أو ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٩ م وردت لبونابرت رسالة من الجنرال مرمون في الاسكندرية تنبئه بمجيء الحملة العثمانية ونزولها ابي قير في ١١ الجاري فانزعج بونابرت من هذا الخبر فامر باعداد حملة تسير الى الاسكندرية وبعث الى الحصون في رشيد ودمياط ان تكون على يقظة واستعداد

وسبب قدوم الحملة العثمانية ان الباب العالي بعث الى الفرنساويين مراراً يقيم الحجة على استقلالهم باحكام مصر ويطلب اليهم الانسحاب منها ولم يكن الجواب الا المماطلة وكانت انكلترا في الوقت عينه تستحث الباب العالي على هذه المطالب واخيراً اتفقت معه ان يرسل كل منهما عمارة الى ابي قير حيث تتحد العمارتان وتخرجان

الفرنساويين من مصر بالقوة . فسارت العمارة العثمانية تحت اميرالية باترونا بك وعليها ثمانية آلاف من الجنود البرية بقيادة مصطفى باشا سر عسكر ومعهم حسن بك ورجاله وسارت العمارة الانكليزية باميرالية السير سدني سميث المتقدم ذكره والتقت العمارتان في ابي قير واتحدتا فاسرع الجنرال مرمون الى اعلام بونابرت

فبرح بونابرت القاهرة برًّا ثاني يوم وصول الرسالة صباحاً فسار من الجيزة الى الرحمانية ومن هناك كتب الى القاهرة كتاباً يضرب به على وتر الدين حيث يقول « ان بين الذين قدموا للمحاربة رجالاً روسيين لا يؤمنون بالله واحد وانما يعبدون آلهة ثلاثة » ثم برح الرحمانية فوصل الاسكندرية في ٢٤ محرم او ٢٣ يوليو (تموز) فلاقاه مرمون فعنفه لغفلته عن حصن ابي قير حتى احتله العثمانيون وفي اليوم التالي استكشف استحكامات العدو ثم سار برجاله نحو ابي قير فاذا بالجنود العثمانية تحت قيادة مصطفى باشا على مسافة ميل ونصف وراء ابي قير ومنهم نحو الف رجل في حصن على رابية من الرمال في اليمين بجوار الشاطىء وجماعة آخرون في اليسار في حصن على رابية اخرى وهاتان الرابيتان بمثابة جناحي الجيش

فهاجم بونابرت اولاً الرابية اليمنى ففرَّ من كان فيها الى قرية وراء قلب الجيش فارسل كوكبة من الفرسان لملاقاة الفارين وفعل مثل ذلك بالرابية اليسرى ثم هجم على قلب الجيش فتقهقرت الجنود العثمانية الى طابية كانوا قد جعلوها وراءهم فتشجع الفرنساويون وتعقبوا الهاربين لكنهم لم يسيروا يسيراً حتى سمعوا دوي المدافع الانكليزية ووزيز قنابلها فارتدوا الى الوراء . فارتد العثمانيون عليهم وتعقبوهم حتى كادوا يظفرون بهم لكنهم شغلوا بتقطيع رؤوس القتلى فاغتنم احد قواد الفرنساويين فرصة تغافلهم وسار في فرقته عن اليسار قاصدًا الطابية الخلفية وسار قائدٌ آخر من اليمين فدخلا الطابية وقطعا على العثمانيين خط الرجوع واسرع احدهما « الجنرال مورات » بنفسه للقبض على مصطفى باشا في خيمته فاطلق عليه الباشا عيارًا ناريًا فلم يعبأ به وهجم عليه بسيفه فقطع اصبعيه وامر اثنين من رجاله فاوثقاه وارسلاه الى معسكر الفرنساويين . واخذت العساكر الفرنساوية بالنهب فلم يغادروا في معسكر العثمانيين شيئاً من المؤن والذخائر وفرَّ من بقي من العثمانيين الى البحر في قوارب ارسلها لهم السير سدني الابعض الحامية في حصن أقاموه هناك فهجم عليه الفرنساويون وبعد دفاع سبعة ايام هدموه واسروا من كان فيه فشاع خبر انتصار الفرنساويين في القطر المصري فعظموا في عيون الاهلين

عود بونابرت الى فرنسا

ثم ورد لبونابرت من فرنسا رسائل منبئة باضطرابهم هناك وبثقل اليد عليهم وفيه الحاح كلي عليه ان يسير حالاً الى فرنسا بعد ان يجعل في مصر حامية منتظمة ولم يكاشف به احداً الا الاميرال غانتوم لانه لم ير بدًّا من مكاشفته لكي يعد له دارعتين تنقلانه ومعيته الى فرنسا . ولكي لا يجعل المصريين شبهة بمقاصده عاد الى القاهرة بما يلزم من احتفال النصر فوصلها في ١٣ صفر فخرج الاعيان لملاقاته بالموسيقى

وبعد قليل نزل الى الاسكندرية مظهراً التجول في الوجه البحري فلما وصل الاسكندرية كتب الى الجنرال كلابر وكان على مديرية الغربية يوليه القيادة العامة على مصر ويبين له وجوب المحافظة على الاحتلال لئلا تأتي دولة اخرى تحتل هذا القطر بعد ان بذلوا فيه ما بذلوه من المال والرجال ووعده بنجدة يبعث بها اليه حال وصوله الى فرنسا واخبره اخيراً عن الداعي الذي حمله على هذه السرعة . وكتب كتاباً آخر الى عساكره يشجعهم على الثبات والصبر وكتاباً الى علماء مصر ومشائخها يطلب اليهم ان يعتبروا الجنرال كلابر مكانه جاعلاً السبب في سفره انه ذاهب لقهر من بغي من اعدائه في اوروبا لانه ان لم يفعل ذلك لا يطمئن باله على مصر ويعدهم انه لا يغيب عنهم اكثر من ثلاثة اشهر وارسل هذه الكتب معاً الى كلابر واوصاه ان يطلع اصحابها عليها في الوقت المناسب

ثم بعث يستقدم الجنرال مينو اليه فجاءه حالاً وهو على اهبة السفر في ٢٥ صفر او ٢٢ اوغسطس (آب) فعهد اليه قيادة الاسكندرية ورشيد والبحيرة وسلمه كتب كلابر واوصاه ان يوصلها اليه حالاً . ثم ركب جواده وسار مساء بمن معه الى جهة ابوقير او العجمي وكان الاميرال غانتوم ودارعتاه بانتظاره هناك وفي الساعة العاشرة من تلك الليلة نزل بمن معه الى البحر . وفي صباح اليوم التالي ودعوا سواحل الدلتا واقلعوا قاصدين فرنسا

اما اهل الاسكندرية ولا سيما الخفر خارج المدينة فانهم شاهدوا في ذلك الصباح غباراً عجاجاً بجهة حصن العجمي فخافوا ان تكون كتيبة من العربان قادمة على المدينة ثم تبين لهم انها خيول مسرجة ولا راكب عليها فسألوا لمن هذه الخيول فقيل لهم انها الخيول التي نقلت بونابرت ومعيته الى البحر وقد سافر الى فرنسا فاندعر

القوم لتلك الاخبار وكادوا لا يصدقونها حتى بلغهم مينو رسمياً ما عهد اليه بونابرت قبل ذهابه

ثم ارسل مينو الاوامر والكتب التي بيده الى كلابر فوصلته وهو في رشيد قادماً لمقابلة بونابرت . فذهب الى القاهرة وبلغ المشائخ والعلماء ما امره به بونابرت وتلا عليهم كتابه اليهم وهؤلاء بلغوا الاهلين وهكذا ذاع خبر بونابرت في سائر القطر . وكان كلابر بالحقيقة اولى من سائر قواد تلك الحملة بذلك المنصب لانه كان افضلهم حزماً وعقلاً وهيبة وانفة وبسالة

ش ٤٧ : الجنرال كلابر

فقد ظهر لك مما تقدم ان الحملة الفرنساوية لم يكن القصد منها غير الاحتلال الدائم - ذلك كان قصد بونابرت اما كلابر فلم يكن ذلك رايه وانما كان ينظر الى مصر نظره الى بلاد لا تصلح لسكنى الفرنساويين لما بينها وبين بلادهم من اختلاف الهواء والعادات والاخلاق فضلاً عن انه لم يكن يرى امكان استمرار الحال على ما تركها بونابرت ولذلك بادر عند استلامه ازمة القيادة الى اطلاع فرنسا على حالة مصر عند خروج بونابرت فكتب اليها يقول :

راي كلابر بمصر

«قد سافر بونابرت الى فرنسا في الفروكتيدور السادس بدون ان يعلن احداً لكنه ارسل الي كتاباً وآخر للصدر الاعظم ارسله الى الاستانة مع علمه انه وصل الى دمشق . اما اعداؤنا الان فليسوا المماليك فقط وانما هم ثلاث دول عظمى : الباب العالي وانكلترا وروسيا . اما جنودنا فقد اصبحوا نصف ما كانوا يوم قدومهم الى مصر بسبعين في انحاء القطر من العريش والاسكندرية الى اصوان . اما معداتهم فغير كافية لهم لان معامل الاسلحة والبارود معطلة . ومثل ذلك الالبسة فقد اصبحت رجالنا لاحتاجهم الى الالبسة معرضين لاوبئة البلاد . وزد على ذلك اننا خسرنا ١٢ مليوناً من الفرنكات بسبب تضمين الضرائب غير الاعتيادية بامر بونابرت . نعم ان المماليك تشتتوا لكنهم لم يبيدوا . هذا مراد بك ما انفك في مصر العليا في كثرة من الرجال يمكنه بهم ان يشغل قسماً من جنودنا لمدة طويلة . وهذا الصدر الاعظم جاء بحملة عثمانية ناهضتنا وقد سار من دمشق الى عكا . اما حصوننا واستحكاماتنا فلا تزيدنا قوة — ان حصن العريش لا يدفع مهاجماً والاسكندرية اشبه بمعسكر محاط بزريبة . فافضل ما يمكنني اجراؤه والحالة هذه مخابرة الباب العالي لعلنا نصل الى وفاق فيه خير لنا . وقد علمت الان ان عمارة عثمانية رست امام دمياط »

حملة اخرى لاخراج الفرنساويين

الا ان كلابر مع ذلك لم يتقاعد عن تنظيم الاحوال واكتساب ثقة الاهلين وجمع الموائد والمكوس لدفع مرتبات الجند على حين انه لم يكن ممن يريدون احتلال مصر واستعمارها بل كان يفضل الانسحاب منها على شروط لا يكون فيها عار على دولته ولكن الاحوال لم تنله ما نواه لان الدولة العلية عادت الى استخراج هذا القطر السعيد من ايدي الفرنساويين بالقوة فارسلت الصدر الاعظم يوسف باشا بنفسه الى دمشق يجند جنداً عظيماً يسير به عن طريق البر الى القاهرة وجنداً اخر يسير بحراً في عمارة السير سدني سميث باتفاق مع انكلترا لمطاولة الفرنساويين من جهة البحر ليسهل على حملة البر المسير في داخلية القطر . . فسار جند البحر الى دمياط ونزل في قلعة قديمة شرقي البوغاز فاخرجتهم منها الجنود الفرنساوية

اما الصدر الاعظم يوسف باشا فقدم يافا بحملته ثم جعل يتخابر مع كلابر في وفاق ينتهون اليه فانتهت المخابرة بمؤتمر عقد في العريش مؤلف من الصدر الاعظم من العثمانيين والجنرال ديزه والمسيو بوسيلك من الفرنساويين اقر على معاهدة صلح

امضيت في ١٢ جمادى الاخرة سنة ١٢١٤ هـ او ٣ دسمبر (ك ١) سنة ١٧٩٩ م

غير ان هذه المعاهدة لم يطل بقاؤها لان العثمانيين خرقوها بمهاجمتهم العريش في ٢ رجب او ٢٣ دسمبر (ك ١) وهي تحت قيادة الكولونيل كازال وكان من البسالة على جانب عظيم فاحب الاهلون التسليم فابى واصرَّ على الدفاع الى اخر نسمة من حياته ولم تكن العريش من المناعة على شيء فدخلها العثمانيون واستولوا عليها فاتصل ذلك بالجنرال كلابر فاغتاظ جدًّا وكتب الى السير سدني يعنفه مع علمه ببراءته

معاهدة الصلح

فعادت المخابرات وعقد مؤتمر ثان في ٤ شعبان سنة ١٢١٤ او ٢٤ يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٠ م في العريش مؤلف من ديزه وبوسيلك من الفرنساويين واثنين من العثمانيين واقروا على معاهدة عرفت بمعاهدة العريش مقتضاها انسحاب الفرنساويين بمؤنهم وذخائرهم عن طريق رشيد والاسكندرية وابي قير الى فرنسا انسحاباً قانونياً بكل ما لديهم

فسر كلابر لتلك المعاهدة لاعتقاده ان انسحابه على هذه الصورة لا يمس شرف دولته . ولما شاع خبر تلك المعاهدة بمصر فرح الاهلون عموماً وكذلك الجنود الفرنساوية لانهم لم يكونوا راضين بالمقام في بلاد تخالف بلادهم اقليماً واخلاقاً ومعيشة فضلاً عما كانوا يقاسونه من عصيان الاهالي وسفك الدماء . فضرب كلابر على البلاد ضريبة غير اعتيادية مقدارها ثلاثة الاف كيس لنفقات الجيش في نقل المهمات وصدرت الاوامر بالتأهب للرحيل . فباع الفرنساويون كل ما يصعب حمله من متاعهم وبعث كلابر الى الجنود المتفرقة في جهات الصعيد بالقدوم الى مصر . واطمأن المماليك الذين كانوا قد فروا من وجه الفرنساويين فعادوا الى القاهرة بنسائهم واولادهم . ثم نهض الصدر الاعظم بجيشه نحو القاهرة حتى اذا اتى بلبيس سار علماء مصر ومشائخها باذن من كلابر لملاقاته وتقديم واجب العبودية لجلالة السلطان فسر الصدر الاعظم بهم وخلع عليهم

نقض المعاهدة

وبينما الحال كذلك ورد للجنرال كلابر كتاب من السير سدني مآله نقض معاهدة العريش وتعريبه ملخصاً :

« سيدي . اعلم حضرتكم اني قد تشرفت باوامر شاهانية تمنع عقد اية معاهدة مع الجيوش الفرنساوية التي هي تحت قيادتكم في مصر وسوريا الا اذا سلموا انفسهم وسلاحهم كما يفعل اسراء الحرب مع التخلي عن كل المراكب والمؤن التي لهم في الاسكندرية »

على ان السير سدني نفسه لم يكن يرى الا البقاء على المعاهدة لكن دولته حملت الباب العالي على اصدار هذه الاوامر . وقد كتب السير سدني الى دولته يظهر رايه ويبين اوجه الخطأ التي اتتها بذلك النقض ولم تحصل نتيجة . اما كلابر فاستشاط غضباً لذلك ولم يكن جوابه الا الحرب فاسرع الى احتلال الطوابي على الروابي خارج القاهرة وتعزيزها بما يلزم من العدة والرجال . وكان يوسف باشا قد اصبح على مقربة من القاهرة ومعه الجيوش العثمانية فكتب الى المشائخ والعلماء يستحثهم على اخراج الفرنساويين من بلادهم

فعقد الجنرال كلابر مؤتمراً حربياً قال فيه « ان الدولة العثمانية قد سهلت انسحابنا فوقف الانكليز في طريقنا فعاينا محاربتهم » ثم بعث الى الصدر الاعظم يعزمه على الحرب وحشد جيشه خارج القاهرة وكانت مقدمة الجنود العثمانية بقيادة ناصيف باشا احد قواد الحملة معسكرة في المطرية النيل الى يمينها والصحراء الى يسارها ووراء ذلك الخانقاه وفيها باقي الجيش بقيادة يوسف باشا وعددهم نحو من اربعين الفاً او يزيد وانضم اليهم الانكشارية والمماليك تحت قيادة ابراهيم بك . فالتقى كلابر بمقدمة العثمانيين فتقهقرت بعد الدفاع الحسن وفر ناصيف باشا وبعض المماليك لجهة القاهرة فتقدم كلابر برجاله فظهر له عن بعد غبار عجاج في سهل بين قريتين وهما سرياقوس الى اليسار والمرج الى اليمين ثم انقشع الغبار عن الجنود العثمانية قادمة من الخانقاه للاقاة الفرنساويين فالتقى الفريقان وانتشبت الحرب فدافعت الجنود العثمانية دفاعاً حسناً معهوداً بالرجال العثمانيين الا انهم اضطروا اخيراً الى التقهقر نحو الخانقاه فتبعهم الفرنساويون فخرجوا منها وما زالوا حتى تجاوزوا الصالحية فوصلها كلابر فرآها خالية فاستولى على ما كان فيها

ثورة اهل القاهرة

اما اهل القاهرة فلما علموا بمسير كلابر الى المطرية ثاروا على من بقي في مصر من الفرنساويين وبعد الظهيرة اتاهم ناصيف باشا ومعه جماعة من المماليك المتقدم ذكرهم وقالوا انهم غلبوا الفرنساويين وجاؤا لاستلام المدينة باسم جلالة السلطان . فأمر ناصيف باشا ان يقتلوا من بقي في مصر من المسيحيين رغم كونهم من رعايا الدولة العلية . اما العساكر الفرنساويون الباقون في القاهرة فكانوا يدافعون بالامر الممكن . وطالت المذبحة في احياء المسيحيين من الاقباط والسوريين والافرنج الى ان جاء عثمان بك احد ضباط العثمانيين الى ناصيف باشا قائلاً « ليس من العدالة ان تهرقوا دماء رعايا الدولة

العلية فان ذلك مخالف للارادة السنية » وبث رجاله في المدينة لايقاف القتل

ثم تمكن الفرنساويون من احتلال القلعة وباقي الطوابي وابثوا ينتظرون مايكون من ناصيف باشا . فهجم عليهم فاطلقوا عليه وعلى رجاله ناراً ارجعتهم الى اماكنهم حتى لم يبق منهم في الازبكية رجل واحد واستمر اطلاق النار على المدينة من القلعة وباقي الطوابي الى منتصف الليل فوقع الرعب في قلوب الاهلين وهم المشايخ بالفرار فامسكتهم الرعية قهراً . وكان في بعض بيوت المدينة مدافع فاخرجها الاهلون ورتبوها على هيئة بطارية احاطوها بطابية وحظروا على الناس الخروج من تلك الطابية ولم يكن عندهم قنابل فاستخدموا عيار الموازين عوضاً عنها . وبعد مضي يومين على تلك الحال انبىء ناصيف باشا بقدوم جند فرنساوي من جهة المطرية لنجدة حامية القاهرة فبعث اليهم سرية من الفرسان فلم ينالوا منهم مأرباً فوصل الفرنساويون منادين بانتصارهم في مواقعهم مع العثمانيين . وكانت المدينة برمتها في يد الوطنيين فعجز الفرنساويون عن الدخول اليها ثم جاءت نجدة اخرى ولم يستطيعوا اخماد الثورة . ثم جاء الجنرال كلابر وقد كانت مؤن جيوشه في القاهرة تنفد وخرج جميع المسيحيين من الاقباط والسوريين فارين من على السور طالبين الالتجاء الى معسكر الفرنساويين ثم تضايق الاهلون لقلة الماء لان الفرنساويين قطعوه عنهم

وفي ٢٧ شوال او ١٤ ابريل (نيسان) طلب كلابر الى سكان بولاق ان يسلموا فأجابوا انهم تابعون للمدينة بما يلحق بها فاطلق عليهم قنابل لاتزال بعض آثارها باقية الى هذه الغاية فسقطت البيوت ودخل الفرنساويون بولاق ولم يبقوا عليها نهباً وقتلاً فلما تأتى ذلك لكلابر عرج نحو المدينة بالمدافع والحراريق وكانت ليلة ليلاء ممطرة اختلطت فيها اصوات المدافع بقصف الرعد وشرارها بلمع البرق وهجمت العساكر على المدينة خائضين في الاوحال يثبون من حائط الى آخر بين البيوت التي هدمتها مدافعهم وفي ايديهم خرق مبتلة بالزيت مشتعلة يرمونها ذات اليمين وذات اليسار لاحراق المدينة فعلا الصياح من النساء والاطفال خوفاً من النيران حتى كانوا يلقون بانفسهم عن الجدران والسطوح تخلصاً من اللهيب

فهم ناصيف باشا بالفرار فتتبعوه فدخل بيتاً لبعض ذويه واختفى . فامر كلابر ان ينادي في الناس « وما النصر الا من عند الله وهو سبحانه وتعالى قد امر الظافرين بالرفق وعليه فان الصاري عسكر يعفو عن اهل القاهرة وسائر البلاد المصرية عموماً ولو اتحدوا مع الاتراك فليرجع كل الى شأنه » فكف الناس عن القتال وهدات الاحوال

بعث كلابر ان تنظف الاسواق وترفع الجثث وامر ان تنوّر المدينة ثلاثة ايام احتفالا بالنصر ودعا اليه العلماء والمشائخ واعدّ لهم وليمة حافلة وبعد يومين جمعهم في مجلسه واخذ يعنفهم على ما اتوه من الخيانة فاجابه الشيخ المهدي « اننا لم نأتِ خيانة اما اتحادنا مع العثمانيين فكان بامر منك » وحجز كلابر على خمسة عشر شيخاً لم يتركهم حتى اخذ منهم غرامة مقدارها ١٢ مليوناً من الفرنكات . وسكنت بعد ذلك الاحوال واطمأنت القلوب

ثم علم مراد بك بما حل بالمدينة وما كان من نصرة الفرنساويين فاحب الانحياز الى الجانب الاقوى فجاء الى ضواحي القاهرة وكتب الى كلابر ثم اجتمع معه وتفاوضا فعاهدا على الاتحاد وتهاديا هدايا فاخرة فولاه مصر العليا مكافأة لصداقته

مقتل كلابر

فاطمأن كلابر من قبيل مصر بعد اتحاده مع المماليك وعظم في عيون الاهلين وسكن في بيت مراد بك في الجيزة وامر بترميم الاماكن التي هدمت بسبب تلك الثورة وفي جملتها ديوان الجيش غربي الازبكية في اول شارع بولاق الى اليمين . وفي ١٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠٠ م دعي كلابر الى غداء عند اركان حربه الجنرال داماس في منزله قرب ديوان الجيش . فبعد مناولة الطعام خرج كلابر والموسيو بروتين مهندس الحملة يتمشيان في رواق (ممشى) موصل بين بيت الجنرال داماس والديوان نحو الساعة الثانية بعد الظهر . فبينما كانا يتحادثان وثب رجل من آخر الرواق عليه ثوب خلق وفي يده خنجر طعن به صدر الجنرال كلابر فنادى الحرس وهجم بروتين على الرجل فنال منه مثلما نال من كلابر فسقط بروتين على الارض فتركه ذلك الشقي وعاد الى كلابر وطعنه ثانيةً وثالثةً حتى اجهز عليه ثم سمع ضجة ففرّ الى حديقة بالقرب من ذلك المكان واختبأ وراء الحائط فلما اتى الخفر لم يروا الا ذينك الرجلين يخبطان بدمهما فحملاهما الى البيت واتوا لهما بالطبيب فمات كلابر حالاً اما بروتين فبقي تحت المعالجة

ونودي في المدينة بالقبض على ذلك الفاعل حيثما وجد وكان بروتين قد افهمهم شيئاً عن ملابسه وشكله . وبعد يسير جيء برجل عليه لباس رث واوقفوه امام بروتين فعرفه وقال هذا هو الجاني . ثم قرّر آخرون انهم راوه منذ بضعة ايام يتردد بين البيوت ويختلط بخدمة الديوان

ش ٤٨ : سليمان الحلبي قاتل الجنرال كلابر

وبعد استنطاقه بسبل مختلفة وجد ان اسمه سليمان الحلبي التقى به احد اغوات الانكشارية في بيت المقدس وكان قد ذهب الانكشاري اليها للتفتيش عن رجل يقدم على قتل كلابر . فخاطب سليمان الحلبي بذلك فاجاب على شرط ان ينجي اباه في حلب من ضرائب فادحة يطلبها منه والي تلك الولاية . فجاء به الى غزة وهناك اتاه بكتب توصية من آغا غزة لعلماء الازهر . فبرح سليمان غزة في ٨ مايو فوصل القاهرة في ١٤ فنزل في بيت مصطفى افندي ليلة ثم تمشى الى بعض العلماء فابوا مشاركته بالجناية

اما هو فلم ينفك حتى اغتنم تلك الفرصة وفعل ما فعل فاستدعي المشائخ المتهمون وهم ثلاثة وبالاستفهام منهم اجابوا انهم لم يروا الرجل ولم يعرفوه قبل تلك الساعة . ثم عين الجنرال مينو لجنة لفحص القضية فحكمت باعدام المشائخ الثلاثة لانهم عرفوا عزم القاتل على القتل ولم يخبروا عنه . اما القاتل فحكم عليه بالاعدام على الخازوق لكنهم اوقفوا تنفيذ الحكم لبعد دفن الفقيد . فشيعوا جنازته باحترام واحتفال ولما واروه التراب جاءوا بالجانين واعدموهم

الجنرال مينو

واقاموا على القيادة العامة بدلا من كلابر الجنرال مينو وكان ممن يرغبون في البقاء بمصر فاسلم ودعى نفسه عبد الله وولد له غلام دعاه سليمان . ثم ظهر من تصرفه بالاحكام انه ليس على شيء من الهمة والدراية فسخر به الفرنساويون وكرهوه

ش ٤٩ : الجنرال مينو

وكان ديوان القاهرة مؤلفاً من طائفتي المسلمين والمسيحيين فجعله من المسلمين فقط وهذه اسماء المشائخ الذين تألف منهم الديوان بامر الجنرال مينو وهم تسعة مع من يلحقهم :

الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان والشيخ المهدي كاتب السر والشيخ الامير والشيخ الصاوي وكاتبه والشيخ موسى السرسي والشيخ خليل البكري . والسيد علي الرشيدي نسيب ساري عسكر والشيخ الفيومي والقاضي الشيخ اسماعيل الزرقاوي. وكاتب سلسلة التاريخ السيد اسماعيل الخشاب . والشيخ علي كاتب عربي. وقاسم افندي كاتب افرنجي وترجمان كبير القس رفائيل . وترجمان صغير الياس فخر الشامي . والوكيل الكمشاري فوريه ويقال له مدبر سياسة الاحكام الشرعية . ومقدم وخمسة قواسه

واخذ منوجانب المسلمين فعهد اليهم جباية الخراج بعد ان كانت في ايدي الاقباط على ان ذلك كله لم يغير شيئاً من كره الوطنيين لتلك الامة الاعجمية التي جاءت لامتلاك بلادهم ومن جملة ما جرّهم الى ذلك انه اعلن حماية فرنسا على مصر . وان مصر قد اصبحت مستعمرة فرنساوية . وشق ذلك على قواد الحملة فجاءوا اليه بصفة رسمة وبلغوه ان الجيش الفرنساوي غير راض عن هذه البدع وان الجمهورية الفرنساوية ولا تقصد بحملتها على مصر ما قد صرح به هو فلم يجبهم بشيء وانما وعدهم انه سينظر في ما قالوا

وكانت انكلترا لا تنفك عن السعي في اخراج الفرنساويين من مصر صيانة لمصالحها في الهند على الخصوص . فاعدت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ مركباً وخمسة عشر الفاً من الرجال وارسلتها الى مصر بقيادة السير رلف ابركرومبي فسار اليها ودخل جون ابي قير في ٢ مارس (اذار) سنة ١٨٠١م فشاهد آثار العمارة الفرنساوية التي حطمتها عمارة نلسون . وفي ٧ منه نزل السير رلف المذكور في قارب لاستكشاف الشاطىء ليختار محلاً ينزل فيه الجيش . وفي ٩ منه شرعت الجنود الانكليزية بالنزول الى البر فاطلق عليهم من الرمل عدة قنابل من طابية تحصن فيها متسلم الاسكندرية بالف وخمسماية رجل اما الانكليز . فلم يكترثوا بذلك بل استمروا على النزول بسرعة والقنابل تتساقط حول قواربهم حتى امتلكوا البر ولم يلحقهم الا ضرر يسير

ثم شخصوا الى الاسكندرية فلاقاهم الفرنساويون باربعة آلاف وخمسمائة مقاتل وفيهم حامية الرحمانية . وانتشبت الحرب بين الطرفين طول ذلك النهار ولم يظهر احد منهما . وكانت خسائر الفرنساويين خمسماية رجل والانكليز الفاً وماية . ومما اعاق الانكليز قلة فرسانهم فعسكروا بجوار الاسكندرية وبنوا الطوابي والخنادق وحفروا اباراً لاستخراج الماء . اما القاهرة فكانت على عهدك بها لفساد سياسة مينو . وفي ٤ مارس وصلته الاخبار بوصول العمارة الانكليزية الى ابي قير فبدلاً من الاسراع في النجدة جعل يتوهم اوهاماً لا طائل تحتها . وبعد اللتيا والتي بعث فرقة الى بلبيس واخرى الى دمياط واخرى الى ابي قير برًّا واخرى في النيل

مجيء الانكليز الى مصر

وفي ١١ منه جاءته الاخبار باحتلال الانكليز ابا قير وهجومهم على الاسكندرية فارتبك في امره فجمع اليه مشايخ الديوان وقال انه ذاهب الى السواحل وقد استخلف الجنرال بيليارد مكانه وزعم ان سبب ذهابه قدوم بعض المالطية والايطاليين الى ابي قير

ثم استقدم الفرقة التي ارسلها الى بلبيس وامر من بقي من الجيش في مصر ان يسيروا الى الرحمانية . فبرح مينو القاهرة في ١٢ منه لكنه لم يصل الاسكندرية الا في ١٩ منه وقد تحصن الانكليز تحصناً لا يقوى هو على مقاومته فاستشار قواده فاشاروا عليه بالهجوم على ذلك الحصن الايمن لانه اقوى حصونهم لكنه لم يجسر على ذلك نهاراً فهجم ليلاً فلم ينجح

وفي اليوم التالي ٢١ مارس (اذار) امر ان تهجم الجيوش كلها دفعة واحدة باكراً بلا ضرب النفير وكان الانكليز في يقظة تامة ففي الساعة الثالثة بعد نصف الليل سمعوا دوي المدافع عن يسارهم فوجهوا نيرانهم نحوها ثم سمعوا مثلها عن يمينهم فاجابوا بمثلها وبعد معركة كبيرة تقهقر الفرنساويون مجانبة ففهم ابركرومبي غرضهم من ذلك فعزز يمنة معسكره واتخذ قيادتها بنفسه فاصيب بجرح قتال القاه على الصعيد فقدم السير سدني سميث وانهضه وما زالت الحرب قائمة حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وقد قتل كثير من الضباط الفرنساويين . فامر الجنرال مينو بالراحة فعادت رجاله وعدد قتلاهم وجرحاهم نحو الفين اما خسائر الانكليز فكانت ٢٤٠ قتيلاً و ١٢٥٠ جريحاً من جملتهم السير رلف ابركرومبي فنقلوه الى احدى الدوارع فعاش بضعة ايام وتوفي فتحولت قيادة العمارة الى الجنرال هتشنسون

وفي ٢٥ مارس (اذار) جاءت الانكليز نجدة عثمانية بقيادة حسين قبطان باشا . فراى الجنرال هتشنسون ان يبعث اربعة آلاف من الجنود العثمانيين وفرقتين من الانكليز وثمانية مدافع بقيادة الكولونل سبنسر لاحتلال رشيد . فاتصل ذلك بالجنرال مينو فارسل اركان حربه لاستطلاع قوة تلك التجريدة فقدرها اقل مما هي كثيراً فاستخف بها فلم ينجد رشيداً

اما الكولونل سبنسر فما زال سائراً حتى اتى رشيداً فدخلها بسلام ولما استقر بها بعث الطوبجية بمدافعهم لضرب حصن جوليان وفيه حامية من الفرنساويين فضيقوا عليهم حتى سلموا فامنوهم ثم اخرجوهم من الحصن . فاتصل ذلك بحامية الرحمانية فاستمدت الجنرال بيليارد في القاهرة فاجاب معتذراً بعدم امكانه الاستغناء عمن لديه من الجنود فبعثت الى مينو في الاسكندرية فامدها بما استطاع

نجدة العثمانيين الانكليز

فاصبحت الجيوش الفرنساوية بذلك اقساماً متفرقة لا تقوى على دفاع : الجنرال بيليارد بالقاهرة في خمسة آلاف يتأهب لدفاع الجيوش العثمانية القادمة بطريق الصحراء بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا . وحامية الرحمانية لما بلغها سقوط رشيد خارت قواها

والجنرال مينو كان محاصراً في الاسكندرية لايبدي حراكاً وقد ضايقه الانكليز بقطع الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط وزد على ذلك انهم قطعوا المياه عن الاسكندرية فلم يبق عنده الا مياه الصهاريج

اما الجنود العثمانية والانكليزية فبعد ان احتلوا رشيداً صعدوا في النيل في ٨ مايو (ايار) حتى اتوا العطف فاستلموها ثم ساروا الى الرحمانية واستولوا عليها ايضاً ففرت الجنود الفرنساوية الى القاهرة واعلموا بيليارد بما كان فامر بعقد مجلس حربي للمفاوضة بالدفاع النهائي لان العدو تكاثر عليهم : هتشنسون من الجهة الواحدة والصدر الاعظم يوسف باشا من الجهة الاخرى وكان قد استولى على دمياط وسار قاصداً القاهرة في ثلاثين الف مقاتل حتى عسكر في بلبيس في ١١ مايو (ايار) . اما مراد بك فبعد محالفته الفرنساويين على ماتقدم توفي وتولى مكانه على الصعيد عثمان بك البرديسي فلما علم هذا بقدوم العثمانيين والانكليز نقض المحالفة

فلما اجتمع المجلس الحربي تفاوضوا في جميع ذلك فراوا ان الجيوش الفرنساوية الموجودة في القاهرة وفي جملتها حامية الرحمانية لاتزيد على اثني عشر الفاً نصفهم جرحى ومرضى وليس لديهم من المال الا اليسير. فلم ير بيليارد لحل هذا المشكل الاوجهين اما ان يسير بما لديه من الجند في النيل لملاقاة مينو فيتكاتفان على الدفاع او ان يسير الى دمياط . ولم ير بدًّا على الحالين من اخلاء القاهرة وكان يفضل المسير الى دمياط لانها تصلح للحصار اذا طال . وفيها من الحاصلات مايقوم باحتياجات جيشه وهو في الحالين عالم بعجزه عن مناهضة عدوه

ثم حدثته نفسه ان يلاقي الجنود العثمانية والانكليزية جميعاً عند اقترابهم من القاهرة . فخرج في خمسة آلاف في ١٦ مايو (ايار) متمثلاً بكلابر وعسكر في نقاب فوصلت اليه مقدمة جيوش يوسف باشا فلم يستطع الوقوف امامها فعاد الى القاهرة

انسحاب الفرنساويين من مصر

وفي ٢٣ مايو وصل هتشنسون الى طرامة فقطع ترعة منوف وسار بنفسه الى معسكر يوسف باشا وفاوضه في الطريقة التي يجب اتخاذها لاتمام مشروعهم فاقروا على طريقة . ثم عاد هتشنسون الى طريقه وسار في رجاله على فرع النيل الغربي حتى اتى الجيزة في ٣٠ منه وواصل يوسف باشا سيره من الجهة الاخرى فانحصر بيليارد في القاهرة لايستطيع حراكاً فعقد مجلساً حربياً اقرّ فيه على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية او دمياط فبعث الى معسكر الانكليز مندوباً بشأن ذلك وبعد المخابرة تقرر

ينسحب الجيوش الفرنساوية الموجودة في القاهرة انسحاباً قانونياً بما لديهم من المهمات لاسلحة الى فرنسا وان يكون ذلك على نفقة الانكليز وكتب بذلك معاهدة امضيت في ٢ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠١ وثبتت في ٢٦ منه على ان تنفذ بعد ١٥ يوما

ففي ١٠ يوليو (تموز) (٤ ربيع اول سنة ١٢١٦ هـ) برح بيليارد القاهرة ومعه ١٣٧٣ من العساكر والضباط قاصدين رشيداً على ان يسافروا منها الى فرنسا فاندهل الفرنسون لما اوتيه من الفوز العظيم وكاد لا يصدق به حتى ٧ اوغسطس (آب) عند علم بركوب الجيوش الفرنساوية راجعين الى بلادهم

اما مينو فكان في الاسكندرية ومعه عشرة الاف مقاتل فتفاوض مع من كان لديه من القواد فأصروا على المخابرة وفي ٢ نوفمبر من تلك السنة عقدوا معاهدة انسحاب وانسحبوا في اثناء ذلك الشهر مثل انسحاب بيليارد . واذا امعنت النظر رايت ان هذه المعاهدة ومعاهدة العريش التي عقدت في ٢٤ يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٠ م شيئاً واحداً ولم تكن نتيجة ذلك التأخير الا سفك الدماء

وكانت الحكومة الانكليزية قد امرت الجنرال برد ان يقدم من الهند في ٦ الاف من الجنود الهندية المنظمة الى مصر امداداً لابركرومبي في البر فجاء الى القصير على مراحل البحر الاحمر ومنها سار في الصحراء الى قنا ثم نزل الى القاهرة فوصلها بعد التوقيع على الانسحاب فنزل الى الاسكندرية وحضر انسحاب مينو وجماعته

هذه هي الحملة الفرنساوية فتأمل كيف كانت نهايتها وكيف انها بعد قضاء ثلاث سنوات ونيف كلها حروب ومقاومات عادت بخفي حنين . وقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٢١٥ هـ ما احدثه الفرنساويون من العمائر وغيرها وما غيروه او اخربوه لمراجعها من شاء

من انسحاب الفرنساويين الى ولاية محمد علي باشا

من سنة ١٢١٦ — ١٢٢٠ هـ او من ١٨٠١ — ١٨٠٥ م

فبعد انسحاب الفرنساويين استلم يوسف باشا الصدر الاعظم زمام الاحكام في القاهرة باسم جلالة السلطان بمساعدة الجنرال هتشنسون وكان حسين قبطان باشا اميرال العمارة العثمانية لايزال في ابي قير والاسكندرية بعد سفر مينو . اما الانكليز فلم يكن غرضهم الاتثبيت سلطة الباب العالي والانسحاب فجعلوا معسكرهم في مصر القديمة . وكان المماليك لايزالون يحاولون النسلط ولم تزل بقية منهم بقيادة اثنين من كبارهم وهما عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي وكان معسكرهم في الجيزة

الكيد بالمماليك ولم ينجح

فاخذ القائدان العثمانيان يوسف باشا وحسين قبطان باشا يدبران مكيدة تذهب بمن بقي من المماليك فاتفقا على ان يدعو قبطان باشا بعض امرائهم الى حفلة يعدها لهم في ابي قير وان يهجم يوسف باشا على من بقي منهم في الجيزة فيأتيان على اهلاكهم . فبعث قبطان باشا الى بعض امراء المماليك يدعوهم الى وليمة وقال انه اعدها لهم في معسكره بابي قير وان غرضه من ذلك الاجتماع المفاوضة معهم فيما يجب اتخاذه من الوسائل لاصلاح البلاد . فاجابوا دعوته وهم في ريب من مقاصده على انهم لم يكونوا يستطيعون رفض الدعوة خيفة ان يجعلوا للقوتين العثمانية والانكليزية باباً للارتياب بمقاصدهم

فلما وصلوا اباقير رحب بهم حسين باشا ودعاهم الى النزول معه في قاربه الخصوصي ليسيروا معا الى القومندان الانكليزي على احدى الدوارع للمفاوضة معه ببعض الشؤون . فركبوا حتى صاروا على مسافة من البر فالتقوا بقارب آت من الدوارع قال من فيه ان لديهم كتباً باسم قبطان باشا ومخابرات اخرى مهمة . فوثب القبطان عند ذلك الى القارب الاخر وامره ان يسير فسار وبقي المماليك وحدهم فاوجسوا خيفة ثم سمعوا اطلاق المدافع عليهم من قارب العثمانيين فتأكدوا انها مكيدة فحاولوا الرجوع الى البر ولم يصلوه حتى قتل عثمان بك الطمبورجي وثلاثة آخرون وجرح عثمان بك البرديسي واثنان آخران . وفي نحو ذلك الوقت ارسل يوسف باشا في القاهرة فرقة من رجاله يهاجمون المماليك في الجيزة فوثبوا عليهم واحرقوا بيوتهم فالتجأ كبارهم الى الانكليز فحموهم رغم اصرار يوسف باشا على طلبهم

ثم انسحبت الجيوش الانكليزية من مصر بامر الاميرال كيت وبقيت مصر يتنازعها الجنود العثمانية والمماليك . وكان يوسف باشا في القاهرة نائباً عن الباب العالي . ولم يكن بد من تولية والٍ عثماني يقوم باعباء الولاية فسعى يوسف باشا بمساعدة حسين قبطان باشا في تولية خسرو باشا كخيا حسين قبطان باشا فكتبا بذلك الى الاستانة فاجاب الباب العالي طلبهما وبعث لهما الفرمان المؤذن بذلك

ولاية خسرو باشا

فتولى خسرو باشا على مصر في ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢١٦ هـ ولم يكن ينقصه لاستتباب الراحة الا ابادة من بقي من المماليك . وكانوا مع ما المَّ بهم منذ قدوم الفرنساويين لا يزالون قادرين على المقاومة نظراً لمعرفتهم باحوال البلاد واحزابها . وبعد وفاة مراد بك واعتزال ابراهيم بك عن الاعمال اصبحوا تحت قيادة عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي كما تقدم وقد دانت لهم مصر العليا . فناهضهم خسر باشا فلم ينجح ولم يكن اذ ذاك في سلطة الباب العالي الا القاهرة والاسكندرية وما بينهما

ولم يستطع خسرو باشا تحصيل ما يقوم بدفع مرتبات العساكر فثاروا في ٢ مايو سنة ١٨٠٣ م واحاطوا بالخزندار وحبسوه في بيته . فامر خسرو باشا ان تطلق عليهم المدافع حتى علت الضوضاء واشتد الخصام فتوسط طاهر باشا اركان حرب خسرو باشا في صرف ذلك المشكل فلم يوافقه خسرو على قصده واتهمه باتحاده مع العصاة . فاغتاظ طاهر باشا واخذ جانب العصاة وامرهم ان يهدموا الاسوار تخاف الباشا ولم يرَ الا الفرار بحريمه وحاشيته على ضفة النيل الشرقية نحو المنصورة . ثم سار منها الى دمياط وحاصر هناك . فاغتنم طاهر باشا تلك الفرصة وجمع اليه القضاة وارباب الديوان فاقروه على مصر بصفة قائمقام موقتاً لبينما ترد الارادة السنية بتولية من يتولى عوضاً من خسرو باشا

ففي ٢٥ مايو (ايار) سنة ١٨٠٣ م لاقى طاهر باشا من القوة العسكرية ما لاقاه خسرو باشا — وذلك ان اثنين من الاغوات وهما موسى واسماعيل تشكيا اليه من تأخر الرواتب فانتهرهم فاغلظوا له فاشتد الخصام فجردا السيف وقطعا رأسهُ ورمياه من الشباك وانتهى الخصام باحتراق القصر

فاصبحت مصر بغير وال يدير اعمالها . وفي هذه الفرصة تأتى لذلك الرجل العظيم محمد علي باشا ارومة العائلة الخديوية اظهار ما اختص به من البسالة وعلو الهمة وما جعله الله فيه من الفضائل التي قدَّر له ان يبثها في هذا القطر السعيد

الاسرة المحمدية العلوية

من سنة ١٨٠٥ ولا تزال

ش ٥٠ : محمد علي باشا

مؤسس الاسرة الخديوية بمصر

محمد علي باشا

من سنة ١٨٠٥ — ١٨٤٨ م

اولاً — صبوته وشبيبته

انظر الى خارطة بلاد الروملي في سواحلها الجنوبية على مسافة ٣٢٠ كيلو متراً من الاستانة غرباً ترَ قرية اسمها قواله لا يزيد عدد سكانها على الثمانية آلاف نفس. وكان في تلك القرية في اواسط القرن الماضي رجل اسمه ابراهيم آغا كان متولياً خفارة الطرق ولد له سبعة عشر ولداً لم يعش منهم الا واحد. وفي سنة ١٧٧٣ توفي هذا الرجل وامراته عن ذلك الولد وسنه اربع سنوات واسمه محمد علي

فاصبح الغلام يتيماً ليس له من يعوله الا عماً اسمه طوسون آغا وكان متسلماً على قواله فجاء به الى بيته شفقة عليه. غير ان المنية عاجلت طوسون فقتل بامر الباب العالي بعد ذلك بيسير فاصبح الغلام يتيماً قاصراً وليس من ينظر اليه

وكان لوالده صديق يعرف بجربتجي براوسطة فشفق على الغلام وجاء به اليه وعني بتربيته مع اولاده. غير ان ذلك لم ينسه حاله من اليتم فكان يشعر بالذل وضعة النفس. ويروى عنه بعد ان ارتقى ذروة المجد واعتلى منصة الاحكام انه كان يحدث عما قاساه في صبوته من الذل الى ان يقول:

« وُلد لابي سبعة عشر ولداً لم يعش منهم سواي فكان يحبني كثيراً ولا تغفل عينه عن حراستي كيفما توجهت. ثم توفاه الله فاصبحت يتيماً قاصراً وأبدل عزي بذل وكثيراً ما كنت اسمع عشرائي يكررون هذه العبارة التي لا انساها عمري وهي (ماذا عسى ان يكون مصير هذا الولد التعس بعد ان فقد والديه) فكنت اذا سمعتهم يقولون ذلك اتغافل عنه ولكنني اشعر باحساس غريب يحركني الى النهوض من تحت هذا الذل. فكنت اجهد نفسي بكل عمل استطيع معاطاته بهمة غريبة حتى كان يمرُّ عليَّ احياناً يومان ساعياً لا آكل ولا انام الا شيئاً يسيراً. وفي جملة ما قاسيته اني كنت مسافراً مرة في مركب فتعاظم النوء حتى كسره وكنت صغيراً فتركني رفاقي وحدي وطلعوا الى جزيرة هناك على قارب كان معنا فجعلت اجاهد في الماء وسعي تتقاذفني الامواج وتستقبلني الصخور حتى تهشمت يداي وكانتا لا تزالان يانعتين وما زلت حتى اراد الله ووصلت الجزيرة سالماً وقد اصبحت هذه الجزيرة الآن قسماً من مملكتي »

ومما يحكى عنه في ايام صبوته انه كان يتردد على رجل فرنساوي مقيم في قواله اسمه المسيو ليون وكان من كبار التجار محبًّا للفضيلة . وحالما رأى محمد علي للمرة الاولى أشفق عليه واحب مساعدته لما توسم فيه من الفطنة والنباهة فكان يقدم له كثيراً من حاجياته ويسعفه بكل ما في وسعه حتى ألفه محمد علي كثيراً — وهذا هو سبب وثوقه بالامة الفرنساوية بعد توليه الاحكام في مصر واستخدامه افراداً منهم في مصلحة البلاد . ويقال انه رحمه الله بعث سنة ١٨٢٠ الى الموسيو ليون المشار اليه يدعوه الى مصر يقضي فيها زمناً في ضيافته فاجاب دعوته ولكنه مات قبل قدومه فاسف عليه محمد علي كثيراً وبعث الى شقيقته هدية تساوي عشرة آلاف فرنك

قلنا انه ربي في صبوته ببيت جربتجي برواسطة وتعلم في صغره ما يتعلمه ابناء تلك البلاد من العاب السيف والجريد والحكم وماشاكل فنبغ فيها حتى اذا بلغ اشده انتظم في سلك الجهادية تحت ادارة مربيه فاظهر في جباية الضرائب مهارة وبسالة عجيبتين فرقاه الى رتبة بلوك باشي وزوجه احدى ازواج قرابته وكانت مطلقة ولها مال وعقار فترك الجهادية وتعاطى التجارة وعلى الخصوص في صنف التبغ لانه اكثر اصناف التجارة في بلاده . وقد برع في تلك التجارة حتى اكتسب شهرة واسعة وثقة عظمى لدى عملائه . وكان قد ذاق لذة التجارة واحبها مذ كان يتردد على المسيو ليون المتقدم ذكره ولذلك رأيناه بعد ان تولى مصر يوجه انتباهه بنوع خاص لتنشيط التجارة

وما زال يتعاطى التجارة الى سنة ١٨٠١ حينما عزم الباب العالي على اخراج الفرنساوية من مصر بمساعدة انكلترا . فبعثت الحكومة العثمانية اليهم عمارة قوية تحت قيادة حسين قبطان باشا وفيها قوات انكليزية وبعثت الصدر الاعظم في حملة من جهة البر كما تقدم

ثانياً — ارتقاؤه منصة الاحكام

وكان محمد علي في جند القوة البحرية وقد تجند اليها في جملة من تجند في برواسطة بصفة معاون لعلي آغا بن مربيه على ثلاثمئة جندي الباني (ارناؤوط)

فجاءت العمارة الى ابي قير وكانت الغلبة هناك للفرنساويين ثم عاد علي آغا الى بلاده تاركاً رجاله تحت قيادة محمد علي وكان هذا قد ترقى الى رتبة بيكباشي

ثم تغلب العثمانيون بمساعدة العمارة الانكليزية وحملة الصدر الاعظم ودخلوا البلاد واخرجوا الفرنساويين وجعلوا يهتمون في تأييد سلطة الباب العالي فيها

وكان في الجنود العثمانية جماعات من الارناؤوط والانكشارية والغليونجية فتفرقت هذه الجنود لحماية مصر السفلى وبعض مدن الصعيد . اما الانكليز فكانوا تحت قيادة الجنرال هتشنسون فنزلوا الاسكندرية ريثما يقيمون في القطر المصري والياً عثمانياً يؤيد سلطة الباب العالي ويكبح جماح المماليك الذين كانوا لا يزالون يحاولون الاستقلال

فاقاموا محمد خسرو باشا المتقدم ذكره وكان في الاصل من مماليك حسين قبطان باشا وهو الذي سعى له في هذه الولاية . فجاء القاهرة وقاص الذين كانوا فيها من محالفي الفرنساوية . وكان في يده اوامر سرية باعدام المماليك باي وسيلة كانت فبعث الى محاربهم وكانوا في الصعيد فتضايقوا ولم يروا وسيلة الا الالتجاء الى فرنسا فكتبوا اليها يستنجدونها متعهدين باجراء كل ما تطلبه منه فلم يسعدهم الحظ بمساعدتها

محمد علي وخسرو باشا

اما الحملة التي بعثها خسرو باشا الى الصعيد فانها عادت ولم تأت بفائدة ثم حاربهم مراراً في اماكن مختلفة. وفي جملتها واقعة بعث اليها حملة من جنده وكان محمد علي قد ارتقى الى رتبة سرششمة وصار قائداً لاربعة الاف من الالبانيين فامره ان يسير في رجاله مدداً لتلك الحملة فسارت الحملة وحاربت المماليك وانكسرت قبل وصول محمد علي ورجاله . فنسب قائدها انكساره الى تأخر محمد علي عن المجيء وابلغ ذلك لخسرو باشا . وكان هذا حاقداً على محمد علي فاستقبل ذلك البلاغ بالصدق واقرّ على اعدامه سرًّا . وكتب اليه ان يوافيه في منتصف الليل للمخابرة ببعض الشؤون فادرك محمد علي مراده ولم يجب الدعوة

ولم ير وسيلة لنجاته من مكيدته وعدوانه الا بالالتجاء الى المماليك فانحاز اليهم واخذ في مخابرتهم سرًّا وجهراً فتمكنوا بذلك التحالف من اخراج خسرو باشا من القاهرة قهراً . ففر الى دمياط واقاموا مكانه طاهر باشا . ولما قتل طاهر احتل محمد علي القلعة برجاله فقام احمد باشا والي الشرطة اذ ذاك يطلب الولاية فاخرجه المماليك من القاهرة ذليلاً ثم اتحد الجميع وساروا لمحاربة خسرو باشا في دمياط فاسروه وجاؤا به الى القاهرة وحجروا عليه في القلعة

اما الباب العالي فلما بلغه ما حصل في مصر بعث اليهم والياً اسمه علي باشا الجزائرلي فلم يصل القاهرة الا بعد شق الانفس ولما وصلها عمد الى الكيد بالمماليك ومحمد علي فعادت العائدة عليه

الالفي والبرديسي

وكان الالفي والبرديسي زعيما المماليك يتنازعان السلطة . وكان الالفي قد سار الى انكلترا يطلب مساعدتها على رفيقه للاستئثار بالسيادة . فلما عاد من سفرته اغتنم محمد علي تلك الفرصة واوغر صدر مناظره البرديسي عليه فنصب له مكيدة لم يقع فيها ولكنه فر الى الصعيد . فظن البرديسي ان جو القاهرة قد خلا له ولكن محمد علي كان له بالمرصاد فحرك الالبانيين عليه واوعز اليهم ان يثيروا ويطالبوا بمرتباتهم فقاموا وهددوا البرديسي بالاذى اذا لم يدفع اليهم المتأخرات . فضرب على اهل القاهرة اموالاً واستبد في تحصيلها بقساوة فثاروا جميعاً عليه فاضطر الى مغادرة القاهرة ولم يعد يرجع اليها . وكل ذلك سنة ١٨٠٤

فلما فر الاميران لم يبق في القاهرة من رجال السلطة الا محمد علي وقد فرغت حاجته الى المماليك بعد ان كاد لهم كيداً وشتت شملهم فرأى ان يستعين بالاهلين في نيل ماتتوق اليه نفسه من المطالب فجمع اليه العلماء والمشائخ وتفاوضوا في اخلاء سبيل خسرو باشا فاقروا على ذلك وان يعود الى منصبه فاعادوه ولكنه لم يمكث فيه الا يوماً واحداً ثم اخرجوه من القاهرة الى رشيد ومنها الى الاستانة . وكل ذلك بمساعي محمد علي وحسن درايته واتقان سياسته

خورشيد باشا

ثم تظاهر ان الامور لا تستقيم في مصر الا بتنصيب والٍ عثماني حر واشار بتنصيب خورشيد باشا وكان في الاسكندرية . فوافقه العلماء والمشائخ في ذلك على ان يكون هو نائباً عنه في الاحكام بصفة قائمقام وبعثوا الى الباب العالي يخبرونه بذلك ويسترحمونه بتثبيت انتخابهم فاجيب طلبهم بفرمان مؤرخ في مارس سنة ١٨٠٤ هذا نصه :

« اننا كنا صفحنا ورضينا عن الامراء المصرلية (المماليك) على موجب الشروط التي شرطناها عليهم بشفاعة علي باشا والصدر الاعظم فخانوا العهود ونقضوا الشروط وطغوا وبغوا وظلموا وقتلوا الحجاج وغدروا علي باشا المولى عليهم (يريد علي باشا الجزائرلي) وقتلوه ونهبوا امواله ومتاعه فوجهنا عليهم العساكر في ثمانين مركباً حربية وكذلك احمد باشا الجزار بعساكر برية للانتقام منهم ومن العسكر الموالين لهم فورد الخبر بقيام العساكر عليهم ومحاربتهم لهم وقتلهم واخراجهم فعند ذلك رضينا عن العسكر لجبرهم ما وقع منهم من الخلل الاول وصفحنا عنهم صفحاً كلياً واطلقنا لهم السفر والاقامة متى شاؤا وانما ارادوا من غير حرج عليهم وولينا حضرة احمد باشا خورشيد كاملي

بار المصرية لما علمنا فيه من حسن التدبير والسياسة ووفور العقل الخ »

ثم جرت بعد ذلك وقائع كثيرة بين محمد علي والمماليك في اماكن مختلفة من القطر سجوا بعد ما قاسوه من الحروب المتواترة مدة سنين على غير ما كانوا عليه من نفوذ قبلاً واصبحت قوتهم لا تزيد عن خمسة او ستة الآف من الفرسان وكانت نفسهم آخذة في الانحطاط

٥١ — ارناؤط محمد علي

وكانت العساكر مؤلفة من الالبانيين (الارناوط) وهؤلاء قضوا تحت قيادة محمد علي مدة طويلة وكانوا يحبونه فشق ذلك على خورشيد باشا وصار يخاف هؤلاء الالبانيين فاستقدم اليه جنداً من الدلاة (المغاربة) فوصلوا مصر في اول سنة ١٢٢٠هـ وكان محمد علي يوم وصولهم في جهات الصعيد يحارب المماليك فبلغه ان احمد باشا خورشيد استقدم هؤلاء الدلاة يستعين بهم على الارناوط فعاد الى القاهرة برجاله مظهراً طلب المعونة ولولا ذلك لمنعه الدلاة من الدخول اليها اما خورشيد فاوجس خيفة من قدومه فجعل يراقب حركاته . اما الدلاة فانتشروا في البلاد ينهبون ويقتلون ويصادرون الناس ويأخذون اموالهم فاشتكوا الى خورشيد باشا اولاً وثانياً وثالثاً وهو يعدهم بكف هؤلاء ثم يخلف ولا تزيد الاحوال الا اضطراباً فشق ذلك خصوصاً على علماء البلاد ومشائخها وكرهوا خورشيد باشا كرهاً شديداً وصاروا يتوقعون تلخيم منه وعلم هو بذلك فلم يزدد الا فجوراً

الاجماع على تولية محمد علي

وفي ٢ صفر سنة ١٢٢٠ ورد لمحمد علي باشا خط شريف بولاية جدة فالبسه خورشد باشا الفروة والقاووق المختصين بهذه الرتبة وقد توسم قرب تخلصه منه فخرج محمد علي باشا يريد الذهاب الى جدة وفي نفسه ان لا يخرج من مصر فقامت العساكر وطالبوه بالعلوفة فقال « هـذا هو الباشا طالبوه بها » وسار الى منزله في الازبكية (قرب اوتيل شبرد) وهو ينثر الذهب على الناس فازدادوا له حبا وخورشد باشا كرهاً

وبعد ثلاثة ايام (لا ندري ما دار في اثنائها بينه وبين علماء البلاد ومشائخها) سار المشائخ والعلماء جميعاً الى محمد علي في منزله ينادون بصوت واحد « لا نقبل خورشيد باشا والياً علينا » فقال « ومن تريدون اذاً » قالوا « لانريد احداً سواك » فامتنع اولاً وجعل يرغبهم في خورشيد ويحملهم على الاذعان والسكينة وهم لايزدادون الا اصراراً على طلبهم فوافقهم فاحضروا له الكرك والقفطان والبسوه اياهما وبعثوا الى خورشد ان ينزل من القلعة فابى فحاصروه فيها وكتبوا الى الباب العالي بذلك فورد الفرمان بولاية محمد علي في ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ هـ (٩ يوليو) تموز ١٨٠٥) وعزل خورشد باشا فخرج هذا من القلعة بامر من الاستانة وغادر البلاد وفي نفسه من الغيظ على محمد علي ما ليس وراءه غاية

الالفي ومحمد علي

وكان المماليك لا يزالون منتشرين في جهات القطر يحكمون ويستبدون وكان الالفي مقيماً في الصعيد وقد التف حوله جمهور من المماليك وحالما علم بتولية محمد علي باشا نزل بفرسانه طالباً خلعه وتخابر مع خورشيد باشا ليساعده في غرضه وتعهد انه اذا فعل ذلك يعيد الاحكام ليده ويكون بعد ذلك خاضعا لاوامر الدولة العثمانية ضارباً بسيفها هذا اذا كانت تخلع محمد علي باشا . وخابر من الجهة الثانية دولة انكلترا ووعدها انها اذا عضدت مشروعه هذا يكون مستعدًّا ان يسلمها ابواب القطر المصري حالاً . فعلم بذلك قنصل فرنسا فعرقل مسعاه فعكف على مصالحة محمد علي باشا على شيء يرضى به الاثنان فحصلت المخابرات فلم يتفقا فعاد الالفي الى مسعاه ثانية بواسطة سفير انكلترا في مصر فطلب هـذا الى الباب العالي بالنيابة عن دولته ارجاع سلطة المماليك الى البلاد وتعهد بامانة الالفي وخضوعه لاوامر الدولة . فقبل الباب العالي بذلك فاصدر عفوا عاماً عن المماليك باسم اميرهم الكبير الالفي فوصله في غرة ربيع

آخر سنة ١٢٢١ هـ وفي ١٤ الشهر المذكور وصل القاهرة خبر قدوم عمارة عثمانية تقلُّ موسى باشا مرسلاً من قبل الباب العالي والياً على مصر ومعه عدة من العساكر المنظمة على النظام الجديد وخط شريف الى محمد علي باشا ان ينتقل الى ولاية سلانيك وان يرجع المماليك المصرية الى مراكزهم في الامارات والاحكام

سعي محمد علي وحزمه

تخاف محمد علي من حبوط المسعى فاخذ الامر بالحزم والحكمة فراى ان احزاب المشائخ والعلماء جميعها معه وانضم اليهم بعض المماليك الذين كانوا في الاصل من الجيش الفرنساوي وظلوا في مصر بعد سفر الحملة لعدم امكانهم مرافقتها واعتنقوا الديانة الاسلامية وانضموا الى المماليك فاستكتبهم كتاباً الى الباب العالي يطلبون فيه ابقاء محمد علي باشا وارجاع موسى باشا ويبينون الاسباب الموجبة لذلك . فكتبوه وامضوه وارسلوا منه نسخة الى الاستانة واخرى الى قبطان باشا قائد العمارة التي اتت بموسى باشا . فاجابهم القبطان ان ما قدموه من الاعذار غير مقبول ولا بد من خروج محمد علي باشا من مصر حالا . وكان لسفير فرنسا في الاستانة رغبة شديدة في بقاء محمد علي باشا على مصر لما علم من عزم الالفي على تسليم البلاد للدولة الانكليزية فسعى جهده مع قبطان باشا في بقاء محمد علي باشا وعلم بعد ذلك ان المماليك لم ينفكوا منذ وجودهم في مصر عثرة في سبيل حقوق الدولة وانهم منقسمون فيما بينهم لا يتفقون على امر

فرأى طاب اهل البلاد اقرب الى الصواب فكتب اليهم ان يعيدوا طلبهم وان يعنوا الطلب مع ابن محمد علي باشا . فكتبوه وارسلوه مع ابنه ابراهيم بك على يد قبطان باشا . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٢١ برحت العمارة العثمانية الاسكندرية وعليها قبطان باشا وموسى باشا وابراهيم بك

وفي اواخر شعبان (نوفمبر (ت ٢) سنة ١٨٠٦ م) وردت الاوامر الشاهانية بتثبيت محمد علي باشا على ولاية مصر مع الايعاز اليه ان لا يتعرض للمماليك بعد ذلك لصدور العفو عنهم قبلا . وفي الشهر التالي مات عثمان البرديسي . وفي ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٢١ هـ (يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٧ م) توفي محمد الالفي وهما زعيما احزاب المماليك فولوا عليهم شاهين بك رئيساً الا انهم مع ذلك لم تعد تقوم لهم قائمة وقد خلا الجو لمحمد علي باشا

مقاومة الانكليز لمحمد علي

ثم ان الحكومة الانكليزية اعتبرت تثبيت محمد علي مخلاً بنفوذها ومضرًا بمصالحها فجردت حملة من ثمانية آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال فرازر لارجاع سلطة المماليك وكانوا قد تبعثروا في البلاد فوصل الانكليز الاسكندرية في ٩ محرم سنة ١٢٢٢ هـ (١٧ مارس (اذار) سنة ١٨٠٧ م) مظهرين حماية القطر من الفرنساوية فاستولوا على المدينة في ٢١ محرم وظلوا فيها ستة اشهر لا يستطيعون انتقالا الى ما وراءها. وكانوا قد ارسلوا فرقة منهم الى رشيد فزعقها سيوف الارناؤوط كل ممزق. وفي يوم الخميس ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٣ هـ استقال السلطان مصطفى وسنه ٢٣ سنة فبويع السلطان محمود بن عبد الحميد (محمود الثاني)

ش ٥٢ : السلطان محمود الثاني

وفي ١٣ رجب سنة ١٢٢٢ هـ (١٤ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٠٧) انسحبت الجيوش الانكليزية باتفاق صلح مع القطر فاستتبت القوة لمحمد علي باشا وقد رضي جلالة السلطان عنه ودخلت الاسكندرية في ولايته. ثم سعى بعضهم في المصالحة بينه وبين المماليك فتمت بقدوم شاهين بك الى مصر بالهدايا الثمينة فاكرمه محمد علي وبنى له قصراً نفيساً لسكناه في الجيزة ثم تبادلوا الزيارات وكل علائق المودة وهكذا فعل سائر المماليك

ثالثاً — اعماله الحربية

١ — الحملة على الوهابيين

فلما رسخت قدم محمد علي باشا في مصر اخذ في تسليم مصالح حكومته الى من يثق بهم من ذوي قرباه لانه كان شديد المحبة لعائلته ولا شك ان ازره اشتد بهم . ثم استفحل امر الوهابيين في شبه جزيرة العرب فارسل السلطان محمود يعهد الى محمد علي باشا امر اخضاعهم وتخليص البلاد من ايديهم

ش ٥٣ : زعيم الوهابيين

والوهابيون طائفة من المسلمين تذهب الى اغفال الكتب الدينية الاسلامية الا القرآن والحديث . زعيمها الاول محمد بن عبد الوهاب ولد في العيينة من اقليم العارض من نجد سنة ١١٠٦هـ (١٦٩٦) وكان ابوه شيخاً فقيهاً فربي في حجره على المذهب الحنبلي ثم انتقل لاتمام دروسه في البصرة وهم بزيارة مكة والمدينة وعاد الى بلده . ثم تزوج في الحريملة بالعارض واقام فيها واشتهر بين قومه بالتقوى وصدق التدين . وانحى عليهم باللائمة لتقاعدهم عن الفروض الدينية واهمالهم قواعد الدين الاساسية وبالغ في تعنيفهم

حتى تآمر بعضهم على قتله وتربصوا له في مكمن فادرك غرضهم ففر الى بلده العيينة واخذ يجتذب الاحزاب اليه من اهله وابناء قبيلته بالوعظ والمراسلة والاقناع فالتف حوله جماعة من الانصار في بلدته وما يحيط بها من البلاد

وجاءته امرأة عاهرة تلتمس التوبة على يده فردها اولاً وثانياً . فجاءته ثالثة فاستغرب امرها وسأل القوم اذا كانت مجنونة فقالوا انها في كمال عقلها لكنها شردت عن طريق التقوى وتريد الرجوع اليها. فحكم عليها بالاعدام لان ضميرها لم يوبخها يوم ارتكبت تلك الرذائل . وعلم بهذا الحكم الجائر امير الحسا فبعث الى شيخ العيينة ان يقتل محمد بن عبد الوهاب او ينفيه . فامر باخراجه من بلده على ان يدس له من يقتله

وبلغ نفيه مسامع بعض اتباعه في الدرعية من اقليم العارض المذكور واميرهم يدعى محمد بن سعود فتقدموا اليه ان يأذن باستقدامه اليهم فاذن لهم بذلك فبعثوا الى شيخ العيينة ان يوجههُ اليهم . فبعثه في خفارة فارس اسرَّ اليه ان يقتله غيلة في اثناء الطريق . فهمَّ الفارس ان ينفذ ذلك الامر مراراً وهو يؤجله واتفق انه همَّ بالعمل اخيراً وهو على مقربة من الوفد الذي ارسله ابن سعود لاستقبال ذلك المنفي . ولم يكد الفارس يطعنه حتى جاء اولئك للدفاع عنه وقد كاد يقتل

فدخل محمد بن عبد الوهاب الدرعية فاحسن ابن سعود وفادته اكراماً لاتباعه ووعد بحمايته ممن يناوئه واذن له في نشر تعاليمه . ففعل ونفوذه يزداد وانصاره يتكاثرون وشهرته تتسع . فاخذ يكاتب مشائخ القبائل يدعوهم الى نبذ الرذائل والرجوع الى الكتاب والسنة وانهم اذا لم يفعلوا حمل عليهم باهل درعية جهاداً في سبيل الحق . فاذعن له كثيرون وقاومه آخرون فمن وافقه انتقل اليه في درعية . فتزايد انصاره فيها وفي غيرها من اقليم العارض واكثرهم في العيينة وحريملة ودرعية والعمارية والمنفوحة

تعاليم الوهابية

واساس مذهب ابن عبد الوهاب انهُ لا يعرف الا الله ولا يتوسل الى سواه — واهم تعاليمه :

١ الصلاة خمس مرات في اليوم
٢ الصوم في رمضان
٣ الامتناع عن المسكرات
٤ منع البغاء
٥ « الميسر والسحر

٦ تفريق جزء من مئة من الاموال زكاة على الفقراء
٧ التشديد في عقاب شهادة الزور
٨ ابطال الربا
٩ الحج مرة على الاقل
١٠ منع التدخين
١١ منع الرجال من لبس الحرير او التزين لانه من شأن النساء
١٢ هدم المزارات وقباب الاولياء لانها من ظواهر الوثنية وتشغل الناس عن مخاطبة الله رأساً

هذه خلاصة تعاليم محمد بن عبد الوهاب اخذ ينشرها بالاقناع والموعظة ومحمد بن سعود ينشر معها نفوذه وسلطانه في نجد . فعارضه اهل الرياض من ذلك الاقليم بقيادة اميرهم دهيم بن دواس وحمل برجاله على المنفوحة فعادوا خائبين . فتشدد ابن سعود وشيخه ابن عبد الوهاب وتمكنا من الثبات في الدعوة . فتزوج ابن سعود ابنة محمد بن عبد الوهاب فولدت عبد العزيز فخلف اباه عند موته سنة ١٧٦٥ وكان الوهابيون قد تكاثروا وصاروا جنداً كبيراً فحمل بهم على اطراف جزيرة العرب

وكان عبد العزيز شجاعاً حازماً شديد البطش مع تقوى وورع فغدره رجل من فارس بطعنة خنجر وهو يصلي فقتله سنة ١٨٠٣ فخلفه ابنه سعود وكان قد تعود الحرب من صغره فقاد بعض رجال ابيه وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره . ثم ما زال يقود الجند في الحروب حتى هدد الدولة العثمانية في الشام والعراق . وكان جميل الخلقة عاقلاً حكيماً وقد قام في اعتقاد العرب انه لا يلبث ان ينشر هذا المذهب في العالم كله فخافوا حوله . فخافت الدولة العثمانية بطشه فجندت اليه حملة بقيادة سليمان باشا فقهرها ثم حمل بعشرين الف مقاتل على كربلاء وفيها قبور أئمة الشيعة وصاح برجاله « اقتلوا هؤلاء الكفار الذين يشركون بالله » فاخذوا في هدم المزارات كلها من قبر الحسين الى اقل الابنية . فلم يتركوا حجراً على حجر واستولوا على ما كان هناك من التحف والاموال واستعانوا بها على امورهم

وفي السنة التالية فتحوا مكة ودخل سعود الكعبة رسمياً في ٢٧ افريل سنة ١٨٠٣ واستولى على ما فيها من التحف وشدد في نشر تعاليمه هناك . فبطل التدخين وكف الناس عن تعاطي المسكرات وعكفوا على الصلوات . وبادر سعود فكتب الى السلطان سليم الثالث وهو يومئذ على العرش العثماني كتاباً هذا معناه :

« من سعود الى سليم : اما بعد فقد دخلت مكة في الرابع من المحرم سنة ١٢١٨ هـ وامنت اهلها على ارواحهم واموالهم بعد ان هدمت ما هناك من اشباه الوثنية والغيت الضرائب الا ما كان منها حقاً وثبتُّ القاضي الذي وليته انت طبقاً للشرع الاسلامي فعليك ان تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء الى هـذا البلد المقدس بالمحمل والطبول والزمور فان ذلك ليس من الدين في شيء وعليك رحمة الله وبركاته »

ولم تمض تلك السنة حتى دخلت المدينة في حوزة الوهابيين واجرى سعود فيها اصلاحه الديني فهدم قبة القبر النبوي ونزع الستائر التي كانت هناك . واخذ في نشر سياداته على بلاد العرب فاصبحت حدود مملكته سنة ١٨٠٩ من الشمال صحراء سوريا ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق خليج العجم ومن الغرب البحر الاحمر وقد استفحل امرهم ولم يرَ الباب العالي بدًّا من تكليف بطل مصر وحيي معالمها رحمه الله

فاجاب محمد علي مطيعاً وجعل يجمع القوات اللازمة لتلك الحملة لكنه فكر في امر المماليك فخشي اذا سارت الحملة ان لا تكون البلاد في مأمن منهم فيجمعوا كلمتهم ويعودوا الى ما كانوا عليه من القلاقل فعمد الى اهلاكهم قبل مسير الحملة . لكنه في الوقت نفسه اخذ في اعداد المهمات فجند اربعة الاف مقاتل تحت قيادة ابنه طوسون باشا ثم طلب الى الباب العالي ان يبعث الى السويس بالاخشاب لبناء المراكب اللازمة لنقل الجند ومعدات الحرب فارسل اليه ما طلب فابتنى ثمانية عشر مركباً واعدها عند السويس في انتظار الحملة

مذبحة المماليك

اما المماليك فكانوا قد يئسوا من الاستقلال بالاحكام بعد ان رأوا ما حل بسلفائهم وما عليه محمد علي باشا من العزيمة فكفوا عن مطامعهم واكتفوا بالتمتع بارزاقهم وممتلكاتهم في حالة سلمية . فقطن بعضهم الصعيد وبعضهم القاهرة وتشتتوا في انحاء القطر . وكان شاهين بك وهو الذي تولى رئاستهم بعد وفاة الالفي قد اذعن لمحمد علي باشا كما تقدم. فاقطعه ارضاً بين الجيزة وبني سويف والفيوم فاوى اليها . وفي محرم سنة ١٢٢٦ هـ (فبراير (شباط) سنة ١٨١١م) سار قواد الحملة من القاهرة وعسكروا في قبة العزب في الصحراء ينتظرون سائر الحملة ومعها طوسون باشا . وتعين يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجه ورجاله الى قبة العزب فاعلن ذلك في المدينة ودعي كل الاعيان لحضور ذلك الاحتفال وفي جملتهم المماليك وطلب اليهم ان يكونوا بالملابس الرسمية

ففي يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ هـ (اول مارس (اذار) سنة ١٨١١م)

احتشد الناس الى القلعة وجاء شاهين بك في رجاله فاستقبلهم الباشا في قصره بكل ترحاب . ثم قدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجمع وجاءت الساعة امر محمد علي بالمسير فسار الموكب وكل في مكانه منه جاعلين المماليك الى الوراء يكتنفهم الفرسان والمشاة . حتى اذا اقتربوا من باب العزب من ابواب القلعة في مضيق بين هذا الباب والحوش العالي امر محمد علي فاغلقت الابواب واشار الى الالبانيين (الارناؤوط) فهجموا على المماليك بغتة فانذعر اولئك وحاولوا الفرار تسلقاً على الصخور ولكنهم لم يفوزوا لان الالبانيين كانوا اكثر تعوداً على تسلقها . واقتحم المشاة المماليك من

ش ٥٤ : امين بك (المملوك الشارد)

ورائهم بالرصاص فطلب هؤلاء الفرار بخيولهم من طرق اخرى فلم يستطيعوا لصعوبة المسلك على الخيول ولما ضويق عليهم ترجل بعضهم وفروا سعيا على اقدامهم والسيوف في ايديهم فتداركتهم الجنود بالبنادق من الشبابيك فقتل شاهين بك امام

ديوان صلاح الدين . وحاول بعضهم الالتجاء الى الحريم او الى طوسون باشا بدون فائدة . ثم نودي في المدينة ان كل من يظفر باحد المماليك في اي محل كان يأتي به الى نخيا بك فكانوا يقبضون عليهم ويأتون بهم اليه افواجاً وهو يقتلهم

وكان عدد المماليك المدعوين الى الوليمة اربعمئة فلم ينج منهم الا اثنان احدهما احمد بك زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير كان غائباً بناحية موش والثاني امين بك اتى القلعة متأخراً فرأى الموكب سائراً نحو باب العزب فوقف خارج الباب ينتظر خروج الموكب. ثم لما اقفلت الابواب بغتة وسمع اطلاق النارادرك المكيدة فهمز جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا . والمتناقل على الالسنة ان امين بك هذا كان داخل القلعة فعند ما حصلت المعركة همز جواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو وقد صوروا تلك الاشاعة في الرسم (ش ٥٤) والاقرب للحقيقة ان هذه الاشاعة مختلقة او مبالغ فيها . ثم نودي في الاسواق ان شاهين بك زعيم المماليك قتل فخافت الناس ثم طافت العساكر في المدينة ينهبون بيوت المماليك ويأخذون حريمهم وجواريهم وعلا الصياح

وفي اليوم التالي نزل الباشا من القلعة وطوسون معه وطاف المدينة يأمر الناس بايقاف النهب وقتل كل من حاول ذلك ولكنه حرض على قبض من يظفرون به من المماليك في سائر انحاء القطر فكانوا يأتون بهم افواجاً يسوقونهم كالغنم الى الذبح . فبلغ عدد من قتل من البكوات ٢٣ بيكاً . وفي اليوم التالي نزل طوسون باشا الى الاسواق في فرقة من الجند لتسكين القلوب وايقاف النهب . اما الجثث التي كانت في القلعة فاحتفروا لها حفراً جعلوا فوقها التراب وصرح محمد علي باشا بحماية نساء المماليك ولم يسمح بتزويجهن الا الى رجاله

عود الى الوهابيين

ولما خلت البلاد من المماليك عكف محمد علي على المهام الاخرى واخصها مسألة الوهابيين فكتب الى غالب شريف مكة يخبره باعداد حملة تنقذه من الوهابيين ففتح طريق الحرمين لجميع المسلمين وطلب اليه ان يمهد له السبيل . فاجابه شاكراً ووعد بالمساعدة

اما سعود امير الوهابيين فانبأته الجواسيس بما نواه محمد علي فأمر فاجتمع حوله خمسة عشر الفاً ليدفع بهم جنود مصر . اما حملة طوسون فركبت البحر من السويس حتى اتت ينبع على الساحل الشرقي من البحر الاحمر ومنها يتصل الى المدينة فتملكوا

ع وساروا منها الى صفر وفيها معسكر الوهابيين وقد تأهبوا للدفاع فهجم طوسون
ا فتقهقر سعود ورجاله اولاً ثم ارتدوا على الجيوش المصرية فانهزموا وتركوا
ؤنهم وذخائرهم وجمالهم وعادوا الى ينبع . فعلم محمد علي باشا بذلك فجند جنداً
ثيراً مدداً لابنه فاشتد ازر طوسون وجمع اليه القوتين وسار حتى اتى المدينة فاطلق
يها القنابل فهدم بعض السور ثم دخلها والتحن في حاميتها حتى سلمت فكف السيف
ها . فانتشر خبر افتتاح المدينة في سائر الحجاز فخاف الوهابيون وفرح اعداؤهم ولا
يما الشريف غالب . وقد كان في جدة لايدري ماذا يكون من امر تلك الحملة فلما علم
نصارها كاد يطير من الفرح

واجلى الوهابيون عن مكة خوفاً من اهلها فجاءها طوسون واحتلها وكتب الى
يه ففرح فرحاً لا مزيد عليه لما اتاه الله من النصر على يد ابنه نصراً لم يتأتَّ لغيره
ن القواد العثمانيين وجيء اليه بقائد حامية المدينة من الوهابيين فارسله في خفر الى
ثانة فقتلوه حال وصوله اليها . اما من بقي من دعاة الوهابيين فكانوا لا يزالون في
ن خارج مكة تحت قيادة كبيرهم سعود

فلما جاء صيف سنة ١٨١٣ (سنة ١٢٢٨ هـ) علموا ان جنود طوسون لا يحتملون
ر تلك البلاد وانهم اذا ناهضوهم اذ ذاك ربما تغلبوا عليهم فجندوا وساروا الى تربة
في مكة فحاربوها واستولوا عليها ثم ساروا الى المدينة وهددوها بعد ان استولوا على
ما بين هاتين المدينتين من القرى والمدن . فاتصل الخبر بمحمد علي فلم يرَ بدًّا من
به بنفسه لنصرة الجنود المصرية وقد اصبحت مصر في مأمن من المماليك وغيرهم
ر في جند عظيم حتى اتى جدة فنزلها في ٣٠ شعبان سنة ١٢٢٨ هـ (٢٨ اغسطس
ب) سنة ١٨١٣ م) فلاقاه الشيخ غالب شريف مكة ورحب به . وبعد ان ادى
وض الحج راى ان الشريف ليس ممن يعول عليهم في الدفاع فعمد الى خلعه
يفة تضمن حقن الدماء ففاز ثم وضع يده على ممتلكاته وبعث به وبعائلته الى
القاهرة ومنها الى سالونيك فعاش فيها اربع سنوات ومات

اما الوهابيون فمات قائدهم سعود في درعية في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٢٩ هـ
١٧ افريل (نيسان) سنة ١٨١٤ م) فانحطت سطوتهم فاقاموا عليهم ابنه عبد الله
لكن كفوءًا فحصلت بينه وبين الجنود المصرية مناوشات كثيرة لم تأت بنتيجة . وفي
محرم سنة ١٢٣٠ هـ (١٠ يناير (ك ٢) سنة ١٨١٥ م) حصلت معركة كبيرة
جنود محمد علي والوهابيين تحت قيادة فيصل اخي عبدالله شفت عن انتصار

المصريين فتقدم طوسون الى نجد الا انه اضطر اخيراً الى التوقف لقلة المؤن وهو لم يبلغ درعية

ثم اقتضت الاحوال عود محمد علي الى مصر فعاد وقد فتح طريق الحرمين ولكنه لم يبد جميع الوهابيين . فوصل القاهرة في ٤ رجب سنة ١٢٣٠ هـ فاهتم بتدريب الجند على نظام جند اوربا وهو اول من فعل ذلك في مصر فاصدر امراً عالياً في شعبان سنة ١٢٣٠ هـ مؤداه ان الجنود المصرية ستدرب على النظام الحديث وهو النظام الفرنساوي فعظم على الجهادية ولا سيما الارناؤط الامتثال الى هذه الاوامر فراى ان يدخل هذا النظام اولاً بين الجنود الوطنية لانهم اقرب الى الطاعة من هؤلاء الالبانيين ومن كان على شاكلتهم — وسنعود الى ذلك

وفي اثناء ذلك عاد طوسون باشا من الحجاز فخرج الناس لملاقاته بالاحتفال والاكرام ثم نزل الاسكندرية حيث كان ابوه مقيماً فوجد امراته قد وضعت في اثناء غيابه غلاماً دعته عباساً . وبعد يسير اصيب طوسون بألم شديد في راسه وحمى لم يعش بعدها الا قليلاً واختلفت الروايات في اسباب موته وكيفيته ومكانه ولكنهم اتفقوا ان موته كان شديد الوطأة على ابيه . ونقلت جثة طوسون باشا الى القاهرة ودفنت قرب مسجد الامام الشافعي وراء جبل المقطم حيث مدفن العائلة الخديوية اليوم

وبعد قليل عاد محمد علي الى روعه فاخذ يهتم في امر الوهابيين خشية ان يعودوا الى ما كانوا عليه فكتب الى عبدالله بن سعود ان يأتي اليه بالاموال التي استخرجها الوهابيون من الكعبة وان يتأهب متى قدم للسير الى الاستانة . فاجابه يعتذر عن الشخوص وقال «ان تلك الاموال قد تفرقت على عهد ابيه» وارسل له هدايا فاخرة فارجع اليه محمد علي تلك الهدايا واوسعه تهديداً . ثم جرد اليه حملة عهد قيادتها الى ابنه ابراهيم باشا وكان باسلاً مقداماً وقائداً مجرباً لا يهاب الموت شديد الغضب سريعه . ولكنه كان سليم القلب حرّ الضمير ولذلك كانت احكامه عادلة صارمة

وفي ١٠ شوال سنة ١٢٣١ هـ سار ابراهيم باشا بحملته من القاهرة في النيل الى قنا ومنها في الصحراء الى القصير على شاطىء البحر الاحمر ومنها بحراً الى ينبع ثم الى المدينة وتربص هناك بجميع قواته يستعد لهجوم شديد امتثالاً لمشورة ابيه . فالتف حوله عصبة جديدة من القبائل المتحابة ولما تكاملت قواته اقام الحرب سجالا وما زال بين هجوم ودفاع حتى فاز وقبض على زعيم الوهابيين عبد الله فاوصله الى ابيه فوصل القاهرة في ١٨ محرم سنة ١٢٣٣ هـ فاذن له بالمثول بين يدي الباشا وتقبيل يديه فرحب

به كثيرًا لانه كان يعجب بشجاعة الوهابيين . ثم سأله ماظنه بابراهيم فاجابه قائلا « انه قد قام بما عليه ونحن قمنا بما علينا وهكذا اراد الله » . وفي ٢٠ محرم ارسل الى الاستانة وطافوا به في اسواقها ثلاثة ايام ثم قتلوه . وخلع السلطان على ابراهيم باشا خلعة شرف مكافأة له وسماه والياً على مكة . فاتصلت هذه الاخبار

ش ٥٥ : ابراهيم باشا بلباسه العسكري

بدرعية تخاف اهلها فهدموا المدينة وفروا من وجه الموت فاحتلتها الجنود الظافرة وانتهى امر الوهابيين . اما محمد علي باشا فانه نال من انعام السلطان لقب خان مكافأة لاخلاصه وبسالته وهو لقب لم يمنح لاحد من وزراء الدولة الا حاكم القرم

٢ — فتح السودان

ولما انتهى هذا الرجل الخطير من حروبه في بلاد العرب فكر في فتح السودان على امل ان يلاقي فيها الكنوز الثمينة من مناجم الذهب بجوار البحر الازرق ناهيك بما هنالك من المحصولات والواردات العجيبة من الصمغ والريش والعاج والرقيق وغير ذلك . فجند خمسة آلاف من الجند النظامي وبعض العربان وثمانية مدافع وجعل الجميع تحت قيادة اسماعيل باشا احد اولاده . فسارت الحملة من القاهرة في شعبان عام

١٢٣٥ هـ (يونيو (حزيران) ١٨٢٠ م) في النيل فقطعت الشلال الاول فالثاني فالثالث حتى السادس فاتت شندي والمتمة وقد اخضعت كل ما مرت به من القرى والبلدان بدون مقاومة . ومن شندي سارت الى سنار على البحر الازرق وراء الخرطوم . ولم يكن من القبائل التي يعتد بها هناك الا الشائقية فقاوموا قليلاً ثم سلموا ودخلت سنار وكوردوفان في املاك مصر . فسار اسماعيل باشا في جنوده الى فزغل وهناك ظن نفسه اكتشف معادن الذهب . ثم فشا في رجاله الوباء فمات منهم كثيرون وانتهت نجدة من ثلاثة الاف رجل بقيادة صهره احمد بك الدفتردار فاشتد ازره فاقام صهره هذا على كردوفان وسار في جيش الى المتمة على البر الغربي من النيل ثم عدى الى شندي في البر الشرقي لجباية المال وجمع الرجال . فاستدعى اليه ملكها واسمه النمر وقال له « اريد منك ان تأتي الي قبل خمسة ايام بملء قاربي هذا من الذهب والفين من العساكر » فجعل ذلك الملك يستعطف اسماعيل باشا ليتنازل عن ذلك القدر فقبل منه اخيراً عوضاً عن الذهب مبلغ عشرين الف ريال من الفضة

فأجابه الى ما اراد ولكنه لم يكن يستطيع جمعها في تلك المدة فطلب اليه تطويل الاجل فضربه اسماعيل بالشبق (الغليون) على وجهه قائلاً « لا . ان كنت لاتدفع المال فوراً ليس لك غير الخازوق جزاء » . فسكت الملك النمر وقد اضمر له الشر وصمم على الانتقام فطيب خاطره ووعده باتمام ما يريد . وفي تلك الليلة جعل يرسل التبن الجاف احمالاً الى معسكر اسماعيل علفاً للجمال ولكنه اقامه حول المعسكر كانه يريد اشعاله . وفي المساء اتى الى اسماعيل في سرب من الاهلين ينفخون بالمزمار ويرقصون رقصة خاصة بهم . فطرب اسماعيل وضباطه لذلك ثم اخذ عدد المتفرجين من الوطنيين يتزايد شيئاً فشيئاً حتى اصبح كل اهل المدينة هناك . فلما تكامل العدد امرهم ملكهم بالهجوم فهجموا بغتة على اسماعيل ورجاله ثم داروا بالنيران على التبن فاشعلوه فمات اسماعيل باشا وكثيرون ممن كانوا معه بين قتل وحرق . وفي اليوم التالي اتموا على الباقين وساقوا سلبهم الى المدينة

فاتصل الخبر باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظاً واقسم انه لايقبل اقل من عشرين الف رأس انتقاماً لاسماعيل فنزل بجيشه القليل حتى انفذ قسمه فقتل ذلك العدد من الرجال متفننا في طرق قتلهم على اساليب مختلفة . فهدأت الاحوال بعد ذلك وهكذا تمّ افتتاح السودان . وما زال احمد بك الدفتردار على حكومة سنار وكردوفان الى عام ١٢٤٠هـ (عام ١٨٢٤ م) ثم ابدل برستم بك

٣ — حرب المورا

وفي عام ١٢٣٩ هـ ارسل محمد علي باشا بامر الباب العالي حملة مصرية تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا لمحاربة المورا في بلاد اليونان فسار وحارب واظهرت العمارة المصرية في تلك الحروب شجاعة الابطال ولولا اتحاد الدول مثنى وثلاث على الجنود العثمانية والمصرية لما قامت لليونان قائمة في تلك الحرب ولكننا نقول ان ابراهيم باشا عاد عود الظافرين بعد ان بذل في سبيل ذلك عشرين مليون فرنك وثلاثين الف مقاتل

٤ — فتح سوريا

ثم كانت حملة ابراهيم باشا على سوريا لافتتاح عكا لاسباب ترجع الى مطامع محمد علي في توسيع مملكته وانشاء دولة مستقلة . واما البواعث الظاهرة لتلك الحملة فهي ان الامير بشيراً الشهابي الكبير امير لبنان جاء مصر سنة ١٨٢١ يلتمس من محمد علي التوسط لدى الباب العالي في العفو عن عبد الله باشا والي عكا لان الدولة كانت تحب محمد علي باشا وتعد خاطره على اثر ما اوتيه من النصر في حرب الوهابيين بعد ان نجحت هي في قهرهم

وكان محمد علي باشا اذ ذاك في شاغل من امر الحرب في المورا وكانت الدولة قد بعثت اليه ان يجند جنداً لمحاربتها فلما جاءه الامير بشير مستنجداً طيب خاطره ووعده بالمساعدة وكتب الى الباب العالي بذلك واسكن الامير في بني سويف ريثما يرد الجواب وشدد في طلب العفو تشديداً كبيراً لانه كان راغباً في امتلاك قلب الامير ولسانه ليكون له عوناً في ما نواه من فتح الشام

ولبث الامير في مصر حتى وردت الاوامر بالعفو عن عبد الله باشا فحملها شاكراً بعد ان تداول مع محمد علي باشا سراً بشؤون كثيرة تعود الى مقاصد الباشا في بر الشام . وسار الامير من مصر الى عكا بكل اكرام مصحوباً بسلاحدار الباشا حاملاً الفرمان بالعفو فوصلوا عكا فسر عبد الله باشا بفوزه ولكن الجنود العثمانية . في الشام طلبت النفقات المعينة في مثل هذا الصلح ولم يكن عند عبد الله باشا نقود وكان الامير قد جاء بنحو نصف القدر اللازم من محمد علي فضرب عبد الله باشا الباقي على المقاطعات واخذ بعضها من الامير

وجرت حوادث كثيرة انتهت بالتباعد بين الامير وعبد الله باشا . وكان محمد علي لما جاءه الامير بشير بواسطة العفو عن عبد الله باشا اسر اليه عزمه على فتح الشام وطلب نصرته فوعده سراً ولبث ينتظر فرصة او حجة . وكان يظن ان صنعه

الجميل مع عبد الله باشا والامير يكفي لبلوغ امانيه ولكنه راى من عبد الله باشا اعوجاجاً عن غرضه . والغالب ان عبد الله كان طامعاً بمثل مطامع محمد علي فلما علم بما نواه هذا صار يحاذره

ش ٥٦ : الامير بشير الشهابي الكبير

وادرك محمد علي ذلك فعزم على اختباره والتعويل على تنفيذ مقاصده بالقوة فبعث الى الامير بشير ان يبعث اليه بجانب من الاخشاب التي يحتاج اليها في بناء المراكب . فباشر الامير اجابة طلبه فمنعه عبد الله باشا فشق ذلك على محمد علي واعتبره بظاهر الامر مخالفاً لاوامر الدولة العلية لان تلك المراكب انما هي للحكومة السنية فجرد لمقاصته حملة بقيادة ولده ابراهيم باشا .

جرد محمد علي باشا عام ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م) حملة في البر والبحر فارسل البيادة والطبجية عن طريق العريش برًّا وسار ابراهيم باشا في رجاله بحراً . اما حملة البر فاستولت على غزة ويافا بغير شديد مقاومة . ثم وصل ابراهيم باشا الى يافا وسار في جيشه الى عكا فوصلها في ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧ هـ فحاصرها برًّا وبحراً الى ٢٦ ذي القعدة منها فهجم عليها هجمة نهائية شفت عن تسليمها . ثم سار قاصداً دمشق فاخضعها ولم تدافع الا يسيراً وبرحها الى حمص حيث كانت تنتظره الجنود العثمانية تحت قيادة محمد باشا والي طرابلس فوصلها في ٨ يوليو (تموز) سنة ١٨٣٢ م وبعد الاخذ والرد استولى ابراهيم باشا على حمص فخافت سوريا سطوة هذا

القائد العظيم فسلمت له حلب وغيرها من مدن سوريا . فتغير وجه المسألة باعتبار الباب العالي فبعث حسين باشا السر عسكر بجيش عثماني لايقاف ابراهيم باشا عند حده فجاء وعسكر في اسكندرونة فلاقاه ابراهيم باشا وحاربه وانتصر عليه ولم يعد يلقى بعد ذلك مقاومة تستحق الذكر . ثم تقدم في اسيا الصغرى تاركاً طورس وراءه وكان الباب العالي قد ارسل رشيد باشا في جيش لملاقاته فجند ابراهيم باشا جنداً كبيراً من البلاد التي افتتحها وسار نحو الاستانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في دسمبر (ك ١) سنة ١٨٣٢ م في قونية جنوبي اسيا الصغرى فتقهقر رشيد باشا برجاله واخترق ابراهيم اسيا الصغرى حتى هدد الاستانة

فتوسطت الدول وفي مقدمتهن الدولة الروسية فانفذت الى مصر البرنس مورافيف لمخاطبة محمد علي باشا بذلك وتهديده فبعث الى ابراهيم باشا ان يتوقف عن المسير . ثم عقدت بمساعى الدول معاهدة من مقتضاها ان تكون سوريا قسماً من مملكة مصر وابراهيم باشا حاكماً عليها وجابياً لخراج ادنه . وقد تم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٨ (١٤ مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ م) وهو المدعو وفاق كوتاهيا . فعاد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير احكامها وجعل مقامه اولاً في انطاكية وابتنى فيها قصراً وقشلاقات وولى اسماعيل بك على حلب واحمد منكلي باشا على ادنه وطرسوس اما الاجراآت العسكرية فلم يكن يسوغ لاحد سواه ان يتولاها

وكان ابراهيم باشا سائراً بالاحكام بكل دراية وحكمة خشية سوء العقبى الا انه مع ذلك لم ينج من ثورة ظهرت في ضواحي السلط والكرك في اواخر سنة ١٢٤٩ هـ (منتصف عام ١٨٣٤ م) وامتدت الى اورشليم وبعد الاخذ والرد اضطر ابراهيم باشا الى المحاصرة في اورشليم لانها ذات اسوار منيعة ثم امتدت الثورة الى السامرة وجبال نابلس

وفي ١٦ يونيو (حزيران) منها هجم المسلمون على صفد وفيها جماهير من اليهود فهدموا منازلهم وقتلوا رجالهم وفتكوا بنسائهم واصبحت تلك المدينة في حوزتهم ثم اجروا مثل هذه التعديات على المسيحيين في الناصرة وبيت لحم واورشليم ولكنهم لم يتمكنوا مما تمكنوه بصفد . ويقال بالجملة ان سوريا اصبحت بسبب ذلك شعلة ثورية فاتصل الخبر بمحمد علي باشا فبرح الاسكندرية الى يافا فتقرب منه وجهاء البلاد وسراتها ثم عمدت الجيوش المصرية الى قمع الثائرين فنشئت العصاة الا النابلسيين فانهم قاوموا طويلاً لكنهم اذعنوا اخيراً . ثم هاجم المصريون السلط والكرك وهدموهما . وبعد

قليل عادت الثورة الى جبال النصيرية فاعترض اهلها فرقة من الجند كانت سائرة من اللاذقية الي حلب واعادوها الى حيث اتت . فارسل المصريون سبعة آلاف مقاتل اتحدوا بثمانية آلاف من الدروز والمارونيين بقيادة الامير خليل بن الامير بشير امير لبنان وسار الجميع الى النصيرية واخضعوهم . ثم سعى ابراهيم باشا في تجريد السوريين من السلاح خوفاً من عودهم الى الثورة ففعل لكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين . وكان الامير بشير وابراهيم باشا على وفاق تام كانهما خلقا ليتحدا

وبعد ان اتم ابراهيم باشا جمع سلاح السوريين بمساعدة الامير بشير هجم برجاله على اهالي الشوف والمتن من لبنان وجمعوا ما استطاعوا من الاسلحة وحملوا كل ما جمعوه منها الى عكا وكانوا يصطنعون منها نعالاً لخيولهم . فاستتبت الراحة في سوريا واذعنت البلاد . الا ان محمد علي باشا لم يقف عند هذا الحد فاحب استخدامها لتوسيع دائرة حكمه فجعل يجمع منها الرجال والخيل بطرق قهرية فغضب الباب العالي فعقد مجلساً في يناير سنة ١٨٣٩ للنظر في مقاصد المصريين فاقر المجلس على تجريد حملة من ثمانين الف مقاتل منهم خمسة وعشرون الفاً من الباشبوزق طبقاً لارادة السلطان محمود وان تسير تحت قيادة حافظ باشا لمحاربة المصريين

وكان محمد علي باشا قد سار الى السودان تاركاً القاهرة بقيادة حفيده عباس باشا . فلما عاد علم باعدادات الباب العالي فانذعر لها فكتب الى ابنه يستحثه فاخذ ابراهيم في الاستعداد للدفاع فحشد جيوشه في حلب لدفع الجنود العثمانية القادمة برًا . ثم علم ان معظم الاهلين راغبون في دولتهم الاصلية ومستعدون للتسليم وعلى الخصوص الدروز تحت قيادة شبلي العريان احد ابطالهم المعدودين . فحصلت مواقع شديدة بين الجيوش العثمانية والجيوش المصرية في نزيب انتهت بانهزام الاولى الى مرعش . وكان السلطان محمود قد ارسل عمارة بحرية لمحاربة المصريين فجاءت الاسكندرية فاصابها ما اصاب الحملة البرية ولكنه توفي قبل بلوغه خبر تلك الوقائع فخلفه السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩

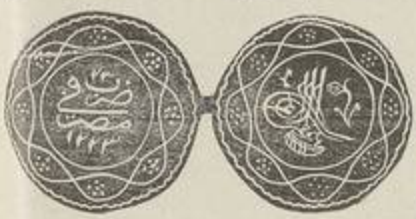

ش ٥٧ : نقود السلطان محمود الثاني

ثم توالت الحوادث الى ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٤٠ م فانعقدت معاهدة لندرا تقضي باعتبار محمد علي باشا من تابعي الدولة العثمانية . الاان ذلك لم يكن ليوقفه

عن مقاصده ولديه اذ ذاك نحو ١٤٦ الفاً من الجنود النظامية و ٢٢ الفاً من الباشبوزق منها ١٣٠ تحت قيادة ابنه ابراهيم في سوريا والباقون متفرقون في الحجاز وسنار وكريد ومصر . لكنه علم بعد ذلك ان هذه القوات قليلة في جانب ما يلزمه لاتمام مشروعه فجعل يضم اليها تلامذة المدارس حتى استخدم المرضى والجرحى . ثم عمد الى انشاء خفر وطني احتياطاً ولكنه لم ينجح به كل النجاح على انه مع ذلك لما عرضت عليه معاهدة لندرا لم يصادق عليها فعرض عليه ان يأخذ ولاية عكا ترضية له ويضمها الى مصر وينسحب من سوريا فرفض ايضاً

خروج ابراهيم باشا من سوريا

وبعد ذلك بيسير جاءت الجيوش الانكليزية الى صيدا وفر ابراهيم الى الجبل . وكان الكومودور نابيه قد سار في عمارة بحرية انكليزية لمحاصرة بيروت وكانت تحت قيادة سليمان باشا الفرنساوي وقد حصنها تحصيناً منيعاً ومعه فرقتان من الجند . ولكن لسوء الحظ جاءته الانباء ان ابراهيم قتل وتشتت رجاله فخاف سليمان وراى ان لا بد له من تأكيد حقيقة ذلك الخبر حتى اذا تحقق موت ابراهيم يضم اليه ما بقي من الجيوش المدافعة فبرح بيروت بعد ان جعل عليها صادق بك احد امير الايات الفرقتين . اما هذا فلما راى نفسه منفرداً في بيروت خاف وترك المدينة وفر فاستولى عليها الانكليز ثم اتصل به من سليمان ان ابراهيم باشا لا يزال حيا ويأمره بالثبات امام العدو ريثما يحضر . فخاف صادق بك الوقوع في شر اعماله فانضم الى الانكليز هو ورجاله . ثم سار نابيه من بيروت الى عكا وحاصرها ففر اسماعيل بك ومن فيها من الرجال وسلمت المدينة

ثم سار نابيه الى الاسكندرية بست سفن وعرض على محمد علي باشا الصلح فقبل وعقدوا معاهدة وقع عليها الطرفان ولما ارادوا تثبيتها مانعت الدول في ذلك وبقيت الامور على حالها حتى دارت المخابرات بين الباب العالي ومحمد علي باشا فأراد السلطان ارضاء محمد علي فاعطاه ان تكون ولاية مصر وراثية لنسله بشرط ان يكون لجلالة السلطان الحق المطلق ان يختار من عائلة محمد علي من يريد لتوليتها . فتردد محمد علي في بادىء الراي . ثم امر جيوشه ان تنسحب من سوريا وكان عددها عند ذهابها اليها مئة وثلاثين الفاً فلم يرجع منها الا خمسون الفاً وقد اخذ التعب منهم مأخذاً عظيماً فلم يبدأ من قبول انعام السلطان . فبعث الى الباب العالي بذلك فأرسل اليه خطاً شريفاً بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م بتثبيته على مصر مع حقوق الوراثة لاعقابه وان يكون لجلالة السلطان ان يختار منهم من يريد لهذا المنصب هذا نصه :

فرمان ولاية محمد علي على مصر

« راينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيد امانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالي . فطول اختباركم وما لكم من الدراية باحوال البلاد المسلمة ادارتها لكم من مدة مديدة لايتركان لنا ريباً بانكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة في ادارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهاني على حقوق جديدة من تعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم . فنقدرون في الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها وتجتهدون ببث هذه المزايا التي امتزتم بها في اولادكم . وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم في الحكومة المصرية المبينة حدودها في الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الاعظم ومنحناكم فضلاً عن ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتي بيانها :

« متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا الملوكية من اولادكم الذكور وتجري هذه الطريقة نفسها بحق اولاده وهلم جرًّا . واذا انقرضت ذريتكم الذكور لايكون لاولاد نسآء عائلتكم الذكور حق ايا كان في الولاية وارثها . ومن وقع عليه من اولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور الى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة . على ان حق التوارث الممنوح لوالي مصر لاينحه رتبة ولا لقباً اعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً في التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه . وجميع احكام خطنا الشريف الهمايوني الصادر عن كلخانة وكافة القوانين الادارية الجاري العمل بها او تلك التي سيجري العمل بموجبها في ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة او التي ستعقد في مستقبل الايام بين الباب العالي والدول المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها في ولاية مصر ايضاً . وكلما هو مفروض على المصريين من الاموال والضرائب يجري تحصيله باسمنا الملوكي . ولكي لايكون اهالي مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالي معرضين للعضار والاموال والضرائب غير القانونية يجب ان تنظم تلك الاموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها في سائر الممالك العثمانية وربع الايرادات الناتجة من الرسوم الجمركية ومن باقي الضرائب التي تتحصل في الديار المصرية يتحصل بتمامه ولايخصم منه شيء ويؤدي الى خزينة بابنا العالي العامرة والثلاث الارباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بنفقات التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالي وباثمان الغلال الملزمة مصر بتقديمها سنويا الى البلاد المقدسة مكة والمدينة . ويبقى هذا الخراج مستمرًّا دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة

خمس سنوات تبتدي من عام ١٢٥٧هـ اي من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ ومن الممكن ترتيب حالة اخرى بشأنهم في مستقبل الايام تكون اكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة ونوع الظروف التي ربما تجدُّ عليها . ولما كان من واجبات بابنا العالي الوقوف على مقدار الايردات السنوية والطرق المستعملة في تحصيل العشور وباقي الضرائب وكان الوقوف على هذه الاحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة في تلك الولاية لينظر في ذلك فيما بعد ويجري مايوافق ارادتنا السلطانية . ولما كان من اللزوم ان يعين بابنا العالي ترتيباً لسك النقود لما في ذلك من الاهمية بحيث لايعود يحدث فيها خلاف لامن جهة العيار ولا من جهة القيمة اقتضت ارادتي السنية ان تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهاني معادلة للنقود المضروبة في ضربخاناتنا العامرة بالاستانة سواء كان من قبيل عيارها او من قبيل هيئتها وطرزها

«ويكفي ان يكون لمصر في اوقات السلم ثمانية عشر الف نفر من الجند للمحافظة في داخلية مصر ولا يجوز ان تتعدى ولايتكم هذا العدد . ولكن حيث ان قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالي كسائر قوات المملكة العثمانية فيسوغ ان يزاد هذا العدد في زمن الحرب بما يرى موافقاً في ذلك الحين . على انه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة في كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد ان تخدم الجند مدة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة . فهذه القاعدة يجب اتباعها ايضا في مصر بحيث ينتخب من العساكر الجديدة الموجودة في الخدمة حالاً عشرون الف رجل ليبتدئوا الخدمة فيحفظ منها ثمانية عشر الفاً في مصر وترسل الالفان لها لاداء مدة خدمتهم . وحيث ان خمس العشرين الف رجل واجب استبدالهم سنوياً فيؤخذ سنوياً من مصر اربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة بشرط ان تستعمل في ذلك مواجب الانسانية والنزاهة والسرعة اللازمة فيبقى في مصر ثلاثة آلاف وستماية من الجنود الجديدة والاربعماية يرسلون الى هنا ومن اتم مدة خدمته من الجنود المرسلة الى هذا الطرف ومن الجنود الباقية في مصر يرجعون الى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية . ومع كون مناخ مصر ربما يستلزم اقمشة خلاف الاقمشة المستعملة بملبوسات العساكر فلا بأس من ذلك فقط يجب ان لاتختلف هيئة الملابس والعلامات التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقي الجنود العثمانية . وكذا ملابس الضابطان وعلامات امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب ان تكون مماثلة لملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا . وللحكومة المصرية ان

تعين ضباطاً برية وبحرية حتى رتبة الملازم اما ماكان اعلى من هذه الرتبة فالتعيين اليها راجع لارادتنا الشاهانية . ولا يسوغ لوالي مصر ان ينشيء من الآن فصاعداً سفنا حربية الا باذننا الخصوصي . وحيث ان الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة اعلاه ففي عدم تنفيذ احد هذه الشروط موجب لابطال هذا الامتياز والغائه للحال . وبناء على ذلك قد اصدرنا خطنا هـذا الشريف الملوكي كي تقدروا انتم واولادكم قدر احساننا الشاهاني فتعتنوا كل الاعتناء باتمام الشروط المقررة فيه وتحموا اهالي مصر من كل فعل اكراهي وتكفلوا امنيتهم وسعادتهم مع التحذر من مخالفة اوامرنا الملوكية واخبار بابنا العالي عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لـكم » اه

فرمان ولايته على السودان

ثم صدر فرمان آخر يثبت ولايته على النوبة ودارفور وكردوفان وسنار هذا نصه :

« ان سدتنا الملوكية كما توضح في فرماننا السلطاني السابق قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة . وقد قلدتكم فضلاً عن ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة والدارفور وكوردوفان وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث . فبقوة الاختبار والحكمة التي امتزتم بهما تقومون بادارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الاسباب الآيلة لسعادة الاهلين وترسلون في كل سنة قائمة الى بابنا العالي حاوية بيان الايرادات السنوية جميعها . وحيث انه يحدث من وقت لآخر ان تهجم الجنود على قرايا المقاطعات المذكورة فياسرون الفتيان من ذكور واناث ويبقونهم في قبضة يديهم لقاء رواتبهم وحيث ان هذه الامور مما تفضي معها الحال ليس فقط لانقراض اهالي تلك البلاد وخرابها بل انها امور مخالفة للشريعة الحقة المقدسة وكلا هاتين الحالتين ليست اقل فظاعة من امر آخر كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقوموا بحراسة الحريم ذلك مما ليس ينطبق على ارادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمباديء العدل والانسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المأنوس على عرش السلطنة السنية . فعليكم مداركة هذه الامور بما ينبغي من الاعتناء لمنع حدوثها في المستقبل ولا يبرح عن بالكم ان فيما عدا بعض اشخاص توجهوا الى مصر على اسطولنا الملوكي قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وسائر المأمورين الموجودين في مصر . نعم بموجب فرماننا السلطاني السابق ان تسمية الضابطان المصرية لما فوق رتبة المعاون تستلزم العرض عنها لاعتابنا الملوكية الا

انه لا بأس من ارسال بيان باسماء من رقيتم من ضباط جنودكم الى بابنا العالي كي ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم في رتبهم. هذا ما نطقت به ارادتنا السامية فعليكم الاسراع في الاجراء على مقتضاها » اه

فاصبحت حكومته بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان . وبمقتضى ذلك تنازل محمد علي باشا عن عشرة آلاف من جنود سوريا فلم يبقَ عنده الا ثمانية عشر الفاً بين مشاة وفرسان وغيرهم . فاضطر اذ ذاك الى الاقتصاد لاصلاح مالية البلاد فاوقف كثيرًا من المدارس العمومية التي كان قد خصص مبالغ معلومة للنفقة عليها ومن ضمنها مدرسة شبرا الزراعية وابدل الاساتذة الاوروباويين بما بقي من المدارس باساتذة اتراك او وطنيين وسار من ذلك الحين في خطة الاصلاح قانعاً بما قسم له من البلدان فعمل على ارضاء جلالة السلطان فانفذ الى جلالته ابنهُ سعيد باشا لتقديم فروض العبودية

اواخر ايامه

ثم اصيب ابراهيم باشا بانحراف في صحته فسار الى اوربا لقضاء فصل الصيف سنة ١٨٤٥ فاصاب ترحابا عظيماً في سائر الممالك الاوربية ولا سيما في فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في اواخر صيف عام ١٨٤٦ م وكان والده قد توجه قبل وصوله بيسير الى الاستانة بدعوة رسمية ليقدم عبوديته لجلالة السلطان فوصلها في ١٩ يوليو (تموز) عام ١٨٤٦ م ونزل في سراي رضا باشا ثم تشرف بالمثول بين يدي جلالة السلطان فرحب به . ولما اراد تقبيل الاعتاب الشاهانية امسكه جلالته واجلسه بجانبه ومكث ساعة يتحادثان . ثم انصرف شاكراً وزار عدوَّهُ القديم خسرو باشا وتصافيا . وفي ١٧ اوغسطس من تلك السنة برح الاستانة قاصداً قواله مسقط راسه فاقام فيها عدة ابنية لتعليم الفقراء واعانة الضعفاء والمساكين ثم برحها الى الاسكندرية فقوبل بالانوار وسار منها الى القاهرة فتقاطر اليه المهنئون من الاصدقاء افواجاً فكان يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تتلألأ كالشمس

وفي منتصف عام ١٨٤٨ توعك مزاج محمد علي باشا وازدادت فيه ظواهر الخرف فلم يعد ثم بدَّ من تولية ابراهيم باشا فتوجه هذا الى الاستانة في اوغسطس من تلك السنة لاجل تثبيته على ولاية مصر خلفاً لابيه فثبته السلطان بنفسه فعاد لمعاطاة الاحكام . ثم راجعه العياء واشتد عليه بغتة ففارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨ م وبعد وفاته باحدى عشرة ساعة دفن في مدفن العائلة الخديوية بجوار

الامام الشافعي بالقاهرة

وكان عباس باشا غائباً في مكة فاستقدم حالا لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ دسمبر بعد ان قضى فروض الحج ولم يكن ثم اعتراض على توليته فجاء الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذناً بذلك فتولى الامور

كل ذلك ومحمد علي باشا في الاسكندرية وقد اخذ منه المرض مأخذاً عظيماً ومازال يهزل جسداً وعقلا الى ٢ اوغسطس عام ١٨٤٩ م فتوفي ولم يستغرب الناس وفاته لانه مكث في حالة النزاع مدة طويلة . وفي ٣ منه تقاطر الناس من الاعيان والقناصل الى سراي راس التين في الاسكندرية لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم . فاذا هو في قاعة الاستقبال في تابوت تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن الكريم وعلى راسه طربوشه الجهادي احمر تونسي وحوله العلماء في الملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام التجويد . وكان سعيد باشا اكبر من وجد في الاسكندرية من عائلة الفقيد فكانت توجه نحوه خطابات التعزية . ونقلت جثة الفقيد ودفنت في جامعه في القلعة ولا تزال هناك الى الآن

اصلاحاته

استولى محمد علي على مصر وهي في معظم الخراب والفساد سياسيًا وتجاريًا وزراعيًا وادبيًا فاخذ على نفسه اصلاح شؤونها وبذل في ذلك من الجهد والعناية ما ليس وراءه غاية وقد فاز بما اراد فاحيا الديار المصرية وانعشها وانماها من سائر الوجوه حتى اصبحت تجاري ممالك اوروبا ولذلك لقبه كتاب عصره بموجد الديار المصرية يريدون انه اوجدها من العدم وهذه اهم اصلاحاته :

١ ــ الاصلاح الاداري

واول شيء باشره من الاصلاح مسح الاراضين والانتفاع بزرعها وتوزيعها . وتفصيل ذلك ان الديار المصرية كانت منقسمة من حيث ملكها الى قسمين احدهما الاراضون التي كاد يكون لواضع اليد عليها الحق في ملكها ملكاً مطلقاً وكانت معفاة من الضرائب والقسم الثاني التي لم يكن لزارعها الا حق التمتع بريعها وهي الارض التي كانت عليها الضريبة الخراجية . اما نفس العقار في هذين القسمين فكان ملك بيت المال او الحكومة او السلطان

هذا كان شأن الاراضين المصرية قبل الفتح العثماني وبعده الى القرن السابع عشر

حينما استأثر الامراء المماليك بالقوة والسلطة واختل نظام الاراضين وصار الناس يهاجرون واهملت الاشغال العمومية وقل ريع الارض فاصبحت الحكومة في عجز كلي عن استحصال النقود فالتجأت الى تلزيم الخراج — وذلك ان الحكام كانوا يضمنون خراج النواحي والبلاد لاناس وكان ذلك الضمان او الالتزام يقرَّر اما بالمزايدة او بالاتفاق بين الملتزم من جهة والرزنامة بالنيابة عن الحكومة من جهة اخرى . حتى اذا تم الامر اعطت الرزنامة للملتزم تقسيطاً اي عقد تلزيم يصدق عليه شيخ البلد وهو كبير امراء المماليك

فاذا دفع الملتزم الضريبة يعطى له حق التصرف في تحصيل المال الذي عجله وعلى فوائده التي كان يقرر سعرها هو بنفسه كما يريد . وكانت الحكومة تتعهد بمساعدته في التحصيل وتجعل له في مقابل ما ينفقه ويكابده في ذلك التحصيل بقاعاً غير التي التزمها بعفاة من كل ضريبة تعرف بالاواسي . اما الفلاحون فلم يكونوا يملكون ارضاً قط على ان الملتزمين انفسهم كانت تنزع منهم الالتزامات اذا تصدى لهم من كان اكثر صولة منهم واشد بطشاً . ولا يخفى ما كان ينجم عن هذا التصرف من الاختلال وضياع الحقوق والاتعاب

فلما استقام الامر لمحمد علي باشا امر بمسح كل ارض مصر المزروعة ثم قسمها الى مديريات والمديريات الى مراكز او اقسام وهذه الى نواحي وعين فيها من يقوم بادارة امورها وآخرين لجباية الضرائب وابطل الالتزامات جملة ووزع ارض كل ناحية بين اهل تلك الناحية نفسها بحيث يصيب كل فلاح قادر على الشغل جانب من الارض يقدر جانب الآخر فيبلغ نصيب كل فلاح ثلاثة افدنة وبعضهم اربعة او خمسة وجعل لمشائخ البلاد جانباً من الارض اعفاه من الضريبة في مقابل نفقات ضيافة جباة الاموال الاميرية الذين كانوا يمرون في بلادهم وما كانت الحكومة تكلفهم به من المهام وسمى تلك العطايا مسموح المشائخ او مسموح المسبطة وهي تقابل الاواسي المتقدم ذكرها

ثم رأى رحمه الله ان الفلاح لا يستطيع من نفسه امراً يكمل اخراجه مما هو فيه من الضيق الذي تراكم عليه بمرور الاجيال وكان قد انتهى من اعماله الحربية ولم يعد ثم حاجة الى بقاء ضباط الجهادية منقطعين الى وظائفهم العسكرية مع رواتبهم الجارية عليهم في حالة السلم وان ليس من التدبير والحكمة ان يتناولوا معيناتهم وهم عطل من الاعمال . ورأى من الجهة الثانية ان الفلاح يحتاج الى مرشد يهديه الى الطرق اللازمة لاستقامة امره ووازع يدفعه الى النهوض بواجباته . وعلم ايضاً ان المرء مهما

كان صادقاً في خدمة الحكومة يشتغل لنفسه اكثر مما يشتغل لغيره فارتأى ان يعهد بأمر البلاد من حيث الزراعة الى أولئك الضباط ففوض اليهم تعميرها واصلاحها بأنفسهم ولم يحرم الفلاح مع ذلك من ثمرة اتعابه بل جعل لهذه الطريقة التي اعتمدها اصولاً وقوانين تقضي بأن لا تعطى الاطيان للمتعهد ما دامت رائجة ومقتدرة على اداء ما عليها من الاموال في اوقاتها . اما الاطيان غير الرائجة فتحال الى عهدته باختيار اربابها وهو يتعهد باداء المال المطلوب للحكومة وبهذه الواسطة نشطت الزراعة وتحسنت تحسناً عظيماً وما زالت تلك الارضين في يد المتعهدين الى ايام المغفور له عباس باشا وهو الذي استردها

مساحة الارض الزراعية في ايامه

كانت الارض الزراعية في عهد المماليك لا تزيد على مليون فدان وبعض المليون فلما تولى محمد علي مسحها سنة ١٨١٣ واعطاها الى الفلاحين كما تقدم واخذت مساحة مايزرع منها يزداد حتى بلغت سنة ١٨٢١ نحو مليوني فدان متفرقة في المديريات على هذه الصورة نقلا عن فيلكس منجن في كتابه المنشور سنة ١٨٢٣

فدان	
١٥٠ ١٩٤	منوف
٢٢٥ ٩٦٠	غربية
١٠٠ ٧٩٢	البحيرة
١٦١ ٢٠٤	الشرقية
١٥٥ ٨٦٠	المنصورة (الدقهلية)
٨٠ ٠٠٠	القليوبية
٨٥ ٩٠٠	الجيزة
٧٠ ٢٠٠	الفيوم
٥٥ ٠٠٠	الاطفيحية
١٦٦ ٤٦٠	بني سويف
١٤٨ ٣٤٠	المنيا
١٧٨ ٥٨٤	اسيوط
١٩٠ ٤٠٠	جرجا
١٤٣ ٩٩٠	اسنا
١ ٩٦٦ ٨٤٠	الجملة

ثم اخذت مساحة الارض الزراعية تتسع تدريجاً بالاسباب التي اتخذها محمد علي من تحريض الناس على الزراعة وتسهيل الري حتى بلغ ما احتفره من الترع نحو اربعين ترعة بين كبيرة وصغيرة مجموع مكعبها جميعاً ١٠٤ ٣٦٦ ٦٦٧ متراً مكعباً ناهيك بما بذله من العناية في انشاء الجسور والقناطر والسدود وغيرها . فلا عجب اذا بلغت مساحة الاطيان المزروعة التي كانت تأخذ عليها الحكومة الاموال حوالي سنة ١٨٤٠ ضعفي

ما كانت عليه قبل بضع عشرة سنة واليك تفصيل ذلك عن كتاب الدكتور كلوت بك :

فدان		فدان
٣٠٠٠٠٠	منوف	١٢٤٠٠٠ الفيوم
٤٥٠٠٠٠	الغربية	١٤٨٢٠٠ بني مزار
٢٤٥٠٠٠	البحيرة	١٣٩٤٠٠ بني سويف
٣٦٠٠٠٠	الشرقية	١٥٢٨٠٠ المنيا
٣٢٠٠٠٠	المنصورة	١٦١٠٠٠ الفشن
٢٩٠٠٠٠	القليوبية	٨٤٦٨٢٦ اسيوط وجرجا واسنا
٢٥٤٠٠٠	الجيزة	٣٧٩١٢٢٦ (الجملة)

وبمقابلة مساحة اطيان كل مديرية على حدة بين ما كانت عليه سنة ١٨٢١ وما صارت اليه سنة ١٨٤٠ يتضح لك مقدار ذلك النجاح

ومن اعماله الادارية انشاء الدواوين ومنها ديوان المعاونة وفائدته النظر في ما يعرض من الدواوين الاخرى والمديريات وسائر الجهات . ثم الديوان الخديوي وكان يقوم باشغال ديواني الداخلية والخارجية والضابطة . ثم ديوان الاشغال وديوان المبيعات وديوان الفردة ثم انشأ بعد ذلك ديوان الخارجية خاصة وديوان العسكرية ثم الخزانة العالية وما يتعلق بها وديوان الاوقاف وديوان المعامل وديوان التفتيش والحقانية والترسخانة والابنية وديوان المدارس . وجميع ذلك او معظمه عهد بادارة اعماله الى مديرين ورؤساء من ابناء هذا القطر وكلها ترجع باحكامها الى ديوان المعاونة

ثم أنشأ مجالس للقضاء وما يقتضي لها من القوانين والاحكام ورتب البريد يحمل على يد السعاة برًا وبالسفن بحراً . وانشأ ما يقوم مقام التلغراف الآن من الاشارات بواسطة ابنية مرتفعة ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة بين البناء والآخر مسافة تكفي لفهم الاشارة لا يزال بعضها منها قائماً اثراً لهمة ذلك الرجل

وانشأ لتأييد السلم وتوطيد الامن فرقة الضابطة وفرقهم في انحاء البلاد فأمن الناس غائلات السبل ولا سيما الاوربيون فانهم كانوا يقاسون في اثناء تجوالهم في القطر اهانات ومشاق جسيمة فاصبحت السبل في مأمن وتسهلت الصلات التجارية على الخصوص بين انكلترا والهند على طريق البحر الاحمر فاستعاضوا بها عن طريق راس الرجاء الصالح في امور كثيرة

٢ ــ الاصلاح الزراعي

ولم تقف اصلاحاته عند هذا الحد ولكنه رأى خصب التربة المصرية وامكان استخدامها لغير انواع المزروعات المعروفة بمصر فجاء اليها بالقطن البذار (التقاوي) الاميركي وجاء بنبات النيلة من جهات الهند وبنبات الافيون من اسيا الصغرى. وجاء بغير ذلك من انواع المغروسات المفيدة وجاء باناس عالمين بكيفية زراعتها واستغلالها. واكثر من غرس الحدائق والاشجار في القاهرة وضواحيها تلطيفاً لحرارة الهواء واستزادة للغيث ــ من جملة ذلك مغارس الليمون في شبرا والحدائق في الروضة وحديقة الازبكية فقد كان في مكانها قبل ايامه بركة كبيرة يتصل اليها الماء من النيل ايام فيضانه وكان الناس يأتون اليها في المواسم والاعياد في قوارب عليها الانوار وسائر الزخارف فاحتفر محمد علي حولها ترعة ينصرف اليها الماء فظهرت ارض البركة فجعل حول هذه الترعة صفوفاً من الاشجار تحيط ببقعة كلها غرس طيب. اما الحديقة التي نراها الآن فهي من آثار الخديوي الاسبق اسماعيل باشا

ومن آثاره الزراعية السدود التي اقامها في ابي قير وترعة الفرعونية واشتوم الديبة واشتوم الجميل وغيرها. وانشأ كثيراً من الجسور والترع ونظر في تطهيرها وانشأ الترع الصيفية لانماء الزراعة الصيفية وابدل الخول بالهندسين في اعمال الري وبعث كثيراً من ابناء البلاد الى اوروبا لدرس فن الزراعة واتقانه ليخدموا بلادهم به

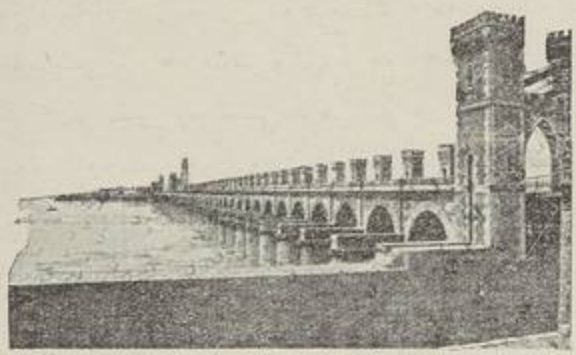

ش ٥٨ : القناطر الخيرية

ومن مشروعاته الخطيرة من هذا القبيل القناطر الخيرية القائمة عند رأس الدلتا والسبب في بنائها انه راى النيل لما يصل الى راس الدلتا ينفصل الى فرعين هما فرعا

رشيد ودمياط او الفرع الغربي والشرقي وراى ان الغربي اكبرهما ويمرُّ في بقاع معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب كثير من مائه هدراً والشرقي يخترق ارضين واسعة الارجاء حسنة التربة فاذا كانت ايام التحاريق لا يبقى من مائه ما يكفي للري فاراد اتخاذ وسيلة ينتفع بها بما يزيد من ماء الفرع الغربي باضافته الى الشرقي . وراى الصعيد في زمن التحاريق يشح فيه الماء لارتفاع ارضه وقد لا يرتوي جيداً الا في زمن

ش ٥٩ : لينان باشا مهندس القناطر الخيرية

الفيضان فاقرَّ على بناء قناطر على عرض الفرعين عند اول تفرعهما عند راس الدلتا وان يجعل لهذه القناطر ابواباً من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء فاذا اقفل قناطر هذا الفرع انصرف جانب من الماء المنحدر اليه الى الفرع الآخر فيستطيع صرف الماء كيف شاء واذا كان الفيضان قليلاً يقفل قناطر الفرعين جملة فيرتفع الماء في الصعيد فيروي ارضيه ثم لا ينصرف منه الا ما يلزم لري الوجه البحري فاذا كانت ايام التحاريق تفتح القناطر فتفيض المياه والارض في حاجة اليها

فباشر هذا العمل الخطير ولم يضع الحجر الاول منه الا عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥م) ولم ينثن عن عزمه حتى اتم بناءه بدراية لينان باشا المهندس الفرنساوي . غير ان ذلك المشروع لم يأت بالفائدة المطلوبة تماماً بما يتعلق بارتفاع الماء في الصعيد ولكن الحكومة جعلت همها في السنين الاخيرة اصلاح ما هو فاسد منها وسد ما فيه من الخلل

٣ ــ الاصلاح العسكري

كانت القوة العسكرية في مصر لما تولاها محمد علي اخلاطاً من الالبانيين (الارناؤوط) والدلاة (المغاربة) والانكشارية ومن جرى مجراهم ونظامهم الحربي النظام القديم الذي كان متبعاً في الازمنة السالفة عند الدولة العلية قبل القرن الماضي. فراى رحمه الله ان يدربهم على النظام الفرنساوي الذي اتبعه بونابرت في غزواته واخذته عنه دول اوربا. فحاول ذلك مراراً فعظم على رجاله ولا سيما الارناؤوط وعصوا اوامره فيه لانهم اعتبروا ذلك بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. ولما الحّ عليهم ثاروا وتجمهروا الى القلعة يطلبون الرفق بهم فراى من الدراية والحزم ان يعاملهم بالحسنى فاجابهم الى ما ارادوا واخذ يدخل ذلك النظام رويداً رويداً بالحيلة فانتخب فتياناً كان قد قبض عليهم في جملة ماقبضه من اموال المماليك الذين ذبحهم وكان قد جعل اولئك الفتيان من حراسه واستبقى صغارهم في القلعة يتربون فيها على جاري العادة من تربية الغلمان المماليك في ذلك العهد استعداداً للخدمة العسكرية اوغيرها. فكانوا يحفظونهم القرآن ويعلمونهم الخط واللغة التركية والرياضة البدنية

فلما عزم على تنظيم الجند انتخب اكبر اولئك المماليك وارسلهم الى الصعيد يتعلمون النظام العسكري الحديث على اساتذة من الافرنج. وعلم ان هؤلاء التلاميذ لايلبثون ان يصيروا جنداً فتفرغ اماكنهم من تلك المدرسة فانشأ في قصر العيني بمصر القديمة سنة ١٨٢٥ مدرسة اعدادية سماها المدرسة التجهيزية الحربية ادخل فيها نحو ٥٠٠ غلام بعضهم من صغار المماليك والبعض الآخر من ابناء الاتراك والاكراد والالبانيين والارمن واليونان وغيرهم ممن كانوا في خدمته وليس فيهم وطني. فكانوا يعلمونهم القرآن والنحو وآداب اللغة التركية والفارسية والعربية واما لغة التعليم فهي التركية. ونظراً لانهم ينوون ادخالهم المدرسة الحربية فكانوا يعلمونهم مبادىء الحساب والهندسة والجبر والرسم واللغة الايطالية لان اكثر اساتذة المدرسة الحربية كانوا يومئذ من الايطاليين

واستبطأ محمد علي ثمار هذه المدرسة لرغبته في سرعة تنظيم الجند فاوفد جماعة من اولئك المماليك الى ليفورن وميلان وفلورنسا ورومية لدرس الحركات العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها من الفنون الحربية ــ اشار عليه بذلك الاساتذة الايطاليان. ثم ارسل غلماناً آخرين الى انكلترا لدرس الميكانيكيات وسلك الابحر ونواميس السائلات. ولما تحقق فوزه بتنظيم الجند احسّ بحاجته الى مدرسة طبية تخرج الاطباء

لمعالجة الجند فانشأها سنة ١٨٢٥ واختار تلامذتها من الوطنيين ابناء الارياف او تلامذة الازهر خلافاً للمدرستين التجهيزية والحربية وسيأتي ذكرها

وتعجيلاً لثمار سعيه في اعداد الجند المنظم واطبائه اوفد سنة ١٨٢٦ اربعين من تلامذة المدرستين التجهيزية والطبية الى فرنسا لاتقان الفنون الحربية والطب والادارة الملكية والعسكرية وغير ذلك مما يحتاج اليه في ادارة حكومته ويفتقر فيه الى استخدام الافرنج لاقتصار الوطنيين الى ذلك الحين على درس العلوم الازهرية وهي يومئذ قاصرة على العلوم الدينية واللسانية وانشأ مدرسة للطبجية وجعل في القاهرة معامل لسكب المدافع واصطناع سائر حاجيات الجند

والفضل في تدريب الجند على النظام الجديد راجع لقائد من قواد الفرنساويين اسمه الجنرال « سيف » ولكنه اسلم ودعى نفسه سليمان باشا وقد خدم الحكومة المصرية خدمات صادقة في حروبها ببر الشام وغيرها

ش ٦٠ : سليمان باشا الفرنساوي

واصله من ليون في فرنسا ولد سنة ١٧٨٧ وسمي يوسف سيف وكان ابوه متوسط الحال يتعاطى الصناعة فلما بلغ يوسف اشده اراد والده ان يستعين به في اعماله ولكن

الغلام كان يشعر بانه ارفع من ذلك المكان فضلاً عن ميله الفطري الى التنقل فلم يستطع المواظبة فشق ذلك على ابيه فتوعده اذا لم يثابر على العمل بان يدخله في سلك الملاحة عقاباً له فكان ذلك موجباً لسروره فادخله في مهنة البحرية سنة ١٧٩٩ وهو لم يتم السنة الثالثة عشرة من عمره فاعجبه جوب البحار وركوب الاخطار في سفن كانت الى ذلك العهد تسير بلا بخار. حتى كانت حروب ترافلغار سنة ١٨٠٥ بين الاسطول الانكليزي بقيادة الاميرال نلسون الشهير والاساطيل المتحدة لدول فرنسا واسبانيا تحت قيادة الاميرال فيلينوف واميرالين اسبانيين وكان الفوز للانكليز لكن صاحب الترجمة اظهر على صغر سنه اعمالاً تدل على استعداده للشؤون الحربية . وكان المنتظر ان ينال في مقابل ذلك مكافأة تستحق الذكر فاتفق انه تخاصم واحد رؤسائه وكان سيف عنيفاً خشناً فجرتهما المعاتبة الى المضاربة فبدا الضابط فضرب سيف ضربة جرحته فلم يستطع صبراً على ذلك فهم بالضابط وما زال يضربه حتى قيل كفى فقبض عليه فحوكم فحكم عليه بالاعدام وهو حكم عسكري لامرد له

ولكن العناية سخرت له رجلاً من الاشراف اسمه الكونت بول دي سيغور يقال ان سيف كان قد انقذه من الموت مرة فذكر له هذا الجميل فلما علم بالحكم عليه توسط في امره فانقذه وارسله الى الجيش الفرنساوي الذي كان اذ ذاك في ايطاليا

ولما شبت الحرب بين فرنسا والنمسا كان سيف في جملة الاسرى عند النمساويين وبقي مغترباً عامين حتى اذا كانت حملة نابوليون الشهيرة على روسيا سنة ١٨٠٢ فكان سيف في جملة جندها واظهر في اثناء وقائعها الهائلة بسالة اوجبت التفات نابوليون الخصوصي حتى اراد ان يقلده نشان اللجيون دونور فدعاه اليه بهذا الشأن فآنس منه استخفافاً فحنق عليه وحرمه من ذلك الشرف. على انه ما لبث ان رقي في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونيل (اميرالاي) بعد رجوع تلك الحملة السيئة الحظ

ثم كانت الوقائع المشهورة التي قضت على رجل فرنسا (نابليون) بالاسر والنفي فقضي على الكولونيل سيف بالخروج من الجندية والانقطاع الى التجارة التماساً للتعيش ولكن انى للجندي المحارب ان يساوم امراة او غلاماً على مبيع سلعة فيمج صوته قبل اتمام المبايعة وخصوصاً صاحب الترجمة فقد كان قليل الصبر على مثل ذلك فأنفت نفسه التجارة ولم يفلح فيها . وسمع في اثناء ذلك ان شاه العجم في حاجة الى ضباط حاذقين في تدريب الجند فكتب الى صديقه الكونت دي سيغور المتقدم ذكره يلتمس كتاب توصية منه الى الشاه فنصح له الكونت ان يتوجه الى محمد علي باشا بمصر

فجاء مصر سنة ١٨١٩ ومعه كتاب توصية فاحسن محمد علي باشا مقابلته وكلفه بالبحث في جهات السودان عن معادن فحم الحجر ولكنه لم يعثر على شيء منه فعاد الى القاهرة واتفق وصوله اليها يوم الاحتفال بغلبة الجنود المصرية على الوهابية

وكان محمد علي قد شاهد الجنود الفرنساوية بمصر واعجبه نظامها وكانت الجنود المصرية عبارة عن فرق اووجاقات وفيهم الارناؤوط والانكشارية والمغاربة ونحوهم ولكل من هذه الفرق قائد فاذا نزلوا ساحة الوغى ركب كل جواده واستل حسامه أو بندقيته ورمحه وهجم على مايتراءى له

ففاوض محمد علي الكولونيل سيف في تنظيم الجند فرغبه فيه فعهد اليه تأليف الجند على هذه الصورة وتدريبه على الحركات العسكرية . وقد حارب سليمان باشا تحت علم الحكومة المصرية في المورة وسوريا وغيرهما وتوفي بمصر سنة ١٨٦٠

وبنى محمد علي في الاسكندرية ترسانة اتى اليها بالسفن والدوارع من مرسيليا والبندقية واقام فيها مدرسة جاء اليها بالاساتذة من فرنسا وانكلترا وبنى حول الاسكندرية حصناً منيعاً وحصوناً اخرى في اماكن اخرى

٤ ــ الاصلاح التجاري

ولما اصلح الزراعة وكثرت حاصلات البلاد وجه التفاته الى تنشيط التجارة فأراد انشاء مينا امين تأوي اليه السفن التجارية فلم تعجبه رشيد ولا دمياط لخشونة مرساهما فاختار الاسكندرية فاحتفر ترعتها الموصلة بينها وبين النيل ودعاها ترعة المحمودية نسبة الى السلطان محمود الثاني فكثر نقل البضائع فيها بين الاسكندرية وداخل القطر فكسبت الاسكندرية بذلك اهمية كبرى وتقاطر اليها التجار من اماكن مختلفة من اوروبا وغيرها واقيمت فيها البنايات الكبيرة على النمط الافرنجي ووجدت فيها الفنادق والنزل للغرباء . واصلح مرفأ بولاق وغيره ووسع للاجانب في الاستيطان والاتجار فاتسعت التجاره وكثرت العلائق وعاد كل ذلك بالنفع الجزيل . وتوطيداً لاعماله هذه انشأ مجلساً تجارياً مؤلفاً من الوطنيين والاجانب للحكم في القضايا التجارية

حاصلات البلاد

قد رايت ان محمد علي عهد بالاطيان المهملة الى رجاله ليزرعوها ويستغلوها فاشتغل هو في تصريف حاصلاتها فاحتكر غلات هذا القطر ومصنوعاته وتولى بيعها راساً للتجار السوريين والافرنج واليونان والارمن . وكان يلاحظ سعر السوق ويهتم به مثل اهتمام سائر التجار في الاسعار . وكثيراً ماكان يربح الارباح الفاحشة وقد يخسر تبعاً لحال

السوق . وكان يبيع البضاعة تسليم الاسكندرية فينقلها هو على نفقته في اثناء الفيضان على السفن . وكان له في بولاق وكالات لخزن الاقطان والسكر والكتان والحناء التي ترد من الارياف وعلى تلك المخازن وكلاء لا يسلمون منها شيئاً الا بامر الباشا . وكان يتجر ايضاً بالتبر والعاج وغيرهما من واردات السودان واصناف اخرى كثيرة . ناهيك بارباح الجمارك وما يرد على مصر من تجارات اخرى . وكان يدون ارباحه من هذه التجارة في دفاتر حكومته . واليك ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٢١ وفيها اصناف التجارات ومقدار ارباحها وكيفية الانفاق منها وغير ذلك :

ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٢١

الدخل	كيس	قرش
مال الميري	١٣٢٣٠٨	١٣١
ارباح الاتجار بالقطن والشمع والسكر والكتان والنيلة والعسل والحنا وماء الورد وبزر الكتان والسمسم والقرطم وغيره	٢١٠٠٠	
ارباح المنسوجات الحريرية والقطنية	٢١٠٠٠	
ارباح من مبيع الجلود	٨٠٠٠	
« « « الحصر	١٢٠٠	
« « « الرز	١٣٧١٤	٢٥٠
« « « النطرون	٦٠٠	
« « « الصودا	٩٠٠	
« « « ملح النشادر	٢٨٠	
« « « القصب (خيوط الذهب)	٤٥٠	
ارباح جمرك السويس	٥٠٠٠	
« « « القصير	١٨	
عوائد بضائع سنار	٢٠٠	
« تجارة دارفور في اسيوط	٢٦٠	
« « « « في مصر القديمة	٥٠٠	
« « « « في بولاق	٣٠٠٠	

عوائد تجارة دارفور في دمياط	٣٦٠٠	
« « « ترعة المحمودية	٥٠٠	
« « « في الاسكندرية	٢٥٠٠	
« « « على النقود	٣٥٠٠	
ثمان الملح والمشروبات	٥٠٠٠	
« المذبح	٣٧٠	
« عوائد الثمغة	٧٥٠	
« السنا	١٢٠	
أثمان الاسماك في المنزلة	٨٠٠	
ضرائب بيع الاسماك بمصر وبولاق	١٥٠	
« بيع الحيوانات في امبابه والرميلة	٥٠	
« على الرقاصات والمشعوذين وغيرهم	٣٠٠	
عوائد التوارث	٤٠٠	
« المعديات	٦٠٠	
أجرة نقل البضائع	٤٠٠	
قيالة المشروبات بالصعيد	٣٥٠	
عوائد الاسواق والوكالات في الصعيد وغيرها	١٤٠٠	
عوائد النخيل	١٠٠٠٠	
عوائد ادخال الحبوب للقاهرة	٧٢٠	
(جملة الدخل)	٢٣٩٩٤٠	٣٨١
الخارج	كيس	
نفقات الجند	١٠٠٠٠٠	
المرسل الى الاستانة	١٢٠٠٠	
على المعامل واجرة العمال	١٥٠٠٠	
أجرة الموظفين الملكيين	١٦٠٠٠	
نفقات على الملتزمين	٦٠٠٠	
« الجوامع والمدارس الخ	١٨٠٠	

مرتبات الملتزمين	١٢٠٠
نفقات بيت محمد علي باشا واولاده	٢٤٠٠٠
هدايا من المشايخ للعربان الخ	١٠٠٠٠
نفقات الحج	١٧٠٠
« الكسوة	٣٠٠
« على وادي الطملات للغرس وغيره	١٤٠٠
(جملة الخارج)	١٨٩٤٠٠

وكان ينفق الباقي في بناء التكنات والمعامل والمنازل وغيرها . ولمعرفة حقيقة قيمة هذه المبالغ ينبغي تحويلها الى الفرنكات والكيس يومئذ عبارة عن ١٥٠ فرنكاً فيكون دخل الحكومة المصرية سنة ١٨٢١ نحو ٣٦ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنك نحو ثلثها من الارباح التجارية . ونشر الدكتور كلوت بك ميزانية كهذه عن سنة ١٨٣٣ كان مجموع الدخل

ش ٦١ : بوغوص بك احد اعوان محمد علي في المسائل المالية

فيها ٧٥٠ ٧٧٨ ٦٢ فرنكاً منها نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ١٥ فرنك من التجارة . وبلغ الخارج ٠٠٠ ٩٥١ ٤٩ فرنك ثلثها لنفقات الجيش

ومن اعوان محمد علي في المسائل المالية والتجارية بوغوص بك الارمني المتوفى سنة ١٨٤٤ وقد ترجمناه في الجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق الطبعة الثانية

٥ ـ الاصلاحات الصناعية

اما الاصلاحات الصناعية فكثيرة ولكن لم يبق منها الى الآن الا آثار بالية مع ما توخاه رحمه الله من انشاء المعامل واستجلاب الصناع من اقطار اوروبا فانه انشأ في هذا القطر معامل عديدة لمعالجة القطن والنيلة واصطناع الطرابيش التونسية والورق والغزل وانواع الاقمشة من الحرير والكتان والقطن والصوف في سائر جهات القطر ومعامل الاسلحة على انواعها وغيرها . اما سبب حبوط معظم تلك المعامل فعائد الى عدم وجود معادن الفحم الحجري في القطر المصري

٦ ـ الاصلاحات الصحية

راى ذلك الرجل العظيم ان البلاد في احتياج كلي لهذه الاصلاحات لانتشار التدجيل والتطبيب بالكتابة والحجابة وماشا كل فاستقدم احد مشاهير الاطباء الفرنساويين واسمه الدكتور كلوت (ثم صار كلوت بك) واليه ينسب شارع كلوت بك في القاهرة . فأنشأ المدارس الطبية والمستشفيات وفي مقدمتها المدرسة الطبية في قصر العيني (وكان هذا القصر قبلاً مسكناً لابراهيم بك الكبير من امراء المماليك) يدرس فيها الطب والجراحة ومدرسة اخرى في فن القوابل ومستشفى كبيراً في ابى زعبل (قرب المطرية) وانشأ مجلساً صحياً ومدرسة بيطرية ورتب مستشفيات واطباء للعساكر واخرى للاهالي وعين اطباء لمراقبة الاحوال الصحية في المديريات وكان معوله في تلك الاصلاحات على الدكتور كلوت بك

وهو فرنساوي الاصل واسمه الاصلي انطون برطلمي كلوت ولد في غرينوبل بفرنسا سنة ١٧٩٣م من ابوين فقيرين وربي في شظف من العيش وضيق ذات اليد وكان على صغره ولعاً بتشريح الحشرات ودرس طبائعها . وتوفي والده سنة ١٨١١ م بعد ان نزح الى برينون وكان له صديق اسمه الدكتور سابيه فلما عاين ما في الغلام من المواهب على حاله من الفقر جعله مساعداً له يرافقه في اعماله الطبية ويمرن في الجراحة وكان كلوت يطالع ذلك العلم بنفسه ساعات الفراغ حتى قرا كتاب الجراحة تأليف (لافه) ثم راى ان برينول لصغرها لاتفي بما تجمح اليه نفسه ولاتروي مطامعة

فنزح الى مرسيليا رغم ارادة والدته التي كانت كثيرة التعلق بولدها هذا لانه كان وحيداً لها ولكنه اصر على عزمه وضغط على عواطفه طلباً للعلى وسعياً وراء العلم وهو لا يملك الا بعض الدريهمات وشيئاً من الثياب على انه لم يلاق في مرسيليا الا الخيبة فحدثته نفسه ان يسافر في سفينة جراحاً لبحارتها ويتحمل مشاق الاسفار واخطارها سدًّا لعوزه وهو في التاسعة عشرة من سنه فلم يقبله ربانها وكان ذلك لحسن حظ المترجم لان السفينة غرقت في ذلك السفر

ش ٦٢ : كلوت بك مؤسس الاصلاحات الطبية بمصر

فاضطره العوز لتعاطي مهنة الحلاقة فصار يختلف الى حلاق يعالج بالفصد والجراحة الصغرى . ثم عاد الى بلده ودخل المستشفى بعد عناء وتكرار الالتماس واكب على الدرس والمطالعة حتى نبغ بين اقرانه وفي سنة ١٨٢٠ نال شهادة الدكتورية . فعاد الى

مرسيليا وعين طبيباً ثانياً بمستشفى الصدقة ومستشاراً جراحيا بمستشفى الايتام فنم به بعض ذوي الحسد فأقيل من منصبه ولكنه لم يسع في الانتقام بل تضاعفت همته في العمل

وفي سنة ١٨٢٥ اجتمع به الموسيو تورنو وكان تاجراً فرنساوياً من نزالة مصر بعث به المغفور له محمد علي باشا لاختيار من يليق بمنصب طبيب لجيشه فخيب اليه المسير الى مصر في ذلك المنصب فقدم عن طيب خاطر فرأى امامه باباً واسعاً للعمل لما علمت من حاجة البلاد الى الاصلاح الطبي فاخذ يعمل ليله ونهاره مفكراً في الوسائل المؤدية الى المراد . وكان محمد علي باشا يركن اليه ويثق برايه ويجيب مطاليبه فاسس اولاً مجلساً صحياً ليستعين باعضائه على الاجراء والتنفيذ وبث الوصايا الصحية فرتبه على مثال المجالس الصحية الفرنساوية ولاتمام النظام العسكري انشأ المستشفيات العسكرية ومصلحة الصحة البحرية . ولا يخفى ان المستشفيات تحتاج الى عملة من الاطباء والتومرجية وغيرهم ولم يكن في مصر شيء من ذلك فاضطر ان يعلم كلاً من هؤلاء واجباته من التطبيب وملاحظة المرضى وغير ذلك . واشهر المستشفيات التي بنيت بناء على اشارته مستشفى ابي زعبل وانشأ في المستشفى بستاناً للنبات

وفي نحو ١٨٢٦ م اسس المدرسة الطبية في تلك القرية ايضاً اراد بذلك ان لا يقتصر الطب على الجيش بل يتعامه ابناء البلاد حتى يفيدوا ابناء جلدتهم بتطبيبهم وتعليمهم وكان في السنين الاولى من تأسيس هذه المدرسة هو وحده يلقى الدروس واسطة المترجمين تسهيلاً لفهمها فترجمت كتب عديدة اذ ذاك وفي جملتها قاموس لسنين الطبي وغيره من كتب الطب والجراحة والعلوم الطبيعية . ومما كان عقبة في طريق التشريح العملي ان تشريح جثث الموتى كان امراً منكراً في عيون المشارقة فبذل كلوت جهده حتى ابيح له التشريح سرًّا على ان ذلك لم ينجه من غضب الاهالي عليه حتى ان احدهم جاءه يريد قتله بخنجر ولكنه لم يفز

وفي سنة ١٨٣٢ سار الدكتور كلوت بك في ١٢ تلميذاً من تلاميذ مدرسته هذه لامتحانهم في باريس فامتحنتهم الجمعية الطبية العلمية فحازوا استحسانها واظهروا كل نجابة وذكاء وبراعة . وهاك اسماء هؤلاء التلاميذ :

احمد الرشيدي	حسين الهيباوي
حسن الرشيدي	عيسوي النحراوي
محمد منصور	مصطفى السبكي
ابراهيم النبراوي	محمد الشباسي

محمد السكري	محمد علي البقلي
« الشافعي	احمد بخيت

وقد كان نجاح هؤلاء المصريين في امتحانهم موجباً لسرور استاذهم كلوت بك سروراً زائداً لانهم سيكونون له عوناً في نشر الفوائد الطبية والوصايا الصحية في هذه الديار وقد نبغ منهم غير واحد بالتأليف والتطبيب والجراحة وغيرها وترجمنا بعضهم في الهلال او مشاهير الشرق

ش ٦٣: محمد علي باشا البقلي الجراح الشهير احد تلامذة الارسالية

وفي سنة ١٨٣٧ نقلت المدرسة الطبية من ابي زعبل الى القاهرة وهي المعروفة بمدرسة قصر العيني . ثم انشأ فيها فرعاً لدرس فن القبالة يتعلمها النساء لأن عوائد المشارقة لا تسمح بولادة النساء على ايدي اطباء من الرجال وانشأ لهن مستشفى خاصاً بهن وكان لهذه الخدمة فائدة عظمى خصوصاً لان النساء لمبالغتهن في التحجب لايؤذن للطبيب بمساعدتهن في الولادة ولا الكشف عليهن في تشخيص بعض الامراض فكم كان يموت منهن لنقص المعالجة

٧ ـ الاصلاحات العلمية

اما الاصلاحات العلمية فلا تقلُّ اهمية عما تقدم لانه الف مجلساً للمعارف العمومية قصد به تعليم خدمة الحكومة الملكيين والجهاديين ما يؤهلهم للقيام بمهام اعمالهم وفتح مدارس كثيرة لتعليم الشبان من اهل البلاد وبعث بعضاً منهم الى اوربا لاتقان الدروس على مثال الارساليات العلمية بعد ذلك . وبلغ عدد التلامذة الذين ارسلوا الى اوربا في زمن محمد علي ٣١٩ تلميذاً انفق عليهم ٢٢٤٠٠٠ جنيه

وكان غرضه من الارساليات على الغالب تخريج شبان في الفنون العسكرية والاقتصاد والميكانيكيات والطب والتعدين والترجمة . وقد نشرنا اسماء تلامذة احدى الارسالية ومواطنهم والغرض من تعليمهم في السنة ١٥ من الهلال (صحيفة ٢٢٠)

ش ٦٤ : مختار بك اول ناظر للمعارف بمصر

وكانت المدارس المصرية في اول امرها تابعة للعسكرية فاغتنم رجوع جماعة من طلبة احدى الارساليات من اوربا سنة ١٨٣٦ وانشأ مجلساً خاصا بالمدارس سماه ديوان المدارس برئاسة مختار بك احد الطلبة القادمين من اوربا وهاك اسماء اعضاء ذلك المجلس

كلوت بك	رفاعه بك
كياني بك	بيومي افندي
ارتين بك (والديعقوب باشا ارتين)	لامبر
هكيكيان بك	هامون
وارين بك	دوزول (سكرتير)

فترى ان بعض هؤلاء الاعضاء من ابناء المصريين والارمن ممن تخرجوا في مدرسة باريس والبعض الآخر من الفرنساويين . فلا غرو اذا ساروا في التعليم على طرق فرنساوية ونشطوا اللغة الفرنساوية . وكان من جملة ما حملوه معهم من اوربا او تولد فيهم بعد الاطلاع على تواريخ الامم ان ينشئوا في مصر دولة اسلامية عربية تقابل الدولة الاسلامية التركية وكانت الحرب قائمة بينهما في الشام وما وراءها

فلما تألف ديوان المدارس وتحقق اعضاؤه حاجة الجيش الى ضباط لم يروا مندوحة عن الاستعانة بالوطنيين فاستأذنوا محمد علي في الاكثار من المصريين في المدارس وكانوا الى ذلك الحين لم يدخلوا منهم الا عدداً قليلاً فاذن لهم . فانشأوا مدارس ابتدائية وثانوية في انحاء القطر المصري على نمط المدارس الفرنساوية وهذه العلوم التي كانوا يعلمونها فيها :

القرآن	مباديء الحساب
الخط	« التاريخ
اللغة العربية	« الجغرافيا
« التركية	الرسم
« الفرنساوية	

ونظراً لتغلب العنصر العربي في هذه المدارس جعلوا التعليم كله في اللغة العربية واستقدموا لها الاساتذة في باديء الراي من تلامذة الازهر لتعليم القرآن واللغة واستعانوا بانتقاءدين من ضباط الجيش القديم المتخرجين في اوربا لتعليم مباديء العلوم ثم نشأت طائفة من الاساتذة المبرزين في العلم ـ على ان روح الازهر ظلت سائدة عليها كلها مدة طويلة

ولم تمض بضع سنوات حتى اصبحت المدارس التابعة للديوان المذكور سبعين مدرسة منها ١٦ مدرسة كبرى وهي :

مدرسة الموسيقى العسكرية	تأسست	سنة	١٨٢٤
المدرسة الحربية في قصر العيني	»	»	١٨٢٥
مدرسة الطب والصيدلة	»	»	١٨٢٧
» الكيمياء العملية	»	»	١٨٢٩
» المشاة	»	»	١٨٣١
» الفرسان	»	»	١٨٣١
» الطبجية	»	»	١٨٣١
» البحرية	»	»	١٨٣١
» طب الحيوان	»	»	١٨٣١
» التعدين	»	»	١٨٣٤
» الهندسة	»	»	١٨٣٤
» الزراعة	»	»	١٨٣٧
» الولادة	»	»	١٨٣٧
» الادارة الملكية والحسابات	»	»	١٨٣٧
» الالسن والترجمة	»	»	١٨٣٧
» الصنائع والفنون	»	»	١٨٣٩

ش ٦٠ : رفاعة بك اول ناظر لمدرسة الالسن والترجمة

وبلغ عدد التلامذة في المدارس كلها نحو ٩٠٠٠ تلميذ تنفق الحكومة على تعليمهم ولبسهم وطعامهم وسكنهم . والسبب في مكابدتها الانفاق عليهم ان معظمهم في الاصل من غلمان المماليك فهم ملك الحكومة وهي بالطبع مكلفة باعالتهم فلما استكثرت الحكومة من التلامذة الوطنيين عاملتهم تلك المعاملة فجعلت تعليمهم مجاناً . ولم يكن لها بدٌّ من ذلك لانهم كانوا يدخلون تلك المدارس رغم ارادتهم وهم يكرهون التعليم فيها كما كانوا يكرهون الجندية . وظل ذلك شأن التعليم بمصر الى آخر ايام محمد علي سنة ١٨٤٨

المدرسة المصرية في باريس

ولما افضت ولاية مصر الى ابنه ابراهيم توقع الناس تغييراً في التعليم لانه كان قد اعدّ اصلاحاً مهماً على اثر رحلته في اوربا . ولكن الاجل عاجله قبل مباشرة العمل وكان ديوان المدارس قد نظر منذ تأسيسه سنة ١٨٣٦ في التعليم العالي وقرر عجز مصر عن القيام به لسببين : الاول خلوها من اساتذة قادرين على تدريس العلوم العالية والثاني خلو اللغة العربية من الكتب اللازمة لهذه العلوم — ولهذين السببين قررت الحكومة الاستمرار على ارسال التلامذة الى اوربا للتخرج بالعلوم العالية . ولكنها اصبحت لا ترسل غير النجباء المتخرجين من المدارس الكبرى . ولم يكن بدٌّ للتلامذة المشار اليهم من معرفة لغة البلاد التي سيتمون علمهم في مدرستها فانشأوا لهذه الغاية مدرسة مصرية في باريس يديرها رجل مصري اسمه اسطفان بك معه وكيل ارمني اسمه خليل افندي جراكيان . واما الاساتذة فعينتهم نظارة الحربية الفرنساوية من ضباط جندها

فارسلت الحكومة المصرية الى هذه المدرسة نحو اربعين طالباً فيهم جماعة من امراء العائلة الخديوية وفي جملتهم البرنسان حليم وحسين ابناء محمد علي والبرنسان احمد واسماعيل (الخديوي) ابناء ابراهيم . واتفق ان ابراهيم باشا مرّ بتلك المدرسة في اثناء سياحته باوربا ومعه سكرتيره نوبار باشا فاعجب بنجاحها من حيث التعليم ولكنه انتقد تقصيرها في التربية لان التلامذة كانوا يرسلون اليها وهم في حدود الشباب فارتأى ان يأتوها وهم صغار بين الثامنة والتاسعة من العمر ليتعلموا ويتثقفوا معاً . وعزم انه حالما يرجع الى مصر يأمر رجاله جميعاً بارسال اولادهم الى هذه المدرسة وهم احداث . ولكن المنية عاجلته والثورة الفرنساوية آلت الى اقفال المدرسة سنة ١٨٤٨

المطبعة الاهلية

وانشأ محمد علي المطبعة الاهلية في بولاق على انقاض مطبعة اتى بها بونابرت معه لما اتى لفتح مصر كما تقدم فلما خرجوا منها سنة ١٨٠١ اهملت تلك المطبعة ولم يلتفت احد اليها حتى تولى عرش الحكومة المصرية سنة ١٨٠٥ المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية وعمل على اصلاح هذا القطر وكان في جملة مساعيه العلمية احياء هذه المطبعة وتجديدها . فاستحضر لها العدد والحروف واستخدم العمال من اوربا وسوريا فاداروها واصطنعوا حروفاً جديدة تشبه حروفها الاصلية من وجه وتختلف عنها من وجه آخر . وهي قاعدة حروف بولاق المشهورة وقد طبعت بها كتب جمة طبية وتاريخية ودينية ما لا يحصى ولا يعد . وفي شهرة مطبعة بولاق ما يغني عن تعداد فضائلها

واما الذي اصطنع قاعدة تلك الحروف فجماعة من عمالها يومئذ لم نطلع الا على اسم واحد منهم وهو الياس مسابكي من اهل دمشق الشام . وكان في جملة حروف بولاق قاعدة فارسية جميلة اهملت الان

وامر بترجمة كثير من الكتب المفيدة في التركية والعربية والفارسية وانشأ الجريدة المصرية الرسمية (الوقائع المصرية) وديوان المهندسخانة وغير ذلك

صفاته وصنائعه

كان محمد علي متوسط القامة عالي الجبهة اصلعها بارز القوس الحاجبي اسود العينين ثاقبهما صغير الفم باسمه كبير الانف متناسب الملاح مع هيبة ووداعة . أبيض اللحية كثيفها مع استدارة وسعة . جميل اليدين منتصب القامة جميل الهيئة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة . اذا مشى يجعل يديه متصالبتين وراء ظهره غالباً وعلى الخصوص اذا مشى في داره مفكراً في امر وكذلك كان يفعل بونابرت . وقلما كان يفاخر باللباس فكان لباسه غالباً على زي المماليك يلبس العمامة او الطربوش . وابدل اللباس العسكري في أواخر ايامه بلباس واسع بسيط لايمتاز به عن بعض اتباعه

وكان يكره التفاخر بالحاشية فلم يكن على بابه الا رجل واحد يخفره . واذا استوى في مجلسه لايتقلد السلاح بل يجلس وفي يده حقة العطوس والمسبحة يتلاهى بها وكان يحب العاب البليارد والداما ولا يأنف من مجالسة صغار الضباط . واما جلسائه العاديون فالفاضل وكبار السياح وكانوا يحبونه ويحترمونه ويلقبونه بمبيد المماليك او مصلح الديار

المصرية . وكان سليم القلب مع دهاء وسياسة سريع التأثر لا يعرف الكظم فكثيراً ماكان ينقاد بدسائس المفسدين . وكان كريم النفس سخي العطاء وفي بعض الاحوال مسرفاً . وكان يتفاخر بعصاميته ويرتاح للتكلم عن سابق حياته . وكان محباً للاطلاع ولا سيما على الاخبار السياسية وكان يجلُّ الجرائد ويعتقد تأثيرها في الهيئة الاجتماعية فكانوا يترجمونها له فيطالعها بتمعن

ش ٦٦ : محمد علي باشا بالطربوش

اما هواجسه السياسية فكانت تقلق راحته فلا ينام الا يسيراً وقلما يرتاح في نومه ولا ينفك متقلباً من جانب الى آخر فكان يجعل عند فراشه اثنين من خدمته يتناوبان اليقظة لتغطيته اذا انكشف عند الغطاء من التقلب . ويقال ان من جملة دواعي ارقه الشهقة المرتجفة التي كانت تتردد اليه كثيراً وكان قد أصيب بها في حملته على الوهابيين على أثر رعب شديد . على ان ذلك الارق لم يكن ليضعف شيئاً من سرعة حركته فكان يستيقظ نحو الساعة الرابعة من الصباح ويقضي نهاره في المشاغل المختلفة بين مفاوضة مع ذوي شوراه او مراقبة استعراضات العساكر او استطلاع امور اخرى تتعلق بمصالح الامة . وكان بارعاً في الحساب بغير تعلم لانه شرع بتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والاربعين من عمره . ويقال انه ابتدأ يتعلم احرف الهجاء على احد خدمة حريمه والكتابة على احد المشائخ وهذا مما يزيده شرفاً وفخراً ويبرهن على مافطر عليه

من قوة الادراك والحذاقة والمقدرة على المهام السياسية . وكان صارم المعاملة مع لين ورقة وحسن اسلوب . وكان متمسكاً بالاسلام مع احترام التعاليم الاخرى ولاسيما التعاليم المسيحية فكان يقرب اصحابها منه ويعهد اليهم اهم اعماله

ويقال انه كان بالاجمال اباً حنوناً لرعيته وصديقاً مخلصاً ونصير مسعفاً لذوي قرباه اباً حقيقياً ولاولاده ولذلك تراه بعد ان اصيب بفقد اكثرهم غلب عليه الحزن حتى اثر في صحته تأثيراً رافقه الى اللحد . اما حبه للرعية فلا يحتاج الى دليل فهذه الديار المصرية عموماً اذا قصرت السنة اهلها عن تعداد مآثره ينطق جمادها بمزيد فضله هذه الترع والجسور والبنايات والشوارع والجنان. هذه المطابع والمدارس هذه النظامات الجهادية والملكية والقضائية هذه الزراعة والفلاحة هذه شبه جزيرة العرب تردد مالاقته من نجدته . وقد كان موضع احترام رعيته وذويه حتى الاجانب البعيدين منه وطناً ودياناً ومشرباً وكثيراً ماتقربوا اليه بالنياشين والهدايا اقراراً بفضله على العالم عموماً بتمهيد سبل التجارة بين اوربا والهند على الخصوص

ابراهيم باشا بن محمد علي

ولد سنة ١٢٠٤ هـ وتولى وتوفي سنة ١٢٦٥ هـ

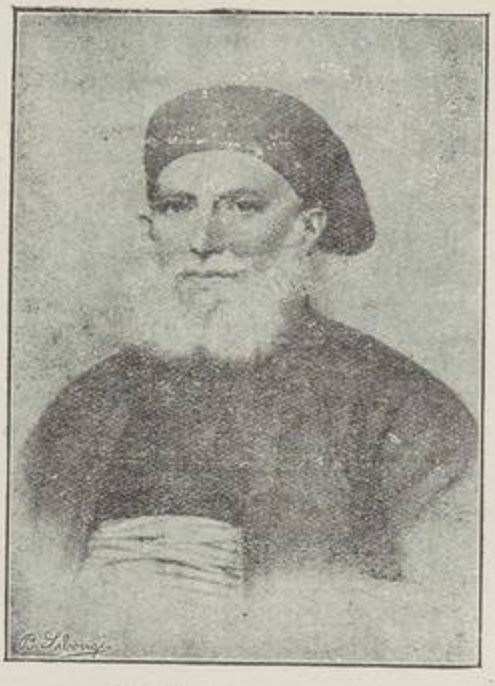

ش ٦٧ : ابراهيم باشا في اواخر ايامه

هو نجل محمد علي باشا وقد تقدم في سيرة ابيه معظم سيرة حياته لانهما عملا معاً في مصر وكان ابراهيم ساعد ابيه الايمن في فتوحه وسائر اعماله العسكرية . ولد في قوله عام ١٢٠٤ هـ ومال من صغر سنه للاعمال الحربية وفيه مواهب اعاظم القواد يشهد بذلك ما اتاه من الاعمال العظمى في مصر والشام والمورة والسودان وغيرها مما فصلناه في ترجمة ابيه. وكان يعرف الفارسية والتركية والعربية وله اطلاع واسع في تاريخ البلاد الشرقية تولى الامارة المصرية بعد تنازل ابيه عام ١٢٦٥ فسار على خطواته سيراً حسناً وان كان في الحقيقة يختلف عنه بمواهبه الاصلية فقد كان ابراهيم صارم المعاملة صعب المراس شديد الوطأة كما يغلب ان يكون رجال العسكرية . وكان ابوه لين العريكة حسن السياسة ذا دهاء وحكمة . ولم يبق حكم ابراهيم الا ١١ شهراً وتوفي قبل والده

وكان ربع القامة ممتلىء الجسم قوي البنية مستطيل الوجه والانف اشقر الشعر في وجهه اثر الجدري وكان كثير اليقظة قليل النوم . وكان نقش خاتمه « سلام على ابراهيم »

عباس باشا الاول

ولد سنة ١٢٢٨ هـ وتولى سنة ١٢٦٥ هـ وتوفي سنة ١٢٧٠ هـ

ش٦٨ : عباس باشا الاول

هو عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ولد عام ١٢٢٨ هـ او ١٨١٣ م وربي احسن تربية وكان محباً لركوب الخيل فرافق عمه ابراهيم باشا في حملته الى الديار الشامية وشهد اكثر الوقائع الحربية وفي سنة ١٢٦٥ هـ تولى زمام الاحكام على الديار المصرية بعد وفاة عمه ابراهيم وكان على جانب من العلم والمعرفة لان المرحوم جده كان يحبه كثيراً فاعتنى بتعليمه في مدرسة الخانكاه

ومن مشروعاته المهمة الشروع في انشاء الخط الحديدي بين مصر والاسكندرية وتأسيس المدارس الحربية في العباسية ومد الخطوط التلغرافية لتسهيل سبل التجارة وغير ذلك

وكان له غلام يدعى البرنس ابراهيم الهامي كان على جانب عظيم من الجمال والذكاء واللطف والمعرفة والعلم زار الاستانة سنة ١٢٧٠هـ وتشرف بمقابلة السلطان عبد المجيد

فاحبه وزوجه بابنته وغمره بنعمه . فرجع الى مصر حامداً شاكراً والمرحوم الهامي باشا هو والد ذات العفاف والعصمة حرم المغفور له توفيق باشا الخديوي السابق ووالدة مولانا الخديوي الحالي

وعباس باشا هو الذي وضع الحجر الاول لمسجد السيدة زينب بيده وقد كان لذلك احتفال عظيم حضره كثير من الاعيان ورجال الدولة وذبحت فيه الذبائح وفرقت الصدقات على الفقراء كميات كبيرة

وفي ايامه كانت بين الدولة العلية والروسيين حروب فبعث لنجدة الدولة حملة كبيرة سارت عن طريق بولاق في البحر وسار هو بنفسه لوداعها هناك وقبل ركوبها النيل نهض لوداعها فألقى في الجمهور خطاباً بليغاً منشطاً

وتوفى عباس باشا في شوال سنة ١٢٧٠ او يوليو سنة ١٨٥٤ م في قصره بمدينة بنها العسل ثم نقل ودفن في مدفن العائلة الخديوية في القاهرة

سعيد باشا

ولد سنة ١٢٣٧ هـ وتولى سنة ١٢٧٠ هـ وتوفي سنة ١٢٧٩ هـ

هو ابن محمد علي باشا ولد في الاسكندرية عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) وكان محباً للعلم بارعاً فيه وعلى الخصوص في اللغات الشرقية والعلوم الرياضية وسلك الابحر والرسم وكان يتكلم الفرنساوية جيداً . تولى زمام الاحكام عام ١٢٧٠ هـ او ١٨٥٤ م بعد وفاة عباس باشا ابن اخيه وكان مؤثراً للعدل والفضيلة مهتماً بالاصلاح الاداري . ومن اعماله المبرورة اتمام الخطوط الحديدية والتلغرافية بين اسكندرية ومصر والشروع في مد غيرها وتنظيم لوائح الاطيان واسترجاعها من المتعهدين الى اربابها . وقد عدل الضرائب فجعلها عادلة ورفع كثيراً من الضرائب التي كان يتظلم منها الرعايا ونزح ترعة المحمودية وفي ايامه تمت معاهدة ترعة السويس وقد نشطها تنشيطاً كبيراً واقام على طرفها الشمالي مدينة حديثة دعيت باسمه وهي بورت سعيد وغرس الاشجار في طريق المنشية

وفي السنة الثانية من توليه على مصر وضع الحجر الاول لاساس القلعة السعيدية عند راس الدلتا فيما بين القناطر الخيرية تداعت اركانها الآن وقد عثرنا على قطعة فضية مستديرة قطرها قيراطان ونصف على احد وجهيها رسم النيل عند تفرعه والقناطر الخيرية يليها على الجانبين برجا القناطر وبينهما عند راس الدلتا القلعة السعيدية وكل ذلك

في اجمل مايكون من الرسم . وعلى الوجه الآخر كتابة تركية تفيد « ان المغفور له سعيد باشا بن محمد علي باشا المشهور قد وضع اساس القلعة السعيدية وما يليها من الاستحكامات بيده في يوم الاحد ٢٣ جمادى الاخرة عام ١٢٧١ هـ لاجل حماية الديار المصرية » هذا نصها التركي

« قواله لى مشهور محمد علي صلبندن بيك ايكيبوز اوتوزيدى سنه هجريه سنده اسكندريه ده دنيايه كلوب يتمش سنه سي شوال المكرمنده خطه جسيمه مصره حكمي جاري اولان محمد سعيد محافظه ام دنيا ايجون اشبو استحكامات قويه يه بيك ايكيبوز يتمش بر سنه سي جمادي الثانينك يكرمي اوجنجي دوشنبه كوني ومولودينك اوتوز درنجي سنه سي كندى يديله وضع اساس ايتمشدر »

ش ٦٩ : سعيد باشا

وفي ايامه ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فبعث اليها واخمد الثورة فهدات الاحوال . ولما اختتن نجله طوسون اطلق كل من كان في السجون من المجرمين حتى

الفاتلين . وفي ايامه اعطيت بلاد السودان بعض الامتيازات وتولى عليها البرنس حليم باشا حكمداراً . وفي عام ١٢٧٦ هـ او ١٨٥٩ م توجه لزيارة سوريا فمكث في بيروت ثلاثة ايام ونزل ضيفاً كريما على وجهاء المدينة وكان في اثناء مروره في الطرقات ينثر الذهب على الناس

وفي عام ١٢٧٨ هـ او ١٨٦١ م توفي المغفور له السلطان عبد المجيد وتولى السلطان عبد العزيز . وفي يوم السبت ٢٦ رجب عام ١٢٧٩ هـ او ١٧ يناير ١٨٦٣ م توفي سعيد باشا في الاسكندرية ودفن فيها

اسماعيل باشا

ولد سنة ١٨٣٠ وتولى سنة ١٨٦٣ وخلع سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٨٩٥

ش ٧٠ : اسماعيل باشا

(ترجمة حاله) هو اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير . وكان لوالده ثلاثة اولاد ذكور اكبرهم البرنس احمد (ولد عام ١٨٢٥) ثم البرنس اسماعيل (ولد عام ١٨٣٠) ثم البرنس مصطفى (ولد عام ١٨٣٢) وكان البرنس احمد من نوابغ الزمان ذكاء وفطنة كثير الشبه بوالده شكلاً واخلاقاً ولكنه توفي في اثمن سني حياته بين الشباب والكهولة فاصبح صاحب الترجمة كبير ابناء ابراهيم

وربي اسماعيل باشا في حجر والده وتعلم وتثقف بحياطة جده لان جده رحمه الله كان قد انشأ لأولاده الصغار واولاد اولاده الكبار مدرسة خصوصية في القصر العالي فيها نخبة من مهرة الاساتذة فتلقى صاحب الترجمة فيها مبادىء العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية ونذراً يسيراً من الرياضيات والطبيعيات . فلما بلغ السادسة عشرة من عمره بعث به جده مع ولديه المرحومين البرنسين حليم باشا وحسين بك والمرحوم البرنس احمد باشا مع ارسالية فيها نخبة من شبان مصر الاذكياء الى مدرسة باريس يتولى رئاستهم وجيه ارمني اسمه اصطفان بك . فقضوا في تلك المدرسة بضع سنوات تلقوا بها العلوم العالية ثم عادوا الى مصر الا حسين بك فان المنية ادركته هناك . ومن العلوم التي تلقاها اسماعيل اللغة الفرنساوية والطبيعيات والرياضيات وخصوصاً الهندسة وعلى الاخص فن التخطيط والرسم . وهذا هو سبب شغفه بعد ذلك بتنظيم الشوارع وزخرفة البناء

ولما عادت الارسالية كان عباس باشا الاول واليا على مصر فمكث اسماعيل معه على صفاء ومودة حتى وقع بين عباس باشا وسعيد باشا نفور مبني على اختلاف في اقتسام التركة وانحاز سائر افراد العائلة الخديوية الى سعيد وفي جملتهم اسماعيل . فساروا كافة الى الاستانة ورفعوا دعواهم الى جلالة السلطان فصدرت الارادة الشاهانية بانفاذ المرحوم فؤاد باشا الصدر الاعظم وكان يومئذ فؤاد افندي وجودت افندي وهو جودت باشا المؤلف الشهير الى مصر . فاتيا وسوّيا الخلاف وتصالح افراد هذه العائلة الكريمة فعادوا الى مصر الا اسماعيل فانه بقي في الاستانة وتعين عضوا في مجلس احكام الدولة العلية

وفي سنة ١٨٥٤ توفي عباس باشا الاول وتولى عمه سعيد باشا فعاد صاحب الترجمة الى مصر فولاه عمه المشار اليه رئاسة مجلس الاحكام فاهتم بشأنه اعظم اهتمام ونظمه على مثال مجلس احكام الدولة العلية

وفي عام ١٨٦٣ توفي المغفور له سعيد باشا فافضت ولاية مصر الى اسماعيل باشا

وهو خامس ولاتها من السلالة المحمدية العلوية فاخذ منذ تبوئه الاحكام في رفع شان هذه الديار واعادة رونقها الذي كان لها في عهد محمد علي باشا فاطلق يده في النفقة لتنظيم الشوارع وتشييد الابنية وانشاء المشروعات النافعة على انواعها مما سيأتي تفصيله غير مبال بما قد يجر اليه ذلك من الضيق

وكانت ولاية مصر تنتقل في الاسرة الخديوية الى من يختاره جلالة السلطان الاعظم بقطع النظر عن علاقته بالوالي السابق . وكان ولاة مصر يلقبون بالعزيز او الوالي او الباشا واذا لقبوا احيانا بالخديوي فانما يكون ذلك على سبيل التجمل والتفخيم اما اسماعيل باشا فهو اول من نال رتبة الخديوية ولقب الخديوي فاصبحت ولاية مصر ارثاً صريحاً في نسله ينتقل منه الى اكبر اولاده ومنه الى اكبر اولاده وهكذا على التعاقب وهاك اهم نصوص الفرمان المؤذن بذلك الصادر في ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ٨ يوليو عام ١٨٧٣

الفرمان الخديوي

« ان كيفية وراثة الحكومة المصرية المقررة في فرماننا الصادر ثاني ربيع الاخر عام ١٢٨٥ هـ قد غيرت على وجه ان تنتقل الخديوية من متبوئي كرسيها الى بكر ابنائه ومن هذا الى بكر ابنائه ايضاً وهلم جرًّا علماً بان ذلك ادنى الى المصلحة واشد ملاءمة لاحوال البلاد المصرية . واختصاصاً لك بانعطافي الذي صرت له اهلاً بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وامانتك واثباتاً لذلك اجعل قانون الوراثة لخديوية مصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوّع وتوابعها كما تقدم بيانه . بحيث تكون الولاية لبكر ابنائك ثم لبكر ابنائه من بعده . فاذا لم يرزق من تولى الخديوية ولداً ذكراً كانت الولاية من بعده لاكبر اخوته او لاكبر بني اخيه الاكبر كما تقرر . ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات . ولاجل تأييد هذه الاحكام ينبغي ان تكون الوصاية في حال كون الوارث قاصراً على الصورة الآتية وهي :

« اذا توفي الخديوي وكان كبير ولده قاصراً اي غير بالغ من العمر ثماني عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويًّا بحق الوراثة فيصدر اليه فرماننا بوجه السرعة. واذا كان الخديوي المتوفى قد نظم قبل وفاته اسلوباً للوصاية وعين كيفيتها وذوي ادارتها بصك مثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فاولئك الاوصياء يقبضون اذ ذاك على ازمة الاعمال عقب وفاة الخديوي . ثم ينهون بذلك الى الباب العالي فيثبتهم في مناصبهم . ولكن اذا توفي الخديوي بغير وصية وكان ابنه قاصراً فمجلس الوصاية عند

ذلك يؤلف من متولي ادارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش المديريات. فيجتمع هولاء الذوات وينتخبون للخديوي وصياً باجماع الرأي او باغلبيته فاذا تساوت الاراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبة باعتبار الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها . ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعاً امور الخديوية ويعرضون ذلك لسلطنتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف . وكما انه لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهاء مدتها في الصورة الاولى اي فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوي المتوفى فكذلك لا تغير في الصورة الثانية . واما اذا توفي الوصي او احد اعضاء مجلس الوصاية في خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول احد اعضاء المجلس وبدل الثاني احد ذوات المملكة . وبمجرد بلوغ الخديوي القاصر ثماني عشرة سنة يكون راشداً فيباشر ادارة امور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضته ارادتنا السلطانية

«ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهة سكانها من أهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدة على الحكومة المصرية راينا ان نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقاً للحكومة المصرية . وذلك انه لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها واحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم ان ادارة اي مملكة وحسن انتظامها وتزايد عمرانها وسعادة سكانها مما لا يتم الا بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والموقع وامزجة السكان وطبائعهم فقد منحنا كم الرخصة المطلقة في وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم . ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية اومن قبل الحكومة مع الاجانب . ولتوسيع نطاق الصناعة والحرف وتوفير اسباب التجارة منحنا كم ايضاً الرخصة التامة في عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأموري الدول الاجنبية في امور المملكة الداخلية وغيرها على شرط ان لا يكون ذلك موجباً للاخلال بمعاهدات الدولة السياسية

« ولكون خديوي مصر حائزاً لحق التصرف المطلق في الامور المالية قد اعطيت له الرخصة في عقد القروض من الخارج بغير استئذان عند ما يجد لذلك لزوماً على شرط ان يكون القرض باسم الحكومة المصرية . وبما ان امر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق (وهو اهم الامور واحوجها الى العناية) من اقدم الوظائف المختصة

بخديوي مصر قد منحناه الاذن المطلق بتدارك اسباب المحافظة وتنسيبها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير او تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد . وابقينا كذلك لخديوي مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط ان تكون السكوكات المضروبة في مصر باسمنا الشاهاني وتكون اعلام العساكر البرية والبحرية في القطر المصري كاعلام عساكرنا السلطانية بلا فرق او تمييز ولا يجوز لخديوي مصر ان ينشىء البوارج المدرعة بغير استئذان اما سائر السفن والبوارج ففي استطاعته ان ينشئها متى شاء » انتهى

وقد امتاز اسماعيل باشا عن سائر ولاة مصر قبله انه حبب سكنى الديار المصرية الى الاجانب من جالية اوربا واميركا وغيرهما بما مهده من وسائل الراحة والطمأنينة مع الاخذ بناصرهم وتأييد مشاريعهم وتنشيطهم وتوسيع نطاق التجارة فتقاطروا اليها افواجاً واقاموا فيها على الرحب والسعة لما آنسوه من الكسب الحسن والعيش السهل

وفي عام ١٨٦٩ احتفل اسماعيل باشا بافتتاح ترعة السويس وكان قد بوشر بحفرها على عهد عمه سعيد باشا فحضر ذلك الاحتفال ملوك اوربا او من يقوم مقامهم . وكان له رنة بلغ صداها اربعة اقطار المسكونة لما اعده فيه اسماعيل من وسائل الزينة مما قد تقصر عنه همم الملوك العظام . وفي جملة ذلك انه بنى الاوبرا الخديوية بالقاهرة لتكون مرسحاً يشاهد فيه ضيوفه صنوف التمثيل وكانت المدة غير كافية لتشييد ذلك البناء فبذل الدرهم والدينار فلم تمض خمسة اشهر حتى تم البناء وسائر معدات التمثيل على ما نشاهده الآن وهو من المراسح التي لا مثيل لها الا في عواصم اوربا العظمى

قناة السويس

ويجدر بنا في هذا المقام ان نأتي على تاريخ هذه القناة من اقدم ازمانها فنقول :

لا يخفى ان الفاصل بين البحرين الابيض والاحمر برزخ السويس وما برح ملوك مصر من عهد الفراعنة يسعون في الوصل بينهما لتسهيل طرق التجارة بين الشرق والغرب ولم يكن الناس اكتشفوا راس الرجاء الصالح فكان برزخ السويس فاصلاً بين الشرق والغرب فاهتم رجال السياسة من الملوك وغيرهم في الوصل بينهما بحيث تجري السفن من الواحد الى الآخر ولو بقناة صغيرة . ولكن القدماء كانوا يعتقدون ان البحر الاحمر اعلى من البحر الابيض المتوسط فخافوا اذا فتحوا ما بينهما ان تطوف الماء وتغرق

البلاد فوجهوا عنايتهم الى الوصل بين البحرين بطرق اخرى . ويقال بالاجمال ان مساعيهم كانت ترمي الى احدى ثلاث طرق وهي (١) الوصل بينهما بواسطة النيل والصحراء (٢) بواسطة النيل وفروعه (٣) بواسطة ترعة مالحة — واليك خلاصة السعي في كل منهما :

١ — الوصل بين البحرين بالنيل والصحراء

هذه اقدم طرق الايصال بينهما واول من شرع بها مريرع احد ملوك العائلة السادسة الفرعونية في القرن السابع والثلاثين من قبل الميلاد واتمه حنو من العائلة الحادية عشرة . وبعض المؤرخين يذهب الى ان بطليموس فيلاذلفوس هو اول من اوجد هذا الاتصال في القرن الثالث قبل الميلاد ولعل الصواب انه اعاده بعد اهماله

وكان الاتصال المذكور يتم بطريق الصحراء بين برنيس على البحر الاحمر وقفط على النيل بقرب قوص بمصر العليا . فكانت المنقولات تحمل على الجمال او نحوها من برنيس الى قفط ومن هناك تنقل على مراكب نيلية الى البحر المتوسط عن طريق دمياط او رشيد . وما زالت هذه الطريق عظيمة الاهمية حتى اكتشفوا راس الرجاء الصالح جنوبي افريقيا سنة ١٤٩٧م فانحطت اهميتها . ولما فتح خليج السويس كادت تهمل بالكلية لكنها لا تزال تستعمل في بعض الاحوال . وقد اصبح الاتصال الان بين القصير على البحر الاحمر وقنا على النيل عوضاً عن برنيس وقفط وقد يكون الى قفط ولا تستعمل الا اذا كان المقصود المواصلة بين البحر الاحمر ومصر العليا راساً

٢ — الوصل بواسطة النيل فقط

لابد قبل الكلام في ذلك من كلمة نقولها في تاريخ فروع النيل لانها الآن غير ما كانت عليه في عصر الفراعنة والبطالسة والرومان . فالنيل الان ينقسم بقرب القاهرة الى فرعيه الكبيرين فيسيران شمالاً يمر الشرقي منهما بينها فيت غمر فسمنود فالمنصورة وينتهي الى البحر المتوسط بالقرب من دمياط . والغربي يمر بمنوف فكفر الزيات فسوق الى ان يصب في ذلك البحر بالقرب من رشيد . وهذان الفرعان هما الفرعان الوحيدان للنيل الآن وقلما يتفرع منهما غير الترع الاصطناعية

اما في الازمنة الخالية فكانت لهما فروع اخرى كبيرة اكبرها متشعب من الفرع الشرقي . وكيفية ذلك ان هذا الفرع بعد ان يصل الى قرب بنها يسير منه فرع غربي ينقسم الى عدة فروع تنتهي الى البحر المتوسط بثلاثة تصب عند بحيرتي المنزلة والبرلس اهمها فرع كبير شرقي يقال له فرع بلوسيوم كان يخرج من الفرع الشرقي قرب بنها

ويسير نحو الشمال الشرقي فيمر ببوباستس (تل بسطة) فالصالحية فدفنة الى ان يصب في البحر المتوسط بالقرب من بلوسيوم (طينة) شمالي الفرما . اما بحر القلزم او البحر الاحمر فكان متصلاً بالبحيرة المرة الكبرى بمضيق صالح لسير السفن وكانت هذه البحيرة خليجاً يدعى خليج هيروبوليس نسبة الى مدينة كانت قائمة على مسافة قصيرة من راسه بالقرب من فيثوم (تل المسخوطة)

والوصل بين البحرين بواسطة النيل يتم بحفر ترعة موصلة بين النيل والبحر الاحمر اما البحر المتوسط فان النيل يصب فيه . واول من فكر في ذلك سيتي الاول من ملوك العائلة التاسعة عشرة فاراد ان يصل النيل بالبحيرة المرة بترعة . ويظن ارستوتل وسترابو وبلينيوس ان سيزوستريس (رعمسيس الثاني او الاكبر) هو اول من فعل ذلك في الجيل الرابع عشر قبل الميلاد . وربما كان ظنهم هذا مبنياً على ان هذا الملك هو الذي اسس مدينة فيثوم المتقدم ذكرها فرجحوا انه احتفر اليها ترعة من النيل لريها . وهذه الترعة توصل بين النيل وخليج هيروبوليس فيتم الاتصال المطلوب . اما المعول عليه بالاسناد الى المصادر التاريخية الوثيقة ان اول من اخرج ذلك الى حيز الفعل انما هو الملك نخاو الثاني من العائلة السادسة والعشرين (سنة ٦١٠ ق م) فاحتفر ترعة تنشأ من فرع بلوسيوم عند بوباسبس بالقرب من الزقازيق وتسير فيما يدعى الآن وادي القنال حتى هيروبوليس ويقال ان امتداد هذه الترعة كان ٦١ ميلاً من الاميال الرومانية (نحو ٥٧ ميلاً انكليزياً)

فلما استولى الفرس على مصر اتمها الملك داريوس (دارا) بن هستاسبس سنة ٥٢٠ ق م وكان المضيق بين هيروبوليس والبحر الاحمر كاد يمتلىء من الرواسب فامر بجرفه وتوسيعه وكان طوله نحو عشرة اميال . ولا تزال آثاره باقية الى هذا العهد بالقرب من شالوف عند الطرف الجنوبي للبحيرة الكبرى وترعة الاسماعيلية . . ويشاهد هناك بعض الاثار الفارسية الدالة على صحة ذلك . وكان المعروف اذ ذاك ان البحر الاحمر اعلى من النيل كما تقدم فلم يجسر نخاو ولا داريوس على ايصال ترعتهما هذه الى الخليج تماماً خشية ان يختلط الماءان او يطوف الملح على العذب . فتمت المواصلة اذ ذاك على هذه الصورة : تسير السفن من البحر المتوسط في فرع بلوسيوم الى بوباستس ومنها في تلك الترعة الى هيروبوليس . ومن هذه كانوا ينقلون المحمولات الى مراكب البحر الاحمر على الدواب او غيرها فكانوا يقاسون في ذلك بعض المشقة . فلما تولى بطليموس فيلاذلفوس وجه اهتمامه الى اصلاح ذلك الخلل سنة ٢٨٥ ق م فاحتفر ترعة

وصلة بين هيروبوليس ورأس البحر الاحمر وترعة أخرى من هيروبوليس الى خليج هيروبوليس ووسع المضيق . فاصبح هناك ترعتان كلتاهما متصلة بالبحر الاحمر واتخذ حواجز واحتياطات اخرى لمنع طغو المياه المالحة على العذبة بحيث يمكن للسفن ان تمر الى الخليج والى البحر الاحمر مع توفي الطغيان . وابتنى عند مصب الخليج في البحر الاحمر مدينة دعاها ارسينوا جعلها محطة بحرية تنتهي اليها المراكب القادمة عن طريق النيل وتقلع منها السائرة في البحر الاحمر

ثم اخذ ماء النيل يتحول عن فرع بلوسيوم شيئاً فشيئاً حتى جف ماؤه فبطلت تلك الترعة . حتى اذا كان الاسلام وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص امره الخليفة بانشاء ترعة يسهل نقل المؤن عليها الى الحجاز فاحتفر قناة دعاها خليج امير المؤمنين تبتدأ بها عند مصر القديمة حيث يبتدئ خليج مصر اليوم فسار بها في ظاهر الفسطاط حتى القاهرة ومنها الى المطرية ومنها الى بوباستس حيث تبتدىء الترعة القديمة ومن بوباستس الى البحر الاحمر . ومازالت تسير السفن في خليج امير المؤمنين الى ايام الخليفة المنصور فامر بردمه منعاً لامداد العلويين الذين ثاروا في المدينة . وما زال مردوماً الى الآن . ويقال ان الحاكم بامر الله الفاطمي امر بحفره سنة ١٠٠٠ للميلاد لتسير فيه السفن الصغيرة ثم اهمل فطمرته الرمال . وظل من آثاره الى عهد غير بعيد الخليج الذي كان يقطع القاهرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي وهو المعروف بخليج مصر . كان ينشأ من فم الخليج عند مصر القديمة ويسير نحو الشمال الشرقي وقبل ان يبلغ نظارة المالية ينعطف نحو الشرق الجنوبي حتى جامع السيدة زينب فيعود الى سيره نحو الشمال الشرقي فيمر بجانب بركة الفيل ثم سراي درب الجماميز فتكية الجبانية ثم يقطع شارع محمد علي فيمر بجانب سراي منصور باشا الى ان يقطع السكة الجديدة قرب اتصالها بشارع الموسكي فيمر تاركاً كنيسة اللاتينيين وكنيسة السريان الى يساره وكنيسة الارمن وكنيسة القبط الى يمينه الى ان يصل الى بداية سكة مرجوش فيتركها الى يمينه ثم يقطع سور القاهرة عند باب الشعرية ويسير خارج القاهرة الى شارع الظاهر فيمر تاركاً جامع الظاهر الى يمينه حتى يلتقي بترعة الاسماعيلية وهناك ينتهي

وكانت فائدة هذا الخليج قاصرة على ري المدينة وبعض ضواحيها وكانوا يحتفلون لفتحه سنوياً عند وفاء النيل فلما توزعت المياه في القاهرة بالانابيب الى المنازل لم تبق فائدة فاذنت الحكومة لشركة ترموای القاهرة بردمه ومد خط الترموای فوقه وهو الفرع المعروف بترموای الخليج الآن

٣ — الوصل بينهما بقناة مالحة

وهي الباقية الى الان نعني قناة السويس . وقد فكر في حفرها الفراعنة ولكنهم خافوا طغيان الماء كما تقدم . وفكر فيه ايضاً المسلمون منذ فتحوا مصر — فذكروا ان عمرو بن العاص اراد فتح قناة توصل بين البحرين فمنعه عمر بن الخطاب لئلا يتخذها الروم طريقاً الى الحجاز. واراد ذلك الرشيد بعده على ان يحفر ترعة مما يلي بلاد الفرما نحو بلاد تنيس بحيث يكون مصب البحر الاحمر في البحر المتوسط كما هو حاله اليوم فشاور وزيره يحيى بن خالد فقال له « اذاً يخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف وذلك ان مراكبهم تنتهي من البحر القلزم (الاحمر) الى بحر الحجاز فتطرح سراياها مما يلي جدة فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة » فامتنع عن ذلك . وربما فكر فيه غيره من ملوك المسلمين ولم يخرجوه الى حيز الفعل

ثم ذهبت دولة العرب واخذ الافرنج يهبون من سباتهم وسعوا في اكتشاف الطرق التجارية — وكانت التجارة بين اوربا والمشرق في الاجيال الاخيرة محصورة على نوع ما في فينيسيا (البندقية) وكان الفينيسيون ابرع الناس فيها واكثرهم اشتغالاً بالاسفار بين البحرين عن طريق مصر . فلما اكتشف راس الرجاء الصالح تحولت تلك التجارة الى يد البرتغاليين فشق ذلك على الفينيسيين فاهتموا بانشاء ترعة توصل بين البحرين فخابروا سلطان مصر اذ ذاك (قنسو الغوري) وما زالت المخابرات بهذا الشأن دائرة حتى الفتوح العثماني حتى سنة ١٥١٧ م فبطلت واهمل المشروع . فلما كانت الحملة الفرنساوية اهتم نابوليون بونابرت بذلك الاتصال بواسطة برزخ السويس فاستكشف البرزخ ومعه المهندس الشهير موسيو لابير سنة ١٢١٣ هـ او ١٧٩٨ م وتفحصاه تفحصاً مدققاً فزعم لابير ان البحر الاحمر يعلو المتوسط ٣٠ قدماً فعدل عن فتح ترعة موصلة بين البحرين راساً وقدم التقرير الآتي ويتضمن افضل ما رآه من الطرق :

( ) الاتصال بواسطة النيل وفروعه وذلك بترعة من الاسكندرية الى الرحمانية على فرع رشيد . وفي النيل من هناك الى القاهرة وبخليج امير المؤمنين من القاهرة الى البحيرة المرة حيث يقام حواجز . ومن هناك الى السويس بترعة مالحة

(٢) الوصل بين البحرين راساً بان تحفر ترعة بين السويس والبحيرة المرة وترعة اخرى بين البحيرة المرة وبلوسيوم . الا ان هذا التقرير لم يباشر تنفيذه قبل ان قضي على تلك الحملة بالانسحاب من مصر

وفي سنة ١٢٥٥ هـ او ١٨٣٧ م انشأت شركة البواخر الشرقية خطا تجاريا بين الهند وانكلترا عن طريق برزخ السويس بان تأتي المنقولات في البحر المتوسط الى اول البرزخ فتنقل في البر الى السويس ومنها في البحر الاحمر الى الهند وغيرها

وفي سنة ١٢٦٤ هـ او ١٨٤٦ م تعينت لجنة مختلطة للنظر في تقرير لابير فقررت ان الفرق بالارتفاع بين البحرين لا يعبأ به الا انها انحات ولم تصل الى نتيجة وتركت ذلك الى احد اعضائها الموسيو تالابوت فكان من رايه تتبع الترعة القديمة من السويس الى تل بسطة (قرب الزقازيق) راساً واحتفار ترعة من هناك الى راس الدلتا حيث القناطر الخيرية الآن فتقام لها قناطر تسير عليها مياه تلك الترعة الى البر الغربي ومن هناك تتم الترعة الى الاسكندرية . فكانه يريد ايصال البحرين بترعة تمر بين السويس والاسكندرية وتقطع راس الدلتا فلم يصادف مشروعه استحساناً لما كان يحول دون ذلك من المشاق . ثم قدم الخواجات بارولت تقريراً من مقتضاه ان يوصل البحر الاحمر ببحيرة المنزلة الى دمياط ثم يقطع النيل وتتم الترعة الى رشيد فيقطع فرع رشيد ايضاً وتوصل الترعة الى الاسكندرية فلم يصادف هذا نجاحاً ايضاً لمشابهته بمشروع تالابوت

وفي سنة ١٢٧١ هـ او ١٨٥٥ م اهتم لينان بك وموجل بك تحت ادارة الموسيو دلسبس في امر هذه المواصلة بعد ان حصل هذا الاخير على البراءة في ذلك من سعيد باشا والي مصر اذ ذاك فاقروا على وجوب فتح ترعة في خط مستقيم بين السويس وبلوسيوم عابرة في البحيرات المرة فبحيرة التمساح فالمنزلة . وان تتصل هذه الترعة من طرفيها بحواجز عند التقائها بالبحرين . واقرّا ايضاً على احتفار ترعة عذبة من بولاق مصر توصل المياه الى بلوسيوم . فعمل الموسيو دلسبس تقريراً في ذلك وعرضه سنة ١٨٥٦ على لجنة دولية مؤلفة من نواب دول اوستريا وانكلترا وفرنسا وايطاليا وهولندا وبروسيا واسبانيا فادخلت فيه تعديلات من مقتضاها ان تنتهي تلك الترعة من طرفها الشمالي في نقطة على مسافة ١٧ ميلاً ونصف الى الغرب من بلوسيوم حيث بورت سعيد الآن وسبب ذلك ان مياه البحر المتوسط هناك عمقها بين ٢٥ و٣٠ قدماً على مسافة ميلين من الشاطيء اما عند بلوسيوم فلا تبلغ هذا العمق الاعلى مسافة خمسة اميال . وان تغفل الحواجز عند طرفي الترعة . وتم الاتفاق على ذلك واخذوا في العمل وانتهى حفرها في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ في زمن الخديوي اسماعيل فاحتفل بفتحها احتفالا عظيما حضره ملوك اوربا او مندوبوهم كلف مصر نحو مليون جنيه

القناة والحكومة المصرية

تمّ انشاء هذه القناة بعقود مبرمة بين الحكومة المصرية والشركة التي انشأتها . فأول عقد ابرم في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ بين سعيد باشا والي مصر وبين فردينان دلسبس صاحب المشروع واذن له بمصادقة السلطان عبدالمجيد بتشكيل شركة من مقولي العالم لجمع المال اللازم لحفر القناة الموصلة بين البحرين ويكون لها حق الانتفاع بريعها ٩٩ سنة من يوم فتحها . وانه بعد انقضاء المدة المذكورة تحل الحكومة محل الشركة فيأول اليها جميع حقوقها وتصير الترعة وما يتبعها من الابنية ملكاً لها الا الادوات والاثاث فانها تدفع اثمانها . وتعهد سعيد باشا في ذلك العقد ان يشارك الشركه هو وحكومته لاخراج هذا المشروع لحيزالوجود . وتعهد في لائحة صدرت بعدسنتين ان يكون اربعة اخماس الفعلة الذين يشتغلون في حفر القناة من المصريين واشترطت اشياء اخرى لمصلحة الشركة

وتعهدت الشركة من الجهة الاخرى ان تنجز العمل في ست سنوات وان تتكفل هي بالنفات اللازمة وان القناة تكون طريقاً حراً لكل طارق بلا تفريق بين الدول او الامم وان يكون للحكومة المصرية ١٥ في المئة من صافي الربح ولها ان تشتري من اسهم الشركة المقدار الذي تريده

واضطرت الحكومة سنة ١٨٦٦ الى عقد وفاق ثالث مع الشركة يقضي على الحكومة بغرامة — وذلك ان السلطان عبد العزيز اعترض على تعهد سعيد باشا بتشغيل المصريين في القناة رغم ارادتهم واعتبر ذلك من قبيل السخرة الجبرية وهي تخالف الحرية الشخصية فاضطر اسماعيل باشا وهو الخديوي يومئذ ان يدفع للشركة غرامة مقدارها مليون ونصف من الجنيهات

ابتدات الشركة بالحفر سنة ١٨٥٩ واعلنت الاكتتاب باسهمها فاشترت الحكومة المصرية علي عهد سعيد باشا ١٧٧ ٦٤٢ سهماً وذلك يعدل نحو ٤٤ في المئة من راس مال الشركة واشترت فرنسا ١٦٠ ٢٠٧ سهماً اي نحو ٥٢ في المئة ولم تشتر انكلترا الا ٨٥ سهماً

ففتحت القناة للملاحة سنة ١٨٦٩ وبيد الحكومة المصرية ٤٤ في المئة من اسهمها ثم كان ما سيأتي ذكره من تهور اسماعيل في النفقات على البلاد وعلى نفسه واضطر للاموال فجعل يبدد مما في يديه من الاسهم . واحتاج اخيراً الى مبلغ كبير وكان لايزال عنده من الاسهم ١٧٦٠٠٠ فتقدمت فرنسا لابتياعها فانتبهت انكلترا لما يترتب على ذلك من تغلب نفوذ فرنسا في ذلك الطريق . فما زالت تسعى حتى ابتاعت تلك الاسهم بمبلغ

٤٠٠٠٠٠٠ جنيه وهي لو بقيت الي اليوم لبيعت بثلاثين مليوناً او اكثر

وتورط اسماعيل في السخاء فاحتاج الى مال آخر فاقترض مليون جنيه من شركة السنديكات الكبرى ورهن عندها حصة مصر من ارباح القناة اي ١٥ في المئة . فلما اقتضى اسرافه تداخل اوربا في الشؤون المالية المصرية ظهر للموجبين بالبحث والتفتيش ثقل ما تحملته مصر من الديون فوضعوا قانون التصفية وعجزت مصر عن دفع المليون المذكور فتنازلت عن الرهن وتألفت شركة فرنساوية دفعت الدين وقامت مقام مصر في الاستيلاء على حصتها المشار اليها . ويقدرون جملة ما وصلها من ذلك باربعين مليون جنيه

وكان اسماعيل قبل بيع اسهم القناة قد باع ارباحها لعشرين سنة فلما باع الاسهم لانكلترا سوت مسألة تلك الارباح بان تسددها الحكومة المصرية باقساط مقدارها ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه كل سنة الى سنة ١٨٩٦

وارادت الشركة ان تمد اجل امتيازها فعرض المستشار المالي ذلك بصفة مشروع يقضي بان تزيد الحكومة مدة امتياز الشركة ٤٠ سنة فضلاً عن الستين الباقية بحيث يصير آخرها سنة ٢٠٠٨ وتقبض مصر في مقابل ذلك اربعة ملايين جنيه تستولي عليها في اثناء اربع سنوات (من سنة ١٩١٠ — ١٩١٣) ويكون لها من سنة ١٩٢١ حصة من الربح تبدأ باربعة في المئة وتزداد الى ستة فثمانية فعشرة فاثني عشر في المائة الى سنة ١٩٦٩ وهي نهاية مدة الامتياز الاصلية . ومتى دخلت مدة الامتياز الجديد تستولي الحكومة المصرية فيه على خمسين في المئة من ارباح الشركة الصافية . ومتى انتهت هذه المدة سنة ٢٠٠٨ تصير القناة وابنيتها ملكاً لها الا الادوات والاثاث فتدفع قيمتها

ولما نشر المستشار مشروعه طلب الاهلون عقد الجمعية العمومية لاخذ رايها فيه وفوضت الحكومة اليها الحكم القطعي بشأنه فقررت رفضه

عود الى اسماعيل

وفي السنة الاولى من ولاية اسماعيل حلت ركاب السلطان عبد العزيز في القطر المصري فلاقى ترحابا جديراً به

وفي عام ١٨٧٢ تعدى الاحباش على حدود مصر مما يلي بلادهم واسروا بعضاً من رعايا مصر فبعثت الحكومة المصرية تطلب ردهم فجرت المخابرات فآل ذلك الى حرب جرد فيها اسماعيل حملة لم تنل غرضاً فانتهت الحرب بالصلح . وفي عام ١٨٧٣ شخص رحمه الله الى دار السعادة فاحتفل بقدومه فعاد وقد حاز رضى الحضرة الشاهانية ورجال

المابين الهمايوني . وفي تلك السنة احتفل بزواج انجاله الثلاثة وهم المغفور لهما توفيق باشا الخديوي السابق والبرنس حسن باشا والبرنس حسين باشا احتفالاً واحداً تحدث به الناس زمناً طويلاً ومما زاد ذلك الاحتفال بهجة انهم نالوا عندئذ رتبة الوزارة الرفيعة معاً

الديون المصرية

ولنأت الآن الى امر هو اهم الامور المتعلقة بصاحب الترجمة وعليها مدار ما آل اليه امره — نريد به امر الديون التي تعاظمت على مصر في ايامه . وايضاحا لذلك نذكر ملخص تاريخ الدين المصري . فأول من وضع جرثومة الدين المصري المغفور له سعيد باشا عام ١٨٦٢ وقدره الاسمي ٣٢٩٢٨٠٠ جنيه بفائدة ٧ بالمائة وفي السنة التالية تولى صاحب الترجمة تخت الحكومة المصرية فأخذ في البذل والانفاق في التشييد والبناء وغير ذلك حتى زادت النفقات على الدخل . فكان اذا اراد عملاً جنح الى الاستقراض لايبالي بعاقبة ذلك حتى بلغت ديون مصر نحو مئة مليون جنيه فأصبحت حملاً ثقيلاً على الخزينة المصرية وعلى اهالي البلاد لانه كان يضرب الضرائب الفادحة ليفي منها فائدة تلك الديون ويستخدم العنف في تحصيلها من الاهالي حتى آل الامر الى مداخلة الدول الاجنبية للمحافظة على اموال رعاياها اصحاب الديون

فتخابرت الدول وتشاورت في احسن الوسائل لضمان تلك الاموال واستهلاكها فألفت لجنة دولية مشتركة سموها صندوق الدين العمومي صدر الامر العالي بتشكيله في ٢ مايو عام ١٨٧٦ وورد في ذلك الامر ان هذا الصندوق قد انشىء لتأمين ارباب الديون على ديونهم واستلام مايستحق لهم من الفوائد وغيرها وان الحكومة لايجوز لها تجديد قرض الا بالاتفاق مع صندوق الدين وان الدعاوي التي يتراءى لصندوق الدين رفعها على الحكومة تنظر في المجالس المختلطة

وكانت الديون المصرية قسمين دين الحكومة ودين الدائرة السنية فضموهما في ٧ مايو من تلك السنة الى دين واحد فبلغ قدره ٩١ مليون جنيه وسموه الدين الموحد بفائدة ٧ بالماية ويتم استهلاكه في ٦٥ عاماً . ثم راى اسماعيل باشا ان توحيد الدين على هذه الصورة لايتيسر له اتمامه فأصدر في ١٨ نوفمبر منها امراً يقول فيه ان تصدر الحكومة المصرية عليها سندات بمبلغ ١٧ مليون جنيه تكون ممتازة برهن خصوصي هو السكة الحديدية المصرية وميناء الاسكندرية وفائدته ٥ بالمائة وسماه الدين الممتاز على ان كل هذه الوسائل لم تكن كافية لاقناع الدول لان الحكومة لم تكن تقوم

باستهلاك الديون حسب الشروط فعينت الدول عام ١٨٧٨ لجنة مالية مختلطة لمراقبة حسابات الحكومة المصرية فرات فيها عجزاً مقداره مليون ومائتا الف جنيه فتنازل اسماعيل باشا عن املاكه الخاصة واملاك عائلته للحكومة وهي التي تعرف باملاك الدومين وتقرر في تلك السنة استقراض ثمانية ملايين جنيه ونصف وجعلوا املاك الدومين رهناً لها وهذا هو الدين المعروف بدين روتشيلد

اقالته

وكانت اعمال الحكومة المصرية تجري بمقتضى ارادة الخديوي راساً اما بعد مداخلة الاجانب باحوال المالية فلم يراسماعيل بدًّا من جعل حكومته شوروية فشكل مجلس النظار على ما هو عليه الان برئاسة نوبار باشا وصادق على تعيين ناظرين احدهما انكليزي وهو المستر ولسن للمالية والاخر فرنساوي وهو المسيو بلينير للاشغال العمومية. فراى مجلس النظار ان يقتصد شيئاً من نفقات الجند فرفت جانباً منهم فثار المرفوتون وجاء جماعة منه وفيهم ٤٠٠ ضابط الى نظارة المالية وامسكوا بنوبار باشا والمستر ولسن وطلبوا اليهما دفع ما تأخر لهم من رواتبهم و خاطبوهم بعنف وشدة حتى عات الضوضاء وكادت تأول الى ثورة لولا ان اقبل اسماعيل باشا وخاطب الجند ووعدهم وامر بانصرافهم الى محالهم فلما راوه ذعروا وكانه جاءهم برقية او سحر فانكفأوا راجعين. والمظنون ان ذلك حصل بالتواطؤ من قبل وهي اول ثورة عسكرية حدثت في هذا العهد

ثم استقال الوزيران نوبار ورياض تخلصاً من عبء التبعة لما آنسوه في اعمال الخديوي من الخطر فشكل مجلساً آخر برئاسة ابنه توفيق باشا (الخديوي السابق) على ان ذلك لم يقلل شيئاً من القلاقل لان الداء لم يكن في المجلس ولكنه كان في مقاصد اسماعيل لانه استعظم اغلال يديه بمجلس فيه ناظران اجنبيان فقلب هيئة ذلك المجلس في ٧ افريل عام ١٨٧٩ واخرج الناظرين الاجنبيين وعهد برئاسة المجلس الى المرحوم شريف باشا فعظم ذلك على دولتي انكلترا وفرنسا لانهما اعتبرتا تلك المعاملة اهانة لهما فعمدتا الى الانتقام فسعتا في ذلك لدى الباب العالي سرًّا وجهراً وفي ٢٦ يونيو عام ١٨٧٩ صدر الامر الشاهاني باقالته وتولية المغفور له توفيق باشا وفي ٣٠ منه سافر اسماعيل باشا من القاهرة الى الاسكندرية ومنها الى اوربا ويقال انه خاطب ابنه توفيق باشا عند سفره قائلا :

« لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم ان تكون يا أعز البنين خديوي مصر فاوصيك بخوتك وسائر الآل برًّا واعلم اني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك ان ازيل

بعض المصاعب التي أخاف ان توجب لك الارتباك على اني واثق بحزمك وعزمك فاتبع راي ذوي شوراك وكن اسعد حالاً من ابيك »

وما زال بعد سفره مقيماً في اوربا حتى افضت به الحال الى الاقامة في الاستانة العلية فأقام فيها الى ان توفاه الله فيها في ٦ مارس عام ١٨٩٥ وله من العمر ٦٥ سنة فحملت جثته الى مصر ودفنت فيها

اعماله وآثاره

قلنا ان اسماعيل باشا كان شديد الشغف بتنظيم المدن حتى قيل انه يريد ان يجعل القاهرة تضاهي باريس بالنظام والترتيب فنظم طرقها ووسعها واكثر من فتح الشوارع الجديدة وابتناء الابنية الفاخرة كالاوبرا الخديوية والقصور الباذخة في القاهرة والاسكندرية واعظم تلك الابنية سراي الجيزة وهي مما تقصر عنه همم الملوك حتى ضربت بها الامثال وانشأ المتحف المصري في بولاق والمكتبة الخديوية وهما من اجل الآثار وانفعها . اما المتحف فقد انشأه بأمره ماريت باشا وقبره فيه . وكان المتحف اولاً في بولاق ثم نقل على عهد الخديوي السابق الى سراي الجيزة ثم نقل في عهد الخديوي الحالي الى بناية بنوها له خاصة بجوار قصر النيل

ش ٧١ ماريت باشا مؤسس المتحف المصري

وماريت باشا فرنساوي الاصل ولد في بولون سيرمير سنة ١٨٢١ ونشأ على حب الآثار المصرية ودرسها . ثم اتفق سنة ١٨٥٠ ان الانكليز انفذوا الى مصر وفداً لغويا يبحث في مكاتب الديور المصرية عن الكتابات القبطية القديمة فعثروا في دير بوادي النطرون على اوراق كثيرة ارسلوها الى لندن فاقتدي الفرنساويون بهم وكانوا انما برجون بابحاثهم هذه العثور على حقائق جديدة تتعلق بتاريخ اليونان . وكان ماريت قد اشتهر بينهم بمعرفة هذه اللغة فعينوه في هذه المهمة براتب مقداره ثمانية آلاف فرنك فسافر في ٤ سبتمبر سنة ١٨٥٠ حتى جاء القاهرة فراى انه لا يستطيع الذهاب الى ذلك الدير او غيره الا بوصية من بطريرك القبط وكان البطريرك قد غضب من تصرف الوفد الانكليزي لانهم حملوا ما حملوه من الكتب جبراً . وبعد السعي والالتماس رضي ان يكتب الى ماريت كتاب توصيه بأسم رئيس دير الانبا مقار. على ان ماريت لم يكن يرجو الحصول على ذلك الكتاب قبل مضي ١٥ يوماً . فلكي لايضيع فرصة اخذ يتعهد مشاهد القاهرة فسار الى القلعة . وكان ذهابه اليها سبباً لتغيير عظيم في مستقبل حياته لانه اشرف من سورها على ضواحي العاصمة فراى اهرام الجيزة واهرام سقارة فتاقت نفسه الى زيارتها وقد نسي ماجاء من اجله فركب الى سقارة وتوغل في صحرائها يتوقع العثور على آثار مهمة لقربها من انقاض منف العظمى فوقف يتفرس في تلك الرمال القاحلة فراى فيها حجراً ناتئاً يشبه رأس الانسان فتأمله فاذا هو رأس ابي الهول . وكان قد شاهد تمثال هذا التمثال قبلاً فلم يهمه ذلك الاكتشاف لغرابته ولكنه توسم منه خيراً لما سبق الى ذهنه مما قراه في استرابون عن آثار منف وما زال حتى وفق الى اكتشاف السرابيون في تاريخ طويل فصلناه في ترجمته في مشاهير الشرق الجزء الثاني ولما تولى اسماعيل هم بانشاء متحف للآثار المصرية فلم يجد اولى منه . وتوفي ماريت سنة ١٨٨٠

اما المكتبة الخديوية فما زالت في درب الجماميز حتى نقلت الى بناية بنوها لها والمتحف العربي بباب الخلق تفتخر بها مصر على سائر الامصار الشرقية لما حوته من الآثار العلمية وبينها جانب كبير من الكتب الخطية التي يعز وجودها

ومن اعمال اسماعيل انه جرّ الماء بالانابيب الى بيوت العاصمة وكان الناس يستقون قبلاً بالقرب والصهاريج وعمم زرع الاشجار في المدن وضواحيها وانار القاهرة بالغاز وادرك ماينجم عن الحريق باستجلاب آلات الاطفاء

وهو الذي نظم معظم فروع الادارة على ما هي عليه الان فقسم القطر المصري

ش ٧٢ : نوبار باشا معين الخديوي اسماعيل في انشاء المجالس المختلطة

الى ١٤ مديرية وعين لها المراكز واسس مجلس النواب ونظمه . ونظم مجالس القضاء الاهلي والقضاء الشرعي وجعل لكلٍّ روابط وحدوداً . ووضع نظام المجالس الحسبية وانشأ مجلس حسبي القاهرة . وعلى عهده انشئت المجالس المختلطة بمساعي وزيره نوبار باشا فانفذه سنة ١٨٦٧ الى اوربا مندوباً مفوضاً لمخابرة الدول العظمى في انشاء محاكم مختلطة تقوم مقام المحاكم القنصلية التي كانت مرجع محاكمة الاجانب في ذلك الحين فقضى في سعيه هذا سبع سنوات يتردد في اثنائها بين ممالك اوربا ويفاوض عظماءها وملوكها والخزينة المصرية مفتوحة بين يديه فانفق اموالاً طائلة ولكنه عاد ظافراً غانماً . وقد اراد اسماعيل بتلك المجالس تقليل نفوذ القناصل وحصر التوسط الاجنبي ولكنها كانت سبباً لزيادة النفوذ واتساع دائرته . وكانت مصلحة البريد قبلا شركات اجنبية فانشأ مصلحة البوسطة المصرية وجعلها من المصالح الاميرية كما هي الان

البريد المصري

كان البريد في زمن محمد علي ينقل على الخيل او على ايدي السعاة بين القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد . ولما تكاثر الاجانب شعروا بالحاجة اليه فانشأوا بريداً افرنجيا تولاه رجل ايطالي سنة ١٨٤٠ وتولاه غيره حتى دخل في خدمته ايطالي آخر اسمه جاكمو موتسي وكان نشيطاً درباً فعمل على توسيع نطاقه فانشأ له نحو سنة ١٨٥٤ فروعاً في دمياط والمنصورة وزفتى ودمنهور ورشيد وطنطا وغيرها

ش٧٣ : موتسي بك — اول مدير البريد المصري

فقامت المناظرة بين البريد الاوربي وبريد الحكومة المصرية . ولم تكن الحكومة تستطيع الغاء ذلك البريد احتراماً للامتيازات الاجنبية فسعت في ضم البريدين وجعلت فاتحة ذلك الاتفاق رخصة وقتية اعطتها لصاحبي البريد الاوربي تيتوكين وموتسي تخولهما ادارة البريد بمصر الى عشر سنوات على ان تنقل المراسلات بالسكة الحديدية المصرية مجاناً فكان ذلك فاتحة تنظيم البريد

وتوفي تيتوكين بعد سنتين واستقل موتسي بالعمل وخطر له الرجوع الى بلده فاراد ان يبيع الرخصة لبعض البنوك الافرنجية فاغتنمت الحكومة هذه الفرصة وعرضت على موتسي المذكور ان يعيد البريد للحكومة قبل انتهاء مدة الرخصة ويتولى

ادارته بنفسه على شروط رضيها وانضم البريدان سنة ١٨٦٥ وسميا معاً « البوسطة الخديوية » وسمي جاكمو موتسي مديراً عاما عليها وانعم عليه بالرتبة الثانية مع لقب بك فصار اسمه موتسي بك وهو اول مديري البريد المصري

وتكاثر قدوم الاجانب الى مصر في عصر اسماعيل وزادت الحركة التجارية زيادة كثيرة وزادت الحاجة الى البريد فانشأ موتسي بك فروعاً له في البلاد والقرى الكبرى في مصر السفلى والعليا وعلى شواطيء البحرين الابيض والاحمر وجعل ديوانه المركزي في الاسكندرية وسن له لائحة وقوانين رسمية وجعل لمراسلاته تعريفة عمومية . وكانت المراسلات تنقل في اول عهد البريد بلا طوابع . فاصطنع موتسي بك طوابع البريد المصري لاول مرة سنة ١٨٦٦ وجعل رسمها مثل رسمها الان في وسطه صورة ابي الهول والاهرام بشكل بيضي وحوله اسم البريد وقيمة الطابع

وما زال البريد المصري مستقلاً عن البرد الافرنجية الى سنة ١٨٦٨ فعقد اول معاهدة في هذا السبيل مع بريد النمسا ثم عقد معاهدة اخرى مع بريد ايطاليا وفي سنة ١٨٧٣ عقد معاهدة ثالثة مع بريد انكلترا وفي السنة التالية (١٨٧٤) دخل البريد المصري في اتحاد البوسطة العام

﴿ المطابع والجرائد ﴾ وحسن اسماعيل مطبعة بولاق وزاد فيها وامر بترجمة الكتب المفيدة وطبعها ونشرها واسس معملاً للورق ونشط المطبوعات فلم يكن في القاهرة الا جريدة الوقائع المصرية تصدر على غير نظام فجعل لها ادارة خاصة بها . وتكاثرت على عهده المطابع والجرائد العربية كجريدة التجارة ومصر والوطن والاهرام والكوكب الاسكندري وروضة الاسكندرية وروضة المدارس واليعسوب ونزهة الافكار وحديقة الابصار وبالجملة فقد كانت للعلم في ايامه نهضة مرجع الفضل بها اليه لانه كان يحب العلماء ويجيز المجيدين منهم ويأخذ بناصرهم مادياً وادبياً وكان يشهد الاحتفال بامتحان التلامذة بنفسه ويسلم الجوائز لمستحقيها بيده وقد ينهض عند تقديمها تنشيطاً لهم

﴿ المواصلات ﴾ ولم يكن في القطر المصري يوم توليه الا خط حديدي ممتد بين القاهرة والاسكندرية فانشأ كثيراً من الخطوط الاخرى الممتدة الى سائر انحاء القطر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ومد اسلاك التلغراف حتى اوصلها الى السودان وقد بلغت نفقات الخطوط الحديدية والآلات التجارية والعربات والآلات التلغرافية التي احدثها بين عام ١٢٨١ و ١٢٩٠ هـ ٩٦٥٨٣٢٧ جنيهاً على تقدير المرحوم صالح مجدي بك

﴿ الابنية ﴾ ومن آثاره مدينة الاسماعيلية بناها على قنال السويس وسماها باسمه وجعل

بها الحدائق والقصور وانشأ المنارات في البحرين الابيض والاحمر وزين حديقة الازبكية بغرس اشجارها وتسويرها ورتب فيها الموسيقى وبنى بنايات كثيرة بالقرب من طرهعلى طريق حلوان لمعامل البارود والاسلحة الصغيرة انفق على بنائها مبالغ كبيرة ولكنه لم يستعملها . وبنى ليمان الاسكندرية والحمامات المعدنية في حلوان ولولاها لم تعمر حلوان وبنى المرصد بالعباسية وكثيراً من معامل السكر في سائر انحاء القطر هذا فضلاً عن الترع الكثيرة والجسور الهائلة . ومن اشهر تلك الترع الابراهيمية بالصعيد والاسماعيلية بين القاهرة والسويس . ومن اعظم الجسور كبري قصر النيل الموصل بين القاهرة والجزيرة وبنى حوضاً لترميم السفن في السويس

ش ٧٤ : سوق الرقيق في الخرطوم — تاجر يساوم على جارية

ومما تمَّ على يده من الاعمال العظيمة ابطال تجارة الرقيق واتمام فتح السودان واخضاعها فافتتح مملكة دارفور عام ١٢٩١ هـ وما بعدها حتى بلغت جنوده الدرجة الرابعة من العرض وراء خط الاستواء . وعني في تحسين احوال السودان فمهد شلال وادي حلفا . وفتح سدًّا كبيراً جنوبي مديرية فشوده طوله ستون ميلاً كان يعيق مسير السفن في النيل الابيض فتسهلت طرق التجارة كثيراً . ومن مآثره تسهيل اكتشاف ماغمض من قارة افريقيا بمد اصحاب الخبرة كما سيأتي في مقدمة الكلام عن الحوادث السودانية

النهضة العلمية في ايامه

وقد علمت ما كان من رواج العلم في زمن محمد علي ثم اصابته صدمة في زمن عباس وسعيد . والاول حالما تولى اقفل المدارس كلها الا واحدة سماها المدرسة المفروزة لتخريج الضباط البرية والبحرية — حتى مدرسة الطب فانه ابدلها بمدرسة بسيطة لاخراج الاطباء للجيش فقط . وكان يختار من تلامذة هاتين المدرستين جماعة يرسلهم الى اوربا لاتمام دروسهم كما كان يفعل جده محمد علي

وجاء بعده سعيد باشا ولم يكن اكثر رغبة من سلفه في التعليم وكان مع ذلك متقلباً ينشيء المدارس ثم يامر باقفالها ثم يفتحها ويقفلها على مايبدو له او تمس الحاجة اليه او تبعث الحالة عليه . وكان عباس الاول لما اقفل المدارس استبقى ديوانها فاجهز سعيد باشا على مابقي وحل ذلك الديوان وما زال محلولاً حتى اعاده اسماعيل

تولى اسماعيل باشا سنة ١٨٦٣ وليس في مصر الا مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية ومدرسة حربية ومدرسة طبية صيدلية . وكانت هذه المدارس في حالة يرثى لها من الاختلال والتضعضع فامر بتنظيمها وعهد بذلك الى ادهم باشا وكان قد تولى ديوان المدارس بعد مختار بك سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤٩ ففوض اليه احياء التعليم مهما كلفه احياؤه . فأنشأ في ناحية العباسية مدرسة ابتدائية ومدرسة تجهيزية ومدرسة حربية للفرسان والمشاة ومدرسة هندسية ومدرسة للطب . واستقدم للمدرسة الحربية مديراً واساتذة من اوربا وعهد بالمدارس الاخرى الى اساتذة من الوطنيين المتخرجين في فرنسا . ولو امعنت النظر في الاحوال السياسية التي كانت محيطة باسماعيل لرايته انشأ هذه المدارس لمثل الغرض الذي انشأها له جده محمد علي منذ اربعين سنة . لان عنايته الكبرى كانت متجهة على الخصوص الى المدارس الحربية والى ما يهيء رجالاً يخدمون حكومته . واقتدى بجده ايضاً في ارسال الشبان الى اوربا لاتمام علومهم

وسهل اسماعيل قدوم الاجانب الى مصر ورغبهم فيها فانشأوا المدارس على ما يلائم اغراضهم ولكنها عادت بالنفع على الشبيبة المصرية وكثيراً ما كانت الحكومة تنشط هذه المدارس بالرواتب السنوية . وحدث في ايام اسماعيل نهضة ادبية بمن وفد على مصر من رجال الادب من كل الطوائف وانشئت الصحف وتألفت الجمعيات . فراى الحال ماسة الى زيادة العناية في التعليم فأنشأ نظارة المعارف العمومية وعهد اليها بتنظيم المدارس على نمط جديد . فالحقوا مدرسة الحربية بنظارة الحربية وسموا مابقي من المدارس « المدارس الملكية » تحت نظارة المعارف العمومية وقسموها الى ثلاث طبقات بحسب

رجة التعليم : ابتدائية وثانوية وعليا وانشأوا مدارس لم تكن من قبل كمدرسة الادارة م صارت مدرسة الحقوق ومدرسة دار العلوم ومدرسة الصنائع والفنون في بولاق مدرسة المعلمين واعادوا مدرسة الالسن لتخريج شبان يتولون الترجمة والتحرير في دواوين . اما التعليم العالي فظل محصوراً في المدرسة التجهيزية واكثر وزراء اسماعيل املاً في ذلك المرحوم علي باشا مبارك

ش ٧٥ : علي باشا مبارك — وزير المعارف المصرية

ولم تمض عشر سنوات من حكم اسماعيل حتى كمل نظام هذه المدارس وعنيت الحكومة بانشاء الكتاتيب في سائر انحاء القطر فبلغ عددها بضعة آلاف وزاد عدد التلامذة على مئة الف وفي جملتها مدارس للبنات . غير ما انشأه الاجانب من المدارس الخصوصية وا كثرها لجماعة المرسلين من الطوائف النصرانية

وفي عهده تأسست المحافل الماسونية الوطنية وبحمايته تعزز شان الجمعية الماسونية في مصر وانتشرت مبادئها حتى انتظم في سلكها نجله المغفور له الخديوي السابق وجماعة كبيرة من امراء البلاد ووجهائها

ش ٧٦ : السيد جمال الدين الافغاني في موقف الخطابة

وحدثت في اواخر ايام اسماعيل حركة فكرية وافقت قدوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر فزادت الحركة . وجمال الدين من كبار الرجال كان له مطمع في الاصلاح السياسي فاتى مصر سنة ١٨٧١ على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستمالته مساعيه الى المقام واجرت عليه الحكومة راتباً مقداره الف قرش مصري كل شهر نزلاً اكرمته به لا في مقابلة عمل . واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فاورى واستفاضوا بحره ففاض . وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الاعلى والحكمة النظرية من طبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم اصول الفقه الاسلامي . وكانت مدرسته بيته فعظم أمره في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الاخذ عنه واعجبوا بعلمه وادبه

وانطلقت الالسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية . ثم وجه عنايته لتمزيق حجب الاوهام عن انوار العقول فنشطت لذلك الباب واستضاءت بصائره وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه — وكان القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة قليلين

فنبغ من تلامذته في القطر المصري كتبة لايشق غبارهم ولايوطأ مضمارهم واغلبهم احداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم الا من اخذ عنه او عن احد تلامذته او قلد المتصلين به وقد ترجمناه مطولاً في الجزء الثاني من تراجم مشاهير الشرق

وخلاصة القول ان مصر كانت في ايام اسماعيل زاهرة والناس في رغد ورخاء وخصوصاً بعد ارتفاع اثمان الاقطان في اثناء حرب اميركا فان ثمن القنطار الواحد بلغ ١٦ جنيهاً فكان سكان هذا القطر السعيد وفيهم الكاتب والشاعر والتاجر والصانع يتحدثون بمآثره وانعامه وتنشيطه . على ان العقلاء منهم كانوا لا يغفلون عن ذكر ما كان من اسرافه فوق ما تحتمله حال البلاد وتنبأ بعضهم بمنقلب تلك الحال ووقوع مصر في وهدة الدين وتعرضها لمطامع الدول الاجنبية . والواقع انه لم يترك هذه الديار الا وقد بلغت ديونها زهاء مئة مليون جنيه كما رايت . وهي لا تزال تئن من وطأتها الى الان وكان ذلك من اعظم الاسباب لمداخلة الاجانب في ادارة البلاد ومراقبة اعمالها

على اننا لا ننكر ان الاصلاحات التي اجراها ببعض تلك الاموال قد عادت على البلاد بالنفع الجزيل . ولكننا لا نرى انها تعوض الخسارة كلها وزد على ذلك انه لو احسن التصرف في النفقات وسار بها سيراً قانونياً لكانت العواقب احسن كثيراً ولاصبحت مصر في غنى عن كل هذه التقلبات . ويقال ان مقدار الاموال التي دفعت من خزينة الحكومة المصرية بأمره يغير تسمية المدفوع اليه — بمعنى انه كان يرسل الى المالية تذكرة بأمضائه يقول فيها ادفعوا الى رافعه المبلغ الفلاني فيدفعونه وهم لا يعلمون مصيره — فقد جمعت هذه المبالغ فبلغت ٨٤ مليوناً من الجنيهات . فاذا صحت هذه الرواية كان هذا المبلغ وحده كافياً لوفاء دين مصر

صفاته

كان اسماعيل باشا ربعة ممتلىء الجسم قوي البنية عريض الجبهة كثيث اللحية مع ميل الى الشقرة اما عيناه فكانتا تنقدان حدة وذكاء مع ميل قليل نحو الحول او ان احداهما اكبر من الاخرى قليلاً

وكان جريئاً مقداماً ذا قوة غريبة على اقامة المشروعات كثير العمل لا يعرف التعب ولا الملل ولا مستحيل عنده . وكان ساهراً على ماجريات حكومته لاتفوته فائتة واما اعمال الدائرة السنية فقد كان يطلع على جزئيات اعمالها وكلياتها فلا يباع قنطار من الفحم الا بمصادقته

وكان عظيم الهيبة جليل المقام لا يستطيع مخاطبه الا الانقياد الى رأيه حتى قيل على سبيل المبالغة ان الذين يخاطبونه يندفعون الى طاعته بالاستهواء او النوم المغنطيسي

وكان حسن الفراسة قل ان ينظر في امر الا استطلع كنهه فاذا نظر الى رجل عرف سرّه او تنبأ بمستقبل امره . ومما يتناقلونه عنه انه ادرك مستقبل احمد عرابي وهو لا يزال ضابطاً صغيراً فأوصى المغفور له الخديوي السابق ان لا يرقيه لئلاً يتمكن من بث روحه الثورية فتقود الى مالا تحمد عقباه

وكان يتكلم الفرنساوية جيداً وهي اللغة التي يخاطب بها الاجانب ويحسن العربية والتركية والفارسية ويحب الفخر والبذخ والابهة وكان منغمساً في الترف مكثراً من السراري والحظايا شديد الوطأة على العامة

ولكنه مع ذلك كان كثير الميل الى تنشيط المعارف ورفع منار العلم . ويؤيد ذلك ان مصر بليت عام ١٨٧٤م بطغيان النيل فاصابها جهد عظيم فوجه التفاته الى حال المزارعين والتجار فاراد جماعة من تجار الاسكندرية او يقيموا له تمثالاً تذكاراً لفضله فابى وامر ان يقام بدل ذلك التمثال مدرسة للتعليم

تركته ووصيته

يعسر تقدير تركة اسماعيل تقديراً مدققاً لكثرة فروعها واختلاف جزئياتها وتفرقها في البلاد ولكن المعروف من تركته انه استبدل معاشه قبل مماته باثنين وعشرين الف فدان من الاطيان باع الفين منها للاوقاف العمومية و١٥٠٠ للجناب العالي فبقي له ١٨٥٠٠ فدان منها ١٢ الف فدان في تفتيش انياي البارود وقفها على زوجاته الثلاث في حياتهن ثم يرثها ورثته بعدهن . والباقي وقدره ٦٥٠٠ فدان يقسم على الورثة . وترك غير ذلك مما ورثه عن والدته وهو ٥٠٠٠ فدان وهبها لها المرحوم عباس باشا الاول وهي مرهونة و ٩٠٠ فدان وقصراً في حلوان وسراي القصر العالي و٣٤ فداناً تابعة لها . وما ورثه عن ابنه المرحوم البرنس علي باشا جمالي الذي توفي منذ بضع عشرة سنة وهو ٦٠٠ فدان . وترك في العباسية قصر الزعفران وفي الاستانة

قصر ميركون وهو يحتوي على قصرين كبيرين وقصرين صغيرين . وترك فيها ايضاً قناق بابزيد وتقدر قيمة ارضه بثلاثين الف جنيه واصله للمرحوم البرنس حليم باشا ورثه عن اخته زينب هانم فاخذه جلالة السلطان منه ووهبه للفقيد . فهذه التركة كلها ما عدا سراي الزعفران تقسم على الورثة بعد ايفاء ديونه التي تقدر بنحو ١٨٠ الف جنيه

اما وصيته فانه كان قد اضاف ٤٧٠٠ او ٤٨٠٠ فدان من اطيانه في ايام ولايته الى الاطيان الموقوفة على اهل قواله وقدرها ١٠ آلاف فدان في كفر الشيخ وجعل لنفسه الشروط العشرة في هذا الوقف بما فيها من حق التغيير والابدال . ثم آلت نظارة هذا الوقف اليه ففصل ٤٧٠٠ فدان التي اضافها اليه عملاً بحقه ووقفها على حاشيته كلها ولم يستثن احداً منهم فرنساوياً كان مثل سكرتيره او انكليزيا مثل طبيبه او غيرهما من الاتباع والجواري اللواتي يبلغ عددهن ٤٥٠ جارية عدا ٤٠٠ بيضاء كان قد زوجهن باعيان مصر قبل مفارقته هذه البلاد

وقد اقام صديقه الحميم راتب باشا وكيلا لحرمه واوصى ان يعطى ١٥٠ جنيهاً شهرياً وان تعطى حرمه ٥٠ جنيهاً شهريا وان يضاف راتبها الى راتبه اذا توفيت في حياته ويؤخذ راتبهما كليهما من تفتيش اتياي البارود

وتأول نظارة وقف قواله بعده الى البرنسس زبيدة هانم بنت محمد علي باشا الصغير ابن محمد علي باشا الكبير . وتأول نظارة وقف القصر العالي الى البرنس عثمان باشا فاضل ولهذا الوقف بيوت ونحو ١٢٠٠ فدان من الاطيان ويبلغ دخله نحو ٥ آلاف جنيه سنوياً . وقد ترك سراي الزعفران لحرمه الثلاث . وكذلك كل منقولاته وقيمتها غير معلومة

محمد توفيق باشا الخديوي السابق

ولد سنة ١٨٥٢ وتولى سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٨٩٢

هو اكبر انجال المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق ولد سنة ١٨٥٢ وادخله والده مدرسة المنيل وسنه تسع سنوات فدرس فيها اللغة والجغرافيا والتاريخ والطبيعيات والرياضيات واللغات العربية والتركية والفرنساوية والانكليزية وكان

ش ٧٧ : محمد توفيق باشا الخديوي السابق

ميالاً للعلم من صغر سنه فاحرز منه جانباً اهله لرئاسة المجلس الخصوصي في حياة والده وسنه ١٩ سنة . ثم تقلد نظارة الداخلية ونظارة الاشغال العمومية ورئاسة مجلس النظار

ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره تزوج بكريمة المرحوم الهامي باشا وهي مشهورة بالجمال والتعقل والكمال . وفي السنة التالية (١٨٧٤) ولد له بكره (الخديوي الحالي) فسماه عباس حلمي . ثم ولد البرنس محمد علي سنة ١٨٧٦ والبرنسس خديجة هانم

سنة ١٨٧٧ والبرنس نعمت هانم سنة ١٨٨١

وما زال يتقلد المناصب في عهد المرحوم ابيه حتى قضت الاحوال باقالته كما تقدم في ترجمته . فاستلم رحمه الله ازمة الاحكام في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وجاءه التلغراف من الصدر الاعظم يؤذن بذلك هذا نصه :

« بناء على ان الخطة المصرية هي من الاجزاء المتممة لجسم ممالك السلطنة السنية وان غاية حضرة صاحب الشوكة والاقتدار انما هي تأمين اسباب الترقي وحفظ الامن والعمارة في الممالك وبناء على ان الامتيازات والشرائط المخصوصة الممنوحة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية . وبناء على تزايد اهمية ما حصل في القطر المصري ناشئاً عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية فمن الفائدة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالي اسماعيل باشا . ثم انه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية الآصفية من الرشد وحسن الروية على ما ثبتت لدى ملجاء الخلافة الاسمى من ان جنابكم الداوري ستوفقون الى استحصال اسباب الامنية والرفاهية لصنوف الاهالي والى ادارة امور المملكة على وفق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الارادة العلية بتوجيه الخديوية الجليلة الى عهدة استئهال آصفانيتكم وبناء على الفرمان العلي الشأن الذي سيصدر حسب العادة على مقتضى الارادة السنية السلطانية التي صار شرف صدورها . وبناء على ما كتب في التلغراف الى حضرة المشار اليه اسماعيل باشا من تخليه عن النظر في امور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله . وقد حرر تلغراف هذا العاجز لكي يعلن حال وصوله للعلماء والامراء والاعيان واهل المملكة جميعاً وتباشر من بعده امور الحكومة . وهذا من التوجيهات الوجيهة الى اثر استحقاق آصفانيتكم لتجري التنظيمات والترقيات مبدأ ومقدمة ويصير تكرير الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة الى ايفاء لوازم التهنئة لحضرتكم ايها الخديوي المعظم والامر والفرمان على كل حال لمن له الامر افندم »

الامضاء

خير الدين

فصدرت الاوامر باعداد ما يلزم للاحتفال بذلك وجلس سموه في القلعة يستقبل المهنئين من الوزراء والعلماء يتقدمهم نقيب الاشراف ثم القاضي ثم شيخ الجامع الازهر ثم جاء القناصل وبعد ذلك دخل الذوات وامراء العسكرية والملكية ثم رجال الحقانية ثم النواب ووجهاء البلاد ثم ارباب الجرائد ثم الموظفون والمستخدمون وغيرهم . ومن

جملة من وفد للتهنئة وفد ماسوني جاء بالنيابة عن الشرق الاعظم المصري فقدم عبوديته فنال من سموه عواطف الرضاء عنهم وعن اعمالهم ووعدهم رعاية محافلهم وحمايتها فانصرفوا شاكرين . وبعد ذلك ارسل الجناب الخديوي تلغرافاً الى الباب العالي جواباً على التلغراف المؤذن بارتقائه الى كرسي الخديوية

كيف كانت حالة مصر

لما تولاها توفيق باشا

اقبل اسماعيل ومصر تحت المراقبة المالية وقد فرغت خزينتها من المال وافسدت قلوب جندها على امرائهم حتى كسروا قيد الحرمة بالثورة التي احدثها اسماعيل . وقد تنافرت قلوب سكان هذا القطر بسياسة خديويها المعزول فانه اغضب العامة بشدته وطأته عليهم وجعل الاغنياء في خطر على اموالهم وبعث الاجانب على سوء الظن بالحكومة لتأخرها عن دفع ديونهم ولم يتفق الدول على العمل في حفظ حقوقها . وقد اشتد كره العرب للاتراك وخوف الاتراك من الافرنج فلم يكن ثمت مندوحة عن الاستعانة باوربا لتسوية الاحوال واستمرارها

وكان في جملة المشاكل التي خلفها اسماعيل بمصر اضطراب العلائق بينها وبين الباب العالي . وكان الباب العالي قد منح اسماعيل امتيازات اهمها اربعة (١) جعل ولاية العهد في الابناء (٢) حق عقد المعاهدات التجارية مع الدول (٣) عقد القروض المالية (٤) زيادة عدد الجند حسب الحاجة . فلما اقبل اسماعيل اراد السلطان الغاء هذه الامتيازات وتصدت للدفاع عنها انكلترا وفرنسا صاحبتا المراقبة على احوال مصر . وكانت فرنسا تحب قطع علاقة مصر مع الباب العالي او حلها على الاقل . واما انكلترا فكانت لا ترى خروج مصر من سيادة الدولة العثمانية . واتفقت الدولتان على بقاء الارث في البكر من الابناء لانه ادعى الى منع الفتن والدسائس ودافعتا عن تفويض مصر في عقد المعاهدات التجارية وعقد القروض . لكن السلطان افلح في تحديد عدد الجند فجعله لا يزيد على ١٨٠٠٠ جندي وصدر الفرمان بذلك في ٤ اوغسطس سنة ١٨٧٩ وهذا نصه :

الفرمان بولاية توفيق باشا

« الدستور الاكرم والمعظم الخديوي الافخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الامم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالراي الصائب ممهد بنيان الدولة

الاقبال مشيد اركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوي مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلاً الحامل لنيشانتا الهمايوني المرصع العثماني ولنيشانتا المرصع المجيدي وزيري سمير المعالي توفيق باشا ادام الله تعالى اجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره واقباله

« انه لدى وصول توقيعنا الهمايوني الرفيع يكون معلوماً لكم انه بناء على انفصال اسماعيل باشا خديوي مصر في اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ هـ وحسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا ان لكم وقوفاً ومعلومات تامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفؤ لتسوية بعض الاحوال الغير المرضية التي ظهرت بمصر منذ مدة واصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضي المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقاً للقاعدة المتخذة بالفرمان العالي الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى اكبر الاولاد وحيث انكم اكبر اولاد الباشا المشار اليه قد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية . ولما كان تزايد عمران الخديوية وسعادتها وتأمين راحة كافة اهاليها وسكانها ورفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا ومن اجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر ان بعض احكام الفرمان العالي الشأن المبني على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيه الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديماً نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد التي لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضي تبديلها وتعديلها واصلاحها فاتقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية وهي :

« ان كافة واردات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهاني . وحيث ان اهالي مصر ايضاً من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة امور المملكة والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع في حقهم ادنى ظلم ولا تعد في وقت من الاوقات خديوي مصر يكون مأذوناً بوضع النظامات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة . وايضاً يكون خديوي مصر مأذوناً بعقد وتجديد المشارطات مع مأموري الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة امور المملكة الداخلية لاجل ترقي الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السارة التي بين الحكومة والاجانب او بين الاهالي والاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات

دولتنا العلية البولوتيقية وفي حقوق متبوعية مصر اليها . وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالي . وايضاً يكون حائزاً للتصرفات الكاملة في امور المالية لكنه لا يكون مأذوناً بعقد استقراض من الآن وصاعداً بوجه من الوجوه وانما يكون مأذوناً بعقد استقراض بالاتفاق مع المدائنين الحاضرين او وكلائهم الذين يتعينون رسمياً . وهذا الاستقراض يكون منحصراً في تسوية احوال المالية الحاضرة ومخصوصاً بها . وحيث ان الامتيازات التي اعطيت الى مصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصت بها الخديوية واودعت لديها لا يجوز لاي سبب او وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها او بعضها اوترك قطعة ارض من الاراضي المصرية الى الغير مطلقاً . ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ الف ليرة عثمانية وهو الويركو المقرر دفعه في كل سنة في اوانه . وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني . ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر الفاً لان هذا القدر كاف لحفظ امنية ايالة مصر الداخلية في وقت الصلح . وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من اجل دولتنا يجوز ان يزاد مقدار العساكر بالصورة التي تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة . وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم . ويباح لخديوي مصر ان يعطي الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة اميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية . ولا يرخص لخديوي مصر ان ينشيء سفناً مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية . ومن الواجب وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها . وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد اصدرنا امرنا هذا الجليل القدر الموشح اعلاه بخطنا الهمايوني وهو مرسل صحبة افتخار الاعالي والاعاظم ومختار الاكابر والافاخم علي فؤاد بك باشكاتب المابين الهمايوني ومن اعاظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف »

« حرر في ١٩ شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العزة والشرف »

وكان توفيق باشا من اشد الخديويين غيرة على الوطن المصري ولم يكن له بدٌّ من تشكيل وزارة يثق بها تعينه على الحكومة مع تحديد سلطته وسلطتها وعلاقة البلاد بالدولة العثمانية . فانتدب المرحوم شريف باشا لتشكيل وزارة فابى الدعوة لكنه عرض عليه لائحة في انشاء الدستور فلم يوافق الخديوي عليها فقدم استعفاءه في ١٨ اوغسطس

سنة ١٨٧٩ فقبل . فعزم الخديوي رحمه الله ان يتولى رئاسة الوزارة بنفسه . ولم يطل ذلك فانتدب رياض باشا لتشكيل الوزارة فشكلها في ٢٢ سبتمبر تحت رئاسته

وفي اثناء ذلك وافق الخديوي على تعيين المفتشين الماليين لمراقبة مالية مصر وهما المسيو بارنج (اللورد كرومر) عن انكلترا والمسيو باينيار عن فرنسا . وكانت الحكومة الخديوية قد اصدرت امراً عالياً بحدود سيادة هذين المفتشين فجعلت لهما حق الحضور في مجلس النظار على ان يكون لهما راي استشاري . فلم تمض بضعة اشهر حتى استقرت احوال الحكومة وتشكلت الوزارة وتقررت العلائق بين مصر والسلطان وبينها وبين المراقبين او المفتشين الماليين . ولم يتم حسن التفاهم بينهما وبين الوزارة الا بعد حين . وكان في جملة العراقيل في سبيل الازمة المالية مسألة تصفية الديون وتقدير الميزانية الجديدة

تصفية الديون

اما تصفية الديون فتعينت لها لجنة في ١٥ ابريل سنة ١٨٨٠ من خمسة اعضاء اوربايين وعضو وطني هو المرحوم بطرس باشا غالي لينوب عن الحكومة المصرية . واخذت اللجنة في عقد جلساتها والعمل مع المفتشين الماليين وفرغت من ذلك في ١١ يوليو من تلك السنة ووضعت قانوناً صادق عليه الجناب الخديوي هذه خلاصته :

(١) ان صافي ايرادات السكك الحديدية والتلغرافات ومينا الاسكندرية يكون مخصصاً لتسديد فوائد واستهلاك الدين الممتاز دون غيره اما فائدته فتبقى ٥ بالمائة على القيمة الاسمية . والقيمة التي تدفع سنوياً لفائدة واستهلاك هذا الدين تكون ١ ١٥٧ ٧٦٨ جنيهاً سنوياً

(٢) ان صافي ايرادات الجمارك وعوائد الدخان الوارد ومديريات الغربية والمنوفية والبحيرة واسيوط بما فيه جميع الرسوم المقررة الا ايراد الملح والدخان البلدي . جميع صافي هذه الايرادات تبقى مخصصة لتسديد الدين الموحد والفائدة باعتبار اربعة بالمائة

(٣) ان املاك الدائرة السنية واملاك الدائرة الخاصة المذكورة في الكشوف والرهون العقارية المسجلة وغيرها تكون ملكاً للحكومة وهي تكون مخصصة لضمانة دين الدائرة السنية العمومي

(٤) تسوية الدين السائر تكون من البواقي من سلفة الاملاك الاميرية ومن النقود الباقية لغاية سنة ١٨٧٩م في خزينة النظارات والمديريات والمصالح التي لم تخصص للدين المنتظم ومن الزائد من دفعات المقابلة وموجود نقدية في صندوق الدين العمومي

ومن المبالغ التي يمكن تحصيلها من المتأخرات لغاية ١٨٧٩ م ومن العوائد والرسوم والاموال من اي نوع كانت . ومن العقارات الجائز للحكومة التصرف بها ولم تكن مخصصة. وما ينتج من تغيير البونات او السندات . ومن سندات الدين الممتاز التي توجد على مقتضى المدون في البند السادس من قانون التصفية . ومن الجزء المخصص لاستهلاك الدين المنتظم حسب المدون في البند ١٥ من القانون . ومن الزيادات التي تظهر في الموازين كما هو مبين في البند السابع من قانون التصفية

هذه شذرة صغيرة من قانون التصفية. ومن احب التفصيل فليراجع القانون نفسه فانه مؤلف من ٩٩ بنداً ومعه كشفان عن التسويات التي حصلت وغيرها

وبذلت الحكومة جهدها بانناء ذلك في تخفيف اثقال الاهلين وفي نشر الامن فاصدرت امراً بالغاء الضرائب الدنيئة والشخصية وابطلت بون حليم باشا . ثم داهمتها الثورة العسكرية المعروفة بالحوادث العرابية فاحدثت فيها انقلاباً سياسياً لايزال باقياً الى الآن واليك تفصيلها :

الثورة العسكرية او الحوادث العرابية

تمهيد في العرب والترك

ما زالت مصر منذ دخلت في حوزة الاتراك قبل العثمانيين وبعدهم وهي ترى للتركي حقاً في السيادة تهابه وتخشى بأسه وتتوقع منه الاستبداد ـ رغم قلة الاتراك وكثرة العرب . وقد ظهر نفوذهم على الخصوص في الجندية فقد كانت المناصب العالية والرواتب الفادحة والكلمة النافذة للتركي وما على العربي الا الطاعة . ويندر فيهم من يجسر على الشكوى او التظلم جهاراً ولعل اول من فعل ذلك منهم احد عرابي وهو جندي صغير . وقد جرأه على ذلك سعيد باشا بما كان له من الرغبة في رفع شأن ابناء العرب . وهاك ما رواه احمد عرابي نفسه في اثناء كلامه عن سيرة حياته قال :

«وكان المرحوم سعيد باشا عليه سحائب الرحمة والرضوان قد تولى الحكومة الخديوية في ١٥ شوال سنة ١٢٧٠ وامر بدخول اولاد مشائخ البلاد واقاربهم في العسكرية فدخلت من ضمنهم وانتظمت في سلك الاورطة السعيدية المصرية بقناطر فم البحر في شهر ربيع اول عام ١٢٧١ وجعلت فيها وكيل بلوك امين من اول يوم صار انتظامي في سلك العسكرية بعد امتحاني بحضو ابراهيم بك امير الالاي وحسن افندي الالفي حكيم الالاي . ثم ترقيت الى رتبة بلوك امين في شهر رجب من السنة المذكورة بعد اعادة الامتحان مع الطالبين لذلك من غير واسطة احد غير الجد والاجتهاد،

وبعد عام نظرت فرايت بعض الباشجاويشية المصريين ترقى الى رتبة الملازم الثاني وعلمت ان البلوك امين لا يترقى الا الى رتبة الصول قول اغامي وفيها يفنى عمره. فجزعت من ذلك وذهبت الى امير الالاي وطلبت منه ترتيبي في رتبة جاويش في اورطة كانت افرزت لارسالها الى مدينة المنصورة. فسألني المير الاي المذكور عن سبب ذلك حيث ان راتب الجاويش اقل ١٠ غروش من راتب البلوك امين وان كانت الرتبتان متساويتين. فافصحت له عما خالج فكري واني اذا صرت جاويشاً سهل علي الحصول على رتبة الباشجاويش ثم الانتقال الى رتبة ضابط. فعجب لذلك الخاطر وامر في الحال بجعلي جاويشاً. فمكثت في هذه الرتبة سنتين وفي تلك المدة حُبب الي الاعتزال عن الناس والاشتغال بدراسة قوانين العسكرية مع التدبر في معانيها حتى اتقنت قانون الداخلية وقوانين تعليم النفر والبلوك والاورطة وبعض فصول من تعليم الالاي. وفي اوائل عام ١٢٧٤ امر سعادة راتب باشا بجمع الصف ضباط فاجتمعنا حوله في فسحة قصر النيل وبلغنا ارادة المرحوم سعيد باشا وقال — ان افندينا بلغه انكم تقولون فيما بينكم كيف يصير ترقي الصف ضباط الجدد وتأخير من هو اقدم منهم في الرتب وانه امر ان لا يترقى احد بعد الان الا بعد الامتحان علماً وعملاً فمن فاق اقرانه في الامتحان ترقى الى الرتبة التي يستحقها ولو لم يلبث في رتبته الاولى غير شهر واحد فمن اراد منكم الامتحان فليتقدم الى الامام. فعند ذلك تقدمت امام سعادته واحجم الاخرون خوفاً وهلعاً ظناً منهم انه يريد معاقبة من يتظاهر بذلك. ولما كرر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ عدد الراغبين في الامتحان نحو ٣٠ شخصاً فصار امتحانهم بحضوره تحت رئاسة المرحوم اسماعيل باشا الفريق فكنت اول فائز في الامتحان » اه

ومحوى ذلك ان الوطنيين يشكون من ترقية سواهم وتأخيرهم. فلم يكن ذلك الا ليزيد الضغائن في صدور الاتراك والشراكسة من كبار الضباط. وخصوصاً في زمن اسماعيل فانه لم يكن يرى رفع شأن الوطنيين فكانت الضغائن تتزايد بينهم وبين الاتراك والشراكسة ولكن اسماعيل كان شديد الوطأة يخافه العرب والاتراك فلم يحدث في ايامه ما يخشى عاقبته وان يكن هو اول من جرأ الجند على التمرد وطلب الحقوق كما تقدم في سيرة حياته

فلما افضت الخديوية الى المرحوم توفيق باشا وكان محباً للوطنيين رفيقاً بهم راغباً في رفع شأنهم تنفسوا الصعداء. وانعم على الضباط بالرتب وفي جملتهم احمد عرابي

اول نشأة عرابي

هو في الاصل من ابناء الفلاحين ويرجع بنسبه الى الامام الحسين وقد قص ترجمة حياته للهلال في بضع وعشرين صفحة نشرت في تراجم مشاهير الشرق الجزء الاول نقتطف منها قوله في نشأته الاولى قال :

« ومولدي بقرية هرية رزنة بمديرية الشرقية على ميلين من شرقي الزقازيق وهي بلدة قديمة جدًا من ضواحي مدينة بوباسطة كرسي مملكة العائلة ٢٢ في زمن شيشاق ابن نمرود التي يقال لها الآن (تل بسطة) . وعشيرتي فيها نحو ربع تعدادها وكان والدي رحمه الله تعالى شيخاً عليها الى ان توفي في شهر شعبان سنة ١٢٦٤ هـ في زمن الهواء الاصفر عن ثلاث نسوة واربعة اولاد وست بنات . وكنت ثاني اولاده الذكور وسني ٨ سنوات وترك لنا ٧٤ فداناً ولوشاء لاستكثر من الاطيان الزراعية ولكنه كان رحمه الله يراعي مصلحة ابناء عمومته حيث ان اطيان القرية كغيرها كانت مكلفة باسماء المشايخ يوزعونها بمعرفتهم على اهل بلادهم بحسب الاحتياج وظلت كذلك الى عهد المغفور له عباس باشا الاول وهو اول من كلف الاطيان باسماء الافراد والزمهم بدفع خراجها وما زاد عنهم يترك للميري ويسمونه المتروك . وكان والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان عالماً فاضلاً تقياً نقياً اقام بالجامع الازهر ٢٠ سنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير وبرع في كثير من العلوم النقلية والعقلية على كثير من المشائخ كشيخ الاسلام القويسني رحمه الله تعالى وغيره من العلماء الاطهار — ولما آلت اليه وظيفة الشياخة على عشيرته جدد عمارة المسجد المنسوب الى عشيرته بالقرية وفيه اربعة اعمدة من الحجر الصوان القديم ومنبر من الخشب عجيب الصنعة . وانشأ بجوار المسجد مكتباً لتعليم القرآن الشريف وجعل له فقيهاً صالحاً عالماً يسمى الشيخ نجم من سلالة السيد العزازي والزم الاهالي بتعليم اولادهم . وكان رحمه الله يشدد عليهم في ذلك حتى صار نحو نصف تعداد الناحية المذكورة يحسنون القراءة والكتابة وكل منهم يعرف واجباته الدينية . ومنهم نحو مائة وخمسين فقيهاً عالماً ومنهم المرحوم الشيخ محمد حسين الهراوي من علماء الجامع الازهر والشيخ العارف بالله ابراهيم المصباحي نفع الله به المسلمين . فلما بلغ سني ٥ سنوات ارساني والدي الى المكتب المذكور . فاقمت فيه ثلاثة اعوام ختمت فيها القرآن الشريف وعمري اذ ذاك ثماني سنين وبضعة شهور . فلما توفي والدي كفلني اخي الاكبر المرحوم السيد محمد عرابي الذي توفي في ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨ رحمه الله تعالى واخذت عنه مبادىء علم الحساب وتحسين الخط مع ملاحظة

ش ٧٨ : احمد عرابي بلباسه العسكري

بعض اشغال الزراعة . ثم بدا لي المجاورة في الازهر حين بلغت اثني عشر عاماً فكنت اجود القرآن على اقاربي واهل بلدي نهاراً واتوجه الى بيت عمتي ليلاً وتلقيت قليلاً من الفقه والنحو وبعد سنتين رجعت الى بلدي » اه

وقد تقدم ما قاله عن نفسه في زمن سعيد باشا وقد ارتقى في ايامه الى رتبة قائمقام وظل في هذه الرتبة كل ايام اسماعيل . فلما تولى توفيق باشا احسن اليه برتبة اميرلاي على الالاي الرابع . ولما تشكلت الوزارة الرياضية التي تقدم ذكرها كان ناظر الجهادية فيها عثمان رفقي باشا وهو شركسي متعصب على العرب وفي جملة مساعيه ان يمنع ترقية المصريين من العسكر العامل في الالايات والاكتفاء بما يستخرج من المدارس الحربية وصدرت اوامره بذلك . ثم اردفها باحالة عبد العال حلمي بك اميرالاي السودان على ديوان الجهادية ليكون معاوناً وكان عمره اذ ذاك اربعين سنة . ورتب بدله خورشيد نعمان بك من جنسه على الالاي المذكور وكان سنه فوق الستين وهو ضعيف لا يقدر على الحركة العسكرية وامر برفت احمد بك عبد الغفار قائمقام السواري وترتيب شاكر بك طمازه من جنسه بدله وهو طاعن في السن ثم ختمت تلك الاوامر وقيدت بدفاتر الجهادية

وكان احمد عرابي قد نال منزلة بين اقرانه لما فطر عليه من الجرأة والغيرة فاراد الضباط ابناء العرب الاجتماع للاحتجاج على هذه المعاملة فاختاروا ليلة اقيمت فيها وليمة يتلى فيها القرآن بمنزل نجم الدين باشا بمناسبة عودته من الحج في ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ قال

احمد عرابي يروي الواقع بنفسه وهو من جملة المدعوين :

« ولما وصلت الى منزل الداعي وجدته غاصاً بالذوات العسكرية وغيرهم فجلست بجوار المرحوم نجيب بك وهو رجل كردي الاصل و بجانبه المرحوم اسماعيل كامل باشا الفريق وهو شركسي الاصل ولكنه يتظاهر بحب العدل والانصاف فاخبرني نجيب بك بما صار وانه نصح لناظر الجهادية بالاعراض عن هذا الاجحاف فلم يصغ لقوله ولذا فهو ساخط ومضطرب ثم اوعز اليه ان يخبرني بما سمع منه . فاخبرني نجيب بك بحقيقة الحال همساً في اذني فقلت لاسماعيل باشا كامل « احقٌ هذا ؟ » فقال « نعم واعطيت الاوامر الى الكتبة للاجراء على مقتضاها » فقلت له « ان تلك لقمة كبيرة لا يقوى ناظر الجهادية عثمان رفقي على هضمها » و بعد تناول طعام الوليمة حضر لي احد الضباط واخبرني بان كثيراً من الضباط ينتظرونني بمنزلي وفيهم عبد العال بك حلمي وعلي بك فهمي . فاسرعت اليهم وهم في هياج عظيم وقد بلغهم صدور اوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم . فلما رأوني اخبروني بما سمعته من المرحوم اسماعيل باشا كامل . فقلت لهم « قد سمعت من غيركم فماذا تريدون » فقالوا « انه ليس ذلك فقط بل انه قد كثر اجتماع الشراكسة بمنزل خسرو باشا الفريق صغيراً وكبيراً وهم يتذاكرون كل ليلة في تاريخ دولة المماليك بحضور عثمان رفقي باشا و يلعنون حزبك و يقولون قد حان الوقت لرد بضاعتنا وانهم لا يغلبون من قلة وظنوا انهم قادرون على استخلاص مصر وامتلاكها كما فعل اولئك المماليك » . وقد تحققوا ذلك ممن يوثق بخبره . فقلت لهم « وماذا تريدون اذاً ؟ » فقالوا انما جئناك لاخذ رأيك فيما دهمنا من الخطب العظيم » . فقلت لهم « أرى ان تطيبوا نفوسكم وتهدئوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا لهم النظر في مصالحكم وهم ينتخبون لكم رئيساً منهم يثقون به كل الوثوق و يطيعون امره و يحفظونه بمعاضدتكم » . فقالوا كلهم « قد فوضنا الامر اليك وليس فينا من هو احق به واقدر عليه منك » . فقلت لهم « لا . . انظروا غيري وانا اسمع له واطيع وانصح له جهدي » فقالوا « لا نبغي غيرك ولا نثق الا بك » فقلت « فارجعوا لانفسكم فان هذا أمر عصيب لا يسع الحكومة الا قتل من يقوم به او يدعو اليه » . فقالوا « نحن نفديك ونفدي الوطن بارواحنا » . فقلت لهم « اقسموا لي على ذلك » فاقسموا . وفي الحال كتبت عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب عثمان رفقي لجنسه والاجحاف بحقوق الوطنيين والتمست فيها اولاً تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة المصرية تنفيذاً للامر الخديوي الصادر ابان توليته . ثانياً ابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفاً تطبيقاً لمنطوق الفرمان السلطاني . ثالثاً تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواة بين جميع

اصناف الموظفين بصرف النظر عن الاجناس والاديان والمذاهب . رابعاً تعيين ناظر الجهادية من ابناء البلاد على حسب القوانين العسكرية التي بايدينا . ثم تلوت العريضة هذه على مسامع الجميع فوافقوا كلهم عليها فامضيتها بامضائي وختمتها بختمي وختم عليها ايضاً علي فهمي بك امير الاي الحرس الخديوي وعبد العال بك امير الاي السودان » اه

ش ٧٩ : رياض باشا

و يظن اللورد كرومر ان المحرك الاصلي لهذه الحركة الاميرالاي علي فهمي قومندان

الالاي الاول وعليه حراسة القصر الخديوي . وكان قد استاء من معاملة الخديوي فاراد ان ينتقم لنفسه فدبر هذه المظاهرة

فوز العرابيين الاول

ولما وصلت العريضة الى رياض باشا استخف بها واهمل الرد عليها اياماً وهو يحرض اصحابها على سحبها وهم يرفضون . ثم بانهم ان عريضتهم كان لها وقع سيء عند الخديوي وحاشيته الاتراك . ثم ارسل الخديوي يلح على الوزارة بسرعة الرد فقررت سراً محاكمة العارضين في مجلس عسكري بعد ان يقبض عليهم ويسجنوا . لكن ذلك السر وصلهم فاستعدوا للدفاع فلما جاء امر النظار بدعوتهم الى قصر النيل دبروا شانهم مع الالايات وذهبوا الى القصر فجردوهم من السلاح واوقفوهم تحت المحاكمة واذا برجال الاياتهم قد دخلوا بالقوة وانقذوهم وساروا بهم الى سراي عابدين والحوا في طلب عزل ناظر الجهادية . فلم تجد الحكومة بدًّا من اجابة الطلب لان القوة في غير ايديها . فاجابهم الخديوي بعزل رفقي باشا وتعيين محمود باشا سامي البارودي مكانه وهو من حزبهم و يقال انه هو الذي ابلغهم قرار مجلس النظار بالقبض عليهم

ش ٨٠ : محمود باشا سامي البارودي

واثر خضوع الحكومة لمطالب الوطنيين هذه المرة تأثيراً شديداً اذ تحقق لديهم انهم اذا اتحدوا وثبتوا لا بد من نيل ما يطلبونه . وقام في نفوسهم حقد على رياض باشا والخديوي وقوّى هذا الاحساس فيهم فنصل فرنسا يومئذ البارون درين لانه كان يحسّن اعمال رجال العسكرية في اعينهم فيزدادون تمرداً وبلغ ذلك الى الجناب الخديوي فشكاه الى حكومته فاقالته . وبعث الخديوي الى كبار الضباط وطيب خاطرهم واكد لهم ثقته في رياض باشا وانه سيزيد الرواتب ويساوي بينهم على اختلاف اجناسهم

اما زعماء الثورة فلم يزالوا خائفين من نجاحهم السريع واعتبروا تلك المحاسنة مكيدة من الحكومة لتسكين جاشهم ثم تحتال للاغتيال بهم فاكثروا من التحفظ وشرعوا في عقد مجالس سرية ليلية في منزل احمد عرابي يدعون اليها خواصهم ويتفاوضون في امر اجتماع كلمتهم والوقاية من الاغتيال . فاقترحوا على ديوان الجهادية اقتراحات عديدة تعزز جانبهم فتمكن عرابي بذلك من استمالة قوم العسكرية فطفق يبث افكاره بين الاهلين من مشايخ العربان وعمد البلاد واعيانها وعلمائها وتجارها استجلاباً لمساعدتهم في مشروعه العائد الى نفعهم على ما زعم وكتب اليهم في ذلك منشورات ثورية ايقاعاً بالوزارة الرياضية

وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ هـ او ٢٠ ابريل ١٨٨١ م اصدر الجناب الخديوي باقتراح رياض باشا رئيس النظار امراً عالياً بشأن زيادة مرتبات الضباط والعساكر وتعديل النظامات والقوانين العسكرية بناء على طلب محمود باشا سامي ناظر الجهادية فاحتفل هذا احتفالا فاخراً في قصر النيل دعا اليه النظار والمفتشين احتفاء بصدور ذلك الامر خطب فيه رياض باشا ومحمود سامي واحمد عرابي ثناء طيباً على المكارم الخديوية لما منحته لجماعة الجهادية من الانعام

وفي ٢٨ شعبان او ٢٥ يوليو كان الجناب الخديوي في مصيفه في الاسكندرية فاتفق ان عربة احد تجار الاسكندرية صدمت جندياً من الطبجية صدمة قضت عليه فحمله رفقاؤه الى سراي راس التين وطلبوا الى الخديوي النظر في امره فوعدهم فسكن جاشهم . وبعد بضعة ايام تشكل مجلس حربي اصدر حكمه على النفر الذي حمل رفقاءه على المسير الى راس التين بالاشغال الشاقة طول حياته . اما رفقاؤه وهم ثمانية فحكم عليهم بثلاث سنوات في السجن وبعد ذلك يرسلون الى السودان انفاراً للجهادية . فبعث عبد العال امير الاي الفرقة السودانية الى ناظر الجهادية محمود سامي يشكو من قسوة ذلك الحكم فرفع سامي تلك الشكوى الى الخديوي فتكدر واستدعى في

الحال الوزراء تلغرافيا الى الاسكندرية فاتوها في ٧ رمضان او ٢ اوغسطس وعقدوا برئاسته مجلساً قدم فيه ناظر الجهادية استعفاءه فقبل وعين بدلاً منه داود باشا يكن واستلم الاعمال وعاد النظار الى العاصمة وهدأت الاحوال بحسب الظاهر. والواقع ان الوطنيين ساءهم قبول استعفاء محمود باشا سامي لانهم يعدونه من اكبر انصارهم

تغير القلوب بين الخديوي والعرابيين

فاصبح العرابيون ينظرون الى الخديوي ووزرائه بعين الارتياب والحذر وشاع يومئذ ان الخديوي استفتى شيخ الاسلام بقتلهم لانهم خانوا الدولة والامة وهي اشاعة كاذبة لكنها أخذت مأخذ الصدق وازداد العرابيون بها حذراً وسوء ظن

وفي ١٥ شوال او ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ بعد عود الجناب الخديوي من الاسكندرية صدر امر من نظارة الجهادية الى آلاي القلعة بالتوجه الى الاسكندرية وامر آخر الى آلاي الاسكندرية بالمجيء الى المحروسة فاوعز عرابي الى آلاي القلعة ان تلك الاوامر لايقصد بها الا تفريق كلمتهم فصرح ذلك الا لاي بعدم امتثاله لما أمر به. وفي خلال ذلك كان عرابي يخاطب الآلايات بالاشارة ان يستعدوا للحضور الى ساحة عابدين في اول سبتمبر ثم ارسل كتابه الى الخديوي والى نظارة الجهادية يخبرهم فيها ان الجيش سيحضر الى سراي عابدين لابداء اقتراحات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وكتب مثل ذلك الى قناصل الدول مبيناً ان لاخوف من هذه الحركات على ابناء تابعيتهم لانها متصلة الغاية بالاحوال الداخلية. فارسل الجناب الخديوي وفداً الى زعما الثورة وهم عرابي وعبد العال واحمد عبد الغفار ينصحهم ان يكفوا عن اجراآتهم وتوجه بنفسه ومعه السير اوكلن كلفن فتصل انكلترا والنظار الى آلاي عابدين واخذ ينصحهم فتظاهروا بالانتصاح وتوزعوا في نوافذ السراي وقاية لها. ثم توجه الجناب الخديوي ورفقاؤه الى القلعة للغرض عينه. فاجابه الجيش هناك « نحن مطيعون لاوامر ولي نعمتنا غير اننا اخبرنا بان المقصود من تسفيرنا اغراقنا عند كوبري كفر الزيات » فقال سموه لمن معه « يظهر ان العساكر مغرورون » ثم تركهم وقصد العباسية لايقاف عرابي فلم يجده وقيل له انه سار في جنده الى عابدين فعاد سموه ايضاً اليها

مظاهرة ساحة عابدين

واشار عليه كلفن ان يبقى في الساحة ويدعو عرابي اليه ويامره بالترجل ففعل فسأله عن الغرض من هذا الاجتماع فاجابه انه جاء يطلب اموراً عادلة فقال ما هي؟ فاجاب « اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون

العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام »

قال الخديوي « كل هذه الطلبات ليست من خصائص العسكرية »

فكف عرابي واشارت القناصل على الخديوي ان ينقلب الى داخل

ثم قال قنصل انكلترا الى عرابي بالنيابة عن الجناب الخديوي « ان اسقاط الوزارة من خصائص الخديوي وطلب تشكيل مجلس النواب من متعلقات الامة ولا وجه لزيادة الجيش لان البلاد في طمأنينة فضلاً عن ان مالية مصر لا تساعد على ذلك اما التصديق على القانون فسينفذ بعد اطلاع الوزراء عليه . اما عزل شيخ الاسلام فلا بد من اسناده الى اسباب »

فاجاب عرابي « اعلم يا حضرة القنصل ان طلباتي المتعلقة بالاهلين لم اقدم عليها الا لانهم انابوني بتنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر لانهم اخوتهم واولادهم فهم القوة التي ينفذ بها كل مايعود على الوطن بالمنفعة . واعلم اننا لا نتنازل عن هذه الطلبات ولا نبرح هذا المكان مالم تنفذ »

قال القنصل « اذاً تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة الامر الذي يخشى منه ضياع بلادكم »

فقال عرابي « ذلك لا يكون ومن ذا الذي ينازعنا في اصلاح داخليتنا ؟ فاعلم اننا نقاومه اشد المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا »

القنصل ـ « واين هذه القوة التي ستقاوم بها »

عرابي ـ « في وسعي ان احشد في زمن يسير مايونا من العساكر طوع ارادتي »

القنصل ـ « وماذا تفعل اذا لم تنل ما طلبت »

عرابي ـ « اقول كلمة ثانية »

القنصل ـ « وما هي »

عرابي ـ « لا اقولها الا عند القنوط »

ثم انقطعت المخابرات بين الفريقين نحواً من ثلاث ساعات تداول القناصل والخديوي في اثنائها داخل السراي واستقر الراي على اجابة طلبات عرابي وانفاذها تدريجياً لان بعضها يحتاج لمخابرة الباب العالي

فاصر عرابي على تنزيل الوزارة قبل انصرافه فنزلت واستدعي شريف باشا وبعد التلبث والتي قيل بان يشكل وزارة جديدة بشرط ان يتعهد لهُ رؤساء الحزب العسكري بالامتثال لاوامره وان يقدم عهد البلاد ضمانة على ذلك فحصل وتشكلت الوزارة وجعل محمود سامي ناظراً للجهادية

ش ٨١ : شريف باشا

فاوعز شريف باشا الى عرابي ان يتوجه بآلايه الى راس الوادي في مديرية الشرقية والى عبد العال ان يسير بآلايه الى دمياط فامتثلا وسارا الى حيث امرا باحتفال عظيم وخطب عبدالله نديم محرر جريدة الطائف وحسن الشمسي محرر جريدة المفيد في المحطة خطباً هنأوا بها الحزب الوطني على فوزه

هذه الثورة العسكرية الثالثة اذا اعتبرنا ثورة الضباط في ايام اسماعيل الاولى وكل منها انقضت باسقاط الوزارة او بعزل وزير كبير

ولما استقر عرابي في راس الوادي جعل يتجول في انحاء المديرية يبث مباديه في نفوس عمد البلاد ومشائخ العربان فاستدعته الحكومة الى العاصمة وعرضت عليه رتبة لواء ومنصب وكيل نظارة الجهادية فقبل الثانية ورفض الاولى ليبقى الآلاي في عهدته ولما استوى على منصبه الجديد جعل يعقد المحافل في منزله علانية وتوسط بالعفو عن حسن موسى العقاد احد تجار المحروسة وكان مبعداً في السودان . فاجابه الجناب الخديوي الى ذلك ثم سعى في عزل الشيخ العبادي من مشيخة الاسلام واستبداله بالشيخ الامبابي

وفي ٢٨ شوال سنة ١٢٩٨ هـ (٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨١ م) صدقت الحكومة المصرية على القوانين العسكرية الجديدة وهي من ضمن طلبات الجهادية يوم حادثة عابدين تحتوي على قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون المستودعين وقانون

معاشات الجهادية البرية والبحرية وفروعها وقانون القواعد الاساسية في النظامات العسكرية وقانون الترقي وقانون الضمائم والامتيازات والاعانة العسكرية . وبعد التصديق عليها جاء الى شريف باشا وفد جهادي وقدموا له الشكر على اعتنائه بمطالبهم وبينوا ارتياحهم الى وزارته واكدوا له اخلاصهم

ش ٨٢ : السلطان عبد الحميد

وفي ١١ ذي القعدة او ٤ اكتوبر من تلك السنة صدر الامر العالي باعتماد اللائحة في انتخاب مجلس النواب بناء على تقرير رفع الى شريف باشا مذيلاً بالف وستماية توقيع يتضمن طلب تشكيل المجلس النيابي ومن مقتضى تلك اللائحة ان يكون النواب واحداً او اثنين من كل مديرية و٣ من مصر و٢ من الاسكندرية وواحداً من دمياط على شروط مذكورة في اللائحة . ووزعت نظارة الداخلية منشورات بشأن ذلك الى المديريات

مصر والدولة العثمانية

لايخفى ان مصر نالت امتيازها واستقلت بادارتها رغم ارادة الباب العالي ومابرحت الدولة منذ منحت ذلك الامتياز وهي تتحين الفرص لارجاع سيطرتها الى وادي النيل وكان من جملة مطالب العرابيين تشكيهم من النفوذ الاجنبي بمصر وامتياز الاجانب على الوطنيين من كل وجه وكتب عرابي الى الاستانة يشكو ذلك الى السلطان وهو يومئذ

السلطان عبد الحميد وكان قد اخذ في مطاردة الاحرار طلاب الدستور بعد ان قلب دستورهم واصبح لفظ الدستور يرعبه

فلما جاءته شكوى العرابيين من الاجانب وجد باباً للمداخلة بشؤون مصر لكنه يعلم ان من جملة مطالبهم الدستور ومجلس النواب وهو يكره الدستور واسمه فكيف يقبل ان يعلن في بعض ولاياته ؟ . فضلاً عن الاشاعات التي كانت تتناقل يومئذ عن رغبة العرب في احياء دولتهم وخلافتهم في مصر وسوريا . فأول خاطر بدا للسلطان ان يرسل جنداً عثمانياً يحتل وادي النيل بحجة اخماد الثورة . وامر باعداد الحملة في سبتمبر سنة ١٨٨١

ولكن مصر تحت المراقبة الاجنبية فلا يسهل على السلطان احتلالها . وكانت سياسة فرنسا على الخصوص مقاومة كل توسط عثماني بشؤون مصر . اما انكلترا فلم تكن ترى بأساً من ان يرسل السلطان قائداً عثمانياً يتوسط في حل ذلك المشكل . فاحتجت فرنسا بان ذلك قد يقود الى احتلال عسكري . فعرضت الدولة العثمانية لحل هذه المعضلة ان يخلع الخديوي وينصب مكانه حليم باشا — وهو من طلاب العرش المصري وانما منعه منه فرمان اسماعيل القاضي بانتقال الارث الى الابناء — وكانت انكلترا من اشد المعارضين لهذا التبديل وفرنسا تعارض من الجهة الاخرى بارسال جند عثماني . فاكتفى الباب العالي بارسال مندوب ينوب عنه بحجة حقه بالسيادة على مصر فارسل رجلين هما فؤاد بك وعلي نظامي باشا فوصلا الاسكندرية في ٦ اكتوبر سنة ١٨٨١

فاحتجت انكلترا وفرنسا على ذلك وامرتا المراقبين في مصر ان يستقبلوهما بالترحاب ويمنعاهما من كل مداخلة سياسية . ولما بلغ الخديوي وصول المندوبين استغربه وسأل وكيلي انكلترا وفرنسا عن السبب فاجابا انهما لا يعلمان . على ان الدولتين انكلترا وفرنسا الحتا على الباب العالي ان يقصر زمن تلك الزيارة على قدر الامكان . وغاية ما اتاه المندوبان انهما استعرضا الجند وخطب علي نظامي باشا في الضباط يذكرهم بأن الجناب العالي نائب جلالة السلطان بمصر وان من يعصى الخديوي يعصى اوامر الخليفة

وعادت الدولتان الى طلب خروج المندوبين حالاً فسافرا في ٢٠ اكتوبر . وعادت الدولتان الى التفكير في ملافاة مايخشى وقوعه في مصر . واظهر الخديوى بعد حادثة ٩ سبتمبر ريباً في الجند وضباطه وانه لايرى سبيلا الى الامن الا باخضاع الجيش . وبلغ ذلك العرابيين فاتسع الخرق بين الطرفين

مجلس النواب المصري

واراد شريف باشا رتق هذا الخرق بسياسة واسلوب فرأى ان يعقد مجلس

النواب ويفوض اليه النظر في مطاليب الامة واعضاؤه نوابها فينتقل النفوذ من الجيش اليهم فتتوازن القوى . فصدر الامر العالي في ٨ اكتوبر بعقد مجلس النواب في ٢٣ ديسمبر وتم انتخاب النواب على لائحة اسماعيل باشا التي وضعها سنة ١٨٦٦

فكان مؤلفاً من اثنين وثمانين عضواً اقيم منهم المرحوم سلطان باشا رئيساً وعبد الله باشا فكري رئيساً للكتبة واعدت قاعة المجلس في ديوان الاشغال لتكون

ش ٨٣ : عبد الله باشا فكري رئيس كتبة مجلس النواب

فور انعقاده . وحضر تلك الجلسة الجناب الخديوي وقال المقالة الافتتاحية بين فيها شدة رغبته في تأليف ذلك المجلس وتنشيطه . وقال انه يرجو ان يكون مساعداً له في نشر العلوم والمعارف بين افراد الامة مخلصاً في خدمة مصالحها . وحضر تلك الجلسة ايضاً جميع الوزراء ورجال الدولة فتكلم كل منهم حسب مقتضى المقام . ثم نظر المجلس في بعض الامور الداخلية وارفضت الجلسة . وعكف مجلس شورى النواب على الاهتمام بشؤونه فرتب اقلامه وانتخب رؤساءها ثم وجه التفاته على الخصوص الى اللائحة الاساسية الجديدة التي كان قد وعده من مجلس النظار بارسالها اليه لينظر فيها لان مجلس النواب افتتح بمقتضى لائحة اسماعيل

وما لبث شريف باشا ان راى النواب والجند اتحدا وتكاتفا وانقضت سنة ١٨٨١ والامر والنهي بمصر لعرابي وحزبه وصارت الجرائد اذا ذكرته لقبته بالقاب الامراء وكبار الحكام الفاتحين مع ان الحكومة كانت قد اصدرت قانوناً للمطبوعات تقيد به اقلام الكتاب

انكلترا وفرنسا

وعادت الدولتان الى المباحثة في الطريقة المؤدية الى سلامة القطر وصيانة حقوق الاجانب فيه اذا انقدت شعلة الثورة . ووافق ذلك افضاء وزارة فرنسا الى غمبتا الشهير فوافق رايه راي انكلترا بوجوب نصرة الخديوي وتأييد منصبه ضد مناوئيه وهم كثيرون غير الجيش المصري ـ فقد كان حليم باشا وانصاره يبذلون المال والسعي في الرجوع الى التوارث الاصلي والسلطان من الجهة الاخرى يتحين الفرص ليعيد سيادته الفعلية ـ فاعلنت الدولتان انهما لا تسمحان بحركة تؤدي الى تغيير حالة مصر السياسية واتفقتا على احتلال مختلط من الجندين الانكليزي والفرنساوي يؤتى به الى مصر عند الحاجة واعلنتا الخديوي بذلك بمذكرة مؤرخة في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ بعثتا بها الى وكيلهما

وصلت هذه المذكرة الى مصر في ٢٦ ديسمبر بعد ان فتح مجلس النواب بحضور الجناب الخديوي وتلا خطابه الافتتاحي كما تقدم. فلما علم بعزم الدولتين على نصرته اجاب شاكراً في ٦ يناير . فاثرت هذه اللائحة في النفوس تأثيراً عظيماً واضطرب منها الجند فاجتمعوا في سراى قصر النيل للمذاكرة في مضمونها فرايهم منها امور كثيرة وايقنوا ان المراد منها مزيد المداخلة وجعل البلاد تحت حماية فرنسا وانكلترا .ثم وفد عليهم ناظر الجهادية (محمود سامي) ففوضوا الراي اليه فسكن جاشهم وطيب انفسهم وتوجه بعد ذلك الى النظار وفاوضهم في الامر وابلغهم انفعال العساكر من هذه اللائحة ثم سار معهم الى الخديوى فبسطوا لديه الامر والرأى والتمسوا المداركة بما يذهب الاثار التي نشأت عن اللائحة المذكورة . فاستقر الراى على اشعار الباب العالي بها مع الملاحظة بانه لا حاجة لقبول مضمونها فسكنت الخواطر بذلك واطمأنت النفوس . واصبحت القوات العاملة في مصر حزبين : (١) الحكومة يعضدها المراقبان (٢) النواب يعضدهم الجند

وكانت الميزانية التي لا بد من عرضها على مجلس النواب للمصادقة عليها مؤلفة من قسمين الاول الايرادات التي تخصصت لوفاء الدين والثاني النظر في سائر الايرادات فلما اجتمع مجلس النواب في ٢ يناير سنة ١٨٨١ وقد شريف باشا على المجلس لتقديم اللائحة الاساسية الجديدة التي اعدها له فقدمها وخطب في ذلك خطاباً اثر في اذهان النواب وقد جاءت هذه اللائحة مشتملة على احكام حرة وحدود مطلقة يكون بمقتضاها للنواب حق النظر في القوانين والنفقات العمومية وان لا ينفذ قانون ولا يعتبر نظام ما لم يصادق عليه في مجلسهم مع الحرية التامة لهم في ابداء آرائهم . فتعينت لجنة

ن اعضاء المجلس لمراجعة هذه اللائحة . وبعد الاجتماع مرات عديدة قررت اكثر
نود اللائحة ووقع الخلاف بين النواب والنظار في شأن ما يتعلق منها بالميزانية

وفي ٢٧ صفر من تلك السنة اعاد النواب اللائحة المذكورة الى النظار بعد ان
نوا ما يريدون تعديله فيها . فرأى النظار ان يغيروا شيئاً من تعديلات النواب فلم
بل اولئك واصروا الا تنفيذ تعديل لجنتهم . وفي ١١ ربيع اول سنة ١٢٩٩ هـ
٣١ يناير ١٨٨٢ م) اعاد النظار اللائحة الى النواب مرفوقة بافادة مفادها ان وكيلي
دولتين فرنسا وانكلترا لا يريان حقاً لمجلس النواب في تقرير الميزانية ولكنهما مع
لك يقبلان المخابرة في هذا الشأن بشرط ان يستقر الاتفاق بين النواب والحكومة
لى سائر بنود اللائحة . وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب تصديقهم على
لائحة مع اغفال ما يتعلق بالميزانية لبينما يعطي النواب رايهم النهائي فيه . فنظر النواب
ي تلك الافادة عدة ساعات فقرروا احالتها الى اللجنة التي كانت مكلفة بتنقيح اللائحة
طلبوا اليها اعادة النظر في التعديلات التي ادخلها مجلس النظار فصدقت على بعضها
رفضت البعض الآخر وادخلت على البند المتعلق بالميزانية تعديلاً على مقتضى ما
ادت . وقررت في الوقت نفسه عدم قبول توسط القنصلين في ذلك الامر

وفي يوم الخميس ١٣ ربيع اول (٢ فبراير) سارت لجنة مؤلفة من ١٥ نائباً الى
الجناب الخديوي يطلبون تنفيذ ما قرروه او استعفاء الوزارة . فوعدهم سموه الى صباح
السبت وانصرفوا فتقابل مع شريف باشا بحضور القنصلين فاصر شريف باشا على رايه
واستعفى للحال . فاستدعى الجناب الخديوي لجنة النواب وكلفها ان تختار رئيساً للوزارة
فقالوا ان ذلك من حقوق الجناب الخديوي فالح عليهم فامتنعوا . ولكنهم قالوا نريد
وزارة تنفذ لائحتنا فاختار لهم محمود باشا سامي وقلده منصب الوزارة وعهد اليه تشكيل
وزارة جديدة . فشكلها وجعل احمد عرابي ناظراً للجهادية . فسر الحزب الوطني كل
السرور ووردت لهم التهاني من سائر انحاء القطر من وطنيين واجانب واقام النواب احتفالاً
فوزهم . وفي ١٥ ربيع اول او ٤ فبراير اجتمع ضباط الجهادية من رتبة الصاغقول
آغاسي فما فوق ومثلوا بين يدي الجناب الخديوي لاظهار الطاعة فشكرهم سموه
وخاطبهم بما شف عن حبه لاصلاح البلاد . وفي ١٩ ربيع اول حضر محمود سامي
الى مجلس النظار فقوبل بالتعظيم والتكريم وسر النواب بنفوذ رايهم فخطب فيهم
ونشطهم واقرّ لهم على اللائحة كما عدلوها . فلما علم الناس بالتصديق على لائحة النواب
اقاموا الاحتفالات في مصر والاسكندرية سروراً بفوز الحزب الوطني واصبح الجهاديون

القوة المتسلطة في البلاد واليهم يوجه الثناء لأن تلك المنى قد ادركت بمساعيهم

ولما جلس عرابي على مسند نظارة الحربية والبحرية احسن عليه وعلى عبد العال برتبة لوا « باشا » ثم سعى في ترقية كثيرين من رفقائه الضباط وقرر قانون الضمائم والمعاشات بصفة جمعت القلوب على ولائه . وعمد الى التخلص من الحزب الشركسي الذي كان لا يزال متخللاً الجهادية فشكل لجنة لفرز الضباط المستودعين ففرزت نحو السبعمائة اكثرهم من الاتراك والشراكسة فاصبحت الجهادية وطنية محضة . وذكرت جرائد اوربا اذ ذاك ان الحزب الوطني وفي مقدمته عرابي كان يهدد مجلس النواب ويتوعده بالسوء اذا لم يسر على غرضه . فنشر رئيس المجلس المذكور في الجريدة الرسمية ما ينفي تلك التهمة . ثم تخصصت جريدة الطائف لنشر محاضر مجلس النواب والتكلم بافكار اعضائه والدفاع عنهم . وفي اواسط ربيع آخر او مارس استعفى بلينيار احد المراقبين الماليين فعين بدلا منه الموسيو بريديف . وفي ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٥ مارس سنة ١٨٨٢ م انفض مجلس النواب من اعماله لتلك السنة وقد قرر فيها (١) القانون الاساسي (٢) لائحة الداخلية (٣) لائحة الانتخاب (٤) امور اخرى مهمة . وقد تقرر في لائحة الانتخاب ثبوت حق الانتخاب والنيابة معاً لاي من كان من رعايا الحكومة سواء كان مولوداً في القطر المصري او مقيما فيه منذ عشر سنين . ولما ودع النواب الجناب الخديوي سلم سموه كلا منهم امراً مؤذناً بتعيينه عضواً في المجلس المشار اليه الى خمس سنوات

استفحال الثورة

فتمكن الارتباط بذلك بين الجهادية والنواب واضيف اليهما الوزارة لانها وطنية أيضاً فازدادت مشاكل الخديوي والمراقبين وازدادوا اعتقاداً بوجوب احتلال القطر بجند مختلط من الفرنساويين والانكليز . وانكلترا ترى في ذلك باعثاً على سوء ظن الدول الاخرى وتفضل صرف هذا المشكل باحتلال تركي بشروط لايخشى معها رجوع النفوذ العثماني

على ان العثمانيين كانوا يرون في استفحال امر الوطنيين على الخديوي فائدة لهم وربما ساعدوا على ذلك تحت طي الخفاء املاً باسترجاع مصر الى حوزتهم . فلا غرو اذا تمسك الوطنيون بمطالبهم واتحد في ذلك العسكر والنواب والوزارة . وقد زادهم تمسكاً بها اغراء بعض المتطرفين من الافرنج فقد كان منهم جماعة يحسنون تلك الثورة ويطرون القائمين بها ويبشرونهم باستقلال مجيد واشهر هؤلاء المغرورين الفريد بلانت

الانكليزي

فلا غرو بعد ذلك اذا تهور الوطنيون في مطالبهم وتصوروا في انفسهم القدرة على كل شيء فاغلوا ايدي المراقبين ونبذوا سلطة الخديوي واحتقروا الافرنج فعم الخوف انحاء القطر وسادت الفوضى وضاعت سلطة المدبرين

وهم في ذلك نهض الباب العالي يقيم الحجة على لائحة الدولتين القاضية باتحادهما في مسألة مصر واحتلالها عند الاقتضاء وخاطب الدول الاخرى بذلك فاجابت روسيا والنمسا والمانيا وايطاليا انهن يرغبن في بقاء مصر على حالتها السياسية تحت رعاية السلطان وسمّينه في هذا الجواب «سوزرين Suzerain» ومعنى ذلك في اصطلاح السياسة ان يكون للسلطان السيادة الاسمية على مصر . وهو يريد ان يسمى سوفرين Sovereign اي صاحب السيادة الفعلية . وعند التحقيق يتضح ان سيادته على مصر اقرب الى هذا اللقب مما الى ذاك . لانه صاحب الحق الرسمي في خلع الخديويين وتوليتهم ولا يقدر صاحب اللقب الاول على ذلك فالسلطان «سوزرين» على بلغاريا لانه لا يقدر ان يولي اميرها او يعزله ولكنه سوفرين على مصر

وتغيرت وزارة فرنسا في اثناء ذلك وتولى حكومتها دي فريسينه بدلاً من غمبتا وهو يخالفه في سياسته بمصر فلا يرى احتلالها بجند مختلط وعرض على انكلترا رايه في حل المسألة المصرية بخلع الخديوي وتولية حليم باشا بشرط ان لا يزداد نفوذ العثمانيين فرفضت انكلترا هذا الراي

مشكل جديد

قد رايت ان احمد عرابي رقى كثيرين من الضباط ابناء العرب واضطهد الاتراك والشراكسة وامر بنقلهم الى السودان فبلغه انهم يكيدون له ويتآمرون على قتله فامر بالقبض على جماعة كبيرة منهم وفيهم عثمان باشا رفقي ناظر الحربية السابق وحاكموهم بمجلس حربي فصدر الحكم على اربعين منهم بالنفي المؤبد الى اقصى السودان . فتولدت مشكلة جديدة لان رفقي باشا حائز على رتبة فريق من السلطان وله وحده حق الحكم في هذا الشأن ووافق الخديوي على ذلك فاغضب وزراءه وطال الاخذ والرد في المسألة ثم تقرر تعديل ذلك الحكم بالنفي بدون تعيين السودان او غيرها. فغضب العرابيون والوزارة الآن منهم فبعثت تستقدم النواب لتشكو اليهم تصرف الخديوي وانه يضيع امتيازات مصر بدون ان يشاور وزرائه وقد اسروا عزمهم على خلع الخديوي واخراج اسرته وتولية محمود باشا سامي حاكماً على مصر

فاجتمع النواب من انحاء القطر وحاولوا تسوية الخلاف عبثاً فتعينت لجنة في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٩ هـ او ١٤ مايو ١٨٨٢ م لتعرض على سموه قبول الاقتراح بشرط ان ينزل رئيس النظار فقط وان يجعل مكانه مصطفى باشا فهمي. فتوجهوا وعرضوا ذلك على سموه فقبل بعد التردد . فساروا الى مصطفى باشا يسألونه اذا كان يقبل تلك الرئاسة فأبى . فعادت المسألة الى مركزها الاول بل زادت تجسماً فوقفت حركة الاعمال وباتت العيون شاخصة الى ما سيكون . واجتهد سلطان باشا في تسوية ذلك الخلاف بكل طريقة ممكنة وساعده ناظر المعارف فلم ينجح . وهم في ذلك ورد تلغراف من لندن ينبيء بصدور الامر الى الاسطول الانكليزي الراسي في بحر المانش ان يتأهب ليسافر في ٢٨ مايو الى البحر المتوسط . فأوجس الناس خيفة

وكان الموسيو دي فريسينه قد عاد الى مخابرة انكلترا في ايهما افضل لمصلحة مصر الاحتلال الفرنساوي الانكليزي او التركي . وتقرر ارسال العمارتين الى مياه الاسكندرية وان يُطلب من الباب العالي التوقف عن المداخلة الا اذا دعته الدولتان المتحدتان الى ارسال جند عثماني . وكان راي فرنسا ان الدولتين اذا رأتا حاجة الى الاحتلال العسكري تطلبا الى السلطان ان يرسل جنداً عثمانياً للاحتلال بشروط معينة

ولما بلغ السلطان عزم الدولتين على ارسال اسطوليهما الى المياه المصرية غضب ورفع احتجاجه الى الدول ولكن ذلك لم يقف في طريق الاساطيل

ففي مساء الجمعة غرة رجب او ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ وردت على مينا الاسكندرية دارعة انكليزية وفي الصباح التالي دارعتان اخريان وثلاث دوارع فرنساوية فاطلقت المدافع للسلام كالعادة . ثم جعلت البواخر ترد الى ذلك الثغر حتى تكامل الاسطولان ولم يكن معهما اسطول عثماني . فكثر تقول الناس في سبب قدوم هذه العمارات على هذه الصورة . ثم اشيع ان قدومها كان بوفاق مع الباب العالي وبارتياح الدول عموماً بشرط ان تسرع بعد انهاء المشاكل الى الانسحاب

وفي ٧ رجب او ٢٥ مايو من تلك السنة قدم قنصلا انكلترا وفرنسا بلاغاً نهائياً من دولتيهما تطلبان فيه سقوط الوزارة واخراج عرابي من القطر المصري بان تضمنا له حفظ رتبه ورواتبه ونياشينه وابعاد عبد العال حلمي وعلي فهمي الى الارياف في جهات لايخرجان منها مع حفظ رتبهما ورواتبهما ونياشينهما وان الدولتين عازمتان على تنفيذ كل ذلك . وهما تكلفان الجناب الخديوي ان يصدر عفواً عاماً عن الذين لهم دخل في المسألة . فرفض النظار هذا البلاغ ولم يجيبوا عليه بدعوى « ان لا علاقة للدول

الاروبية معنا فاذا شئن فليخابرن الاستانة اما نحن فاننا مستعدون للمقاومة » فأخذ سلطان باشا يسعى في التوفيق فخبط مسعاه . وفي ٨ رجب او ٢٦ مايو استعفت الوزارة محتجة على بلاع الدولتين وطلباتهما فكلف شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة فابى واصر على الاباءة فأطلعه قنصل فرنسا على تلغراف وارد اليه من وزارة فرنسا هذا نصه :

« الامل ان يقبل شريف باشا رئاسة الوزارة واكدوا له اننا نعضده ونؤيده بكل جهدنا » فلم يقنعه ذلك واصرّ على الرفض

ثم عقدت جلسة عند الجناب الخديوى حضرها بعض رؤساء الجهادية وفي مقدمتهم طلبة عصمت فقال شريف باشا انه يقبل ان يشكل وزارة جديدة بشرط ان تنفذ الجهادية مآل طلبات الدولتين فقال طلبة « نحن مطيعون انما يستحيل علينا تنفيذها ولا حق للدولتين بطلب ذلك لان هذه المسائل من اختصاص الباب العالي » قال ذلك وخرج فتبعه الضباط . وبتاريخه ورد تلغراف من راس التين بالاسكندرية ان العساكر هناك لايقبلون غير عرابي ناظراً عليهم وانهم اذا مضت ١٢ ساعة ولم يرجع الى منصبه لايكونون مسئولين عما يحدث مما لايستحب وقوعه . فزاد الاشكال والاضطراب فتمكن شريف باشا وغيره من اصرارهم على رفض تشكيل وزارة جديدة . وعند الغروب اجتمع النواب ورئيسهم وحضر عرابي وجعل يخطب فيهم وخطب ايضاً عبد العال وغيره يطلبون تنازل الخديوي فتفاقم الخطب فارسل الجناب الخديوي يخبر الباب العالي ان الجند غير راضين عن استعفاء الوزارة وانهم اقاموا الحجة على طلب الدولتين . فاجابه ان الحضرة السلطانية امرت بتشكيل لجنة عثمانية تأتي مصر بعد ثلاثة ايام للنظر في هذا الامر . فأمر الجناب الخديوي ان يرجع عرابي الي مركزه موقتاً للتأمين على الاجانب لبينما يصل الوفد العثماني فسر الجند بذلك . وبعث عرابي منشوراً الى قناصل الدول يضمن تأييد الامن لجميع سكان القطر المصري من وطنيين واجانب مسلمين وغير مسلمين وفي الوقت عينه اقترح ثلاثة امور :

١ اعادة لائحة الدولتين وانسحاب اسطوليهما

٢ وضع قانون اساسي تبين فيه حدود كل من الجناب الخديوي ووزرائه

٣ قطع المخابرات والعلاقات توًّا مع الدولتين ومع سائر الدول الا بواسطة الدولة العثمانية

ثم عمل العرابيون على خلع الخديوى وتولية البرنس حليم باشا وكثيراً ماكانوا

يصرحون بذلك في مجالسهم

وكان السلطان من الجهة الاخرى يسعى في اغتنام هذه الفرصة لاسترجاع نفوذه بمصر واعترفت الدول ان السلطان اولاهن بحل هذا المشكل . وبعد ان كانت فرنسا من اكبر المقاومين للتداخل العثماني صرح دي فريسنيه ان كل الوسائل لحل المسألة المصرية يمكن اتخاذها الا الاحتلال العسكري الفرنساوي . خلافاً لراي غمبتاسلفه . وكان الخديوى من الجهة الاخرى راغباً في توسيط الباب العالي لعله يؤيده . وعرض البرنس بسمارك عقد مؤتمر دولي للقرار على هذه المسألة فلم يرض السلطان بالمؤتمر لكنه انتدب رجلين من كبار رجاله اوفدهما الى مصر احدهما درويش باشا والآخر اسعد افندي وكانت مهمتهما القبض على الحبل من الطرفين لارضاء الحزبين فيكون السلطان مع الفائز منهما . فكانت مهمة درويش باشا توطيد علائق الولاء مع الخديوى ضد عرابي وبعكس ذلك مهمة اسعد افندي . وكان في جملة الاوامر المعطاة لدرويش باشا ان يقبض على عرابي ورفاقه ويرسلهم مغلولين الى الاستانة وان يلغي مجلس النواب ويقوي نفوذ امير المؤمنين وفرق الاوسمة في العرابيين وفي حزب الخديوي

فآلت هذه السياسة طبعاً الى زيادة التفريق وتفاقم الفوضى وكره الاجانب فافضى ذلك الى حادثة الاسكندرية في ١١ يونيو

حادثة الاسكندرية

وسببها ان القلق والاضطراب استوليا على سكان القطر وكثر الاشاعات ونزع النزلاء الاجانب الى الجلاء خوفاً من امر يأتي فاصبحت الاسكندرية ملجأ الوافدين من جالية الريف على امل ان يكونوا فيها آمنين من غوائل التعدي لكثرة من فيها من الاجانب او بالحرى للاحتماء بجوار الاسطولين الانكليزي والفرنساوي

ثم احس الاجانب فيها ان سفلة الاهالي ومعظم الجهاديين قد اغلظوا في معاملاتهم واستبدوا في امورهم فكانوا يخطرون في الازقة تيهاً يمتهنون الرفيع ويستعبدون الوضيع وقد لاح لهم ان اولئك الاجانب يريدون بهم شراً فجعلوا يتوقعون منهم ما يتذرعون به الى الوقيعة بهم توهماً منهم ان اولئك من الد الاعداء لوطنهم . فعلم الاجانب بتلك المقاصد فجعلوا يتأهبون سراً للدفاع بما امكنهم من اقتناء الاسلحة والرجال واخفائهم في منازلهم واستشاروا امير الاسطولين فوافقاهم ثم عرضوا الامر على القناصل الجنرالية في القاهرة بواسطة مندوب مخصوص فانكروا عليهم ذلك فلبثوا يتوقعون المقدور

اما اهل الفتنة فادركوا تحذر الاجانب منهم فهموا بهم في ٢٤ رجب او ١١ يونيو وابتداوا الفتنة بخصام بين حمار ومالطي اتصلوا منها الى الاغارة على البيوت والمنازل والفتك بكل من مروا به في السبل . فلم تكن ترى الا اخلاطاً من السفلة بين صعيدي وسوداني وبدوي وفيهم الحمارة والحمالون وامثالهم يهجمون جماعات على من لقوه في طريقهم فقتلوا نحوا من ٣٠٠ نفس وقتل منهم نحو هذا العدد . كل ذلك والاسطولان لم يحركا ساكناً . وتمارض مأمور الضابطة المدعو السيد قنديل ولم ينزل يومئذ الى المدينة و جرح في هذه الواقعة عددكبير من كبار الاجانب وفيهم قنصل اليونان والمستر كوكسن قنصل انكلترا في الاسكندرية وقنصل ايطاليا وفيس قنصلها وقنصل روسيا وكثيرون غيرهم . فأمر محافظ الاسكندرية (عمر باشا لطفي) الاميرالاي سليمان داوود ان يبعث الجند لايقاف الاهالي ومنعهم من ارتكاب تلك الفظائع . فاجاب انه لا يستطيع ذلك الا بعد ان يأتيه امر من عرابي . فجاءه الامر نحو الساعة الخامسة بعد الظهر فسار الجند والمحافظ امامهم ساعياً على قدميه يسكنون الخواطر وينادون باعادة الراحة . فراوا المخازن قدنهبت والارزاق قد تبعثرت على قارعة الطريق . وعند الغروب هدأت الغوغاء وكف الناس فدخل كل منزله وانقضى الليل ولم يحدث شيء . وفي اليوم التالي كثر عدد المهاجرين بحراً حتى خيل للناس انه لم يبق في المدينة احد من الاجانب . فنزل من المدينة في يوم واحد نحو عشرة آلاف تفرقوا في السفن . كل ذلك خوفاً مما كانوا يخشون حدوثه من مثل ما قاسوه . واتصلت هذه الاخبار بالداخلية فانتشر الاضطراب وعمت البلوى وتقاطر الناس من سائر الاقطار الداخلية الى السواحل يطلبون الفرار كما فعل الاسكندريون واستمرت الحال على ذلك بضعة ايام حتى كاد يخلو القطر من النزلاء وقد قدّر بعضهم عدد من هاجر في تلك المدة فبلغ زهاء مائة وخمسين الفاً

ولما بلغ خبر حادثة الاسكندرية الى اهل العاصمة اضطربوا وفي صباح ١٢ يونيو خاطب القناصل درويش باشا معتمد الحضرة السلطانية بكلام عنيف وسألوه ان يتخذ التدابير الفعالة لصيانة الاروبيين واموالهم في جميع انحاء القطر فعقد مجلساً في عابدين حضره الجناب الخديوي ودرويش باشا ومن معه وشريف باشا ووكلاء الدول العظمى السياسيون وبعد المذاكرة اقروا ان تعطى للقناصل ضمانات اكيدة تكفل اعادة الامن والمحافظة على ارواح الاروبيين واموالهم ومن اخص هذه الضمانات ان يمتثل عرابي لاي الاوامر التي تصدر له من الخديوي فدعي وسئل فاجاب بالقبول وتعهد باجراء

مايضمن الراحة واخذ . درويش باشا على نفسه تبعة تنفيذ الاوامر الخديوية بمعنى ان يكون مشتركاً مع عرابي ومسئولاً معه في تنفيذ تلك الاوامر . فرضي وكلاء الدول بذلك وانصرفوا واخذ عرابي يهتم قياماً بتعهده فنشر المنشورات بمنع الاجتماعات وابطال كل ما يوجب الارتياب . وكانت قد تعينت لجنة بامر الجناب الخديوي للنظر في امر حادثة الاسكندرية تحت رئاسة عمر باشا لطفي محافظها وفيها مندوبو القناصل فاجتمعت اللجنة في الاسكندرية وباشرت اعمالها وقررت ماخيل لها انها تدابير فعالة لاعادة الامن

وفي ٢٦ رجب او ١٣ يونيو (حزيران) وصل سمو الخديوي الى الاسكندرية يصحبه درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية فصفت لهما الجنود من المحطة الى سراي راس التين واطلقت المدافع تحية لهما . ثم زاره قناصل الدول الا قنصلا انكلترا وفرنسا فانهما بقيا في مصر فابدى لهم اسفه الشديد لما حدث ووعدهم بصرف العناية الى اخماد الفتنة وخاطبهم درويش باشا ايضاً بمثل ذلك وزاد عليه انه واثق الثقة التامة باخلاص الجهادية . الا ان الخديوي اسرّ الى المستر كولفن المراقب العمومي الانكليزي انه غير واثق باستمرار الامن والراحة وانه يعتبر مهمة درويش باشا كانها قد انتهت ولم تفلح وانه لا يرى بدًّا من مجيء جنود عثمانية لاعادة الراحة . وكان في ثكنات الاسكندرية نحو من ثمانية آلاف جندي بالاسلحة الكاملة ومعهم من المهمات ما يكفي خمسين الفاً

ثم بلغت القناصل رعاياها ان يتخذوا اقرب السبل للنجاة مما ربما يحدث واوعزت اليهم ان يهاجروا من المدينة فتناقلت الالسن هذه الاخبار فتاكد الناس ان الساعة آتية لا ريب فيها وعينت كل دولة من الدول الاجنبية سفناً لنقل رعاياها المهاجرين مجاناً فتسارع الفقراء من كل ناحية متقاطرين من مدن الداخلية والارياف الى الاسكندرية وبورت سعيد حيث كانت تلك السفن معدة لنقلهم الى بلادهم . وكان المستر مالت وكيل انكلترا السياسي لا يزال في العاصمة فجاءه امر من لندرا بان يحضر الى الاسكندرية ويرافق الخديوي حيثما توجه فاتاها واتى معه المسيو سنكوفيتش وكيل فرنسا فخلت العاصمة من رجال السياسة وخلا جوها لعرابي وجماعته واستفحل امرهم ولا سيما لما بلغهم من انقسام دول اوربا في المسالة المصرية فظنوا انهم في مأمن من الاغتيال . ثم حسب القناصل ان تغيير الوزارة يأتي بحل هذه المشكلة فاشاروا على الجناب الخديوي بذلك فشكل وزارة جديدة تحت رئاسة اسماعيل راغب باشا وبقي عرابي ناظراً للجهادية والبحرية فكان راي هذه الوزارة ان الطريقة المثلى لملافاة الامر ان يصدر عفو عمومي

وان يعلن في الجرائد الرسمية « ان كل من عليه مسئولية اواشتراك بالحوادث الاخيرة فعليهم العفو الا المشتركين في حادثة الاسكندرية وهم تحت المحاكمة » فوافقها الجناب الخديوي على ذلك . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ او ٢١ يونيو سنة ١٨٨٢ م بعث الجناب الخديوي منشوراً الى راغب باشا يطلب اليه التحري الحسن في مسألة حادثة الاسكندرية فاجابه بتلبية الطلب

ثم جاءت الاخبار بعزم الدول على عقد مؤتمر في الاستانة لاجل البحث في المسألة المصرية وتمنع الباب العالي من ذلك بدعوى ان ليس في مصر ما يوجب الاضطراب اعتماداً على تقارير درويش باشا المرسلة منه . وكان ذلك مما شدد عزائم الحزب الوطني ولا سيما لما راوا الباب العالي واثقاً بهم يأبى عقد مؤتمر دولي . وكان عرابي يؤكد لاتباعه ان وجود هذه الاساطيل في مينا الاسكندرية لا يخشى منه البتة لانها انما اتت هذا البحر للتنزه كما فعلت مرات عديدة قبل هذه . اما انكلترا فلم تنفك ساعية في عقد المؤتمر بدعوى انه يستحيل اعادة الامن الى مصر بغير واسطة فعالة . وكان الباب العالي يجيب على ذلك بقوله انه بعد تشكيل الوزارة الجديدة صار يرجو استقرار السلام ووافقه على رايه هذا دول المانيا واوستريا وايطاليا والروسية. وهذه الموافقة كانت مبنية على خوف الدول من مطامع انكلترا في مصر . فلما علمت هذه بنياتهم اكدت لهم انها تتعهد متى عقد المؤتمر مع سائر الدول الا تسعى البتة الى ضم ارض ما اليها او الاستيلاء على مصر او قسم منها او الحصول على امتياز ما سياسي او تجاري بدون ان يكون فيه نصيب لسائر الدول فوافقها الجميع على عقد المؤتمر اما الدولة العلية فاصرت على عدم لزومه

وفي ٧ شعبان او ٢٤ يونيو عقد المؤتمر في الاستانة ولم يكن للدولة العلية معتمد فيه فقرر ما يأتي « ان الحكومات التي وقع وكلاؤها بالنيابة عنها على ذيل هذا البروتوكول تتعهد انها لا تقصد البتة اغتنام ارض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا ان يكون لرعاياها من الامتيازات المتجربة ما لا يستطيع ان يناله غيرهم من رعايا اي الدول في مصر وذلك في اي مسألة حصل الاتفاق عليها بسعيها واشتراكها في المخابرات لتنظيم امور تلك البلاد » . وقد كانت انكلترا في اثناء سعيها الى عقد المؤتمر تحشد الجنود استعداداً للحرب وكانت في الوقت عينه تلح على سائر الدول ان تساعدها في ذلك

وجاء في اثناء ذلك الى عرابي نيشان من لدن الحضرة السلطانية فاتخذه الناس دليلاً على رضاء الباب العالي عن اعماله وكان هو يحاول اقناعهم ان جميع الدول تساعده

على مقاومة انكلترا اذا مست الحاجة . وفي ٥ شعبان او ٢٢ يونيو تمارض المستر مالت وكيل انكلترا فأنزل الى احدى السفن وبقي فيها بضعة ايام ثم سافر الى برندزي . وفي ٢٥ منه تنحى المستر كوكسن قنصل انكلترا في الاسكندرية بدعوى مرضه بسبب الجراح التي كان قد اصيب بها في اثناء حادثة ١١ يونيو وهكذا فعل قنصل مصر . اما باقي القناصل فبقوا في الاسكندرية الى ٩ يوليو . وكان الخديوي ودرويش باشا مقيمين في سراي راس التين وعرابي مقيماً في الترسخانة وتحت امره في ثغر الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل

وفي جلسة المؤتمر السابعة اقرت الدول على كتابة لائحة مشتركة يقدمونها الى الباب العالي يطلبون منه ارسال جنود عثمانية الى مصر لاخماد الفتنة ففعلوا فابى فاتخذت انكلترا ذلك ذريعة لتداخلها بالقوة

ضرب الاسكندرية

أما فرنسا فقد علمتَ ما كان من تغير سياستها بعد تغير وزارتها وأصبحت لا ترى الاشتراك مع انكلترا في امور مصر وانما هي تشاركها فقط في حماية قناة السويس ولم تشأ مشاركة الانكليز في تحمل تبعة الاحتلال العسكري. ولذلك فلما رسا الاسطولان في مياه الاسكندرية تفردت انكلترا بالعمل . فاخذ الاميرال سيمور قومندان العمارة الانكليزية يترقب الاسباب لمباشرة العدوان فادعى أن الجهادية يحصنون القلاع في الثغر وينقلون أحجاراً ضخمة يلقونها عند فم المضيق لسد مدخل المينا فيمنع المدد ويحصر الاسطول وقال ان هذا التحصين مناف لحقوقه . فكلف الحكومة المصرية أن تكف عن التحصين حالاً والاَّ اضطر الى اطلاق مدافعه عليها فيدكها عن آخرها . فاجابه طلبه باشا عصمت أن لا صحة لما يقول وان الجهادية لم يهتموا قط بتحصين القلاع . وشاع ذلك فخافت الناس وأوعز الى الجناب الخديوي بواسطة المستر كولفن أن يتنحى صيانة لحياته فاجابه « لا يليق بي أن اترك الكثيرين من رعيتي الامناء في اوان الشدة ولا يليق بي أيضاً أن أترك البلاد في اوان الحرب » ثم توسطت قناصل الدول في الاسكندرية بين الاميرال سيمور وبين الجهادية المصرية فلم ينجحوا . فتقدم عرابي وسامي الى كاتب سر مجلس النظار أن يكتب تقريراً في المسألة مفاده « أن الاميرال تجاوز الحدود فيما يطلب وانه لابد من مقاومته وأن عرابي وقومه مفوضون في أمر الدفاع عن البلاد »

وداروا به على منازل النظار وطلبوا التوقيع عليه فوقع بعضهم اختياراً والبعض اضطراراً ويقال ان الخديوي نفسه صدق عليه أو الجيء للتصديق ثم ارسلوه الى الاميرال سيمور . وأرسل عرابي منشوراً الى المديرين يطلب اليهم أن يكونوا مستعدين للامداد بالجند والمال

وفي مساء ٢٢ شعبان أو ٩ يوليو جاء المستر كارترايت الى الخديوي وأعلنه رسمياً عزم الاميرال سيمور على مباشرة القتال صباح الثلاثاء في ١١ يوليو وألح عليه أن يترك سراي راس التين ويلجأ الى سراي الرمل ففعل . ثم كتب رسمياً الى درويش باشا يطلب اليه ان يحافظ على حياة الجناب الخديوي والقى عليه التبعة اذا اصيب بسوء

وفي ٢٣ شعبان او ١٠ يوليو كتب الاميرال سيمور رسمياً الى كل من درويش باشا وراغب باشا رئيس الوزارة يعلمهما عن خروج رجال الوكالة الانكليزية من القطرا المصري اشارة الى قطع العلائق الودية واعلنت خارجية انكلترا سائر الدول بذلك « وانها لم تر بدًّا منه لكنها تصرح ان ليس لها ارب خفي او نية غير بينة وانما عملها هذا من قبيل الدفاع وحرصاً على مصلحة الجناب الشاهاني » وفي مساء ذلك اليوم سافر الاسطول الفرنساوي متقهقراً تاركاً سفينتين من سفنه فقط

وفي الساعة السابعة من صباح الثلاثاء ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ او ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ م اطلقت العمارة الانكليزية مدافعها على حصون الاسكندرية وما زالت الى الساعة واحدة ونصف بعد الظهر فهدمت معظمها وانفجر مستودع البارود في قلعة اطه . فجاء راغب باشا الى الجناب الخديوي في الرمل واخبره ان الحصون قاومت اشد مقاومة وان كثيراً من سفن الانكليز قد غرقت وكان يقول ذلك مسروراً . ولكن قوله هذا مالبث ان نقض بورود الخبر الصحيح . ثم جاء عرابي فوقف بين يدي سموه فسأله عن حالة الحصون فقال « لم يعد في وسعنا المقاومة ولا بدَّ لنا من تدابير اخرى او ان نتساهل مع الاميرال » وبعد المخابرة تقرر ارسال طلبة عصمت الى الاميرال وعاد عرابي من حيث اتى . فعاد طلبه باشا من عند الاميرال واخبر الجناب الخديوي ان الاميرال يطلب احتلال ثلاث قلاع والا فانه يستأنف القتال الساعة ٢ بعد الظهر. ثم قال « ولكنني قلت له ان هذه المدة لاتكفي لاتمام المخابرة بشأن ذلك فطلبت تطويلها فابى

فاتيت لاعلم سموكم ملتمساً رايكم » فعقد مجلس تقرر فيه انه لايحق للحكومة المصرية الترخيص في احتلال جنود اجنبية بدون مخابرة الباب العالي الا ان الوقت لم يسمح بتبليغ ذلك القرار للاميرال

ولما راى رجال الحصون المصرية عجزهم عن مقاومة السفن الانكليزية رفعوا العلم الابيض اشارة الى ايقاف العدوان فانقطعت السفن عن قذف النار. وكانت الحصون قد تهدمت فعلم الثائرون ان ذلك التسليم يعقبه احتلال الجيوش الانكليزية المدينة فوزعوا في غلس في ١٣ يوليو فرساناً في احياء المدينة يأمرون الوطنيين بالخروج من الاسكندرية حالاً وكانت هذه الاوامر تصدر من الاميرالاي سليمان داوود وامر ايضاً زمراً من الرعاع ان تطوف المدينة وتحرقها فابتداوا من الساعة الاولى بعد الظهر فكانت الاسكندرية مساء الاربعاء مضطرمة الجوانب منهوبة المخازن لاترى فيها الا لهباً متصاعدة واناساً حاملين الامتعة والمصاغ فارّين الى داخلية البلاد

وكان الخديوي في سراي الرمل و بمعيته عثمان باشا واسماعيل باشا الشركسيان وزبير باشا السوداني والجنرال ستون باشا وفدريكو بك وطونينو بك ودي مارتينو بك وابانتي بك وتيكران باشا وزهراب بك وغيرهم لايزيد عدد الجميع على خمسين . وبعد ظهيرة ذلك اليوم جاء الى سراي الرمل نحو أربعماية فارس و بعض المشاة واحتاطوا بها فسئلوا عن الغاية من مجيئهم فقالوا « قد أتينا للمحافظة على السراي » والحقيقة انهم جاؤا مأمورين باحراقها وقتل من يخرج منها . وفي الساعه ٧ مساء بعث عرابي يستدعيهم اليه فساروا وتخلف منهم أحد البكباشية ومعه ٣٥٠ فارساً فمثل بين يدي الجناب الخديوي واقسم أنه يموت بين يديه واقتدى رجاله به وأخبره أنهم كانوا قد أتوا يريدون شرًّا . وفي خلال ذلك أرسل الاميرال سيمور ثلاث دوارع من أسطوله لترسو بجوار سراي الرمل صيانة لحياة الحضرة الخديوية ويقال أنها هي التي كانت السبب في انسحاب الفرسان العرابيين . ثم جاء المحافظ الى الخديوي يخبره بما كان من النهب والحرق في أحياء المدينة . فأرسل سموه كامل باشا الشركسي وزبير باشا لمنعا الناس من ذلك

الاسكندرية بعد الضرب

ونحو الساعة ٢½ بعد ظهر ٢٦ شعبان أو ١٣ يوليو كانت جنود عرابي قد نجلت عن الاسكندرية . فجاء زهراب بك بهذا النبأ الى الخديوي وأن الاميرال سيمور عازم على انزال جنود بحرية الى رأس التين وأنه يدعو الحضرة الخديوية الى سفينته حيث يكون آمناً . ففضل سموه التوجه الى سراي رأس التين فسار وبمعيته درويش باشا حتى جاء السراي فوجد هناك الاميرال سيمور و بعضاً من جنوده ينتظرونه في ساحة القصر . وفي المساء نزل بعض وكلاء الدول وهنأوه بسلامته وكان في السراي ٣٠٠ من الحامية الانكليزية . وفي الصباح التالي أنزل الاميرال فرقاً أخرى من رجاله يطوفون الشوارع ومعهم عدد من المدافع تسكيناً لخواطر الباقين فيها

وقد قدرت الخسائر بستماية من الوطنيين وخمسة من الانكليز على الدوارع غير المذابح التي حصلت في أثناء ذلك في طنطا والمحلة الكبرى وسمنود وجهات أخرى .

وبعد انتقال العائلة الخديوية الى رأس التين استدعى الجناب الخديوي زهراب بك وجعله ترجماناً بين السراي والضباط الانكليز وعهد اليهم أن يمنع أياً كان من دخول القصر لان العرابيين كانوا قد عينوا نفراً من الجواسيس لتجسس حالة السراي . أما عرابي وأتباعه ففروا الى كفر الدوار وعسكروا هناك على نية الدفاع

ولما استتب المقام للانكليز في الاسكندرية اخذوا في تنظيف الاسواق ونقل الجثث ودعوا المهاجرين ان يعودوا الى منازلهم لاعادة الراحة والطمأنينة واستدعي أثناء ذلك درويش باشا الى الاستانة فتوجه

وكتب راغب باشا الى الاميرال سيمور يخبره ان اجراءات عرابي من الان فصاعداً مخالفة لاوامر الخديوي وانه هو وحده (عرابي) المسئول عنها

ثم كتب الجناب الخديوي الى احمد عرابي يأمره بالامساك عن جمع العساكر واعداد التجهيزات لان الحكومة الانكليزية لاخصومة بينها وبين الحكومة المصرية وانها مستعدة لتسليم المدينة متى رأت فيها قوة منتظمة والبلاد في أمن وأمره ان يأتي الى سراي رأس التين حالاً

فاجاب عرابي « ان مقاومة العمارة الانكليزية حصلت باقرار مجلس النظار

ودرويش باشا وان النظار هم الذين اعلنوا الحرب على الانكليز وهكذا حصل فاذا كان الاميرال الان قد عدل عن المحاربة الى المسالمة بعد وقوع الحرب فذلك يعد طلبا للصلح ولا يجوز ان يكون انكاراً للحرب » الى ان قال « انه يميل الى الصلح ولكن مع حفظ شرف البلاد والحكومة فاذا كان الاميرال يريد تسليم المدينة فليسلمها ولتخرج مراكبه من الاسكندرية وانه للمحافظة على شرف الحكومة الوطنية ينبغي الاستمرار على الاستعداد العسكري حتى تفارق المراكب المياه المصرية وانه يعتبر قول الانكليز هذا مكيدة لان الانكليز لا يزالون في الاسكندرية ولذلك لا يمكنه الحضور اليها » ثم طلب التئام مجلس النظار في مركز الجيش للمداولة في الامر وبعد ذلك يصرف الجيش ويحضر

مساعي العرابيين

فيظهر ان اصرار عرابي هذا هو السبب في اتساع الخرق لان الحكومة الانكليزية لم تكن تطمع باحتلال هذه البلاد عَلَى مايظهر من اقوالها . وكتب عرابي الى وكيل الجهادية يعقوب سامي في القاهرة ايقاعاً في الحضرة الخديوية واتهمها بالتحامل عَلَى الجهادية الوطنية وانها هي التي جلبت كل هذه المتاعب الى القطر المصري وطلب اليه ان يتروى في الامر وينظر في صلاحية هذا الوالي للتولية عليها او عدمه . فلما وصل كتاب عرابي هذا الى يعقوب سامي جمع اليه الذوات والاعيان والرؤساء الروحانيين في ديوان الحربية في غرة رمضان سنة ١٢٩٩ هـ (١٧ يوليو ١٨٨٢ م) وعقدوا جلسة تحت رئاسة وكيل الداخلية قام فيها عدة خطباء اتهموا الجناب الخديوي ببيع الوطن . واستقر الرأي اخيرا عَلَى لزوم الاستمرار على اعداد التجهيزات الحربية وان تعين لجنة من ستة اشخاص يتوجهون الى الاسكندرية لاستدعاء النظار الى العاصمة للاستعلام منهم عن حقيقة ما حصل . وبناء عَلَى ذلك القرار سار الوفد فمر بكفر الدوار وتداول مع عرابي ورؤساء الجند فاختير منه اثنان هما علي باشا مبارك واحمد بك السيوفي للتوجه الى الاسكندرية للغرض المتقدم ذكره . فوصلا اليها وقابلا الجناب الخديوي صباح الاثنين في ٢٤ يوليو وعرضا له الحاله فاصدر امراً عالياً يقضي بعزل عرابي عن نظارة الجهادية واعلن ذلك في البلاد . ثم ارسل الى الباب العالي يخبره بعصيان عرابي وان الجند انحاز اليه وهو المسئول عنه

اما عرابي فلم ينفك عن اعداد المعدات والتحصين بمساعدة رفقائه فحاول سد ترعة

المحمودية بجهة كفر الدوار فلم يفلح وجعل يشيع في البلاد ان الخديوي مشترك مع الانكليز على اضاعة البلاد الى غير ذلك من اثارة خواطر الاهلين ولما وصل الامر بعزل عرابي الى العاصمة اجتمع المجلس المتقدم ذكره في نظارة الداخلية وقرروا بقاء عرابي للمدافعة عن الوطن وايقاف اوامر الخديوي لانه خرج عن قواعد الشرع الشريف

واستولى العرابيون على الخطوط الحديدية والبرقية فنصب الاميرال سيمور سلكاً تلغرافياً بين الاسكندرية وبورت سعيد واعلن الخديوي ثانية عصيان عرابي . غير ان هذه الاوامر والمنشورات كانت تذهب ادراج الرياح لان الاهلين اصبحوا منقادين للحزب الوطني انقياداً امست البلاد به آلة بيد زعيم الثورة يديرها كيف شاء

ثم نزل العرابيون نحو الاسكندرية وعسكروا في الرملة فخرجت اليهم فرقة من الانكليز في ٥ اوغسطس فلم تقو عليهم فتقهقرت الى الاسكندرية ثم عادت اليهم ثانية وقد تشددت فتقهقر العرابيون وتحصنوا بين ابي قير وخطوط الرملة ثم تقهقروا الى كفر الدوار فاعتبر الانكليز من ذلك الحين حالتهم في مصر حالة حربية يحتاجون فيها الى الامداد واستمدوا انكلترا فامدتهم بقوات كانت تتوارد اليهم عن طريق السويس . اما عرابي فكان في كفر الدوار في اربعة الايات من المشاة والاي من الفرسان والاي من الطبجية وبطارية من مدافع الرش وكثير من العربان وقد قدرت الجنود الانكليزية التي سارت لمحاربة عرابي باربعة عشر الفاً من المشاة واربع فرق من الفرسان والف من الطبجية معهم ٣٦ مدفعاً ونحو ست فرق من المهندسين . ثم انضم الى هذه القوة بعد ذلك قوة هندية مؤلفة من تسعة الاف جندي ويقال بالاجمال ان جميع الحاميات الانكليزية التي كانت في مالطة وقبرص وجبل طارق انضمت الى حملة مصر

على ان هذه الاعدادات لم تكن لتثني العرابيين عن عزمهم فان عرابي كتب الى المديرين بتاريخ ١٢ اوغسطس ان يجمعوا جنداً يبلغ مجموعه ٢٥ الفاً . وطلب ان يكون منهم الخفراء لانهم اقرب الناس الى الحركات العسكرية تلبية لما تدعوه اليه الحالة من السرعة بحشد الجيوش وفرض ايضاً على المديرين اموالاً يجمعونها من الاهالي امداداً للحرب ولا تسل عن الطرق التي كانوا يجمعون بها تلك النقود . واخذ في تقوية الاستحكامات وتشييد الطوابي فمدها بين ما فوق الرملة باربعة كيلو مترات الى كفر الدوار وانشأ في كفر الدوار سداً عرضه ٣٠ متراً وخندقاً عرضه اربعة امتار جعله فاصلاً بين السد وارض اكثر فيها من مواقع الاستحكام . وكان الخط الدفاعي الاول ممتداً مما بعد المحلة بمسافة ٨ كلم متر على طول الخط الممتد من الرملة الى البيضة وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات

والتلال مراقع محصنة لى كفر الدوار فكانت كلها نحو ٥٠ موقع . واتم مثل هذه الاعمال الدفاعية من كفر الدوار الى ابي حمص و يوجد بين ابي حمص ودمنهور تل يفصل سائر التلال مساحة وارتفاعاً فاختاره عرابي موقعاً يقيه من الانكليز اذا قضت عليه الحال بالتقهقر الى دمنهور وعزز دمنهور بالمدافع

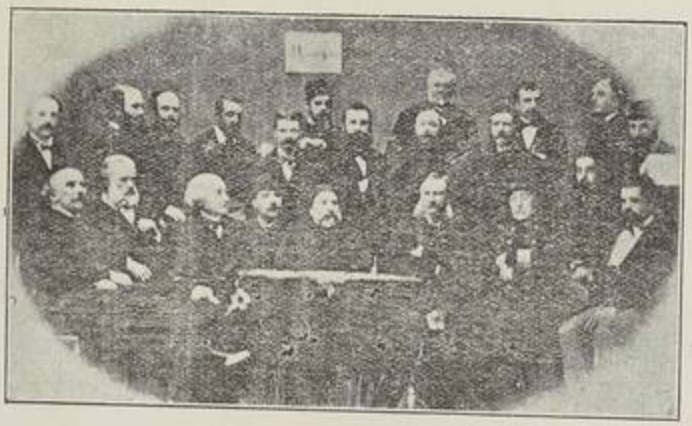

ش ٨٤ : مؤتمر الاستانة سنة ١٨٨٢

كل ذلك والمخابرات جارية مع السلطان بشأن اشتراكه في المؤتمر للنظر في مصلحة القطر المصري وهو يابى الاشتراك حتى ارسل اليه البارون دي رينغ ان فرنسا تحب الاتفاق مع العرابيين فرضي ان تشترك فيه فانتدب للنيابة عنه سعيد باشا الصدر الاعظم وعاصم باشا ناظر الخارجية في ٢٠ يوليو . واعلن سعيد باشا المؤتمر في ٢٦ منه ان جلالة السلطان يعدُّ حملة عثمانية الى مصر ولا حاجة الى مداخلة الدول الاوربية في هذه المسألة . واخذت الدولة في اعداد ٥٠٠٠ جندي لهذه الغاية . فقال اللورد دفرين وهو سفير انكلترا في الاستانة لا بد قبل كل شيء من اصدار منشور شاهاني يعلن عصيان عرابي . فوافقه واصدره فنشر في الجرائد فوجدوه لا يفي بالمرام . فترتب على ذلك تباعد بين الدولة العلية وانكلترا وزاد التباعد سعي السلطان في عرقلة مساعي الجند الانكليزي بمصر او لوقوفه في سبيل ما يحتاجون اليه من الدواب وغيرها لحمل اثقالهم مما يطول شرحه . فقطع اللورد دفرين العلائق السياسية مع الباب العالي . وانصرفت العناية عن ارسال جند عثماني او غيره

اما في مصر فقد تركنا الجند الانكليزي في الاسكندرية وقد غادرها العرابيون

وتحصنوا في دمنهور وكفر الدوار وادرك عقلاء الوطنيين عاقبة تلك المقاومة فقام جماعة منهم يخوفونهم العواقب بلا فائدة والظاهر ان عرابي كان معولاً في مساعيه على مساعدة الباب العالي. ثم مالبث ان سمع بتصريح السلطان بعصيانه ثم جاءته صورة المنشور السلطاني بهذا الشأن وفحواه تعنيف عرابي على عصيانه وانه يجب عليه الرضوخ للجناب الخديوي

وفي اواسط اوغسطس وصل الجنرال السير وولسلي الى الاسكندرية واستلم قيادة الجيش . ثم اخذت تتوارد القوات الانكليزية فبلغت في اواخر الشهر المذكور نحو ٢٥ الفاً وكان قدوم هذا القائد العظيم داعياً لتيقن الناس بفوز الحملة الانكليزية نظراً لما اشتهر به من البسالة والدراية العسكرية . وبعد وصوله الى الاسكندرية نشر اعلاناً مآله انه لم يأت الى مصر الا لتأييد سلطة الخديوي وهو لا يحارب الا الذين يخالفون اوامر مليك البلاد وتنبأ انه سيدخل القاهرة في ١٥ سبتمبر من تلك السنة . ثم اخذت العساكر الانكليزية تستكشف مراكز العرابيين في كل يوم فكانوا اذا ظفروا بشرذمة من العرابيين ولقوا منها مقاومة قابلوها بقوة السلاح فتولي الادبار تاركة في ساحة القتال من جرح منها فينقلونه الى معسكره اما القتلى فكانوا يدفنونهم

وفي ٥ شوال سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٠ اوغسطس ١٨٨٢ م حصلت بين الفريقين معركة في كفر الدوار استمرت ساعتين وعدد العرابيين ضعفا عدد الانكليز وانجلت عن انهزام قسم عظيم من العرابيين وانقلابهم الى تل الوادي واحتل الانكليز بعض مواقع العصاة بعد ان قتلوا منهم ١٦٨ واسروا ٦٢ . وجرت معركة اخرى في اليوم التالي لم يفز بها احد الطرفين . وفي اليوم الثالث ٧ شوال اقتتل الفريقان في كفر الدوار اقتتالاً تعزز فيه جانب الانكليز بنجدة جاءتهم على قطار مخصوص فتراجع العرابيون وتربصوا تحت امرة طلبة عصمت في مواقفهم يتوقعون فرصة . وكان العرابيون بعد كل واقعة يكتبون الى اخوانهم في العاصمة وغيرها انهم ظافرون . اما عرابي فذهب لتحصين التل الكبير في مديرية الشرقية

وبعث سير الاحوال وزارة راغب باشا على الاستعفاء فاستقدم الجناب الخديوي رياض باشا من اوربا وكان متغيباً فقدم في اواسط اوغسطس وبعد قدومه دعا الخديوي شريف باشا الى تشكيل وزارة جديدة فابى الدعوة وتعين رياض باشا ناظراً للداخلية وعمر باشا لطفي ناظراً للجهادية

وارسل الانكليز فرقاً من جيوشهم تسير الى مصر عن طريق الاسماعيلية فتنبكوا في ٩ شوال سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٣ اوغسطس سنة ١٨٨٢ م مع العرابيين بين

المسخوطة والاسماعيلية وكان الفوز للانكليز . واستولى الانكليز ايضاً على المحسمة فاصبحوا على عشرة اميال من التل الكبير وفي ٢٨ اوغسطس حصلت واقعة القصاصين بين المحسمة والتل الكبير . وفي ٢٩ شوال او ١٢ سبتمبر ورد للجناب الخديوي في الاسكندرية تلغراف من سلطان باشا ينبيء باستعداد الانكليز لمهاجمة التل الكبير حيث تحصن العصاة ثم ورد تلغراف آخر من الاسماعيلية يعلن هجوم الانكليز على التل من كل ناحية وصوب في الساعة الرابعة والدقيقة ٣ بعد منتصف الليل وان العرابيين لم يقفوا امام الانكليز الا ٢٠ دقيقة استولى الانكليز بانقضاضها على التل فغنموا ٤٠ مدفعاً وقتلوا الفي رجل واسروا الفين واستولوا على المؤن والذخائر ثم اخذوا يتعقبون الجند المنهزم

واقعة التل الكبير

وتفصيل ذلك ان عرابي كانت قد وصلت اليه نسخة من جريدة الجوائب وفيها منشور السلطان باعتباره عاصياً فاغتاظ وكاد يقع في اليأس لان حجته الكبرى كانت انه مدافع عن حقوق الدولة العلية في مصر فتشاور مع عبد الله نديم واقر على اخفاء ذلك عن الجند . فلما كانوا في التل الكبير وقد تحصنوا فيه بقوة ٣٠ الف مقاتل و ٧٠ مدفعاً زحفت الجنود الانكليزية بقيادة الجنرال وولسلي بقوة ١٣ الفاً و٦٠ مدفعاً وقبل وصولهم الى معسكر العرابيين ارسلوا جواسيس من المصريين ومعهم نسخ من الجريدة المشار اليها ففرقوها في الضباط وكبار الجيش . فلما اطلع اولئك عليها خارت قواهم ويئسوا من الفوز لان معظمهم كان يقاتل لاجل السلطان فعلم عرابي بذلك فجمع اليه الضباط وشاورهم فاقروا على استمرار الدفاع محاباة ورياء . وفيه كتب علي بك يوسف امير الاي المقدمة الى عرابي انه قد تحقق ان العدو لا يخرج في هذه الليلة فاصدر عرابي امره ان يرتاح الجيش . اما العساكر الانكليزية فسارت من اول الليل لا تفتر لها عزيمة وفي مقدمتها بعض الضباط المصريين الذين كانوا من حزب الجناب العالي وامامهم عربان الهنادي يرشدونهم الى الطريق فبلغوا المقدمة في اخر الليل فاخلى لهم علي بك يوسف الطريق ومروا بين العساكر لا رادَّ يردهم فاطلقوا النار على الاستحكامات واوقعوا بالجند الراقد فالقت الاجناد اسلحتها وفرت فاستيقظ عرابي من نومه على دوي المدافع وخرج من خيمته فارتاع لما علم ان العدو قد استولى على الاستحكامات وانهزمت الجنود المصرية فاخذ يناديهم فلم يلبه مجيب ثم راى خيمته اصيبت بقنبلة فطارت فعلم انه لا ينجيه من الموت الا الفرار . فركب جواداً كريماً

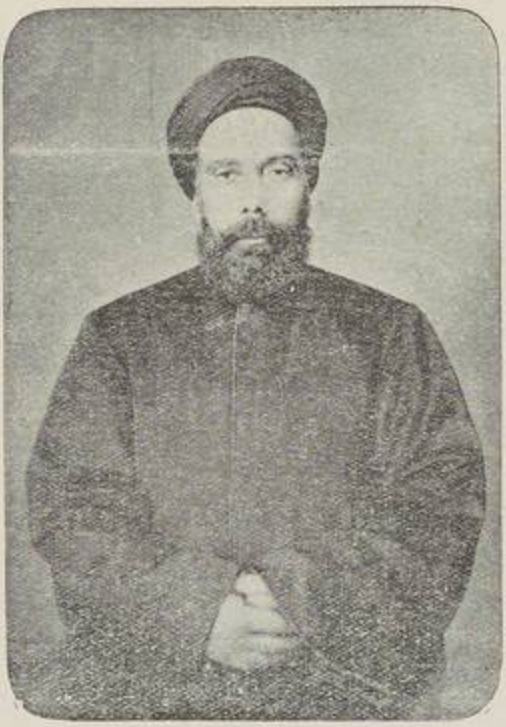

ش ٨٥ : عبد الله نديم خطيب العرابيين

وفرَّ وتبعه عبد الله نديم فحاول بعض خيالة الانكليز ادراكهما فما استطاعوا وما زالا حتى وصلا محطة ابي حماد فنزلا في القطار وامرا السائق بالمسير فتعلل فهدداه فسار حتى وصل القاهرة

عرابي في القاهرة

فتوجه عرابي توًّا الى قصر النيل وعقد مجلساً من امراء العسكرية والملكية واخبرهم بما كان واستشارهم فاختلفت الآراء فنهض البرنس ابراهيم باشا وخطب في الناس محرضاً على الدفاع فوافقوه بحسب الظاهر . واستقر الرأي على انشاء خط دفاعي في ضواحي المحروسة . فسار عرابي في فرقة من المهندسين نحو العباسية يستشيرهم عن انسب المواقع لبناء ذلك الخط فقال له احد الضباط « انك بجهلك وسوء تدبيرك قد احرقت الاسكندرية وتريد الآن ان تحرق مصر فاذا لم يكن لك فيها مايهمك فاعلم ان لنا فيها نساء واطفالاً واملاكاً لانسلم بضياعها تنفيذاً لاغراضك الا تدري انك تعرض مصر

للخطر بانشاء الاستحكامات وتجعل منازلها هدفاً لكرات المدافع فنحن لانوافقك على ذلك واني اقول لك ذلك بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع الضباط الحاضرين فلا ترجُ منا مساعدة ويكفي ماقد جرى »

فانذهل عرابي وارتبك في امره لاسيما لما راى الباقين مستحسنين ماقاله رفيقهم فكرَّ راجعاً على عقبيه كئيباً فاجتمع باصدقائه ودعاهم الى النظر في الامر فلم يجدوا افضل من رفع عريضة الى الجناب الخديوي يعتذرون بها عن افعالهم ويقدمون له الخضوع فحرروا عريضة وارسلوها مع وفد مؤلف من بطرس باشا غالي وعلي باشا الروبي ومحمد رؤوف باشا ثم اردفوها بعريضة اخرى ارسلوها مع عبد الله نديم في قطار مخصوص وكان ذلك في غرة ذي القعدة سنة ١٢٩١ هـ او ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م فأبى الخديوي قبول العريضة وامر بالقبض على الروبي وسجنه . اما نديم فانه ركب القطار الذي قدم عليه وعاد من فوره بعد ان وصل كفر الدوار ثم اختفى بعد ذلك ولم يتيسر للحكومة القبض عليه الا بعد عشر سنوات قضاها مختفياً في الارياف

دخول الانكليز القاهرة

اما الجنود الانكليزية فانها بعد استيلائها على التل الكبير سارت فمرَّت ببلبيس فالزقازيق واستولت عليهما ثم سارت حتى اتت العباسية خارج القاهرة في مساء الخميس ١٤ منه وعسكرت في سفح المقطم فخاف الناس ان يدخل الانكليز مصر محاربين ولكن الامر جاء بخلاف ماكانوا يتوهمون لان الجيوش الانكليزية دخلت العاصمة بحالة سلمية في يوم الجمعة ١٥ سبتمبر طبقاً لما تنبأ به الجنرال وولسلي والقت القبض على عرابي . وبعد وصول الجنرال وولسلي الى القاهرة انفذ السير الجنرال افلن وود الى كفر الزيات فوصلها في ١٦ منه فسلمت فأمر بنسف الطابية التي كان قد بناها العرابيون في قرية اصلان وسلمت باقي الحصون في بورت سعيد ورشيد واخيراً دمياط فانها لم تسلم الا في ٢١ سبتمبر

وبعد وصول الجنود الانكليزية الى القاهرة احتلوا قشلاقات العباسية والقلعة والمقطم وقصر النيل ونزل الجنرال السير وولسلي في سراي عابدين وكان من جملة قواد هذه الحملة الدوق دي كنوت ابن ملكة انكلترا . واودع عرابي ومحمود سامي في سجن العباسية والاسرى من الملكية في سجن الضبطية والجهادية في القلعة

ثم صدرت الاوامر الخديوية بتعيين حكام المديريات من اهل النزاهة والاخلاص وصدرت اوامر اخرى بتعيين لجنة مخصوصة في الاسكندرية لتحقيق مواد السرقة

والقتل والحرق التي وقعت فيها في حادثتي ١١ يونيو و١١ يوليو الى غاية ١٦ منه وتقديم التقارير بما تستطلعه . واوامر اخرى بتعيين مثل هذه اللجنة في طنطا لتحقيق مثل هذه الحوادث التي حدثت خارج الاسكندرية . وارسلت نظارة الداخلية منشورات الى المديرين يستقدمون من وقعت عليهم الشبهة بالاشتراك مع العرابيين . ولا تسل عن التهاني التلغرافية التي وردت للجناب الخديوي وللجنرال وولسلي بما اتاهما الله من النصر المبين

وفي ٢٣ سبتمبر الغيت جريدتا الزمان والسفير وفي ٢٥ منه اقبل الجناب الخديوي الى العاصمة ومعه شريف باشا وسائر النظار فتواردت الجماهير لملاقاة سموه في المحطة ثم ركب والى يساره ابن الملكة وامامه الجنرال ولسلي والمستر مالت الى سراي الاسماعيلية وفي اليوم التالي سار الى سراي الجزيرة للتشريفات الاعتيادية واستمرت الزينة في القاهرة ثلاث ليال متوالية

محاكمة العرابيين

وفي ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م امر سموه بتشكيل لجنة مخصوصة بالقاهرة تحت رئاسة اسماعيل باشا ايوب لتحقيق قضية من كان له يدٌ في الحوادث الاخيرة وان تقدم ما تقرره لنظارة الداخلية لتنفذه . واصدر امراً آخر بتشكيل محكمة شرعية في القاهرة تحت رئاسة محمد رؤوف باشا للحكم في الدعاوي التي تقدم من اللجنة المخصوصة وان تكون احكام هذه المحكمة قطعية لا تستأنف . واصدر امراً آخر بتشكيل لجنة عسكرية بالاسكندرية للحكم في الدعاوي التي تقدم لها من اللجنتين المخصوصتين اللتين تشكلتا في الاسكندرية وطنطا وان تكون احكامها قطعية تحت رئاسة عثمان نجيب باشا

فشرع كل من هذه اللجنات والمحاكم في اجراء ماعهد اليه . وفي ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ او ٢ اكتوبر سنة ١٨٨٢ م تعين الشيخ محمد العباسي لمشيخة الجامع الازهر بدلاً من الشيخ الامبابي . وكافأ الجناب الخديوي سلطان باشا بعشرة آلاف جنيه على صداقته التي ابداها اثناء الثورة . ثم اصدر الجناب العالي امراً بالغاء الجيش المصري لصرف العساكر التي جاهرت بالعصيان والاكتفاء بمحاكمة الضباط وكبار القادة كعرابي وعبد العال وغيرهما . ثم امر بتنظيم جند جديد . وفي ١١ ذي القعدة او ٢٤ اكتوبر صدر العفو عن الملازمين والبوزباشية الذين كانوا في جيش عرابي مع بعض الاستثناء

وانعم الجناب الخديوي بالنيشان المجيدي والعثماني من رتب مختلفة على ٥٢ ضابطاً من ضباط الجيش الانكليزي . واخذت الحكومة المصرية بمشاركة قناصل الدول تسعى في تسكين البال وتوطيد الراحة والقبض على من اشترك بتلك الثورة ومكافأة الذين ساعدوا في اطفائها وبرهنوا على اخلاصهم لمليك البلاد . وعينت في الاسكندرية لجنة للنظر في تعويض الخسائر التي تكبدها اهاليها بسبب الحرق والنهب

واخذت الحكومة في محاكمة زعماء الثورة العرابية على ايدي اللجان المتقدم ذكرها وفرغت من ذلك في ٣ دسمبر سنة ١٨٨٢ ثم التأمت اللجنة مراراً للنظر في تثبيت تلك الاحكام ثم عرضت على الجناب العالي فتكرم بالعفو عمن حكم عليهم بالقتل فأصبحت الاحكام بعد ذلك العفو تقضي بتجريدهم من الرتب والالقاب والنياشين ونفيهم وهاك ماصدر بشأن ذلك

ش ٨٦ : احمد عرابي في منفاه

(١) الحكم الصادر على كل من احمد عرابي وطلبه عصمت وعبد العال حلمي ومحمود سامي وعلي فهمي ومحمود فهمي ويعقوب سامي المقتضي جزاؤهم بالقصاص وقع تبديله بالنفي الى الابد من الاقطار المصرية وملحقاتها

(٢) ان هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على المذكورين بالقتل اذا رجعوا الى الاقطار المصرية او ملحقاتها

ثم ارتأى مجلس النظار ان تضبط املاكهم المنقولة وغير المنقولة وان يعين لهم في مقابل ذلك راتب سنوى كاف لمعيشتهم فصدر بذلك امر عال في ٢٠ شوال او ١٤ دسمبر من تلك السنة فعينت لجنة لاجراء ذلك . ثم صدرت الاحكام المختلفة على من بقي من اتباع عرابي كل بحسب استحقاقه . وكان الامر بالنفي على ماتقدم يقضي بتسفيرهم حالاً فانما رات الحضرة الخديوية امهالهم الى ١٦ صفر او ٢٧ دسمبر وعند ذلك ركبوا في قطار مخصوص مع من ارادوا استصحابه من ذويهم الى السويس ومنها الى جزيرة سيلان منفاهم

ش ٨٧ : احمد عرابي عند رجوعه

وما زالوا هناك الى سنة ١٩٠١ حتى اذن الجناب الخديوي لهم بالعودة الى مصر فكانوا فيها بقية حياتهم بدلاً من منفاهم في سيلان . وقد توسط لهم بذلك الدوك دك كورنول ويورك ولي عهد انكلترا يومئذ بعد زيارته سيلان ومشاهدة المنفيين في

منفاهم مع مابغشاهم من الذل والضعف . وقدم احمد عرابي الى هذا القطر بعد غيابه عنه نحو ١٩ عاماً

ثم اصدر الجناب الخديوي امراً عالياً بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٣ يناير سنة ١٨٨٣ م بالعفو عن اهالي القطر المصرى الذين اشتركوا في الثورة العرابية ماعدا الذين سبق صدور الحكم عليهم لغاية تاريخه

ولاحظ رياض باشا ان نيات الانكليز منصرفة الى التساهل مع عرابي ورفقائه في اثناء محاكمتهم وهو يريد التشديد فأبت نفسه الكظم على ما في ضميره فقدم استعفاءه من نظارة الداخلية وخاضت الجرائد بهذا الشأن ولاسيما جريدة الديبا وابانت ما لهذا الوزير الخطير من المآثر الغراء في التنظيمات الادارية وحرية التصرف بالاحكام . وقد اجمعت تلك الجرائد على استحسان فعله مؤثراً الاستعفاء على قبول خدمة لايستطيع فيها التصرف بالحرية التي تقتضيها مصالح الامة التي هو اكثر الناس غيرة عليها . فلما قبل استعفاؤه عين بدلاً منه اسماعيل باشا ايوب ثم توفي هذا بعد يسير فعين بدلاً منه خيري باشا

الثورة المهدوية او الحوادث السودانية

مع ما تقدمها وما انتهت اليه

ولم تكد مصر تفرغ من الحوادث العرابية او الثورة العسكرية المصرية حتى ظهرت الثورة السودانية بظهور محمد احمد المهدي السوداني وكان لها تأثير شديد في تاريخ مصر الحديث فرأينا ان نأتي على تاريخها تباعاً من ظهور المهدي الى انقضاء تلك الحركة واسترجاع السودان وان تجاوزنا مدة الخديوي السابق

ونمهد الكلام بفذلكة عن تاريخ السودان المصري منذ فتحه محمد علي الى الحوادث المهدوية

تاريخ السودان من فتح محمد علي الى ظهور المهدي

قد تقدم ما كان من فتح السودان في زمن محمد علي باشا على يد ابنه اسماعيل باشا سنة ١٨٢٠ وما بعدها حتى غدر به الملك النمر صاحب شندي وقتله وثأر له الدفتردار وأول وال عينته الحكومة المصرية على السودان بعد الفتح الاميرالاي عثمان بك سنة ١٨٢٥ ولم يبق فيها الا سنة فخلفه محمد بك وغيره فغيره كما ترى في هذا الجدول :

١ — ولاة السودان في زمن محمد علي

عثمان بك	من سنة	١٨٢٥ ـ ١٨٢٦
محو بك	«	١٨٢٦ ـ ١٨٢٦
خورشيد باشا	«	١٨٢٦ ـ ١٨٣٩
احمد باشا ابو ودان	«	١٨٣٩ ـ ١٨٤٤
احمد باشا المنكلي	«	١٨٤٤ ـ ١٨٤٥
خالد باشا	«	١٨٤٥ ـ ١٨٥٠

٢ — في زمن عباس الاول

عبد اللطيف باشا	من سنة	١٨٥٠ـ١٨٥١
رستم باشا	«	١٨٥١ـ١٨٥٢
اسماعيل باشا	«	١٨٥٢ـ١٨٥٣
سليم باشا	«	١٨٥٣ـ١٨٥٤
علي باشا سري	«	١٨٥٤ـ١٨٥٥

٣ — في زمن سعيد باشا

علي باشا شركس	سنة	١٨٥٥ـ١٨٥٧
اراكيل باشا	«	١٨٥٧ـ١٨٥٩
حسن باشا سلامه	«	١٨٥٩ـ١٨٦٢
محمد باشا راسخ	«	١٨٦٢ـ١٨٦٣

٤ — في زمن اسماعيل باشا

موسى باشا حمدي	سنة	١٨٦٣ ـ ١٨٦٥
جعفر باشا سامي	«	١٨٦٥ ـ ١٨٦٥
« « مظهر	«	١٨٦٦ ـ ١٨٧١
ممتاز باشا	«	١٨٧١ ـ ١٨٧٣
اسماعيل باشا ايوب	«	١٨٧٣ ـ ١٨٧٧
غوردون باشا	«	١٨٧٧ ـ ١٨٧٩

٥ — في زمن توفيق باشا

رؤوف باشا	سنة	١٨٧٩ـ١٨٨٢
عبد القادر باشا حلمي	«	١٨٨٢ـ١٨٨٣
علاء الدين باشا	«	١٨٨٣ـ
غوردون باشا	«	١٨٨٤ـ١٨٨٥

ولكل من هؤلاء الولاة تاريخ لا محل لذكره هنا وانما نشير الى اهم الحوادث بوجه الاختصار — ففي ايام احمد باشا ابو ودان ذهب محمد علي باشا بنفسه لزيارة السودان سنة ١٨٣٩ فتفقد مستعمرته الجديدة وعاد . وبعد سنتين حمل احمد باشا الذكور لفتح السودان الشرقي ففتح التاكا وما زال الولاة يوسعون سيادة مصر على السودان الى اواخر ايام الخديوي اسماعيل . وفي اوائل ايامه بولاية موسى باشا على السودان سنة ١٨٦٣ قدم السير صموئيل باكر الانكليزي لاكتشاف منابع النيل ومعه امرأته فقاسى عذاباً شديداً

وفي ولاية جعفر باشا ثار الجهادية السود من كسلة لتأخر مرتباتهم وسوء معاملة قوادهم فتعبت الحكومة في اخماد الثورة وقد سفك بسببها دماء غزيرة

ومن اهم حوادث السودان في تلك الفترة سعي الحكومة في ابطال تجارة الرقيق ولم يصدر الامر رسمياً بابطالها الا في زمن اسماعيل باشا بولاية موسى باشا فاصدر اوامره الشددة اليه سنة ١٨٦٣ فتعقب تجار الرقيق وهم يومئذ رجال السطوة والثروة واصحاب الكلمة العليا هناك . فقبض على سبعين مركباً مشحونة بالارقاء بين كاكا وفشودة واتى بهم

الى الخرطوم ولم يطلق التجار حتى اخذ عليهم المواثيق ان لايعودوا الى هذه التجارة

ثم انتدب اسماعيل باشا السير صموئيل باكر سنة ١٨٦٩ لفتح خط الاستواء على ان يكون والياً عليه وعقد له على ١٧٠٠ رجل فسافر الى الخرطوم عن طريق سواكن ومنها خرج الى خط الاستواء والحكومة تعضده فاعلن ضم بعض بلاد خط الاستواء رسمياً الى الدولة المصرية اهمها بلاد يونيورو وخلع ملكها كبارِيقة واقام مقامه رجلاً يوالي الحكومة وعقد شروطاً ودية مع ملكها وعاد الى مصر سنة ١٨٧٣ واستعفى من منصبه على خط الاستواء فعين اسماعيل الكولونل غوردون (غوردون باشا) مكانه فسافر الى ذلك المكان سنة ١٨٧٤ وبذل جهده في اصلاح تلك البلاد والسودان يومئذ بولاية اسماعيل باشاً ايوب . ثم استقال غوردون سنة ١٨٧٦ وعاد الى بلاده

ش ٨٨ : كبارِيقة ملك يونيورو في خط الاستواء ذاهب الى معسكر صموئيل باكر

وظهر في اثناء ذلك الزبير باشا وانشأ دولة لنفسه في بحر الغزال ودارفور وقدد دون اعماله بنفسه ونشرت سيرته في تاريخ السودان لشقير بك. فلما تم له الفتح وعلم اسماعيل باسره خافه وتمنى لو يقضي عليه وجرت حوادث اقتضت مجيء الزبير الى مصر لعرض اختلاف جرى بينه وبين حكمدار السودان وهو حسن الظن في الدولة المصرية وكان يرجو ان يتفق مع الخديوي على تنظيم البلاد التي فتحها فاتى مصر ومعه الهدايا من العساكر واحمال الريش والسن فاحسن الخديوي وفادته لكنه امره ان يبقى بمصر

وما زال فيها وانضمت بلاده الى مملكة السودان المصرية

وفي سنة ١٨٧٧ عادت حكمدارية السودان الى غوردون باشا واخذ في تنظيم الحكومة والادارة وفي تلك السنة عقد اسماعيل باشا معاهدة ابطال تجارة الرقيق مع انكلترا وعهد الى غوردون بتنفيذ ذلك ونشره وهي مهمة شاقة كان لها تأثير شديد في الثورة السودانية التي بدأت في ايام خلفه رؤوف باشا كما سترى

اسباب الثورة السودانية

لاتثور امة على حاكمها الا لامر هام تلجأ اليه عند فراغ الحيلة من نيل حقوقها . واما الاسباب التي اعدت السودان للثورة فكثيرة اهمها :

١ ـــ انتظار المسلمين للمهدي

المشهور بين المسلمين من اوائل الاسلام انه سيظهر رجل منهم يؤيد الدين وينشر لواء العدل ويستولي على الممالك الاسلامية يسمى المهدي ويسندون ذلك الى احاديث نبوية بحث كثيرون من علماء الاسلام في صحتها وفسادها وفي مقدمتهم العلامة ابن خلدون وتتمة للموضوع نذكر الذين ادعوا المهدوية من اول الاسلام الى الآن :

١ : محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ظهر في المدينة سنة ١٤٥ هـ فدعا الناس اليه وكان له اخ اسمه ابراهيم نصره وقام بدعوته ففتح البصرة والاهواز وفارس ومكة والمدينة وبعث عماله الى اليمن وغيرها وكان ذلك في زمن الامام مالك فافتى له وشد ازره فكثرت دعاته حتى كاد يذهب بالدولة العباسية لولم يستدرك المنصور امره ويتغلب عليه ويقتله

٢ : عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب التي فتحت الديار المصرية في اواسط القرن الرابع للهجرة وبنت مدينة القاهرة على يد القائد جوهر . وقد اتسعت دولة الفاطميين وامتدت سلطتهم وطالت ايام حكمهم

٣ : محمد بن عبدالله بن تومرت المعروف بالمهدي الهرعي ويكنى ابا عبد الله اصله من جبل السوس في اقصى بلاد الغرب رحل الى المشرق حتى انتهى الى العراق واجتمع بابي حامد الغزالي وغيره فأخذ العلم عنهم واشتهر بالنسك والتقوى وساح في الحجاز وجاء مصر ثم سار الى الغرب واقام بمراكش وغيرها وتأسست على يده دولة عظيمة في اوائل القرن السادس للهجرة هي دولة عبد المؤمن

٤ : العباس الفاطمي ظهر بالمغرب في آخر المائة السابعة للهجرة وادعى المهدوية

فتكاتف الناس حوله وعظمت شوكته حتى دخل مدينة فاس عنوة واحرق سوقها وبعث عماله الى الانحاء لكنه قتل غيلة فانقضى اجله وسقطت دعوته

٥ : السيد احمد ظهر في اوائل القرن التاسع عشر الميلاد في جهات الهند وحارب الاسياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ ولم تقم له قائمة

٦ : محمد المهدي السنوسي بن الشيخ محمد السنوسي الذي ظهر في المغرب في اواسط القرن الماضي واصله من جبل سوس بجزائر الغرب نبغ (والده) سنة ١٨٣٧ ولاقى من بعض اولي الامر الاسلامي ترحاباً ونشر دعوته وايدها وكان مقامه الرئيسي في جغبوب على مقربة من واحة سيوا نحو الغرب ولكنه انشأ زوايا عديدة في اماكن اخرى من بلاد الغرب يبلغ عددها ثلاثماية كلها تعلم طريقته وتعاليمه

٧ : محمد احمد المهدي السوداني وقد نحا في دعواه منحى الشيعة فقال انه الامام الثاني عشر الذي ظهر مرة قبل هذه وفي تسمية اتباعه بالدراويش تأييد لرغبته في قول الشيعة لان لفظ درويش فارسية

٢ــ عنف الحكومة المصرية في معاملة السودانيين

مابرحت الحكومة المصرية منذ دخول السودان في حوزتها وهي تنظر الى السودانيين انهم احط من سائر رعاياها وتستعمل العنف في معاملتهم يكفي شاهداً على ذلك ما اتاه اسماعيل باشا بن محمد علي من التنكيل في الملك النمر صاحب شندي كما تقدم في فتح السودان فقد ظل كثيرون من اعقاب اولئك المظلومين يتحينون فرصة ينتقمون بها من الحكومة وكانوا اول القائمين بنصرة محمد احمد

٣ — جور الحكام في تحصيل الضرائب

كان تحصيل الضرائب في السودان منوطاً بجماعة الباشبوزوق فكانوا يسومون السودانيين في تحصيلها انواع الخسف والذل وقد يقتضونها مراراً. وروى المستر فرنك باور قنصل انكلترا بالخرطوم اذ ذاك ان الضرائب كانت تضرب على اهل السودان بلا شفقة . فيضربون ضريبة على كل فرد منهم وعلى الاولاد والنساء يقتضونها ثلاث مرات في السنة مرة لصاحب القضاء واخرى للجابي واخرى للحكمدار. وكان الزارع اذا زرع حنطة لايؤذن له بزراعتها حتى يدفع ثلاثة جنيهات كل سنة ويدفع سبعة اخرى في مقابل التصريح له بريها من ماء النيل . فاذا تردد في الدفع سيق الى السجن واذا صح زرعه دفع ذلك المال مرتين مرة للحكومة ومرة لجيب الباشا . واذا كان من اصحاب السفن التجارية التي تجري في النيل فرض عليه اربعة جنيهات عن كل سفينة فاذا لم يرفع العلم

صري على سفينته غرم باربعة اخرى . ومن تأخر عن تأدية تلك الضرائب اقتضتها الحكومة منه بالكرباج وقد يعاقب ذلك المسكين باحراق منزله او سلب امتعته . الخلاصة ان السوداني لم يكن يباشر امراً الا ادى عليه ضريبة

٤ — منع تجارة الرقيق

من المقرر المشهور ان التجارة السودانية محصورة في اصناف معدودة اهمها تجارة رقيق . والنخاسون اول تجار الرقيق اشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار في حاشية كل منهم مئات او الوف من الرجال بين خدمة وعمال وعبيد يقومون لقيامه ويقعدون بقعوده . فالنخاسون عمد السودان وعيون اعيانه وقادة اعماله تهابهم الحكام وتخشى بطوتهم الحكومة . وما زالت تجارتهم رابحة واعمالهم سائرة حتى قام اهل العالم المتمدن لابطال تجارة العبيد فجاء السودان السير صموئيل باكر للقيام بتلك المهمة ثم انيطت غوردون باشا فأخذ يطوف الاصقاع والمدن في انحاء السودان يعلم الناس الحرية الشخصية ويأمر التجار بالكف عن الاسترقاق جملة . وهي صدمة قوية ارتجت لها اركان السودان لان منع النخاسة لم يقتصر على تقليل ارباح النخاسين ولكنه عرضهم لاستبداد الجباة لانهم كانوا يؤدون الجانب الاكبر من الضرائب عبيداً او ماشية فأصبحوا بعد ابطال النخاسة لا يقوون على تأديتها . فاستبد بهم الجباة وساموهم الذل والعسف حتى خيف عصيانهم ولكن غوردون باشا لحسن سياسته ولين جانبه لم يحدث في ايامه اضطراب . فلما غادر السودان تولاه رجل لم يكن عالماً بمحل الضعف ليتلافى خطره . فكأن غوردون اوقد ناراً في بعض جهات البيت فجاء غيره لا يدري كيف يطفىء تلك النار فتعاظمت والتهمت المدينة برمتها . فلما قام المهدي يدعو الناس الى رفع المظالم عنهم كان من اولئك التجار اصغاء وكانوا له عوناً في اضرام تلك الثوره

٥ — انتظار السودانيين ان يكون المهدي منهم

من المتداول بين شيوخ اهل السودان وفقهائهم ان المهدي سيظهر من بينهم استناداً الى اقوال يروونها عن بعض الائمة منها قول الامام القرطبي في طبقاته الكبرى ونصه « وزير المهدي صاحب الخرطوم » وقول السيوطي وابن حجر « ان من علامات ظهور المهدي خروج السودان » ولذلك رايتهم رحبوا بالشيخ السنوسي لما قام ولكن النجاح قدر لمحمد احمد لاسباب اهمها :

١ استخفاف الحكومة به عند ظهوره وترددها في الضربة القاضية على تلك الثورة كما سيتضح لك من سيرة حياته

٢ قيام العرابيين بالثورة بمصر فانه هاج خواطر الاهلين وجرأهم على النهوض مع اشتغال الحكومة عنهم

٣ ضعف الحاميات المصرية في السودان فان مجموع الجند الذي كان في اصقاع السودان الواسعة من حلفا الى خط الاستواء لايتجاوز ٤٠٠٠٠ رجل موزعة في ١٥ مديرية وليس عندها معاقل حصينة

نشأة محمد احمد المهدي

اصله ومولده

ش ٨٩ : محمد أحمد المهدي

في جزيرة ضرار من اعمال دنقلة سنة ١٨٤٣ وهو من ذرية رجل اسمه حاج

شريف واسم ابيه عبدالله وامه زينب وكان ابوه نجاراً يصنع المراكب والسواقي وضاق به
رزق في دنقلة فرحل باهله الى شندي ثم الخرطوم وابنه محمد احمد طفل ثم مات الوالد.
وكان محمد احمد ميالاً الى التدين من صغره فأخذ في درس القرآن وتفهم قواعد الاسلام
وانتهى في دروسه الى محمد الخير في الغبش تجاه بربر واشتهر بين اقرانه بالمبالغة في الزهد
حتى قيل انه كان يمتنع عن اكل زاد استاذه لانه يجرى عليه من الحكومة وهو يعتقد انه
مال الظلم

وبعد ان اتم دروسه على محمد الخير مالت نفسه الى التصوف فذهب الى الشيخ
محمد شريف حفيد الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمانية وهو اذ ذاك مقيم عند قبر
جده في ام مرّحي وسأله الدخول في مصاف تلامذته وذلك في سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦١م
فاجابه محمد شريف الى طلبه فاقام عنده منقطعاً الى الصلاة والعبادة وما لبث ان اظهر
من التقشف والزهد ما ميزه عن سائر التلامذة حتى انه كان يشتغل في منزل سيده بما
هو منوط بالعبيد والجواري من احتطاب واستقاء وطحن وطبخ وهو غير مكلف
بشيء من ذلك وكان كلما وقف للصلاة يبكي حتى يبلل الارض بدموعه واذا جلس امام
شيخه نكس راسه ولم يرفع طرفه اليه الا اذا كلمه فيرفع طرفه بادب واحترام واقام
على ذلك سبع سنين . فلما رآه شيخه على هذه الحالة وانه سالك طريق المريدين وناهج
منهج الصالحين مال اليه واحبه وجعله شيخاً واعطاه راية واذن له في الذهاب حيث
شاء لاعطاء العهود وتسليك الطريقة . فذهب الى الخرطوم وتزوج بابنة عم له واقام
على اخوته يبث طريقته بغيرة وجد

وفي سنة ١٨٧١ رحل مع اخوته الى جزير ابا وراء الخرطوم وبنى فيها جامعاً
وخلوة للتدريس فاجتمع عليه سكان تلك الجزيرة وهم دغيم وكنانة وغيرهم من
عرب البادية واخذوا العهد عنه ودخل بعضهم في تلمذته وفي جملتهم علي ود حلو
الذي جعله بعد ادعائه المهدوية خليفته الثاني . ولم يمض الا القليل حتى اشتهر صيته
وكثر اتباعه وكان استاذه محمد شريف قد انتقل الى القادرية قرب جبل اولى على
جبل الابيض فكان يزوره في كل موسم اوعيد لتقديم واجب الطاعة . وقبل الدخول
عليه يجعل الرماد على راسه والشعبة في رقبته وفروة الضأن على صلبه تشبهاً بالعبد في
ذلك فكان محمد شريف يحل الشعبة من رقبته والفروة عن صلبه ويلبسه افخر الثياب
ويقيم عنده اياما ثم يعود الى مركزه في جزيرة ابا . وفي بعض زياراته حدثه عن
خيرات البلاد التي رحل اليها وسهولة العيش فيها وزين له الاقامة في العراديب بين

ابا والكوة فانتقل اليها سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧٢ م وكانت العراديب على خصبها خالية من السكان والزراعة فعمرها واقام فيها على صفاء تام مع محمد احمد برهة ثم لم يلبث ان تكدر هذا الصفاء فصار جفاءً ثم نفوراً ثم عداءً

واختلفوا في سبب العداء والغالب انه حسد من محمد الشريف لتلميذه لاقبال عربان العراديب اليه فاخذ يخفض من سطوته ويناوئه . وتعاظم النفور بينهما وظهر. فاخذ محمد احمد في انتقاد اعمال استاذه ومن جملتها ان الشريف كان يأذن للنساء في حضور مجلسه وتقبيل يده ولم يكن يرى مانعاً من الرقص والغناء فاخذ محمد احمد يعلم تلامذته ان ذلك يخالف الشرع فبعث محمد الشريف اليه ووبخه ومحا اسمه من الطريقة وهي اهانة عظيمة في نظرهم

وكان محمد احمد يحب الطريقة وله خلفاء وتلامذة فيها فلم يكن تركها سهلاً عليه فعمد الى الملاينة فذهب الى استاذه والتمس العفو وقد ذرى الرماد على راسه وجعل في عنقه الشعبة وهي عود ذو شعبتين توضع في العنق علامة التذال والاستعطاف وانتهره محمد شريف وطرده واهانه . فلم يعد محمد يستطيع الكظم فالتجأ الى شيخ اخر من الطريقة المذكورة اسمه الشيخ القرشي وكان بينه وبين الشيخ الشريف منافسة تخاف هذا عاقبة الامر فاستقدم محمد احمد واستدناه فابى وكان لذلك الاباء رنة في آذان اهل السودان . وعظم محمد احمد في عيني الناس وانتقل الى جزيرة ابا . وبعد قليل مات الشيخ القرشي فبنى محمد على قبره قبة . وبالغوا في اكرامه نكاية بالشيخ الشريف وازداد الرجل شهرة بالتقوى والكرامة في معظم انحاء السودان وهو الى ذلك الحين لم يدع المهدوية

وكان استبداد جباة الاموال ضارباً اطنابه وحال السودان كما تقدم من القلاقل والاضطراب فكان محمد احمد اذا ذكر الضيق الذي اصابهم من ظلم الجباة نسب ذلك الى خطية بني الانسان وان العالم قد فسد والناس قد ضلوا عن سواء السبيل فنالهم ما نالهم من غضب الله وان الله سيبعث رجلاً يصلح ما فسد ويملأ الارض قسطاً وعدلاً هو المهدي المنتظر . وقد كان ذلك حديث الناس في سائر انحاء السودان فحيثما اجتمعوا تحدثوا في ما يقاسونه من الضنك وما ينتظرونه من الفرج على يد ذلك المنتظر حتى اصبح لفظ المهدي يدوي في سائر مجتمعاتهم ومنازلهم في الاكواخ والاسواق والمساجد والزوايا على الطرق والعطمور وحيثما وجد اثنان او ثلاثة فلا حديث لهم الا الفرج المنتظر على يد المهدي

قيامه بالدعوة

وكان محمد احمد على بينة من هذا الشعور العام وحدثته نفسه ان يكون هو الرجل المنتظر لكنه لم يصرح به لاحد . وهو في ذلك جاءه عبد الله التعايشي من البقارة وكان يشتغل بالتنجيم وكتابة الاحجبة وله مطامع كبيرة فاستحث محمد احمد على القيام بالدعوة وا كد له انه هو المهدي المنتظر من علامات زعم ان اباه وصفها له وانه وجدها كلها في محمد احمد . فجاء ذلك وفقاً لما في خاطر محمد احمد فاعتقد انه المهدي وقرب التعايشي وتعاونا على بناء قبة له واستقدم تلامذته واقام في جزيرة ابا واخذ ينقش الكتب ويبحث عما يؤيد دعواه ويتبين صفات المهدي وعلاماته واخذ يظهر دعواه لتلامذته سرًّا من اواسط سنة ١٨٨١

ش ٩٠ : الدراويش

ثم خرج سائحاً الى بلاد الغرب مع رجاله وعليهم لباس الدراويش وهي الجبة المرقعة والسبحة والعكاز وجعل يبث دعوته بين رؤساء القبائل على ان يكتموا ذلك

حتى تأتي الساعة. وعاد الى ابا واخذ في مكاتبة الناس في هذا الشأن . وبلغ ذلك الحكومة فلم تعبأ به حتى اذا جاءتها الوشاية بشأنه من محمد الشريف واطلعها على بعض تلك المنشورات بدات تهتم بامره . وكان حكمدار الخرطوم يومئذ رؤوف باشا فكاتبه بما نسب اليه فاجابه بكتاب يؤيد به دعوته . فجمع علماء الخرطوم واطلعهم على الكتاب فاتهموه بالجذب ولكنهم اجازوا القبض عليه فانتدب لهذا الامر محمد بك ابو السعود احد معاوني الحكومة فسار في قلة من الرجال فوصل جزيرة ابا في ٧ اغسطس سنة ١٨٨١ فوجد محمد احمد في الغار جالساً وحوله جمهور من تلامذته فسلم عليه وقال « ان حكمدار السودان بلغه امر الدعوى التي قمت بها وارساني لآتي بك اليه بمدينة الخرطوم وهو ولي الامر الذي تجب طاعته » فاجابه محمد احمد « اما ما طلبته من الوصول معك الى الخرطوم فهذا مما لا سبيل اليه وانا ولي الامر الذي تجب طاعته على جميع الامة المحمدية » ثم شرع في تقديم الادلة على انه المهدي المنتظر فاغلظ له ابو السعود في الجواب وقال « ارجع عن هذه الدعوى فانك لا تطيق حرب الحكومة ولا ترى معك من يقاتلها » فاجابه محمد احمد وهو يبتسم « انا اقاتلكم بهؤلاء » واشار الى اصحابه ثم التفت اليهم وقال « انتم راضون بالموت في سبيل الله » فقالوا نعم. فالتفت الى ابي السعود وقال له « قد سمعت ما اجابوا به فارجع الى ولي امرك في الخرطوم واخبره بما رايت وسمعت » فلما راى ابو السعود صدق عزم محمد احمد واعوانه على نصرة دعواهم وان النصح لا ينجع فيهم عاد مسرعاً الى الخرطوم وقص على رؤوف باشا ما رآه وسمعه

مناهضة الحكومة له

فجهز رؤوف باشا حملة من بلوكين بعث بها الى جزيرة ابا وكان محمد احمد قد واعد رجاله على الصبر فاطاعوا فلما اتت جنود الخرطوم هجموا عليهم وقتلوا معظمهم وعاد الباقون ليخبروا بما كان . وهي اول وقعة جرت بين الدراويش والحكومة وعرفت بواقعة ابا واشتهر فوز المهدي فيها فعدّه اتباعه من كراماته لانه غلب الحكومة الظالمة . ولكن محمد احمد لم يكن يجهل مركزه بالنسبة للحكومة لخلاف اهتمامها بامره وهو هناك لا يقوى على مناهضتها وما كل مرة تسلم الجرة فعزم على الهجرة وجعل وجهته جبل قدير . فقال لاصحابه ان النبي جاءه في المنام وامره بتلك الهجرة فاطاعوه وساروا وهم يدعون الناس الى طاعة المهدي واعترضه ملك على جبل في الطريق يقال له جبل الجرادة فخالف محمد احمد فحاربه فكانت الغلبة للدراويش فاشتد ازرهم وثبتوا في دعوتهم حتى اتوا جبل قدير في ١٣١ اكتوبر سنة ١٨٨١ فلاقاه ملكه واسمه ناصر وانزله على الرحب والسعة فامر محمد ببناء مسجد للصلاة

وكان عَلَى فاشودة في ذلك الحين مدير من قبل الحكومة المصرية اسمه راشد بك علم بقدوم المهدي الى جبل قدير فاستأذن رؤوف باشا في تاديبه وطال انتظاره الاذن وبلغه ان المهدي ورجاله في ضيق من المرض فزحف وهو يستتر يريد مباغتتهم ولكن مراة مؤمنة اتتهم بالخبر فاستعدوا للقاء وعادت العائدة عَلَى راشد بك ورجاله وغنم الدراويش ما كان معهم من الزاد والذخيرة في ٩ دسمبر منها

وكان لهذا الخبر وقع شديد عَلَى رؤوف باشا في الخرطوم وخاف عَلَى فاشودة واخذ في التجنيد بقيادة جيكلر باشا وبعث يستنجد مصر فاستضعفته فعزلته ووات مكانه عبد القادر باشا حلمي والح جيكلر بوجوب المبادرة فاذن له . فحشد جنداً مختلطاً من العساكر والباشبوزوق وعقد لواءه ليوسف باشا الشلالي في اواسط مايو سنة ١٨٨٢ وبعث الشلالي الى المهدي ينصحه في الطاعة فاجابه جواباً يدل عَلَى استخفافه به ويدعوه الى طاعته . والتقى الجيشان في جبل الجرادة . وفي ٢٩ مايو جرت واقعة قتل فيها الشلالي وجماعة من كبار قواده وغنم الدراويش ما كان معهم من المؤونة والذخيرة والعدة فازدادوا تصديقاً لدعوتهم وشاع ذلك النصر في انحاء السودان فاعظمه السودانيون وارتفع قدر المهدي عندهم وتوافد اليه الناس يبايعونه حتى بلغ عددهم ٢٠٠٠٠ في قدير وحدها — وهذه صورة المبايعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة عَلَى سيدنا محمد وآله مع التسليم . اما بعد فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك عَلَى توحيد الله والا نشرك به احداً ولا نسرق ولا نزني ولا ناتي ببهتان ولا نعصيك في معروف بايعناك عَلَى زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة وعَلَى ان لا نفر من الجهاد »

فلم تمض سنة ١٨٨٢ حتى اصبحت السودان شعلة ثورية تنادي باسم محمد احمد . ولبى دعوته جماعة من كبار الرجال منهم عامر المكاشف في سنار والشريف احمد طاها من مشائخ السمانية شرقي النيل الازرق ومحمد زين وود الصليحاني وفضل الله رد كريف والحاج احمد عبد الغفار وغيرهم . وبعضهم تفانى في نصرته وقتل في سبيل دعوته . فاهتمت الحكومة بشان المهدي واخذ عبد القادر باشا حلمي في تحصين الخرطوم وجند ثلاث اورط من السود واخذ في تمرينهم واحتفر خندقاً وراء سور الخرطوم واقام عليه الابراج نصب فيها المدافع فاطمأن الموالون للحكومة عَلَى انفسهم ثم حمل عبد القادر باشا بنفسه لاخماد تلك الثورة فاتى سنار لمحاربة احمد المكاشف وكان قد استفحل امره هناك فحاربه في ٢٥ فبراير سنة ١٨٨٣ ففر المكاشف وغلب رجاله ودخل عبد القادر سنار وطمأن الناس ثم حارب احمد عبد الغفار قرب الرصيرص فشتت شمله وامر العلماء ان يكتبوا الرسائل وينشروها في تكذيب دعوة محمد احمد

سقوط كردوفان

وكانت كردوفان في اثناء ذلك قد اخذت بالثورة واتحد دعاة المهدي على طرد خدمة الحكومة المصرية وكان مديرها سعيد باشا يقيم في عاصمتها الابيض فبذل جهده في اخماد الثورة فلم يفلح والدراويش يزدادون قوة وعدداً حتى هددوا بارا وكشجيل والبركة والحكومة في الخرطوم تمد سعيد باشا بالجند ثم راى المهدي ان يقدم لنصرة دعاته بنفسه وفي اوائل سبتمبر سنة ١٨٨٢ اصبح على مقربة من الابيض فكتب الى محمد سعيد باشا يدعوه الى التسليم فجمع الباشا رجال مجلسه وشاورهم في الامر فأقروا على شنق الرسل وان لا يبعثوا جواباً ولكن اهل الابيض كانوا على دعوة المهدي سرًّا وهم الذين دعوه الى فتحها وفي مقدمتهم الياس باشا اعظم تجار كردوفان وحاكمها السابق فانضموا الى العصاة في تلك الليلة هم وبعض الحامية وبقي محمد سعيد باشا في نحو عشرة آلاف من الجند الباشبوزوق واما جيش المتمهدي فكان جراراً فيه ٦٠٠٠ تحمل البنادق التي غنموها من الجنود المصرية بالمواقع الماضية واما سائر قواته فتبلغ ستين الفاً . ويقول سلاتين باشا في كتابه (النار والسيف في السودان) ان حملة البنادق لم تأت معه الى الابيض بل بقيت في قدير

وفي ٨ سبتمبر هجم العصاة على الابيض فارتدوا خاسرين وقد غنم منهم الجند المصري ٦٣ راية من جملتها راية المتمهدي نفسه واسمها « راية عزرائيل » وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف وفي جملتهم محمد اخو المهدي ويوسف اخو عبدالله التعايشي ولم يقتل من الحامية الا ٣٠٠ فعظم ذلك على المتمهدي وادرك خطر الهجوم على الاسوار الحصينة وعوّل من ذلك الحين ان لا يهاجم سوراً وانما يفتتح البلاد بالتضييق عليها بالحصار حتى يضنيها الجوع وتعمد الى التسليم . ثم جاء العصاة مدد فاشتد ازرهم فشددوا الحصار على الابيض وعلى بارا وكان في بارا نور عنقره احد امراء العرب وكان موالياً للحكومة ولكنه راى مقامه حرجاً وتحقق الفشل فكتب الى المهدي سرًّا انه اذا ارسل اليه اميراً من اكابر امرائه سلم له فارسل اليه ولد النجومي فخرج نور عنقره مع محمد الخير وكان يلقى سر سواري اي قائد الخيالة وسلما لولد النجومي فقبلهما وانقضت سنة ١٨٨٢ والحصار شديد على الابيض وبارا والعصاة يتكاثرون في سنار وغيرها

وكان المهدي قد ارسل فرقاً من جنده لنشر دعوته في دارفور وبحر الغزال فانتشرت الثورة هناك ولكنهم لم يفتحوا سنة ١٨٨٢ الا بعضاً من بلادها وفي اوائل سنة ١٨٨٣ فتحوا بارا في ٥ يناير واضطرت الابيض الى التسليم من الجوع في ١٩ منه فدخلت

كردوفان في حوزة الدراويش وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخائر والاسلحة والاموال وصار المتمهدي من ذلك الحين حاكماً على كردوفان وقبض على سعيد باشا ورجاله وبعد اسرهم مدة اكتشف على تقرير بعثوا به سراً الى الخرطوم وامر بقتلهم

ثم سلمت سائر بلاد كردوفان

حكومة المهدي

فلما فتح الابيض ودانت له كردوفان اخذ في تنظيم حكومته على غير نظام الحكومة المصرية . واهم اقسام الادارة على ابسط وجوهها ثلاثة الجند والمال والقضاء فجعل على الجند خليفته عبدالله التعايشي قائداً عاماً لجماعة الدراويش يدبر حركاتهم . وانشأ ادارة سماها بيت المال وفيه تحفظ الاموال كالعشور والغنائم والفطرة والزكاة والغرامات التي يضربونها على شارب المسكر او السارق وعهد بادارة بيت المال الى صديق له اسمه احمد ولد سليمان. اما القضاء فاقام عليه رجلاً اسمه احمد ولد علي كان قاضياً في دارفور وسماه قاضي الاسلام . وكان محمد احمد منذ اوائل ظهوره قد عين خلفاءه وجعلهم اربعة مثل الخلفاء الراشدين يتولون الامر بعده الواحد بعد الآخر اولهم عبدالله التعايشي والثاني علي ولد الحلو والثالث محمد الشريف والرابع محمد السنوسي ولكن هذا رفض الخلافة

وعلم هذا المتمهدي ان الحكومة المصرية ستحمل عليه بكل قوتها لاستخراج كردوفان من يديه فأخذ يحث الناس على الجهاد ويحقر الدنيا في اعينهم ويحبب الآخرة اليهم وهم يفدون اليه زرافات وقبائل يتبركون به وقد آمنوا بدعوته بعد ان ذاقوا الراحة والاستقلال على يده فتخلصوا من الضرائب ونجوا من الباشبزوق واستبدادهم فاعتقدوا انه المهدي المنتظر الذي جاء « ليملا الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً » ومما ساعدهم على هذا الاعتقاد تظاهر هذا الرجل بالتقوى والزهد فلم يكن يلبس غير السراويل والجبة فوقها منطقة من خوص يقضي نهاره في الصلاة ونشر المنشورات يحث بها الناس على ترك الدنيا والتمسك بالآخرة ويضع لهم القوانين والاحكام ومن امثلة ذلك منشور نشره من الابيض سنة ١٣٠١ وقعت لنا نسخة منه ننشرها مثالاً لتعاليمه وهاك نصها بالحرف الواحد على علاتها اللغوية :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد واله مع التسليم . وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله اعلاماً منه الى كافة المشائخ في الدين والامراء والنواب والمقاديم اتباع المذكورين . ياعباد الله اسمعوا ما اقول لكم وكونوا على بصيرة واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التي خصكم بها وهي ظهورنا

فهو شرف لكم على سائر الامم ولكن المطلوب منكم يا احبابنا المهاجرة في سبيل الله والمجاهدة في سبيل الله والزهد في الدنيا وكل ما فيها فالى البوار ولو كانت لها بال لكان ربكم يحليها وانظروا في اهلها الذين كانت في كل ما يطلبوه وصارت لهم بعد ما كانت عسلاً حنظلاً ومما وصاروا في غاية العذاب والهلاك وشدة التعب والمشقة ولو كان فيها خير لما صاروا هكذا وبعد ذلك فلهم العذاب الشديد فان عجبكم هذا فافعلوا والا فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين وجاهدوا في سبيل الله فلهزة سيف مسلم في سبيل الله افضل من عبادة سبعين سنة . ووقفة في الجهاد عَلَى قدر فواق ناقة يعني حلبة ناقة افضل من عبادة سبعين سنة . وعَلَى النساء الجهاد في سبيل الله فمن صارت قاعدة وانقطع منها ارب الرجال فلتجاهد بيديها ورجليها والشبابة فليجاهدن نفوسهن و يسكن بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى ولا يخرجن الا لحاجة سرعية ولا يتكلمن كلاماً جهراً ولا يسمعن الرجال اصواتهن الا من وراء الحجاب و يقمن الصلاة و يطعن از واجهن و يسترن بثيابهن فمن قعدت كاشفة فاتحة راسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن تكلمت بفاحشة فعليها ثمانون سوطاً ومن قال لاخيه يا كلب او يا خنزير او يا يهودي او يا ... او يا ... فيضرب ثمانين سوطاً و يحبس سبعة ايام ومن قال يا فاجر او يا سارق او يا زاني او يا خائن او يا ملعون فعليه ثمانون سوطاً او يا كافر او يا نصراني او يا لوطي فعليه ثمانون سوطاً و يحبس سبعة ايام ومن تكلم مع اجنبية وليس بعاقد عليها ولا لامر شرعي يجوز ذلك الكلام فيضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن حلف بطلاق او حرام يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الدخان يؤدب ثمانين و يحرق التنباك ان كان عنده وكذلك من خزنها في فمه ومن عملها بانفه ومن ابقاها فيه يؤدب مثل ذلك ومن باعها واشتراها ولم يستعملها يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الخمرة ولو مصة ابرة فيؤدب ثمانين سوطاً و يحبس سبعة ايام وجاره ان لم يقدر عليه يكلم امير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً و يحبس سبعة ايام ومن ساعد شارب الخمر بشربة ماء او اناء فيؤدب كذلك و يحبس و يجاهد نفسه في طاعة الله حقيقة اشد من الجهاد بالارماح لان النفس اشد من الكافر مقاتلة فالكافر تقاتله وتقتله وتكون لك الراحة منه وهي عدوة في صورة حبيب فقتلها صعب ومسلكها تعب . ومن ترك الصلاة عمداً فهو عاصي الله و رسوله قيل كافر وقيل يقتل وجاره ان لم يقدر عليه يكلم امير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً و يحبس سبعة ايام وقيل اموالهم غنيمة . و بنت خمس سنين ان لم يسترها اهلها فيضربون من غير حبس ومن علم بأمة معها زوج بغير عقد وصبر يوماً

قيل يقتل وقيل يحبس وماله غنيمة واعلموا ايها الاحباب ان خلافتكم وامارتكم ونيابتكم عنا في الاحكام والقضايا لاجل ان تشفقوا عَلَى الخلق وتزهدوهم في الدنيا ليتركوها وترغبوهم في الآخرة ليرغبوها و يطلبوها وتعلموهم عداوة نفوسهم ليحذروا منها وتنصفوا من انفسكم اذا ادعوا عليكم فيها فما اشكل عليكم فأمروهم فيه بالصبر لغاية طلب الامراء وجمعهم عندنا ويصير تحبيره بحسب الحكم فيه من الله ورسوله واعلموا يقيناً ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وكونوا عباد الله مع الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه واعلموا ايها الاحباب ان القضايا التي كانت من اثني عشر رجب الماضي عام ١٣٠٠ ببقعة ماسة قد صار رفعها مطلقاً ما عدا الامانة والدين ومال اليتيم واما التي بعد الاثني عشر رجب الماضي وقبل الفتوح تسمع فيه الدعاوي . واما قتل النفس ففيه تفصيل في كونه مخير ولي المقتول في اخذ الدية او القصاص واما بعد الفتوح بالنسبة الى العهد فيتعين فيه القصاص لا غير فاعملوا بذلك طبق المنشور وكذلك مال الخلع اخذه عموماً من الازواج بعد الدخول بهن والاستمتاع بهن والاستيلاء عليهن لا يصح اخذه منهن فاحكموا فيه بالحكم الذي فصله الله تعالى في القرآن العظيم واعلموا يا احبابي ولا تخالفوا وامتثلوا الامر وكونوا سامعين طائعين لامري ولا تغيروا ولا تكفروا النعمة التي من الله عليكم بها فقيدوها بالشكر . وتزوج الغنية بعشرة ريال مجيدي او انقص والعزبة بخمسة ريال مجيدي او انقص ومن خالف هذا فعليه الادب بالضرب والحبس في السجن حتى يتوب او يموت في سجنه ومقطوع من اهل زمرتنا ونحن بريئون منه وهو بريء منا والسلام » (الختم)

وكان مع ذلك لا يغفل طرفة عين عن بث العيون والارصاد لاستطلاع حركات الحكومة ومعرفة اغراضها فكان يعرف كل ذلك في حينه معرفة تامة فلا تحدث حادثة او تنوي الحكومة نية او تخطو الجنود المصرية خطوة الا و يعلم بها هو . وارسل في اثناء ذلك فواده تبث دعوته في انحاء السودان فبعث عثمان دقنة الى السودان الشرقي يتولى قيادة العصاة هناك وارفقه بالمنشورات الى قبائل السودان الشرقي لتكون عضداً له وكان عثمان دقنه هذا من تجار الرقيق في سواكن وكان ناقماً عَلَى الحكومة

حملة هيكس باشا

وكانت الحكومة المصرية في اثناء ذلك اخمدت الثورة العرابية (في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢) واحتل الانكليز مصر واصبحوا اصحاب الرأي النافذ وقد اقروا عَلَى الغاء جيش عرابي وانشاء جيش جديد وكان بعضهم قد وشى بعبد القادر باشا فاستدعته الحكومة الى مصر وارسلت علاء الدين باشا حاكماً عَلَى السودان في ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٣ وحصرت سلطة في الادارة

الملكية وعهدت بقيادة الجند الى سليمان باشا نيازي وجعلت هيكس باشا الانكليزي رئيساً لاركان حربه

ش ٩١ : هيكس باشا

واعدوا حملة لمحاربة المهدي كانها من جيش عرابي والحكومة تسيء الظن به وقد ارسلته اما ليهلك او ينتصر فيعوض على الحكومة ما افسده ولكن تلك الحملة كانت مشومة وآلت الى استفحال امر المهدي ودراويشه لانها هلكت عن آخرها على شكل لم يسمع بمثله ولم تطلع الحكومة على سبب ذلك الا بعد حين واليك هو :

جاء هيكس باشا في بادىء الرأي الى الخرطوم والحكومة لم تصمم على فتح الابيض فأقام هناك مدة فبلغه ان بضعة آلاف من العصاة البقارة بقيادة الامير احمد المكاشف وكيل المهدي هناك فخرج اليهم هيكس وحاربهم عند مرابية بالقرب من جزيرة ابا فقتل المكاشف وعدد من قواده ورجاله وفر الباقون وكان لتلك الواقعة تأثير حسن في ارجاع ثقة اهل سنار والخرطوم الى الحكومة وقوة جنودها

فصممت الحكومة على ارسال حملة تفتح الابيض فكتب هيكس باشا الى الحكومة بالقاهره انه لا يتحمل تبعة هذه الحملة الا اذا كانت القيادة له وحده فسلمت له بذلك ولكنها ارسلت معه علاء الدين باشا حكمدار الخرطوم فطلب هيكس مدداً من الرجال والمال . وسار علاء الدين باشا الى شرقي النيل الازرق فاستحضر اربعة آلاف جمل . وفي اخر اوغسطس تمت معدات الحملة فاجتمعت في ام درمان . وفي ٨ سبتمبر استعرض هيكس باشا جنوده وفي ٩ منه خرجت الحملة من ام درمان قاصدة الدويم وبينهما مئة وعشرة اميال . وكانت تلك الحملة مؤلفة من اربع ارط من الجنود المصرية منظمهم من الذين حاربوا في سبيل الثورة العرابية وخمس ارط سودانية وارطة من الطبجية والخيالة وكانت الجنود المصرية تحت قيادة سليم بك عوني والسيد بك عبد القادر وابراهيم باشا حيدر ورجب بك صديق . والباشبوزوق بقيادة خير الدين بك وعبد العزيز بك والي بك وملحم بك ويحيى بك . والطوبجية والسواري بقيادة عباس بك وهبي وبلغ عدد جنود الحملة احد عشر الفاً منهم سبعة الاف من المشاة المصريين والباقون من الباشبوزوق والخيالة وتوابع الحملة من الجمالة وغيرهم وفيها ٥٥٠٠ جمل و٥٠٠ فارس واربعة مدافع كروب وعشرة مدافع جبلية وستة من نوع النوردنفلت وكان فيها من الضباط الافرنج الكولونيل فركوهار رئيس اركان حرب والبكباشية سكندروف وورتر وماسي وايفانس وغيرهم ومكاتبو التمس والدالي نيوز والغرافيك

وفي ٢٠ سبتمبر وصلت الحملة الدويم وهناك اجتمعت بعلاء الدين باشا . اما هيكس فكان لا يزال في الخرطوم وقد ارسل تلغرافاً الى القاهرة انبأ الحكومة بخروج الحملة من الخرطوم وبين الصعوبة التي ينتظر ملاقاتها في طريقه نظراً لحرارة الاقليم وقلة المياه . وكان في عزمه ان يجعل مسير الحملة من الدويم الى الابيض عن طريق باره وطول هذه الطريق ٢٢٠ ميلاً يقيم في اثنائها محطات فيها قوات عسكرية لحفظ خط الرجوع (خط الاتصال) الى الدويم فيفتح اولاً بارة ويقيم بها مدة ثم يخرج على الابيض

فلما جاء الدويم وانضم الى الحملة تفاوض هو وعلاء الدين باشا في الامر فقال علاء الدين انه ارسل اناساً جسوا الارض فقالوا ان طريق بارة قليلة المياه وان احسن طريق الابيض بمثل هذا الجند الكبير طريق خور ابو حبل والرهد الى الجنوب فان الماء كثير فيها . نعم ان طولها ٢٥٠ ميلاً ولكن مئة منها سهلة يسير بها الجند بكل راحة والماء كثير الا ان المسافة بين الدويم ونورابي وطولها ٩٠ ميلاً قليلة المياه فاقنعه علاء الدين باشا ان الماء في تلك المسافة يسهل الحصول عليه وبناء على ذلك قررا ان تسير الحملة عن طريق خور

ابو حبل فوصلوا في ٢٤ سبتمبر الى شات واستولوا على ابارها وانشأوا نقطة عسكرية . وبدأ الجند منذ خروجهم من الدويم يقدرون العواقب الوخيمة و ينتظرون البلاء العظيم . وكان سيرهم على شكل مربع يتأهب للقاء العدو في مقدمته الدليلان فالطلائع فالضباط العظام واركان الحرب ثم المربع وهو مؤلف من المشاة المصريين وفي ساقته الخيالة والجمال والاحمال والاثقال وفي وسط المربع الطوبجية وقد شبه سلاتين باشا ذلك المربع بغابة من الرؤوس والاعناق اذا اطلق العدو عليها رصاصة يستحيل ان تخطئها كلها

وزد على ذلك ان الجمال لم تكن تستطيع المرعى بالنظر الى انحصارها في المربع فجاعت واكلت قش ارحالها وخارت قواها حتى مات كثير منها . وفي ٣٠ سبتمبر وصلت الحملة الى قرية تبعد ٣٠ ميلا عن الدويم اسمها زريقة

كل ذلك والحرارة تشتد واللغط يتعاظم بين الجند وكلهم خائف سوء العاقبة ثم حدث نفور بين هيكس وعلاء الدين وسببه اختلافهما في الراي بشان خطة المسير . فراى علاء الدين ان النقط العسكرية في خط الاتصال لا حاجة اليها لانها تقلل عدد الجند فخالفه هيكس في ذلك لان قطع ذلك الخط يقطع كل امل برجوع احد من رجال الحملة حياً اذا قدر انكسارها في ساحة الحرب على انهم لم ينشئوا نقطة عسكرية بعد شات

اما محمد احمد فحالما علم بمسير حملة هيكس جمع رجاله ودعاهم الى الجهاد في سبيل الله وخرج بنفسه وعسكر بقرب شجرة كبيرة بضواحي الابيض ينتظر وصول الحملة فاقتدى به خلفاؤه وامراؤه فخرج كل منهم برجاله وعسكروا هناك وبنوا الاكواخ والكتول (نوع من العشش)

اما الحملة فما زالت سائرة تسحف سحفاً كانها مثقلة بالقدر المحتوم حتى وصلت الرهد في ٢٠ اكتوبر فاقامت هناك ٦ ايام شاهدت في اثنائها طلائع الدراويش وشرذمات منهم يهاجمونها . وفي ٢٦ اكتوبر سارت ولم تكد تترك معسكرها حتى احتلته العصاة فعلم علاء الدين اذ ذاك خطأه في اهمال خط الاتصال وقد اصبحوا محاطين بالعدو من كل الجهات . وكان في عزمهم المسير الى الابيض عن طريق البركة ولكن الجواسيس اخبروا هيكس ان العصاة نزلوا البركة ومعهم خلفاء المهدي وامراؤهم بعدتهم ورجالهم فتشاور علاء الدين وهيكس في هل يرجعون الى الرهد او يسيرون الى كشجيل ومنها الى ملبيس فالابيض . لان خور ابو حبل يتشعب عند الرهد الى شعبتين تسير احداهما الى البركة والاخرى الى كشجيل . فاقر الراي على المسير الى كشجيل فساروا في ٣ نوفمبر عشرة اميال بين الغابات والاحراج

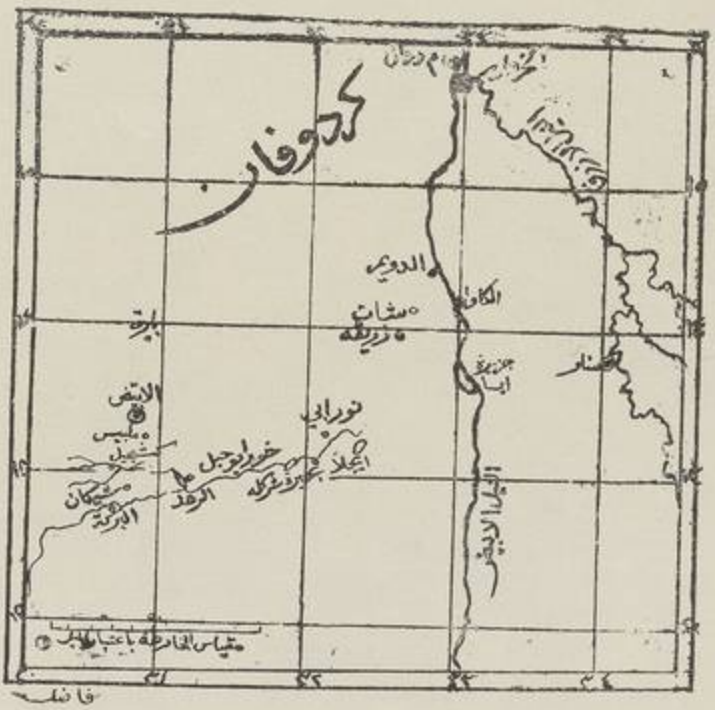

ش ٩٢ : خريطة واقعة هيكس باشا

وقد اخطأوا الطريق ثم وقفوا وانشأوا زريبة باتوا فيها الى الصباح فاستأنفوا المسير حتى صاروا على مسافة ميلين من شيكان بين كشجيل والبركة وقد اجهدهم العطش فهجمت عليهم شرذمة من العصاة فتبادلوا اطلاق الرصاص وقبضوا على بعض منهم فعلموا ان الدراويش هناك بكثرة عظيمة فجمع هيكس كبار رجاله وعقدوا مجلساً تشاوروا فيه فلم يقروا على امر . وكثر اللغط بين الجند وتسلط الرعب على قلوبهم وايقنوا بالهلاك وفي الصباح التالي عزم هيكس على المسير تحت رحمة الله فجعل جيشه ثلاثة مربعات وساروا في طريق وعر كثير الاشجار والصخور فحصل بينه وبين الدراويش واقعة قتل فيها كثير من رجاله . ثم سار ايضاً فلم يمش ميلاً حتى هاجموهُ ثانية في شيكان . وقد رأينا في منشور ارسله المهدي الى عثمان دقنة يخبره بتلك الواقعة ويسمي مكان وقوعها علوبة وكانت تلك الهجمة القاضية لم تبق على تلك الحملة ولم تذر لان الدراويش هاجموها من كل جانب حتى صار الجنود المصريون يطلقون الرصاص بعضهم على بعض وهم لا يعلمون فقتل هيكس وكل قواده وجنده . ولم ينجُ منهم الا نحو ثمانمائة رجل اكثرهم من الضعفاء الذين اختبأوا بين الشجر او تحت جثث القتلى وفي جملتهم رجل اسمه

محمد نور البارودي كان في خدمة هيكس وهو الذي روى اكثر ما تقدم من مهلك هذه الحملة

فرجع المهدي وخلفاؤه وقواده الى البركة وقد سكروا من خمرة النصر وتركوا بعض الامراء يجمعون الاسلاب والغنائم الى بيت المال . وبعد ١٥ يوماً عاد المهدي الى الابيض بالمدافع والذخيرة والاموال التي اكتسبوها من حملة هكس . وكان دخوله الابيض باحتفال شائق . ولا ريب ان تغلبه في موقعة شيكان جعل حكومة السودان تحت اخصه لان كثيراً من القبائل كانوا يترددون في امره وينتظرون حربه مع هيكس باشا فلما علموا بما كان انضموا اليه وصاروا من اعوانه

ش٩٣ : سلاتين باشا

وكان سلاتين بك (سلاتين باشا الآن) الى ذلك الحين مديراً على دارفور وقد قاسى مشقات جسيمة في مناوأة العصاة وتمردهم . وكان يرجو الفرج على يد حملة هيكس . فلما علم بفشلها لم يرَ بدًّا من التسليم فبعث الى المهدي بذلك وان ينفذ اليه بعض اقاربه ليسلم البلاد له فبعث اليه الامير محمد خالد ويكنى زقل اميراً على دارفور

واوصاه بسلاتين خيراً . فوصل الدراويش دارا ونهبوها وارسلوا بعضاً من حسانها هدية للمهدي . وجاء سلاتين مخفوراً الى الابيض وبايع المهدي واظهر الاسلام والايمان بالدعوة وسمي عبد القادر

واقام سلاتين من ذلك الحين ملازماً لعبد الله التعايشي يقف عند بابه في جملة الملازمين

السودان الشرقي

وفيما كان هيكس يتجشم الاخطار في قطع الصحاري والقفار ينتظر المقدور كان عثمان دقنة ينشر دعوة محمد احمد في السودان الشرقي وقد اجتمع حوله احزاب كبيرة وقد حدثنا صديق رافق الحوادث في السودان الشرقي وعرف خفاياها قال : « ان توفيق بك محافظ سواكن اذ ذاك تصرف مع العربان الذين يتولون خفارة الطريق بين سواكن وكسلا تصرفاً اوجب نفورهم وذلك انه ولى عليهم شيخاً اسمه محمد الامين ليكون مسئولاً عنهم لدى الحكومة على جاري العادة وكانوا يكرهون هذا الرجل . فالتمسوا من المحافظ ان يبدله بسواه فابى الا توليته فغضبوا جميعاً ونفروا من الحكومة وهم كثار فاتفق مجيء عثمان دقنة بمنشور المهدي فانضموا اليه جميعاً فاشتد ازره بهم ثم انضم اليه غيرهم . فسار لمناوأة الحكومة في سواكن وضواحيها فهاجموا سنكات في ٥ اغسطس سنة ١٨٨٣ ولكنهم عادوا خاسرين فساروا الى طوكر وحاصروها فارسلت الحكومة محمود طلما باشا قائد حامية السودان الشرقي لانقاذها فباغته الدراويش وكسروه شر كسرة . وحاولت الحكومة مقاومة الدراويش بكل وسيلة وحصلت وقائع كثيرة في تمانيب وترنكتات وغيرهما فلم تعد منهم بطائل . وما زالت سنكات وطوكر محاصرتين تطلبان المدد فاعدت الحكومة في اوائل سنة ١٨٨٤ حملة تحت قيادة باكر باشا سارت الى سواكن لفتح الطريق بين سواكن وبربر وطارد العصاة من البلاد الواقعة بينهما فسارت ومعها نجدة من مصوع وكسلا فلاقاها العصاة في التب بغتة في ٢ فبراير فحاربوها ففشلت وعادت بخفي حنين . كل ذلك وحامية سنكات لا تزال محاصرة وفيها توفيق بك محافظ سواكن المتقدم ذكره وكان رجلاً باسلا شهماً اظهر في حصاره شجاعة لم تعهد الا بالقليل من الناس وكان قد جاء سنكات عرضاً وانحصر فيها . وسنكات قرية صغيرة لا تزيد حاميتها على ستين رجلاً وقد ضيق عثمان دقنة السبل عليها وقطع المؤن عنها حتى كاد اهلها يهلكون جوعاً فكتب عثمان الى توفيق ان يسلم فلا يقتله فابى الا البقاء على ولاء الحكومة . فلما جاء باكر باشا

وعاد خائباً بعث عثمان اليه ان يسلم فيسلم وان الامل بانقاذه قد انقطع فلم يجبه الا بالثبات . ولما راى توفيق بك اخيراً ان المؤن فقدت والجند جاعت واهل البلد مات جمع اليه رجاله واهل سنكات وشاورهم في الامر وحثهم على الثبات على ولاء الحكومة . فقالوا نحن على ما تريد فقال « قد نفد زادنا والطريق مقطوع بيننا وبين المدد فلنخرج مستقتلين فاما ان نسير الى سواكن واما ان يلاقينا العصاة فندافع عن انفسنا حتى الموت »

فخرجوا في اوائل فبراير سنة ١٨٨٤ بعد ان هدموا الطوابي واخربوا المنازل وما ساروا ميلين حتى لاقاهم عثمان دقنة برجاله وهاجموهم فقاتل توفيق بك حتى قتل شهيد الامانة والبسالة ولم ينج من رجاله واهل القرية الا نفر قليلون

اخلاء السودان

وكان ذلك من جملة العوامل لتأييد دعوى المتمهدي ونشر سطوته وخوف الحكومة عاقبة امره . وبدلاً من مواصلة العمل في كبح جماح العصاة واسترجاع ماملكوه من بلادها اقرت بمشورة الحكومة الانكليزية على اخلاء مابقي من السودان في قبضتهم وسحب جنودها منها والتخلي عن السودان المصري كله للدراويش واصدرت بذلك امراً بتاريخ ٨ يناير سنة ١٨٨٤ وانفذت الحكومة الانكليزية الجنرال غوردون باشا الى السودان للنظر في افضل الوسائل لسحب حامية السودان وسكانها من الافرنج وغيرهم وتثبيت حكومة منتظمة على سواحل البحر الاحمر وغير ذلك . فسار غوردون باشا ومعه الكولونيل ستيوارت كاتم اسراره فوصلا القاهرة فانبأه السير افلن بارنغ (اليوم اللورد كرومر) ان الحكومة الانكليزية قد فوضت اليه اخلاء السودان واعادة حكم الامراء الذين كانوا يحكمونها لما فتحها محمد علي باشا ويقال لهم الملوك او ان يولي غيرهم كما يتراءى له

غوردون باشا

فسار غوردون عن طريق كرسكو وابي حمد فوصل بربر في ٩ فبراير سنة ١٨٨٤ وفي ١٨ منه وصل الخرطوم فتلقاه اهلها بالاكرام . وكان السودانيون يحبونه ويكرمونه للين جانبه وكرم اخلاقه . ومن الغريب ان يسير غوردون بنفسه بلا جيش الى بلاد اشتعلت بنار الثورة ولكنه كان كثير الاتكال على الله وقد صرح بذلك عند وصوله الخرطوم فقال « لم آت لانقاذ السودان بجيش ولكنني اتكلت على الله فلا احارب الا بسلاح العدل »

ش ٩٤ : غوردون باشا

سافر غوردون من القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ ومعه مساعده الكولونيل ...وارت قاصدين الخرطوم في عطمور ابي حمد فبربر فالخرطوم مصحوبين بأوامر عالية واضحة في ما يأتي :

١ ان يسحب الموظفين المصريين وعائلاتهم واموالهم من سائر انحاء السودان ... مصر

٢ ان يقيم مقامهم موظفين من اهل السودان يدبر شؤونهم بحكمته كانه يؤسس ... جديدة

٣ ان يجمع كلمة القبائل المجاورة للخرطوم ويحركها على قبائل المهدندوة في ... السودان الشرقي فيفتح الطريقين بين بربر وسواكن وبربر وكسلا

٤ ان ينقذ سنار وسائر البلاد الواقعة بين النيلين الازرق والابيض (الجزيرة)

٥ ان يرسل ٥ بواخر لنقل عائلات الجنود المصرية في مديريات خط الاستواء

وبحر الغزال

٦ ان يدبر طريقة لمن بقي في دارفور ان ينسحبوا الى مصر عن طريق دنقلا

هذه كانت مقاصده عند خروجه من مصر وخلاصتها خلاء السودان فلما وصل بربر اراد ان يتلوها على اهلها فمنعه حسين باشا خليفة مدير بربر لان التصريح بذلك يعجل على بقية نفوذ الحكومة . فأطاعه ولكنه تلاها في المتمة فكانت داعياً الى سرعة سقوط بربر بعد ذلك . واما غوردون فوصل الخرطوم في ١٨ فبراير كما تقدم . وفي يوم وصوله جمع اعيان الخرطوم كافة في بناية المديرية وافهمهم مهمته ثم خرج الى سراي الحكمدارية فلاقاه مئات من الناس وتراموا على يديه ورجليه يقبلونها وهم يقولون « ياسلطاننا يا والدنا يا مخلص كردوفان » ثم اخذ غوردون وستيوارت في تدبير شؤون الاحكام فانشأوا اقلاماً مختلفة في الحكمدارية للنظر في قضايا الناس وانصافهم على اختلاف طبقاتهم . فأخرج دفاتر الحكومة القديمة وفيها قيود لذممات مطلوبة من اصحاب الاطيان خراجاً عن اطيانهم فوضع تلك الدفاتر في باحة عمومية واوقد فيها النار ولما اتقدت النيران وتعالى لهيبها استخرج الكرابيج والعصي وسائر ادوات الضرب والصفع التي كان يستخدمها الحكمداريون قبلاً والقاها في ذلك اللهيب واهل الخرطوم ينظرون . فكان لذلك تأثير حسن في اذهانهم ثم انشأ مجلساً وطنياً مؤلفاً من اعيان المدينة وبعد قليل زار الترسانة والمستشفى واخيراً ذهب لتعهد السجن ومعه ستيورات وكوتلجن والمستربوارقنصل انكلترا هناك . فرأى فيه حوادث تتفتت لها الاكباد فضلاً عن القذارة وشاهد بين المسجونين اولاداً وشيوخاً بعضهم قد ثبتت براءتهم ولا يزالون في السجن واخرون سجنوا لتهمة فقضوا ثلاث سنين في السجن قبل ان تثبت عليهم جناية . ورأى هناك امراة قضت خمس عشرة سنة مسجونة لذنب اقترفته في صباها فامر غوردون باخراج المسجونين كافة وتنظيف السجن فلم يأت المساء حتى خرجوا زرافات ووحداناً وهم يطلبون الى الله تعالى ان يطيل عمره . وقضى اهل الخرطوم تلك الليلة سهارى فاضاؤا الانوار الملونة واوقدوا المشاعيل وباتوا فرحين مسرورين

واراد غوردون ان يمكن محبته من قلوب اهل السودان فخفف الضرائب وانصف المظلومين وابطل كثيراً من الضرائب ثم اصدر منشوراً يلغي فيه الاوامر الصادرة بشأن الغاء تجارة الرقيق وهاك مفاد المنشور

منشور الى اهل السودان كافة

اعلموا ان راحتكم هي غاية ما نرجوه وبما اني اعلم ان ابطال تجارة الرقيق قد سام

وها لكم ما وضعته الحكومة من القصاص على من يتعاطاها وغير ذلك مما صدر من الاوامر العالية بشأن تاكيد الغائها فقد رايت التماساً لراحتكم ان أبطل كل تلك الاوامر وامنحكم الحرية التامة فلا يعترضكم احد في اتخاذ الرقيق لخدمتكم والسلام لكم

الخرطوم غوردون باشا

ففرح تجار الرقيق بهذا المنشور ولكنهم استدلوا منه على ضعف الحكومة وانها انما اصدرته بالرغم منها لانها لم تقو على تنفيذ امرها في ابطال تلك التجارة . ثم حول نظره الى امر المهدي فارسل اليه في الابيض كتاباً يطلب فيه اطلاق الاسرى و بوليه كردوفان وارفق الكتاب بخلعة نفيسة فردّ محمد احمد الخلعة و بعث الى غوردون ان يسلم فيسلم وان المهدي لم يقم بدعوته طمعاً في الولاية

وكان غوردون باشا في اثناء مسيره الى الخرطوم قد تدبر امر مهمته هذه فراى ان ترك السودان وشأنها بعد اخلائها يعود على مصر بالوبال فلا تلبث الثورة ان تنتشر ويزحف الدراويش الى حدود مصر فبعث يوم وصوله الخرطوم رسالة برقية الى الحكومة الانكليزية يطلب فيها ان تبعث اليه الزبير رحمت باشا حالاً حتى اذا اخلى السودان ودبر حكومته جعل الزبير باشا خلفاً له عليه خوفاً من استفحال امر المهدي وخروجه على مصر فابت الحكومة ارسال الزبير فشق ذلك عليه كثيراً

ثم ما لبث ان علم بانتشار دعوة المهدي وانضمام معظم القبائل اليه فاصدر منشوراً يتوعد فيه الثائرين بعذاب اليم و ينصح لهم ان يثوبوا الى طاعة الحكومة

وكان الكولونيل ستيوارت قد سار في مئة رجل بالاعلام البيضاء لمسالمة القبائل القاطنة على النيل الابيض وتلاوة منشورات غوردون عليهم فكان كلما بعد عن الخرطوم ازداد نفور الناس منه حتى صاروا يعترضون مسيره و يحاربونه واكثرهم من قبيلة البقارة فعاد الى الخرطوم خاسراً فارسله غوردون ثانية في ٢ مارس سنة ١٨٨٤ بمنشورات اخرى فعاد بخفي حنين . وما زالت الثورة تقترب من الخرطوم وضواحيها حتى احدقت بها من كل الجهات . وفي اثناء ذلك جاءت حملة من الدراويش لحصار الخرطوم فذهب جمع منهم الى حلفاية شمالي المدينة فانهزمت حاميتها فجرد غوردون في ١٦ مارس عليهم الفي مقاتل بالبنادق وفيهم الباشبوزوق والجند المنظم لاسترجاع حلفاية فماطلهم الدراويش حتى غدروهم وكسروهم شر كسرة فعادوا القهقرى الى الخرطوم وقد قتل منهم جمع كبير فشل غوردون لهذه الكسرة وحاكم قواد تلك التجريدة واكبرهم سعيد باشا وحسن باشا وكلاهما من اهل السودان فحكم عليهما بالاعدام لثبوت الخيانة عليهما فقتلا وقطعت اعضاؤهما

سقوط بربر ومهلك ستيوارت

وفي ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٤ وصلت الاخبار بسقوط بربر والقبض على مديرها وارساله اسيراً الى الابيض وتولى بربر امير من امراء الدراويش اسمه محمد الخير. وكان سقوط بربر ضربة قوية على الخرطوم لانها كانت واسطة الايصال بينها وبين مصر. فادرك غوردون صعوبة مركزه وتحقق يقيناً ان انفاذ مهمته لم يعد ممكناً بالحسنى فلابد من استعمال قوة الجند فطلب الى حكومته ارسال حملة لمساعدته فترددت انكلترا مدة قبل الاقرار على الحملة. على انها اقرت في مايو على وجوب ارسالها ولكن جنودها لم تبدأ بالمسير الى السودان الا في سبتمبر فنذر اهل الخرطوم وشكوا الى غوردون حالهم وفي جملتهم الاجانب المقيمون هناك فقال لهم من اراد الذهاب فليذهب اما انا فلا استطيع الخروج الا بعد انقاذ الحامية والناس او ان اموت معهم. ولكنه اشار على ستيوارت ان يسير الى مصر بمن اراد مرافقته من الاجانب وعهد اليه ايصال تقاريره اليومية عن احوال الخرطوم من اول مارس الى ٩ سبتمبر وهو يوم سفر ستيوارت وظن غوردون ان ذهاب ستيوارت بهذه التقارير الى مصر يفيد الحملة القادمة لانقاذه فركب ستيوارت باخرة وركب معه بعض الافرنج ورافقته باخرتان فوصل بربر وضربها ومرّ بها فعادت الباخرتان وجرت باخرته حتى اذا تجاوزت ابو حمد الى واد قمر ضايقها الدراويش من البر ثم جنحت فنزل من فيها فلقيهم الدراويش وقتلوهم وحملوا الاسلاب والاوراق الى المهدي. كل ذلك وغوردون يستحث الانكليز ويستنهض هممهم وينذرهم بالخطر القريب فجاءه خبر هلاك ستيوارت ومن معه قبل خروج الحملة. على ان تلك الحملة لم تصل الخرطوم الا في ٢٨ يناير سنة ١٨٨٥ اي بعد سقوطها ومقتل غوردون بيومين

حركات الدراويش

فلننظر في حركات الدراويش واجراآتهم في معسكرهم في اثناء حصار الخرطوم ملخصاً عما رواه سلاتين باشا في كتابه «السيف والنار في السودان» وما احكاه غيره من الامرى الذين رافقوا تلك الحوادث داخل الخرطوم وخارجها

تركنا المتمهدي وقد عاد ظافراً الى الابيض بخيله ورجله فبعد وصوله اليها انفذ بعض امرائه لتأييد سلطته في دارفور وبحر الغزال وما جاورهما ثم علم ما كان من امر السودان الشرقي وظفر عثمان دقنا في سنكات وتمانيب والتب وحصار كسلة

وتكاثر دعاة المهدي بعد انتصاره على هيكس وتقاطر الناس اليه قبائل وجماعات قياماً بنصرته وكانوا يعسكرون بخيامهم وابلهم وخيلهم حول الابيض فقلت مياه الابيض فخاف المهدي ان يصيبهم جهد فاشار بالانتقال الرهد وفيها الماء غزيراً فانتقلوا اليها رجالاً

ونساء واولاداً في اواسط افريل سنة ١٨٨٤ باحمالهم واثقالهم ودوابهم واقاموا هناك والمهدي يقضي نهاره في الصلاة والوعظ والحث عَلَى الجهاد . ثم سمع بخروج الجنود المصرية من الخرطوم عَلَى اهل الجزيرة فبعث محمد ابا جرجا اميراً عليها في عدد عظيم من الدراويش عَلَى ان يمد اهل الجزيرة ويحاصر الخرطوم . فحصلت بينه وبين جنود الخرطوم وقائع انتصرت في اولها الجنود المصرية ثم عادت العائدة عليهم بعد ذلك كما رايت . وارسل المهدي الشيخ محمد الخير اميرا عَلَى بربر فسار اليها وحاصرها وفتحها وارسل مديرها حسين باشا خليفة اسيراً الى معسكر المهدي في كوردوفان . فالتقى بسلاتين باشا وتشاطرا مصيبة الاسر . اما دنقلا فكان مديرها مصطفى بك ياور (ثم صار مصطفى باشا) قد كتب الى المهدي غير مرة يسلم اليه فلم يركن هذا الى تسليمه بل بعث السيد محمد علي وبعض الشائقية ليجسوه فحاربهم وفرق شملهم وكان الماجور كتشنر (اللورد كتشنر باشا) قد جاء بهمة سرية لاستطلاع نوايا مصطفى بك ياور واحوال السودان فشهد بعض مواقعه مع الدراويش

وخلاصة الامر ان جحار السودان ورماله كادت تنطق بصوت واحد « صدق محمد احمد بدعواه » وكان الى ذلك الحين مقيماً في الرهد فكتب اليه امراؤه من انحاء مختلفة ان ينزل برجاله الى النيل الابيض فكان يؤجل مسيره مظهراً الازدراء بقوة اعدائه والاعتداد بقوته ويستعرض جنوده كل جمعة استعراضاً عمومياً يحضره هو بنفسه والجيش اذ ذاك ثلاثة اقسام يراس كل منها خليفة من خلفائه . ولكن الخليفة عبد الله التعايشي كانت له الرئاسة الكبرى ويلقب « رئيس الجيش » وفرقته تسمى « الراية الزرقاء » ينوب عنه في قيادتها اخوه يعقوب التعايشي . وفرقة الخليفة علي ولد الحلو تدعى « الراية الخضراء » وفرقة الخليفة محمد الشريف تسمى « الراية الحمراء » او « راية الاشراف » وتحت كل من هذه الرايات الثلاث رايات صغيرة لا يحصيها عدٌ يجتمع حول كل راية منها مئات من الدراويش

وكيفية الاستعراض عندهم ان يقف امراء الراية الزرقاء برايتهم صفاً واحداً يولون وجوههم المشرق ويقف امراء الراية الخضراء صفاً آخر يقابل الصف الاول وجهاً لوجه ويقف امراء راية الاشراف صفاً آخر يقابل الشمال فيؤلفون مربعاً ينقصه ضلع كانه باب يدخل به المهدي وحاشيته فيمر بجانب الصفوف يحييها قائلاً « الله يبارك فيكم »

فلما انقضى رمضان تلك السنة قال محمد احمد انه قد اوحي اليه في الرؤيا «الحضرة» ان ينزل لمحاصرة الخرطوم وامر رجاله بذلك

حصار الخرطوم

فزحفوا برجالهم واحمالهم واثقالهم ودوابهم فضربوا نقارتهم وساروا حتى اشرفوا على الخرطوم وسلاتين معهم فعسكروا هناك تحت راية التعايشي . وسار الامراء الآخرون يحثون عن مكان آخر يعسكرون فيه . ثم امر المهدي ان يحدق جنده بالخرطوم ويشددوا الحصار عليها فامر ابا جرجا وولد النجومي ان يحاصراها برجالها من البر الشرقي للنيل الابيض عند مكان اسمه كلاكلا وامر ابا عنجه وفضل المولى ان يحاصرا طابية ام درمان على البر الغربي . وما زالوا محاصرين تلك الطابية حتى فتحوها في ١٥ يناير سنة ١٨٨٥ وهي اول طابية فتحوها من حصون الخرطوم . ويؤخذ من تقرير كتبه الشيخ المضوّي احد قواد المهدي في ذلك الحصار ان المهدي كان عازماً ان يشدد الحصار على الخرطوم حتى تسلم من الجوع كما فعل بالابيض وان رجال ولد النجومي وحدهم بلغوا عشرين الفاً . فربما كانت قوة الدراويش كلها ستين الفاً او سبعين او اكثر

ش ٩٥ : نقود غوردون

أما غوردون فلم يقض في الخرطوم شهرين حتى نفدت النقود من خزينتها فاصطنع نقوداً من الورق بفئات متفاوتة يتعامل بها الناس الى اجل مسمى . وقد شاهدنا كثيراً منها عند وصولنا المتمة سنة ١٨٨٥ وفي الشكل ٩٥ صورة احداها برسمها الاصلي تماماً

على ان ذلك قلما خفف من ضيق اهل الخرطوم ونزلائها فانهم ما انفكوا يشعرون بالضغط يوماً بعد يوم والحصار يزيدهم تضييقاً حتى اصبحوا محاطين بالعدو من كل جهة وقلّ زادهم او نفد وجاعوا وغوردون يصبرهم ويعدهم بقرب وصول الحملة الانكليزية

لانقاذهم ولكنها تأخرت كثيراً فملَّ الناس الانتظار واشتد الجوع حتى اكلوا لحوم القطط والكلاب ومضغوا سعف النخل وجذور الذرة . كل ذلك وهم واثقون بوعد غوردون ولكنهم اصبحوا يسيئون الظن به اخيراً

الحملة الانكليزية لانقاذ غوردون

اما الحملة الانكليزية التي اقروا على ارسالها لانقاذ غوردون فبرحت مصر في اوائل الخريف وعدد رجالها ستة الاف من نخبة الجند الانكليزي واكثر قوادها من الاشراف اذ تسابق الانكليز الى الانتظام في سلك هذه الحملة لزعمهم انها عبارة عن (فسحة) على النيل . فلم يصل من رجالها الى كورتي الا بعضهم وتفرَّق الباقون في نقط خط الاتصال . ومن كورتي سارت حملة في عطمور صحراء بيوضة الى المتمة بقيادة الجنرال ستيوارت والقصد بها سرعة الوصول الى الخرطوم . وسارت حملة اخرى على النيل الى بربر بقيادة الجنرال ارل . وكنا ممن سار برفقة حملة العطمور فشهدنا وقائعها وسمعنا اطلاق مدافعها ورنات قنابلها ورصاصها فقطعت الحملة جكدول فابا طليح فلاقاها العرب على الآبار فحصلت بين الفريقين واقعة شفت عن انهزام العرب فتعقبهم الانكليز الى المتمة ساروا بقيادة الجنرال ستيوارت ليلاً وقد كنت في جملتهم في تلك الليلة الليلاء فكنا سائرين لانرى شيئاً من آثار الطريق المؤدي الى المكان المقصود لشدة الظلام فاضطررنا الى الاستدلال عليها بالابرة المغنطيسية (البصلة) والنجم القطبي وكنا تارة نصعد على آكام متلمسين وطوراً تعثر ارجل جمالنا باعشاب وأنجم شوكية ولم نكن نخرج صوتاً ولا نقدح ناراً لئلا يكون بقربنا من الاعداء من يستطلع احوالنا فتحبط مقاصدنا . ولم يأت اخر الليل حتى اصبحنا وليس فينا من لم يأخذ منه النعس مأخذاً عظيماً . وكانت تأخذ من احدنا سنة الوسن وهو على ظهر الجمل فينتبه وهو على وشك السقوط فيعتدل

وعند ما اصبح يوم غرة ربيع اخر او ١٨ يناير اشرفنا على النيل المبارك عن بعد والمتمة عن يسارنا ولم نكد نقف والغزالة في الضحى حتى خرج الينا من اسوار المدينة (المتمة) جيش جرار من العربان وقفوا على مرمى رصاص منا وقد حالوا بيننا وبين النيل وجعلوا يطلقون علينا النار من وراء الاشجار والصخور فامر الجنرال ستيوارت بالترجل وانشاء زريبة وما كدنا نفعل حتى احتدمت نيران العدو فامر الجنرال بتشكيل مربع ثم وقف وراء احد المدافع وبيده المنظر يراقب حركات العدو فاصابته رصاصة في بطنه فسقط على الارض وسقطت قلوبنا معه . وكان بجانبي المستر مالكي هربرت كاتب سر الجنرال المذكور فسألته ما ظنه بحياة الجنرال فاجاب متأسفاً انه لا

يرجو له شفاء . وما اتم كلامه حتى اصيب هو برصاصة في راسه فشهق وسقط ميتاً لا حراك به وكان خادمه بجانبه يخاطبه في بعض حاجاته فلما رآه ساقطاً رفع يده منادياً يا سيدي يا سيدي ولم يتم قوله حتى اصيبت يده عند المعصم برصاصة ثقبتها من الجانب الواحد الى الاخر. وكنا نرى كثيرين غيره يسقطون مثل تلك السقطة . فلا تسل عما حل بالجند من اليأس الا انهم تجلدوا واقاموا عليهم اكبر ضباطهم قائداً فاتموا تشكيل المربع بعد ان رفعوا الجنرال جريحاً جرحاً بليغاً لم يعش بعده اكثر من شهر واحد فمات عند انسحاب الحملة ودفن عند آبار جكدول في وسط الصحراء

فسار المربع ونحن داخله قاصدًا النيل فهاجمنا الاعداء بسالة غريبة ثم ما لبثوا ان اقتربوا من مربعنا حتى تشتت شملهم فسرنا حتى ادركنا النيل عند الظلام بعد مفارقتنا اياه نحوًا من اسبوعين فحيياه تحية ملتاح وعسكرنا على ضفته للمبيت تلك الليلة . وفي الصباح التالي جاءت العساكر مع من كان معهم في الزريبة ثم انتقلنا الى قرية جنوبي المتمة يقال لها القبة

وكان غوردون قد انفذ لملاقاة تلك الحملة اربع بواخر كانت في مياه الخرطوم ليستعينوا بها في الوصول اليه وبعث يقول لهم انكم اذا لم تصلوا الينا في بضعة ايام ذهبنا هباء منثوراً وقد علم السير شارلس ولسن خلف الجنرال ستيوارت على تلك الحملة بذلك في ٢١ يناير وكان يجب ان يبادر حالا الى الخرطوم بدلاً من ان يقضي اربعة ايام بجوار المتمة بلا داع فغادرها في ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ على باخرتين لم تصلا الخرطوم الا في ٢٨ منه وكانت قد سقطت وقتل غوردون في ٢٦ منه فعاد السير شارلس كاسف البال ولم يصل المتمة الا بعد شق الانفس لان باخرتيه انكسرتا واصابه من الخطر ما لا محل لتفصيله هنا

سقوط الخرطوم

اما كيفية سقوط الخرطوم فعلى ما يأتي . من تأمل هذه الخارطة (ش ٩٦) علم ان الخرطوم واقعة موقعاً طبيعياً حصيناً للغاية فهي محاطة من الشمال والغرب بالنيل ومن الجنوب والغرب بسور منيع وراءه من الخارج خندق عميق والجند قائمون على السور ليلاً ونهاراً وترى بين بنايات الخرطوم وسورها ارضاً لا بناء فيها

وقد ذكرنا ان المهدي حاصر الخرطوم وشدد الحصار عليها لكي تسلم من الجوع فلم تمض مدة حتى انبأه جواسيسه ان حملة انكليزية قادمة لانقاذ الخرطوم وغوردون فبعث اليها جنداً لاقاها في ابي طليح تحت قيادة موسى ولد الحلو وابي صافية فعادت خاسرة فارسل جنداً آخر الى المتمة بقيادة نور عنجة فانكسر ايضاً كما تقدم . فلما

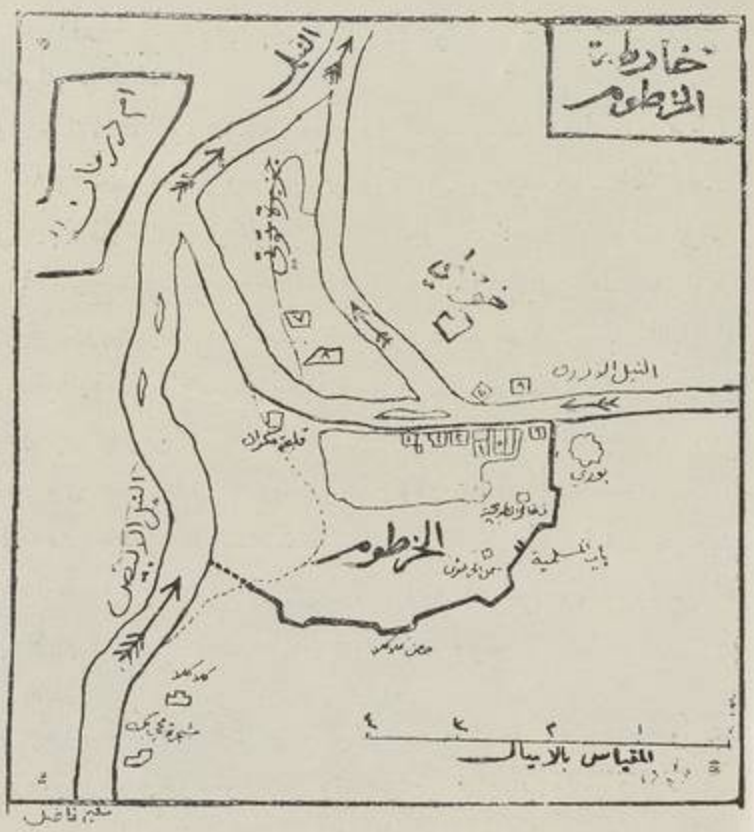

ش ٩٦ : دلالات الارقام في خريطه الخرطوم

(١) الحكمدارية (٢) السراي (٣) حواصل الحنطة (٤) الترسانة
(٥) القشلاق (٦) طابية بوري (٧) مخازن البارود (٨) قرية توتي
(٩) الطابية البحرية (١٠) السراي الشرقية

بلغه خبر انكسار رجاله اراد التمويه على اتباعه فامر باطلاق مئة قنبلة وقنبلة وهي اشارة النصر عندهم فاطمان الدراويش ولكن محمد احمد جمع امراءه وخلفاءه في جلسة سرية وقال لهم ان الحضرة جاءته فاوحت اليه ان يهاجر الى الابيض . فاعترضه الامير محمد عبد الكريم قائلاً « ان الهجرة ميسورة لنا في كل حين والطريق الى الابيض مطلق لنا فانهاجم الخرطوم اولاً فأذا امتنعت علينا هاجرنا الى الابيض واذا فتحناها فلا قوى الانكليز ولا غيرهم على اخذها منا » فاستحسن المهدي رايه وصبر بضعة ايام وهو يستقصي اخبار الانكليز وحركاتهم . وفي ٢٥ يناير بلغه قيام الباخرتين من المتمة

فاقر على مهاجمة المدينة في صباح اليوم التالي (يوم الاثنين في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) فبعث الى القوات المحاصرة يقول انه علم بالوحي ان الله قد جعل ارواح اهل الخرطوم كلها في قبضته

وفي مساء ذلك اليوم ٢٥ منه قطع المهدي النيل الابيض من ام درمان وكل من اراد الجهاد معه ونزل الى معسكر ولد النجومي في كلاكلا وخطب هناك خطاباً حث رجاله فيه على الجهاد واوصاهم ان لايقتلوا غوردون باشا. ولما اتم خطابه عاد ببطانته الى ام درمان

وفي الصباح التالي ٢٦ منه الساعة الاولى بعد نصف الليل زحف الدراويش من كلاكلا بقيادة ولد النجومي وانقسموا فرقتين فرقة تهاجم السور بين النيل الابيض وباب المسلمية وفرقة تهاجمه من ناحية بوري (انظر الخارطة) وكان السور بين باب المسلمية والنيل الابيض قد تهدم بعضه مما يلي النيل لمجاورته ارضاً يغمرها ماء النيل في فيضانه ترى حدودها في الخارطة منقطة . وكان الماء قد انحسر عنه اذ ذاك وتهدم بعضه فتكونت فيه ثغور دلنا عليه بتقطيع السور هناك الى نقط . فعول الدراويش على ان يدخلوا المدينة من تلك الثغور على انهم اذا فازوا بالدخول منها عدلوا عن الهجوم من جهة بوري ودخل القسمان معاً من جهة النيل الابيض

مقتل غوردون

فزحفوا سكوتاً حفاة تحت جناح الليل لا تسمع لهم حركة حتى صاروا عند تلك الثغور فردموا الخندق ووسعوا الثغور وصاحوا صياح الحرب قائلين « في سبيل الله » ودخلوا يزاحم بعضهم بعضاً وقد غاصوا في الاوحال الى الركب فبغتت الحامية فاطلقت بعض الطلقات وكان فرج باشا قائد الحصون على باب المسلمية فما انتبه الاوقد قضي الامر ولم تبق فائدة بالدفاع ففتح الباب وسلم فانهال الدراويش على المدينة كالسيل وهم ينادون « للكنيسة .. للسراي » وامعنوا في الاهالي المساكين قتلاً ونهباً لم يبقوا ولم يذروا . وسار بضعة منهم الى السراي حيث يقيم غوردون وكان قد يئس من قدوم الحملة وبات تلك الليلة حوالي نصف الليل ولم يكد يغمض جفنه حتى سمع اطلاق النار فصعد الى سطح السراي واشرف على الاسوار فراى العرب قد دخلوا السور ولم يعد باليد حيلة فلبس ثيابه وتقلد سلاحه وهمّ بالنزول فلاقاه ثلاثة من الدراويش في اعلى السلم فسأل اولهم قائلا « اين محمد احمد » فأجابه بطعنة قاضية وضربه آخر بالسيف خرّ قتيلاً ولم يبد دفاعاً . ويقال ان قتلته من رجال ولد النجومي ولم يكن ولد النجومي معهم فجاء بعدئذ فساءه قتله فامرهم بجر جثته الى باحة السراي وان يقطع راسه ويحمل الى المهدي في ام درمان فحملوه اليه في منديل كبير في الساعة الاولى من النهار وكان سلاتين مقيداً

في خيمته بام درمان وقد سمع اطلاق المدافع وعلم بهجوم العرب على الخرطوم ثم سمع بفتحها فوقف حزيناً كئيباً فمر حاملو راس غوردون به وبينهم رجل اسمه شطا كان يعرفه سلاتين قبلاً فكشف له عن راس غوردون وقال « اليس هذا راس عمك الكافر »

فاثر ذلك المنظر في سلاتين كثيراً وكان قد هزل جسمه من الاسر والخوف وكاد يغمى عليه ولكنه تجلد وقال بصوت ضعيف « انه مات في سبيل الدفاع عن واجباته هنيئاً له فقد استراح من متاعبه » فقال له شطا ضاحكا « اتمدح الكافر انك ستلقى ما لقيه قريباً » فتأمل حال سلاتين اذ ذاك

ش ٩٧ : راس غوردون يريه الدراويش لسلاتين باشا

ثم حملوا الراس الى المهدي فاظهر كدره لذلك وكان سلاتين يظن ان المهدي لو اراد ان يبقي عليه واوصى رجاله بذلك ما تجرا احد على مخالفة اوامره

هكذا سقطت الخرطوم عاصمة السودان في ايدي الدراويش وبسقوطها سقط كل امل بافتتاحها . ولكن المهدي لم يقم فيها بل اقام في ام درمان وبنى هناك مدينة جعلها عاصمة ملكه من ذلك الحين

اما الحملة الانكليزية فانها انسحبت من المتمة الى كورتي فاقامت هناك مدة ثم عادت الى دنقلا فمصر فسحبت معها كل من اراد مرافقتها من سكان شمالي كورتي واصبحت السودان من ذلك الحين مملكة المهدي السوداني

موت المهدي وخلافة التعايشي

فلما فتحت الخرطوم وعادت الحملة الانكليزية الى مصر ازداد الناس وثوقاً بدعوى المهدي مع ما شاهدوه من توفيقه في مشروعاته فانه كاد لا يشهد موقعة الا انتصر فيها ولا حاصر مدينة الا فتحها . واذا اعتبرت ما لاقته الحملة الانكليزية القادمة لانقاذ غوردون من العراقيل والعوائق عجبت لما اتفق لمحمد احمد هذا من غرائب التوفيق . فاتخذ اشياعه ذلك دليلاً على كرامته وايقن هو انه اصبح المالك المتصرف في السودان من اقصائه الى اقصائه وخيل له انه سيفتح الامصار ويخضع الملوك والسلاطين فتنتشر سلطته في الخافقين . على انه لم يكن يرجو ان يتم ذلك كله على يده ولكنه كان يقول انه لن يموت الا بعد فتح الحرمين وبيت المقدس ثم ينزل الكوفة ويموت فيها. ولكن ساء فأله لانه لم يكد يؤيد سلطته ويقيم في عاصمته «ام درمان» بضعة اشهر حتى داهمته الوفاة في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٥ فيها على اثر اصابة شديدة بالحمى التيفوسية لم تنجع فيها حيلة ففارق هذا العالم على عنقريب « سرير سوداني » وحوله خلفاؤه الثلاثة وخاصة امرائه منهم احمد ولد سليمان ومحمد ولد البصير وعثمان ولد احمد والسيد الملكي . فلما شعر المهدي بدنو الاجل قال لمن حوله بصوت منخفض « ان النبي صلى الله عليه وسلم اختار الخليفة عبد الله خليفة لي وهو مني وانا منه فاطيعوه ما اطعمتوني . استغفر الله » ثم تلا الشهادتين وجعل يديه متقاطعتين على صدره واسلم الروح

ولم يكد يخرج النفس الاخير من انفاسه حتى تقدم الحضور فبايعوا عبد الله وسموه « خليفة المهدي » وكان في جملة من حضر موت المهدي امراته عائشة ويدعونها «ستنا ام المؤمنين» فسارت لابلاغ خبر وفاته الى نسائه الاخريات وتعزيتهن وكان الناس قد تجمهروا مثات والوفاً حول المنزل ينتظرون الخبر عن سيدهم ومهديهم فلما علموا بموته ضجوا وصاحوا فاوعز اليهم ان البكاء والندب حرام لان المهدي انما فارق مقامه في الارض بمجرد ارادته ليلقى وجه ربه . فغسلوا الجثة ولفوها بالاكفان واحتفروا لها حفرة في تلك الغرفة حيث فارقتها الروح ودفنوها وجعلوا فوقها بعد ذلك مقاماً من الخشب يغشاه ستر اسود وبنوا فوقه قبة وسموا ذلك المقام « قبة المهدي » يزورها الناس للتبرك واحتفروا بجانب القبة بئراً يستقي الزائرون منها للشرب والوضوء وحول القبة درابزون من الخشب « ش ٩٩ »

وكان سلاتين باشا قد نال العفو من المهدي قبل وفاته فحلت قيوده وعاد الى معية التعايشي فشاهد تلك الحوادث شهادة عين ووصفها في كتابه السيف والنار والسودان وصفاً تاماً

ش ٩٨ : طبب المهدي

فبعد دفن المهدي سار خليفته عبد الله الى الجامع وخطب في الناس وانبأهم بوفاة المهدي فبكى وبكى الناس ثم اوصاهم بالطاعة والاتحاد للعمل باوامره وبعد الخطبة تقدم الناس لمبايعته فتلوا صورة المبايعة التي ذكرناها قبل الان ولكنه غير العبارة الاولى منها فجعلها « بايعنا الله ورسول الله ومهدينا وبايعناك على توحيد الله الخ »

اوصاف المهدي

كان محمد احمد طويل القامة عريض المنكبين اسمر اللون قائمه قوي البنية. وكان اول قيامه بدعوته ربع القامة فاصبح في اواخر ايامه سميناً ضخما. وكان كبير الراس عريض الجبهة حاد العينين اسودهما خفيف اللحية اسودها وعلى خديه آثار الاخاديد العرضية الثلاثة من كل جانب كسائر الدناقلة ابناء قبيلته. وكان متناسب الانف والفم لا ينفك

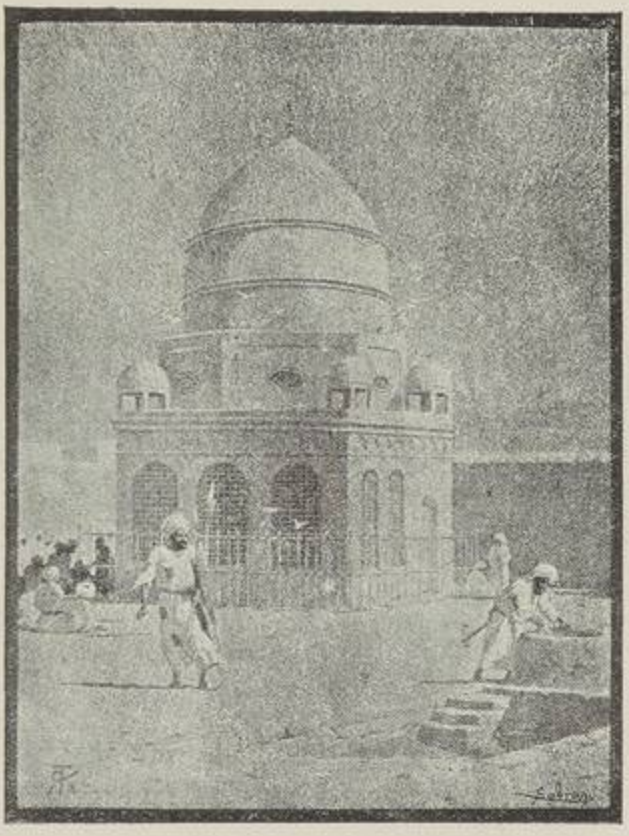

ش ٩٩ : قبة المهدي وفيها قبره

مبتسماً فتظهر اسنانه وبين الاماميتين منها فلجة تشبه الثمانية « ٨ » تعد عند السودانيين وغيرهم من المشارقة علامة السعد ويقال لصاحبها افلج وكان ذلك من جملة ما حبب المهدي الى النساء وكن يسمينه « ابو فلجة »

وكان يلبس جبة بيضاء قصيرة مضربة تراها دائماً مغسولة نظيفة مطيبة برائحة خشب الصندل والمسك وعطر الورد وكان مشهوراً بين اتباعه بهذه الرائحة حتى نسبوها اليه فسموها « رائحة المهدي » وذكر بعضهم خالاً كان في خده ادعى انه من علامات المهدوية

وقد علمت من تدبر ترجمة حاله انه كان نبيهاً مدبراً رضي الخلق حسن السياسة ماهراً في التأثير على عواطف الناس اذا تكلم ظهر للسامعين ان جوارحه كلها تتكلم

فاذا ذكر مآثم بني الانسان او وصف النعيم المقبل او حث على الجهاد بكى وتخشع وابكى السامعين . ويظهر من مجمل سيرة حياته انه صبور على البلوى كاظم للغيظ مسالم للاحزاب محسن اليهم راغب في امتلاك قلوبهم باللطف وحسن الاسلوب وكان ذلك من اكبر العوامل في نشر دعوته وقيام الناس بنصرته ولو امد الله في اجله لكان فتح السودان صعباً على الجنود المصرية نظراً لاستهلاك قواده في سبيل نصرته . اما خليفته فكان على غير خلقه من اللين والدعة والمسالمة الى حد هاج غيرة الخليفتين الاخرين وغيرهما من الامراء فقام الشقاق بين الدراويش فضعفت عزائمهم وفسدت امورهم وتضعضعت احوالهم وسهل الفتح على المصريين

تعاليمه

ذكرنا في ماتقدم ما كان من اعماله الحربية منذ ظهوره الى وفاته فنقتصر الآن على ذكر ما احدثه من التعاليم والتقاليد بين مسلمي السودان :

(١) عمَّم الزهد في الدنيا وملذاتها ونبذ المجد الدنيوي فابطل الرتب والالقاب الرسمية وغير الرسمية وساوى بين الغني والفقير وفرض على اتباعه لباساً واحداً يمتازون به ويدل على زهدهم وهو الجبة المرقعة

(٢) جمع المذاهب الاربعة (المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي) ووحدها بتسوية بعض ما بينها من الخلاف والغاء البعض الآخر واختار آيات من القرآن الكريم تتلى كل يوم بعد صلاة الصبح وصلاة العصر سماها « الراتب » وسهل طرق الوضوء

(٣) حرَّم الاحتفال بالاعراس احتفالاً يدعو الى النفقة ومنع شرب الخمر وغيرهما مما يتناولونه في الاعراس وخفض مهر الزواج فجعله عشرة ريالات وبدلتين للبكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب وجازى من يخالف ذلك بسلب امواله كلها . وابدل ولائم الاعراس بطعام من التمر واللبن فتسهلت بذلك وسائل الزيجة على الفقراء وقد كانت نفقات العرس الباهظة حائلة بينهم وبين الاقتران

(٤) ابطل الرقص واللعب ومَن رقص او لعب فقصاصه الجلد واخذ امواله وترى تفصيل ذلك في منشور المهدي الذي تقدم نشره

(٥) منع الحج الى الحرمين خوفاً على قواته من التفريق وتعاليمه من الضياع لعلمه انها تخالف تعاليم اهل الاسلام . ووضع قصاصاً على من يشك في دعوته او يتردد في تنفيذ اوامره ان تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ويكفي لثبوت التهمة عليه شهادة

شاهدين وقد يكفي ان يدعي علمه ذلك بالوحي . وتأييداً لدعوته احرق كل كتاب او ورقة تخالف هذه التعاليم

وقد ضرب المهدي نقوداً باسمه هذه صورة قطعة فضية منها بحجمها الطبيعي (ش ١٠٠) على احد وجهيها اسم المدينة التي ضربت فيها « ام درمان » وعند اسفل ذلك تاريخ ١٣٠٤هـ وهي سنة استقلالهم بالاقطار السودانية وفي اعلاها رقم واحد يقصدون به السنة الاولى من سلطانهم . وعلى الوجه الآخر ما يشبه الطغراء يقرا منها كلمة « مقبول » كانهم يريدون بها ان هذه النقود مقبولة عند حكومتهم وعند اسفل الطغراء يقرا سنة ٥ ربما يقصدون بها السنة الخامسة من ظهور المهدي او هجرته

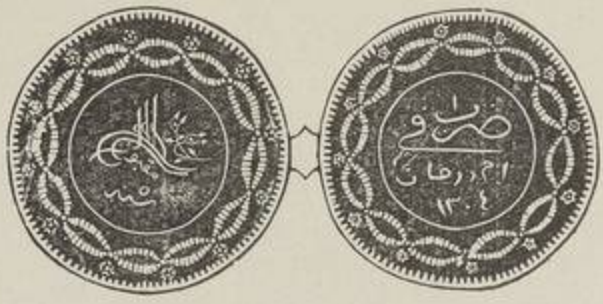

ش ١٠٠ : نقود المهدي

وكان المهدي قد بعث امراءه الى الانحاء لبث دعوته وتأييد سلطته وحث الناس للهاجرة الى ام درمان فسعى محمد خالد في دارفور فاتم اخضاعها وسار ابو عنجه الى كردوفان وكانت قد سلمت الى المهدي الا سكان الجبال الجنوبية منها فاخضع بعضهم وبقي البعض الآخر مستقلاً اما ما بقي من السودان الغربي من ضفاف النيل الابيض الى حدود واداي فقد دانت للمهدي برمتها

السودان الشرقي

اما في السودان الشرقي فما زالت سنار وكسلا محاصرتين وقد دافعت حاميتها دفاعاً حسناً حتى اضطرت الى التسليم فلم تنقض سنة ١٨٨٥ حتى بلغ نفوذ المهدي وسلطته جنوباً الى لادو من مديرية خط الاستواء ولم يبق من السودان في حوزة الحكومة المصرية الا سواكن وحدها

واتفق في اثناء حصار سنار ان القوة المحاصرة لها كانت تحت قيادة الامير عبد الكريم وهو من اقارب المهدي فدفعته حامية سنار فانفذ التعايشي ولد النجومي وهو من اعظم قواد الدراويش ففتحها في اغسطس سنة ١٨٨٥ فبعث التعايشي الى عبد الكريم ان يأتي هوورجاله الى ام درمان وكان قد اخذ معه لحصار سنار الجنود السودانية لواء الخليفة محمد الشريف وهو من اقارب المهدي ايضاً فلما فتحت سنار على يد ولد النجومي ثم دعي عبد الكريم الى ام درمان حمل عبد الكريم ذلك من التعايشي محمل الاهانة له وذاع على الالسنة اذ ذاك ان عبد الكريم قال لو ضمت اليه رجاله ورجال الخليفة الشريف لاخرج الخلافة من يد التعايشي ودفعها الى الخليفة الشريف لانه ولى بها من ذاك . فبلغ ذلك الكلام مسمع التعايشي فبعث الى اخيه يعقوب وهو عمدته وقائد جنده واخبره الخبر واوصاه ان يكون الجند على استعداد عند وصول عبد الكريم . فلما وصل عبد الكريم لاقاه التعايشي بالتحية والتهنئة واثنى على ما بذله في حصار سنار ثم شرفه وبعث الى الخليفتين وسائر الاشراف (اقارب المهدي) فادخلهم غرفة داخلية ولما استتب بهم المقام امر كاتبه فتلا عليهم منشوراً كان قد كتبه المهدي في الايض يحرض اتباعه به على طاعة التعايشي

فلما تمت تلاوة المنشور قال عبد الله ان عبدالكريم خائن فانكروا ذلك عليه ودافعوا عن صداقته وامانته فتظاهر بالعفو عنه ولكنه اشترط اخراج الجنود السودانية من قيادته الى قيادة اخيه يعقوب فقبل الشريف وسائر الاقارب بذلك رغم ارادتهم ثم اشار التعايشي الى الخليفة علي ولد الحلو بطرف عينه ان يجددوا المبايعة ويمين الطاعة فوضعوا ايديهم على القرآن واقسموا ان يسلموا الجنود السودانية وان يحافظوا على الطاعة . ولا ريب ان الشريف ورجاله فعلوا ذلك قهراً وفي انفسهم حزازات يودون لو انهم يذهبون بحياة التعايشي . وكانت تلك الحادثة امثولة ذات بال اصبح بها مقاوموه مقصوصي الاجنحة لايستطيعون حراكاً ولكنهم حقدوها عليه واخذ كل من الفريقين ينظر الى الآخر بعين الحذر . على ان الظواهر كانت تدل على اتحاد وارتباط متينين .

اما التعايشي فما انفك يدعو الناس من الجهات البعيدة للمهاجرة الى ام درمان ليعمرها ويحشد فيها قوة عظمى يستعملها عند الحاجة

حرب الاحباش

وفي اثناء ذلك تعدى بعض السودانيين على الاحباش في بلاد الحبشة واخربوا كنيسة من كنائسهم والتجأ المتعدون الى قلابات وهي في بلاد الدراويش مما يلي حدود الحبشة فجاء الاحباش بجند كبير تحت قيادة الرس اعادل

واخربوا البلدة واحرقوها حتى صارت قفراً يأوي اليها الضباع والذئاب وساقوا الاولاد والنساء اسارى الى الحبشة . فبلغ التعايشي ذلك فكتب الى يوحنا نجاشي الحبشة اذ ذاك ان يرسل الاسرى ويعين الفدية التي يريدها عنهم ولكنه بعث ايضا يونس احد قواده بجند الى قلابات وامره ان يحصنها ويقيم فيها حتى يأتيه امر اخر

وبعد قليل جاء نباء ان يونس في ضيق فبعث ابا عنجة يتولى قيادة الدراويش في قلابات فسار في جنده وانقذه من ضيقه . وقبض على ١١ اميراً ظهر انهم تآمروا على قتل يونس وبعث الى الخليفة يستشيره في امرهم فبعث اليه ان يقتلهم ثم ندم فبعث ان لا يفعل ولكن سبق السيف العزل

فجمع ابو عنجه هذه القوة وسار نحو راس عادل لينتقم منه فوفق في هذه الحملة على غير انتظار وتغلب على رجال راس عادل واخرجهم من محلتهم واستولى على الحريم والمؤن وكل الامتعة واسر امراؤه راس عادل وابنته . وكانه بهذه الغلبة قد فتح كل مقاطعة احمرة فسار توًّا الى غندر على امل ان يلاقي فيها خزائن واموالاً فلم يجد شيئاً فاحرق البلدة وعاد وهو ينهب ويسلب كل ما مرَّ به بطريقه حتى ساقوا امامهم قطيعاً من نساء الاحباش واطفالهم سوق الاغنام فلما وصلوا قلابات بعثوا الاسرى الى ام درمان فاخذ الخليفة خمسهم وضموا الباقي الى بيت المال وقد مات منهم في الطريق مئات من الجوع والتعب واصبح الطريق بين قلابات وابي حراز مملوءا بجثث اولئك المساكين وفي جملتها جثتا ابنة راس عادل وابنه لكن المنية عاجلت ابا عنجة فمات ولم يتجاوز ٣٢ سنة من عمره

ثم ما لبث النجاشي ملك الحبشة ان جند للانتقام من الدراويش على خراب غندر فحمل بجند كبير على قلابات وكانت جنود ابي عنجه لا تزال هناك ولم تفقد الا قائدها الاكبر فتأهبوا للدفاع فوصل النجاشي وعسكر بالقرب من قلابات وانتهت الحرب بهرب الاحباش وقتل ملكهم وتركوا المعسكر غنيمة للدراويش فوجدوا في جملة الغنائم تاج النجاشي يوحنا مصنوعاً من الفضة ومحلى بالذهب وسيفه وكتاباً مرسلاً اليه من ملكة الانكليز فحملوا ذلك غنيمة الى ام درمان

فتح مصر

ومن اغرب مطامع التعايشي فتح مصر وضمها الى مملكته على حين ان المهدي نفسه لم يجاهر بذلك صريحاً . فلما توفي هذا كتب التعايشي كتاباً الى جلالة السلطان وآخر الى سمو الخديوي وآخر الى ملكة الانكليز يطلب اليهم جميعاً ان يسلموا له ويذعنوا لسلطانه وارسل الكتب مع رسل خصوصيين الى مصر فعاد الرسل ولم ينالوا جواباً غير الاحتقار والازدراء فشق ذلك عليه وحقده عليهم

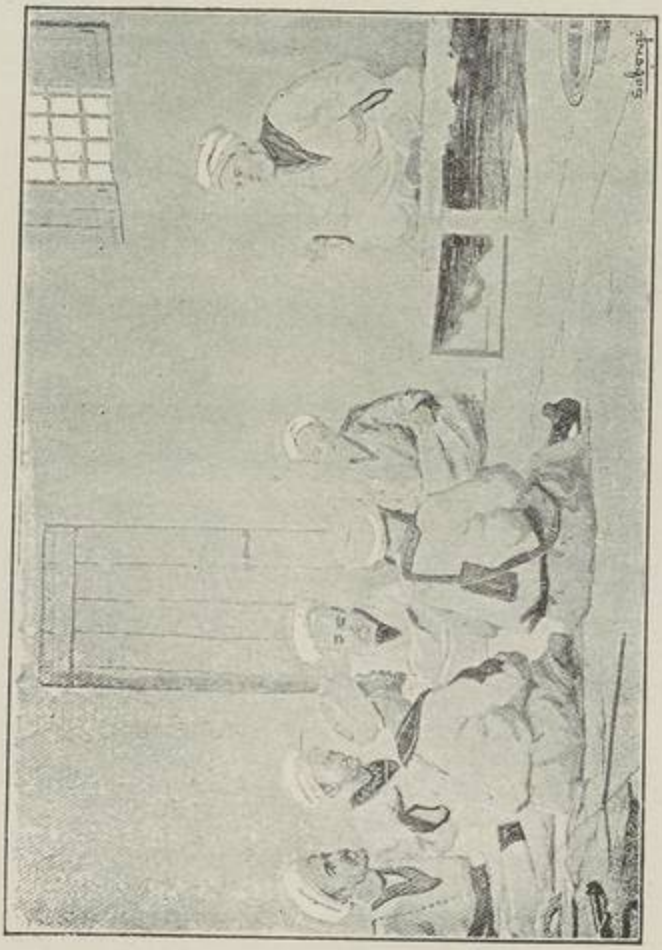

شكل ١٠١ : مجلس التعايشي وقتما

فلما قدر له بالفوز على الاحباش حدثته نفسه ان يجرد على مصر فيفتحها ويقيم فخاساً من البقارة او التعايشة اميراً يتولى حكومتها او يأتي هو بجلالة قدره من بيته في ام درمان فينصب عنقريبه في سراي عابدين !

ولم يرَ بين قواده اولى بهذه المهمة من عبد الرحمن ولد النجومي وكان من اشد الدراويش بطشاً واصعبهم مراساً وا كثرهم استهلاكا في نصرة الدعوة وكان قبل ظهور المهدي تاجراً بين مصر والسودان قد خبر الارض وعرف الطرق فارسله في حملة اكثرها من قبائل الجعالين والدناقلة وغيرهم ممن جاوروا حدود مصر العليا وخالطوا

سكان تلك الاقاليم متظاهراً ان قصده بذلك فتح مصر برجال هم ادرى بها من غيرهم . ولكن الحقيقة انه لم يجهل الخطر الذي يهدد ذلك المشروع فلم يدخل في تلك الحملة احداً من اقاربه وابناء عشيرته ولا من قبائل البقارة وغيرهم من عرب غربي النيل الابيض لانهم من حزبه فاذخرهم لحين الحاجة اما الدناقلة والجعالين فاكثرهم من حزب الخليفة محمد الشريف وقد رايت ما بينه وبين التعايشي وما كان من تغير قلبيهما فما انفك هذا بعد ذلك يعتبر الشريف عدوًا له تحت طي الخفاء فبعث احزابه في حملته هذه وفي نيته انهم اذا فتحوا مصر عاد الفخر له واتسعت مملكته واذا انكسروا تقهقروا الى دنقلا وقد ضعف شأنهم وتخلص هو من دسائسهم

فجعل دنقلا محط رحال تلك الحملة واقام يونس ولد الدغيم اميراً على دنقلا يقيم فيها ويدير شؤونها وولد النجومي يقود الحملة ولا يعمل الا بمشورة يونس

فلما اعدَّ التعايشي تلك الحملة بعث كتباً اخرى الى مصر وفيها الانذار الاخير فبقي الرسل مدة في اصوان ثم اعيدوا بلا جواب فبعث التعايشي راس النجاشي يوحنا الى يونس امير دنقلا على ان يرسله الى وادي حلفا تهديداً للمصريين . وامر ان يسير ولد النجومي بحملته على مصر فلا يحرك ساكناً في حلفا بل يهاجم اصوان فاذا فتحها يقيم فيها حتى تأتيه اوامر اخرى

فخرج ولد النجومي من دنقلا في مايو سنة ١٨٨٩ في جيش لا نظام له والحكومة المصرية عالمة بكل حركة من حله وترحاله. وكان سردار الجيش المصري اذ ذاك الجنرال غرانفل باشا المشهور بالتأني وصدق الروية فضلاً عن الرقة ولين الجانب فحصن حلفا واصوان وسائر الحدود

فلما دنت حملة الدراويش من ارجين بجوار حلفا اقتربت شرذمة منهم الى النيل وولد النجومي لا يعلم بها فخرجت اليها الحامية المصرية بقيادة وودهاوس باشا فكسروها شر كسرة

وكان غرانفل باشا قد خرج من اصوان فبعث الى ولد النجومي يبين له خطر موقفه وينصح له ان يسلم فيسلم فأبى فسار السردار بجيش معظمه على البر الغربي للنيل وبعضه على البر الشرقي لان الدراويش كانوا قادمين على البر الغربي جرت بينهم وبين الحاميات مناوشات ليست بذات بال حتى وصلوا توشكي وهناك حصلت الواقعة التي قضت على تلك الحملة فقتل قائدها وتشتت شملها واليك التفصيل

واقعة توشكي

توشكي قرية حقيرة على البر الشرقي وبعضها على البر الغربي للنيل بين كروسكو وحافا على بضعة اميال من هيكل ابي سمبل شمالا مؤلفة من اعشاش صغيرة من الطوب والقش متفرقة على ضفة النيل في مسافة من الارض على موازاة النيل يبلغ طولها ثلاثة اميال وعرضها منه الى الصحراء نحو نصف ميل وفيها بعض النخيل

وفي البر الغربي مقابل توشكي على بعد اربعة اميال منها جنوباً سلسلة تلال عالية من حجر الغرانيت تمتد من الضفة غرباً نحو ثلاثة اميال في الصحراء وعند طرف هذه السلسلة والى جنوبيها كان معسكر الدراويش بقيادة ولد النجومي وعلى نحو تلك المسافة شمالاً سلسلة اخرى . وبين السلسلتين سهل متصل بالصحراء وفيه حصلت الواقعة

وكان السردار مقيماً في توشكي فبعث طلائعه في صباح ٣ اوغسطس سنة ١٨٨٩ باكراً لاستكشاف معسكر العدو فعادوا واخبروا بان العرب يستعدون للمسير فخرج السردار لمجرد الاستكشاف فلم يكد يشرف على معسكرهم حتى رآهم هاجمين كالجراد فبعث الى الجند في توشكي وكان بعضهم لم يتناول طعاماً ولا تهيأ للمسير فساروا باسرع من لمح البصر وهم لم يأكلوا بعد ولا حملوا من الماء الا شيئاً قليلاً فصمم السردار اذ ذاك ان لا يكف عن الدراويش حتى يشتت شملهم في ذلك اليوم وكان قد علم بما كانوا فيه من الضيق والجوع . وهاك اسماء الارط التي شهدت تلك الواقعة وهي الارطة التاسعة بقيادة البكباشي لويد والعاشرة بقيادة البكباشي دن والثالثة عشرة بقيادة اليوزباشي كستر والطبجية بقيادة البكباشي رندل فضلاً عن البيادة الراكبين والاورطة الثانية من البيادة جاءت متأخرة وقال الذين شهدوا واقعة توشكي ان الارط السودانية عملت في ذلك اليوم اعمالاً عجيبة وبالغوا برغبتهم في الحرب حتى عصوا اوامر قوادهم لما دعوهم الى الكف عنها والخلاصة ان الواقعة المشار اليها لم تنقض الى الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم (٣ اوغسطس سنة ١٨٨٩) . وبلغ عدد قتلى الدراويش ١٢٠٠ قتيل وزاد عدد اسراهم على اربعة آلاف وفيهم النساء والاولاد فضلاً عن الاسلاب والاعلام والسيوف والرماح ولم يقتل من الجيش المصري الا ٢٥ وجرح ١٤٠

ووجد بين قتلى الدراويش اذ ذاك اعظم امراء تلك الحملة ما عدا عثمان الازرق وعلي ولد سعد وحسن النجومي وميرغني سوار الذهب وشيخ الابيض فقد نجا هؤلاء بنحو الف واربعمائة شريد وهم الذين استطاعوا الفرار من تلك الموقعة فقط . اما ولد النجومي فقد قتل وحزّ راسه وجيء به الى السردار

فكان ذلك النصر مبيناً سرَّ به المغفور له الخديوي السابق فبعث الى السردار يهنئه به لعلمه انه امثولة عامت التعايشي ما لم يكن يعلم . اما الذين قتلوا من الجنود المصرية فابتنوا لهم مقاماً قرب مكان الواقعة ضموهم اليه وبنوا فوقه قبرًا نقشوا فوقه باللغة العربية حفرًا على واجهة القبر كتابة هذا نصها

« شيد هذا الاثر تذكاراً لواقعة توشكي التي حصلت في ٦ الحجة سنة ١٣٠٦ هـ وانهزم فيها جيش العصاة السوداني المرسل تحت امرة عبد الرحمن ولد النجومي فتشتتوا بعد قتل اميرهم وكان الجيش المصري تحت قيادة سعادة السردار غرانفل باشا وفي هذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان »

ش ١٠٢: توفيق باشا في توشكي

وبعد الواقعة سار الخديوي السابق في بعض رجال معيته لتفقد احوال الحدود فركب الى مكان تلك الواقعة ووقف امام قبر شهدائها يتأمل ما اظهره جنده من البسالة في ذلك القتال . وقد نشرنا رسمه رحمه الله واقفاً امام ذلك القبر وقد اسند راسه على كفه متأملاً (انظر الشكل ١٠٢)

﴿ قحط عظيم ﴾ وكان خبر ذلك الانكسار صدمة قوية على الدراويش في ام درمان فعرفوا قدر انفسهم ووقفوا عند حدهم ولكنهم لم يكادوا يتخلصون من عواقب تلك

الكسرة حتى داهمهم قحط غلت فيه اثمان الحنطة وقل الزاد واشتدت وطأة الجوع على الفقراء حتى اكلوا سيور الجلد التي يشدون بها مقاعدهم فكثر النهب وازداد الضغط

وكانت وطأة الجوع في الغالب اشد على المارين بام درمان والقادمين اليها مما باهلها حتى اتصلت الحاجة ببعضهم الى بيع اولادهم بيع الرقيق انقاذاً لهم من الموت جوعاً . قال سلاتين « وكانت الجثث ملقاة في الشوارع والمنازل مئات وليس من يدفنها فاصدر التعايشي منشوراً قال فيه ان كل صاحب منزل مطالب بدفن الجثث التي تشاهد ملقاة قرب منزله فقلت الجثث على الشوارع ولكن بعضهم كانوا يحفرون حفراً بقرب المنازل يدفنونها بها تخلصاً من مشقة الحمل الى المدافن . وكانت مياه النيلين الازرق والابيض تجري امام ام درمان حاملة مئات من الجثث فارق اصحابها الحياة على ضفاف النيل او بالقرب منها فالقوها اهلهم او اصحابهم فيه » وخلاصة القول ان الجوع اهلك من الدراويش اضعاف ما ابادته الحروب منذ ظهور المهدي الى ذلك اليوم . ورافق هذا الضيق جراد جارف اكل ما بقي من الزرع

على ان التعايشي ما زال يبث دعاته في سائر الانحاء لتأييد دعوته وكانت بقية من خط الاستواء لا تزال على ولاء الحكومة بقيادة امين باشا فانفذت المانيا حملة بقيادة ستانلي الرحالة الشهير لانقاذ امين باشا فقاست في سبيل ذلك مشقات جسيمة تمكنت بعدها من الخروج به وببعض الحامية فدخلت مديرية خط الاستواء بحوزة الدراويش ولم يبق للحكومة من السودان المصري الا سواكن وطوكر

وقد فصلنا تاريخ التعايشي واصله وصفاته واخلاقه ومناقبه وحكومته وادارتها من حيث الجند والمالية والقضاء والبريد وسائر احوالها مطولاً في الجزء الاول من كتابنا تراجم مشاهير الشرق نكتفي منها هنا بوصف حكومته :

حكومة التعايشي وادارتها واعمالها

١ — المالية

تسمى المالية عند الدراويش « بيت المال » او هي بيوت المال يختص كل بيت منها بنوع من انواع الدخل والخرج اهمها خمسة وهي : ١ بيت المال العمومي ٢ بيت مال الملازمين ٣ بيت مال الخمس للخليفة ٤ بيت مال ورشة الحربية ٥ بيت مال ضابطة السوق

﴿ بيت المال العمومي ﴾ : هو عبارة عن الخزينة العمومية لمملكة الدراويش يجمع دخلها من المصادر الآتية : ١ الزكاة والفطرة ٢ الاسلاب والغنائم المكتسبة بالحرب ٣ العشور وهي ما يدفعه التجار على بضائعهم (المكس) ٤ ضريبة

ش ١٠٣ : عبد الله التعايشي

الصمغ ٥ ضريبة القوارب ٦ قروض يعقدها بيت المال مع التجار ولا ينوي دفعها ٧ ضرائب العبور في النيل من ضفة الى اخرى (المعديات) ٨ غلة الارض الواقعة غربي النيل الابيض وشرقي النيل الازرق وهي تمتد جنوباً الى كركوج وفشوده وشمالاً الى حجر العسل ٩ معين يستولي عليه بيت المال العمومي من بيوت المال الاخرى

واما نفقات بيت المال العمومي فهي : ١ نفقات نقل الجيوش ومؤنهم وذخائرهم الى المديريات والمقاطعات ٢ اعطيات الجند (رواتب الجهادية) ٣ رواتب المستخدمين ٤ الصدقات

﴿ بيت مال الملازمين ﴾ : ويراد به خزينة الملازمين وهم جند التعايشي الخصوصيين ومنهم حراسه وياورانه . يجتمع دخل هذه الخزينة من محاصيل ارض الجزيرة (بين النيلين الابيض والازرق) واما نفقاتها فمحصورة في رواتب الملازمين

﴿ بيت مال الخمس للخليفة ﴾ : وهو اشبه شيء بالخزينة الخاصة ودخله من المصادر الآتية : ١ معظم ما يفضل في خزائن المديريات بعد نفقاتها المعلومة ٢ محاصيل الجزائر الواقعة في النيل وفي جملتها جزيرة توتي تجاه الخرطوم ومحصول ارض الغنيمة ومنها حلفاية وكمالين وكانتا قبلاً من املاك الخاصة الخديوية ٣ عشر البضائع التي

د من بربر الى ام درمان ٤ اثمان العبيد الذين يرسلون من المديريات ٥ محصول
كثر البواخر والسفن. اما خرج بيت مال الخليفة فمحصور في نفقات منزله الخصوصي

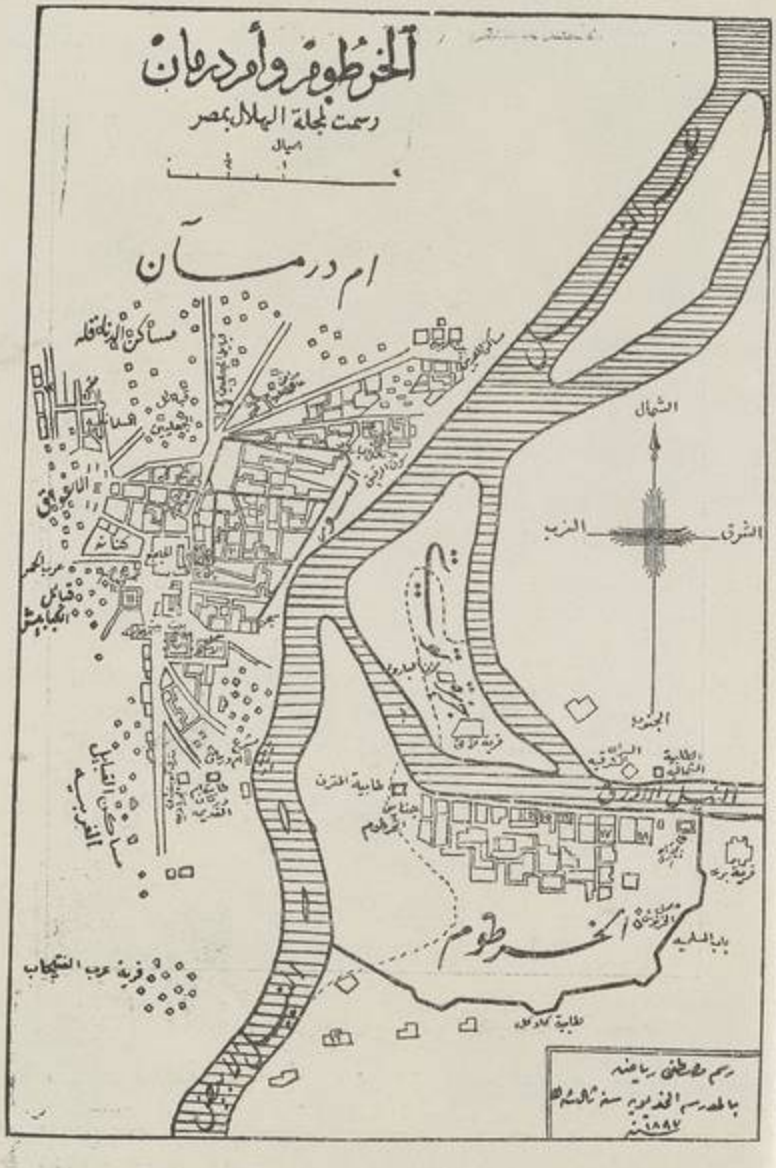

ش ١٠٤: خارطة الخرطوم وام درمان في زمن التعايشي

﴿ بيت مال ورشة الحربية ﴾ : ويشبه خزينة الحربية عندنا دخله من : ١ غلة

جنائن الخرطوم ٢ محصول بعض السواقي بجوار الخرطوم ٣ العاج الوارد من خط الاستواء . وخرجه من: ١ نفقات البحرية ٢ نفقات الترسانة ويسمونها بيت الامانة ٣ استخراج ملح البارود وتنقيته ٤ نفقات معمل الاسلحة

ش ١٠٥ : عبد الله التعايشي يقطع النيل ويحرض رجاله على القتال

﴿ بيت مال ضابطة السوق ﴾ : وهي خزينة الضابطة دخله من اموال السكيرين والمقامرين التي يحكم التعايشي بضبطها ومن ضريبة الحوانيت . واما نفقاته فعلى ما يأتي : ١ رواتب الضابطة من الانفار والضباط ٢ نفقات بيت الضيافة وهو ليعقوب اخي عبد الله التعايشي ٣ نفقات بناء السور الكبير لام درمان . هذه هي اقسام المالية من

الدخل والخرج اما المقادير التي تدخل وتخرج فلا تتيسر معرفتها

٢ — النقود والتجارة

لما قام المهدي بدعوته ووفق الى فتح المديريات استولى على خزائنها واموال اهلها فكان ينفق مما وصل الى يديه من ذلك وهي النقود الدارجة في السودان على عهد الحكومة المصرية اهمها الريال المجيدي والريال ابو مدفع فلما اتسعت مملكته ونفدت تلك الاموال اخذ في ضرب النقود باسمه اشار عليه بضربها احمد ولد سليمان ، فضرب نقوداً فضية شبيهة بالريال المصري نشر نا رسمها وجنيهات شبيهة بالجنيهات مصرية . ولكنهم لم يكونوا يضبطون المقادير اللازمة من كل معدن منها . وكان الذهب قليلاً بين ايديهم فكفوا عن ضرب الجنيه وا كثروا من ضرب النقود الفضية فر ربوا منها ضربات عديدة تعرف باسماء خاصة بها منها « ريال المهدي » وهذا احسنها كلها ومنها « مقبول » و « ابو سدر » وكلاهما من ضرب القيرافوي . و « ابو كيس » وعليه رسم رمحين متصالبين . و « العملة الجديدة » . على انهم اخذوا ينقصون مقدار الفضة بالنسبة الى النحاس شيئاً فشيئاً حتى صارت نسبة الفضة الى النحاس كنسبة ٢ الى ٥ وكانت في بادىء الراي ٧ الى ١ اي ان الريال كان يحتوي سبعة اجزاء من الفضة وجزءاً من النحاس وهو ريال المهدي فصار يحتوي جزئين من الفضة وخمسة من النحاس وذلك دليل على فقر السودان وفساد حكومته . على ان دار ضرب النقود كان يتخذها كبار الدراويش تجارة يكتسبون بها اموالاً طائلة لانها تعطى حكراً او ضمانة ومن قوانينها ان يراسها اثنان معاً يدفع الواحد منهما ستة الاف ريال كل شهر ويضربانه من النقود يجب ان يكون مقبولاً لدى التجار وغيرهم فاذا اعترض احد على نحتها او تمنع عن قبولها فعقابه الجلد اوسلب الاموال . فالريال صار يستبدله تجارام درمان ثمانية ريالات من العملة الجديدة ويستبدلون الريال ابا مدفع بخمسة ريالات فاضطروا ملافاة لما يلحقهم من الخسارة بهذه المعاملة ان يرفعوا اثمان بضائعهم حتى بلغ ثمن شقة الفتة الزرقاء التي يصطنعون منها ثياب النساء ستة ريالات وكان ثمنها على عهد الحكومة المصرية ثلاثة ارباع الريال . واصبح رطل السكر (الرطل ١٤٤ درهماً) بريالين . ومن الغريب ان غلاء الاثمان قاصر على البضائع الواردة من مصر اما ما يجلب من السودان فاثمانه بخسة بالنسبة الى تلك فالجمل مثلا يساوي ستين ريالاً والبقرة مائة ريال وارد ب الذرة ستة ريالات والخروف خمسة ريالات فا كثر

٣ — قواته

واما قواته ومقدارما كان عنده من الذخيرة والمؤونة قبيل ذهاب دولته فمعظمها من المشاة حملة السيوف والرماح وعددهم ٤٦٠٠٠ ومن الخيالة ٦٦٠٠ ومن العساكر الجهادية ٣٤٣٥٠ وجملة ذلك نحو مائة الف وخمسة آلاف مقاتل وعدد الاسلحة ٧٤ مدفعاً و٤٠٣٥٠ بندقية هذه قوات التعايشي الرسمية ولكنها كانت تتضاعف بما ينضم اليها من القبائل القائمة بنصرته

٤ — القضاء

كان القضاء منوطاً عندهم بالقضاة وكبيرهم يسمى « قاضي الاسلام » وجميعهم آلات صماء بيد التعايشي فلا يصدرون حكماً الا كما يوحيه هو اليهم ما خلا القضايا الطفيفة من الاحوال الشخصية وما شاكلها فقضاة الدراويش بهذا الاعتبار بين جاذبين قويين ضميرهم والاحكام الشرعية من جهة وارادة التعايشي من جهة اخرى وهاك اسماء قضاة ام درمان عام ١٨٩٥

(١) حسين ولد زهرة من قبيلة الجعالين
(٢) سليمان ولد الحجاز « « الحجاب
(٣) حسين ولد قيسو « « الحمر
(٤) احمد ولد حمدان « « العراقين
(٥) عثمان ولد احمد « « البطاحين
(٦) عبد القادر ولد ام مريم وكان قاضي كلاكلا على عهد الحكومة المصرية
(٧) محمد ولد المفتي وهو قاضي المواد الجزئية بين الملازمين

وهناك قضاة اخرون للقبائل الغربية اذا حضروا الجلسة لا يصدرون حكماً بل يبدون رايهم . اما شيخ الاسلام فهو حسين ولد زهرة المتقدم ذكره اول القضاة تلقى الفقه في مدرسة الجامع الازهر وهو اعلم اهل السودان كافة مع الميل الى العدالة وكثيراً ما اصدر احكاماً تنطبق على مقتضى الشريعة الغراء وتخالف ارادة التعايشي فاصبح التعايشي غير راض عنه تمام الرضى وقلما يدعوه لحضور الجلسات

واساس الاحكام عندهم الشريعة الاسلامية وتعاليم المهدي التي اشرنا اليها في كلامنا عن اوصاف المهدي وتعاليمه ويزعمون ان هذه التعاليم انما وضعها المهدي لاحياء ما كاد يندثر من احكام الشريعة الغراء بالاهمال . واهم تلك التعاليم الاعتقاد بان محمد احمد هو المهدي المنتظر حقيقة ومن شك في ذلك فعقابه القتل

وواجبات قاضي الملازمين الحكم فيما يعرض بين الملازمين او بينهم وبين عامة الناس

وفي الحالة الثانية فالحق دائماً في جانب الملازمين . وهناك قاضيان ملحقان ببيت المال ينظران في القضايا المتعلقة بالاحكام الشرعية من جهة بيع الرقيق وشرائه . وعندهم قاض يقيم في السوق ليحكم في الامور الخفيفة التي تعرض هناك

فتح ام درمان وذهاب دولة الدراويش

تلك حال حكومة الدراويش سنة ١٨٩٦ ثم توالى عليها النحس وجندت الحكومتان المصرية والانكليزية لقهرها بحملة مختلطة من الانكليز والمصريين بقيادة السردار

ش ١٠٦ : كتشنر باشا بعد فتح ام درمان

كتشنر باشا وجرت في اثناء الطريق من حلفا الى الخرطوم وقائع قاسى فيها الجند مشاق عديدة من جملتها واقعة الاتبرة وفيها قبضوا عَلَى الامير محمود ابن عم التعايشي وقيد اسيراً كما ترى في الشكل ١٠٧ مع نحو ٢٠٠٠ من رجاله وما كان معهم من الغنائم . واستعد السردار من هناك للزحف عَلَى ام درمان

و بلغ التعايشي ذلك فجمع ذوي شوراه فاشار عليه بعضهم بالهجرة فغضب وامر بضرب

ذلك الناصح وقال « اني محارب حتى اقتل » وامر بالتحصين وبناء الطوابي لاتقاء نيران مدافع العدو التي ستطلق عليهم من النيل . ولم يجده ذلك نفعاً فان الجنود المتحدة وصلت ام درمان في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وخرج التعايشي لملاقاتها . وبعد ثلاث هجمات متوالية اضطر التعايشي للفرار بعد ان يئس من الفوز وتحقق ان اخاه يعقوب قد مات .

ش ١٠٧ : الامير محمود ابن عم التعايشي وهو اسير

واحتل الجند المتحدام درمان و رفعوا عليها الرايتين المصرية والانكليزية ولما علم السردار بفراره بعث في اثره كوكبة من السواري ومعهم سلاتين باشا برًّا وارسل مدرعتين بحراً فعادوا ولم يدركوه

وفي اليوم التالي استولوا على اوراق الخليفة وكتبه من بيته . وامر السردار بنسف قبة

المهدي ونبش قبره وبعثت الجمجمة الى معرض التحف في لندن و بعثرت سائر عظامه . ثم قصدوا بيت يعقوب اخي الخليفة وكانوا يظنون المال فيه فلم يجدوا شيئاً وتحققوا بعدئذ ان بعض رجال يعقوب لما تحققوا موته اتوا وخلعوا الابواب واخذوا الاموال . ثم ذهبوا الى بيت المال فلم يجدوا فيه ما يستحق الذكر الا ٢٠٠ قنطار عاج . ثم ذهبوا الى سجن الخليفة واطلقوا من كان فيه من المساجين وكلهم من موظفي الحكومة وعددهم نحو ١٤٠٠ رجل بين ملكي وعسكري

و بعد قليل نزل السردار كتشنر باشا الى مصر ونال عَلَى هذا الفتح مكافأة جزيلة وسمي لورد الخرطوم ورقي الكولونيل ونجت بك مدير قلم المخابرات الى رتبة لواء وسمي ادجوتنت جنرال للجيش المصري . وحاولوا القبض عَلَى التعايشي عبثاً وكانوا كلما طلبوه من مكان فر الى سواه حتى علم ونجت باشا في اواخر سنة ١٨٩٩ ان التعايشي يتحفز للهجوم عَلَى ام درمان وعلم بمكانه فحمل عليه وحاربه في جديد حتى قتل في ٢٤ نوفمبر من تلك السنة وقتل معهُ الخليفة علي ود حلو واحمد فضيل والسنوسي احمد اخو الخليفة من امه وهارون محمد اخوهُ وغيرهم وغنموا ما كان معهم من الذخيرة والاموال وانقضت بذلك دولة الدراويش

وصارت السودان من ذلك الحين تحت سيطرة الدولتين الانكليزية والمصرية وسنذكر نص الوفاق في كلامنا عن ولاية سمو الخديوي الحالي

عود الى ولاية توفيق باشا

قد فرغنا من الكلام عَلَى الحوادث السودانية الى اخرها وان تجاوزنا زمن الخديوي السابق رغبة في ترابط الحوادث فلنعد الى ما كان من احوال مصر بعد ما ذكرناه عَلَى اثر الحوادث العرابية ونفي العرابيين فنقول :

اول شيء باشرته انكلترا بعد قهر العرابيين واعادة السيادة الى الجناب الخديوي انها انفذت اللورد دوفرين معتمداً من قبلها لتسوية المسائل المصرية وتنظيم تقرير بشأنها ولم يكن ذلك برضا الباب العالي . واخذ اللورد دوفرين منذ وصوله الى القاهرة يجتمع بالخديوي والوزراء و يتداول معهم في المسائل التي يجب النظر فيها بعد ان درس احوال البلاد و بحث بنفسه عن الامور التي كان عازماً عَلَى وضعها . ثم حرر تقريره المشهور وارسله الى لندن في ٦ فبراير سنة ١٨٨٣ م بحث فيه بحثاً دقيقاً في حالة مصر السياسية والقضائية والمالية ودقق عَلَى الخصوص بدبون الفلاحين . ثم شرع الانكليز في الغاء المراقبة الانكليزية الفرنساوية للانفراد بالعمل فكبر ذلك عَلَى فرنسا ولكنها لم تستطع امراً يمنع الغاءها فالغيت وجعل

ش ١٠٨ : اللورد دوفرين

في مكانها بامر الحضرة الخديوية موظف مصري دعوه مستشاراً مالياً وله الحق ان يحضر في جلسات مجلس النظار فتعين السير اوكلاند كولفن في هذا المنصب

اصلاحات جديدة

وفي اول مايو سنة ١٨٨٣ صدر الامر العالي بتشكيل المجالس الجديدة وغيرها على هذه الصورة :

١ مجالس المديريات : مجلس في كل مديرية ويكون لها ان تقرر رسوماً فوق العادة لصرفها في منافع عمومية تتعلق بالمديرية انما لا تكون قراراتها في هذا الشان قطعية الا بعد تصديق الحكومة عليها

٢ مجلس شورى القوانين : وفائدته النظر في القوانين التي تسن حديثاً قبل نشرها ولا يجوز اصدار قانون او امر يشتمل عَلَى لائحة ادارة عمومية ما لم يتقدم ابتداء الى هذا المجلس لاخذ رايه فيه . وان لم تعول الحكومة عَلَى رايه فعليها ان تعلنه بالاسباب التي اوجبت ذلك انما لا يترتب عَلَى اعلانه بهذه الاسباب جواز مناقشة فيها

٣ الجمعية العمومية : وهذه لا يجوز ربط اموال جديدة او رسوم على منقولات او عقارات او عوائد شخصية في القطر المصري الا بعد مباحثة الجمعية العمومية في ذلك واقرارها عليه

٤ مجلس شورى الحكومة : صدر الامر بتشكيله وتاجل بيان اعماله

ثم شرعت الحكومة في تنظيم الجيش المصري الجديد بعد ما الغت الجيش القديم على ما تقدم فانتخبت من الضباط من لم يكن له يدٌ في الحوادث العرابية واخذت بعد ذلك في تنظيم الجندرمة والبوليس وجعلت السير افلن وود قائداً عاماً للجيش المصري وباكر باشا قائداً للجندرمة والبوليس فكان عدد الجندرمة ٢٠٠٠ فارس و ٣٠٠٠ ماش . ثم تعين الجنرال السير افلن وود سرداراً للجيش المصري و رئيساً لاركان حربه . فاختار لمساعدته عدداً من الضباط الانكليز جعلهم في اركان حربه وعهد اليهم قيادة الفرق لتعليمها الحركات العسكرية

ثم نظمت المجالس المحلية ووضع لها قوانين عادلة وتعين لها رجال يقبضون على ازمتها وقد انصرف اليها همُّ اللورد دوفرين فتشكلت لجنة تحت رئاسة فخري باشا لانتقاء اللائقين الذين يجب انتخابهم ليعهد اليهم بالعمل والادارة . واهتم مجلس النظار في مسألة القضاة الاوربيين فقررت لجنة التعديل ان يكون في كل مجلس ابتدائي اوربيان وفي الاستئناف اربعة . وفي ٨ شعبان سنة ١٣٠٠ هـ (١٤ يونيو سنة ١٨٨٣ م) صدر الامر الخديوي بترتيب هذه المحاكم ولائحة قوانينها . ثم صدر الامر الخديوي بكل من القانون المدني والتجارة البرية والبحرية والمرافعات وتحقيق الجنايات

ثم اشارت انكلترا على مصر بعد تبديد جيش هيكس باشا باخلاء السودان . فقبلت ولم يقبل شريف باشا رئيس وزارتها فاستعفى وخلفهُ نوبار باشا في ٨ يناير سنة ١٨٨٤ وتكاثرت الاشاعات على اثر ذلك عن مقاصد انكلترا بمصر وكثر القيل والقال حتى بين رجال انكلترا انفسهم . ثم عقد مؤتمر دولي في يونيو سنة ١٨٨٤ في لندن تحت رئاسة اللورد غرانفيل ناظر خارجية انكلترا للبحث في امور كثيرة تتعلق بمصر فقرر تعديلات كثيرة انتهت بلا نتيجة فلا حاجة الى ذكرها

وفي ذي القعدة سنة ١٣٠١ هـ (اوائل سبتمبر سنة ١٨٨٤ م) وفد على القطر المصري اللورد نورثبروك معتمداً من انكلترا للنظر في المسألة المالية واحوال الادارة الداخلية مستصحباً معهُ القاضي الهندي سميع الله خان بناءً على رغبة اللورد في انتخاب قاض مسلم يصحبه الى مصر ويكون شريكاً له في هذه المهمة فتحدث الناس كثيراً بسبب قدوم هذا المعتمد . اما هو فاخذ في ملاحظة ما اتى من اجله وطاف البلاد شمالاً

وجنوباً . وبعد ان قضى اياماً طوالاً عاد الى بلاده وحرر تقريراً رفعهُ الى حكومته فلم يحز قبولاً فنسجت عليه عناكب النسيان

وعاد الباب العالي الى الاحتجاج على الاحتلال الانكليزي وبعد المخابرة مع انكلترا تمَّ الاتفاق في اكتوبر سنة ١٨٨٥ م على ارسال مختار باشا الغازي معتمداً عن

ش ١٠٩ : مختار باشا الغازي

الدولة العلية في مصر وان ترسل انكلترا معهُ معتمداً اسمه السير وولف . فجاء مختار باشا وما زال مقيماً الى عهد قريب احتجاجاً حياً على الاحتلال الانكليزي

النقود المصرية الجديدة

ثم اهتمت الحكومة باصلاح نقودها بانشاء نقود جديدة وما زالت المسألة تحت البحث الى اواخر سنة ١٨٨٥ م فصدر امر عال بتاريخ ٧ صفر سنة ١٣٠٣ هـ او ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٥ م مؤذن بضربها . وفي اواخر سنة ١٨٨٧ م ظهرت وتداولت الايدي وهي مبنية على حساب الكسور العشرية تسهيلاً للمعاملة . وكيفية ذلك انهُ

جعلوا قيمة الجنيه المصري مائة غرش كما كان قبلاً وقسموهُ الى الف جزء دعوا الواحد منها مليماً أي جزء من الف . فالمليم هو جزء من الف من الجنيه المصري والغرش عشرة مليمات والريال مائتا مليم (عشرون غرشاً) وهكذا . والجنيه واجزاؤه مصنوعة من الذهب والريالات واجزاؤها من الفضة والمليم ومركباته الى ابي العشر مليمات من النيكل . وقسموا المليم الى نصفين يعرف الواحد منهما بنصف عشر الغرش وقسموا كلا من هذين القسمين الى نصفين يعرف الواحد منهما بربع عشر الغرش أي جزء من اربعين من الغرش وهي البارة وجميع اجزاء المليم مصنوعة من النحاس

وترى في شكل ١١٠ مثال النقود المضروبة حديثاً وهذه القطعة تعرف بنصف ريال وقيمتها عشرة غروش او مائة مليم. وترى على احد وجهيها من الاسفل تاريخ سنة ١٢٩٣ هـ وهي السنة التي تولى بها السلطان عبد الحميد الخلافة العثمانية . ومن الاعلى رقم عشرة وهي السنة العاشرة من توليته وفيها ضربت هذه النقود . وترى على الوجه الآخر الطغراء العثمانية باسم عبد الحميد والى اسفلها رقم عشرة تحتهُ حرف ش للدلالة على قيمة هذه القطعة اي عشرة غروش

ش ١١٠ : النقود المصرية الجديدة

اما قيم النقود الاجنبية بالنسبة للنقود المصرية فعلى الوجه الآتي :

	بارة	غروش صاغ	او مليماً
الليرة الانكليزية تساوي	٢٠	٩٧	٩٧٥
« العثمانية «	٣٠	٨٧	٨٧٧½
« الفرنساوية (فانتي)	٠٦	٧٧	٧٧١½

ومتى عرفت قيم الليرات يمكنك استخراج قيم اجزائها

وفي السنة التالية (١٥ ابريل سنة ١٨٨٦) قررت الحكومة المصرية اقتضاء ضرائب المنازل من الاجانب كما كانت تقتضيها من الوطنيين . وكان الاجانب معفين منها الى ذلك الحين

وفاق بشأن الجلاء

وفي ١٧ ربيع آخر سنة ١٣٠٤ هـ او ١٣ يناير سنة ١٨٨٧ م الحّ الباب العالي على الحكومة الانكليزية ان تعين زمن انجلاء جيوشها عن القطر المصري . فاجابت انها لا يمكنها ذلك الا متى استتب النظام فيها. وفي ٣ فبراير تقرر ان يكون جيش الاحتلال منحصراً في ثلاثة مراكز فيقيم في القاهرة ٢٩٠٠ جندي وفي الاسكندرية ٩٠٠ وفي اصوان ٤٠٠٠ وفي ١٥ جمادى الاولى او ٩ فبراير اقترح السير وولف معتمد انكلترا في الاستانة على الباب العالي الاقتراحات الآتية بما يتعلق بمصر وهي :

١ استقلال مصر تحت سيادة جلالة السلطان والغاء العهود والامتيازات القنصلية

٢ ان تكون حالة مصر من قبيل الحياد على مثال حالة بلجيكا

٣ حرية المرور في قنال السويس في زمني الحرب والسلم

٤ اخلاء انكلترا للقطر المصري بعد ان تجمع الدول على وجوب ذلك

فتلقى جلالة السلطان هذه الاقتراحات بفتور وطلب ان يتقدم كل ذلك تحديد انكلترا زمن الجلاء . وبعد النظر في هذه الاقتراحات مدة يومين رفضت

و ٢٥ رجب سنة ١٣٠٤ هـ او ١٩ افريل سنة ١٨٨٧ م توفي شريف باشا رئيس مجلس النظار سابقاً وهو في اوربا يسعى في ترويح النفس فاسف الجميع على فقده وحملت جثته الى مصر ودفنت فيها

وفي ١١ شعبان او ٥ مايو منها عرضت انكلترا على الباب العالي ان يكون زمن احتلالها لمصر خمس سنوات فطلب الباب العالي ان يكون ثلاث سنوات ولم يتقرر شيء . وفي اوائل يونيو عرض على الباب العالي وفاق بينهُ وبين انكلترا بشأن مصر وهاك نصه :

١ تبقى مصر كما هي حسب نصوص الفرمانات السلطانية

٢ يبقى خليج السويس على الحياد وتضمن الدول سلامة مصر

٣ تبقى العساكر الانكليزية في مصر مدة ٣ سنوات وعند انقضائها يلبث الضباط الانكليز في رئاسة الجيش المصري سنتين

٤ لا تخرج انكلترا عساكرها من مصر بعد ختام السنة الثالثة من التوقيع على الوفاق اذا حدث اضطراب جديد في مصر داخليًّا كان ام خارجيًّا

٥ يحق لانكلترا احتلال مصر بمساعدة العساكر العثمانية اذا وقع اختلال بها او خشي ان ترسل دولة اجنبية عساكرها الى مصر

٦ تستدعي الدولة العلية وانكلترا بقية الدول للتصديق على هذا الوفاق وتطلبان من الدولة اجراء بعض التعديلات في المعاهدات الدولية المخولة للاجانب في مصر جملة امتيازات

وبعد المخابرات الطويلة بشأن هذا الوفاق رفض الباب العالي المصادقة عليه

وفي ٩ يونيو سنة ١٨٨٨ سقطت الوزارة النوبارية وعهد الخديوي بتشكيل وزارة جديدة الى رياض باشا والناس ما فتئوا منذ اعتزال رياض باشا الاعمال بعد حادثة عرابي يشخصون اليه بابصارهم وقد احاطت به آمالهم لما اشتهر به من الحب للشعب المصري ورغبته في اصلاح البلاد ولما له من الولع الخاص بالزراعة وهو مشهور بذلك شهرة تضاهي شهرته في حب العلم وتنشيط ذويه . ومن مبادئه حرية الضمير والصرامة في اتباع الحق من حيث هو . وكثيراً ما قاده ذلك الى التنحي عن قبول منصب الوزارة في الاحوال التي كان يخشى معها تقييد افكاره ومخالفة مبادئه . فعند ما سقطت الوزارة النوبارية لم يكن الناس يصدقون ان رياض باشا يقبل ان يشكل وزارة جديدة . فلما انبأهم البرق بجلوسه على دستها وتقلده اعمال نظارتي الداخلية والمالية كادوا يطيرون على اجنحة الآمال وتطاولت اعناقهم استطلاعاً لما سيكون من امر هذه الوزارة الجديدة

وفي ايام وزارته انشئت المحاكم في الصعيد وتم ترميم القناطر الخيرية . وقد ادار شؤون الحكومة بحزم وصدق نية لكنه اغضب كثيرين واضطر الى الاستقالة في ٢٤ مايو سنة ١٨٩١ فخلفه مصطفى باشا فهمي وظلت مقاليد الوزارة في قبضته حتى تولى الخديوي الحالي

عباس باشا حلمي

الخديوي الحالي

ولد سنة ١٨٧٤ وتولى العرش الخديوي سنة ١٨٩٢

ش ١١١ : عباس باشا حلمي الخديوي الحالي

حياته الشخصية

هو بكر الخديوي السابق ولد في ١٤ يوليو سنة ١٨٧٤ ولما توفي والده سنة ١٨٩٢ كان سموه اعزه الله في مدرسة فينا . وكان قبل ذهابه اليها قد تثقف في مدرسة عابدين التي شادها والده له ولدولة شقيقه البرنس محمد علي . فلما اتما دروسهما فيها ارسلهما والدهما الى مدرسة جنيف بسويسرة فمكثا فيها مدة يجدّان في تحصيل العلوم . ثم برحاها الى فينا وانتظما في مدرستها الملوكية العليا . وفي اثناء اقامتهما في تلك المدرسة استأذنا والدهما

المرحوم بالنجول في انحاء اوربا لاستطلاع احوال تلك المدنية من مصادرها . فزارا المانيا وانكلترا وروسيا وايطاليا وفرنسا ولقيا من ملوك هذه الممالك ترحاباً حسناً وزارا الممالك الاخرى

وفي سنة ١٨٨٩ عادا الى مصر واستأذنا والدهما المرحوم في زيارة معرض باريس لذلك العام فاجابهما الى ذلك فلقيا هناك ترحاباً جميلاً وعادا الى المدرسة . وفي سنة ١٨٩١ عادا الى مصر في اثناء راحة المدرسة ثم رجعا الى المدرسة في فينا . وفي ٨ يناير من السنة التالية عام ١٨٩٢ جاءهما النبأ البرقي بوفاة الخديوي السابق فاصبح سمو اكبرهما مولانا الامير خديوياً على مصر من ذلك اليوم . ثم جاءته رسالة الصدر الاعظم بتثبيته على ذلك العرش فاسرع الى مقر حكومته فوصل الاسكندرية في ١٦ يناير المذكور فاحتفل القطر بقدومه احتفالاً يليق بمقامه

واشتهر سمو الخديوي بانعطاف المصريين اليه اكثر مما الى كل خديوي سواه لما يلاقونه من دعته ولطفه وصدق محبته لهم . ويمتاز عصره عن عصور سائر اسلافه بنهضة الاقلام واتساع نطاق الصحافة واطلاق حرية المطبوعات وتكاثر المطابع والجرائد والمجلات والمكاتب وسائر عوامل النهضة العلمية

وهو اوسع الخديويين اطلاعاً على اسباب المدنية الحديثة لانه تثقف في مدارس اوربا مع كثرة اسفاره اليها والى الاستانة . ولد ولي عهده البرنس محمد عبد المنعم في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٩ وقد عهد بتعليمه وتثقيفه الى شكري باشا وهو من احسن العارفين بما يقتضيه منصب امير مصر من الاصول والقواعد التي يجب ان يروض بها ولي العهد

وقد سافر سموه الى الحرمين سنة ١٣٢٧هـ (١٩٠٩) لقضاء فريضة الحج فبرح موكبه القاهرة في ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٢٧ (١١ دسمبر سنة ١٩٠٩) فوصل جدة في ١٤ دسمبر وحلت ركابه في مكة فزار مناسك الحج وادى فرائضه وكان موضوع الاحترام والاعجاب حيثما حل ثم يمم المدينة فادى الزيارة وبرحها في ١٥ يناير سنة ١٩١٠ فوصل مصر في ٢٥ منه فزينت له العاصمة زينة لم يسبق لها مثيل

الوزارات في ايامه

وقد تقلب في ايام سموه وزراء هذه اسماء رؤسائها وتاريخ تشكيلها :

وزارة مصطفى باشا فهمي تشكلت	في ١٤ مايو سنة	١٨٩١
« رياض باشا	« ١٨ يناير «	١٨٩٣
« نوبار باشا	« ١٤ افريل «	١٨٩٤

وزارة مصطفى باشا فهمي تشكلت في ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٥
« بطرس باشا غالي « « ١٠ « « ١٩٠٨[1]
« محمد سعيد باشا « « ٢١ فبراير « ١٩١٠

وكل ما اجرته حكومة مصر على عهد الجناب الخديوي انما جرى على ايدي وزرائه شأن الحكومات الدستورية الكبرى مع ما تقتضيه حالة مصر السياسية من قبول مشورة المحتلين بلسان عميدهم . وكان العميد في اول حكم سمو الخديوي اللورد كرومر

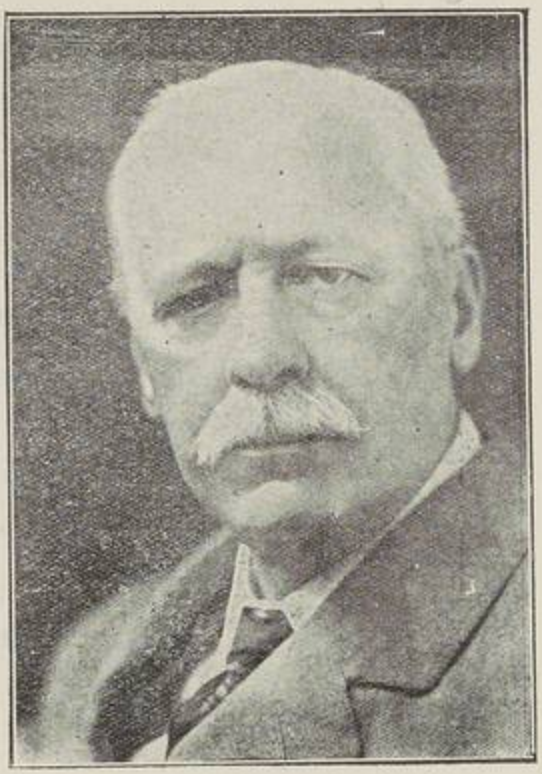

ش ١١٢ : اللورد كرومر

وما زال اللورد كرومر في هذا المنصب الى ٦ مايو سنة ١٩٠٧ فابدلته انكلترا بالسير الدون غورست . وفي زمن اللورد كرومر تمكن نفوذ الانكليز في مصر وكثر نوابهم في الحكومة المصرية وهم المستشارون . ولا تخلو نظارة من مستشار او وكيل

(١) يمتاز تاريخ بطرس باشا غالي عن تواريخ سائر وزراء مصر انه مات مقتولاً عمداً بيد شاب اسمه ابراهيم الورداني تربص له وهو خارج من النظارة في رابعة النهار واطلق عليه عدة رصاصات مات على اثرها ثم حوكم القاتل وقتل

فضلاً عن المفتشين والمهندسين والقضاة ورؤساء المصالح ومديريها وغيرهم . فاعمال الحكومة المصرية يجريها الوزراءُ باسم الجناب الخديوي وبمصادقة سموه ومشورة الانكليز . وتسهيلاً لتفهم الاعمال التي تمت على عهد سموه نقسمها الى ابواب نبحث في كل منها على حدة فنقول :

١ — الاعمال السياسية

نريد بهذا الباب ذكر ماجرى في زمن الجناب الخديوي مما يتعلق بالدول الاخرى وليس هو من قبيل ادارة البلاد الداخلية . واول تلك الاعمال تحديد تخوم مصر في الفرمان الشاهاني . فقد صدر الفرمان المذكور في ٢٧ شعبان سنة ١٣٠٩ او ٢٦ مارس ١٨٩٢ وفيه اختلاف عن الفرمان الصادر للمرحوم توفيق الخديوي السابق من حيث حدود مصر الشرقية عند شبه جزيرة سينا . فدارت المخابرات بين وزارة خارجية انكلترا والباب العالي بهذا الشأن حتى اصدر الصدر الاعظم ملحقاً تلغرافيا يخوّل الحكومة المصرية فيه ادارة شبه جزيرة سينا مؤرخاً في ٨ ابريل من تلك السنة . وهذا نص الفرمان المذكور بعد المقدمة :

فرمان الخديوي الحالي

« انه لدى وصول توقيعنا الهمايوني الرفيع يكون معلوماً لكم انه بناء على ما قضى به الله من انتقال جنتمكان محمد توفيق باشا خديوي مصر الى رحمته تعالى واعلاماً بجليل التفاتنا ونظراً الى حسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من ان لكم وقوفاً ومعلومات تامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفء لاصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المبينة في الفرمان الشاهاني الصادر بتاريخ ٢ ربيع الثاني سنة ١٢٥٧ هـ والمبينة ايضاً في الخريطة الملحقة بالفرمان المذكور مع الاراضي المنضمة اليها طبقاً للفرمان الشاهاني الصادر بتاريخ ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٨١ هـ وذلك بمقتضى ارادتنا الشاهانية الصادرة في ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ هـ ولانكم اكبر اولاد جنتمكان الخديوي المتوفى وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية توفيقاً للقاعدة المقررة بالفرمان الشاهاني الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ القاضي بان الخديوية المصرية تؤول الى اكبر الاولاد البكر فالبكر

« ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة اهليها ورفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا . ومن اجل مرغوبنا ومطلوبنا كنا وجهنا فرماناً شاهانياً

لتحقيق هذه الغاية الحميدة بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٩٦هـ الى جنتمكان والدكم بتوليته الخديوية المصرية وضمناه المواد الآتية :

« ان جميع ايرادات الخديوية المصرية يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهاني وحيث ان اهالي مصر ايضاً من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة امور المملكة الملكية والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع في حقهم ادنى ظلم ولا تعدّ في وقت من الاوقات . فخديوي مصر يكون مأذوناً بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة . وايضاً يكون خديوي مصر مأذوناً بعقد وتجديد المشارطات مع مأموري الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة امور المملكة الداخلية لاجل ترقي الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة والاجانب او الاهالي والاجانب مع امور ضابطة الاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات دولتنا العلية البوليتيقية وفي حقوق متبوعية مصر لها ولكن قبل اعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالي . وايضاً يكون حائزاً للتصرفات الكاملة في امور المالية لكنه لا يكون مأذوناً بعقد استقراض بوجه من الوجوه . وانما يكون مأذوناً بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسمياً وهذا الاستقراض يكون منحصراً في تسوية احوال المالية الحاضرة ومخصوصاً بها . وحيث ان الامتيازات التي اعطيت لمصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصت بها الخديوية واودعت لديها فلا يجوز لاي سبب او وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها او بعضها او ترك قطعة ارض من الاراضي المصرية للغير مطلقاً ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ الف ليرة عثمانية الذي هو الويركو المقرر دفعه في كل سنة في اوانه . وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر الفاً لان هذا القدر كاف لحفظ امنية بلاد مصر الداخلية في وقت الصلح . ولكن حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة كذلك من اجل دولتنا يجوز ان يزاد مقدار العساكر بالصورة التي تستدعي فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزات لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم . ويباح لخديو مصر ان يعطي الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة امير الاي والملكية الى الرتبة الثانية . ولا يرخص لخديوي مصر ان ينشيء سفناً مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية . ومن اللزوم المحافظة على كل الشروط

السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد اصدرنا امرنا هذا الجليل القدر الموشح اعلاه بخطنا الهمايوني وارسلناه »

« تحريراً في « ٢٧ شعبان المعظم سنة ١٣٠٩ من هجرة صاحب العزة والشرف »

وهذا تلغراف الصدر الاعظم المتمم له :

« معلوم لدى جنابكم العالي ان جلالة مولانا السلطان الاعظم كان قد صرح للحكومة المصرية بوضع عدد كاف من الجند بجهات الوجه والمويلح وطابا والعقبة الواقعة على شواطيء الحجاز . وكذلك في بعض جهات من شبه جزيرة طورسينا بسبب مرور المحمل المصري من طريق البر

« ولما كانت جميع هذه الجهات غير مبينة اصلاً في خريطة سنة ١٢٥٧ هـ المسلمة الى جنمكان محمد علي باشا المبينة بها الحدود المصرية لذلك اعيد الوجه اخيراً الى ولاية الحجاز بمقتضى ارادة شاهانية كما اعيد اليها طابا والمويلح وضمت العقبة كذلك الان الى الولاية المذكورة . اما من جهة شبه جزيرة طورسينا فهي باقية على حالتها وتكون ادارتها بمعرفة الخديوية المصرية بالكيفية التي كانت مدارة بها في عهد جدكم اسماعيل باشا ووالدكم محمد توفيق باشا » اه

حدود مصر من الشرق

ثم وقع خلاف في اواخر سنة ١٩٠٦ على تلك الحدود الفاصلة بين مصر والشام وبعد مداولات طويلة بين مصر والباب العالي اتفق الجانبان على تعيين لجنة ينتدبها الباب العالي واخرى تنتدبها مصر . وقد انتخبت اللجنتان واجتمعتا على الحدود واقرتا على اتفاقية رسمية مؤرخة في اول اكتوبر سنة ١٩٠٦ وهذا نص موادها المتعلقة بالحدود وصورة الخريطة التي رسمت لايضاح ذلك :

المادة الاولى — يبدأ الخط الفاصل الاداري كما هو مبين بالخريطة المرفقة بهذه الاتفاقية من نقطة راس طابا الكائنة على الساحل الغربي لخليج العقبة ويمتد الى قبة جبل فورت مارًّا على رؤوس جبال طابا الشرقية المطلة على وادي طابا ثم من قمة جبل فورت يتجه الخط الفاصل بالاستقامات الآتية — من جبل فورت الى نقطة لا تتجاوز مائتي متر الى الشرق من قمة جبل فتحي باشا ومنها الى النقطة الحادثة من تلاقي امتداد هذا الخط بالعامود المقام من نقطة على مائتي متر من قمة جبل فتحي باشا على الخط الذي يربط مركز تلك القمة بنقطة المفرق (المفرق هو ملتقى طريق غزة الى العقبة

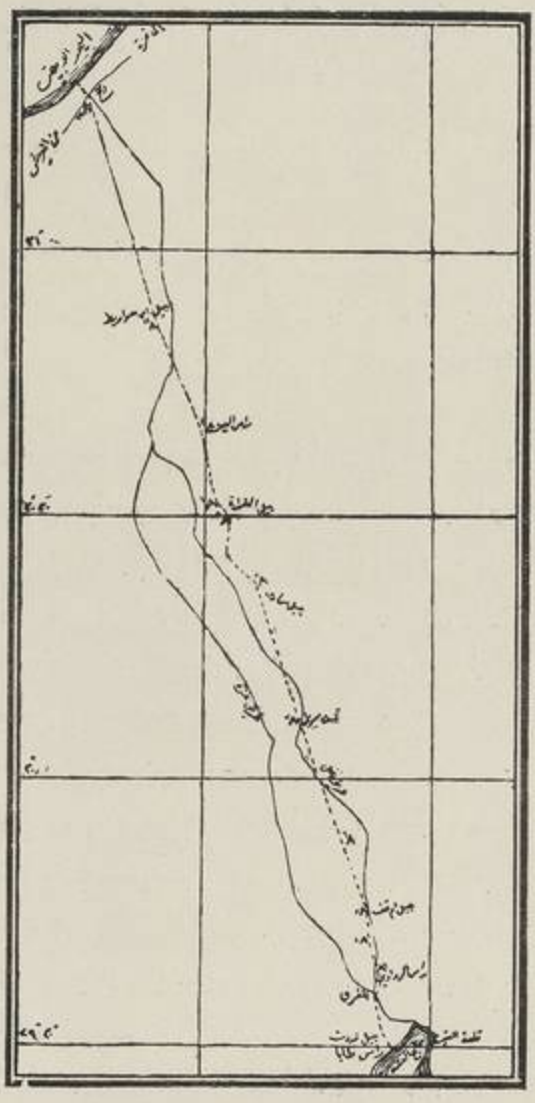

ش ١١٣ : خريطة الحدود بين مصر والشام

بطريق نخل الى العقبة) ومن نقطة التلاقي المذكورة الى التلة التي الى الشرق من مكان ماء يعرف بتميلة الردادي والمطلة على التميلة (بحيث تبقى التميلة غربي الخط) — ومن هناك — الى قمة راس الردادي المدلول عليها بالخريطة المذكورة اعلاه A. ٣ ومن هناك الي راس جبل الصفرة المدلول عليه A. ٤ — ومن هناك الى راس

القمة الشرقية لجبل ام قف المدلول عليها A ٥ ومن هناك الى نقطة مدلول عليها A ٧ الى الشمال من ثميلة سويلمه ومنها الى نقطة مدلول عليها A ٨ الى غرب الشمال الغربي من جبل سماوى — ومن هناك الى قمة التلة التي الى غرب الشمال الغربي من بئر المغارة (وهو بئر في الفرع الشمالي من وادي مايين بحيث تكون البئر شرقى الخط الفاصل) — ومن هناك الى A ٩ — ومنها الى A ١٠ غربي جبل المقراة — ومن هناك الى راس العين المدلول عليه A ١١ — ومن هناك الى نقطة جبل ام حواويط مدلول عليها A ١٢ ومن هناك الى منتصف المسافة بين عامودين قائمين تحت شجرة على مسافة ثلثمائة وتسعين مترًا الى الجنوب الغربي من بئر رفح والمدلول عليه A ١٣ ومن هناك الى نقطة التلال الرملية في اتجاه مائتين وثمانين درجة (٢٨٠) من الشمال المغناطيسي (اعني ٨٠ درجة الى الغرب) وعلى مسافة اربعمائة وعشرين مترًا في خط مستقيم من العامودين المذكورين — ومن هذه النقطة يمتد الخط مستقيماً باتجاه ثلثمائة واربعة وثلاثين درجة (٣٣٤) من الشمال المغناطيسي (اعني ٢٦ درجة الى الغرب) الى شاطيء البحر الابيض المتوسط مارًا بتلة خرائب على ساحل البحر الاحمر

المادة الثانية — قد دل على الخط الفاصل المذكور بالمادة الاولى بخط اسود متقطع في نسختي الخريطة المرفقة بهذه الاتفاقية والتي يوقع عليهما الفريقان ويتبادلانها بنفس الوقت الذي يوقعان فيه على الاتفاقية ويتبادلانها

المادة الثالثة — تقام اعمدة على طول الخط الفاصل من النقطة التي على ساحل البحر الابيض المتوسط الى النقط التي على ساحل خليج العقبة بحيث ان كل عامود منها يمكن رؤيته من العامود الذي يليه وذلك بحضور مندوبي الفريقين

المادة الرابعة — يحافظ على اعمدة الخط الفاصل هذه كل من الدولة العلية والخديوية الجليلة المصرية

المادة الخامسة — اذا اقتضى في المستقبل تجديد هذه الاعمدة او الزيادة عليها فكل من الطرفين يرسل مندوباً وتطبق مواقع العمد التي تزاد على الخط المدلول عليه في الخريطة

المادة السادسة — جميع القبائل القاطنة في كلا الجانبين لها حق الانتفاع بالمياه حسب سابق عاداتها اي ان القديم يبقى على قدمه فيما يتعلق بذلك وتعطى التأمينات اللازمة بهذا الشأن الى العربان والعشائر وكذلك العساكر الشاهانية وافراد الاهالي والجندرمة ينتفعون من المياه التي بقيت غربي الخط الفاصل

المادة السابعة ـ لا يؤذن للعساكر الشاهانية والجندرمة بالمرور الى غربي الخط الفاصل وهم مسلحون

المادة الثامنة ـ تبقى اهالي وعربان الجهتين على ما كانت عليه قبلاً من حيث ملكية المياه والحقول والاراضي في الجهتين كما هو متعارف بينهم « انتهى »

اتفاقية السودان

قد تقدم في كلامنا عن الحوادث السودانية ان السودان استرجع سنة ١٨٩٧ بحملة مؤلفة من الجندين الانكليزي والمصري فاقتضى ذلك ان يكون للدولتين معاً. وقد وضعتا وفاقاً بهذا الشأن وقعت عليه الحكومتان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ هذا نص مواده :

١ ـ تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الاراضي الكائنة الى جنوبي الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي :

اولاً الاراضي التي لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢

ثانياً الاراضي التي كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد

ثالثاً الاراضي التي قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الان فصاعداً

٢ ـ يستعمل العلم البريطاني والعلم والمصري معاً في البر والبحر بجميع انحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصري فقط

٣ ـ تفوّض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بامر عال خديوي بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته الا بامر عال خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية

٤ ـ القوانين وكافة الاوامر واللوائح التي يكون لها قوة القانون المعمول به والتي من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان او تقرير حقوق الملكية فيه بجميع انواعها وكيفية ايلولتها والتصرف فيها يجوز سنها او تحريرها او نسخها من وقت الى آخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز ان يسري مفعولها على جميع انحاء السودان او على جزء معلوم منه ويجوز ان يترتب عليها صراحة او ضمناً تحوير او نسخ اي قانون او اية لائحة من القوانين او اللوائح الموجودة

وعلى الحاكم العام ان يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل

الى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة والى رئيس مجلس نظار الجناب العالي الخديوي

٥ ـ لا يسري على السودان او على جزء منه شيء ما من القوانين او الاوامر العالية اوالقرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعداً الا ما يصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

٦ ـ ان المنشور الذي يصدره حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للاوروبيين من اية جنسية كانت بحرية المتاجرة او السكنى بالسودان او تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا اية دولة او دول

٧ — لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الاراضي المصرية حين دخولها الى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الاراضي المصرية . الا انه في حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن او اي مينا آخر من موانى ساحل البحر الاحمر لا يجوز ان تزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجاري تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج . ويجوز ان تقرر عوائد على البضائع التي تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت الى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن

٨ — فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على اية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه

٩ — يعتبر السودان باجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى ان يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام

١٠ — لا يجوز تعيين قناصل او وكلاء قناصل او مأموري قنصلاتات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

١١ — ممنوع منعاً مطلقاً ادخال الرقيق الى السودان او تصديره منه وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

١٢ — قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والذخائر الحربية والانبرية المقطرة او الروحية وبيعها او تشغيلها » اهـ

تحريرا بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

(الامضاءات) « كرومر » « بطرس غالى »

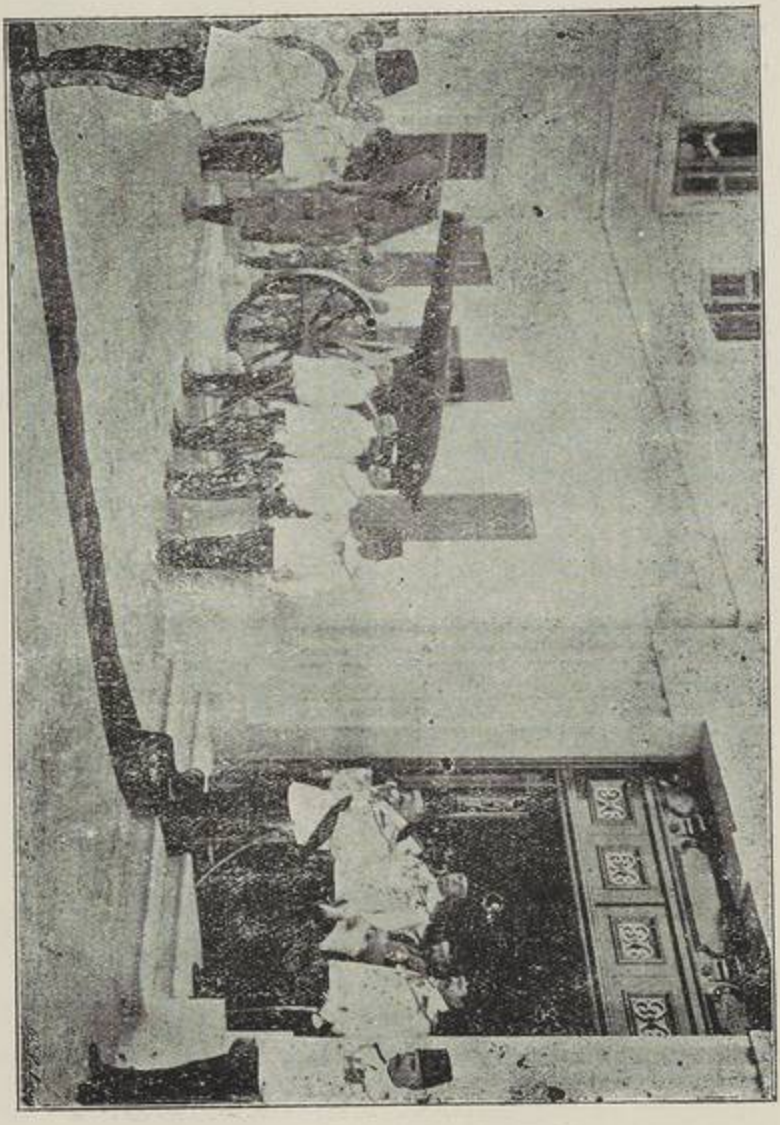

ش ١١٤ : الجناب الخديوي بدار خطابه امام سراي الخرطوم

وشرف سمو الخديوي السودان سنة ١٩٠٢ وزار الخرطوم فقوبل بالاحتفاء والاعظام وتلا في سراي الخرطوم خطاباً بمعنى الرضى عن حالة السودان ـ وهذا رسم سموه وهو يتلو الخطاب

الوفاق الانكليزي الفرنساوي

ومما يعد من قبيل الاعمال السياسية بمصر الاتفاق الذي عقد بين انكلترا وفرنسا في ٨ افريل سنة ١٩٠٤ فهو ذو شأن في سياسة مصر لان فرنسا اعترفت فيه باحتلال انكلترا مصر واطلقت يدها فيها وهذا نص الفقرة المتعلقة بذلك من الاتفاق المذكور :

« تصرح حكومة جلالة الملك (انكلترا) انها لا تنوي تغيير حالة مصر السياسية . وتصرح حكومة الجمهورية الفرنساوية انها لا تعيق عمل بريطانيا العظمى في مصر بطلب تحديد زمن الاحتلال الانكليزي او باي اسلوب آخر »

٢ — الاعمال الادارية

يصعب تحديد ما جرى من الاصلاحات الادارية في عهد الجناب الخديوي ولكن يقال بالاجمال ان معظم ما تم في زمن الاحتلال من الاصلاحات تم في عهد سموه . استهلت حكومته اعزه الله بالغاء السخرة وكانت المخابرات جارية بشأنها من قبل وقد صدرت عدة اوامر عالية تتعلق بها حتى صدر الامر القاضي عليها في ٢٨ يناير سنة ١٨٩٢ وقد صدّر بهذه المادة :

« تلغى السخرة في كامل انحاء القطر المصري »

وصدر امر سموه في هذا التاريخ بالغاء الضرائب التي كانت قد وضعت على الصنائع

وفي ايام سموه الغي نظام البوليس الذي كان متبعاً في زمن الخديوي السابق بامر عال صدر في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٤ ووضع النظام الحالي بناء على لائحة رفعها المرحوم نوبار باشا . وفي ظل سموه عدلت الضرائب بامر عال صدر في ١٠ مايو سنة ١٨٩٩

وفي ايامه الغيت الضرائب التي كانت على السفن المسافرة في النيل بامر عال مؤرخ في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٠ والغيت الدخولية وهي الضرائب التي كانت الحكومة تتقاضاها على الخضار والفاكهة ونحوهما مما يدخل المدن فالغيت من اول سنة ١٩٠٣ والغي احتكار الملح في اول سنة ١٩٠٦ وفي عهد سموه صفيت حسابات الدائرة السنية وبيعت البواخر الخديوية .

ومن الامور الادارية التي تمت في عهد سموه النفي الاداري الذي قررته الحكومة من عهد غير بعيد وقد افاد كثيراً

٣ — الاعمال الزراعية

ان اعمال الزراعية التي شرعت بها الحكومة المصرية على يد مصلحة الري من اوائل عهد الاحتلال لم تظهر ثمارها الا في عهد الجناب العالي فبعد ان كانت مساحة الاطيان الزراعية اقل من خمسة ملايين فدان ناهزت سبعة ملايين . وكانت البقاع التي تزرع قطناً عند ولاية سموه نحو ٩٠٠ ٠٠٠ فدان فصارت نحو ١٥٠٠ ٠٠٠ فدان . وكانت غلة القطن سنة ١٨٩١ نحو ٤ ٦٠٠ ٠٠٠ قنطار فصارت في العام الماضي نحو سبعة ملايين قنطار . واخذت تتحول ملكية الارض الى الفلاحين وكان عدد مالكي الاطيان في اول ولاية سموه نحو ٧٥٠ ٠٠٠ انسان فاصبح عددهم ١ ٣٥٦ ٠٠٠ نفس . ولا يخفى ما يدل عليه ذلك من توزع الثروة بين الناس . وفي ايامه انشئت مدرسة الزراعة وصارت هذه الصناعة تعلم قانونيا . وانشئت المعارض الزراعية وتألفت الشركات الزراعية والبنك الزراعي والنقابات الزراعية

ش ١١٥ : قناطر اسيوط

تمثيل النيل وخزاناته من الجنوب الى الشمال ا القناطر الخيرية في رأس الدلتا ب خزان اسيوط ج خزان اصوان د جزيرة فيلي وفيها خرائب انس الوجود ه الهويس الذي تسير به السفن

ومن المشروعات الزراعية قناطر اسيوط وهي على ٢٥٠ ميلاً جنوب القاهرة تولت انشاءها للحكومة شركة السير جون ايرد وشركاه بدات فيها في شتاء عام ١٩٠٢ وانتهت منه في ربيع سنة ١٩٠٨ وهي كالقناطر الخيرية شكلاً ولكنها تمتاز عنها بان القناطر الخيرية مبنية من القرميد وهذه من الحجر . طول قناطر اسيوط ٨٣٣ متراً وعددها ١١١ قنطرة عرض كل قنطرة خمسة امتار عليها ابواب من الحديد . وعلو القناطر من قاع النهر الى السطح ١٢ متراً ونصف متر وثخانتها عند القاعدة ٢٦ متراً ونصف متر وثخانتها عند السطح سبعة امتار وثمانون سنتيمتراً . والغرض من هذه القناطر اصلاح الري مدار السنة في مصر الوسطى والفيوم لانها اذا اقفلت اعاقت جري الماء فيرتفع نحو ثلاثة امتار فوق ارتفاعه الاعتيادي فيزيد مساحة الاراضي الزراعية نحو ٣٠٠٠٠٠٠ فدان تروى من ترعة الابراهيمية . ولقناطر اسيوط هويس لمرور السفن طوله ٨٠ متراً وعرضه ١٦ متراً

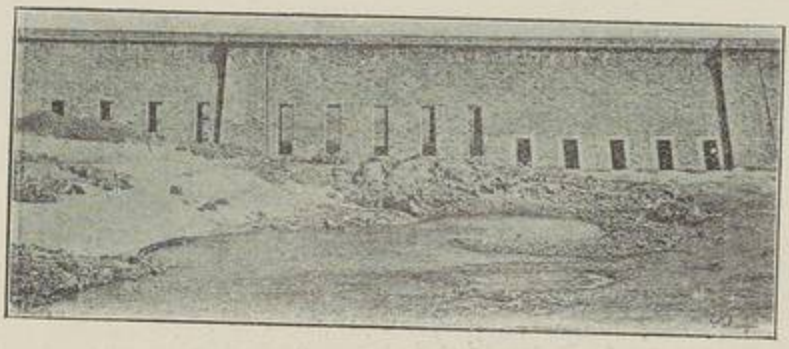

ش ١١٦ : خزان اسوان

اما خزان اسوان فهو اعظم مشروعات الري تولت انشاؤه الشركة المذكورة في اوائل سنة ١٨٩٩ وانتهى في اواخر سنة ١٩٠٢ مواده من حجر الغرانيت والسمنت والحصى . وبلغ وزن ما كانوا ينجزون عمله في اليوم الواحد ٢٦٠٠ طن طوله ٢٠٠٠ متر ويمتد من الجبل الشرقي الى الجبل الغربي . وعلوه يختلف من ٢٠ متراً الى ٤٠ باختلاف عمق قاع النهر . وثخانته عند قاعدته ٢٥ متراً وثخانة اعلاه او هو عرضه من فوق ٧ امتار . وفي جدار الخزان ١٨٠ فتحة هي نوافذ عليها الابواب من الحديد تختلف سعتها باختلاف مواضعها منها ١٤٠ نافذة مسطح الواحدة منها ١٤ متراً . واربعون نافذة مسطح الواحدة منها سبعة امتار

وقد وصفنا كيفية استخدامه في السنة ١١ من الهلال

٤ — النهضة المالية

ان النهضة المالية التي حصلت في زمن سموه لم يسبق لها مثيل من عهد بعيد. فتكاثر الذهب واثرى الناس وتوسعوا في اسباب العيش ولا سيما في اواسط العقد الاول من هذا القرن بارتفاع اثمان الاراضين فتألفت الشركات المالية العقارية والبنائية لاستثمار ارض البناء والاطيان الزراعية. ولولا تورط الناس في المضاربة لسلمت مصر من رد الفعل الذي احدث الازمة المالية منذ بضع سنين. ومع ذلك فان ثمار النهضة المالية لا تزال باقية وهي ظاهرة في الحكومة وفي الامة وفي الاسواق التجارية وفي كل شيء كما يتضح ذلك من المقابلة

فميزانية الحكومة المصرية كانت سنة ١٨٩٢ نحو عشرة ملايين جنيه فاصبحت الآن نحو ١٦ مليوناً. وكانت الواردات التجارية سنة ١٨٩٢ قيمتها اقل من عشرة ملايين جنيه فزادت في اثناء النهضة المالية على ٢٦ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه وبلغت في السنة الماضية نحو ٢٣ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه. وكانت الصادرات ١٣ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه فصارت نحو ٢٩ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه. وقد تكاثر انشاء بنوك الصيرفة واهمها البنك الاهلي انشىء سنة ١٨٩٨ ورأسماله ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ جنيه. والبنك الزراعي انشىء سنة ١٩٠٢ ورأسماله خمسة ملايين جنيه وغيرهما

ومن دلائل الثروة تكاثر الابنية واتساع المدن. وهذه القاهرة قد تضاعفت مساحتها مراراً عما كانت عليه قبلاً حتى كادت تتصل بضواحيها. غير ما انشىء فيها باثناء هذه النهضة من الابنية الفخيمة والقصور الباذخة. وعمرت الضواحي وانشىء بضواحيها بلد جديد لا مثيل له في سائر اقطار العالم نعني واحة عين شمس

واستحدث في ايام سموه بنك اقتصادي في مصلحة البوسطة المصرية منذ بضع سنوات بلغ عدد الذين اودعوا نقودهم فيه الى آخر العام الماضي نيفاً و٨٩ ٠٠٠ نفس وبلغ مقدار ما اودعوه ٣٥٧ ٠٠٠ جنيه استعانوا بها على امورهم

٥ — النهضة العلمية والحركة الفكرية

ان الحركة العلمية التي حدثت بمصر في اثناء العشرين سنة الاخيرة ظاهرة كالشمس بما انشأته الحكومة او ساعدت على انشائه من الكتاتيب والمدارس في انحاء القطر او بما ادخلته من التعديل في طرق التعليم وخصوصاً من حيث اللغة العربية. فقد كانت هذه اللغة يكاد يقضى عليها في المدارس المصرية فانتعشت الآمال باحيائها فاخذت

الحكومة في ارجاع التدريس اليها وانبثت روح التعليم في انحاء القطر وكثر الساعون في انشاء المدارس من اهل اليسار في الارياف ـ هذا من حيث المدارس الابتدائية

اما التعليم العالي فاهم ما حدث منه في هذا العصر مدرسة القضاء الشرعي والجامعة المصرية وبذلت العناية في تحسين حال الازهر وغيره من المدارس الكبرى . غير عناية الحكومة بالمعاهد العلمية كالمتحف المصري والمتحف العربي ودار الكتب الخديوية

ومن آثار الجناب الخديوي راساً في خدمة العلم والهيأة الاجتماعية عنايته في فن التمثيل فاوفد شاباً (جورج افندي ابيض) يتلقى هذا الفن على ارباب في فرنسا وقد عاد سنة ١٩١٠ ومعه جوق مثل عدة روايات في الاوبرا الخديوية على سبيل التجربة . ولا تزال عناية سموه موجهة الى تنشيط هذا الفن واحيائه في اللغة العربية

واكبر ادلة الحركة الفكرية ظهرت في الصحافة بما اطلقته لها الحكومة من الحرية فتكاثرت الجرائد والمجلات في ايام سموه وتشعبت مواضيعها وتألفت الاحزاب السياسية على اختلاف اغراضها ولكل منها جريدة اوغير جريدة تنطق بلسانه . وتألفت الشركات المالية لانشاء بعضها . وكبر حجمها وظهرت صبغتها الوطنية وتنوعت مواضيعها وتألفت لها نقابة صحافية . ويقال بالاجمال ان الصحافة المصرية بلغت في هذا العصر ارقى ما بلغت اليه في سائر الاعصر [1] بما صارت اليه من التأثير في الامة والحكومة . وقد رايت ان الحكومة المصرية كانت قد قيدت الصحافة بقانون انشأته سنة ١٨٨١ عرف بقانون المطبوعات فهذا القانون اخذت الحكومة في اهماله رويداً رويداً بعد الاحتلال واصبح في عهد الجناب الخديوي في حكم الملغى عرفاً . فرأت الحكومة بالعام الماضي (سنة ١٩١٠) ان تقيد المطبوعات لاسباب اقتضت ذلك فوضعت قانوناً جديداً هو تعديل القانون القديم

ومن آثار الحركة العلمية ايضاً انشاء الجمعيات الادبية والعلمية وتأسيس الاندية الاجتماعية واهمها نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في القاهرة . ولا يكاد يخلو بلد من البلاد الكبرى من ناد او جمعية على اختلاف مواضيعها

واتفق في امارة سمو الخديوي اضطراب احوال المملكة العثمانية والتغالب بين السلطان عبد الحميد واحرار مملكته . فكانت مصر ملجأ الفارين من الظلم او الطالبين للرزق من سائر الامم

ومن قبيل الحركة الفكرية في هذا العصر قيام نخبة من ادباء الشبان المسلمين

(١) تجد مقالة ضافية في تاريخ النهضة الصحافية في الهلال سنة ١٨ صفحة ٤٨٣

للاصلاح الديني وزعيمهم المرحوم الشيخ محمد عبده المصري المتوفى سنة ١٩٠٥
ومن هذا القبيل جنوح الناس الى الحكم الدستوري وارتفاع صوت الصحافة في طلب الدستور وتوسيع اختصاص الشورى

ش١١٧ : الشيخ محمد عبده

وزاد تألف الجمعيات الخيرية في زمن سموه وانتظمت نظارة الاوقاف وانصرفت عنايتها الى حفظ الآثار وترميم المساجد وبناء المعابد والمستشفيات الخيرية آخرها المستشفى العباسي . وتضاعفت نفقات الاوقاف الخيرية على المبرات والاحسان . فكانت يوم تولى الاريكة الخديوية ٨ ٢٧٦ جنيهاً فاصبحت للعام الماضي ٦٥ ٧٧١ جنيهاً
وبالاجمال فان مصر بلغت في العصر العباسي الحالي ما لم تبلغ اليه في العصور الماضية من حيث الرقي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري في ظل سمو الامير ايده الله

﴿ تم الجزء الثاني ﴾
﴿ وبه تم الكتاب ﴾

فهرس الجزء الثاني

من تاريخ مصر الحديث

صفحة

بيان ٣

الدولة العثمانية

نشأة الدولة العثمانية ٤
سلطنة السلطان سليم بن بيازيد ٩
« « سليمان القانوني ١٦
« « سليم بن سليمان ٢١
« « مراد بن سليم ٢٢
« « محمد بن مراد ٢٤
« « احمد بن محمد ٢٦
« « مصطفى وعثمان ٣٠
« « مراد بن محمد ٣٢
« « ابراهيم بن احمد ٣٨
« « محمد بن ابراهيم ٤٢
« « سليمان واحمد ٤٣
« « احمد بن محمد ٤٤
« « محمود بن مصطفى ٤٨
« « عثمان بن مصطفى ٥٤
« « محمد بن مصطفى ٥٥
علي بك الكبير ٥٦
سلطنة عبد الحميد الاول ٦٨
« سليم الثالث ٧٧

الحملة الفرنساوية

فاذا جرد الفرنساويون على مصر ٨٢

صفحة

حالة مصر عند قدوم الفرنساويين ٨٦
فتح الفرنساويين مصر ٨٨
الديوان العمومي ٩٧
« الخصوصي ١٠١
واقعة ابو قير ١٠٦
سياسة نابوليون بمصر ١١١
اصلاحات الفرنساويين بمصر ١١٨
حملة بونابرت على سوريا ١٢٢
رجوعها الى مصر ١٢٩
عود بونابرث الى فرنسا ١٣١
مقتل كلابر ١٣٧
الجنرال مينو ١٣٩
انسحاب الفرنساويين من مصر ١٤٢
من انسحاب الفرنساويين الى محمد علي ١٤٤

الدولة المحمدية العلوية

محمد علي باشا (صبوته) ١٤٧
ارتقاؤه منصة الاحكام ١٤٨
اعماله الحربية
حرب الوهابيين ١٥٥
مذبحة المماليك ١٥٨
فتح السودان ١٦٣
حرب المورا ١٦٥
فتح سوريا ١٦٥
خروج ابراهيم من سوريا ١٦٩

	صفحه
اواخر ايامه	١٧٣
اصلاحاته	
الاصلاح الاداري	١٧٤
« الزراعي	١٧٨
« العسكري	١٨٠
« التجاري	١٨٣
« الصناعي	١٨٧
« الصحي	١٨٧
« العلمي	١٩١
صفاته ومناقبهُ	١٩٥
ولاية ابراهيم باشا	١٩٨
« عباس الاول	١٩٩
« سعيد باشا	٢٠٠
« اسماعيل باشا	٢٠٢
ترجمة حياته	٢٠٣
قناة السويس . تاريخها	٢٠٦
عود الى اسماعيل	٢١٣
الديون المصرية	٢١٤
اعماله وآثاره	٢١٦
النهضة العلمية في ايامه	٢٢٢
صفاتهُ	٢٢٥
ولاية محمد توفيق باشا	٢٢٨
كيف كانت حالة مصر لما تولاها	٢٣٠
الثورة العرابية	
العرب والترك	٢٣٥
نشأة عرابي	٢٣٦
فوز العرابيين	٢٤١
تغير القلوب بين الخديوي والعرابيين	٢٤٢

	صفحه
مصر والدولة العثمانية	٢٤٥
مجلس النواب المصري	٢٤٦
انكلترا وفرنسا	٢٤٨
استفحال الثورة	٢٥٠
حادثة الاسكندرية	٢٥٤
ضرب «	٢٥٨
الاسكندرية بعد الضرب	٢٦١
مساعي العرابيين	٢٦٢
واقعة التل الكبير	٢٦٦
دخول الانكليز القاهرة	٢٦٨
محاكمة العرابيين	٢٦٩
الثورة المهدوية أو الحوادث السودانية	
السودان من فتح محمد علي الى المهدي	٢٧٢
اسباب الثورة المهدوية	٢٧٥
نشأة محمد احمد المهدي	٢٧٨
قيامه بالدعوة	٢٨١
مناهضة الحكومة لهُ	٢٨٢
سقوط كردفان	٢٨٤
حكومة المهدي	٢٨٥
حملة هيكس باشا	٢٨٧
السودان الشرقي	٢٩٣
اخلاء السودان	٢٩٤
غوردون باشا	٢٩٥
سقوط بربر ومهلك ستيوارت	٢٩٨
حصار الخرطوم	٣٠٠
سقوط «	٣٠٢
مقتل غوردون	٣٠٤
موت المهدي وخلافة التعايشي	٣٠٦

	صفحه
اوصاف المهدي	٣٠٧
تعاليم «	٣٠٩
السودان الشرقي	٣١٠
فتح مصر	٣١٢
واقعة توشكي	٣١٥
حكومة التعايشي	٣١٧
النقود والتجارة	٣٢١
القضاء	٣٢٢
فتح دارفور وذهاب دولة الدراويش	٣٢٣
عود الى ولاية توفيق باشا	
اصلاحات جديدة	٣٢٦
النقود المصرية	٣٢٨
وفاق بشأن الجلاء	٣٣٠
ولاية عباس باشا الخديوي الحالي	٣٣٢
الوزارة في ايامه	٣٣٣
الاعمال السياسية في ايامه	٣٣٥
فرمان ولايته	٣٣٦
حدود مصر في الشرق	٣٣٧
اتفاقية السودان	٣٤٠
الوفاق الانكليزي الفرنساوي	٣٤٣
الاعمال الادارية في ايامه	٣٤٣
الاعمال الزراعية	٣٤٤
النهضة المالية	٣٤٦
النهضة العلمية والحركة الفكرية	٣٤٧

(تم فهرس الفصول ويليه الفهرس الابجدي)

اصلاح خطأ

صفحة	سطر	ج	خطأ	صواب
١١٨	٢٣	١	الفسطاط	حلوان
١٣٦	٢	١	اللصوص	الفرص
٢٠٣	٢	١	مختار	بختيار

فهرس ابجدي

لاهم ما حواه هذا الكتاب من الاعلام والاغراض

صفحة

الآذان بمصر ١٤٩ ج ١
الآمر بن المستعلي . خلافته ٢٣٥ — ٢٣٨ ج ١
ابا . جزيرة ٢٧٩و٢٨٢ ج ٢
ابراهيم ابن احمد . سلطنته ٣٨ ج ٢
» بن الاغلب صاحب افريقية ١٦٥ ج ١
» باشا البرنس ٢٦٧ ج ٢
» الجوهري امين الاحتساب ٧٦ ج ٢
» بك شركسي من المماليك ٥٤ ج ٢
» بن صالح امير مصر ١٣١و١٣٣ ج ١
» بن الصوفي ١٥١و١٥٦ ج ١
» كخيا من امراء المماليك ١٥ ج ٢
» باشا بن محمد علي ١٦٣—١٦٩ و١٧٣و١٩٨ ج ٢
» » والي مصر ١٩و٢٢و٢٦ و٣١ ج ٢
ابغا خان بن هولاكو ٣٢٣ ج ١
ابن سعود زعيم الوهابيين ١٥٦ ج ٢
» كاتب الفرغاني المهندس ١٦٢ ج ١
» المدبر صاحب الخراج ١٥٠و١٥٤ ج ١
ابو بكر بن الناصر . سلطنته ٣٤٠ ج ١
ابو صالح (يحيى بن داود)
ابو طبق وعزل الباشوات ٦٩ ج ٢

صفحة

ابو العباس السفاح . خلافته ١٢٧ ج ١
ابو عون امير مصر ١٢٧ ج ١
ابو الفوارس بن علي امير مصر ١٩١ ج ١
ابو فيس ملك مصري ٣٥ ج ١
ابو قير . واقعتها ١٠٦ ج ٢
ابو مسلم الخراساني ١٢٦ ج ١
ابو الهول . هيكل مصري ٢٤ ج ١
ايس اله مصري ٢٤و٥١ ج ١
ابيفان بطليموس الخامس ٦٠ ج ١
اسامة بن عمر امير مصر ١٣١ ج ١
اتسر . امير تركماني ٢٢٧ ج ١
اثيوبيا . مملكة ٥٤ ج ١
الاحباش . حربهم مع الدراويش ٣١١ ج ٢
احمد بن ابراهيم . سلطنته ٤٣ ج ٢
احمد باشا ابوودان حاكم السودان ٢٧٣ ج ٢
احمد بن اسماعيل امير مصر ١٣٤ ج ١
» » ابي دواد الوزير ١٤٤ ج ١
احمد باشا الجزار ١١٥ ج ٢
احمد بك الدفتردار ١٦٤ ج ٢
احمد بن طولون ١٤٣و١٤٧و١٥٠ و١٥٤ — ١٧١ ج ١
احمد باشا الدفتردار والي مصر ٢٩ ج ٢
احمد العريشي شيخ الازهر ٧٤ ج ٢

حمد باشا الكورجي والي مصر ٣٥ ج ٢
احمد بن كيغلغ ١٨٣ ج١
» » محمد الاول . سلطنته ٢٦ ج٢
» » » الثالث » ٤٤ ج٢
» » المحمودي » ٣٥٢ ج١
» » مزاحم امير مصر ١٥٠ ج١
احمد باشا الوزير والي » ٤٢ ج٢
احمد الواسطي ١٥٣ ج١
احمد باشا والي مصر ١٩ ج٢
احمد بن بنال . سلطنته ٣٥٥ ج١
الادارة ايام محمد علي ١٧٤ ج٢
ارتحشارشا ملك اشور ٥٥ ج١
الارتقيون . دولتهم ٢٣٢ ج١
الارسالیات العلمية ايام محمد علي ١٩١ ج٢
اركاديوس امبراطور روماني ٦٧ ج١
الازبكية اصلها وانشاؤها ٣٣٧ ج١ و ٢٢١ ج٢
اسامة بن يزيد صاحب خراج مصر ١٢٠ ج١
استعراض جيش المهدي . كيفيته ٢٩٩ ج٢
استنس . ملك مصري ٢٤ ج١
اسحق بن سليمان امير مصر ١٣٣ ج١
اسحق بن كنداج امير الموصل ١٦٧ ج١
اسحق بن يحيى الجيلي امير مصر ١٤٥ ج١
اسد الدين شيركوه ٢٤٤ ج١
اسرحدون . ملك اشوري ٤٩ ج١
اسكندر الاول . بطليموس التاسع ٦١ ج١
» الثاني . » العاشر ٦١ ج١
» باشا الشركسي والي مصر ٢١ ج٢
» المكدوني ٥٧ ج١
» باشا والي مصر ٢٠ ج٢
الاسكندرية . فتح ابن العاص لها ٨٦ ج١
» فتحها ثانية ١٠٢ ج١
» حادثتها ٢٥٤ ج٢
» ضربها ٢٥٨ ج٢
الاسكندرية فتح الفرنساويين لها ٨٩ ج٢
الاسلام . مبدا دولته ٧٥ ج١
اسماعيل باشا ايوب ٢٦٩ ج٢
» » الخديوي . ولايته ٢٠٢ — ٢٢٧ ج٢
» » الفرمان بولايته ٢٠٤ ج٢
» » اعماله وآثاره ٢١٦ ـ ٢٢٥ ج٢
اسماعيل بك شيخ البلد ٤٥ و ٧١ و ٧٦ ج٢
اسماعيل بن عيسى امير مصر ١٣٤ ج١
» باشا بن محمد علي . مقتله ١٦٣ ج٢
» بن الناصر . سلطنته ٣٤٠ ج١
الاسماعيلية . طائفة ١٨٤ ج١
» . المدينة تاريخها ٢٢٠ ج٢
الاشرف اينال . سلطنته ٣٥٥ ج١
» برس باي » ٣٥٢ ج١
اشناس امير مصر ١٤١ ج١
الاطيان استرجاعها من المتعهدين ٢٠٠ ج٢
اعطيات الجيش ٩٣ ج١
اعنومر . ملك مصري ٢٦ ج١
افتكن . نصر الدولة ٢٣١ ج١
افرجيت الاول . بطليموس الثالث ٥٩ ج١

افرجيت الثاني بطليموس السابع ٦٠ ج ١
افريقية . فتحها ١٠٣ ج ١
الافضل امير الجيوش ٢٣١ ج ١
اكتافيوس القائد الروماني ٦٢ ج ١
الالبانيون . جند محمد علي ١٨٠ ج ٢
الالفي والبرديسي من المماليك ١٥٠ ج ٢
الالفي ومحمد علي ١٥٢ ج ٢
الهامي باشا ١٩٩ ج ٢
الياس بن منصور رئيس الاباضية ١٦٥ ج ١
اماجور التركي ١٥٢ و ١٥٣ و ١٦٠ ج ١
امبابه معركتها ٩٥ ج ٢
ام درمان ٣٠٦ و ٣١٩ و ٣٢٣ ج ٢
امنمحعت ملك مصري ٢٩ و ٣١ ج ١
امنوفيس ملك مصرى ٣٦ و ٣٨ و ٣٩ ج ١
اموزيس ملك مصرى ٣٥ و ٥٢ ج ١
الامين . خلافته ١٣٥ ج ١
انتف عا ٠ ملك مصري ٢٨ ج ١
انطونيوس القائد الروماني ٦٢ ج ١
الانكشارية ٠ تاريخهم ١٢ ج ٢
الانكليز بمصر بعد اخراج الفرنساويين ١٤٠ ج ٢
الانكليز ٠ دخولهم القاهرة ٢٦٨ ج ٢
انوبيس ٠ اله مصري ٢١ ج ١
انوجوربن الاخشيد ١٨٩ ج ١
اهرام الجيزة . بانيها ٢٥ و ٢٩٠ ج ١
اوسترتسن ملك مصري ٢٩ و ٣٠ و ٣١ ج ١
اوسوركون الاول ملك مصري ٤٦ ج ١
اوليتس بطليموس الحادي عشر ٦٢ ج ١
اوناس ملك مصري ٢٧ ج ١
الاويراتية ٠ طائفة ٣٣٢ ج ١
اويس باشا والي مصر ٢٣ ج ٢
ايبك الجاشنكير ٠ سلطنته ٣١٠ و ٣١١ ج ١
ايزيس ٠ الهة مصرية ١٩ ج ١
ايوب باشا والي مصر ٤٠ ج ٢
ايوب بن شرحبيل امير مصر ١٢١ ج ١
باكباك امير مصر ١٠٥ و ١٥٣ ج ١
باكوريس ملك مصري ٤٩ ج ١
بحر ابي المنجا ٢٣٦ ج ١
البجة . محاربتهم ١٤٤ ج ١
بدر الجمالي امير الجيوش ٢١٦ و ٢٢٥ ج ١
البربر (امة) ١١٣ و ٢١٧ ج ١
بربر (مدينة) سقوطها ٢٩٨ ج ٢
برديل ملك الصليبيين ٢٣٧ ج ١
البردي شجر البابيروس ٤٦ ج ١
البرديسي والالفي من المماليك ١٥٠ ج ٢
برقة ضمها الى مصر ١٢٩ ج ١
برقوق امير مصر ١٥٣ ج ١
برقوق سلطنته ٣٤٤ و ٣٤٥ — ٣٤٨ ج ١
البرقية . طائفة من الامراء ٢٤٥ ج ١
بشت . اله مصري ٢١ ج ١
بركة الحبش . غرسها ١١٩ ج ١
بركة خان بن بيبرس . سلطنته ٣٢٦ ج ١
بركة قارون في الفيوم ٣١ ج ١
بركة موريس ٣٢ ج ١
بروتس قاتل يوليوس ٦٣ ج ١

البريد على الخيل ٣٢٢ ج ١
البريد المصري . تاريخه ٢١٩ ج ٢
البساسيري ٢٨٥ ج ١
بسامتيك الاول ملك مصري ٥٠ ج ١
بسامتيك الثاني « « ٥٢ ج ١
بشر بن صفوان امير مصر ١٢٢ ج ١
بشير الشهابي . الامير ١٦٦ و ١٦٩ ج ٢
البطالسة ٥٧ — ٦٤ ج ١
البطريرك ميخائيل وابن طولون ١٧٢ ج ١
بغداد . بناؤها ١٢٨ ج ١
بكار بن قتيبة القاضي ١٦٣ ج ١
بكير باشا والي مصر ٨٩ ج ٢
بلباي ٣٢٦ و ٣٥٦ ج ١
بنيامين البطريرك ٩٣ ج ١
بهاء الدين زهير القاضي ٣٠٥ ج ١
بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين ٢٥٦ و ٢٧٢ و ٢٨٥ ج ١
بوغوص بك من اعوان محمد علي ١٨٦ ج ٢
بونابرت . سياسته بمصر ١١١ ج ٢
« منشوراته بمصر ٩١ و ١١٣ و ١١٧ و ١٢٠ و ١٢٢ و ١٢٥ ج ٢
بيازيد العثماني ٣٥٨ ج ١
بيبرس الجاشنكير . سلطنته ٣٣٥ ج ١
بيبرس البندقداري . سلطنته ٣١٨ ج ١
بيت المقدس . فتحه ٢٧٨ ج ١
بئر عفصة لابن طولون ١٥٥ ج ١
بيرام باشا والي مصر ٣٣ ج ٢
البيمارستان المنصوري بالقاهرة ٣٢٨ ج ١
بينوتريس ملك مصرى ٢٤ ج ١
تاريخ مصر الحديث . مصادره ٦٩ ج ١
تاريخ مصر العام . اقسامه ٩ ج ١
تاريخ مصر القديم . مصادره ١١ ج ١
تاكلوت الثاني ملك مصري ٤٦ ج ١
تانيس مدينة مصرية ٤٧ و ٩٧ ج ١
تتا ملك مصري ٢٣ ج ١
التجارة اصلاحها ايام محمد علي ١٨٣ ج ٢
تحرير الخادم بمصر ١٥٨ ج ١
تحوتمس ملك مصري ٣٦ و ٣٨ ج ١
التراويح . صلاتها بمصر ١٤٩ ج ١
تفنخت ملك مصري ٤٧ ج ١
تكين الخزري امير مصر ١٨١ ج ١
التل الكبير . واقعته ٢٦٧ ج ٢
التلغراف . اول انشائه بمصر ٢٠٠ ج ٢
تمربغا . سلطنته ٣٥٦ ج ١
توت اله مصري ٢١ ج ١
توسرتسن ملك مصري ٢٤ ج ١
توفيق باشا . الفرمان بولايته ٢٣٠ ج ٢
توفيق باشا الخديوي ولايته ٢٢٨ — ٣٣١ ج ٢
توفيق بك محافظ سواكن ٢٩٣ ج ٢
توم اله مصري ١٩ ج ١
تي رجل مصري قديم ٢٦ ج ١
تيمور لنك ٣٤٥ ج ١
الثورة العرابية ٢٣٤ — ٢٧٢ ج ٢
الثورة المهدوية . اسبابها ٢٧٥ ج ٢
ثيودوسيوس الاكبر نصير النصرانية ٦٦ ج ١

جابر بن الاشعث امير مصر ١٣٦ ج ١
جامع ابن طولون ١٦١ ج ١
الجامع الازهر. بناؤه وتاريخه ١٩٩-٢٠١ ج ١
الجامع الازهر . اعادة بنائه ٢٤ ج ٢
الجامع الازهر دخول الفرنساويين فيه ١١٥ ج ٢
جامع التنور لابن طولون ١٥٥ ج ١
جامع الحاكم ٢٠٩ ج ١
جامع السلطان حسن ٣٤١ ج ١
جامع الظاهر ٣٢٥ ج ١
جامع عمرو بن العاص ٩٤ ج ١
جامع عمرو . تذهيبه ٢١٤ ج ١
جامع عمرو . قرآن فيه ٧٩ ج ٢
جامع قلاوون ٣٢٩ ج ١
جانبلاط . سلطنته ٣٥٩ ج ١
جبل يشكر . حديثه ١٦١ ج ١
جرجس الجوهري ١١٧ ج ٢
جعفر باشا الوزير والي مصر ٣٠ ج ٢
جعفر باشا والي السودان ٢٧٣ ج ٢
جغرافية مصر الحديثة ٧١ ج ١
جغرافية مصر القديمة ١٥ ج ١
جقمق . سلطنته ٣٥٤ ج ١
جلاء الانكليز عن مصر . وفاق به ٣٣٠ ج ٢
جمال الدين الافغاني ٢٢٤ ج ٢
الجمعية العمومية . انشاؤها ٣٢٧ ج ٢
الجند في الدولة الفاطمية. تاريخه ٢١٧ ج ١
الجندية اصلاحها ايام محمد علي ١٨٠ ج ٢
الجوكار شارة الفرنساوية ١١٠ ج ٢
جوهر القائد فاتح مصر ١٩٢ ج ١
الجيزة . مدينة ٩١ ج ١
جيش بن خمارويه . حكمه ١٧٦ ج ١
الجيش المصري. انشاؤه ٢٦٩ ج ٢
حاتم بن هرثمة امير مصر ١٣٦ و ١٤٤ ج ١
حاجي بن شعبان. سلطنته ٣٤٢ ج ١
حاجي بن الناصر . سلطنته ٣٤٠ ج ١
حافظ احمد باشا والي مصر ٢٣ ج ٢
الحافظ بن محمد . خلافته ٢٣٨ ج ١
الحاكم بامر الله . خلافته ٢٠٧-٢١١ ج ١
حانون ملك غزة ٤٨ ج ١
الحبشة . حربها مع اسماعيل ٢١٣ ج ٢
الحبشة غزوها (راجع الاحباش) ١٢٩ ج ١
الحثيون . امة قديمة ٤٢ ج ١
الحج . طريقه ٣٢٢ ج ١
الحجاج بن يوسف حصاره مكة ١١٨ ج ١
حجر رشيد والهروغليف ١٣ ج ١
حدود مصر من الشرق ٣٣٧ ج ٢
الحر بن يوسف امير مصر ١٢٣ ج ١
حرحور . كاهن مصري ٤٤ ج ١
الحركة الفكرية في هذا العصر ٣٤٦ ج ٢
حسان بن عتاهية امير مصر ١٢٥ ج ١
حسن بك الجداوي امير الحج ٦٤ و ٧٦ ج ٢
حسن باشا الخادم والي مصر ٢٢ ج ٢
حسين بك شيخ البلد ٥٥ ج ٢
حسن قبطان باشا ٧٤ ج ٢
حسن بن الناصر . سلطنته ٣٤٠ ج ١
حسن باشا والي مصر ٤٤ ج ٢

حسن باشا الوزير والي مصر ٢٧ ج ٢
حسين « « « ٢١ ج ٢
حسين بن جميل امير مصر ١٣٤ ج ١
الحسين بن علي . قيامه ١١٤ ج ١
حسين باشا الوزير والي مصر ٣٦ ج ٢
الحشاشون ٢٣٧ ج ١
حصن بابل اودير النصارى ٧٧و٨٩ ج ١
الحصين بن نمير . محاصرته مكة ١١٥ ج ١
الحفص بن الوليد امير مصر ١٢٣و١٢٥ ج ١
الحكم على العرابيين ٢٧٠ ج ٢
الحكومة المصرية . نظامها ايام العثمانيين ١١ و١٦ ج ٢
حلوان (مصر) بناؤها ١١٨ ج ١
حليم باشا البرنس ٢٤٨ ج ٢
حملة انكليزية لانقاذ غوردون ٣٠١ ج ٢
حميد بن قحطبة . امير مصر ١٢٨ ج ١
حنظلة بن صفوان . امير مصر ١٢٢ ج ١
حنو . رجل مصري قديم ٢٩ ج ١
الحوثرة بن سهل . امير مصر ١٢٥ ج ١
الحوف . انتقاض اهله ١٣٤ و ١٣٨ ج ١
حورمحب . ملك مصري ٢٩ ج ١
حيان بن شريك امير مصر ١٢١ ج ١
خان الخليلي بمصر ١٩٩ و ٣٣٠ ج ١
الخراج . الزيادة فيه ١٣١ ج ١
الخرطوم . حصارها ٣٠٠ ج ٢
الخرطوم . خريطتها ٣١٩ ج ٢
« . سقوطها ٣٠٢ ج ٢
خزان اسوان . بناؤه ٣٤٥ ج ٢
خزانة الكتب للعزيز بالله ٢٠٦و٢٢٢ ج ١
خسرو باشا . والي مصر ١٤٥ ج ٢
الخصيب بن عبد الله امير مصر ١٣٥ ج ١
خضر باشا والي مصر ٢٤ ج ٢
الخطبة العباسية بمصر ٢٥٩ ج ١
الخطوط الحديدية اول انشائها بمصر ٢٠٠ ج ٢
خفرع . ملك مصري ٢٥ ج ١
الخلافة والعرب والترك ١٠ ج ٢
خالف بن ملاعب الكلابي ٢٣٥ ج ١
الخلفاء الراشدون . نقودهم ١١٢ ج ١
الخلفاء العباسيون في مصر ٣١٨ ج ١ و ٩ ج ٢
خليج امير المؤمنين سبب حفره ٩٩ ج ١
الخليج . فتحه زمن الفرنساوية ١٠٩ ج ٢
الخليج الناصري ٣٣٨ ج ١
خليل البكري (الشيخ) ٩٨ ج ٢
خليل باشا والي مصر ٣٥ ج ٢
خليل بن قلاون . سلطنته ٣٣٠ ج ١
خمارويه بن احمد ١٥٤ و١٧٢ ج ١
الخوارزميون . اصلهم ٣٠٤ ج ١
خورشد باشا . والي مصر ١٥٠ ج ٢
خورمخي . اسم هرم ٢٤ ج ١
خوش قدم . سلطنته ٣٥٦ « ١
خوط بن عبد الواحد بن يحيى امير مصر ١٤٥ ج ١
خوفو . ملك مصري ٢٥ ج ١
خونس . اله مصري ٢١ ج ١

خير بك والي مصر ١١ ج ٢
دارا • ملك الفرس ٥٤ ج ١
دار الحكمة • للحاكم ٢١٠ ج ١
داود باشا • والي مصر ١٩ ج ٢
داود بن يزيد • امير مصر ١٣٣ ج ١
دحية بن المعصب امير مصر ١٣١ ج ١
ددكارع • ملك مصري ٢٧ ج ١
الدراويش • لبسهم ٢٨١ ج ٢
درويش باشا مندوب السلطان الى مصر ٢٥٤ — ٢٥٩ ج ٢
الدستور • انشاؤه ٢٣٢ ج ٢
دكاد اجبسيان جريدة فرنساوية ١١٨ ج ٢
الدلاة • جند المغاربة ١٥١ و ١٨٠ ج ٢
دلسبس صاحب مشروع القناة ٢١١ ج ٢
دمياط • حروبها وفتوحها ٩٧ و ١٤٥ و ٢٥٧ و ٢٩٤ و ٣١٣ ج ١
الدنانير المنقوشة اول امرها ١١٨ ج ١
الدواوين ايام محمد علي ١٧٧ ج ٢
الدور الجاهلي من تاريخ مصر ٢٣ ج ١
دوفرين • تقريره ٣٢٥ ج ٢
الدولة الاموية • حكمها ١١٣ ج ١
الدولة الطولونية • اصلها ١٤٣ و ١٨٢ ج ١
الدولة العباسية قيامها وفسادها ١٢٦ و ١٢٧ و ١٩٤ ج ١
الدولة الفاطمية • حضارتها ٢٦١ ج ١
« « حكمها ١٩٢ — ٢٦١ ج ١
« « • مبدأها ١٨٤ ج ١
الدولة الملكية القديمة ٢٣ ج ١
دير النصارى او حصن بابل ٨٩ ج ١
الديوان ايام العثمانيين ١٦ ج ٢
الديوان الخصوصي زمن بونابرت ١٠١ ج ٢
الديوان العمومي « « ٩٧ ج ٢
ديوان المدارس ايام محمد علي ١٩١ ج ٢
الدواوين المصرية زمن اسماعيل وقبله ٢١٤ و ٢٣٣ ج ٢
ديوقليطيانوس مطارد المسيحيين ٦٥ ج ١
ذو الفقار بك من امراء المماليك ٤٤ و ٤٧ ج ٢
الراضي بالله • خلافته ١٨٣ ج ١
راغب باشا والي مصر ٥٣ ج ٢
راغب باشا • وزارته ٢٥٦ ج ٢
رضوان بك من امراء المماليك ١٥ ج ٢
رضوان بك امير المماليك ٤١ ج ٢
رع • اله مصري ١٨ ج ١
الرعاة من ملوك مصر ٣٣ ج ١
رعمسيس الثاني. فرعون مصري ٤١ ج ١
رفاعه بك الطهطاوي ١٩٣ ج ٢
رفح على حدود مصر ٧٧ ج ١
الرقيق. ابطال تجارته ورجوعها ٢٢١ و ٢٧٧ و ٢٩٦ ج ٢
رياض باشا • وزارته ٢٣٣ ج ٢
الريان بن الوليد فرعون مصري ٣٥ ج ١
ريكاردس قلب الاسد ٢٧٧ ج ١
زبير باشا ٢٦٠ و ٢٧٤ و ٢٩٤ ج ٢
الزبير بن العوام من الصحابة ٧٩ ج ١
الزراعة ايام محمد علي ١٧٦ و ١٧٨ ج ٢
زكا الرومي امير مصر ١٨١ ج ١

الزنج • ثورتهم ١٥٧ ج ١
ساحة عابدين • مظاهرتها ٢٤٢ ج ٢
السادات • الشيخ ٧٥ و ١١٠ ج ٢
سالم بن سوادة التميمي امير مصر ١٣١ ج ١
سامرا • بناؤها ١٤١ ج ١
سباقون • ملك مصري ٤٧ ج ١
سبسكاف • « « ٢٦ ج ١
السبع السواقي • بناؤها ٢٣٧ ج ١
سبك حتب الثالث ملك مصري ٣٢ ج ١
ستيوارت رفيق غوردون ٢٩٥ ج ٢
ستيوارت • مهلكه ٢٩٨ ج ٢
سحورع • ملك مصري ٢٦ ج ١
سدني الاميرال الانكليزي ١٣٥ ج ٢
سرجون • ملك اشوري ٤٨ ج ١
السري بن الحكم امير مصر ١٣٧ ج ١
سعيد الايسر صاحب الجيش ١٧٣ ج ١
سعيد باشا • ولايته ٢٠٠ ج ٢
سعيد بن يزيد امير مصر ١١٥ ج ١
سكينة بنت الحسين • وفاتها ١٢٣ ج ١
سلاتين باشا في دارفور وبعده ٢٩٢ و ٣٠٥ ج ٢
سلاطيس ملك مصر ٣٤ ج ١
سلامش بن بيبرس • سلطنته ٣٢٧ ج ١
السلجوقيون • اصلهم ٢٣٢ ج ١
سلطان باشا رئيس مجلس النواب ٢٤٧ ج ٢
سليم بن بيازيد العثماني ٣٦٠ ج ١ و ٩ ج ٢
سليم بن سليمان • سلطنته ٢١ ج ٢
سليم الثالث بن مصطفى • سلطنته ٧٧ ج ٢
سليمان بن ابراهيم • سلطنته ٤٣ ج ٢
سليمان الحابي قاتل كلابر ١٣٨ ج ٢
« بن عبد الملك • خلافته ١٢٠ ج ١
سليمان باشا الفرنساوي القائد ١٨١ ج ٢
سليمان الفيومي • الشيخ ٩٩ ج ٢
سليمان القانوني • سلطنته ١٦ ج ٢
سليمان باشا والي مصر ١٩ ج ٢
سنان باشا والي مصر ٢١ ج ٢
سنخ كارع ملك مصري ٢٩ ج ١
سوتر • بطليموس الاول ٥٧ ج ١
سوتر الثاني • بطليموس الثامن ٦١ ج ١
السودان • اتفاقيته ٣٤٠ ج ٢
السودان فتحه لمحمد علي ١٦٣ ج ٢
السودان الشرقي • احواله ٢٩٣ ج ٢
السودان • تاريخها الحديث قبل المهدي ٢٧٢ ج ٢
السودان • اخلاؤها ٢٩٤ ج ٢
السودان المصري . اقسامه ٧٣ ج ١
سوريا . فتحها لابراهيم باشا الى خروجه منها ١٦٥ — ١٦٩ ج ٢
سوريا حملة بونابرت عليها ١٢٣ — ١٢٩ ج ٢
سيتي الاول • ملك مصري ٤٠ ج ١
السيدة زينب • بناء مسجدها ٢٠٠ ج ٢
سيزوستريس . فرعون مصري ٤١ ج ١
سيف الدين قطز . سلطنته ٣٥٢ ج ١
« قطز « ٣١٦ ج ١
سيف الدولة ابن حمدان ١٨٧ ج ١
سيما الطويل ١٦٤ ج ١
سيمور الاميرال ٢٥٨ و ٢٥٩ ج ٢

الشافعي . الامام ١٣٧ج١
شاهين بك رئيس المماليك ١٥٣ج٢
شاور . الوزير ٢٤٣ج١
شجرة الدر مربية غياث لدين ٣٠٦ و٣٠٩ج١
شرف الدين هبة الله ٣١٤ج١
شركس بك شيخ البلد ٤٧ ج١
شريف باشا رئيس الوزارة ٢٣٢ و٢٤٤ و٢٦٥ج٢
ششنق الاول . ملك مصري ٤٥ ج١
شطا بن الهاموك صاحب دمياط ٩٧ ج١
شعبان بن حسن . سلطنته ٣٤٢ج١
شلمنصر . ملك اشوري ٤٨ ج١
شميليون والهيروغليف المصري ١٣ ج١
شيبان بن احمد حكمه ١٧٩ج١
الشيخ المحمودي . سلطنته ٣٥١ج١
صالح بن علي العباسي امير مصر ١٢٧ج١
الصالح بن الكامل . سلطنته ٣٠٤ج١
الصحافة بمصر . اقدمها ١١٨ج٢
» المصرية ايام اسماعيل ٢٢٠ج٢
صقلية ٢٢٩ج١
صلاح الدين الايوبي . صباه الى وزارته ٢٤٤ و٢٥١ و٢٥٤ج١
» » » . سلطنته ٢٦٦ و٢٨٩ و٣٤٠ج١
الصليبيون . حروبهم ٢٣٣ و٣٢١ج١
» في القاهرة ٢٤٩ج١
صموئيل باكر في خط الاستواء ٢٧٤ج٢
الضابطة ايام محمد علي ١٧٧ج٢
ظاهر العمر صاحب عكا ٥٦ و٦٠ و٧٠ج٢
الضحاك بن قيس نصير بن الزبير ١١٦ج١
ضحية النيل ٩٢ ج١
الضرائب في الدولة العباسية ١٣٠ج١
» » السودان ٢٧٦ج٢
ضرغام القائد ٢٤٤ج١
الطائف . جريدة العرابيين ٢٥٠ج٢
طاهر بن الحسين . وفاته ١٣٨ج١
الطب والصحة اصلاحها ايام محمد علي ١٨٧ج٢
طرابلس الغرب . فتحها ١٠٠ج١
الطريقة السمانية في السودان ٢٧٩ج٢
طغج بن جف التركي ١٢٧ج١
طلائع بن رزيك . الملك الصالح ٢٤١ج١
طهراق . ملك مصري ٤٩ ج١
طوسون باشا . حملته على الحجاز ١٥٨ج٢
طولون . اصله ١٤٣ج١
طومان باي الاشرف . سلطنته ٣٦١ج١
» » » ٣٥٩ج١
الظافر بن الحافظ . خلافته ٢٤٠ج١
الظاهر بن الحكم » ٢١١ج١
» ركن الدين بيبرس سلطنته ٣١٨-٣٢٦ج١
عابس بن سعيد امير مصر ١١٤ج١
العادل بن الكامل . سلطنته ٣٠٣ج١
» كتبغا » ٣٤١ج١
العاضد بن يوسف . خلافته ٢٤٢-٢٦١ج١
عباد بن ابراهيم امير مصر ١٣٨ج١

عبادة بن الصامت الصحابي ٧٩ - ٨٣ ج ١
العباس بن احمد بن طولون ١٦٤ ج ١
عباس باشا الاول . ولايته ١٩٩ ج ٢
» الخديوي الحالي ٣٣٢-٣٤٤ ج ٢
العباس بن موسى . امير مصر ١٣٧ ج ١
عبد الحميد الاول . سلطنته ٦٨ ج ٢
عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ ١٠٤ ج ٢
» بن عتبة امير مصر ١١٦ ج ١
» » عدس من الصحابة ١٠٤ ج ١
» » عمر بن قحزم امير مصر ١٩ ج ١
عبد الرحمن باشا الوزير والي مصر ٤٣ ج ٢
عبد العزيز السلطان قدومه لمصر ٢١٣ ج ٢
» بن برقوق . سلطنته ٣٤٩ ج ١
» » مروان امير مصر ١١٧ ج ١١
عبد اللطيف البغدادي رايه بالاهرام ٢٩٠ ج ١
عبد الله التعايشي مجيئه الى المهدي ٢٨١ ج ٢
» » خليفة » ٣٠٦ ج ٢
» » حكومته ونظامها ٣١٧ ج ٢
» بن الزبير . قيامه ١١٤ ج ١
» » سعيد امير مصر ١٠٣ ج ١
» الشرقاوي . الشيخ ٩٧ ج ٢
» بن عبد الرحمن امير مصر ١٢٩ ج ١
» » عبد الملك امير مصر ١١٨ ج ١
» بن عمرو بن العاص ١١٧ ج ١
» باشا فكري ٢٤٧ ج ٢
» بن قيس بن الحارث امير مصر ١١٣ ج ١
» » محمد العباسي امير مصر ١٣٤ ج ١
» » المسيب » ١٣٣ ج ١
عبد الله نديم خطيب العرابيين ٢٤٤ و ٢٦٨ ج ٢
» باشا والي عكا ١٦٥ ج ٢
عبد الملك بن رفاعة امير مصر ١١٩ و ١٢٣ ج ١
» » صالح . امير مصر ٣٣ ج ١
» » مروان . خلافته ١١٨ ج ١
» » موسى . امير مصر ١٢٥ ج ١
عبدويه بن جبلة » ١٣٨ ج ١
عبيد الله بن المهدي » ١٣٣ ج ١
» المهدي الفاطمي ١٨٤ ج ١
عتور . اله مصري ٢١ ج ١
عثمان بن احمد . سلطنته ٣٠ ج ٢
عثمان بن جقمق » ٣٥٤ ج ١
عثمان باشا رتقي ناظر الجهادية ٢٣٧ و ٢٠٢ ج ٢
عثمان بك شيخ البلد ٤٩ ج ٢
عثمان بن عفان خلافته ومقتله ١٠٠ و ١٠٣ ج ١
عثمان بن محمد . سلطنته ٥٤ ج ٢
عرابي . نشأته ٢٣٦ ج ٢
عرابي في القاهرة ٢٦٧ ج ٢
العرابيون . فوزهم ٢٤٠ ج ٢
العرابيون . محاكمتهم ٢٦٨ ج ٢
العرب . قطع العطاء عنهم ١٤١ ج ١
» والترك بمصر ٢٣٤ ج ٢
العزيز بالله . خلافته ٢٠٣ — ٢٠٦ ج ١
» بن يوسف . سلطنته ٢٨٩ ج ١
العسكر . محلة بمصر ١٢٩ و ١٣١ و ١٥٢ ج ١
عقبة بن عامر . امير مصر ١١٤ ج ١
عكا حصار الفرنساويين لها ١٢٧ ج ٢

العلم . اصلاحاته ايام محمد علي ١٩١ج٢
علي باشا والي مصر ٣٢ ج٢
» بن ابي طالب . خلافته ١٠٥ج١
» » الاخشيد . حكومته ١٩٠ج١
» باشا الجزائرلي والي مصر ١٤٩ج٢
» » السلحدار » ٢٥ ج٢
» بن سليمان امير مصر ١٣٢ج١
» » شعبان . سلطنته ٣٤٣ج١
» باشا الصوفي والي مصر ٢٠ ج٢
» » » ٢٠ ج٢
» بك الكبير . استقلاله بمصر ٥٦ — ٦٧ج٢
» بك الكبير . نشأته ٥٢ ج٢
» كخيا الطويل . من الامراء ١٥ ج٢
» باشا مبارك وزير المعارف ٢٢٣ج٢
» بن موسى . مبايعته ١٣٧ج١
» يحيى الارمني امير مصر ١٤٤ و ١٤٥ج١
عمر بن الخطاب ٧٥ ج١
عمر بن عبد العزيز . خلافته ١٢١ج١
» » غيلان صاحب الخراج ١٣٣ج١
» » قحزم الخولاني ١١٥ج١
عمرو بن العاص فاتح مصر ٧٦ — ١١٠ج١
عمير بن الوليد امير مصر ١٣٨ج١
عنبة بن اسحق » ١٤٥ج١
عهد الامان للمصريين من ابن العاص ٨٤ ج١
عيد الشهيد عند الاقباط ٣٣٧ج١
عيسى بن ابي العطاء امير مصر ١٢٤ج١
» » دينار امير الاسكندرية ١٥٣ج١
» » لقمان امير مصر ١٣٠ج١
عيسى النوشري امير مصر ١٨١ج١
» بن منصور » ١٣٨ و ١٤٤ج١
» » يزيد الجلودي امير مصر ١٣٨ج١
غالب شريف مكة ١٦١ج٢
غوردون باشا في خط الاستواء ٢٧٤ج٢
» » لاخلاء السودان ٢٩٤ج٢
» » . نقوده ٣٠٠ج٢
» » . مقتله ٣٠٤ج٢
الفارس اقطاي ٣١٣ج١
الفاطميون . نسبهم ٢٠٠ج١
الفائز بن الظافر . خلافته ٢٤١ج١
فتاح . اله مصري ١٨ و ٢٣ج١
الفتنة بين العبيد والاتراك ٢١٩ج١
فرج بن برقوق . سلطنته ٣٤٨ و ٣٥٠ج١
الفرما . مدينة مصرية ٧٧ ج١
فرنسا والمسألة العرابية ٢٥١ج٢
الفرنساويون انسحابهم من مصر ١٤٢ج٢
الفرنساويون اخراجهم من مصر ١٣٣ — ١٤٣ج٢
الفسطاط عاصمة مصر ٨٩ و ١١٧ و ١٢٩ و ١٥٢ و ٢٥٠ و ٢٥٣ج١
الفضل بن الربيع . دسيسته ١٣٥ج١
فيلوباتر . بطليموس الرابع ٥٩ ج١
فيلاذلفوس » الثاني ٥٨ ج١
فيلوماتر » السادس ٦٠ ج١
قاسم باشا والي مصر ١٩ ج٢
» بك شيخ البلد ٤٤ ج٢
قانون المطبوعات ٢٤٧ج٢

القاهر بيدرا . سلطنته ٣٣٠ج١
» بن المعتضد . خلافته ١٨٢ج١
القاهرة المعزية . بناؤها وتاريخها ١٩٥
و ١٩٨و٢٧٤ج١
قايت باي . سلطنته ٣٥٧ج١
القائم بامر الله الفاطمي ١٨٤ج١
قبالات الاراضي ٩٤ ج١
قبة الهواء . اصل بنائها ١٣٦ج١
القبط . خروجهم من سخا ١٢٩ج١
قحط عظيم في السودان ٣١٦ج٢
القرامطة . اصلهم ١٧٨ج١
قرة بن شريك امير مصر ١١٩ج١
القضاء عند التعايشي ٣٢٢ج٢
القطائع . بناؤها وخرابها ٥٢ و١٧٩ج١
قطر الندى بنت خمارويه ١٧٦ج١
القطن . نقله الى مصر ١٧٨ج٢
القلانس . لبسها ١٣١ج١
قلاون . سلطنته ٣٢٣و٣٢٧و٣٣٠ج١
قلعة القاهرة . بناؤها ٢٧٣ج١
قليدوروث ملك النوبة ١٠٣ج١
قناة السويس . تاريخها ٢٠٦—٢١٣ج٢
قناطر اسيوط ٣٤٤ج٢
القناطر الخيرية . بناؤها ١٧٨ج٢
قناطر السباع ٣٢٥ج١
قنسو ابو سعيد . سلطنته ٣٥٩ج١
» خمسمية . سلطنته ٣٥٩ج١
» الغوري . سلطنته ٣٦٠ج١
قنطرة الخليج الكبير . بناؤها ١١٨ج١
قورش . ملك الفرس ٥٣ ج١
قيس بن سعد صاحب راية الانصار ١٠٧ج١
» قبيلة . انتقالها الى مصر ١٢٣ج١
القيسية . قتلهم ١٣٤ج١
كاترينا الثانية . امبراطورة الروس ٦٢ج٢
كافور الاخشيدي امير مصر ١٨٧و١٩١ج١
الكامل بن العادل . سلطنته ٢٩٦ج١
كايه خوس . ملك مصري ٢٤ ج١
كتاب النبي . صورته ٧٦ ج١
كتشنر باشا . فاتح ام درمان ٣٢٣ج٢
كجك بن الناصر . سلطنته ٣٤٠ج١
كردوفان . سقوطها ٢٨٤ج٢
الكعبة . احراقها ١١٥ج١
كلابر . ولايته على مصر ١٠٨و١٣٢ ج ٢
» مقتله ١٣٧ ج ٢
كلوت بك الدكنور ١٨٧ ج ٢
كليوبيطرا ابنة انطيوخوس ٦٠ ج ١
» بنت اوليتس ٦٢و٦٤ ج ١
كمبز . ملك الفرس ٥٣ ج ١
الكنعانيون امة قديمة ٤٢ ج ١
كنوم اله مصري ٢١ ج ١
الكنيسة هيكل مصري ٢٥ ج ١
كنيسة ابي سرجة ٩٠ ج ١
كوريه ديجيبت جريدة فرنساوية ١١٨ج١
كوكه . هرم ٢٣ ج ١
كيدر الصفدي امير مصر ١٣٩ ج ١
لابرانتا . بناء مصري ٣٢ ج ١
لولؤ غلام ابن طولون ١٦٦ ج ١

لويس التاسع ملك الصليبيين ٣٠٥
و ٣٠٧ و ٣٠٩ ج ١
الليث بن الفضل امير مصر ١٣٤ ج ١
لينان باشا المهندس ١٧٩ ج ٢
ما • اله مصري ٢٠ ج ١
مارستان ابن طولون ١٥٦ ج ١
ماريت باشا مؤسس المتحف المصري
٢١٦ ج ٢
الماسونية الوطنية . انشاؤها ٢٢٣ ج ٢
مالك الهندي امير مصر ١٤١ ج ١
المأمون الخليفة ١٣٢ و١٣٧ و١٣٩ ج ١
مبايعة المهدي • صورتها ٢٨٣ ج ٢
المتحف المصري . تاريخه ٢١٦ ج ٢
المتقي لله الخليفة ١٨٦ ج ١
المتوكل على الله خلافته ١٤٤ ج ١
مجاعات . وصفها ٢١٢ و٢٢٤ و٢٩٢
و٣٤٢ ج ١
مجالس القضاء ايام محمد علي ١٧٧ ج ٢
مجالس القضاء الاهلي • اصلها ٢١٨ ج ٢
المجالس المختلطة • اصلها ٢١٨ ج ٢
مجالس المديريات • انشاؤها ٣٢٦ ج ٢
مجلس حسبي القاهرة • انشاؤه ٢١٨ ج ٢
مجلس شورى الحكومة • تشكيله ٣٢٧ ج ٢
مجلس شوري القوانين ٣٢٦ ج ٢
مجلس المعارف ايام محمد علي ١٩١ ج ٢
مجلس النظار • اول انشائه ٢١٥ ج ٢
مجلس النواب . اصله بمصر ٢١٨ ج ٢
مجلس النواب . اجتماعه ٢٤٥ و٢٤٦
و٢٤٩ ج ٢
محفوظ بن سليم صاحب الخراج ١٣٤ ج ١
محكمة القضايا زمن بونابرت ١٠٤ ج ٢
محمد باشا والي مصر (اشخاص مختلفة)
٢٤ و٢٧ و٣١ و٣٣ و٤٣ و ٥٨ ج ٢
محمد بن ابراهيم • سلطنته ٤٢ ج ٢
محمد بن ابي بكر . مقتله ١٠٥ — ١١٠ ج ١
محمد بن ابي حذيفة من الصحابة ١٠٤ ج ١
محمد بن اتامش صاحب الرقة ١٦٤ ج ١
محمد باشا بن احمد باشا والي مصر ٣٧ ج ٢
محمد احمد المهدي . اصله ومنشأه ٢٧٨ ج ٢
محمد الاخشيد (بن طغج) حكمه
١٨٥ — ١٨٩ ج ١
محمد بن الاشعث امير مصر ١٢٨ ج ١
محمد بن حاجي • سلطنته ٣٤٢ ج ١
محمد باشا حيدر والي مصر ٤١ ج ٢
محمد بك ابو الذهب ٥٨ — ٦٧ ج ٢
محمد بن زهير امير مصر ١٣٣ ج ١
محمد بن السري امير مصر ١٣٨ ج ١
محمد بن سليمان امير مصر ١٣٠ ج ١
محمد الشريف استاذ المهدي ٢٧٩ ج ٢
محمد باشا الصوفي والي مصر ٢٨ ج ٢
محمد بن ططر • سلطنته ٣٥٢ ج ١
محمد بن طغج امير مصر ١٨٢ ج ١
محمد بن عبد الرحمن امير مصر ١٣٠ ج ١
محمد بن عبد الملك امير مصر ١٢٢ ج ١
محمد عبده الشيخ ٣٤٨ ج ٢
محمد علي باشا • اصلاحاته ١٧٤ — ١٩٥ ج ٢

محمد علي باشا . حكومته ١٤٧-١٩٩ ج ٢
محمد علي . صفاته ومناقبه ١٩٥ ج ٢
محمد علي . الفرمان بولايته ١٧٠ و ١٧٢ ج ٢
محمد علي باشا الحكيم ١٩٠ ج ٢
محمد كريم حاكم الاسكندرية ٨٨-١١٠ ج ٢
محمد بن قايت باي . سلطنته ٣٥٩ ج ١
محمد بن كنداج امير مصر ١٨١ ج ١
محمد باشا الكورجي والي مصر ٢٧ ج ٢
محمد المهدى الكبير . الشيخ ٧٤ ج ٢
المحمل . اصله ٣١٠ ج ١
محمود باشا سامي البارودى ٢٤٠-٢٧٢ ج ٢
محمود الثاني . سلطنته ١٥٤ ج ٢
محمود بن مصطفى سلطنته ٤٨ ج ٢
محمود باشا والي مصر ٢٠ ج ٢
مختار بك اول ناظر المعارف ١٩١ ج ٢
مختار باشا الغازي ٣٢٨ ج ٢
المدارس ايام محمد علي ١٩٢ ج ٢
المدرسة الحربية ايام محمد علي ١٨٠ ج ٢
« الطبية بمصر . تاريخها ١٨٩ ج ٢
« المصرية في باريس ١٩٤ ج ٢
مراد بك من المماليك ٨٩ - ١٣٧ ج ٢
مراد بن احمد . سلطنته ٣٢ ج ٢
مراد بن سليم « ٢٢ ج ٢
المراقبة المالية ٢٣٣ ج ٢
مرتوع ملك مصري ٢٧ ج ١
مروان بن الحكم . خلافته ١١٥ ج ١
« بن محمد . خلافته ١٢٥ ج ١
مري ملك الصليبيين ٢٤٩ ج ١
مريوع . ملك مصري ٢٧ ج ١
مزاحم بن خاقان امير مصر ١٤٩ ج ١
مسح ارض مصر ١٣٤ و ٣٣٣ ج ١
المستعلي بن المستنصر ٢٣١ ج ١
المستعين . الخليفة ٣٥٠ و ٣٥١ ج ١
« بن محمد . خلافته ١٤٧ ج ١
المستكفي بالله . خلافته ١٨٧ ج ١
المستنصر بن الظاهر . خلافته ٢١٢ — ٢٣١ ج ١
مسلة المطرية ٢٩ ج ١
مسلمة بن عبد الملك حاصر القسطنطينية ١٢٠ ج ١
مسلمة بن عقبة محاصرته المدينة ١١٥ ج ١
« بن يحيى امير مصر ١١٤ و ١٣٣ ج ١
مسيح باشا والي مصر ٢٢ ج ٢
المشهد الحسيني ٢٤٣ ج ١
مصر والباب العالي ٢٤٥ و ٢٥١ ج ٢
مصر . حيواناتها ٧٤ ج ١
مصر . فتحها الاسلامي ٧٦ ج ١
مصر . فتحها ثانية ١٠٩ ج ١
مصر . الفتح العثماني ٣٦١ ج ١
مصر . حالها عند قدوم الفرنساويين ٨٦ ج ٢
مصر سكانها . احصاؤهم ٧٣ ج ١
مصر . لماذا جرد الفرنساويون عليها ٨٢ — ٨٥ ج ٢
مصر . مزروعاتها ٧٤ ج ١
مصر . وصف ابن العاص لها ٨٥ ج ١
مصر القديمة . جغرافيتها ١٥ ج ١

مصرايم . اصلها ١٥ ج ١
المصريون القدماء ديانتهم ١٨ ج ١
المصريون عند قدوم الفرنساوية ٨٦ ج ٢
مصطفى بن احمد . سلطنته ٥٥ ج ٢
مصطفى باشا لفغلي والي مصر ٣٠ ج ٢
مصطفى باشا البستانجي والي مصر ٣٨ ج ٢
مصطفى بن محمد . سلطنته ٣٠ و ٤٣ ج ٢
مصطفى باشا . والى مصر (الثاني) ١٩ ج ٢
المطابع ايام اسماعيل ٢٢٠ ج ٢
المطبعة الاهلية ١٩٥ ج ٢
المطرية . محلة قرب القاهرة ٢٩ ج ١
المطلب بن عبد الله امير مصر ١٣٧ ج ١
المظفر بن كيدر امير مصر ١٤١ ج ١
معاوية بن ابي سفيان ١٠٦ ـ ١١٤ ج ١
معاوية بن حديج السكوني ١٠٩ و ١١١ ج ١
معاوية بن يزيد . خلافته ١١٥ ج ١
المعز بن باديس ٢١٣ و ٢٣٠ ج ١
المعز لدين الله . خلافته ١٩٢ ج ١
المعتز بن المتوكل . خلافته ١٤٨ ج ١
المعتصم . خلافته ١٤١ ج ١
المعتمد . خلافته ١٥١ ج ١
المعظم بن صالح . سلطنته ٣٠٧ ج ١
المغيرة بن عبد الله امير مصر ١٢٥ ج ١
المفوض ١٥٧ ج ١
المقاييس بمصر ٩١ و ١٢٠ و ١٣٩
و ١٤٧ و ١٥٥ ج ١
المقتدر بن المعتضد . خلافته ١٨١ ج ١
المقداد بن الاسود من الصحابة ٧٩ ج ١
مقصود باشا والي مصر ٣٨ ج ٢
المقوقس صاحب مصر ٧٧ و ٨٠ — ٨٤ ج ١
المكتبة الخديوية . تاريخها ٢١٧ ج ٢
المكتفي . خلافته ١٨١ ج ١
الملك الصالح طلائع ٢٤١ ج ١
الملكية . طائفة مسيحية ٦٧ ج ١
المماليك . الامراء ١٥ ج ٢
المماليك اصلهم ١٤٢ و ٣٠٨ و ٣٤٤ ج ١
المماليك عند قدوم الفرنساوية ٨٦ ج ٢
المماليك . الكيد بهم ١٤٤ و ١٥٠ ج ٢
المماليك . مذبحتهم ١٥٨ ج ٢
منا . اول ملوك مصر ٢٣ ج ١
المنابر في الكور . اول من اتخذها ١٢٥ ج ١
منارة الاسكندرية ١٥٦ ج ١
المنائر . اول احداثها ١١٤ ج ١
المنتصر بن المتوكل . خلافته ١٤٦ ج ٢
منتوحتب . ملك مصري ٢٩ ج ١
منشور المهدي ٢٨٥ ج ٢
المنصور بن العزيز . سلطنته ٢٩١ ج ١
المنصور لاجين « ٣٣٣ ج ١
المنصور بن محمد . خلافته ١٢٨ ج ١
منصور بن يزيد الرعيني امير مصر ١٣٠ ج ١
المنصورة . بناؤها ٢٩٩ ج ١
منف . بناؤها ٢٣ ج ١
منفتاح الاول . ملك مصري ٤٣ ج ١
منكورع . ملك مصري ٢٦ ج ١
منيفس اله مصري ٢٤ ج ١
المهتدي . خلافته ١٥١ ج ١

المهدي الخليفة العباسي . خلافته ١٣٠ ج ١
المهدي السوداني . تعاليمه ٣٠٩ ج ٢
المهدي السوداني . حكومته ٢٨٥ ج ٢
المهدي السوداني حوادثه ٢٧٢-٣٢٥ ج ٢
المهدي . موته واوصافه ٣٠٧ ج ٢
المهدي الكبير . الشيخ ٩٨ ج ٢
المهدية . مدينة الفاطميين ١٨٤ ج ١
المهديون في الاسلام ٢٧٥ ج ٢
موت . اله مصري ٢٠ ج ١
موتسي بك مؤسس البريد المصري ٢١٩ ج ٢
مؤتمر الاستانة للمسألة العرابية ٢٥٧ ج ٢ و ٢٦٤ ج ٢
مؤتمن الخلافة ٢٥٥ ج ١
المورا . حربها ١٦٥ ج ٢
الموسكي . اصله ٢٨٨ ج ١
موسى بن بغا ١٦٠ ج ١
موسى بن ابي العباس امير مصر ١٤١ ج ١
موسى بن علي امير مصر ١٣٠ ج ١
« « بن رباح امير مصر ١٣٠ ج ١
« « عيسى « « ١٣٣ ج ١
« « كعب « « ١٢٨ ج ١
« « مصعب « « ١٣١ ج ١
« الهادي . خلافته ١٣٢ ج ١
« باشا والي مصر ٣٣ ج ٢
الموفق والمعتمد ١٥٧ ج ١
« وابن طولون ١٥٩ و ١٦٩ ج ١
المولد النبوي زمن الفرنساوية ١٠٩ ج ٢
مياه القاهرة . جرها بالانابيب ٢١٧ ج ٢
ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٢١ ١٨٤ ج ٢
الميزانية ومجلس النواب ٢٤٨ ج ٢
مينو . الجنرال ١٣٩ ج ٢
نابوليون . استعداده على مصر ٨١ ج ٢
ناصر الدولة ٢٢٣ ج ١
الناصر بن قلاون . سلطنته ثلاث مرات ٣٣١ — ٣٣٩ ج ١
ناصيف باشا . القائد العثماني ١٣٥ ج ٢
نبته . هيكل مصري ٣٩ ج ١
نجم الدين ايوب والد صلاح الدين ٢٦٧ ج ١
نخاو الثاني . ملك مصري ٥١ ج ١
نخروفس . « « ٢٤ ج ١
نزار وافتكين ٢٣١ ج ١
نفتيس . اله مصري ٢٠ ج ١
نفيس . ملك مصري ٢٣ ج ١
نقود الدراويش ٣٢١ ج ٢
النقود المصرية ايام العثمانيين ٣٦ ج ٢
« « الجديدة ٣٢٨ ج ٢
نكتانيتس . ملك مصري ٥٥ ج ١
نلسن قائد الاسطول الانكليزي ١٠٦ ج ٢
النهضة العلمية ايام اسماعيل ٢٢٢ ج ٢
« « في عصر عباس باشا ٣٤٦ ج ٢
النهضة المالية في مصر ٣٤٦ ج ٢
نوان ميامون ملك اثيوبيا ٥٠ ج ١
نوبار باشا ١٩٤ ج ٢
النوبة . فتحها ١٠٣ ج ١
النوبة . محارباتهم ١٥٦ و ١٩٠ ج ١

نور الدين زنكي صاحب دمشق ٢٤٥ و ٢٦٧ و ٢٧٠ ج ١
نور الدين علي بن ايبك. سلطنته ٣١٥ ج ١
نيتوقريس . ملكة مصرية ٢٧ ج ١
هارون بن خمارويه . حكمه ١٧٧ ج ١
هارون الرشيد . خلافته ١٣٢ ج ١
هاشم بن عبد الله امير مصر ١٣٤ ج ١
الهاشمية مدينة العباسيين ١٢٧ ج ١
هرثمة بن اعين امير مصر ١٣٣ ج ١
هرثمة بن نصر « « ١٤٤ ج ١
هرقل ملك الروم ٦٧ و ٧٥ ج ١
هشام بن عبد الملك . خلافته ١٢٣ ج ١
هفتكين الشرابي ٢٠٣ ج ١
الهلالي من خراج مصر ١٥٠ ج ١
همذان . قبيلة ٩١ ج ١
الهوارة . قبيلة ٦٠ ج ٢
هوروس . اله مصري ١٩ ج ١
هولاكو التتري . فتح بغداد وغيرها ٣١٦ و ٣١٧ ج ١
هونوريوس . امبراطور روماني ٦٧ ج ١
الهيروغليف المصري . حله ١٢ ج ١
هيكس باشا . حملته ٢٨٧ ج ٢
الواثق . خلافته ١٤٤ ج ١
الوجاقات من الجند ١١ ج ٢
واضح مولى ابي جعفر امير مصر ١٣٠ ج ١
واقعة توشكي ٣١٥ ج ٢
واقعة حطين ٢٧٦ ج ١
واقعة الطواحين ١٧٤ ج ١
الوزارات في ايام الخديوي الحالي ٣٣٣ ج ٢
الوقائع المصرية . انشاؤها ١٩٥ ج ٢
ولد النجومي لفتح مصر ٣١٤ ج ٢
الوليد بن رفاعة امير مصر ١٢٣ ج ١
الوليد بن عبد الملك . خلافته ١١٩ ج ١
« « يزيد . خلافته ١٢٤ ج ١
الوهابيون . اصلهم وتعاليمهم ١٥٥-١٥٨ ج ٢
الوهابيون . حربهم ١٦٠ - ١٦٣ ج ٢
وولسلي قائد الجند الانكليزي ٢٦٥ ج ٢
يافا . فتل حاميتها ١٢٤ ج ٢
يحيي بن داود امير مصر ١٣٠ ج ١
يزيد بن حاتم المهلبي امير مصر ١٢٨ ج ١
يزيد بن عبد الملك . خلافته ١٢٢ ج ١
يزيد بن معاوية . خلافته ١١٤ ج ١
« « عبدالله امير مصر ١٤٥ و ١٤٩ ج ١
« « الوليد . خلافته ١٢٤ ج ١
اليعاقبة . طائفة مسيحية ٦٧ ج ١
يعقوب بن كلس . الوزير ١٩٧ و ٢٠٣ ج ١
يعنخي . كاهن مصري ٤٥ ج ١
اليمانية والقيسية ١٣٥ ج ١
يوسف برس باي . سلطنته ٣٥٤ ج ١
يوسف باشا الصدر الاعظم ١٣٣ و ١٤٣ ج ٢
« « الشلالي ٢٨٣ ج ٢
يوليوس قيصر . القائد الروماني ٦٣ ج ١

انتهى الفهرس الابجدي

B93.718
J979

Ø5362270

AUG 9 1963

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58946888
893.718 J979 Tarikh Misr al-hadit